تاريخ وقواعد الحضارات

تأليف

فرناند بروديل

ترجمة وتعليق

سفير د. حسين شريف



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٩

الإخراج الفنى: ــــــــــــــــــــــــــــــــــ ماهر الشمسى

الحضارات ومقوماتها

يشمل الكتاب على دراسة لتاريخ الحضارات الإنسانية، وأهم الوقائع فى ماضى البشرية على مدى عصورها، وما تضم من أحداث وعبر، تؤدى بنا إلى إدراك مشاكل الحاضر أو المستقبل.

والكتاب ـ لمن هم على أعتاب خضم الحياة العامة ومعتركها من الشباب خاصة ـ دعوة إلى ما ينبغى من التصدى للمشاكل الاقتصادية والاجتماعية وما يسود المجتمع البشرى من صراعات وذلك فى ضوء الإلمام بتعدد الحضارات.

وعلى الجملة لتأهيلهم بحيث يستطيعون عند قراءة صحيفة يومية استخلاص كنه ما تسرد من أخبار ومعلومات. ولكن ترى هل يحدث ذلك؟ للأسف لا، فإن كثيرا من مناهج التربية اليوم إنما تخرج شباباً لا يعلمون عن الماضى والتاريخ شيئا، ذلك أن التاريخ وكتابته ـ وهو العنصر الرئيسى الذى يضم تجارب البشرية ـ

يواجه مشكلة كبرى، ومن ثم فلن يحظى بقابلية الحياة ضمير وطنى أو إنسانى بغيرها ولن يتيسر بدون هذا الضمير إنشاء ثقافة أصيلة عن الحضارات الحقيقية فى بقعة من بقاع الأرض أو مع شعب من الشعوب.

التاريخ والأزمنة المعاصرة

ولا سبيل إلى دراسة التاريخ المعاصر، بغير الرجوع إلى ما سبق من أحداث مرت بها الشعوب، ولا كذلك بالقياس إلى التاريخ الحقيقى لمختلف الحضارات الإنسانية بأسلوب ومنهج واضح، بعيداً عن المبالغات، حتى تتضح الصور الحقيقية التى إذا ما جمع بعضها إلى بعض، وجدنا أننا حيال لوحة إنسانية للحضارات، فيسهل عندئذ تفهم التاريخ الحقيقى للحضارات الإنسانية.

ولسوف يكون مجدياً تفسير لفظ الحضارة - ما استطعنا - تفسيراً واضحاً بسيطاً، كما نحدد ونفسر خطاً مستقيما، أو مثلثا أو جسما كيماويا، ولكن مفردات العلوم الإنسانية للأسف لا تتيح تفسيراً قاطعاً محدداً، إذ كثيراً ما تختلف التفسيرات من كاتب إلى آخر، ذلك أن الكلمات، كما يقول: «ليفى شتراوس» «الكلمات بالنسبة لكل منا أدوات نطبقها ونفسرها، على ما نهوى وندرك، طالما كانت فى خدمة مرامينا ونياتنا»، بمعنى أن الكلمات فى العلوم الإنسانية، كالفلسفة على سبيل المثال، تختلف معانيها، مهما كانت بساطتها على حسب فكر من يستخدمها أو يفسرها، فإن لفظ الحضارة، لم يستقر على تفسير محدد سوى عام ١٧٥٢ على يد «تيرجو»(١) الذى كان وقتئذ يعد موسوعته عن تاريخ البشرية والتى لم تنشر فى حياته، بل نشرت مع ظهور مؤلفات «ميرابو»، رائد الخطابة الثورية عام ١٧٥٦، بل إن «فولتير» لم يستخدم لفظ الحضارة، برغم إدراكه حقيقة معناها فى مؤلفه الذى صدر عام ١٧٥٦ بعنوان «دراسة سلوك وعادات وتقاليد الأمم» وكانت هذه الدراسة خاصة أول محاولة تاريخية جادة عن الحضارات.

ومعنى لفظ الحضارة إنما يعارض معارضة تامة لفظ همجية، فإن هناك شعوبا حضارية، كما أن هناك أخرى متوحشة بدائية أو همجية، بل إن بعض هذه الشعوب المتوحشة، بما تتسم به من طبيعة طيبة، لم يتفق على تسميتها بالشعوب الحضارية.

وانطلق تفسير لفظ الحضارة من فرنسا إلى أوربا بسرعة بالغة، مصاحباً فظ «الثقافة»، إلا أنه اصطدم بعديد من تفسيرات مختلفة من شعب إلى آخر، كما فى «ألمانيا وهولندا» حتى عام ١٨٣٥ ، حيث حاول «رومانيوزى» إطلاق لفظ Inciviementc ، بمعنى فكرة مسار الحضارة، تماماً كالحضارة نفسها، ولكن هذه المحاولة للاتفاق على لفظ تقبله الشعوب الأوروبية لم يتفق عليه بعد، بحكم اختلاف معانى الألفاظ من لغة إلى أخرى، ومن شعب إلى آخر.

ومع انتشار لفظ الحضارة، عبر بلدان أوروبا، فقد صاحبه لفظ آخر هو "Cueture" بمعنى الثقافة، مقارباً المعنى المقصود من لفظ الحضارة، وصار لفظ «ثقافة» صنواً للفظ الحضارة، وإن ظل ذلك أمداً يسيراً، إذ حدث عام ١٨٣٠ أن استخدم «هيجل» اللفظين بلا اكتراث أو تمييز بينهما، لولا أن الضرورة استدعت التمييز بينهما.

ذلك أن مفهوم الحضارة فى الواقع على الأقل مزدوج فهو يشير من جهة إلى القيم الروحية، كما يشير فى الوقت نفسه من جهة أخرى إلى القيم المادية. وسنرى أن «كارل ماركس» حاول التمييز بين (المادية Infnastnutunc) و (Supenstvuctures الروحية) وإن كان اللفظان مرتهنين فيما بينهما بصورة ضيقة، ثم رأينا «شارل سبندبوس» Seignobos فى إحدى نزاوته ومزاحاته يقول: إن الحضارة إنما هى الطرق والموانئ والأرصفة ولا تعنى الروح فقط، إنها كل المعرفة والخبرة البشرية المكتسبة، ويؤكد ذلك «مارسيل موس» Mauss والمؤرخ «كافينياك» "Cavaignuc" بقوله: إن الحضارة حد أدنى من العلوم والفنون والنظم والفضائل.

فقد أثار إذن لفظ الحضارة كثيراً من الجدل حول مفهومه وتفسيره حيث اتفق على الأقل على شموله مرحلتين إذ يميز كثير من المفسرين بين الماديات والروحانيات على اختلاف الأمم والمجتمعات، بل لقد وقع التناقض فى التفسير بين أفراد المجتمع الواحد على مختلف الحقب والعهود والمفسرين.

ففى ألمانيا ترددت التفسيرات والمجادلات التى سادت بين مفكريها، حتى طفت على السطح، المعانى والتفسيرات اللفظية المؤيدة لكلمة «كولتور Kultur

وانتهى الجدل إلى أولية ظفر بها هذا اللفظ، مع تقييم واع لما ينبغى من تقدير لفظ الحضارة، ونجد أن تونيز A. Tonnies (١٩٢٢) والفريد ڤيبر (١٩٣٥) يفسران اللفظ بقولهما: إنها لا تعدو طائفة من معارف فنية تتخذ منهجا، وممارسة عملية، أى مجموعة من الوسائل والطرق للتصرف إزاء «الطبيعة» أما لفظ «كولتور» ثقافة، فتعنى على العكس المبادئ المعيارية، والقيم والمثاليات، المشتقة من كلمة الروح أو الذهن أو العقل.

وربما فسر ذلك - إلى حد ما - الانعكاس الغريب الذى يبادر اليوم أى فرنسى اليوم، وهو يسمع للوهلة الأولى تفسير هذا المؤرخ المفكر الألمانى «ڤلهلم موش» "Wilhelm Momsen" إذ يقول: إن من واجب الإنسان، ألا يدمر الحضارة الثقافية، ويطغى عليها، ولا تسىء إلى تنقية الجنس البشرى وتلك جملة تثير فينا الدهشة، ذلك أن ما لدينا من لفظ الحضارة، يظل مسيطرا شائعا، كما هو فى إنجلترا أو الولايات المتحدة الأمريكية، على حين أن لفظ الثقافة (Cultur) فى بولندا وفى روسيا، هو الشائع المسيطر، كما فى ألمانيا أو ربما بسببها. وفى فرنسا لا تحتفظ كلمة الثقافة بقوتها إلا حين يتعلق الأمر بتحديد النمط الشخصى للحياة الذهنية والروحية، أو الإشارة إليه (هنرى مارو Marrou) بعكس ما يذهب إليه «بول فاليرى Paul Valery» الذى يؤكد أن لفظ الحضارة، إنما يعنى مجموعة القيم الجماعية المشتركة.

وهكذا تعددت التفسيرات وتنوعت مما أثار وضاعف من التعقيدات حيث تضيف تعقيداً آخراً يبدو كأنه أهم هذه التعقيدات التفسيرية كلها ذلك أن العلماء الذين كرسوا جهودهم فى البحث عن أصل الإنسان وتطوره وأعرافه وعاداته ومعتقداته وأغلبهم من سلالة الأنجلو سكسون ابتداء من أ.ب تايلور» E.B. Tylor فى كتابه «الثقافة الفطرية ١٨٧٤ قد استخدموا لفظاً مختلفاً عن كلمة «الحضارة» التطبيقية على المجتمعات البدائية التى يدرسون نشأتها وتطورها، مغايراً لما عبر به المفكر الإنجليزى عن المجتمعات الحديثة، وهذا التمايز والاختلاف فى التفسير هو ما سوف يواجهنا كلما تحدثنا عن أحدهما إذ نواجه وبنفس القدر اللفظ الآخر.

على أن صفة الثقافة لحسن الحظ هى أول ما ظهر فى ألمانيا عام ١٨٥٠ وصارت أنسب للمفكرين الألمان تشمل كافة مدلول لفظى «ثقافة وحضارة» ثم

صار لفظ الحضارة حول عام ١٨١٩ يستخدم مفرداً وإن دل على جمع، ومن ثم قيل حضارة أثينا فى القرن الخامس أو الحضارة الفرنسية فى عهد لويس الرابع عشر، ثم أصبح بتوالى العهود دلالة على جمع بالنسبة إلى إنسان القرن العشرين خاصة، وكذلك تعطينا المتاحف بدورها الإحساس بالغربة وتغرقنا فى خضم حضارات كاملة فى الأزمنة الماضية نستعيدها فى الزمان والمكان، فإذا ما عبرنا نهر الراين أو المانش بدا لنا البحر المتوسط وحضاراته التى لا تنسى بحيث يسهل علينا إدراك مصدر الحضارات التى سبقتنا.

فستعرف أن النار واكتشافها، والكتابة، وعلوم الحساب، وتدجين النباتات والحيوان، لا ترتبط كلها بأصل معين، بل تحولت كلها منافع وثروات جماعية للحضارات المتعاقبة.

ولذا فإن انتشار الثروات والمزايا الثقافية بين البشر، إنما تتخذ مدىً منفردا فى عالمنا المعاصر. فإن التقنية صناعة أنتجه الغرب على سبيل المثال سرعان ما ينتشر فى أنحاء الدنيا بصورة صارخة أحيانا بحسبانه تراثا إنسانيا ونجد البشرية نفسها سائرة في طريق طويل من التقدم يؤدى بها حتما إلى مرحلة بل مراحل كثيرة، فمنها ما هو فى صالحها ومنها بالطبع ما هو ضار بها ولن يكون سهلا فى عصرنا اليوم بما اتسم به من سرعة التداول وانتشار العلاقات والأنباء والمعلومات وقف سرعة انتشار المزايا التى تتيحها كل ساعة وكل يوم حضارات الأمم والشعوب وتقدمها.

وعلى الجملة، فإن كل حضارات الدنيا، سوف تصل فى وقت قَصُرَ أم طَالَ، إلى نوع من التماثل فى التطبيقات التقنية، وبالتالى تتماثل طرق المعيشة، وسرعان ما نجد رغم ذلك، أننا إزاء عدة حضارات متمايزة جداء، وذلك بحكم اختلاف البشر، وهو اختلاف طبيعى.

وسوف يكون لفظ الحضارة على المدى البعيد، سواء احتفظ بطبيعته الفردية أو الجماعية أو بهما معاً، لفظاً لا يتوقف أمامه المؤرخون، أو يترددون بشأنه فى الوصول إلى رأى صريح حازم قاطع.

الحضارة تتحدد ويتعرف بها
بالنسبة لمختلف علوم الإنسان

لا سبيل إلى تحديد مفهوم الحضارة أو التعرف عليه إلا فى ضوء شتى العلوم التى يحققها الإنسان بما فيها التاريخ الإنسانى.

وسنحاول فى هذا الفصل التعريف بالمعنى المجرد للحضارة باستمداد كل من الجغرافيا والعلوم الإنسانية والاقتصاد وعلم النفس على التعاقب أى أننا سنرتاد ميادين لا تشابه بينها، وإن بدا منذ البداية أن الردود التى نحصلها سوف تتقارب إحداها بالأخرى.

الحضارات.. مواقع

لابد مهما علت أو صغرت حضارة من الحضارات أن نجدها بدايةً متصلة ومرتبطة بأرض ما، وأن جزءاً كبيراً من واقعها قد كان رهنا بمتطلبات وميزات أتاحتها تلك الرقعة الجغرافية.. وبديهى أن هذا الموقع قد شمله ما تصدى له سكان هذا الموقع من تطوير وإضافات منذ قرون بل لعل الإنسان سكن بعض المواقع الجغرافية منذ آلاف القرون. ولذلك فما من موقع سكنه الإنسان إلا فيه أثر مما عمله وتركه شاهداً على ما أنجز من تطوير وتعهد دءوب أدى إلى تحسين ترابه على مر العصور وبإيجاز شديد ما من موقع سكنه الإنسان إلا طرأ عليه تطور

ملحوظ وتلمسته يد الإنسان بالتحسين والتغيير إلى ما هو أفضل، أو كما قال كارل ماركس: «إنه هذا النتاج الإنسانى بيد الإنسان ذاته».

فإن الحديث عن الحضارة إنما يعنى الحديث عن المواقع والأراضى وتضاريسها وعن المناخ والنبات وأنواع الحيوان ونوعيات ألوان النمو والتقدم ومظاهرهما سواء ما جاء عن الفطرة أو كان من صنع البشر.

وكل ما نجم وينجم للإنسان عن الزراعة وتربية الحيوان واستئناسه فضلا عن الأغذية والبيوت والملابس ومسائل النقل والصناعات حيث يتحكم المسرح الذى تجرى فيه هذه المظاهر التى لا تنتهى جزئيا فى هذه الإنجازات ويفسر إلى حد كبير خصائصها ومميزاتها. فالبشر يجيئون ويذهبون، وتبقى هذه المظاهر متشابهة.

ويذهب هرمان جوتيز Hermangoez عالم الهنديات إلى أن هناك ضدين أولاهما تلك التى يسودها المناخ الرطب والمستنقعات والأدغال والأزهار المائية الأخرى الجافة نسبيا بما يقطنها من بشر ذوى قسمات بشرة سمراء وكثيرا ما نجدهم مغرمين بالحروب والنزاعات وما الهند إلا ساحة الصراع بين هذين النوعين من البشر، أما البيئة، وهذا طبيعى فبيئة طبيعية، فضلا عن بيئة أخرى صنعها الإنسان ذاته على الرغم من أن البيئة لا تفسر كل شيء. وذلك أن ما يحرزه البشر فى كلا الجانبين من تقدم فطرى أو مكتسب إنما هو ما يحدد ملامح كلٍّ من الموقعين.

فإذا تحدثنا عن الميزات المكتسبة وجدنا أن المجتمعات التى استفادت من موقعها كانت المجتمعات النهرية فى العالم القديم على شواطئ النهر الأصغر (الصين) وشواطئ نهر الأندوس (الهند) ونهر الفرات (الحضارات السومارية وحضارة بابل وآشور ونهر النيل (الحضارة المصرية) ومثلها حضارات أخرى متصلة بموقعها وتسمى نبات البحر ومنها حضارة فينيقيا وحضارة اليونان والحضارة الرومانية. وإذا كانت مصر هبة النيل فهى أيضاً هبة البحر الأبيض المتوسط حيث تجمعات الحضارات الأوروبية الشمالية النشطة المجتمعة حول بحر

البلطيق وبحر الشمال وذلك دون أن ننسى دور المحيط الأطلسى ذاته وحضاراته، وتجمع تلك الحضارات حول المحيط تشابه تجمعات تلك الحضارات التى نشأت فى العالم الرومانى فى سالف الزمان حول البحر المتوسط.

وواقع الأمر فى هذه الحالات الكلاسيكية إنما تكشف بالذات عن أولوية دوران الاتجاهات الحضارية وأسبقيتها فلا سبيل لأية حضارة أن تعيش دون حركة ذاتية فكل منها تتغذى وتزدهر بما يثير التقارب من التبادلات والتصادم ومن ثم لا يمكن تصور الإسلام دون تقدير لحركة القوافل عبر تلك البحار الفاصلة بين الفيافى والصحارى والسهوب حيث لا يمكن تصورها دون تلك المسارات الملاحية فى البحر المتوسط وعبر المحيط الهندى حتى بلاد الصين.

ولسوف نجد أنفسنا حيال حصر تلك الميزات التى حققتها المجتمعات البشرية بعيدين عن تلك الميزات والنجاحات الطبيعية المباشرة وهى أساس الحضارات، فقهر وإخضاع الصحارى أو مواجهة التقلبات الفجائية فى البحر المتوسط واستخدام الرياح المنتظمة للمحيط الهندى وتحويل مسار نهر من الأنهار بالسدود ميزات اكتسبها وحققها أقوام فى تقدمهم ونموهم، ثم يبقى ما يثير التساؤل، فلِمَ نجحت عبر عصور كثيرة مجتمعات بشرية فى مواقع معينة ولم تنجح مجتمعات فى مواقع أخرى؟ على هذه التساؤلات يسوق أرنولد توينبى إحدى نظرياته المثيرة بقوله: إنه لابد أن نضيف إلى أى إنجاز بشرى إن الأمر يحتاج إلى تحد بالضرورة وكذلك إلى رد فعل قوى، إذ يؤيه أن تتمثل الطبيعة للبشر هيئة صعوبة تواجهه بالتحدى لقهرها، فإذا ما تحداها الإنسان خلق رد فعله إزاءها الأساس الحقيقى لحضارته، على أننا إذا ما أخذنا بهذه النظرية فهل نخرج منها بأن التحدى كلما زاد من جانب الطبيعة للإنسان ازداد رد فعله إزاءها؟ قطعا ذلك يبعث بنا إلى الشك فى تقبل هذه النظرية تقبلا تاما، إذ على الرغم من الفوائد التى لا جدال فيها كاستخراج الذهب والنفط فلم يستطع الإنسان مضاعفتها أو إنشاء حضارات حولها. وهكذا نرى أن التحديات قد وجدت بالفعل، كما نشأت ردود الأفعال إزاءها، كذلك وإن لم يكن عليه بالضرورة أن يخلق هذا المناخ حضارة ما، اللهم إلا أن يجد الإنسان يوما وسائل تقنية حديثة يواجه بها هذه التحديات.

فكل حضارة مرتبطة إذن بموقع ذى حدود تكاد تكون ثابتة ولكل حضارة جغرافيتها، وإمكانيات لا تتوافر لحضارة أخرى، ومن ثم نرى مجتمعات تميزت بمساكن خشبية وأخرى من الطين المخلوط بالقش وأخرى مساكنها حوائط من خيزران أو من أحجار، وأخرى تميزت بمختلف المنسوجات كالصوف والأقطان والحرير، كما رأينا مجتمعات ذات منتجات غذائية كبيرة أساسها الأرز والذرة والقمح، وعلى ذلك تختلف التحديات وتتنوع وبالتالى تتنوع وتختلف ردود الأفعال إزاءها. أليست الحضارة الغربية أو الأوروبية، حضارة القمح والخبز بل والخبز الأبيض مع الضغوط التى تفترضها، ذلك أن القمح نبات يحتاج إلى متطلبات عديدة ولنفكر فقط ما تحتاج إليه زراعته من وجوب انقضاء زمن فى أعقاب زراعته، واحتياج الأرض لفترة من راحة ، أما أراضى زراعة الأرز التى تغمر بالمياه لدى سكان الشرق الأدنى تفرض هى الأخرى على السكان مواجهات عديدة وتحتاج إلى فترات راحة وهكذا ردود أفعال الإنسان لا تفتأ وفى نفس الوقت من تحريره من المجتمع الذى يحوطه وإخضاعه للحلول التى تصورها للمواجهة، وهكذا يواجه الإنسان حتمية معينة يخرج منها ليواجه حتمية أخرى، وكان من الضرورى والطبيعى مع تنوع واختلاف هذه الحتميات أن ينوع كذلك من أنواع وأنماط الحضارات والثقافات، هكذا اتفق علماء الاجتماع والمؤرخون والجغرافيون وعلماء الأجناس كما يقول مارسيل موس Marecl Mauss كانت الشعوب التى تقطن سواحل المحيط الهادى الواسع حيث نشأت الحضارات البدائية الأولى على الرغم من عمق الاختلافات.

أما الحضارات المسماه بالغربية وهى فى الوقت نفسه الحضارة الأمريكية للولايات المتحدة الأمريكية وأمريكا اللاتينية، كذلك روسيا وأوروبا بداهة، وهى نفسها سلسلة من حضارات بولندية وألمانية وإيطالية وإنجليزية وفرنسية ... إلخ بغض النظر عن الواقع الذى يشير إلى تميز هذه الحضارات بدورها بين حضارات أحدث تتفرع منها مثل كل من الحضارة الأسكتلندية والإيرلندية وكل من حضارة كاتالونيا وصقلية وشعوب الباسك (بين فرنسا وأسبانيا) .. إلخ وكل منها تعطى وتأخذ من الثقافات، ولم تكن الحدود بينها حائلا دون التداخل والتزاوج أحيانا

واليوم فإن انتشار الثقافات قد أخذ طابع سرعة الانتقال من مجتمع إلى آخر، ولن يطول الوقت الذى تتأثر به كافة أركان الأرض بالحضارة الصناعية الأوروبية، وقد بدأنا نرى كم تأثرت حضارات وطبائع لشعوب كثيرة من الأفلام الأمريكية والأوروبية وهى تغزو مجتمعات بعيدة عنها وأثرت فى أذواق شعوبها. بل وفى عاداتها وتقاليدها الموروثة.

الحضارات.. مجتمعات

ما من حضارة بدون مجتمعات تنميها بشدها وجذبها وبتطورها وتقدمها ثم يتجلى السؤال الأول الذى لا سبيل إلى تجنبه «هل كان حتما اختلاق هذه الكلمة «الحضارة» ثم محاولة رفعها إلى المستوى العلمى بما تعنى مرادفا آخر لها هو المجتمع ذلك ما أقام توينبى Toynbee على استعماله من لفظ المجتمع فى حديثه عن الحضارة بل ويذهب مارسيل موس Marecl Mauss إلى أبعد من ذلك فيقول: إن كلمة حضارة بطبيعة الحال أقل وضوحا من لفظ المجتمع الذى تعنيه على أن المجتمع بعامة - يستحيل فصله عن الحضارة كما لا يمكن فصل لفظ الحضارة عن لفظ المجتمع فالكلمتان تعبير صادق عن حقيقة واحدة عن مفهومين منفصلين بل يعبر كل منهما عن منظورين متكاملين فى موضوع واحد يثيره إيضاحا لوجهة نظر تأخذ بأى منهما.

فلفظ المجتمع إنما ينطوى على محتوى أكثر ثراء، ومن ثم تعزى الحضارة الغربية التى نعيشها إلى المجتمع الصناعى الذى نحيا فيه. فيسهل عندئذ وصفها عند محاولة الإشارة إلى ما يسودها من قيم فكرية ومعنوية ومثل ومظاهر وتناسق وذوق وباختصار فليس لفظ الحضارة إلا المرآة التى تنعكس عليها أحداث مجتمعها أو السجل الذى يحفظ على المجتمع ملامحه بكل اختلافاتها من تقدم وضغوط.وربما أخذنا فى اعتبارنا ما سجلته المجتمعات المعاصرة وأعكستها ظروف المجتمعات القديمة وما بينهما من فروق واضحة وبروز هذه النزعة الواضحة لإرساء قواعد أكثر نظامية لسير الأمور فى المجتمعات الحديثة عن تلك النزعات الفطرية التى جبلت عليها هذه المجتمعات القديمة وهو ما انعكس بدوره

على العلاقات الإنسانية وكانت تتحول أحيانا كثيرة هذه العلاقات ذاتها إلى نزعات بل وثورات عارمة وصراعات سياسية دائمة.

ولاشك أن من السمات الأقوى الفروق الواضحة بين الثقافات والحضارات قيام المدن أو غيابها مع فواصل طبيعية بين هذا التواجد وهذا الغياب فنجد مثلا أن أفريقيا السوداء مجتمعات تقليدية تشتبك فى صراعات تبدو أحيانا وحشية بل ضارية فى سبيل إرساء قواعد حضارات وليدة لخلق مناهج سكنية معاصرة. فمدنها التى من الواضح أنها ترنو إلى تقليد النموذج الخارجى وانعكاساته على المجتمعات ما هى إلا مجموعة من الجزر وسط بلاد راكدة بتاريخها السابق الخامل، ومن هذا المنظور ترى هذه البلاد وتفهم الحضارة القادمة على حين تفترض الحضارات والمجتمعات الأكثر ازدهارا وتقدما أن بين أسوار مدنها ثقافات متعددة لمجتمعات توفر الغذاء. ولننظر إلى هذا الحوار الدائر بين المدن والقرى الريفية فى كافة المجتمعات إذ كان أن التنمية لا يمكن أن تكون بكل المناطق وكل الفئات من مناطق وفئات السكان فنجد دائما مناطق متأخرة تجاهد لبلوغ نوع من النمو الحضارى شأن المناطق الجبلية المعدمة النائية بعيدا عن العمران وشبكات المواصلات وهى مجتمعات بدائية خالصة وسط مجتمع حضارى وكان أول نجاح للغرب من غير شك بخاصة فى اجتذاب هذه المناطق الريفية النائية البعيدة عن العمران وتخليصها من ثقافاتها القروية وإدماجها قدر المستطاع فى ثقافات المدن المتقدمة.

وفى الإسلام نجد الفروق الازدواجية أوضح بالقياس إلى المجتمعات الغربية، إذ نجد المجتمعات الإسلامية فى المناطق الآهلة أكثر استقرارا وتقبلا لوضعها على خلاف المجتمعات الغربية فى أوروبا بحكم ما فى هذه المجتمعات الإسلامية من مناطق بدوية شاسعة حيث الانفصالية فى الشرق الأدنى هى القاعدة السائدة إذ ظلت الثقافات فى شبه عزلة متقوقعة حول نفسها إذ نجد بين المدن المتقدمة قرى منغلقة تتداخل وتعيش باقتصاد شبه منغلق أو متوحش أحيانا، ولابد بحكم العلاقة الوطيدة بين الحضارة والمجتمع أن تتخذ لبوس علماء الاجتماع كلما تعرضنا لدراسة تاريخ الحضارات الطويل. إلا أننا نحن كمؤرخين لا نخلط على أى حال

بين المجتمعات والحضارة. وسوف نشرح فى الفصل التالى بم تتمثل فى نظرنا هذه الفروق على امتداد الزمن؟ إذ تتجاوز الحضارة الأحقاب الزمنية حقائق المجتمعات التى تقودها.

الحضارات . اقتصاديات

ما من مجتمع أو حضارة إلا كان نابعا من منجزاتها الاقتصادية والتكنولوجية التقنية والبيولوجية والديمغرافية وظروفها المادية عامة، فأما البيولوجية فلها تأثير بلا نهاية له على مصير الحضارة، فانخفاض أو ارتفاع عدد البشر، ازدهار أو تدهور الصحة العامة، انطلاق وازدهار أو تدهور الاقتصاد أو العوامل التكتيكية تنعكس عبر البنيان الثقافى كما تنعكس عبر البنيان الاجتماعى والاقتصاد السياسى فى معناه الشامل هو دراسة كل هذه المسائل الهائلة.

ولقد كان الإنسان هو الأداة الوحيدة التى حركت هذه الأمور، فهو من ثم هو الصانع الأوحد لكل حضارة مادية ومشيدها صنعها بيديه. وواقع الأمر منذ البداءة أن ارتفاع عدد السكان فى المجتمع يؤدى إلى ارتقاء عناصر الحضارة كما وقع لأوروبا فى القرون الثالث عشر والسادس عشر والثامن عشر وكذلك القرن العشرين.

وقد ارتبط ازدهار هذه المجتمعات بارتقاء الازدهار الاقتصادى، على حين يؤدى ازدياد عدد السكان مع تدهور الاقتصاد إلى مشاكل المجاعة أو انتشار الأمراض والأوبئة، كما نشهد اليوم فى أغلب شعوب العالم الثالثة وما تعارفنا على تسميته اليوم بالعالم النامى، وذلك فضلا عما يصيب هذه المجتمعات من تدنٍ فى الأجور وانخفاض العائد من العمل ومن ثم فريما انطلقت الانقضاضات الشعبية الثائرة حيث تشب عديد من الثورات.

وقد شهدنا فى أوروبا فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر وباء الطاعون الأسود وما أعقبه من مجاعات. جعل المجتمعات التى اجتازت تلك الدورات من الانحسار فعاشت فى ظروف أفضل وأيسر مما سبقها بما استأنفت من أسباب الازدهار حيث قلت أعداد السكان وظلت تتمتع به أمدا غير يسير وكأنما كان ذلك

دورة حضارية طبيعية من ازدهار ثم تدهور يعقبه ازدهار ومن ثم فلم يكن غير ظهور حركة التصنيع وازدهارها فى نهاية القرن الثامن عشر والتاسع عشر قاضيا على تلك الحلقة الجهنمية فمنحت الإنسان أو بالأحرى ردت إليه قيمته وفرصة العمل والعيش، ويوضح تاريخ أوروبا هذه القيمة المتنامية للإنسان، فكان من نتيجة ذلك الدفع الحضارى الصناعى أن نما اقتصاد تلك المجتمعات التى أدركت ما تتيحه الصناعة التى تقدمت باختراع الآلات المحركة وتطورها.

أما المجتمعات القديمة من يونانية ورومانية فلم تدرك منزلة الصناعة إذ انغمست فى الاستحواذ على العبيد واستخدامهم فى الترفيه والخدمات فلم تزدهر هاتان الحضارتان بل كان مآلهما الاندثار وكذلك الحضارة الفينيقية التى نشأت قبل القرن الثالث عشر بمفاهيم روحية راسخة لولا أنها للأسف لم تدرك خطر التقدم الصناعى التقنى وبذلك ظلت مجتمعاتها تعج بجماهير هائلة لا قيمة لها لم تستطع برغم الكم الهائل من روحانياتها تخطى عتبة التصنيع الحديث وتركت لأوروبا تلك الميزة وهذا الشرف وذلك المكسب.

على أن انعكاسات التقلبات الاقتصادية والحياة الاقتصادية ذاتها لا تفتأ تتذبذب بين صعود وهبوط وهى ذبذبات تقع قصيرة أحيانا وطويلة أحيانا، فإذا بأزمات الرخاء وأزمات الكساد فى المجتمعات تتعاقب السنون والأيام وتشكل المجتمعات وحضاراتها ازدهارا وكساداً عندما تمتد زمنا يطول، وعلى سبيل المثال نجد أن التشاؤم وعوامل القلق التى صاحبت القرن الخامس عشر قد وضعت له حدا وأنهت عصرا اتفق على تسميته تجريف القرون الوسطى وهو ما أثار انزعاج الغرب من التدهور الاقتصادى، ثم كان فيما بعد تزامنت الحركة الرومانسية بفروع الاتجاهات الأدبية والفنية وفلسفاتها فى البلاد والمجتمعات الأوروبية مع انحسار اقتصادى طويل بين أعوام ١٨١٧ أو ١٨٥٢، أما الامتداد الاقتصادى للنصف الثانى من القرن الثامن عشر فيما بعد عام ١٧٣٣ فقد عرف ولحقته بعض فترات من توقف عشية الثورة ولكن التصاعد المثمر على الحملة قد حل محل التصاعد والنمو الثقافى لعصر التنوير وذلك فى سياق ومضمون من الرفاهية صاحبه ازدهار التجارة النشطة وازدهار الصناعات وتصاعدها فى عدد السكان، على أن مهما

تصاعدت أو انخفضت التذبذبات فى اتجاه أو آخر فإن الحياة الاقتصادية تكاد تميل دائما إلى خلق «فائض» فإذا ما رأت المجتمعات تبديده عاد باختفاء نوع من الترف الحضارى فى هيئة ازدهار الفنون والآداب نلاحظها اليوم إذ يثير إعجابنا ما نراه من بدائع فنون العمارة والنحت وفنون التصوير، ولعلنا لم ندرك عند ملاحظة هذه الإبداعات أن الأمر لم يكن سوى نزعة أمير يميل إلى الزهو والخيلاء أو رجل أعمال تكدست فوائض أمواله وراءها.

وقد كان فى ربوع أوروبا منذ القرن السادس عشر أن ارتبط المستوى الحضارى ارتباطا عضويا بازدهار الرأسمالية ونموها وتدفق الأموال فى المجتمعات.

وكما تتشكل الحضارات على أسلوب يؤدى إلى اختلاف مستوياتها بين أعلاها وأدناها فإن مستويات القمة التى تستخدم الفائض فى خلق الفنون الترفيهية وحيازتها واقتناء العمارات والتحف واللوحات والتماثيل، أما المستويات الأدنى فينحصر اهتمامها إلى تحسين وسائل معيشة الجماهير.

ومن ثم لم يكن هناك كما رأينا فى الفترات الاقتصادية الصعبة من عصر لويس الرابع عشر من نصير ومعين للأدباء سوى رجال البلاط الملكى وأمرائه منحصرة فى دائرة ضيقة، وكذلك كانت أيام الازدهار السعيدة والتسهيلات الاقتصادية فى القرن الثامن عشر أن أسهمت الأرستقراطية والبرجوازية بسخاء زائد فى نشر المعرفة الثقافية والعلوم النظرية، والحركات الفلسفية التى عرف بها وتقدمها هذا القرن، ومع ذلك فقد ظلت الدائرة محدودة لامتياز أقلية فى المجتمع إلى جانب أفراد الأسرة المالكة، أما حضارة الطبقة الدنيا أى حضارة الحياة اليومية للطبقات المتواضعة الفقيرة فلم يكن لها مساهمات تذكر، ولذلك كان غالبا ما تمثل الطبقات السفلى للحضارة مستواها الحقيقى، مستوى يثير التساؤلات: ما هى الحرية؟ ما هى ثقافة الفرد؟ متى يكون المستوى الأعلى الحياتى بعيد المنال؟ ومن هذه الرؤية عن القرن التاسع عشر فى أوروبا، عصر انحطاط نسبى وعصر الأغنياء الجدد أى عصر البرجوازية المدعية الغازية وهو العصر الذى أعلن عن مصير جديد للحضارات، وها هى مدعوة أكثر فأكثر إلى نوع من الحضارة الجماعية ومما لاشك فيه ولا حاجة للقول أن ثمن مثل هذا التحول كان عبئا

اجتماعيا ثقيلا ولكن المقابل قد اتضحت أهميته بتقدم التعليم والنفوذ إلى الثقافات وانتشار الجامعات وبالتالى ارتفاع المستويات الاجتماعية حتى برغم انتشار الآثار الثقيلة التى ترتبت عليه فى القرن التاسع عشر.

والمشكلة الكبرى اليوم وغدا هى خلق حضارة تكون فى الوقت نفسه حضارة نوعية وقدرا من تكتلات البشرية فى المجتمع وهى برغم ما يعترض تحقيقها من تكلفة باهظة مخيفة أحيانا فهى ضرورية إذا ما أردناها فى خدمة المجتمع، ولا يمكن تصور تحقيقها دون أن تتجه المجتمعات إلى تحقيق الوفرة اللازمة التى تمكن للتحول الآلى على تحقيقها البشرية وهو المظهر الذى نلحظه فى الدول الصناعية قريب المنال، إلا أن الأمر يزداد برغم هذا - تعقيدا على مستوى العالم بأسره ذلك أن التقارب بين المستويات الحضارية. والتفاوت الاجتماعى والمادى بين الدول. وخاصة ما اصطلحنا على تسميته بالعالم الثالث الذين يعيشون على أرضه حتى ينحصر فى الحد الأدنى لمعيشة لائقة قبل التفكير فى الولوج إلى نطاق الحضارة وهى غالبا ترف لا تعرفه هذه الجماهير، ومما لاشك فيه أن الإنسانية كلها يجب أن تعمل على إزالة هذا التفاوت الرهيب بين هذه المجتمعات وإلا فقدت كل ما حققته مجتمعات أخرى من تقدم حضارى وسيكون فقدانا للأخضر واليابس وهو ما يمثل كارثة بكل ما تعنيه هذه الكلمة.

الحضارات.. فكر جماعى

بعد الجغرافيا وعلوم الاجتماع والاقتصاد يلزمنا علم النفس بمواجهة أخيرة تتعلق بالنفس البشرية وهى ليست سوى علوم تفتقد الثقة فى نفسها خاصة علوم النفس الجماعية، فإن العلوم التى توصل إليها الإنسان أثيرت حولها اتهامات كثيرة وشابها كثير من الخلاف ولكنها لم تغامر بالوقوف أمام سريان التاريخ إلا نادرا، فعلوم النفس البشرية علوم متشعبة لا يسهل التفصيل بينها فالحياة النفسية والشعور والوعى ليست سوى مجموعة من الأدوات أو الآليات تساعد على أن تميز إنتاج باكورة العلوم النفسية الجماعية إذ تتأثر بها المجتمعات، فهناك علماء اختلفوا فيما بينهم على التفسيرات، ولا أهمية لاختلافاتهم فالأمر لا يرتبط بهم، فقد نجد على مر عصور كثيرة، فى كل عصر تفسيرا يغاير ما استقر على فهمه من العقليات

البشرية وتفسيرات معينة يتمسك بها الناس؛ مغايرة لما كان مأخوذا به من قبل، وتصل هذه التفسيرات إلى حد العقيدة الراسخة فى عقول البشر، ومن ثم تؤثر فى فهم المعتقدات وتوجهه الاختيارات وتعمق جذور الآراء المسبقة وتحرك رغبات المجتمعات البشرية وميولها وهى بلاشك من أعمال الحضارة وأكثر من الأحداث أو الظروف التاريخية أو الاجتماعية لعصر من العصور ذلك أنها ثمرة ميراث قديم سحيقة من عقائد ومخاوف وقلق ولا شعورية غالبا وهى واقع الأمر أنها آثار عدوى توارثتها الأجيال وضاعت جراثيمها فى الماضى السحيق.

إن ردود أفعال إحدى المجتمعات تجاه الأحداث الجارية والضغوط التى تتعرض بسببها إليها والقرارات التى تضطر إلى مواجهتها إنما هى ردود أفعال لا تخضع كثيرا للمنطق أو حتى تراعى المصلحة الذاتية وأحيانا المصلحة الذاتية الأنانية التى تتفجر تدفقا من اللاشعور الجماعى.

وهذه القيم الجوهرية وهذا البنيان النفسى هما بكل تأكيد أمل ما تعززه الحضارات من نتائج وعوامل لا اتصال بينها الواحد نحو الآخر وهو ما يعزلها بعضها عن بعض ويميزها بصورة أو أخرى ثم إن هذه العقليات كذلك أقل إدراكا وإحساسا بضربات الزمن وصروفه، إلا وبعد أعراض طويلة هى نفسها لا شعورية.

وهنا نجد أن الدين هو الخط الأقوى فى قلب الحضارات ماضيها وحاضرها معاً.

ونجد منذ البداية على خلاف ما كان فى الحضارة الأوروبية أن فى الهند على سبيل المثال الحياة تتشكل وتتخذ مسوغاتها من الممارسات الدينية لا من التفكير العقلانى، ومن الشائع حكاية الفيلسوف الهندى سقراط مع آخر من فلاسفة الهند إذ طلب إلى سقراط بأن يفسر ويحدد فلسفته فرد سقراط قائلا: إنها دراسة الحقائق الإنسانية، فانفجر الفيلسوف الهندى ضاحكا وقال: كيف لإنسان أن يدرس الحقائق الإنسانية وهو يجهل الحقائق الإلهية السماوية. وإزاء هذا التواضع والخشوع الدينى يبدو الغرب أحيانا كمن فقد منابعه ومصادره الدينية ولابد مع هذا الإشارة إلى أن هناك نوعا من التعايش أو التزاوج بين العلمانية والعلوم والدين فالمسيحية من

الحقائق الحياتية الغربية وأنها دون أن تدرى أو تعرف أحيانا تصل إلى ترسيخ الزندقة وقواعدها والحقائق التى تواجه بها الحياة والموت ومعانى العمل ومفاهيمه وقيمة المجهود ودور المرأة أو الطفل، وكم من سلوكيات ليست بحال من سلوكيات المسيحية ومع تبدو بعير الحق من توابعها.

ولابد من الاعتراف بأن الحضارة الغربية كلما نمت وازدهرت بدت وكأنها تبتعد عن المفاهيم الدينية وتقترب أكثر فأكثر من التفكير العقلانى أى نوع من التحلل والتحرر من السلوك الدينى حيث لابد من الاعتراف بتفردها فى هذا الاتجاه ولم يحدث مثل هذا التحرر كما حدث فى الغرب إذ توشك الحضارات كلها أن يغمرها ويكتسحها العنصر الدينى وما يفوق الطبيعة والسحر من عناصر تستمد منها أقوى مسوغاتها وحياتها وكيانها.

الحضارات . . سلسلة متصلة الحلقات

سوف يؤدى أى حديث عن الحضارات بالضرورة إلى طرق موضوع التاريخ وأبعاده وتفسيراته بكامن حضارة حالية يمكن إدراكها دون التعمق فى سبر أغوارها ومعرفة مسالكها والتجارب التى اجتازتها إذ أن الحضارة وإن كانت ماضياً فهو ماض نابض بالحياة.

ثم إن تاريخ حضارة ما بالتالى هو التنقيب بحثا عن أطوار توافقاتها القديمة والتى ظلت ذات القيمة محسوسة حتى اليوم. فليس الأمر أن يقال لنا ما يمكن معرفته عن الحضارة اليونانية أو حضارة الصين فى القرون الوسطى على سبيل المثال، وإنما الأهم هو أن يوضح لنا ماذا بقى من الحياة فى هذا الزمان الغابر ولازالت تفاعلاته ظاهرة أى كل ما كان ماضيا وحاضرا متصلا أحدهما بالآخر بتيار دوار يظل متفاعلا عبر أجيال متباعدة.

نبدأ منذ البداية باختصار فنقول إن كل حضارة بالأمس كما هى اليوم تتضح معالمها للوهلة الأولى بسلسلة من المظاهر مثل رواية أو مسرحية مثيرة أو كمعرض فنى لرسومات زيتية أو نجاح كتاب فى موضوع ما أو ظهور نظرية فلسفية أو نجاح معرض أزياء أو كشف علمى أو نظريات فنية أى كل هذه

النظريات والأحداث الواضحة والظاهرة والمنفصلة إحداها عن الأخرى، فعلى سبيل المثال ليس هناك ارتباط ما بين فلسفة مارلو ولوحة قماش من صنع بيكاسو، وهذه المظاهر الحضارية تكون عادة ذات بقاء قصير فكيف إذن تقودنا إلى نحو التنسيق بينها أى بين قديمها وحاضرها بينما هى فى الواقع تبدو كأنما وهى تتعاقب تتقوض إحداها بالأخرى بدلا من أن تتفاعل بغية الاستمرار ولا أحد يهتم بطول تصدرها قائمة الاهتمام، ويبدو هذا التحول والتغيير بل ويبدو من تعاقب المظاهر الأدبية أو الفنية أو الفلسفية كأن كلا منها منغلق على ذاته حيث يمكن القول إذا ما استخدمنا لغة الاقتصاديين بأن هناك أحوالا وظروفا أدبية مواتية، كما أن هناك أحوالا اقتصادية مواتية كذلك بمعنى تقلبات قد تكون طويلة أو فجائية، وغالبا ما تتعاقب وتتوالى فى تناقض شديد وأسلوب عنيف وقد يتغير كل شيء من عصر إلى عصر أو يبدو كأنما يتغير حيث يمثل عصر النهضة فيها بماله وعرف عنه من أفكار وألوان ثقافية خير مثال بل وبما له من ملامحه وعاداته ونوادره التى عرف بها فضلاً عما كان يثيره من انفعالات وأهداء وانعكاسات أدبية أو فلسفية وفترات انغلاقية وقد نقول، مستخدمين لغة الاقتصاديين، بما كانت هناك من فترات ثقافية كما كانت هناك فترات وتحولات اقتصادية أى بما يعنى تذبذبات وتحولات فجائية أو ممتدة وغالبا ما كانت تتوالى وتتابع فى تنافس يثير العجب والدهشة إذ يتغير ويتبدل كل شيء من عصر إلى عصر أو يبدو كأنما يتبدل كما يقع فى المسرح فمن ميل إلى حب كل ما هو جميل وإثارة جدل ينزع إلى التسامح وحب الحياة بما كانت تعاصر كشف آثار الأقدمين والعصور السالفة التى أسهمت فيها أوروبا إسهاما كله افتتان وشغف إلى أحقاب روما لسنة تشكل العواطف فيها السمة البارزة (من عام ١٨٠٠ إلى عام ١٨٥٠) وإن كان بطبيعتها بروز العواطف ومظاهر الذكاء والإحساس على فترات خلال عصر القلاقل والانحسار والتقهقر الاقتصادى فى ربوع أوروبا كلها بين أعوام ١٨١٧ و ١٨٥٢ على أنا يقينا نريد القول بأن هذا الانحسار الاقتصادى وحده هو الذى يسوغ أو ينشئ هذه الموجة من القلق العاطفى فقد أتت كذلك أزمان اتسمت بحرية الفكر بعيدة عن أى مضمون فلدى كل شغفه إنكار ما سبقه من أجيال بما سوف نرده لها

الأجيال القادمة وبناء على ذلك فقد كانت هناك دائما ذبذبات لا نهاية لها بين الرومانسية (العاطفة) أو عصر الباروك وهو العصر الذى اتسم بالأسلوب الفنى الذى ساد فى القرن السابع عشر وتميز بالزخارف والحركية والحرية فى الشكل وبين الحركات الكلاسيكية (الأدب النهجى الاتباعى).

وكانت الصورة السائدة حركية مستمرة، فكل حضارة مثلها مثل كل تطوير اقتصادى لها إيقاعها ومعدلاتها وهى تتمثل من التاريخ كمرحلة يتخللها خسوف وكسوف من الممكن تقسيمها حقبا شبه مختلفة الواحدة عن الأخرى فى تتابعات متصلة.

وهكذا سمعنا من يقول عن عصر لويس الرابع عشر بأنه عصر النور والضياء والإشعاع وكذلك عن حضارة القرن الثامن عشر بأنها عصور حضارية اتسمت بالاختراعات وتلكم حضارات تفترض نوعا من الاستمرار برغم ما يبدو فيها أحيانا من تناقضات ذلك فضلا عن أن التعدد والتوحد لا يتوقفان على المواجهة والعيش معا وهذه التحولات وهذه الأحداث وتتابع تلك الوقائع والمشاهد وتعاقبها إنما تعادننا على إدراك المكانة الخاصة التى تحتلها فى سجل التاريخ حضارة عرفت واتسمت بأحداث معينة أو شخصيات معينة ذات ندرة ميزتها عن غيرها.

فكل حدث عند النظر إليه عن قرب ممكن تحليله فى صورة سلسلة فى الأدوار والتصرفات وما الحضارات على كل حال إلا طائفة من الناس فلا نهاية من ثم للتصرفات والأدوار ولا نهاية لمشاعرهم أو ارتباطاتهم بل ولا كفاءاتهم وثوراتهم.

ومن بين هذه الوقائع، سجلت مع ذلك، تلك الأعمال والأحداث من تحولات ومراحل جديدة تزداد قيمتها بقدر نتائجها كالذى وقع عند كشف قانون الجاذبية الأرضية «نيوتن عام ١٦٨٧» فضلا عن أحداث كثيرة أخرى كالذى كان من اختراع العالم الفرنسى دينيس بابان Denis Parin (١٦٤٧ ـ ١٧١٤) الآلة البخارية.. وسمى أبا الحسابات الضئيلة (الحساب التفاضلى) غير أن ما يهيمن على تاريخ الحضارات من الأسماء إنما يجتاز من العوائق ما تجتازه سفينة من عواصف وذلك على سبيل المثال لا الحصر: Dante دانتى (١٢٦٥ ـ ١٣٢١)

والفيلسوف جوته Goethe (١٧٤٩ ـ ١٨٣٢) وإليهما نضيف عالم الفيزياء نيوتن Newton أواخر عصر الحداثة الأوروبية إذ أدت علومه إلى مولد الفيزياء الحديثة التى تعرف اليوم مبدعها العالم الرائع ألبرت أنيشتاين Albert Einstein (١٨٧٩ - ١٩٥٥).

ومؤسسو النظريات الكبرى الفكرية تعود إلى هذه المجموعة المميزة من المفكرين والفلاسفة، سقراط وأفلاطون وكونفسيوس وديكارت وكارل ماركس إذا اتسعت أفكارهم لتشمل أجيالا وعصورا، كانوا مؤسسى حضارات لاشك وإن كانوا أقل منزلة من أولى الشهرة العظمى من مؤسسى الأديان قبل بودا والمسيح ومحمد فهم الذين سلطوا الأضواء. وما بنا من حاجة إلى القول على مايزال يسطع حتى اليوم. وعلى الجملة فإن المقياس الذى نتخذه للحكم على مكانة كل مؤسس أو مخترع إنما هو المقياس الذى يستطيع به الحدث أو الشخص لتبوئه مكانته وذلك وفق الحدث أو تقدير الاختراع أو السهم الذى أسهم به كل منهم من أجل البشرية، وكذلك مدى الزمن الذى اقتضاه لحذف مفاهيم سائدة وإحلال أخرى مكانها.

وهكذت التلاقى أبعد من تاريخ شائع مألوف، كما يحدث فى فى شفافية ونقاء الإحداثيات الكامنة للزمن الذى علينا الآن أن نتجه إليه.

الحضارات فى هياكلها البنائية

لم تقدم لنا تصورات هذه الأزمنة وانعكاسها سوى أحداث وانطباعات متغيرة على مسرح أحداث الحضارات حيث تظهر ثم تختفى فإذا ما حاولنا وأحداث العرض مستمرة أن نتمسك ببعضها فى محاولة لفهمها فلسوف تدرك أنها فى الواقع لا تتغير حيث تبدو لنا حقائق أبسط فى سبيل منفعة جديدة يدوم بعضها على مدى مشهد أو مشهدين أو ثلاثة من مشاهد المسرحية وتعبر بنا أخرى قرونا ويدوم غيرها آخر الأمر دهرا كأنما هى ثابتة لا تتغير ولكن ذلك خطأ فى التقدير بعامة إذ تتحرك هى كذلك وتتبدل وإن جاء بشكل خفى بطىء إنها تلك الحقائق التى هى بمنزلة الضغوط التى تمارسها الطبقات الاجتماعية إلى غير نهاية ولا تثير الضرورات البشرية التى يتعذر فهمها للوهلة الأولى وخاصة للذين عايشوها وعاصروها مشكلة وتبدو لهم وكأنها حقائق وأحداث طبيعية.

إنها تلك الحقائق التى جرى العرف على تسميتها بنية ذلك، إن المؤرخ نفسه لا يستطيع رؤيتها حال ظهورها بما اعتاد وأمثاله من سرد تاريخى متعاقب يكون عادة متسرعا كما تفهم هذه الحقائق أو تقتفى فى تطورها البطئ جدا إلا بتحملنا تبديد أحقاب طوال إذ تندثر التحركات السطحية والأحداث والناس أنفسهم أمام عيوننا على حين تتصاعد أحقاب أخرى متصلة أو شبه متصلة قد تدرك أو لا

تدرك وهى هنا بمنزلة أسس للحضارات أو بتعبير أفضل بنية الحضارات، فالمشاعر الدينية على سبيل المثال أو الجمود الذى يسود حياة أهل القرى أو المواقف من الموت والعمل والسعادة الأسرية .. إلا تلك البنى وهى بعامة قديمة طويلة الأجل، كما أنها سمات مميزة وعلامات فارقة أصيلة تضفى على الحضارات وجهها الفريد وكيانها ولا نستدير إليها قط فكل واحدة تعتبرها سمات مميزة وقيم فريدة وعلامات فارقة أصيلة يتعذر استبدالها وتمنح الحضارات وجهها المنفرد وبدهى أن تلك السمات والاختبارات الموروثة والمواقف الرافضة تجاه الحضارات الأخرى لا شعورية بالنسبة إلى التكتلات البشرية الكبرى، وينبغى لإبرازها فى جلاء ووضوح الابتعاد ولو ذهنيا على الأقل عن تلك الحضارة التى نتصدى لشرحها، ولنأخذ مثالا بسيطا وإن اتصل على بساطته بكيان هيكلى عميق ذلكم هو دور المرأة فى مجتمع ما فى القرن العشرين ولنقل مجتمعنا الأوروبى فلن يبدو هذا الدور غريبا بكافة مميزاته بل نراه طبيعيا غير أننا إذا ما عمدنا مثلا إلى مقارنته بدور المرأة فى الإسلام أو قارناه بدور المرأة الأمريكية فى الولايات المتحدة وجدنا أنفسنا حياد تناقضات عميقة لن نستطيع فهم علة هذه التناقضات إلا بالرجوع إلى الماضى أو بالرجوع إلى القرن الثانى عشر على الأقل وهو العصر الذى عرف بما يسمى بالحب (الغزل العذرى) إذ كان بمنزلة الإعداد المسبق لما عرف بحب التزاوج فى الغرب ثم نعمد بعد ذلك إلى سلسلة من التفسيرات إلى المسيحية وإلى دخول المرأة المدارس وكذا الجامعات وإلى نظرة الأوروبى إلى تربية الأطفال وإلى الظروف الاقتصادية ومستوى المعيشة وعمل المرأة فى المنزل وخارج المنزل.. إلخ إذ يتجلى دور المرأة ويتأكد دائما دعامة من دعائم البنيان الحضارى واختبارا له إذ هو فى كل حضارة من الحقائق ذات الأجل الطويل التى تقاوم الصدمات الخارجية ويصعب تغييرها فجأة من يوم إلى آخر. والشائع فى كل حضارة أنها تبدى نفورا من اعتناق فكر ثقافى يطرح دعامة من دعائمها الراسخة للمناقشة ولئن كان هذا النفور وذلك العداء الخفى نادرا نسبيا فهو يؤدى دائما إلى صميم الحضارة وكذلك تلجأ كل حضارة عادة إلى الأخذ عن جاراتها مع احتمال العودة إلى الأخذ والمقارنة بين ما أخذت واقتبست كل حضارة محط من محاط

البضائع لا تكف عن تسلم غرائب الأمتعة والحقائب وشحنها ومع ذلك فربما وجدنا حضارة ما إذا ما ووجهت بذلك تستبعد فى عناد ومكابرة هذا أو ذلك من أية إسهامات خارجية فليس هناك حضارة كما قال مارسيل موس Marcel Mauss جديرة باسم الحضارة ليس لها عادات الرفض والنفور من الإسهامات الدخيلة وفى كل مرة حيث يصدر الرفض محصلة لأحقاب طويلة من التردد والتجربة فإذا انقضى عليه زمن من ترو وتأمل هادى بطىء اتخذ مسرح الأهمية القصوى..

أليس استيلاء الأتراك على مدينة القسطنطينية عام ١٤٣٥ واقعة متعارفا عيلها؟ غير أن مؤرخا تركيا يؤكد اليوم أن المدينة استسلمت وتم غزوها من الداخل قبل الاقتحام التركى لها.

وهذه الأطروحة الافتراضية ليست غير صحيحة. فالحق أن الكنيسة الأرثوذوكسية ولنا أن نقول الحضارة البيزنطية فضلت على الاتحاد مع اللاتينيين الخضوع للأتراك ولا سبيل هنا إلى إلقاء الأمر على قرار متعجل اتخذ عفواً الساعة فى مواجهة حدث معين وإنما لا يعدو الأمر أن يكون النتيجة النهائية والطبيعية لسباق زمنى طويل من تحلل إمبراطورية بيزنطية ذاتها، والتى رفضت الوحدة مع اللاتينيين وكانوا دون سواهم القادرين على إنقاذها من الخضوع لبراثن الأتراك، وذلك من ناحية أخرى ما عمل على ازدياد نفور اليونانين من التقارب مع اللاتينيين وكانت بينهم خلافات عقدية لاهوتية.فقد كانت الوحدة ممكنة حيث قبلها الإمبراطور ميشيل باليولوج Michel Paleologuc كان فى المجمع الدينى بمدينة ليون عام ١٢٧٤ وجاهر الإمبراطور حنا الخامس عام ١٢٧٤ باعتناق الكاثوليكية ثم أيد ذلك المجمع الدينى المشترك بمدينة فلورنسا عام ١٤٣٩ كما أيد إمكانية الوحدة وكان بعض كبار علماء الدين اليونانيين قد كتبوا يشايعون ويؤيدون تلك الوحدة ولكن اليونانيين كانوا يفضلون الأتراك. فعمدت الكنيسة بدافع الغيرة إلى استدعاء العدو وسلمته الإمبراطورية والعالم المسيحى.

ويكتب بطريرك القسطنطينية عام ١٣٨٥ إلى البابا أوريان السادس Urbain (VI) يقول: إنهم على الأقل يتركون للكنيسة اليونانية كامل حرية الحركة ويضيف فرنان جرينارد Fernad Grenard إن خضوع القسطنطينية لمحمد الثانى كان بمنزلة

انتصار للبطريرك المعارض للوحدة فضلا عن أن الغرب كان على علم راسخ بأسباب تدور الشرق ويكتب بترارك Petraroue وهو من أشهر كتاب العلوم الإنسانية فى عصر النهضة ومن المؤرخين البارزين يقول: لاشك أن هؤلاء المنشقين خافوا منا.. وكرهونا من أعماقهم. ورفض آخر بطيء هذه المرة، بدأت معالمه تتضح فى فرنسا حيث عوامل التردد كانت هى الأقوى إذا احتاج الأمر إلى قرن من الزمان حيث انتهى بعصر النهضة فى إيطاليا وشبه جزيرة أيبريا (الأندلس) ثم فرنسا التى كانت ساحة لقتال طويل غير اللامستقر بين مذهبى الإيمان بالمسيح وطريقتيه.

ثم رفض من بعد ذلك لم يكن سياسيا فحسب ولم يكن شاملا وذلكم ما كان من النزعة التى أدت إلى ابتعاد الغرب المتطور وأميريكا الأنجلو ساكسونية بما فيها كندا عن المذهب الماركسى والحلول الشمولية للجمهوريات الاشتراكية.

وكان الرفض أكثر حسما من قبل البلاد الجرمانية والأنجلو ساكسونية ولعله كان أكثر اعتدالا من لدن فرنسا وإيطاليا وبل ومن لدن بلاد شبه الجزيرة الأيبريه (أسبانيا والبرتغال، الأندلس سابقا) ولاشك كان رفضا من حضارة لحضارة أخرى.

وقد نقول فى هذا السياق نفسه من التفكير بأن أوروبا الغربية وهى تتقبل المبدأ الشيوعى قد كانت على الأرجح مقدمة على إرساء قواعده على هواها وأسلوبها كما تطبق اليوم المبدأ الرأسمالى بطريقة تختلف يقينا عما تطبقه الولايات المتحدة اختلافا كاملا.

وهذا التصرف سواء أكان ترحيبا أو رفضا من جانب حضارة تجاه حضارة خارجية أخرى إنما تمارسه هى نفسها فى المقابل كذلك ببطء وبصورة دائمة بقليل من الإدراك أو بغير إدراك وبرغم ذلك فإنه تصرف أو عمل يساعد على معاونة الحضارة نفسها على أن تتشكل ، وهى تتقاسم جزءاً من ماضيها، وفى خضم ما تشعر به حضارة ما من حسنات ومواقف عن ماضيها وما وقع فيه من تطورات تندفع بها إليها ويعرض نفسه عليها، فإنها و بهدوء تقوم وبشكل غير محسوس باقتفاء أو باستبعاد واحد من الوحدة أو موقف من المواقف، ومن الجائز ..

فى هذه الروافض الداخلية أن تكون صادقة أو معتدلة أو قابلة للبقاء أو قاصرة على فترات عابرة فإن الروافض الدائمة دون سواها فى هذا السياق هى العوامل الجوهرية التى تضىء تدريجيا الطريق لدراسة النفوس البشرية فى موقع أوبلد أو حضارة فإن التقاسم لإحدى الحضارات كما ذكر ميشيل فوكو Michel Focault بأسلوبه الفريد هو أن تطرح دون أن يعد هذا من حدودها أو ذاك من قيمها التى تتنكر لها.

ولا تبلغ حضارة ما حقيقتها الذاتية وهى تزيح ما يعوق طريقها وتاريخها وتفرق بين مصير واضح جلى ومصير مظلم وغير واع. وترى هذه الدراسة فى علوم النفس البشرية التى تعود إلى الماضى ويقدم لنا كتاب ميشيل فوكو دراسة لحالة خاصة تشمل مشكلة التفرقة بين العقلانية والجنون وبين المجانين والراشدين وهى مشكلة لم يعرفها القرن الأوروبى الوسيط إذ كان الناس يعتقدون أن المجنون مثله كمثل كل إنسان بائس هو مبعوث الله بصورة أو بأخرى وكان المعتوهون يوضعون فى السجون فى قسوة وشراسة. وفى القرن السابع عشر الذى اتسم بالميل والشغف نحو نظام اجتماعى وصف المعتوهين بأنهم فضلات يجب استبعادها واستئصالها كما يعامل معتادو الإجرام والأشرار كان ذلك فى بداية هذا القرن ثم اتسمت من بعد المعاملة والنظرة إليهم بنوع من الاعتدال جاء عصر اعتبرهم مرضى ومن حال إلى حال ومن موقف لآخر ولكن المشكلة الرئيسية رغما عن ذلك لم تتغير حيث إن الغرب ومنذ العصر الكلاسيكى وحتى يومنا هذا قد تقاسم النظر إلى الجنون إذ يحرم تصوره ويرفض وجوده وهكذا يتزامن العقل وانتصاره بعمق مع زوبعة طويلة هادئة ومسيرة شبه لا شعورية وشبه غامضة ومع ذلك فهى أخت شقيقة لهذا الانتصار الذى تحقق فى وضح النهار فى ذلك الغزو الذى حققته العقلانية والعلوم. أى تلك الفلسفة القائمة على العقل فى ميادين المعرفة والأخلاق والعلوم.

ويمكننا طبعا تقديم نماذج أخرى لهذا التقاسم أو شبه التقاسم ففى كتاب البرتو تينتى Alberto Teiventi نتابع فى أناة مسيرة الغرب التى أبعدته عن الموت كما كان ينظر إليه فى القرون الوسطى المسيحيون وهو عملية انتقال بسيط للمخلوق المنفى على الأرض إلى الحياة الحقيقية الأخرى. ثم كان فى القرن الخامس عشر

أن أصبح الموت «إنسانيا» أى اختبارا رفيعا يجتازه الإنسان مع هول تحلل الجسد وعن هذه المفهوم الجديد للموت يتمكن الإنسان من الخروج بمفهوم آخرلحياة يراها ذات قيمة إنسانية تستحقها وفى القرن التالى أى السادس عشر أو على الأقل فى بدايته اختفى واحد من الوساس التى لحقت بالموت وحل محلها حب الحياة.

ويفترض فى التصادمات والاحتكاكات العنيفة التى أفرزت منطق العقلانية أن تكون بين حضارات ترتبط إحداها بالأخرى بعلاقات سليمة هادئة تقررها فى هدوء وباختيارها الحر ومع ذلك فقد كانت العلاقات العنيفة فى أغلب الأحيان هى القاعدة كانت مأساوية دائما وربما كانت ذات فائدة على المدى الطويل.

ولا سبيل إلى إدراك أسباب كثير من النجاحات قبل تطور بلاد الغال من البداوة إلى الصفة الرومانسية وتطوير شطر كبير من أوروبا الغربية بعد غزوها إلا بطول الحقبة التى استغرقها الوصول إلى هذا النجاح وكذلك كما قيل بسبب تدنى مستويات المعيشة لأهل هذه البلاد لدرجة الانحطاط ومدى ما أبداه أهلها من إعجاب بالغازى المنتصر ثم ببعض من التواطؤ الداخلى فى نهاية الأمر غير أن هذا النجاح قد كان من القلة والندرة بحيث يقع استثناء من القاعدة.

وكان الإخفاق أثناء هذه التصادمات والاحتكاكات العنيفة أكثر وقوعا من النجاح، ولئن كان الاستعمار قد انتصر بالأمس فإن فشله وخيبته اليوم حقيقية لا تحتاج إلى دليل.. وقلنا إن الحركة الاستعمارية ما هى إلا طمس واكتساح لحضارة أخرى فيسلم ويخضع المنهزمون دائما للآخرين إلى الأقوى ولكن خضوعهم يظل مرحليا مؤقتا منذ تعايشهم القهرى أمدا طويلا لا تمردون امتيازات يكتسبها الأقوى وتنازلات إجبارية أو بتواطئات ودون أن تتخلل هذه الآماد افتراضات ثقافية هامة يتنازل عنها أو يمنحها المحتل قد تكون مثمرة أحيانا ومع ذلك تظل لا تتعدى حدوداً معينة أبدا ويحدثنا عن أفضل مثال على التداخل الثقافى فى ظل العنف روجيه باستيد Roge Bastid فى كتابه القيم الديانات الإفريقية فى البرازيل ١٩٦٠ فيروى ما كان من انتزاع مخزن للعبيد من أراضيهم ومواطنيهم الأصلية فى أفريقيا ثم إلقائهم بعد ذلك فى خضم مجتمع بطريركى مسيحى سائد فى البرازيل الاستعمارية فكان رد فعل هؤلاء الأفارقة إزاء ما وقع لهم أن قامت جماعات

سوداء وطائفة مشربة بحمرة البشرة بإنشاء جمهوريات مستقلة يمارسون مرغمين شعائر الديانة المسيحية، وظلت هذه الجمهوريات قائمة فلم تسقط واحدة منها إلا بعد حروب نظامية عديدة وبذلك استطاعت الفئة المجردة من كل شيء أن تعيد تشكيل ممارساتها الدينية الإفريقية التى ورثوها عن أسلافهم الأفارقة كما نجحوا فوق ذلك فى إحياء رقصاتهم الإفريقية فنالت شهرة عالمية.

بل وصل الأمر اليوم أنهم استطاعوا تكوين مجتمعات تمارس أنواعا متجانسة من الشعائر المسيحية والإفريقية معاً.

أليست تلك التوليفة التوافقية مثالا ثقافيا حيا نعيشه ويعيشه معنا العالم اليوم.. فإن المهزوم وإن استسلم فقد استطاع المقاومة والصمود واتقاء انعكاسات الدمج القهرى وآثاره لصيانة جذوره بل استطاع نشرها حية غازية منتصرة.

التاريخ والحضارة

نستطيع عبر عصور متباينة تجتازها حضارة من الحضارات وتغيرات بطيئة فيها ونقلات لها من الارتقاء وتدهور وصمود وخضوع وإذعان ورفض ومقاومة واستسلام أن نستخلص صياغة أو وصفا يعبر عن تقييم وتفسير نهائى يرد إليها بمالها من وصف نهائى وجهها الخاص فإن كل مظهر من مظاهرها حلقة فى سلسلة تاريخية يتعاقب بعضها إثر بعض. ومن ثم كانت الحضارة بذلك أبعد أمدا بين عصور التاريخ الطوال، غير أن المؤرخ لا يستسلم بسهولة لذلك فليست بالنسبة إليه سوى تتابعات تتوالى حيث نجد النظرة فى سباق الارتقاء تتسع بالتدريج.

ومن المعروف أن عصور التاريخ تختلف إذ تسجل يوما يوما أو بعمل وحدات قياسية يختلف بعضها عن بعض غالبا فتراها عاما بعد عام أو عقدا بعد عقد (١٠ سنوات) وربما قرنا كاملا بعد قرن وكل مرة فإن المشهد يختلف باختلاف وحدة القياس المستخدمة وهذه التناقضات بين هذا الكم من الحقائق الملاحظة وبين هذه الأزمنة ذات الآماد المتنوعة الأطوال والتى تغذى الصيغة الديالكتيكية الجدلية الجديرة بالتاريخ ولتبسيط الشرح المفهوم، لنقل إن المؤرخ على ثلاثة محاور على الأقل. فالمحور الأول هو التاريخ التقليدى أى السرد المعتاد والذى يسرع فى الانتقال من حدث إلى حدث تالٍ مثلما يفعل مؤرخ يرصد قديم الأحداث، أو

مراسل صحفى اليوم فنراهما ينتقلان بين عشرات من صور حية سرعان ما تؤلف قصة متعددة الألوان غنية بالتغيرات المفاجئة كما يقع لدى أبطال المسرحيات بما يشوق المرء إلى متابعة الأحداث ومع ذلك فما إن ينتهى من قراءة الحدث أو مشاهدة المسرحية إلا ويظل غالباً على تعطشه عاجزاً عن الحكم أو الفهم أو الإدراك السليم وتتجلى أحداث المحور الثانى جملة كعصر الرومانسية والثورة الفرنسية والثورة الصناعية والحرب العالمية الثانية، ففى هذه الأحداث نجد أن وحدة القياس إما عقدية (عشرية السنوات) أو عشرينية بل قد تبلغ نصف القرن والأحداث تسمى بفضل هذه الوحدات القياسية الطويلة حقبا أو مراحل وتتقارب فيكون تفسيرها وتقديمها بعديد من الشروح. إنها هنا إذن فماذا أردنا القول؟ أحداث طويلة ومسبقا منزوع منها التفاصيل الزائدة والتى لا طائل منها ولا فائدة.

ثم مرحلة ثالثة آخر الأمر وهى المرحلة التى يكون فيها تجاوز الأحداث الطويلة ولا تستبقى إلا الأحداث القرنية (كل قرن من الزمان) أو متعدد القرون ففيها يقحم حدثا كل لحظةفيه طويلة وتتجاوز وتتعدى الزمنية الكبيرة وهو تاريخ لا تجتاز مراحله إلا بالتهيؤ بما يليق به ومثال ذلك إذ ليست يقينا الطويل للمصير الليبرالى العنيف لتلك الثورة التى شبها ومر بها الغرب وما فولتير Voltaire إلا مرحلة من مراحل تطور الفكر الحر كما أن لعلماء الاجتماع فى هذه المرحلة الأخيرة كذلك تصوراتهم فيقولون عن هذه المرحلة ذات العمق إن الحضارات تبدو خارج الأحداث العارضة بعيداً عن الطوارئ غير المتوقعة التى شكلت مصيرها وصبغته على امتدادها، أو بعبارة أدق على امتداد الزمن الذى تواصلت فيه وهياكلها وصورها التجريدية البعيدة عن الواقع رغم ذلك كله مراحل جوهرية.

فما الحضارة - من ثم - إلا اقتصادا ممنوحا لا مجتمع مسلم به إذ هى سلسلة من ظروف اقتصادية، طوائف فى مجتمعات تتشبث بإصرار بالبقاء. ولا تكاد تترك نفسها لتفكير قليل.

ولذلك فلا سبيل إلى إدراك حضارة ما إلا على امتداد من الزمان بعيد، مشحونة بتاريخ عاصف، أو صاخب عاصف معاً أحياناً، بما يشبه جيلاً بعد جيل، قوم حافظوا عليه كأثمن ما تملكون.

ولذا نرفض ما انتهى إليه المؤرخ الأسبانى الكبير رافائيل التاميرا Rafael Al-tamira (١٩٥١) وفرانسوا جويزو Francois Guizot (١٨٥٥) إذ اعتبرا الحضارة «كل التاريخ» وهى وإن كانت لاشك كل التاريخ، فذلك من منظور متماسك مع أقصى مالدى التاريخ الممكن والمتناغم انسجاماً مع نوع معين من التاريخ البشرى، وليس لاستعادة حكاية فونتينيل Fontenelle وأزهاره، وصحيح إن الورود جميلة ولكن أفضل منها حكاية البستانى، وما تؤمن الورود بخلوده.

فبالنسبة للمجتمعات فإن الأوضاع الاقتصادية، وآلاف أحداث الحياة على امتداد تاريخها القصير، فإن الحضارات تبدو كذلك خالدة وهذا النوع من التاريخ ذو النفس الطويل. هذا التاريخ القاصى (عن بعد) سباحة فى عرض البحر المتلاطم، لا كمثل الإبحار الساحلى الآمن غير بعيد عن الأنظار وهذه المسيرة التاريخية بغض النظر عما نحاول إضفاءه عليها من رسم أو اسم، مسيرة لها محاسنها ومساوئها.

فمن محاسنها أنها تلزمنا التفكير والتفسير بألفاظ وتعبيرات غير مألوفة، كما تقتضى اللجوء إلى الشرح التاريخى لإدراك زمنها الذاتى. أما مساوئها بل إخطارها، فهى احتمالات وقوعنا فى تعميمات سهلة لفلسفة التاريخ.

وإجمالها تاريخاً خيالياً أكثر منه تاريخاً محققاً موثقاً غير متنازع عليه.

ولا شك أن للمؤرخين الحق فى توقى الحذر من هؤلاء المتحمسين من أمثال شبنجلر Spingler أو توينبى Toynbee إذ أن كل تاريخ إنما ينساق إلى مستوى الشرح العام ولكنه يستلزم بالضرورة الرجوع الدائم إلى الواقعية المجردة وإلى الأرقام والخرائط والتسلسل التاريخى الدقيق. وباختصار إلى المراجعة والفحص والتمحيص.

وأكيدا وبصورة أكبر مما يتعلق بدعائم الحضارات فإن دراسة الحالات المجردة هو ما يستوجب الإرتباط بها لفهم ماهية إحدى الحضارات، إذ أن كل قواعد الإختلاف أو الاتفاق التى تولينا حتى الآن تفسيرها، سوف تفسيراتها الواضحة فى الأمثلة اللاحقة والتالية.

الجزء
الأول

الحضارات غير الأوروبية

الفصل الأول

الإسلام والعالم الإسلامي ..

الحضارات غير الأوروبية

لا شك أن الحضارات تقتضى زمنا تنشأ فيه، كما تقتضى إعداداً وتمهيد موقع حتى تنتقل إلى مرحلة الوثوب والانطلاق، والقول بأن الإسلام ظهر ثم عبر مع ظهور محمد سنين، قول صحيح وغير صحيح فى الوقت نفسه، بحيث تقف عند حقيقة، قل أن تبدو غامضة، وكذلك كانت المسيحية التى كان كذلك مولدها من قبل ظهور المسيح زمنا طويلا، فما كان بدون محمد ولا المسيح، إسلام ولا مسيحية، ومع ذلك فقد استطاعت هذه الديانات الجديدة، وفى كافة مراحل تطورها التقاط قلب الحضارة التى سبقتها فكانتا دائما بمنزلة الروح، فاستطاعتا منذ مرحلة الانطلاق الفوز بفضل الاستحواذ على ميراث خصيب وماض وغنى، فضلا عن كل الحاضر، وواضح أن كلا منهما كان يمتلك منذ الوهلة الأولى مستقبلا مبشرا.

الإسلام صورة جديدة للشرق الأدنى

حضارة أخرى: وكما ورثت المسيحية الإمبراطورية الرومانية ميراثاً استطاعت مد مسيرته وإطالته، فقد تمكن الإسلام فى مطلع نشأته من الاستيلاء على الشرق الأوسط الذى كان وقتذاك من أقدم - إن لم يكن - ملتقى للبشر والممالك المتحضرة

LES CONQUÊTES ARABES
Direction des conquêtes
Raids
Régions conquises
Routes
Cordoue
711
Kairouan
648
Alexandrie
642
635
Bagdad
Bassorah
La Mecque
Soie
Papier
(Introduction de la fabrication du papier dans le monde Arabe vers 751)

الفتوحات العربية
اتجاهات الغزوة
المعارك الغزوات
المناطق المفتوحة
الطرق

فى الدنيا، إنه واقع ذو آثار هائلة فقد اتخذت الحضارة الإسلامية سماتها من الضرورات «الجيوبوليتيكية القديمة، ومن الأشكال السكانية الحضرية، والعادات والشعائر والعقائد الدينية القديمة فى الإيمان وأساليب الحياة، خاصة فى عقيدة الإيمان كل فى دينه، وقد ارتبط الإسلام بشكل أو بآخر باليهودية والمسيحية وبنوة إبراهيم والعهد القديم ووحدانيته الصارمة، كما أن القدس مدينة مقدسة، ويتفوق عليها فقط أكبر الأنبياء قبل محمد.

وكانت لهم فى نواحى المعيشة اليومية سلوكيات قديمة.

توالت عشرات القرون على الإسلام حتى يومنا هذا.

وفى ألف ليلة وليلة، فإن تحية العاهل هى تقبيل الأرض بين يديه، كان الأسلوب هو المتبع فى بلاط خسرو (٥٣١ - ٥٧٩) وكان هذا هو المتبع قبل ذلك يقينا، وفى القرنين السادس والسابع كان السفراء الأوروبيون يتجنبون هذه الإيماءة عند تقديم التحية فى كل من اسطنبول وأصفهان أو دلهى، إذ كانوا يرون فيها نوعا من المهانة لهم ولمن يمثلونهم من الملوك أو الأمراء.

وكان هيرودوت فى عصر سابق يسخط من عادات للمصريين كانت فى نظره منفرة، إذ كانوا وفى عرض الطريق بدلا من التحية يسجدون بعضهم أمام بعض انبطاحا حتى منتصف أجسادهم أو يخفضون الأيدى كالكلاب حتى الركبة بدل التحية، ومازال هذا أسلوب التحية سائدا حتى اليوم. ومن التفاصيل الأخرى فالحمامات المغربية التى تسمى الحمامات التركية وليست سوى أنماط معدلة من حمامات المياه المعدنية الساخنة التى كانت عند الرومان قديما ثم أدخلتها الغزوات العربية بلاد الفرس وغيرها من البلاد. ثم هناك يد فاطمة Lamain Refatma عند المسلمين، وتقابل عندنا أنواط ووشاح الأكتاف فى المناسبات الجنزية ونصب القرطاجة التذكارية.

أما ما كانوا يتخذون من ملابس وأردية، فقد عمدنا إلى استعارة ما ذكره ف. ف. جوتييه F.F. Gautier فيما لم يتردد فى الاعتراف بأنه كان فى بابل القديمة كما وصفها، وكان قد انقضى أربعة قرون بل قد تزيد على ما كان من ارتداء

سكان بابل جلبابا من كتان ينسدل حتى أقدامهم، وكذا كان فى الجزائر فيما يسمى «الغندورة»، ومن فوقها جلبابا آخر من كتان كذلك، يسمى جلابه، ومن فوقهما معطفا أبيض صغير قد يشبه «البرنس» الصغير كرداء للرأس، ويلفون رؤوسهم بقلنسوة تسمى «طربوش».

وثمة تفاصيل أخرى عن أساليبهم واضحة على كل حال فى أساليب التفاهم والتعبير وقدراتهم فى هذا السبيل.

مثل الحضارة الإسلامية كمثل الحضارة الغربية، مشتقة ومتفرعة من «الدرجة الثانية» كما وصفها «الفريد ويبر» Alfred Weber فهى لم تقم من فراغ بل على بقايا وأنقاض هذه الحضارة غير المعروفة المفعمة بالحيوية الشديدة التى سبقتها فى الشرق الأدنى.

إذن لم يكن منذ نبوة محمد، ولا خلال عشرات الأعوام من تلك الغزوات الخاطفة (٦٣٢ـ ٦٤٢) الأولى يمكن القول بأن ملامح الإسلام وكيانه قد بدأ فى الظهور، فإن الإسلام فى واقع الأمر إنما تكشف بالانفتاح على تاريخ طويل لا نهاية له تاريخ الشرق الأدنى.

تاريخ الشرق الأدنى

ضم الآشوريون ووحدوا كثيرا من ممالك الشرق الأدنى، ثم كان بعد سنوات ضم إلى هذين الضمين والتوحيد مرة أخرى، الغزوات التى شنها كل من «كورش» Carus (٤٢٤ ـ ٤٩١ ق.م) الذى قام على رأس المرتزقة من الإغريق ومن سكان آسيا الصغرى فى حروبه ضد شقيقه Cyrus كورش الأكبر ابن «قمبيز» ثم تعرضت هذه الممالك نفسها لغزوات قمبيز وداريوس (٥٤٦ ـ ٤٨٦) ق.م.

ثم كان بعد قرنين من الزمان أن زالت مملكة الإخمينيين الـ Acheminides وحضارتهم من سلالة الفرس حوالى عام ٥٥٠ ق.م قامت مرة أخرى بضم وتوحيد بلدان الشرق الوسطى وزالت حضارتهم التى اتسمت بالعظمة بوفاة ملكها «داريوس الثالث» وتعد أنقاض «بيرسوبوليس الشهيرة» Perepolis عنوانا على عظمة فنون ذلك الزمان السحيق وعهد الـ Archeminides إذ وقع ذلك إثر ضـــربات الإغريق وحروب المقدونيين وقائدهم الإسكندر (٣٣٤ ـ ٣٣١) ق.م وكان هذا الغزو وهذه الهجمة الشرسة من السرعة بأسرع مما كان متوقعا، وبعد هذه الأحداث، وبعدما يقرب من عشرة قرون، جاء العرب بغزوهم الساحق، وإجمالا فإن الزمن الفاصل يمثل حلقة غريبة «حلقة استعمارية» تمكن خلالها الإغريق من السيطرة على المساحة الهائلة بين البحر الأبيض المتوسط والمحيط الهندى، وقاموا

مستعمرين بتشييد المدن وموانئ كبيرة مثل أنطاكية Antioche والإسكندر، كما أسسوا منها ممالك مثل السليوقيين والبطالمة Lagides, Seleucides ورغم اختلاطهم بأتباعهم من الرعية فلم يمتزجوا بهم ولم يختلطوا، فلم يقبلوا العيش فى القرى التى ظلت بالنسبة لهم مواقع غريبة، وعلى الجملة فقد استعمر هذا الشعب القليل من الإغريق والمقدونيين، ذلك الجزء الشاسع من آسيا، كما فعلت أوروبا فيما بعد حين شرعت فى استعمار إفريقيا وفرضت عليها لغتها ونظم الإدارة فيها وتكرمت أوروبا بمنحها جزءاً من نشاطها Dynamisme .

وامتد الغزو الرومانى بدوره إلى آسيا الصغرى وسوريا ومصر، وقد أفلحت الحضارة الإغريقية فى الإفلات من المواجهة الاستعمارية ذات السمات الرومانية وظلت قائمة بدورها، ثم عادت لتصبح بدورها بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية إن أردنا الدقة هى المسيطرة على تلك الممالك والبلاد، ثم كان فى القرن الخامس أن قامت «بيزنطة» بدلا عن الحضارة اليونانية السائدة بمغامرة استعمارية غازية، وإن لم يترك تاريخها الغريب شيئا يذكر.

على أن سكان الشرق الأدنى لم يميلوا إلى سادتهم ولم يبادلوهم مشاعرهم الودية، ثم تألقت منذ عام ٢٥٦ق. م عدة شعوب فى ذلك النطاق الشاسع مثل البارثيين Parthes والـ Arsacides ثم بعدهم الفرس الساسانيون من ممالك الفرس التى حكمت فارس من ٢٢٥ إلى ٦٥١ وقد تألقت دولتهم عبر إيران وعبر تخوم نهر السند وعلى ضفافه، وكذلك على الحدود السورية الهشة، وعمدت كل من روما وبيزنطة إلى شن معارك ضارية ضد هذا الجار العدوانى القوى المنظم ذى الميول الإقطاعية والبيروقراطية، بما له من فيالق من الفرسان، ويتمتع منذ ماض سحيق بعلاقات مع الشرق الأقصى، مع الهند والمغول والصين، ولاشك أن قسى الفرسان البارعين بأسهمها التى تخترق البوارج الرومانية قد جاءتهم من منغوليا. وقد قاوم بحكم وثيق ارتباطه بالديانة الزراد شتيه العليا، هذا الدخيل الإغريقى مقاومة شرسة، غير أن تلك العداوة السياسية لم تحل بينه وبى انتهاز الفرصة والترحيب بالتيارات الثقافية القادمة من الغرب، فتمكن الفلاسفة الإغريق الذين طاردهم الملك جوستنيان Justinien (إمبراطوربيزنطى ٤٨٢ ـ ٥٦٥) من اللجوء

والاحتماء فى العاصمة الكبرى ستيسيفون Ctesiphon بإيران كما تمكن النسطوريون وهم الميسحيون الملحدون والذين اضطهدتهم بيزنطة وعذبتهم، من الوصول هربا إلى الصين، وهناك نجحوا فى أن يكون لهم منزلة فريدة مشهورة.

وفى هذا الشرق الأدنى المتحفظ الصامت فى صراعه مع الوجود الإغريقى ثم بتحوله إلى المسيحية اضطرابه بالصراعات الدينية العنيفة المتصلة اندلعت الغزوات والفتوحات العربية الأولى (٦٣٤ ـ ٦٤٢) وفوراً ما كانت ترغب فى تواطئات، واستقبلت كل من سوريا ٦٣٤ ومصر ٦٣٩ الوافد الجديد بكل ترحاب، وكان بأسرع مما كان متوقعا، أن انضم الفرس عام ٤٢٦ ذلك لأن الإمبراطورية التى دبت الشيخوخة فى أوصالها المنهكة إثر صراعاتها وحروبها مع روما أكثر من قرن من الزمان. أما بيزنطة قد دافعت عن نفسها دفاعا سيئا ضعيفا رغم شهرة خيولها فى المعارك وشهرة أفيالها التى عجزت عن الصمود الجاد إزاء ركاب الإبل العربية وقتالهم الشرس. وهكذا وجد الشرق الأدنى نفسه منهارا، فاستسلمت ممالكه الواحدة تلو الأخرى للوافدين الجدد، إلا أن هؤلاء الوافدين لم يستطيعوا بسهولة الاستيلاء على بلدان شمال أفريقيا فى منتصف القرن السابع وبداية القرن الثامن.

ومع ذلك فربما كانت نتيجة حتمية لهذه الغزوات أن وقعت أسبانيا فى أيديهم واستسلمت عام ٧١١ .

وعلى الجملة فإذا استثنينا آسيا الصغرى المعروفة بوعورة دروبها ومسالكها حيث أسرعت بيزنطة إلى الذود عنها وإنقاذها فقد تمكن الفاتحون العرب من الاستيلاء على كافة ممالك الشرق، ثم حيث طفقت جحافلهم تتجه غربا. غير أنهم تخطوا الحدود بأكثر مما ينبغى.

ترى هل كانت السرعة التى تحققت بها هذه الفتوحات الغازية...

أ ـ نتيجة فجائية لصالح الغزاة الذين انقضوا بصورة لم يكن يتوقعها أحد؟

ب ـ أم كان النجاح طبيعيا لغارات انقضت بتلك السرعة الفائقة وهى تهدم المدن ثم تعزلها وتجبرها الواحدة تلو الأخرى على الاستسلام؟

والاحتماء فى العاصمة الكبرى ستيسيفون Ctesiphon بإيران كما تمكن النسطوريون وهم الميسحيون الملحدون والذين اضطهدتهم بيزنطة وعذبتهم، من الوصول هربا إلى الصين، وهناك نجحوا فى أن يكون لهم منزلة فريدة مشهورة.

وفى هذا الشرق الأدنى المتحفظ الصامت فى صراعه مع الوجود الإغريقى ثم بتحوله إلى المسيحية اضطرابه بالصراعات الدينية العنيفة المتصلة اندلعت الغزوات والفتوحات العربية الأولى (٦٣٤ ـ ٦٤٢) وفوراً ما كانت ترغب فى تواطئات، واستقبلت كل من سوريا ٦٣٤ ومصر ٦٣٩ الوافد الجديد بكل ترحاب، وكان بأسرع مما كان متوقعا، أن انضم الفرس عام ٤٢٦ ذلك لأن الإمبراطورية التى دبت الشيخوخة فى أوصالها المنهكة إثر صراعاتها وحروبها مع روما أكثر من قرن من الزمان. أما بيزنطة قد دافعت عن نفسها دفاعا سيئا ضعيفا رغم شهرة خيولها فى المعارك وشهرة أفيالها التى عجزت عن الصمود الجاد إزاء ركاب الإبل العربية وقتالهم الشرس. وهكذا وجد الشرق الأدنى نفسه منهارا، فاستسلمت ممالكه الواحدة تلو الأخرى للوافدين الجدد، إلا أن هؤلاء الوافدين لم يستطيعوا بسهولة الاستيلاء على بلدان شمال أفريقيا فى منتصف القرن السابع وبداية القرن الثامن.

ومع ذلك فربما كانت نتيجة حتمية لهذه الغزوات أن وقعت أسبانيا فى أيديهم واستسلمت عام ٧١١ .

وعلى الجملة فإذا استثنينا آسيا الصغرى المعروفة بوعورة دروبها ومسالكها حيث أسرعت بيزنطة إلى الذود عنها وإنقاذها فقد تمكن الفاتحون العرب من الاستيلاء على كافة ممالك الشرق، ثم حيث طفقت جحافلهم تتجه غربا. غير أنهم تخطوا الحدود بأكثر مما ينبغى.

ترى هل كانت السرعة التى تحققت بها هذه الفتوحات الغازية...

أ ـ نتيجة فجائية لصالح الغزاة الذين انقضوا بصورة لم يكن يتوقعها أحد؟

ب ـ أم كان النجاح طبيعيا لغارات انقضت بتلك السرعة الفائقة وهى تهدم المدن ثم تعزلها وتجبرها الواحدة تلو الأخرى على الاستسلام؟

جـ ـ أم يعود السبب إلى الانحطاط والعطب البطيئين اللذين لحقا ببلدان الشرق الأدنى أيام كان فى طريقه إلى التحرر من الاستعمار كما نقول اليوم؟

لاشك أن الأسباب الثلاثة حق، ومع ذلك يبدو ما نسوق من التفسيرات والشروح بمنظور تاريخ الحضارات ناقصا إذ ليس يسيرا أن نشرح لو تمسكنا بشىء من الكياسة أو بنوع من الضجر هذا النجاح الذى حققته هذه الغزوات وبقى هذا الأمر البعيد ولكن: ألا يجب علينا أن نناقش وبعمق هذه المصاهرة الدينية والروحية البالغة القدم وهى ثمرة التعايش الطويل؟

فإن الدين الذى يبشر به محمد إنما ابتدع فى منعطفات هذا الشرق الأدنى بشعوره الذاتى العميق طبقا لما شعرت به روحه؟

فالإسلام فى ريعان توسعاته وامتداده لم يفعل سوى إعادة الروح إلى الحضارة الشرقية الضاربة فى القدم وكان العنوان الأكبر للمغامرة أو كان على الأقل الدعامة الثانية للبيت المراد تشييده إذ كان الأول وهذا طبيعى بيت الحضارة العربية ذاتها.

والمقصود هنا حضارة صلبة قوية مشيدة فوق مناطق ظاهرة الثراء حيث تبدو فى مواجهتها الأمة العربية عنصرا ذا فائدة ونفع كبير. وسوف يكون مصير الإسلام على هذا النحو دفع هذه الحضارة القديمة وإطلاقها على محور جديد ومسار جديد.

محمد والقرآن والإسلام(١)

إن المصادر المباشرة للإسلام تضعنا فى الحال أمام رجل وكتاب ودين، فبين عامى ٦١٠ و ٦١٢ - وهى تواريخ غير دقيقة إلا أنها أقرب إلى الحقيقة - وعام ٦٣٢، وقعت رسالة محمد الحاسمة، فلولاه ما كان للبلاد العربية أن تتوحد، إذ كانت منهكة موزعة بين قبائل متصارعة مكشوفة أمام تيارات النفوذ الأجنبى والتطلعات الاستعمارية للفرس وأثيوبيا المسيحية وسوريا ومصر البيزنطية.

وبهذا النجاح تمكن محمد من توجيه أنظاره نحو الحدود الشمالية الطويلة، ولم تكن كل من بيزنطة ولا مملكة خراسان - وكانتا تتصارعان على امتداد سنوات فى حروب مدمرة - بحيث تقدران مدى خطورة هذا العدو الذى بدأ ظهوره فجأة فى هذه البلاد الفقيرة.

فقد وقعت لا شك غزوات عديدة، غير أن الغازى كان يرتد بعد غارته. ومع ذلك ففيم كانت وماذا أثارت تلك الغزوات المتقطعة، وخاصة أنها آتية فى مناطق لا سيادة لأحد عليها، وإن ظل الفرس والإغريق من قبل فى صراع دائم للسيطرة على حافة «الهلال الخصيب».

تغير بعد ظهور محمد كل شيء، وذلك بفضل نجاحه والذى استخلصناه من الكتب العلمية التى تناولت نشأته وحياته ورسالته. ثم لا ننسى أن الحواشى

التمويهية التى أضيفت إليها والصورة التى عرفناها جاءتنا بعد عملية صقل [٢] لم تكن سوى صورة جميلة بالغة الأثر.

ولد محمد حوالى عام ٥٧٠، وكان على مدى الأربعين عاما الأولى من عمره مثقلا بالهموم، وعوامل المعاناة، وهذه الحياة الغامضة [٣] لم تبلغ ذروتها إلا عندما وصل الرسول إلى الأربعين عاما من عمره حوالى عام ٦١٠ / ٦١٢

ففى ليلة من لبالى شهر رمضان وفى غار حراء غير بعيد من مكة، إذ به وهو يغالب النوم تقع له «الكلمة» المنبثة فى الرؤيا، والتى كان انبعاثها بمنزلة تيار جارف، فى الدنيا تعلن عن نزول الكتاب على قلب الرسول، إذ أظهر له الكائن الغامض [٤] الذى جاءه فى منامه لغة من الرداء مغطاة بالعلامات والإشارات وأمره أن اقرأ فقال محمد: ما أنا بقارئ، فكرر الملك مرتين قائلا «اقرأ» هو يضغط بالرداء حول عنق النائم ثم أردف «اقرأ باسم ربك الذى خلق».

ويدرك محمد المختار بعد أن استرد جأشه، أن كتابا قد بدأ ينزل على قلبه. وهناك تفصيلات صغيرة حول أسلوب نزول الرسالة، هل هى رسالة نزلت بالقراءة أو التبشير، لدرجة أنه لا يمكن لأحد أن يعرف على وجه اليقين ما إذا كان الرسول يعرف أو لايعرف القراءة والكتابة [٥].

هذه الرواية المقدسة تشير إلى أن محمدا بعد كلمات الملاك جبرائيل وهو (الزائر الغامض) استشعر فى نفسه أنه رسول الله، وبرغم شعوره هذا فقد انتابه خوف شديد، ولم يجد سندا سوى زوجته خديجة.

وما أن بدأ الخبر ينتشر حتى شب الصراع من جانب الأثرياء من تجار مكة. وهم أقارب محمد، فزاد ذلك من تردده وشكوكه إلى درجة اليأس بل القنوط، فتساءل ما فائدة اتباع هذه الرؤية خطوة خطوة والتى تقع إثر إلهامات وومضات يأتى بها مبعوث الله فى صورة «آيات» وسور من القرآن.. هذا الكتاب الذى يضم رؤى محمد [٦] والمهم هنا هو ملاحظة جمال وقوة الدفع والأثر السريع المتفجر من سور القرآن، وكلها تؤكد أنه كتاب ربانى، وهى نبوءات كانت تسبقها غالبا موجات هائلة من الخشية كان محمد خلالها يفقد الوعى [٧]، وليس سهلا كذلك أن

يغير انتباهنا لهذا النوع من الشعر الغريب، فهو من الصعوبة بحيث لا يستطيع أحد إتقان ترجمة ما جاء فيه ترجمة دقيقة كاملة.

وهكذا عاشت البلاد العربية ما قبل ظهور الإسلام.. أو قانا مليئة بالمآثر، فالشعر يفتح الآذان والقلوب.

وظل الرسول سنوات لا يعرف سوى أفراد الحلقة الصغيرة من المؤمنين المخلصين، وهم بعض أقاربه وبعض البسطاء البؤساء، وغالبا ما كانوا فقراء جدا، وإلى جوارهم جماعة من التجار يثرون من تجارة القوافل بين سوريا ومصر والخليج الفارسي، وكان هؤلاء لديهم صناع وعمال يدويون وعبيد، وكان من بين هؤلاء العبيد بلال العبد الأسود الذي اشتراه أبو بكر صديق الرسول ثم صهره فيما بعد. وكان بلال أول مؤذن للإسلام.

أما الأثرياء فقد كانوا - في بداية الأمر - لا يعيرون هذه الحركة اهتماما، ولا يأبهون لتلك «الزوبعة» التي أثارت ضحكهم وسخريتهم، ثم لم تلبث أن انقلبت تهددهم وتثير سخطهم مما جعل المواقف تتغير، فقام عدد من المخلصين الأوفياء لمحمد اضطروا اضطرارا إلى الهجرة إلى مواقع في بلاد الحبشة المسيحية ثم قام ستون منهم باللجوء إلى واحة يثرب في شمال مكة. وسوف تصبح يثرب هذه مدينة الرسول «المدينة» - واعتبر هذا اللجوء نوعا من الهرب - والتي قام محمد نفسه بالالتجاء إليها، واعتبر ذلك بداية منطلق العصر الإسلامي (٢٠ سبتمبر ٦٢٢). وهنا ملاحظة قد تكون صغيرة الشأن إذ يبدو أن اسم المدينة كان معروفا قبل التاريخ الهجري، إذ كانت حينذاك مدينة يتألف ثلاثة أرباع سكانها من فلاحي قبيلتين عربيتين تحارب كل منهما الأخرى، وقلة لها وزنها من اليهود كلهم تقريبا من التجار.

وفي مواجهة هذه القلة من يهود انتقلت سياسة محمد من التعاطف إلى الدفاع ثم إلى العداوة.

وكانت القدس قبلة الصلاة حتى ذلك الوقت، ثم تحولت من بعد إلى مكة، وقد وقع ذلك أثناء حروب متصلة. وكان المسلمون الفارون في سبيل العيش يشنون

الغارات على جيرانهم، ويناوشون القوافل الطويلة التى لتجار مكة ثم كان آخر الأمر أن مكنت حروب العشر السنوات تلك محمدا من دخول مكة سيدا فاتحا، ولكن تصرفاته مع أهلها ـ رغم ما لاقاه من صعاب هائلة ـ اتسمت بكثير من التسامح ـ وبسلوك متفرد فى اتخاذ القرار الحاسم والعمل بحكمة

ثم بدأ بنيان الدين ينمو رويدا رويدا بفضل هذه السور التى تكون فيما بعد منها القرآن. وبدأت دعائم الإسلام ـ التى جوهرها الخضوع لله ـ بتصميم وسياسة حكيمة من الرسول تزداد رسوخا.

ببساطة مثالية، حيث جاءت الدعائم الخمس تأكيدا على إله واحد هو «الله» وعلى أن محمدا رسوله وهما الشهادتان، وأداء خمس صلوات كل يوم، وصوم شهر رمضان ٢٩ أو ٣٠ يوما، والزكاة للفقراء، والحج إلى مكة. أما الجهاد فليس من أصول التعاليم الخمس، وهى الشعيرة التى سيلجأ إليها بعد قليل وسوف تلعب دورا هاما وكبيرا.

ولا تتضمن التعاليم الإسلامية أى نوع من الأسرار الخفية أو الألغاز. ومع أن نقاطا عديدة تظل محلاً للجدل، بل وتفتح أبوابا كثيرة لتفسيرات متناقضة حول الزهد الروحانى والعقيدة الإسلامية، فهى لا تزيد كثيرا عن المسيحية فى هذا السياق، فكلتاهما ترتادان طرقا وعرة المسالك بالنسبة إلى الروح. أما الصلوات فقد استلهم الرسول فيها الممارسات المسيحية واليهودية (٩)، ولكنه ظل وفيا للتقاليد العربية وتقاليد سكان مكة فيما يتعلق بالحج، فقد حافظ على عادات الحج القديمة التى ترتبط الواحدة بالأخرى بالكعبة ومكة وجبل عرفات المجاور لها، وبما يحتمل من احتفال مسيحى قديم يقام فى فصل الربيع وآخر فى فصل الخريف يشبه حج اليهود فى عيد الفصح كما ورد فى العهد القديم (١٠).

وكل هذه الشعائر القديمة كانت فيما يبدو وإلى حد كبير قد فقدت ما كانت تتمتع به من أهمية، وما كانت ترمز إليه من معان لعلها ضاعت فى عهود سحيقة. وقد أعيدت صياغة هذه الشعائر بأسلوب جديد ولغة جديدة إذ قام محمد بما يشبه ضم أسطورة أخرى ثقافية هذه المرة إذ ادعى كما أورد يواكيم مباراك

عام ١٩٥٨ فى كتابه (إبراهيم فى القرآن) أن إبراهيم فى زمانه مع ابنه إسماعيل هما أجداد العرب قاما بتنظيم شعائر الكعبة المقدسة ومراسم الحج [١٠] وهكذا تأسست أسبقية الإسلام على اليهودية التى أنشأها موسى وعلى المسيحية التى ارتبطت بالمسيح. ولكن هل يكفى مثل هذا الارتباط بإبراهيم بالحساب «السياسى» لتحقيق الأولوية؟ أليس للأديان منطقها الدينى وحقائقها؟ ويبدو أن يواقيم مباراك ذكر ذلك لحسابه الشخصى.

أما لوى ماسنيون فقال: إن الإسلام فى إشادته بإبراهيم أول المسلمين على حق.. حق صحيح «إلهيا». ولكن المهم أن تدرك إلى أى مدى كانت المعتقدات والممارسات الدينية تثقل كاهل محمد وحياته وتفرض عليه الالتزام بقواعد نظام صارم دقيق، إذ أن كل شىء بالنسبة له، حتى الحق، إنما ينبثق من القرآن ويتفرع منه. وقد ظلت الشعائر الدينية حتى اليوم أكثر حيوية فى الإسلام مما هى عليه فى أقطار العالم المسيحى، حيث ورد عن ماسينون عام ١٩٥٥ تصوير مايقع كل عام من اتجاه نحو ١٥٠ ألف حاج من كافة البلاد ومثلهم من قرى مصر ليجتمعوا فى جبل عرفات، فإذا قارنا تجمع المسيحيين فى عيد الفصح فى قرية من قرى فرنسا وجدنا أن الإسلام بالقطع يتفوق ويسبق فى هذا المجال. والسؤال الذى يطرح نفسه هل يمكن أن نعزو ذلك وبصورة قسرية إلى إيمان أكثر حيوية لدى المسلمين؟ قد يجدر أن نذكر هنا أن المسيحية اضطرت إلى مواجهة محن وتجارب «داخلية»، حتى تلك التى تنتسب إلى الحضارة التى أثمرتها، وهى محن وتجارب لم يمارسها أو يجابهها الإسلام بعد، ولعله يستشف الإحساس بها إذ يرتكز ويستند إلى مجتمعات قديمة جاهلية، وقد تتجدد الطقوس والشعائر الدينية شأن سائر السلوكيات الاجتماعية الأخرى فى الحياة ذاتها.

البلاد العربية قضية حياة وثقافة
تصبح بالكاد حياة حضرية

ترى على مدى نجاح محمد وانتشار الإسلام ما هو الدور الذى لعبه فى شبه الجزيرة العربية المترامية الأطراف؟

ليس الرد من السهولة بمكان.

كان حظ هذه المدينة مكة وتراثها وقتئذ حدثا جديدا، ذلك أن محمدا عاش وبنى محيطا حضريا عايش بلادا عربية بدائية، ولاتزال وقت حديثنا بدائية، ولم يكن الحال فى مكة إلا شبيها، كما كان واقعا حيا فى تلك البقاع الصحراوية.. وقد سبق أن ذكرنا أن الأسبقية عند محمد كانت «تحضير» هذه البقاع، ولاشك أن الدافع إنما جاءه من اتصالاته بمواقع حضرية وأجنبية أخرى بعيدة لاتصالها إلا من قوافل التجارة أى من تجار مكة والذين يكادون يكونون ثرواتهم والتى جعلت منهم رأسمالية تجارية. ولا شك عرف محمد من المدن السورية أكثر مما عرف من البلدان العربية، إذ كان يعمل فى صحبة القوافل للحراسة، وذلك قبل أن يأتيه الوحى.

نقول عرف محمد هذه الأوساط المتهودة والمسيحية (١١) هذا الإطار على كل حال أوحى إليه بكثير من الأنظمة التى أرادها لعشيرته، فأذان المؤذنين والصلوات الجماعية أيام الجمعة وحجاب المرأة والكرامة التى يلتزم بها المؤمنون تجاه إمامهم

فى الصلاة، لم يكن ذلك كله ميسورا دون شهود أو حشد من البشر أو تعايش يجرى جنبا إلى جنب.

كانت هذه المثالية الصارمة التى تتسم بالاحتشام من طباع تجار الحجاز، حيث نجد كذلك الإسلام يجتهد بحثا عن مظهر من مظاهر المدن بدلا من الحياة القاسية، وفى هذا المنظور يجب تفسير بعض «أحاديث الرسول» إذ يقول إن ما أخشاه وأخاف منه على قومى هو اللين حيث يطبع الشيطان بين الحثالة والنخبة.. أخشى عليهم أن يحبوا الشرب [١٢] ثم يعودوا إلى الصحراء (تاركين مهملين المواقع التى تقام فيها صلاة الجماعة) (وهذا التعليق من عندنا).

وهناك مقاصد أخرى افترضها الرسول وترسخت لديه لرؤية الآلة الحادة القاطعة المثبتة بالمحراث فيعلن قائلا: هذا لا يدخل أبدا منزل الأوفياء المخلصين، فلابد أن تدخل معه فى نفس الوقت عوامل الخزى والهوان [١٣]. وبإيجاز ومثلما يؤكده القرآن ذاته أن عرب الصحراء هم أكثر قوة وأكثر تصلبا فى دينهم وفى خبثهم[١٤].

كانت مواقع الإيمان إذن فى هذا الإسلام الوليد هى المدن مشابهة لما حدث فى المسيحية وفى الكنيسة المسيحية فى بداياتها فى الغرب.. ألم يقل إن الكافر هو الفلاح [١٥] الوثنى الملحد؟

غرباء (مساكين) هؤلاء الفلاحون إذ نقول بحق إن البدو فى البلدان العربية وفى مستهل القرن العشرين مايزالون هم هم، ولعلنا نجد بعضا منهم فى قلب البلاد العربية اليوم.

وقد رأينا كاتبا عن الإسلام هو «روبرت مونتانى» (١٨٩٣- ١٩٤٥) يؤلف كتابا قيما عن «حضارة الصحراء» هذه. وقد يرفض متخصص فى العلوم التى تعنى بخصائص الشعوب وصفها بالحضارة ويفضل وصفها بالثقافة فليست هناك فى أرض الواقع مدن، فإن وجدت فما أشد بدائيتها، فلم تكن يثرب زمن الهجرة تشبه طيبة عاصمة بيوتيا [١٦] فى عهد إيباميننداس [١٧] كان هناك حول تلك المدن وفى الأودية قليلة الماء من الأهلين.

من عاشوا فى حضر، وإن كانوا أصلا من رقيق الأرض وإن قل عددهم، ذلك أن أغلبية العرب كانوا من البدو الرحل، يشبهون جموع النحل وهى تغادر خلاياها فى تجمعات صغيرة. ومن هذه الجموع السكانية تألفت مجتمعات من أسر كان الأب فيها هو السيد المطاوع، وكذلك فروع أصغر من العشائر أو بطون القبائل تتحد فيما يشبه القبائل.

وكان إحصاء هذه القبائل يجرى على النظام المألوف اليوم، كأن يسمى بطنا كل عدد ما بين مائة و٣٠٠ خيمة تكون جزءا من قبيلة، وتبلغ هذه الأخيرة (٣٠٠٠ فرد).

وكان أضخم وحدات هذا السلم الاجتماعي كذلك ما يتوفر فيه نوع من الترابط والتماسك.

وكان الوهم كما كانت الحقيقة مما يعترف به البدوى، فالقبيلة هى الوحدة الكبيرة فى المعارك يعيش أفرادها إخوة، وأولى قربى تؤلف بينهم «رابطة الدم»، أو يشملهم اتحاد جامع، ولم يكن ذلك سوى وحدة هشة يتبعثر ويتناثر المساهمون فيها فى مناطق شاسعة.

ولم تكن معيشة البدو عبر الصحارى وشبه الصحارى فى البلاد العربية ممكنة لولا رعى الإبل، ذلك لأنها كانت معيشة شاقة، والجمل معروف عنه الصبر والتحفظ والقدرة على تحمل العطش بما يمكنه من أسفار بعيدة، ومصدر للإنعام فى نهاية هذه الأسفار، وفى أعمال سلب الماشية والحرب؛ كانت الجمال تحمل الأعلاف والمربى - (جراب توضع فيه السوائل والحبوب).

أما الخيول كانت فى آخر لحظة توفر السرعة اللازمة للكر والفر عند الالتحام. وكانت الحياة تجرى وراء العشب الذى كان كأنما يهرب. ومع الجمال المسرجة، وإبل السباق البيضاء.

كان البدو ينتشرون فى أراضى شاسعة تمتد أحيانا مئات الكيلو مترات من الشمال إلى الجنوب والعكس، شمالا نحو تخوم الهلال الخصيب بين سوريا والعراق حيث تبدو بداوتهم - إذا ما اتصلوا فى مسيرتهم بسكان الحضر - كأنما تتدهور وتثقل كاهلهم.

وإلى جانب رعى الجمال يضاف كذلك رعى الأغنام وكان البدوى يدعى أى راعى الأغنام، ويليه فى المنزلة رعاة البقر (البقارة) والجواميس، ويأتى ترتيبهم أواخر التقويم الطبقى (١٨) طبقة سكان الحضر ذوى الجفاء والفظاظة.

وفى جنوب ووسط البلاد العربية تحتفظ طبقة البدو الرحل (الجمالون) بتفاوتهم وادعاء النبل وشرف النسب.

وكانت هذه «القبائل النبيلة» دائما فى حروب يطارد القوى منها الضعيف، ذلك أن الصحراء إذا ضاقت فيها المعيشة طردت إلى خارجها تلك الزيادات البشرية، وكان الطرد عبر مسالك ودروب الغرب، ولم تكن سيناء ولا شريط النيل الضيق عوائق دون الصحراء وبلاد المغرب..

ولهذا الخروج أى لتلك الهجرة الجماعية أسباب عديدة: أسباب جغرافية وتاريخية، حيث الصحارى الباردة نحو الشمال تعقبها صحارى حارة. ولم يحقق العرب نجاحا فى آسيا الصغرى فى القرن السابع، إذ لم تكن إبلهم تحتمل الأجواء الباردة السائدة فى وديان الأناضول (تركيا حاليا)، بينما تعيش فى بكتريان (١٩).

إبل تأقلمت على مثل تلك الأجواء الباردة. فإن الصحراء فى الغرب امتداد لصحارى البلاد العربية فيما وراء أخدود البحر الأحمر. وأما الأسباب التاريخية فإن الصحارى الشمالية من آسيا الوسطى يعيش فيها بدوها الرحل المعتادون أجواءها مع إبلهم ذات السنمين وخيولهم وفرسانهم وتحركاتهم فى موجات هجرة عنيفة. ومن المؤكد أن مواقعهم لم تكن بها مساحات «خالية» يتيسر الاستقرار فيها.

ويتردد أن البوادى العربية قد وضعت فى خدمة الإسلام قوتها القتالية الممتازة وإن لم يكن دخول هذه القبائل الرحل الإسلام بين يوم وليلة ولكنهم ظلوا محاربين منقلبين أبدا، فقد حدث فى أسبانيا، التى فتحت أيام خلفاء بنى أمية، أن اندلعت المعارك والنزاعات من جديد بين طوائف من اليمين وبين بطون قيس، على بعد آلاف الفراسخ من بلاد النزاع والصراعات الأصلية..

كما أنه على أثر وفاة محمد (الرسول) حدث أن أعلنت القبائل العصيان بينما كانت تبدو فى الظاهر كأنما خضعت تماما لسلطان الإسلام. وكانت أعمال القمع

طويلة حتى أيام خلافة عمر (٦٣٤ ـ ٦٤٤) (٢٠) فلم يجد حلا لهذه النزاعات الصاخبة أفضل من إلقاء الفرسان وأصحاب الإبل فى أتون المعارك كنوع من «الجهاد» وهى وسيلة كان يهدف منها إبعادهم عن البلاد العربية، ومحاولة تفادى الصراعات فيما بينهم (بين القبائل) فى الوقت نفسه.

وهكذا حقق البدو أول فتوحات الإسلام على مسارات شاسعة، وعلينا أن نتخيل طريق هذه المجموعات من شعوب بالغة الضآلة بقوافلهم وخيامهم من وبر الجمال وشعر الماعز ناقلين معهم عاداتهم وتقاليدهم، وهذه العجرفة التى تميز هؤلاء الرعاة وهم لا يكتمون حرصهم على البقاء رعاة، وما يبدون من احتقار لتلك الحياة الخانقة التى يحياها سكان لا يميلون إلى الترحال. على حين كانت تتجمع فى الأفق مجموعات ذوو أجسام ضئيلة سوف يشنون عن قريب غاراتهم متجهين نحو الغرب.. إنه الفتح الإسلامى ـ وحاملين فى كل مكان يستقرون فيه لهجاتهم وفنونهم الشعبية وعيوبهم وفضائلهم، وفوق كل ذلك وفى المقدمة عواطفهم المشبوبة نحو الكرم.. هذا الكرم الذى يزهو به فى مجموعة. وهكذا نتعرف على مسيرة القافلة الطويلة، قبيلة بنى هلال، التى غادرت جنوب الحجاز فى القرن السابع، ومرت بمواقف تدعو إلى الرثاء فى صعيد مصر حول عام ٩٧٨، كما أنها انطلقت نحو شمال إفريقيا فى منتصف القرن الحادى عشر كأنها غارة من الجراد، وفى القرن الثانى عشر سحقتها جحافل البربر فى معركة مسطيف عام ١١٥١، فتناثرت تلك القبائل وسط بلاد المغرب، وها هى اليوم تعود ملاحمهم ومآثرهم تنبض بما تركوه وراءهم من مأثوراتهم الشعبية من صحراء الأردن وحتى بسكرا وبورت إيتيين. فى موريتانيا والحضارة والمعيشة اليومية فى العالم الإسلامى. وإذا كان دور القبائل العربية التى أثارت الاهتمام بالطريقة التى اتبعها الإسلام، سرعان ما تهذبت وتمحصت لتضغط على التوالى بهذه النجاحات كلها تقريبا على القوى المقاتلة والثقافات الحية لشعوب بدائية استطاع الإسلام إخضاعها وبث فيها الحضارة بسرعة.

لقد قدمت القبائل العربية لمحمد خلال قرن من الزمان أول نجاح له، واستطاع الإسلام فيما بعد وفى صحبة سكان الجبال من ذوى الطبائع الخشنة من بربر شمال

أفريقيا غزو أسبانيا، كما استطاع بناء مصر الفاطميون. كما تمكن من الأتراك والمغول وهم قبائل رحل، فنجح فى إدخالهم فى الإسلام. ومنذ القرن العاشر كان المرتزقة الأتراك يشكلون القوة الرئيسية فى جيوش خليفة بغداد، وظلوا كذلك جنوداً يتسمون بالبسالة والإقدام، ورماة بالنبال والسهام وفرسانا باسلين.

ويسخر قليلا ذلك الكاتب العربى الكبير الجاحظ من هؤلاء الأجلاف أولى الخشونة والفظاظة فى الصورة التى رسمها. ولكن التاريخ سوف يظل هو هو يصبح الفقراء أثرياء ويصير البدو الرحل من سكان الحضر، ويتعهدون بإثبات التحول من خدم إلى سادة. فقد يكون الطريق أحيانا قصيرا إذ يصبح الأتراك السلاجقة ثم الأتراك العثمانيون أمراء الإسلام، وسوف يكون لقب السيد الأكبر أو التركى الأعظم هو اللقب الذى يطلقه الغرب على الأمراء العثمانيين بعد أن استقر سلطانهم إثر الاستيلاء على القسطنطينية عام ١٤٥٣ وصارت عاصمة الإمبراطورية العثمانية.

وربما كان نوعا من قوانين القدر بالنسبة للإسلام الذى نجح فى استمالة ما يطوق أراضيه أو يعترضها من شعوب بدائية وإن كانت ترزخ وتنوء تحت ثقل العنف والقهر.

ويختفى المناضل البدائى الناجح الذى تميز بجهاده المؤثر الأثير، فينساح فى لج جبار من حياة الحضر التى بناها الإسلام ووضع دعائمها الراسخة.

الهوامش :

(١) ليس المؤلف من المتخصصين فى الدراسات الإسلامية؛ ولذلك جاءت كتابته فى مستوى متوسط. ولكن يذكر له أنه تناول الإسلام باعتباره أصلا من أصول الحضارات العالمية وإن جانبته الدقة فى عرض بعض المعلومات.

(٢) لم تبلغ الكتابة عن أحد من الأنبياء مستوى من الدقة مثلما كتب عن الرسول ﷺ إذ عنى المؤلفون الأوائل بعرض أخبار حياته من خلال الأسانيد المتصلة مع التنبيه الدقيق إلى عدالة كل راوٍ ودرجة ضبطه لما يرويه ولا وجود للحواشى المموهة اللهم إلا إذا كان المؤلف يعنى القصصى الشعبى غير الوارد فى السيرة.

(٤) تتحدث التوراة كما يتحدث الإنجيل عن الملاك «جبرائيل» فليس هو فى عقيدة أصحاب الأديان السماوية بالكائن الغامض، إلا أن يكون للمؤلف موقف معين من الأديان جميعا.

(٥) يؤكد القرآن الكريم الحقيقة التى يعرفها عرب البعثة جميعا بقوله «وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك».

(٦) ليست رؤى محمد ﷺ، ولكنها وحى منزل. والغريب أنهم لا يشككون فى أقوال أنبياء التوراة الذين يتحدثون عن وحى الرب وملاكه من أمثال «أرميا وأشعياء وحيقوق وحجى وغيرهم.

(٧) لا يمكن لمن يفقد الوعى أن يأتى بهذه الآيات البينات الآسرة.

(٨) أى عارف باللغة يدرك بالقطع أن القرآن ليس شعرا.

(٩) الصلوات الخمس بفروضها ونوافلها مغايرة لهيئة ورسوم الصلوات المسيحية أو اليهودية. يعرف ذلك كل مطلع عليها، دون حاجة إلى علم الأديان المقارن.

(١٠) شعيرة الحج حظيت من آيات القرآن الكريم بالحفاوة أكثر من غيرها من العبادات وارتباطها بالكعبة وعرفات إنما هو متصل بملة إبراهيم عليه السلام التى بقيت آثارها فى بعض التقاليد العربية وقد صحح الإسلام ممارسات العرب فى شأنها كما أنها لا تتصل فى شعائرها بأى مظهر من مظاهر احتفالات اليهود بعيد الفصح عند اليهود أو النصارى.

(١١) المفارقة واضحة بين ما شرعه الإسلام من شرائع وما قرره من نظم، وبين ما كان سائدا فى الأوساط المتهودة والمسيحية التى يتحدث عنها المؤلف، ويؤكد ذلك إشارته التالية إلى بعض الشعائر الإسلامية

(١٢) ليس هذا من أحاديث الرسول ﷺ. ولعله يشير إلى خشيته من أن تفتح الدنيا على أصحابه وأن يتنافسوها.

(١٣) لعله يشير إلى بعض أقوال «كعب الأحبار» عن صلة الخصب والفلاحة بالذلة، من وجهة نظره.

(١٤) ربما كان فى ذهن المؤلف قوله تعالى: «الأعراب أشد كفرا ونفاقاً» وهى آية نزلت فى مناسبة معينة.

(١٥) يخلط المؤلف بين المعنى اللغوى البحت وبين المفهوم الاعتقادى. فالفلاح يكفر البذور أى يغطيها بالتربة ومن هذا الفعل فالكفار الذين يدفنون البذور فى الأرض هم الزراع (الكفار) لغة لا عقيدة.

(١٦) إحدى مقاطعات بلاد الإغريق القديمة.

(١٧) من زعماء طيبة، مولود فى طيبة فى بلاد الإغريق (٤١٨ - ٣٦٢ ق.م).

(١٨) تقويم طبقى خاطئ يتعارض مع أقوال الكاتب نفسه فيما ذكره قبل ذلك.

(١٩) بلد آسيوى قديم قرب أفغانستان.

(٢٠) المعروف أن حروب الردة انتهت فى حياة الخليفة أبى بكر، كما بدأ «عصر الفتوحات الإسلامية».

الفصل الثانى

الجغرافيا ....
ماذا نأخذه عنها ونعلمه

الجغرافيا.. ماذا نأخذه عنها ونعلمه

يثير الإسلام سلسلة أحقاب ومراحل ترتبط إحداها بالأخرى وهى بعد ذلك مؤثرة ومتأثرة بتحولات وتقلبات كثيرة بما يكفى.. ذلك أن تاريخ الإسلام لم يكن تاريخا هادئا مستقرا.. ومع ذلك تظل هذه التحولات إذا ما رددناها إلى مجمل تلك الفترات الزمنية فإنها تظل نسبية. فالمسرح الإسلامى الحاضر يقدم لنا كل (فى مجموعه) ظاهرة مستقرة واضحة المعالم جلية، تبدو سلسلة من الحقائق والإيضاحات المفسرة تفسيرا ذاتيا ومنطقيا.

تُحدث الخرائط الجغرافية بالأهم، فقد صورنا المناطق ما كان فى حوزة الإسلام من مناطق، ثم تركت وأهمل شأنها حيث كان كل مرة يواجه حضارات أجنبية تنافسه:

صقلية وشبه جزيرة أيبريا (أسبانيا) وسبتمانيا وجنوب إيطاليا ثم ممالك البحر الأبيض المتوسط الغربى وممالك كريت وشبه جزيرة البلقان من قبل شرق أوروبا المسيحية الأورثوزكسية بضخامتها والسهل الهندى الأوسط على ضفاف نهر الجانج ومملكة Deccan ديكان الشمالية ومثيلتها الوسطى (مملكة ديكان هى جزيرة الهند) من جانب العالم الهندى.

وتظل مناطق الإسلام اليوم حيث احتفظ بسيطرته أو حافظ على الأقل على تلك السيطرة منذ زمن بعيد مناطق شاسعة ليست ثرية بعامة وتمتد من المغرب وصحارى الأطلنطى حتى الصين وانسرلند Insulinde الجزء الجزيرى لآسيا الجنوبية الشرقية أى أندونيسيا والفلبين وجزر الشرق الأقصى ومن داكار إلى جاكرتا كما جاء فى عنوان كتاب صدر حديثا.

علينا فى سردنا لما نتصدى له الآن من الأحداث ألا ننسى الأحقاب التى ازدهرت فيها الفتوحات البحرية وكانت تستخدم فى سالف العصر وهى اليوم وتقريبا وبصورة دائمة بعيدة عن قبضة وتناول الدول الإسلامية. ففى الماضى كان الأمر مختلفا تماما فالبحار تخضع لمن يمخر عبابه.

كان الإسلام فى سالف الزمان يمتلك وجودا ظاهرا فوق مياه البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر والخليج الفارسى وبحر قزوين وبصفة خاصة فى المحيط الهندى ذاته وذلك بفضل انتظام الرياح الموسمية التى أتقن الملاحون المسلمون الانتفاع بها واستطاعوا تحقيق صفقات تجارية رخيصة التكاليف بفضل نوع من سفن شراعية عربية فريد بناؤها تسمى Boutres ذات ألواح موصولة بحبال من ألياف النخيل ولا يدخل هيكلها شيء من المسامير، وتمكنت هذه السفن الشراعية المتميزة بلوغ مشارف مقاطعة كانتون فى الصين.

وعمدة فاسكوداجاما تعقب طريقها وتمكن عام ١٤٩٨ من الاستيلاء عليها وسلب شحناتها .. ومع ذلك ظلت حقيقة واقعة يجب الاعتراف بها، فلا البرتغاليون ولا الهولنديون أو الإنجليز ـ وفيما بعد ـ استطاعوا وقف هذا النوع من الصفقات التجارية البحرية العربية وربما تيسر ذلك فقط بعد اختراع البخار والسفن التجارية حول نهاية القرن التاسع عشر.

وهكذا كان التفوق الإسلامى البحرى تفوقا ذا نفس طويل امتد سنين عديدة، ومن ثم فلم تقتصر الأمجاد الإسلامية القديمة على بسالة فرسان الإسلام بل امتدت كذلك إلى مهارة رجال البحرية الإسلامية وخدمتهم وكان رمزها الشهير السندباد البحرى وما كان السندباد البحرى إلا رمزها المشهور.

كانت الأسبقية للبحر الأبيض المتوسط إذ وقعت على سواحله وأمواجه أحداث هذه المغامرة الكبرى إذ يتحدث السندباد عن مغامرات وملاحم لاقاها وعايشها مع مشاعر الانبهار للعجائب التى شاهدها ولكنه لم يفسر وصف الكوارث والفواجع التى شهدها فى المحيط الهندى وسوف نجد إن لم نخطئ أن المصير أو القدر البحرى للإسلام قد تقرر فوق مياه البحر الأبيض المتوسط وعلى سواحله (فقد تقرر المصير البحرى والقدر الملاحى العالمى الذى تحقق للإسلام) فهناك تحقق نجاحه وانتصاراته وكذلك حروبه ومعاركه.

كما وقع كذلك كل ما خاضه من معارك يائسة عنيفة ثم وقعت أخيرا أحداث الفشل الذى منى به.

من أهم فتوحات الإسلام ما تحقق له فضلا عن سوريا ومصر وفارس وشمال أفريقيا، فيما كان يشمل من البحر الأبيض المتوسط بكامل سواحله وأقطاره، وكان ممكنا لهذه الفتوحات أن تدوم لو أن المسلمين صمدوا فى جزيرة كريت عام ٨٢٥ غير أن بيزنطة تمكنت (فى عام ٩٦١) من استعادة هذا الموقع الأمامى الهام حيث ترسخت أقدامها فى كل من قبرص وردس محتفظة فى يدها بمفاتيح الطرق المؤدية إلى البحر الأحمر، فكان أن استطاعت بيزنطة، من فشل إلى نصف فشل شرقا، الاحتفاظ بهذا البحر بما تناثر فى مياهه من تلك الجزر الكثيرة حول شبه جزيرة البلقان وكذلك بالبحر الأسود والإدرياتى وهما الطريق إلى إيطاليا الذى سوف يستخدمه حكام البندقية فى انتصارهم الأول المتواضع حيث اشتهروا بنقل الأخشاب والملح والقمح إلى بيزنطة الثرية.

ومع ذلك فقد وقع الطرف الآخر من البحر الأبيض المتوسط وهو الجزء الغربى فى أيدى البحارة من مصر وشمال أفريقيا وأسبانيا وكانوا يعملون فى ظل الراية الخضراء كما تمكن الأندلسيون عام ٨٢٥ من غزو جزيرة كريت على حين تمكن التونسيون منذ عام ٨٢٧ حتى عام ٩٠٢ من الاستقرار فى جزيرة صقلية التى شهدت وقتئذ حقبة ازدهار عجيب إذ أصبحت هذه الجزيرة بمنزلة القلب النابض للبحر الأبيض المتوسط المغربى الإسلامى فتحقق لهما بالتعاون مع يلرمو نجاح

حضرى مشهود وسط ما اشتهر فى التاريخ بأسطورة الصدفة الذهبية (Conque D'oR) التى يجعلها الرى من حدائق الجنة.

كما تمكن المسلمون كذلك من حيازة نقاط فى مناطق مختلفة فى كل من كورسيكا وسردينيا ويستقر مقامهم فى الأقاليم حيث ظلوا يمثلون تهديداً لروما بل وينزلون من سفنهم كما يحلو لهم حتى مصب نهر التيبر Tibre وتمكنوا من ترسيخ أقدامهم بصلابة فى الـ Baleares وهى مجموعة الجزر ذات الأهمية الكبرى للاتصال بالشطر الشرقى من البحر المتوسط وهو ما يتيح الرحلات المباشرة بين أسبانيا وجزيرة صقلية.

وبضربة واحدة يصير البحر «ناقل الثراء» فى خدمة الإسلام ويساهم فى توسيع مدنهم البحرية وكانت محاصرة (مقفولة) وتصبح الإسكندرية منذ ذاك العاصمة وفرعا من فروع المدينة الرئيسية الكبرى المتروبول Metropole[١] الضخم بالقاهرة «وبليرمو» ونبتت وظهرت مدن أخرى استعاد بعضها ازدهاره من جديد مثل بوجيا Bougies التى اشتهرت بتكثيف غاباتها التى تبنى من أخشابها السفن البحرية وكذلك الجزائر وأوران وكل منهما مدينة متواضعة السمات فضلا عن الميناء الأسبانى الحيوى Almeria وما يجتمع على نهر «الوادى الكبير» Guaoalquivir من مدن فى مواجهة سفيليا Seville الأطلنطى وقد امتد هذا الازدهار زهاء قرن أو يزيد.

ولاشك أن الإسلام كان قد اضطر مبكرا إلى اللجوء إلى القرصنة المسيحية وذلك قدر الأثرياء ممن تتعرض ثرواتهم فتقع فريسة ومصدر إغراء للفقراء وحول القرن العاشر وعلى نقيض الوضع التقليدى فيما بعد كان المسلم هو الثرى أما المسيحى فقد اكتفى بأداء دور القرصان.

وكانت كل من أمالفى AMALFI وبيزا PISE وجنوا Genes تعد عشا للزنابير يؤوى القراصنة.

ثم تتدهور الأوضاع وتتصاعد مع غزو صقلية على يد النورمانديين فيما بين عامى ١٠٦٠ و ١٠٩١ ذلك أن السفن السريعة كانت تمخر البحر سعيا إلى اصطياد السفن الشراعية المسلمة وأصبح احتلال صقلية بمنزلة أول ثغرة تفتح فى بنيان العالم «الاحتكارى» الإسلامى.

تلت تلك الحقبة وقفة «امتدت وصارت نوعا من الضيق المحسوس عبر «البحيرة الإسلامية» المترامية الأطراف عام ١٠٨٠ عشية وصول «المرابطين» Al-moravides القادمين من السودان وشمال أفريقيا لنجدة مسلمى أسبانيا ١٠٨٥ فى عهد كومبائنين(٢) ، وحين لاحت بودار انحسار فتوحاتهم.

ومع ذلك استمرت البحار تابعة للروم والسفن تمخر عبابها وهى تتعرض لعديد من المخاطر حيث ظلت مدن القارة فى أيدى العرب.. وياله من مقابل ثأرى حتى عشية اندلاع الحروب الصليبية ١٠٩٥ ـ ١٢٧٠ تمكنت من استعادة السيطرة على «البحار الداخلية» بفضل الأساطيل البحرية التى وفرتها المدن الإيطالية. وبذلك بدأ منها بزوغ العصور الكلاسيكية الكبرى فى عديد من المراحل كمرحلة الاستيلاء على القدس على ١٠٩٩ وتأسيس دويلات الأرض المقدسة والاستيلاء على القسطنطينية على يد اللاتين Latins عام ١٢٠٤ وذلك إثر التحول الأسطورى للحرب الصليبية الرابعة ومع ذلك فما ينبغى أن يخفى تلك الحقيقة الكبرى وهى القضاء على حقبة البحر المتوسط البحرية التجارية وها هى المسيحية عام ١٢٩١ ومع ظهور القديس Saint. IEan d'acae (٣) تفقد المرتكز الآسيوى ذا الأهمية القصوى، كما لم تستطع الاحتفاظ بسيطرتها الكاملة على البحر المتوسط بلا منازع ينافس تواجدها.

ولم تحدث ردود أفعال إسلامية إلا بعد مرور قرنين أو ثلاثة قرون فيما تلا ذلك حيث حاول العثمانيون استعادة السيطرة الملاحية وتم لهم ذلك عام ١٥٣٨ فى انتصارهم فى Prevesa إذ صارت مسالك البحر المتوسط فى حوزتهم ثم كان بعد الهزيمة الضخمة فى Lepante عام ١٥٧١ أن وضع حل تقريبا مؤقت لعودة السيطرة التى كانت على أى حال تستهدف السيادة الحربية دون سواها ولم يعد هناك سوى أسطول تركى ضعيف من سفن نقل أغلبها يونانى وتقتصر مهامها على النقل فيما بين أسطنبول على البحر الأسود ومصر وذلك فى مواجهة أساطيل عديدة من البندقية وجنوا وفلورنسا، وقد نتج عن ذلك الوضع الجديد لا شك أن تفجر نشاط القراصنة المسلمين مع الانتصارات الفريدة فى الجزائر حيث لم يكف

البربر أبدا من أصحاب الأساطيل التجارية وهكذا تتابعت فوق مياه البحر الأبيض المتوسط الانتصارات والهزائم.

أما المحيط الهندى فقد ظلت مياهه هادئة نوعا ما حتى تدخل البرتغاليون عام ١٤٩٨ إثر رحلة الطواف البحرية المشهورة حول رأس الرجاء الصالح وانقلب الحال منذ ذلك التاريخ إذ أخذ الإسلام على غرة وبدأت شمسه تغرب وأمجاده تنحسر.

وصدق الباحث أسعد بك Essadbey إذ يقول إن الإسلام هو الصحراء... بل هو هذا التجمع الصحراوى الشاسع الذى يقع بين بقعتين ملاحيتين بين مساحتين من مياه مالحة هما البحر المتوسط والمحيط الهندى، ومن جهة أخرى فهو يقع بين ثلاث تكتلات بشرية كثيفة هى: الشرق الأدنى وأوروبا وشمال أفريقيا.

على أن الإسلام وقبل كل شىء قارة «وسطية» فهو يضم فيما يضم تلك المناطق الشاسعة من المحيط الأطلنطى حتى الغابة السيبيرية وفى شمال الصين صحارى وصحارى منها فى الجنوب الساخنة التى تتميز عن الصحارى الباردة فى الشمال وتنفرد بأنها مناطق الجمال ذات السنامين وهى الجمال الحقيقية ذات السنم الواحد وهناك خط يمتد من بحر قزوين Caspienne حتى مصب نهر الهندوس حيث يفصل تقريبا بين هذه المناطق وليس هناك بطبيعة الحال صحراء لا تمتلك سواحلها ومدنها الحضرية وسهولها وواحاتها حيث جرفت المحاريث والمجاديف الأراضى الزراعية التى قام بفلاحتها سكان هذه المدن الحضرية، كما كان فى هذه البلاد القديمة المتحضرة وكانت على شىء من حضارة وأطلق عليها المدن «الفردوسية» Paradisiaques كواحات نهر النيل الخصيبة الثرية ونهرى دجلة Tigre والفرات ونهر الأندوس «فى الهند» ونهر Amou ونهر سيجون Syrdaria اسم نهر فى الهند يصب فى بحر آرال (بحر وبحيرة فى تركستان الروسية فى آسيا الغربية) وكانت هذه الأراضى تتمتع بتربة خصبة رائعة يندر مثيلها جرفت منذ عهود سحيقة بحيث تبدو أحيانا كأنما استهلكت من كثرة الاستغلال إذ يجتمع الطقس وظواهر المناخ والطبيعة حتى لتبدو هشة واهية مضعضعة تتأثر بأقل عارض فجائى أو أخطاء بشرية بل وأحداث واهمة من فعل الطبيعة كالسيول

والأمطار الغزيرة أو كثافة سكان هذه الأراضى الممتدة على حواف الصحارى مما كان يحدث فيها من آثار مدمرة رهيبة لدرجة الفناء أو بتعبير أدق فإن الصحارى سرعان ما تبتلع وتدفن تحت رمالها المدن والحقول.

وهكذا تندمج فى الإسلام تلك العوامل الهشة المتعددة الغامضة فقد كانت مدن الإسلام مدنا مثقلة جدا يسكنها تجار عديدون وحولها حقول زراعية ضيقة حيث كانت حضارة الإسلام بمواقعه الجغرافية هذه حضارة قلقة مشدودة دائما فى انتظار ما كانت تتوقعه من صعوبات متواصلة ولو قد ألقينا اليوم نظرة على خريطة العالم الإسلامى لأدركنا بوضوح أن الإسلام يتألف من مناطق وبقاع كثيفة السكان بينها فراغات هائلة لم تتمكن منها عبقرية وسائل الرى ولا ما تحقق من نجاح فى الزراعة فى تربة جافة ولا ما يتمتع به الفلاحون المسلمون من صبر وجلد ومثابرة فى زراعة الزيتون أو نخيل البلح.. كل ذلك لم يوفر للبلاد الإسلامية الأمان اليومى الذى تحتاج إليه الشعوب المستقرة المطمئنة أما الوفرة فأمر لم تعرفه مجتمعات الإسلام إلا فى فترات قصيرة قليلة اللهم إلا ما عسى أن تتمتع به جماعة لها امتيازات اجتماعية أو معيشية (محظوظة) أو ميزات تحظى بها مدن بعينها.

وثمة مثال متناقض لتلك الحالة على الأقل عند النظرة الأولى «مدينة مكة» بثرواتها العريضة التى تأتيها ممن يتدفق عليها من الحجاج فى المواسم ويصبح فيها كل شيء ممكنا.. بإعجاز إذ يصف ابن بطوطة البحار العربى والرحالة الشهير عام ١٣٢٦ متغنيا بما شاهده من تراثها ووفرة كل شيء فيها وفواكهها الرائعة ذات المذاق الحلو ولحومها المكتنزة بشحومها وبما لا مثيل له من أعنابها وتينها وبلحها فضلا عن الشمام الذى لا يضاهى ثم يختتم سطوره فيما كتب فيقول: باختصار هنا فى هذه المدينة نجد كل السلع التى نعرفها متناثرة فى مختلف البقاع والبلدان.

ولكن الجوع فى موضع آخر هو الرفيق المحتوم الذى لا مفر منه أو فى قول شاعر عربى: أستطيع أن أطوى جوعى بين ثنايا ضلوعى أو كما قال أبو هريرة وهو واحد من صحابة الرسول ﷺ غادر الدنيا دون أن يشبع مرة من خبز الشعير.

ومن السهل أن ندرك الآثار التى كانت تترتب على هذه الحال متى وضعناها فى إطارها الصحيح من حياة بدو يجولون الصحارى ويحيون على الرعى وتتساوى الصورة ووتتوازن تماما مع صحارى الإسلام حيث كان قدره أن يتكيف مع الحياة فى تلك البقاع... المليئة بالشدائد والقهر إذ صور البدوى غالبا فى غير رأفة بأنه البدائى وذلك رغم ما أضفيت عليه من ألقاب نبيلة وهو إن لم يفهم أهل الحضر فهم من ناحيتهم كذلك لايفهمونه. وقد قرأنا لبعض المستشرقين العالمين بالإسلام من أمثال جاك بيرك قوله فى هذا البدوى الذى يوصف غالبا بالمحتقر «كم هو جميل ... نعم إنه نموذج من الحيوانية البشرية.

ومع ذلك فما أصعب قهره أو إذلاله وتطويعه وتوجيهه فى أموره ومصيره ولكنه كان بعامة شريكا على كل حال

... حيث إن الوضع بدونه .....

غير أن الحياة البائسة التى كان يحياها وتأخذ بخناقه قد جعلت صعبا نجاح ما نسميه اليوم بترقيته ترقية اجتماعية ما دامت الترقية لا تتحقق إلا بتلك العملية التحضرية،

أى الانتقال من حياة البدو الرحل إلى حياة الاستقرار فى مدن خلوية وهو ما يجرى اليوم على مستوى عال عريض، وكم من أمم وبلاد إسلامية منذ أيام الإمبراطورية العثمانية حققت هذه المعجزات لحسابها مهما كانت التكاليف، وكان كذلك منذ القرن السادس عشر فى أنحاء تركيا الآسيوية والأوروبية حيث زرعت مستعمراتها هنا وهناك بعديد من اليوروكس والبدو.. من ثنايا هذه الحياة البدوية من الرحل، الحياة القاسية وثقافتها المنغلقة المنطوية على نفسها وتعبر عن تصميم واضح جلى

والإنسان هنا أسير وعبد لكلمته وردود أفعاله كما يقول المؤرخ أرنولد تونبى.

كان الإسلام بالأمس إذ ينقصه البشر مضطرا إلى استخدام من كان فى متناول يده من البشر على ما كانوا عليه من حالهم وكان هذا النقص شبه الدائم وجها من أوجه فقره الأساسى ولكنا على النقيض اليوم نجد عدد المسلمين كبيرا جدا بالقياس

إلى إمكانياته وموارده بل أكبر مما ينبغى، أما بالأمس أيام العظمة فقد كان هذا العدد يتردد ما بين ٣٠ و٥٠ مليونا وليس كما هو اليوم ما بين ٣٠٠ إلى ٥٠٠ مليون فى أنحاء هذا الكون وبذلك صارت مهام الإسلام وواجباته اليوم واجبات ومهام ثقيلة تقبلها الإسلام مرغما إذ وقع عليه تقبل سكان بلاده كما هم، وذلك ما لم يصادفه الغرب ديموجرافيا على الأقل برغم ثرائه النسبى وذلك فضلا عما كان عليه الغرب من تصميم على تلمس البشر خارج حدوده

بحيث جعل من الإسلام التقليدى نوعا من الرق الممتاز، وهكذا كان مورد الإمداد البشرى المستديم من أكبر دعائم العالم الإسلامى، إذا أدت كافة الأمم والبلاد المجاورة ما عليها من إتاوة على التوالى: المسيحيون من أوروبا الذين أسرهم المسلمون سواء فى اليابس والماء أو كان شراؤهم كالصقالبة من أسرى الحروب حيث عرضهم يهود فردان للبيع فى القرن التاسع، أو من ذوى البشرة السوداء من شمال إفريقيا والحبشة والهنود وسكان أقاليم القوقاز البائيسين فى القرن السادس عشر، إذا انتهز الروس غارات التتار من سكان شبه جزيرة القرم لتمويل اسطنبول التركية بما تحتاج إليه من مدد بشرى.

غير أن جموع الرقيق هؤلاء كانوا أحيانا كثيرة مجلبة للرخاء بشكل مثير كالمماليك فى مصر الذين تمكنوا من الاستيلاء على السلطة حتى أيام حملة القديس لويس الصليبية الفاشلة عام ١٢٥٠، إذ تمكن هؤلاء المماليك الذين تربوا ونشأوا فى صناعة السلاح وأغلبهم من أصل تركى ومن القوقاز حيث نجحوا فى حكم مصر بقدر ما حتى الغزو العثمانى فى عام ١٥١٧ ولم يستطع القضاء عليهم قضاء مبرما ثم كانوا هم الذين واجههم بونابرت فى معركة الأهرامات وكان المماليك فى قول أحد المؤرخين طوائف من المحظوظين من محدثى النعمة ولكن فى غير خشونة أو فظاظة فلم يقدموا على الصغائر وكانوا بعامة يشبهون حرس السلطان الأتراك ذوى الشهرة.. ويشبهونهم فى كثير من الطبائع والعادات والسمات.

وفى الحقيقة كانت فى كل مدينة إسلامية أحياؤها التى يقطن كلامنها مختلف السلالات والديانات واللغات. وقد وقع عام ١٦٥١ فى تمرد نشب فى قصر بادبشاه

العثماني (السلطان) أن انصبت لعنة بابل داخل السراى حيث فوجئ غلمان السلطان وضباط حرسه من هول العصيان فبدوا فى خضم مشاعر الخوف والهلع كمن فقدوا السيطرة على مشاعهم ونسوا مالقوا من شعارات وأصول وتعليمات وانقلبت السراى ساحة من الشغب والصياح بما أدهش شهود الواقعة حيث سمعوا المذعورين يصيحون كل بلغته الأصلية من جورجية وألبانية والبوسنية والتركية والإيطالية، وهذا مثل واحد من كثير تذكرنا بجزائر القراصنة الأتراك.

هوامش:

(١) Metropole تحالف من عدة بلاد.

(٢) اسم الفارس الأسبانى الذى حارب «المور» Maures والأخير اسم أطلقه الرومان على بربر المغرب والأندلس.

(٣) قلعة كان جنود الصليبيين يحتمون فيها.

القارة الوسيطة أو الموقع والحركة والمدن

لم يكن مقدراً للإسلام أن يكون شيئا بغير الطرق التى تخترق بنيته الصحراوية وتنعشه وتمنحه الحياة إذ الطرق ثروته بل وحضارته وقد استطاع بها تحقيق نوع من الركيزة المسيطرة حتى قبيل اكتشاف أمريكا حيث يشرف ويسيطر بالفعل على ما يسمى «بالعالم القديم» متحكماً فى جوانب تاريخه العالمى فهو وحده ونكرر وحده الذى يوصل بين كبرى التيارات الثقافية التى ينقسم العالم القديم مدتها: الشرق الأدنى وأوروبا وشمال أفريقيا.. فلا مرور لشيء بغير موافقته أو يغمض على الأقل عينيه.. وهو الوسيط الحق عن السفن والقوافل التجارية رغم ماكان يعتريه من صعوبات سياسية كثر حدوثها إذ ظل الإسلام جغرافيا صاحب حق الانتفاع بالطرق والمسارات الضرورية ولم يكن الإسلام بالطبع دائما على وعى تام بهذا الوضع المتميز كما لم يكن أحيانا أخرى سيدا للموقف وهكذا صار الإسلام فى مواجهة الصحارى الباردة فى آسيا ضحية «هشاشة» سيطرة هامشية غير مستقره فى مواجهة شعوب بدوية دائمة الاضطراب والشغب فالتركستان المسلمة خط من واحات هى بمنزلة موقع أمامى ولم تكن أبدا بمنزلة حواجز وسدود منيعة لمواجهة الأتراك أو التركمان أو المغول فى طريق بحر آرال حتى بحر قزوين وإلى البحر الأسود فكان أشد هؤلاء البدو بأسا يصعدون حتى إيران

ويهددون بغداد. وما وقع فى القرن الثالث عشر من معانى الاندحار والانكسار لرد الهجمة المغولية.

ومع ذلك فقد ظل الإسلام قرونا هو الوحيد الذى يتحكم فى تداول الذهب من السودان والعبيد من الزنوج وهم يعبرون تجاه الأبيض المتوسط وفى تجارة الحرير والتوابل (الفلفل) واللؤلؤ من الشرق الأقصى فى طريقها إلى أوروبا وظلت تجارة الشرق من احتكارات الإسلام بلا منازع بين آسيا وأفريقيا وبين أيدى التجار فى إيطاليا فقط وذلك منذ وصولها إلى الإسكندرية أو حلب أو بيروت أو طرابلس أو سوريا.

وبذلك يكون الإسلام وبامتياز حضارة حركية فمن رحلات بحرية إلى أقاصى الأرض مع عديد من مسارات القوافل بين المحيط الهندى والبحر المتوسط كما كانت تنطلق وفى نفس الوقت كثيرا من البحر الأسود إلى الهند والصين من بلاد ذوى البشرة السوداء حتى شمال أفريقيا وكانت هذه القوافل مع توفر الفيلة فى الشرق والخيل والحمير فى كل مكان تعتمد أساسا على الإبل والحباليين إذ يستطيع الجمل حمل ما وزنه ثلاثة قناطير من عروض التجارة المفيدة (حوالى ٣٠٠ كيلو جرام) فلو قدرنا قافلة من خمسة آلاف جمل أو ستة آلاف لأمكن مقارنة وزن ما تحمله فى مجمله بحمولة أضخم سفينة شراعية حيث تتحرك القافلة كما تتحرك الجيوش بقوادها وهيئة أركانها وأحكامها الصارمة ومراحلها الاضطرارية والمحددة وما تتخذه فى رحلاتها وتنقلاتها من احتياطات ضرورية من مفاجآت البدو وغاراتهم لنهب شحناتهم وكان من الحكمة إبرام اتفاقيات مع هذه العناصر من النهاز بين وقطاع الطرق. وكانت قوافل الجمال المحملة ومن يقودونها من الجمالة يصلون بعد مسيرات محددة ومعينة إلى هياكل مبنية مشيدة لإيواء المسافرين والعابرين يقال لها «خان» يأتيها قواد القوافل للراحة وإطعام جمالهم وإيوائها. ويعد الخان محطا للقوافل فما من مسافر من أوروبا لم يذكر هذا النوع من الخان بقاعاته الفسيحة الضخمة وأثاثها المتواضع ومازال بعض منها إلى اليوم قائما مثل خان حلب الرائع (خانات) ولا سبيل لهذا النوع من تجارة القوافل أن يتلاءم أو يدوم دون تنظيم وإن كان بسيطا؛ ولذا كان للإسلام فئاته من التجار (مسلمين وغير مسلمين).

وتشاء الصدفة وحدها أن أحتفظ ببعض وسائل تجار اليهود من سكان مدينة القاهرة منذ عصر الحرب الصليبية الأولى من (١٠٩٥ حتى ١٠٩٩) وهى تكشف عن أساليب التجارة وطرق التعامل النقدى. والتعامل بالقروض وكافة أشكال التعاملات السلعية والتجارية والمبادلات، وكذلك تحدثنا هذه الرسائل من هذا النوع من المبادلات التجارية العابرة بين مناطق شاسعة بعيدة وأنواع مختلف السلع كالمرجان من أفريقيا إلى الهند، وعن اجتلاب العبيد جلبهم وشراؤهم من الحبشة والفلفل والبهارات من الهند وغيرها من السلع .

وكانت هذه الحركة من التجارة فى حاجة إلى مدن ورجال مدربين وتنظيم ضخم وحركة مالية وسلع للمقايضة وما كان لأحد أن يدهش بما حقق التجار العرب المسلمون من روعة العظمة وضخامة الثراء فأصبحت من دعائم الإسلام الراسخة.

ذكر ذلك فيمالتيه الرحالة المغربى الأصل «ابن بطوطة» الذى ولد بمدينة طنجة بالمغرب عام ١٣٠٤ وكان قد أتم رحلاته حول الأرض من عام ١٣٢٥ حتى عام ١٣٤٩ زار خلالها مصر والبلاد العربية وسواحل نهر الفوبى وأفغانستان والهند والصين ووصل عام ١٣٥٢ إلى «السود» وسواحل النيجر ولم يكن مقدرا لكل هذه التحركات أن تحدث أو تقع مالم تكن مستندة إلى خلفية منتظمة تدعمها فى مدائن منيعة كان الإسلام يعج بالعديد منها حيث يتكاثر ويزداد عددا عاما بعد عام ولم يكن لشيء أن يتحقق إلا عن طريقها وبفضلها من الناس والأنعام والسلع وكل أسباب الثراء بل ومن التيارات الثقافية والتحف ونستطيع أن تصدر قائمة ولا سبيل إلى حصرها فى مثل هذه العجالة بما كان يصدر إلى أوروبا من سلع منها على سبيل المثال النباتات القادمة من أقاصى الأرض وقصب السكر وأشجار القطن وبارود المدافع والحرير ودود القزوالورق وأنواع ذات شهرة عريضة من نباتات الأدوية ومجموعات كثيرة من جراثيم أشد الأمراض فتكا كأمراض الطاعون والكوليرا من الصين والهند لإجراء التجارب عليها.

وكانت هذه المدن تتشابه من حيث شوارعها الضيقة المنحدرة عادة حتى تغسلها مياه الأمطار وتنظفها وكانت ضيقة بحيث لا يستطيع حماران محملان اجتيازها فى تقاطع واحد وقد تتعدى المنازل غالبا على الشوارع والأرصفة ومنها

ما كان ذانتوء فهى أشبه بالمساكن الغريبة فى القرون الوسطى المرتكزة على الأعمدة وقد أدى اختفاء النظام وغياب إدارة محلية للبلديات إلى تزاحم هذه المنازل المنخفضة إلى تزاحم تكدسها بصورة عشوائية إثر ازدياد سكان المدينة ومما كتبه الرحالة الفرنسى تيفنو عام ١٦٥٧ نقرأ وصفه لهذه المدن ومنازلها وشوارعها فيقول : من الغريب ألا نجد فى مدينة كالقاهرة شارعا واحدا جميلا ولكنك تعثر على عدة شوارع صغيرة تلتوى وتتقاطع فى حوارى ومنعطفات تدل على أن هذه المنازل قد بنيت عشوائيا دون أى تخطيط مقتطعة كل مساحة تروق لمشيدها دون أى مراعاة لما يحتمل أن تسد أو تحجب أى طريق، ثم فرنسى آخر من بعده اسمه ڤولينى عام ١٧٨٢ يصف هذه الشوارع فيقول: هذه الشوارع وهى غير مرصوفة تعج دائما بكتل من البشر والمواشى والحيوانات والحمير والكلاب وكلها فى عجلة من أمرها تتحرك بسرعة مثيرة كثيرا من الأتربة والرمال فيضطر السكان إلى رش المياه أمام منازلهم وأبوابهم فيتخلف من الغبار الطين الذى يغمر المكان فيمتلئ بالروائح الكريهة، والمنازل تشيد على عكس ماهو مألوف عن الشرق من دورين أو ثلاثة أدوار تنتهى بسطح من الصلصال أو الطوب اللبن أو من أحجار تجلب من جبل المقطم القريب من مدينة القاهرة وتبدو أغلب هذه المنازل كالسجون وتجد الصورة نفسها فى مدينة أخرى كاسطنبول فى القرن التاسع عشر فلم يكن يشق على العربات وحدها المرور بل لم تكن الخيول ذاتها تستطيع المرور إلا بصعوبة بالغة ولم يكن عرض شارع (الديوان) وكان يعد أعرض شوارع العصر ليزيد عن مترين ونصف أو ثلاثة أمتار فى بعض المواقع. وعلى الجملة فقد كان هذا هو الواقع بصفة عامة ومع ذلك ففى القرن الحادى عشر كان فى القاهرة منازل ذات سبعة طوابق أو ١٢ طابقاً أحيانا وكانت مدينة سامرا، بمنزلة استثناء من القاعدة بما كان بها من ميدان فسيح يمتد طولا عدة كيلو مترات وبعرض بين ٥٠ و ١٠٠ متر. وقد أدى هذا الوضع مع ضيق شوارع المدن الإسلامية إلى التكدس المستمر مع كثافة سكانها إذ كانت مكان التجمع خصوصا لشعب يحب الظهور والتعبير عن ذاته وكان الشارع بمنزلة الشريان الحيوى حيث تتجمع فئات المنشدين والرواه والقصاصين والمغنين وحوائى

الثعابين والمهرجين والراقصين وكذلك المشعوذين والدجالين والمطببين بكافة أنواع الأعشاب يداوون المرضى والحلاقين كما يتجمع فى الوقت نفسه علماء الأخلاق ودعاة العقيدة المسلمون حيث يتفقون على مواعيد يتلاقون فيها للدرس والوعظ والإرشاد، وكذلك غصت شوارع المدن الإسلامية بالأطفال والأولاد فى لعبهم ولهوهم وكان عنيفا أحيانا، وإلى ذلك كله يضاف ما احتفظ به للمرأة من ميزة سيرها وحواها على الأرصفة وعلى رغم هذا المقدار الهائل من الفوضى فلم يخل الأمر من «خطة عامة» ظلت مرتبطة بحياة السكان إذ ينهض وسط هذه المدن الجامع الكبير فى موقع له جلاله وهيبته وخاصة كل أسبوع للصلاة فإليه تتجه الجموع ثم تنتشر منه بعد الصلاة.

كأنما هو القلب من الجسد وإلى جواره تمتد الأسواق والوكالات التجارية ومستودعات للبضائع والسلع التى ترد بها القوافل وفى بعض أبنيتها الحمامات «العامة» الشعبية ودكاكين أصحاب الحرف والصناع المهرة تتجمع فى شبه تخطيط مركزى ينطلق من موقع الجامع الكبير فنجد أولا صناع الروائح والبخور والعطور وتجارها ثم الحوانيت حيث تباع أنواع الأقمشة والفرش ثم الصاغة وتجار المواد الغذائية وأخيرا أصحاب حرف أقل منزلة وأقل درجة كصناع الجلود ودباغتها والإسكافية والحدادين والخزافين والسروجية والصباغين وهؤلاء الذين جاءوا فى نهاية ما ذكر من الحرف تبلغ حدود المدينة التى كانت مقسمة إلى حارات تضم كل منها أصحاب حرفة معينة. أما «المخزن» ويعد حى الآمر فيقع على حافة المدينة فى منأى عن الشغب ونوبات الفوران الشعبى وإلى جوارها وتحت حمايته حارة اليهود (الملة) وإلى جانب هذه الشكول تقوم مجموعة عديدة من حارات سكنية مقسمة تبعا للموروثات ومختلف الأعراف ففى انطاكية وهى مدينة من طائفة من أحياء صغيرة خمس وأربعون حارة تعيش فى خوف وأرق دائم من حوادث القتل ومن ثم لم يخلق الاستعمار الغربى للتمييز العنصرى بل لعله أزاله إذا قام فى طريقه.

استفحل هذا النظام الصارم والفوضى الظاهرة وتفاقم مما كان للمدن من أسوار وأبواب عظيمة وما كان يحيط بها من جبانات فسيحة لا يسهل التعدى عليها ولعل

حركة السيارات والعربات اليوم أجبرت أهلها على تحويل مواقعها أحيانا دونما تخطيط ففى خلال موجة التوسع وحمى التطور وتوسيع الشوارع لاستيعاب الأعداد الكثيفة والحركة الطارئة تحولت مدينة كمدينة اسطنبول إلى مايشبه الأودية الجليدية إلى حشد من قنوات مفتوحة وطرق جانبية متقاطعة فى غير نظام ومنازل تنقسم من منتصفها بحيث تفتح أبوابها الداخلية الآن على الفراغ طرق رئيسية جديدة مرصوفة تخرج منها شوارع جانبية.

بعد رفع مسرع للأنقاص على أن المدن الإسلامية وإن لم تعرف فى واقع الأمر الحريات السياسية ولا ما تتبعه التجمعات السكانية الغربية من إحساس معمارى منظم فيما سلكت من مسيرة التنمية فهى فى الوقت نفسه لم تعرف الوظائف التى تؤدى إلى نشأة المدن مع ما كانت تأوى كثيرا من طبقة بورجوازية ذات تفكير تقدمى إلى جانب طوائف من فقراء ونشالين وغشاشين يعيشون مع ماكان بينهم من أصحاب حرف بائسين يعيشون على فتات تلقيه إليهم الأسر الثرية ومع ذلك يبرأ أفراد من هؤلاء الأثرياء بحياتهم الرغدة المترفة من فساد لا يحتمل بما يمارسون من ألوان الدعارة والفن ولم تكن مجموعة المتشددين والوعاظ لتتقبل منهم هذا القدر من الفساد إذ كان منهم الوعاظ الذين هم بحق قلاع الفكر وذلك بفضل مدارسهم التى جاورت المساجد فتحولت أحيانا إلى كليات وجامعات. كان هذا النشاط كله يثير انتباه القرويين من أبناء الريف وإغراؤهم لما يشاهدونه ما أن يلجوا أبواب المدن وشوارعها وكان من مهام الوعاظ والمرشدين تطبيع هذه الفئات من القرويين وترويضهم وفق «قواعد اللعبة» التى لن تنتهى مادام هناك مدن وأرياف فى أنحاء الدنيا ولكن المهم أن هذه اللعبة وقواعدها ثابتتان لاتتغيران تهيمن على العلاقات بين الموسرين والفقراء وكان المنطق الذى استلهموه من الوعظ والإرشاد قولهم: إنه مامن إنسان ليس فى حاجه إلى تقويم وإصلاح ذلك لأن من بينهم اللصوص والمسرفين المبذرين والأشرار.. ورد هذا الكلام على لسان مواطن فى مدينة أشبيلية كان لاشك فى حديثه يتذكر ما كان من نزاعات لانهاية لها وما كان يثار من شجار بين أهل المدن وأهل القرى وبائعى المواشى واللحوم والجلود والزبد والدهون وما إليها من سلع وكانت نوبات

الشجار تنشب أيام الأسواق عند انتقال أهل القرى لترويج منتجاتهم فيحاول أهل المدن من الحضر الاستحواذ عليها بثمن بخس يثير حفيظة أهل القرى وأغلبهم من الفقراء البائسين المعدمين.

ومع ذلك فقد كان دهاء أهل الحضر ومكرهم هو الفيصل في فوز أهل المدن وانتصارهم على هذه الفئة من الفقراء من أهل الريف ويشاء القدر أن يظل زمان يسرق السارق فيه بدوره وكذلك كان يقع سكان المدن في حبائل القرويين أحيانا ذلكم ناموس الحياة وقواعد العلاقات بين البشر دائما. أما في الإسلام وبأفضل مما كان يقع في الغرب فقد استطاع أهل المدن السيطرة على أهل الريف بحكم ما كان عليه القرويون من حياة بدائية خشنة لم تمسسها بعد يد الصقل ومن ثم رأينا دمشق على سبيل المثال تسيطر سيطرة شبه كاملة على فلاحي المناطق القريبة من «الغوطة» وسكان جبل الدروز وسيطرة سكان الجزائر على قراصنة البحار الوافدين وفلاحي فاس ومثلهم برجوازي غرناطة كملابسهم الحريرية وسيطرتهم على الفلاحين بملابسهم القطنية الوافدين عليها من الجبال القريبة.

ومهما يكن من شيء فقد كان ذلك دائما سمة كل «مدن الحضرة» أما انفراد التجمعات الإسلامية وأصالتها في هذا السياق بالقياس إلى الغرب فإنما يعود إلى «باكورتها» من جهة ومن وضعها الفريد من جهة أخرى.

ولا تثير منزلة مدن الإسلام شيئا من الدهشة، ذلك أنها تمسك بالزمام من «جوهر» أو «بروح» حضارية، فالمدن والطرق والسفن والقوافل ومناسك الحج إنما تمثل «وحدة» متماسكة وهي بمنزلة الدعائم وروابط حركة وانطلاق أو خطوط دفاع قوية عن الحياة الإسلامية وتعرض لها في سماحة «لويس ماسينيون»

أما حديثنا فيتناول في الصفحات التالية:

١ - أكانت هناك حضارة للإسلام منذ القرن الثامن؟!

٢ - العصر الذهبي للإسلام بين القرن الثامن والقرن الثاني عشر.

٣ - الإسلام حضارة مبهمة.

٤ ـ الإسلام ظاهرة عالمية ذات سمة إقليمية.

٥ ـ العلوم والفلسفة فى الإسلام.

٦ ـ تجمد الإسلام وانحداره.

٧ ـ الإسلام ونهضته الحالية فى مواجهة العالم اليوم.

عظمة الإسلام. . . وانطوائه
في القرن السابع حتى القرن الثالث عشر

قد نختلف فى ترجمة عنوان هذا الفصل، أما مالا سبيل إلى الاختلاف عليه فهو لفظ عظمة الإسلام أما لفظ الانطواء قد تعنى الانكماش أو التقلص. بلغ الإسلام أوجه فيما بين القرنين الثامن والثانى عشر بإجماع الطاقة ولكن فى أى تاريخ يحدد انكماشه وفى ذلك ما قد يكون الخلاف فيه، فإذا ما أخذنا بالتفسيرات الشائعة، فقد بدأ الانحسار القاطع منذ القرن الثالث عشر حيث يجب التمييز بين أمرين جد مختلفين مع عدم الخلط بينهما هما نهاية تفوق أو رجحان حضارة ما ونهايتها ذلك أن الإسلام فى القرن الثالث عشر قد فقد جليا موقع الزعامة وإن الخسارة الخطيرة الهائلة ما كان من سرعة التدهور ابتداء من القرن الثالث عشر أى بمقياس الحضارات البطىء منذ وقت قصير جدا، وكان مصيره ما صارت إليه كثير من الأمم التى توصف اليوم بالنامية وترجمتها الصحيحة ما دون النماء إذ أخفقت مثل تلك الأمم فى اللحاق بالثورة الصناعية، وهى الثورة الأولى التى مكنت من تنمية العالم بسرعة الآلات الخيالية.وبرغم هذا الإخفاق الجلى للإسلام، فإن علينا أن نذكر والحق يقال إن الإسلام لم يمت من حيث هو حضارة وإنما تأخر عن أوروبا تأخرا ماديا قرنين من الزمان... ولكن أى قرنين!

لم يكن للإسلام حضارة فيما بين القرنين الثامن والتاسع.

فقد ولد الإسلام فى واقع الأمر فى عدة السنوات هذه التى احتاج إليها العرب لفتح إمبراطورية، ولكن الحضارة الإسلامية إنما هى نتاج الامتزاج بين هذه الإمبراطورية وحضارات أخرى أقدم وقد احتاج الأمر إلى زمن طويل جدا كما احتاج إلى أجيال عديدة من البشر والناس والحق يقال.

قليل من الحوار كثير من الخزى.. خلقه

الغزوات الأولى خلقت إمبراطورية وخلقت دولة

ولكنها لم تخلق حضارة

لم يكن هدف الفاتح العربى فى البداية الدعوة إلى الدخول فى العقيدة الجديدة إلا نادرا بل على العكس استغل أكثر الحضارات الثرية التى وقعت تحت رحمته من فارس وسوريا ومصر وكذا حضارة أفريقيا (أى أفريقيا تحت النفوذ الرومانى) فأما أفريقيا العرب وتوازى تونس اليوم وأما أسبانيا أى الأندلس فقد حاول المسيحيون فيها الدخول فى الإسلام حيث كانوا عرضة للجلد بالسياط إذ كان سداد الضرائب الجزئية مقصورا على المسلمين..

فلم يكن السادة الجدد ليعملوا على خفض مواردهم!

وقد احتفظ سكان الأمم والبلاد المفتوحة بأساليب معيشتهم دون إزعاج أو إرهاق وإذ لم يمنع ذلك من معاملتهم معاملة الحيوانات «الراقية» حيث تحتاج إلى عناية خاصة طالما أقامت على سداد الشطر الأكبر من الضرائب كما ذكر جاسنون فييت وهكذا استمر الحال فى عهد خلفاء محمد الأربعة، وكانوا ذوى توجيهات طيبة (٦٣٢ - ٦٦٠) ثم فى عهد خلفاء بنى أمية (٦٦٠ - ٦٧٥) الذين أقاموا عاصمتهم فى دمشق.

وخلال سنوات هذه الحروب المتواصلة لم يكن أبدا الاهتمام ولا كان الباعث نشر الدعوة الإسلامية فى المقام الأول. وهكذا كان النزاع وكانت الصراعات مع بيزنطة سياسية ولا عقيدة دينية تنازع عقيدة دينية أخرى.

بل أكثر من ذلك إذ كان لأهل البلاد المفتوحة الاحتفاظ بحق الإدارة كما تظل كتابتهم سواء باليونانية أو البهلوية (لغة الفرس) أما الفنون فقد ظلت بدورها تحتفظ بطرزها اليونانية حتى فى بناء الجوامع من حيث الساحات فى الوسط والأعمدة التى تحيط بالمبنى والشرفات والقباب أى كانت كلها على النمط البيزنطى على الرغم من أنها تذكر بالأجراس المسيحية غير أن المآذن كان لها طابعها الخاص ذلك، إذ تصمم لأذان الصلاة.

المنعطف العباسى حول منتصف القرن الثامن والتغييرات الجوهرية الحاسمة من سياسية واجتماعية وسرعان ما تصبح ثقافية عند انتقال الخلافة إلى العباسيين وأصبح العلم «الأسود» يحل محل راية بنى أمية البيضاء.

يتحول العالم الإسلامى إذن نحو الشرق ويبتعد قليلا عن البحر المتوسط وهو المنطقة التى كثيرا ما سحرته ربوعها فمع الخلفاء الجدد انتقلت عاصمة الإسلام فى الواقع من دمشق إلى بغداد وهكذا تتحقق محاباة الثأر الرهيب لدى الإيرانيين وعملاء آخرين من الشعوب الخاضعة.. لقد انتهى زمن حكم العربى ذى الدم النقى الذى دام قرنا أو أكثر من الزمان أى على مدى ثلاثة أو أربعة أجيال مضيئة وهو المدى الذى ضاعت خلاله نغمة المحارب المتفوق فى ثنايا المباهج والملذات والثراء وفخامة الحضارة وإغراءاتها. تلك الحضارة التى قال عنها فيما بعد ابن خلدون الذى ولد فى الأندلس إن التحضر هو الشر مجسما.

فإذا الأدوار الأولى تعود إلى الأمم ذات الحضارات القديمة العريقة فى الوقت الذى بدأت تطل فيه برأسها انتعاشات مادية كبيرة، ففى حوالى عام ٨٢٠ ارتفعت موارد الخليفة بما قد يبلغ خمسة أضعاف موارد الإمبراطورية البيزنطية السنوية وتعود هذه الموارد الهائلة إلى رأسمالية مبكرة وجهت اهتماماتها نحو التجارة والمبادلات فاتسعت اتصالاتها حتى الهند والصين وشملت الخليج الفارسى وأثيوبيا وسواحل البحر الأحمر وأفريقيا والأندلس.

ليس فى لفظ رأسمالية مغالطة تاريخية ذلك أن المضاربة على البضائع فيما بين أطراف الأقطار التى تألق فيها النفوذ الإسلامى لم يعد له حدود يتوقف عندها

فقد ازدهر التبادل التجارى وشمل ما سبق ذكره من بلاد، فلقد قرأنا كيف كان التاجر فى بلد يتفاوض مع آخر فيسأله كيف يستطيع استيراد الزعفران من فارس لنقلها إلى الصين حيث سمع أن سعرها هناك مرتفع جدا وكيف استورد من الصين سلعا (خزف صينى) يبيعها ويسوقها فى اليونان وعن شراء بروكار (أقمشة) من اليونان للهند وصلب من الهند لحلب وسلع خارجية من حلب لليمن وأقمشة ذات خيوط حريرية من اليمن لفارس وكانت قواعد التجارة فى البصرة تجرى وفقا لما يمكننا اليوم تمسيته عمليات التخليص أو الإفراج ولم تكن المبادلات تزدهر دون مدن تنعقد فيها وهكذا قامت مدن كثيرة مختلفة تقوم فيها قواعد النشاط التجارى الذى لم يقتصر على بغداد من عام ٧٦٢ ثم كان أن دمرها المغول تدميرا وحشيا وكانت عام ١٢٥٨ قد صارت بلاشك أضخم وأغنى عاصمة فى العالم القديم وأصبحت يقينا من مدن النور، وغير بعيد منها على نهر الـ «دجلة» قامت مدينة سامرا الضخمة التى تأسست عام ٨٣٦ ومعها مدينة البصرة ذلك الميناء الكبير ومدن القاهرة ودمشق وتونس وهى تجسيد مجدد لمدينة قرطبة.

كان لكل هذه المدن على اللغة العربية الفصحى ابتداء من لغة القرآن والأشعار التقليدية المتوارثة فضل الصياغة أو إعادة صياغة وهى لغة مصطنعة يقينا أو على الأصح «أدبية» سوف تصبح أداة التعبير فى كافة البلاد الإسلامية تماما كما كانت اللغة اللاتينية بالنسبة إلى شعوب الديانة المسيحية.

كانت اللغة العربية لغة الأمم العربية المتنوعة ذات اللهجات الإقليمية لا لغة من اللغات وكانت أقرب إلى «لغة أدبية» ولغة تفكير وتجمع لغوى بل ومستهل حضارة انبثقت فى البداية فى مدينة بغداد ثم من بغداد سطعت أشعتها وتألقت بعيدا.

وقد تلا هذا الزمان منذ العباسيين انقلاب كبير فى تطويع الموظفين. ففى عام ٧٠٠ استدعى الخليفة عبدالملك «حنا الدمشقى» الراهب الناسك فيما بعد وجعله مستشاره وأبلغه بأنه قرر اعتبارا من اليوم إلغاء اللغة اليونانية فى جميع قرارات الإدارة العامة مما أثار فى سارجون أى سرجيوس باسم آخر عرف به حنا الدمشقى، حفيظته وغضبه فكان فى غمرة حزنه أن التقى ببعض أولى الأصل

اليونانى من الموظفين فقال لهم: ابحثوا عن مهنة أخرى مجزية.. ذلك أن تلك المهنة التى تمارسونها اليوم قد «سحبها» قد «انتزعها» الله... كان ذلك بمنزلة نهاية لتسوية مرضية تقبلها طرفان بالنسبة لإحدى اللغات وبالنسبة لمرحلة من مراحل التساهل والتراخى المتبادل بين المسلمين والمسيحيين.. ذلك أن عصرا جديدا قد بدأت تباشيره.

ومع الوحدة اللغوية انبثقت قوة الدفع الضرورية للمبادلات الثقافية ولما كانت تقتضيه أوجه النشاط التجارى ومتطلبات الحكومة والإدارة وأصبحت رسائل تجار اليهود التى سبق الحديث عنها تحرر منذئذ بالعربية ولو بحروف عبرانية وبفضل هذه الإدارة اللغوية يجنى الإسلام ثمارا وفوائد ضخمة إذ قام ابن الخليفة الشهير تامر بترجمة كثير من المصنفات الأجنبيبة إلى العربية وخاصة اليونانية وانتشرت علوم هذه المصنفات انتشارا سريعا ذلك أن الإسلام كان قد عرف فى وقت مبكر الورق وكان أقل تكلفة من الرق الذى كان شائعا بين الشعوب للكتابة، وفى قرطبة قيل إن الخليفة ابن الحكم الثانى ٩٦١ ـ ٩٧٦ كان يقتنى وحده مكتبة عامرة من أربعمائة ألف مخطوط مع ٤٤ مجلدا من الفهارس، ومع ما ينبغى أن تعرف حتى لو كان هذا الرقم مبالغا فيه، إن مكتبة شارل الخامس بن حنا الطيب لم تكن تحوى سوى ٩٠٠ مجلد.

وبهذا القدر الهائل فى التحولات الداخلية التى تفاعلت خلال تلك القرون الهامة يختلف دين محمد فى تفسيراته وتأويلاته مع البيزنطية حيث يتضاعف بروحانية يجد فيها المتخصصون أنفسهم طوعا إزاء «بعث جديد» من أفلاطونية جديدة حتى الانشقاق الشيعى الهائل ذلك الذى انبثق من الأعماق ولو جاء فى جزء منه من الخارج واندس فى الإسلام منذ ظهوره فى البلاد العربية ذلك أن الشيعة إنما يتعلقون بالخليفة التقى «على» الذى اغتاله الأمويون يعارضون الأغلبية من السنة وتقاليد الإسلام متمثلة فى مناسك الحج التى يؤديها آلاف من المؤمنين بها إذ يرون فى «على» نبياً ثانياً وفى أمه فاطمة قديسة كريم العذراء ومازالت قصة وفاة «على» وأولاده تروى فى إطار من الشغف المشبوب بالعواطف الجياشة حتى اليوم.

وهكذا فإن الإسلام فى روحه الدينية يعش الصياغة مقترضا مستعيرا من الحضارات الشرقية وحضارات سواحل البحر المتوسط المتجددة مقدرا فيها مهمة وقتية روحانيا وواجبا مشتركا وذلك فى نطاق لغوى واحد حيث لم تكن البلاد العربية سوى مرحلة من المراحل، ذلك أن الحضارة الإسلامية من وجهة نظر معينة لم تبدأ كذلك إلا مع تعميم المدارس عبر الإمامة وهى مجمع المؤمنين وكذلك لم تبدأ إلا مع دخول الأمم وشعوبها غير المسلمة فى الإسلام أفواجا وهما من المحيط الأطلسى حتى هضبة بامير (الهضبة العليا فى آسيا الواقعة بين الهند والتركستان) وها هو ذا التبريز القديم يعود فيعبأ ليملأ القرب من جديد .

عصر الإسلام الذهبى فيما بين
القرن السابع والقرن الثانى عشر

كان الإسلام على مدى أربعة أو خمسة قرون هو الحضارة ذات السطوع الأكبر فى أقطار العالم القديم، إذ يمتد هذا العصر الذهبى من ابن هارون الرشيد (المأمون) ٨١٣ ـ ٨٣٣ منشئ دار الحكمة فى بغداد بما يضم الوقت نفسه من مكتبة ومركز للترجمة ومرصد فلكى حتى وفاة ابن الرشيد ١١٢٦ ـ ١١٩٨ فى المغرب عن عمر يجاوز قليلا ٧٢ عاما. غير أن تاريخ الفكر والفنون لا يفسر وحده تلك البرهة العظيمة التى عاشها الإسلام حيث يتضح فى مضمون التاريخ العام صورتها الحازمة.

كتب أحد مؤرخى الفلسفة الإسلامية ليون جوتييه يقول إن ما شهد الفكر الإسلامى من أحقاب ملائمة له كانت عصور سلام وازدهار عام تلاقت مع حماية أسبغها خليفة مستنير ذو سلطان كبير شأن خلفاء العباسيين الذين كانوا خلال القرن الثامن من عصر المنصور حتى عصر المتوكل يشجعون بلا انقطاع نشر العلوم والفلسفة اليونانية فى كافة أنحاء العالم الإسلامى وذلك بزعم حملة كبرى من حملات الترجمة تولاها المسيحيون «النسطوريون»، وذلك على غرار ما كان فى الغرب فى القرن الثانى عشر إذ ألف الخلفاء الحوار المسهب فى التأمل وجها لوجه مع من كانوا يؤثرون من أطبائهم وفلاسفتهم وكذلك كانت العصور

المواتية أيام انحلال الإمبراطورية إذ تيسر للمفكرين الأفذاذ اختيار صغار الطغاة المستبدين لدى «سيد» سمح كريم كما وقع فى النصف الأول من القرن التاسع لدى أمير حلب سيف الدولة حامى الفارابى (الفيلسوف العالم الإيرانى المولد)

ويقول ليون جوتييه فى استعراض التاريخ السياسى الموضوع إنما تتوقف الحضارة على الأمراء وعلى الشرذمة من هؤلاء الطغاة المستنيرين على أن التدهور السريع للخلافة فى بغداد بما ثار حولها من تفسيرات، وما جرت خلفها من تقسيمات وجزئيات خارقةلم يلحق أضرارا بالفكر أيام وقعت بل على العكس شجع ذلك بزوغ حرية فكرية تمكن للمثقف الهرب من بلد إلى آخر والتخلص من حماية أمير بالانتقال إلى حماية آخر.

وكذلك كان الأمر فيما صار عادة متكررة فى ايطاليا وسائر أوروبا فى عصر النهضة خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر وقد عرف الإسلام تلك المزية غالبا ولكن مزايا الروح هذه لم تكن كافية وحدها إذ كانت تساندها غالبا مزايا مادية وامتيازات ضخمة تفسرها وكان الإسلام حول عام ٧٥٠ قد بلغ أقصى حدوده الخارجية حيث واجه انتشاره ما يشبه السدود بسبب الهجمات المضادة كحصار القسطنطينية عام ٧١٨ وأنقذت بفضل شجاعة ليون أما الغرب وبلاد الغال (أى فرنسا) فقد أنقذا بفضل انتصار بواتييه ٧٣٢/٧٣٣ وثورة المغرب التى زامنتها، وهكذا ران نوع من هدوء نسبى حقيقى على الساحة الخارجية، وفى المقابل توطدت دعائم اقتصاد واسع عبر كل بقاع الإمبراطورية وتوطدت كذلك معدلات هذا الاقتصاد وامتداده وكان هذا الانطلاق الاقتصادى بمنزلة وضع الترتيبات اللازمة لإنشاء ما قد يسمى «اقتصاد السوق» واقتصاد المال.

لحركة تجارة سلعية متعاظمة يوما بعد يوم وذلك بفضل ما لديها من منتجات زراعية يستهلك أغلبها محليا ويشكل الجزء الباقى بضائع لتنمية المدن وانطلاقها فقد استدعت تجارة البلح على سبيل المثال فى عام من الأعوام نقل محصوله تهديته وإعداد ما يقرب من مائة ألف جمل لحمله ونقله وكانت قاعات تخزين البضائع فى المدن تسمى «بيوتا» فيها بيت البطيخ وبيت الميرف للشمام والبطيخ

فى ترانو كسبان - اعتقد تركمانستان - وكانت لها شهرة واسعة خاصة، أما محصول البلح بعد تخزينه فكان ممكنا نقله إلى آفاق بعيدة أو حتى بغداد إن كان طازجا وذلك عن طريق قوافل تخرج فى سلسلة من الرحلات متناوبة تناوبية حيث يعبأ البلح فى أوعية من جلد محوطة بالبلح ليصل إلى هدفه طازجا. أما زراعة قصب السكر فقد أدت إلى ظهور إحدى الصناعات الهامة وينبغى فى هذا النطاق ذكر ما حدث فى نطاق المواد الغذائية حيث ازدهرت ونمت عمليات الطحين بفضل طواحين المياه قرب بغداد أو بفضل طواحين الرياح التى عرفت منذ عام ٩٤٧ فى ستبستان أما فى البصرة فقد استخدمت مساقط نهر دجلة لتدوير عجلات الطواحين العائمة.

يفسر لنا هذا النوع من الاقتصاد النشيط ازدهار عديد من الصناعات التى نمت وتطورت كالحديد والأخشاب ومنسوجات الكتان والقطن والحرير والصوف وخاصة ازدهار حقول القطن وانتشارها وسجاجيد بوخارا فى أرمينيا الفارسية التى نالت شهرة عالمية وظلت البصرة طويلا تستورد الألوان النيلية وأكثرها من اللونين الأزرق والأحمر لصناعة الأقمشة والمنسوجات كما يجب أن نشير إلى أن الأصباغ التى تعبر مدينة كابول فى طريقها من الهند كانت أحسن وأفضل من أصباغ مصر العليا.

وقد نتج عن هذه الأنشطة التجارية ما يمكن أن نسميه آثارا لا حصر لها ذلك أن عمليات الاقتصاد المالى قد زعزعت أركان مجتمع كان قبل كل شىء مجتمع سادة إقطاعى السمة مع مجتمع ريفى من فلاحين معدمين فيه يزداد ثراء الأغنياء بما اشتهروا به من طبائع الغطرسة والسفه وفقر الفلاحين على فقرهم ليصيروا طبعة من البائسين. ذلك فضلا عما اقتضته فنون الرى الحديث من زيادة استرقاق الفلاحين، ذلك أن أثرياء الإسلام بما يجمعون من أموال قد كانوا أقدر على دفع أعلى الأسعار لاقتناء العبيد إذ نتخيل ما نتج عن تلك الأوضاع من توترات واضطرابات اجتماعية فإذا لم تستطع هذه الأموال وهذا الثراء من التحكم والسيطرة على كل شىء فقد تستطيع تفسير أشياء كثيرة وفهمها من دراسة هذا الثراء وخاصة «المناخ الثورى» الذى تمثل فى سلسلة لم تتوقف من القلاقل

والاضطرابات فى الأراضى الزراعية وفى المدن المرتبطة غالبا بالحركات والانتفاضات الوطنية مما يتضح عبر إيران إذ استخدمت ألفاظ لغة العصر أكثر حداثة منها: الوطنية والرأسمالية وصراع الطبقات ولنقرأ هذا المنشور الذى كتبه الأفريقى حوالى عام ١٠٠٠ حيث يقول: «لا ... بكل تأكيد... لن أصلى لله... ماظللت فقيرا. ولنترك الصلوات للشيخ وقائد الجيوش وقبابهم الخاصة الفياضة.. ثم لماذا تجب علىّ الصلاة؟ أتراني قادرا؟ وهل أملك قصرا؟ وأمتلك خيلا وثيابا ثمينه أو حزاما من ذهب، فإذا لم أملك أقل قطعة من أرض... فذلك نفاق خالص. وعلى أساس التماسك الطبيعى فإن ذلك الزيغ عن الإسلام وسرعة ازدياده خلال تلك القرون الحافلة بالأنشطة الضخمة زيغ له جذوره الاجتماعية والسياسية كذلك المروق وتلك البدع التى نشأت فى أوروبا فى القرون الوسطى حيث تتشكل مجموعة من المنشقين ثم تنمو بفضل ما تواجهه من اضطهاد أو تواطؤ فتبدأ فى الانفجار ويرتبط تاريخ الفكر الإسلامى بهذه المجموعات المتفجرة سريعة التوتر ارتباطا لا نهاية له، ولقد استخدم المؤرخ أ. مير فى محاولته وصف عصر الإسلام الذهبى لفظ غموض نهضته وربما أوحى ذلك بالتشبيه بالنهضة الإيطالية الرائعة حيث المقارنة بين امتزاج الثروة المادية والثروة الثقافية وما كان لمثل هذا الامتزاج ما كان لإيطاليا فى القرن الخامس عشر.. فى زمان ذى أمجاد نادرة إذ استند كل منهما الإسلام وإيطاليا على مجتمعات حضرية تمتعت استئثارا بمزايا تحققت فى التجارة والمجتمعات الإسلامية مثلها مثل المجتمعات الإيطالية تهيأت فى حلقات ضيقة جدا ذات عقليات فريدة تغترف بتوسع من جذور الحضارة القديمة التى تجلها إلا أنها تعيش قرونا سالفة على عصرها على حين تواجهان فى الخارج «العدو المتربص» وتهديداته التى لا يكاد يخفيها حقد أو غضب. ففى إيطاليا فى نهاية القرن الخامس عشر تمثل هذا العدو الهمجى فى ساكن الجبل بالمقاطعات السويسرية أو الألمانية الرابضة فى الشمال، وبالنسبة للإسلام كان العدو المتربص متمثلا فى هذا التركى السلجوقى وساكن الصحارى. وغالبا ما كان الأمر يستدعى استرضاء هذا العدو والمتربص تماما كما وقع فى إيطاليا إذ قام الخليفة منذ العهد الأول من خلافة بغداد باستدعاء العبيد والجنود المرتزقة الأتراك فعرضهم على المشترين حتى بوساطة أهلهم أنفسهم «القلقين» على مستقبلهم، أما

فى أسبانيا استعملت بعض قطع الذهب للتخلص من المسيحيين القادمين غزاة من الشمال وطردهم إلى أوطانهم ثم أصبحت المعركة الجادة واقعة لا محالة حيث اضطر ملك أشبيلية المعتمد لحماية بلاده من الغزاة المسيحيين إلى طلب العون من أعداء آخرين وهم المرابطون فى شمال إفريقيا فإذا نظرنا إلى الحضارة الإسلامية (نظرة شاملة) فيما بين ما ذكرناه (٨١٣ ـ ١١٩٨) وجدنا أنها تتوطد أركانها ودعائمها وهو ما يتناقص مع الظاهر فقط، وتبدو ظاهرة عالمية وإقليمية فى الوقت نفسه أى وحدة متنوعة.

١ ـ وقد رأينا فى كل مكان مساجد تشيد ومدارس تبنى على نمط واحد ونموذج اختيارى تجريدى منتظم، صحن فى الوسط وأورقة وشرفات وأحواض للوضوء ومحراب يعين القبلة للصلاة ومنبرا يتمثل فى كرسى يجلس عليه الواعظ ثم المآذن وهى تستخدم ذات العناصر النباتية من فن المعمار من أعمدة ذات تيجان وأقواس مختلفة أشكالها وأقواس حادة ثلاثية الفصوص أو متعددة الفصوص وقباب ذات زخارف من الفسيفساء أو الخزف والفخار ثم الزخارف من الخطوط والكتابات العربية المرشدة.

٢ ـ أبيات الشعر الداعية إلى الإخلاص والولاء للأماكن المقدسة وهى تمجد الله كزهرة لاعيب فيها ثم إلى الطبيعة والحب والشجاعة والدم النبيل والحصان والجمل «الضخم كالحبل» والأرض بآثار أقدامه وكذلك العلم والخمر المحرم وفى العالم الإسلامى تشيع كذلك نفس الروايات الشعبية النابعة أصلا من الهند، وهو ما يمكننا قراءته فى «ألف ليلة وليلة» وترجمت فى زمن متأخر فى القرن الرابع عشر فى أجزاء مطولة.

٣ ـ فلسفة مأخوذة عن الفكر اليونانى لأرسطو والمتعطشين إلى الأرسطية وذلك المجهود الضخم **لتحديد الله فى الكون** والذى بناء على اليونانيين يعلن عن خلوده وبالتالى التهرب من كل الخلق.

٤ ـ ونجد الأساليب التقنية نفسها فى كل مكان والصناعات نفسها. وكما توضح لنا الحفائر مثل مدينة الصحراء بقرب قرطبة .

الآثاث والأدوات الصناعية والأذواق والعادات والتقاليد نفسها الموروثة من

بغداد وتعطيها السمة. وعبر أسبانيا هذا البلد الأقصى يمكن متابعة وصول «هذه المزايا» الثقافية من خلال الرحلات والأسفار وأسلوب الكتابة المأخوذ عن أشهر شعراء الشرق ممن ما تنتحل أسماؤهم كثيرا وأسلوب ارتداء ملابسهم الغريبة وتعميم ارتداء البرانس وذلك اعتبارا من وصول المرابطين فضلا عن الأفكار والموضوعات الأدبية السائدة والوصفات الطبية العلاجية.

ولنستعرض قبل اختتام هذا الفصل بعض الصور العابرة التى تميز بها هذا العصر إذ نجد ضمن بلاد الفرس وحتى الأندلس جماعات المنشدين والشعراء وهم عادة من المصريين يجوبون المدن والقرى فى رفقة جماعات من الراقصات والمطربات تألقت أصلا فى بغداد ويرتدين فى المدينة أزياء بلون أصفر شرقا ولون أحمر غربا وقد جاء ذكرهن فى قصائد كل الشعراء وتجد فى كل ربوع هذه البلاد تجمعات يلعبن النرد والكوراج.

وكانت هذه اللعبة الأخيرة واسعة الانتشار وهى أشكال من خشب تمثل خيولا ترتدى التنورةوكثيرا ما كانت هذه اللعبة تشغل أوقات من يمارسونها وقبل بشكل غريب أن قائد المعتمدين مارتين فوجئ فى جناحه الخاص يلعب فى قرطبة بمفرزة من جنود الأعداء تلعب الكوراج كما نورد فيما يلى صورتين تمثلان ظاهرتين من مظاهر تلك الأيام أولاهما هذا الوزير ولى عهد خراسان فى بداية القرن العاشر وهو يبعث بالوفود إلى كل مكان من بلاد الدنيا لتجمع له صورا من القواعد المنيعة فى بلاط الملوك ونظم الإدارة ومن الوزارات فى الإمبراطورية اليونانية وتركستان والصين والعراق ومصر وبلاد السند وبلاد زابول وكابول، وقام بفحص كل هذه القواعد فحصا دقيقا واختار من بينها أفضل ما فيها لتطبيقها فى بلاطة وكافة إدارات بخارى مراعيا ألا تتعدى تلك القواعد الحدود الصارمة السائدة فى العالم الإسلامى.

وهناك صورة خليفة قرطبة الحكم الثانى وكان يشترى من الكتب فور ظهورها كل ما تألق فى بلاد الفرس وفى سوريا وبلاد أخرى وقد أرسل هذا الخليفة ألف دينار من الذهب الخالص إلى أبو الفرج الأصفهانى كى يظفر بأول نسخة من موسوعته الشهيرة «الأغانى» ومع ذلك لم تستطع هذه الوحدة الثقافية النيل من

مظاهر الخصوصيات المحافظة على تقاليدها المتوارثة وهى مظاهر ظلت راسخة واضحة. وكان منذ الشرخ الكبير الذى قسم الأمبراطورية أن عمدت كل منطقة إلى استعادة حرية التصرف فى أمورها إلى حد ما ثم تمكنت فجأة كل منطقة مع بعض الأقاليم من التنفس على هواها لتعيد تأكيد نسيجها الذاتى وهو النسيج الذى وبرغم ما عاناه من جهة أو أخرى برغم كثرة تضحياته وإفراضه من ذاته لصالح المجموع إلا أنه احتفظ سرا وبعناية وغيرة بأساسى ذلك النسيج الذاتى.

وهكذا بدأت تظهر فى الأفق جغرافية «تبادلية» إذ انتقلت أسبانيا الإسلامية من مرحلة الاقتباس إلى مرحلة التكوين الفرضى بانتقال العدوى المتواصلة فمالت لتصبح إحدى تلك الأسبانيات بين عديد حدثنا التاريخ عنها.

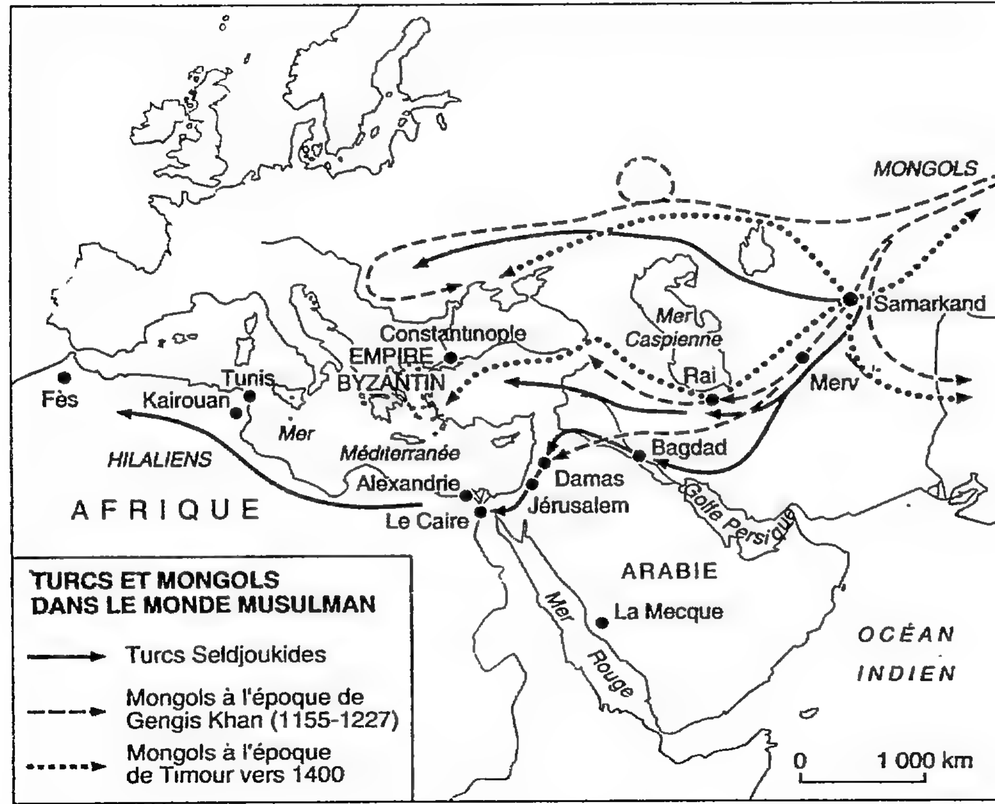
وأكثر من ذلك مثال إيران إذ أظلها زمان أكدت فيه خصوصياتها الذاتية التى تميزت بالرسوخ التاريخى والقومى إذ استردت مع خلافة بغداد حيويتها وتنفسها الذاتى، فصارت بغداد مدينة إيرانية السمات وذلك على عصر العباسيين الذى ازدهر فيه تطويع الأرض البكر وإعداد القوالب من طينتها للطلاء بالمنيا وزخرفتها وكلها صناعات اشتهرت بها بلاد فارس كما عرفت «الإيوانات» وهى أروقة ضخمة تذكرنا بإيوان كسرى ذى الشهرة التاريخية وحافظ العرب على سيطرة لغتهم العربية لتظل هى المسيطرة، ومع ذلك فقد ظلت اللغة الفارسية برغم كتابتها بالحروف العربية إحدى اللغات الأدبية الأخرى وظلت أضواؤها تسطع إلى آفاق بعيدة وبالأخص حتى الهند وانتشرت فيما بعد فى أنحاء الإمبراطورية العثمانية بأسرها وتتحلى بكونها لغة «نصف شعبية» ومن السهل انتشارها بين قطاعات عريضة من الناس وترجع استفادتها بهذه الميزة بسبب الحذف شبه الكامل للغة اليونانية، وفى نهاية القرن العاشر رأينا الشاعر الفردوسى يؤلف كتابه «كتاب الملوك».

مشيدا فيه بأمجاد قدماء الإيرانيين حيث ظلت لرسوخ أقدامها اللغة الفارسية الإيرانية لغة الانتشار العلمى بفضل حيويتها فى فارس يقينا منذ القرن الحادى عشر إحدى الحضارات الوطنية وكائنا قويا نشيطا ولكن فى نطاق الحضارة الإسلامية الواسعة وكان الفن الإيرانى فى المعرض الدولى بباريس فى أكتوبر

١٩٦١ بمنزلة علامة ثابتة لظاهرة توضح بجلاء عصرين: عصر ما قبل الإسلام وعصر الإسلام وبينهما فاصل زمني وقعت فيه تحولات عميقه.

كما وقعت خلالها كذلك فترات الاتصال والاستمرار واجه الإسلام كثيرا تلك الأجواء المعارضة التى يبدو بعضها كونيا وبعضها إقليميا فى كل البقاع التى فتحها ولنتذكر فقط تلك الحالات المتطرفة التى وقعت لكل من الهند الإسلامية وأندونيسيا الإسلامية وأفريقيا السوداء التى طحنها ثم شكلها الإسلام وإن ظلت رغم ذلك وبأعجوبة محتفظة بشخصيتها المميزة وبجذورها فنجد فى الهند مثلا أن عدوى الامتزاج بين حضارتين قد أتاح الفرصة لظهور فن أصيل هندى إسلامى ولم تبدأ عظمته فى الظهور لا مع بداية القرن الثانى عشر وخاصة القرن الثالث عشر لا سيما فى مدينة دلهى على سبيل المثال حيث لازالت آثار رائعة تثير العجب ويمكن تفسير غرابتها إذا ما عرفنا أن أول مسجد شيد بالمدينة عام ١١٩٣ إنما أعد تصميمه ورسومه صناع مسلمون، أما أعمال البناء فقد تولاها عمال من الهنود وكذلك تولى العمال الهنود المهرة أعمال النقش والنحت ممزجة بين الزخارف الحلزونية الوردية الهندية لأصل وزخارف خطوط الكتابة العربية. وبذلك بدأت تظهر ملامح فن جديد من تلك الفنون ذات السمة الخاصة التى تتميز عن غيرها من الفنون أستمرت أجيالا امتزج فيها الفن الهندى بالفن الإسلامى امتزاجا يصعب معه القول بأيهما هو المسيطر أو المؤثر فى الآخر ولم يعد ممكنا تمييز إحدهما عن الآخر.

وخلاصة القول نجد الحضارة الإسلامية خلال هذه الأدوار الكبرى التى لعبها الإسلام على مدى عصوره الذهبية، تمثل بلاشك حقبة من النجاح والانتصارات العلمية مع إنعاش وإحياء فريد نادر للفلسفة القديمة فى الوقت نفسه وليست هذه الانتصارات هى الوحيدة إذا تمثلنا الأدب، بل كان نجاحها لكل تأكيد فى إسدال أستار الحجب على ما عداها.



الترك والمغول
في العالم الإسلامى

الأتراك السلاجقة ←——
المغول فى عهد جنكيز خان ←- - -
مغول عهد تيمور لنك حوالى ١٤٠٠ ←......

العلوم والفلسفة
فى الإسلام

كانت الأولوية للعلوم، فقد كان العرب هم الذين ساهموا فى هذه العلوم وجلبوا فيها معارف جديدة وحديثه لم تكن معروفة من قبل ولنقصر حديثنا فى هذا المجال على حساب المثلثات والجبر وللعلم الأخير دلالته.. ففى حساب المثلثات اخترعوا (حاصل العمود على القوس) والـ (خط المماس) وكان معروفاً عن قدماء اليونانيين أنهم لا يقيسون الزاوية إلا بالخيط والدائرة وهو نصف هذا الخيط.

وفى عام ٨٢٠ يقوم الخراسانى الذى اتخذ لنفسه لقب محمد بن موسى دراسة جبرية تصل إلى معادلة الدرجة الثانية فصار بعد ترجمة هذه الدراسة إلى اللغة اللاتينية فى القرن السادس عشر المؤلف الذى لقن الغرب وأطلعهم على هذا العلم، ومنذ ذلك الحين تمكن علماء الجبر المسلمون من حل الجذور التربيعية.

ونستطيع كذلك الثناء على العلماء المسلمين الذين تخصصوا فى علوم الحسابات الجغرافية وعلماء الفلك وما اخترعوه ويسمى الاسطرلاب واستطاعوا قياس خطوط الطول وخطوط العرض وبذلك تمكنوا من تصحيح الأخطاء الفاضحة التى وقع فيها بطليموس كما يجب أن نعترف لهم بأستاذيتهم فى علوم الزوايا البصرية وعلوم الكيمياء (تقطير الكحول وإعداد الأكاسير) وحمض الكبريتيك، وفى علوم الصيدلة والعقاقير يجب أن نقر بأن نصف بل أكثر من نصف الأدوية المعالجة للأمراض التى يستخدمها الغرب إنما جاءت عن العلماء المسلمين منها

على سبيل المثال لا الحصر السنة (وهو نبات شجيرى مسهل) وأعشاب الراوند والتمر الهندى وجوزة الطيب وجوز الفين والسنديان والكافور وعصائر السكر والجلاب (شراب منعش مهدئ) من الماء المقطر والمراهم الدهنية وتقطير المياه ولا جدال فى أن الطب لديهم كان ممتازا كما استطاع العالم المصرى ابن النفيس اكتشاف الدورة الصدرية والدورة الدموية، وهو وإن لم يستخدم فإن اكتشافاته قد سبقت ميشيل سرفيه بثلاثة قرون.

وعلى صعيد الفلسفة كان للمسلمين باع طويل فى تطوير أفكار وأبحاث الفيلسوف اليونانى أرسطو طاليس.

ولم يقتصر التطوير على مجرد إعادة النقل أو التناول من جديد فحسب وإلا لما استحق الإشادة إلا عن جدارة هزيلة؛ لذا وجب أن نذكر أن التطوير الذى حققه العلماء المسلمون كان مجالا للتفسير والتوضيح والخلق والإبداع أحيانا. ففلسفة أرسطو التى وجدت جذورها فى وسط الإسلام كانت بمنزلة تفسير قسرى خطير للإنسان والكون فى آن واحد وذلك فى مواجهة دين موحى به كالإسلام وهو تفسير عام شامل للكون وهو دين شديد الصرامة إلا أن الفيلسوف أرسطو كان إذا استحوذت عليه فكرة أخضعها لمنطقه قمعا وقسرا وكان ذلك شأنه فى كافة الفلسفات (أى أتباع الفلسفة أى الفلسفة اليونانية) أما الفلسفة فى الإسلام فقد اتخذت اتجاهات إنسانية لعلها متعرجة وإن كانت ذات قيمة وقيم إنه تيار فكرى ممتد فى الزمان والمكان معاً ولسوف يقتصر مسلكنا هنا على خمسة أسماء رئيسية من الفلاسفة المسلمين: الكندى والفارابى وابن سينا والغزالى وابن رشد. وأشهرهم ابن سينا وابن رشد وكان هذا الأخير يقينا هو الأهم نجد ما تركت بصماته من آثار ضخمة على الحياة عبر أوروبا مما استدعى الوصف موجة ابن رشد.

ولسنا نعرف سوى تاريخ وفاة الكندى عام ٨٧٣ وأنه ولد فى العراق حيث كان أبوه حاكما للكوفة ومن ثم أطلق عليه بحكم الوسط الذى ولد فيه اسم فيلسوف العرب. أما الفارابى وهو من أصول تركية فقد ولد عام ٨٧٠ ويعد من أبناء الجيل التالى وعاش فى حلب ومات فى دمشق حيث كان فى صحبة راعيه سيف الدولة حين الاستيلاء عليها عام ٩٥٠ بعد الأستاذ الثانى بعد أرسطو بطبيعة الحال.

أما ابن سينا فقد ولد فى مدينة أصفهان قرب بخارى عام ٩٨٠ وتوفى عام ١٠٣٧ فى مدينة حمدان.

أما الغزالى فقد ولد قريبا من طوس عام ١٠٥٨ ومات عام ١١١١ فى طوس وأصبح أواخر أيامه الفيلسوف المناهض والمدافع بحماس عن العقيدة التقليدية.

وأما ابن رشد فقد ولد فى قرطبة عام ١١٢٦ وتوفى فى مدينة مراكش فى ١٠ نوفمبر ١١٩٨.

وما سر هذا التدقيق الجغرافى والتسلسل الزمنى للتاريخ إلا لنوضح أن التطور الذى نشأ كان سباقا عبر المكان والزمان فى كافة أنحاء العالم الإسلامى على حين تجمعت حول كل هذه الشخصيات السابقه انتقاؤها طوائف أقل أهمية من الفلاسفة والقراء المتحمسين والمنشدين.

وتشير هذه القائمة إلى توقع اندلاع شعلة الفلسفة الإسلامية الأخيرة فى أسبانيا التى لم تكن سوى المكان الذى انبثق منه التيار الذى عرّف الغرب بالفلاسفة العرب بل وعرف الغرب كذلك بأرسطو ذاته وفى هذا السياق الطويل يبرز السؤال الذى أثاره بقوة لويس جارديه.

أكانت هناك فلسفة إسلامية؟ وكان رده مع ذلك بالنفى أى أنه وضع التساؤلات التالية: هل كانت لدى الكندى وابن رشد فلسفة متصلة؟ وهل يمكن لتلك الفلسفة تقديم تفسيرها من خلال مناخ الإسلام؟أهى فلسفة أُصيلة؟ فإن الرد على هذه التساؤلات الحذرة المبهمة حيث الرد عليها بنعم أولا إنما تبدو ضرورة أكثر منها فطنة. نعم كانت هذه الفلسفة إحدى الفلسفات الفعلية ولئن كانت منغلقة فى يأس بين الفكر اليونانى من جهة والوحى القرآنى من جهة أخرى، فقد اصطدمت بهذه الحوائط ولكنها كانت دائما ترتد إلى مبتدئها ومنطلقها دوما لتعود وتتشبث بتعاليم الإسلام فى العلم إذ هى تلك التعاليم بما لها من نزعاتها واتجاهاتها ومنهج عقلانى واضح ولكنها ليست هنا بالتعاليم المطلقة .. فجميع الفلاسفة أقرب إلى العلماء ممن يشغل بالهم وتفكيرهم علوم الفلك والكيمياء والرياضيات وكان شغلهم الشاغل الطب دائما فعن طريق الطب تمكنوا من كسب ودالأمراء وتأمين معاشهم فقد كتب ابن سينا موسوعة فى الطب باسم «القانون».

وكذلك ابن رشد كتب موسوعته فكان أن ظلت لعلوم الطب الإسلامى الكلمة الأخيرة فى أنحاء أوروبا بما فيها الأطباء الذين ذكرهم موليير.

وقد منح النفوذ اليونانى العلوم الفلسفية الإسلامية وحدة داخلية إذ كتب ابن رشد فى مقدمة مؤلفه عن الفيزياء أن الفضل فى هذا الكتاب إنما يعود إلى أرسطو ابن نيكوماك أكبر عقلاء اليونان فهو الذى أسس وأكمل علوم المنطق وعلوم ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقا) التجريدية. وإنما أقول إنه وضع أسسها لأن كافة ما صدر من المؤلفات من قبله فى تلك العلوم لا تساوى مشقة الكتابة عنها. فما من أحد ممن تابعوها حتى زماننا هذا أى خلال ١٥٠٠ سنة استطاع أن يضيف إليها شيئا أو أن يجد فيها خطأ ذا أهمية تذكر كان الفلاسفة العرب من أشد المعجبين بأرسطو وكانوا مضطرين إلى الدخول فى حوارات أدت بهم إلى آلاف الوثبات والقفزات متنقلين بين تفسيرات الوحى الإلهى كما ورد فى القرآن، وبين التفسير الفلسفى الإنسانى أى تفسير اليونانيين وهو تفسير أدى فى خضم نزاعات قلقة إلى تنازلات متبادلة بين العقلانية والإيمان فقد كان الوحى الذى نزل على محمد إيمانا نقل إلى الناس رسالة سماوية ومن ثم فالمفكر وحده كشف حقيقة الكون وينصب نفسه حكما على قيمه بأركانها العقائدية فى مواجهة هذه المعضلة ويبدو فلاسفتنا جدليين مهرة أو لعلهم كانوا ذوى مهارة مفرطة ويقول مكسيم رودنسون متسائلا: إن ابن سينا لم يكن عبقرية بلا جدوى فقد اهتدى وهاهى آراؤه التى قد لا تكون نابعة منه شخصيا: أن الرسل بينوا الحقائق السماوية فى شكل أساطير وحكايات ورموز وتصويرات مجازية وهى هنا تتفق مع لغة الجماهير وتؤمن لهم السعادة.

وأما الفيلسوف فإن له الحق فى الذهاب إلى أبعد من ذلك، إلى أبعد من نطاق هذه اللغة وهو بذلك يحتفظ لنفسه بحرية تفكير كبرى وحرية اختيار أوسع عند ظهور تناقض قطعى أو صورى غير قابل للتبسيط.

مثال ذلك أن الفلاسفة شأن الإغريق يؤمنون بخلود الكون وأزليته فإذا كان خلود الكون عندئذ قائما منذ زمن بعيد فإن أزليته الكونية ثابتة بالوحى ثم هل من الممكن إذن إدراك كنه هذه الأزلية الخالقة؟

فإذا ما ذهبنا إلى أقصى ما ذهب إليه منطق الفارابى، فإن الفارابى يؤكد بذلك أن الله لا يعرف الأشياء أو الكائنات بخصائصها بل بالمعانى المجردة والكليات ليس غير ومن ثم فإن رب القرآن كرب العهد القديم يعلم كل مافى البحار والأرضين فما تسقط من ورقة إلا يعلمها كما قيل ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين..

القرآن من واقع ترجمة ر. بلاشير

ثم إن هناك تناقضا آخر فالفارابى لا يؤمن بلاشك بخلود الروح وإن كان ابن سينا يقف فى صف هذا الخلود لولا أنه لا يؤمن ببعث الجسد الذى يؤكد القرآن عليه. فالروح بعد الموت تلحق بعالمها عالم الكائنات اللا مادية غير الحسية أى المعنوية فليس هناك إذن منطقين عقاب ولا ثواب خاصين ولا نار ولا جنة...

فالله والكائنات المعنوية والأرواح هى العالم المثالى الذى تقف المادة فى مواجهته خالدة لا يصيبها الذبول.. ذلك لأن الحركة لم تسبق السكون ولا السكون سبق الحركة .. فكل حركة هى امتداد لحركة سابقة ولذا فإن الله ليس ممكنا بالفعل أن يكون جديدا وتكفى كل هذه الآراء التى نستعيرها من كتابات رينان لإثارة فضولنا مجرد إثارة لإشباع حاجتنا إلى المعرفة فالأمر لا جدال يقتضى كثيرا من الاهتمام وكثيرا من الجهد لإدراك معانى هذه المداخلات وكلها تظل دائما قابلة للجدال والنقاش حول أساليب التفسير تلك، ثم إن الفلاسفة أنفسهم منذ رينان قد اهتمو اهتماما كبيرا بهذه المسائل القابعة فى ذاكرة الماضى ولكنهم لا يبتون فيها بسهولة، فمن واقع ميولهم ونزعاتهم عقلانية كانت أو مثالية تنبع تفسيراتهم الخاصة أو لنقل ما يتوصلون إليه من إيثار لهذا الأمر أو ذاك وأغلبها مآثر لهذا الفيلسوف أو ذاك، فالكندى يبحر فى عباب مياه دينية لا تثير عواصف وابن سينا لا جدال مثالى وابن رشد فيلسوف من أقصى الأرض، والغزالى المدافع عن الإيمان والتقليد أخذ على عاتقه فلسفة أرسطو المدرسية وشرحها كما فسرها أوائل علماء اللاهوت المسلمين فهو يريد أن يتجاهل فلسفة أرسطو بل وتدميرها وذلك لأن فكره إنما يؤدى به إلى طريق مختلف جدا هو طريق «الصوفية» إنه

يهجر الدنيا ليرتدى مئزر الكتان الأبيض (صوف) الذى تتخذه الصوفية وأتباعها وذلك عن إيمان روحانى أكثر منه عقلانى وقد قيل عنهم إنهم مجانيب الله.

أما ابن رشد طبيب قرطبة فقد جعل من نفسه الشارح المعلق والناشر الأمين لمؤلفات أرسطو حتى كان من مزاياه ما ذكر من شرح وترجمة عربية وفيه للنص المكتوب باليونانية مضيفا إليها حواراته وملاحظاته فى شكل مخارج عن النصوص، ثم تكون ترجمة النص وما دونه من ملاحظات وتعقيبات من العربية إلى اللاتينية فى طليطلة وهكذا انتقلت إلى أوروبا مثيرة الثورة الكبرى (ثورة القرن الثالث عشر) الكبرى. وهكذا نجد أن الفلسفة الإسلامية لم تمت إثر الضربات الشديدة البائسة من جانب الغزالى على الرغم مما يقال أحيانا فى هذا الموضوع ومع ذلك فقد انقضت الفلسفة الإسلامية وكذلك العلوم الإسلامية كما ينتهى القرن الثانى عشر، فكان أن عمد الغرب عندئذ إلى استرداد.

رأينا فلسفة الإسلام بعد حقب من مظاهر البذخ غير العادية هذه تنقطع فجأة وتتوقف مع اقتراب القرن السابع حتى فى أسبانيا فلم يعد يتلاحق التقدم العلمى والفلسفى فضلا عن قدرات الحياة المادية وقلما تلاحقت أبعد فى العقود الأخيرة فى ذلك القرن .وقد بدأ هذا التوقف المفاجئ كمسألة لها شمولها.

هل كان ذلك نتيجة النزاعات الحماسية كما أسلفنا فكانت مفرطة فى أثرها حيث شنها الغزالى ضد الفلسفة والفكر الحر، لم يكن لأحد أن يعتقد ذلك بحق.

كان الغزالى ثمرة زمانه ونتاج عصره كأنه ثمرة استنتاج ومحصلة بقدر ما كان قضية وعموما فإن ردود الأفعال ضد الفلسفة كانت ماثلة دائما ومنذ خطواتها الأولى كما ثبت ذلك على مر الزمان كانت الإدانات وفورات الشغب التى لا تعد ولا تحصى حيث نصبت محارق الكتب، لم تكن لتقع دون أن تواكبها فورات شعبية عدائية وتتلاحق معها أحداث الغضب ضد الفلاسفة المغضوب عليهم واضطرارهم إلى النفى متربصين طبعا للعودة حين تتغير الظروف كما تؤكد تلك الفترات التى تربعت فيها العلوم القرآنية فى الحقوق «الفقه» إذ أجبرت الفلسفة على الصمت ومع ذلك ظلت الفلسفة بعد الغزالى تسطع لا مع ظهور ابن رشد فقط

وهل كان ذلك خطأ البربر[1] أو بمعنى آخر هل كانوا هم السبب رغم أنهم هم الذين أنقذوا بجهاد الإسلام حيث كان سيهدده الغرب فى كل مكان كما كانت تهدده آسيا التى تمكنت من اغتياله من الداخل كان هؤلاء المتقدون الخطر والمرابطون فى أسبانيا، ثم المهاد[2] وهم سلالة من البربر عاشوا فى شمال أفريقيا. أما المرابطون فكانوا من قبائل السودانيين البربر الرحل وفى الشرق الأوسط نجد الأتراك من سلالات السلاجقة وهم البدو الرحل من سكان السهوب الباردة فى آسيا الوسطى أو العبيد القدماء المنحدرين من بلاد القوقاز. وقد بدأت عصور الانحدار والتدهور منذ استطاع هؤلاء الدخلاء الجدد الاستيلاء على مقاليد الحكم والسلطة (هذه الفقرة مكتوبة باللغة الإنجليزية وهى) عندما استولى هؤلاء البربر وهم من الجنود وأغلبهم من العبيد، على الولايات الإسلامية انفرط عقد عالم البحر المتوسط وكسرت وحدة الإسلام التى أمدت الإسلام بالقوة وكانت تجهلها شعوب البربر تلك التى لم تكن لها أية تقاليد كتقاليد شعوب سواحل البحر المتوسط. ومن المستطاع رد تلك الحجة ونقول إن هؤلاء البربر القادمين من الغرب ومن الشرق لم يكونوا فى أغلبهم سوى عرب رسل الفتوحات ومن الشرق لم يكونوا فى أغلبهم سوى عرب رسل الفتوحات الأولى فتأقلموا بسرعة مع المدينة والتحضر قدر ما كان من تواصل واتصال حين وطدت أقدامهم بلاد الإسلام القديمة فخلفاء المهاد (سلالة من بربر شمال أفريقيا) كانوا الحماة المدافعين عن ابن رشد. وفى تاريخ الحروب الصليبية يقال إن صلاح الدين الخليفة الأكبر وهو من أصل كردى وغريم ريتشارد قلب الأسد بدا فى مظهر طيب فى عيون البربر على الأقل المسيحيين وأخيرا وبفضل مصر عزز مركزه واستعاد سلطانه عندما سحق المغول فى معركة عين جالوت فى سوريا فى الثالث من شهر سبتمبر ١٢٦٠ واستيلائه على عكا آخر معقل مسيحى فى الأرض المقدسة عام ١٢٩١.

أم هو خطأ البحر المتوسط؟

فمع نهاية القرن الحادى عشر استعادت أوروبا فتح «البحر الداخلى» (أى البحر الأبيض المتوسط) وبذلك أفلت زمام الأمور من يد الإسلام على هذا البحر الخصيب الذى أمده بحاجاته الضرورية فى التوسع والانتشار، ويرى بعض

المؤرخين من أمثال بيرين أنه انكفأ على نفسه منذ فتوحات الإسلام الغربية وفقده حرية المرور فى مياه البحر المتوسط فيما بين القرنين الثامن والتاسع وعلى العكس من ذلك أغلق فى القرن العاشر البحر المتوسط على الإسلام وحده حيث وجد نفسه يواجه مضايقات يصعب معالجتها فى مسيرته وانطلاقه بل وفى تحركاته اليومية، ومن الغريب أن ف حديبيه أول من تكهن بالتوقف المفاجئ للحضارة الإسلامية لم يستخدم تفسير المؤرخ هنرى برين وهو الذى تكهن فى الوقت نفسه بهذا التوقف وكان لآرائه صدى عال بعيد وربما كان ذلك اليوم فى مبلغ علمنا على الأرجح أفضل تفسير لظاهرة الانهيار المفاجئ للإسلام.

ومع ذلك كله فقد تمكنت الحضارة الإسلامية من تجاوز مرحلة الانطواء هذه... صحيح أنها لم تعد بعد تعرف عهود الازدهار وقطاف الثمار التى كانت لها من قبل، غير أنها على الرغم من ذلك ظلت حبة قائمة. وفى عام ١٩٢٢ وصف بول فاليرى الحضارات بأنها كيانات قابلة للفناء ومن المؤكد أنه كان بكلامه هذا مندفعا فى التهويل الدرامى فالفناء عبر فصول التاريخ أمر نسبى إذ تذبل الأزهار والثمار أما الشجرة فباقية أو فلنقل على الأقل إنها أكثر صلابة فى مواجهة الفناء.

ومن المؤكد أن الإسلام بعد القرن السابع تعرض لأوقات عصيبة وتعرض فى القرون الثامن والتاسع والعاشر لمواجهات طويلة بسبب الحروب الصليبية من ١٠٩٥ حتى ١٢٧٠ خرج الإسلام منها بعد فتح عكا بنصف انتصار فاستعاد القارة وإن فقد زمام البحر حيث واجه حيال بلدان آسيا غارات رهيبة وحشية طويلة شنتها قبائل الغول ١٢٠٢ ـ ١٤٠٥ واكتسحت نصف أراضيه ولم تستطع تركستان وإيران وآسيا الصغرى التى دمرت جل أراضيها النهوض بصورة كاملة واعتبر الاستيلاء على بغداد عام ١٢٥٨ عنوانا على تفكك الإسلام وخرابه وإن اتضح أن الإسلام سوف يشفى من جروحه ولو شفاء جزئيا.

ومن جهة أخرى برزت على السطح فى هذه العصور المظلمة فى القرون السابع والثامن والعاشر الصعوبات المتمثلة فى الأزمات الاقتصادية وهى وإن

كانت أزمات عالمية فقد جاءت تزيد من الأزمات الخاصة بالإسلام، وهكذا انقضت أزمة طويلة المدى وقعت على العالم القديم من الصين إذ انهار كل شيء على توالى القرون (العصور) فبدت فى أوروبا الأزمة متباطئة من عام ١٣٥٠ أو عام ١٣٧٥ وكانت قصيرة الأمد وانتهت بالفعل فيما بين عام ١٤٥٠ و ١٥١٠ ولكن عاد ظهورها إثر حروب المائة عام ١٣٣٧ ـ ١٤٥٣ وكانت بمنزلة علامة على سلسلة من حروب خارجية ومدنية واجتماعية، سلسلة من الانحطاط والتفكك والشقاء والمصائب على أنه يجب الفصل فيما لحق الإسلام من كوارث، وبين ماهو «كوفى عالمى» وماهو إسلامى خالص. ومع ذلك يمكننا فى هذا الجو العام المشحون بالكوارث والمآسى والتشاؤم الأسود أن ندرك أفكار ابن خلدون التى أوردها فى استعلاء لمن أرادوا أن يروا فيه على غير بينة ولا تعقل آخر عمالقة الفكر الإسلامى، ولئن قيل عن ابن خلدون المؤرخ اليوم أنه عالم اجتماع أندلسى الأصل فلقد ولد فى تونس عام ١٣٣٢ وكان رجل دولة ودبلوماسياً مارس حياة صاخبة قلقة فى غرناطة وتلمسان وبيجايا (مدينة ميناء فى الجزائر، وفاس إلى سوريا ثم استقر آخر الأمر فى القاهرة يعمل قاضيا حتى توفى عام ١٤٠٦، أى بعد عام واحد من عهد تيمور لنك الذى كان قد أرسل إليه سفيرا. ومن بين مجموعة الموسوعات التاريخية التى ألفها وتركها وراءه «كتاب البر» الذى يعالج بطريقة فريدة مبتكرة تاريخ البربر مع مقدمة له ترجمت فى القرن التاسع عشر إلى الفرنسية تحت عنوان المقدمات المطولة بمعنى أنها وحدها تعد مؤلفا قائما بذاته فى علم المنهج أو العلم المنهجى كما يعد فى مجموعه بحثا اجتماعيا للتاريخ الإسلامى.

وقد استطاع الإسلام مع عودة الزمن اللطيف والذى انتعشت خلاله اقتصاديات العالم وفى ذروتها فى القرن السادس عشر أن يستخلص الفوائد من جديد بفعل موقعه وسيطا بين الشرق والغرب حيث تدوم العظمة التركية حتى عصر زهور الخزامى أى حتى القرن الثامن عشر.

وتمثلت عودة الروح هذه على الصعيد السياسى فى تلك الغزوات المتلاحقة السريعة التى انطلق بهاالأتراك العثمانيون قبيل سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣

حيث أعلن هذا النصر المدوى عن تلك الانتصارات المقبلة فجعلت من تركيا إحدى القوى الكبرى فى حوض البحر المتوسط فى القرن السادس عشر فإما الإسلام يجد نفسه وقد استجمع أو صاله تارة أخرى بفضل آسيا وبيزنطة الجدد والأراضى المقدسة فى المملكة العربية بحيث أصبح السلطان العثمانى من بعد عام ١٥١٧ «السيد الأعظم» وخليفة المسلمين ولم تفلت من قبضة الأتراك سوى بلاد التركستان البعيدة والمغرب وما وراءها من ولاية الجزائر وفارس الشيعية بوطنيتها الطاغية إذا شئنا الوصف وسلالة أنصار سيف الدين مؤسس المذهب الشيعى، غير أن جماعة من المرتزقة المسلمين والمغول والأتراك استطاعوا بقيادة باير وهو من سلالة تيمور لنك الاستيلاء على إمبراطورية دلهى وأسسوا عام ١٥٢٦ إمبراطورية المغول الكبرى التى قدر لها أن تفرض سيطرتها على الشطر الأكبر من بلاد الهند وفى العام ١٥٢٦ نفسه والأتراك يدقون أسوار هنغاريا المسيحية (معركة الموهاك) حدث بعث جديد شامل للإسلام تحت راية الأتراك وأتباع المذهب السنى وتحقق لهم النصر فى كل موقعة دون مقاومة أورد فعل من لدن الديانة التقليدية أو الأرثوذكسية كان ذلك انطلاقة كبرى من السلطة والنفوذ وإرساء قواعد نظام حديدى حيث تواكبت الهيمنة التركية فى بقاع البلقان والشرق الأوسط مع انتعاش مادى واضح وانطلاقة ديموجرافية ونشأة مدن صناعية فمدينة القسطنطينية التى كان تعداد سكانها عام ١٤٥٣ ٨٠ ألف نسمة أصبحت تعرف باسم اسطنبول ويقطنها ٧٠٠ ألف نسمة فى القرن السادس عشر وتزدهر هذه المدن وتزخر بمظاهر الثراء وبمظاهر الفقر معاً وكانت مظاهر هذا الفقر فظيعة إلى حد ما وبهذه السمات قدمت هذه المدن النماذج المشتهاة للحضارة المسيطرة التى ترسل أضواءها ما استطاعت إلى بعيد على عصر العثمانيين وهى ترسخ معانى المساجد الضخمة ومن أشهرها مسجد السليمانية لسليمان العظيم ثم تنشأ رويدا رويدا من جديد تلك العظمة التركية التى جمدت بعد فوات الأوان بفضل أبحاث المؤرخين وثراء سجلات المحفوظات التركية والتى آخر الأمر أمكن ترتيبها وتبويبها فبدأت أسرارها ومعلوماتها القيمة تتكشف أمام الباحثين وتفشى سجلا سجلا عن مكنونات تلك البير وقراطية المتعددة الدقيقة ومنها ما تعبر عن تقدمية وسلطة قادرة على

إنجاز وإعداد الإحصاءات المفصلة وإدراك تلك السياسة الداخلية المتماسكة المترابطة وكان من أهدافها تجميع احتياطيات ضخمة من الذهب والفضة والاستعمار على منهج برسوم (بتوطين البدو الرحل) وتنظيم بلاد البلقان ليكون درعا واقية للإمبراطورية فى مواجهة أوروبا بنظام الأعمال الشاقة وتكوين جيش يثير الدهشة فى قوته إثر فترات تدريب شاقة مكثفة وفى الحقيقة وبإيجاز خلق أوضاعاً حديثة غريبة.

ويتعكر صفو تلك الآلة على المدى الطويل وإن لم يحدث ذلك قبل القرن السابع حيث كانت فى نهايته آخر الانتفاضات بحصار مدينة فيينا عام ١٦٨٧ ... ونستطيع أن نتساءل عندئذ هل ماتت الإمبراطورية التركية بالاختناق البحرى لانطلاقها فى المساحات البحرية الكبرى الحرة كالمحيط الأطلنطى الذى تفصله المغرب وفى المحيط الهندى بسبب سوء الاندفاع فى البحر الأحمر وخليج فارس حيث لقيت الإمبراطورية معارضة شديدة من قبل الفرس فضلا عن معارضات القادمين الجدد الأوروبيين المزودين بأساطيلهم الكبرى المتفوقة وشركاتهم التجارية ونتساءل كذلك هل ماتت الإمبراطورية التركية لتسرعها فى التهيؤ للتكيف مع التقنيات الحديثة؟

هل ماتت كما يتضح بشكل جلى إذ قامت فى مواجهتها روسيا الحديثة الهائلة القادرة؟ مع بداية القرن الثامن عشر خاصة فى القرن التاسع عشر، ذلك أن انتصارات الخيالة النموسيين بقيادة الأمير أوجين لم تتمكن إلا من تقليص أطراف تركيا الأوروبية (١٧١٦ ـ ١٧١٨) وبالتدخل الروسى أصبحت المواجهة بين عملاق حديثة وعملاقة (فى النزاع الأخير) أو أنهكه التعب على الأقل.

ومهما يكن من أمر فإن الإمبراطورية التركية لم تعد قائمة. وتحولت إلى ذلك الرجل «المريض» الذى طفق بالأحياء يسيء معاملة القوى العظمى الدبلوماسية فى القرن التاسع عشر. إذ قام الإسلام التركى أحقابا بدور متألق رهيب وفى أحيان أخرى كان هذا الدور باهرا ساطعا على غرار فارس فى القرن السابع وما فعل كبير المغول فى بداية القرن الثامن.

ولنحذر ونبعد عن تلك الأحكام العديدة المتسرعة التى وصفت التدهور المبكر للإسلام... علينا ألا نستبق الأحداث. ففى اسطنبول فى القرن الثامن كان عصر زهور الخزامى على الخزف والمنمنمات الدقيقة والطور المزركشة حيث ظل الباعث بعامة كما هو كلل أو ملل.. عصر الخزامى عصر زهور الخزامى اسم جميل لعصر لم يخل من فضل أو قوة.

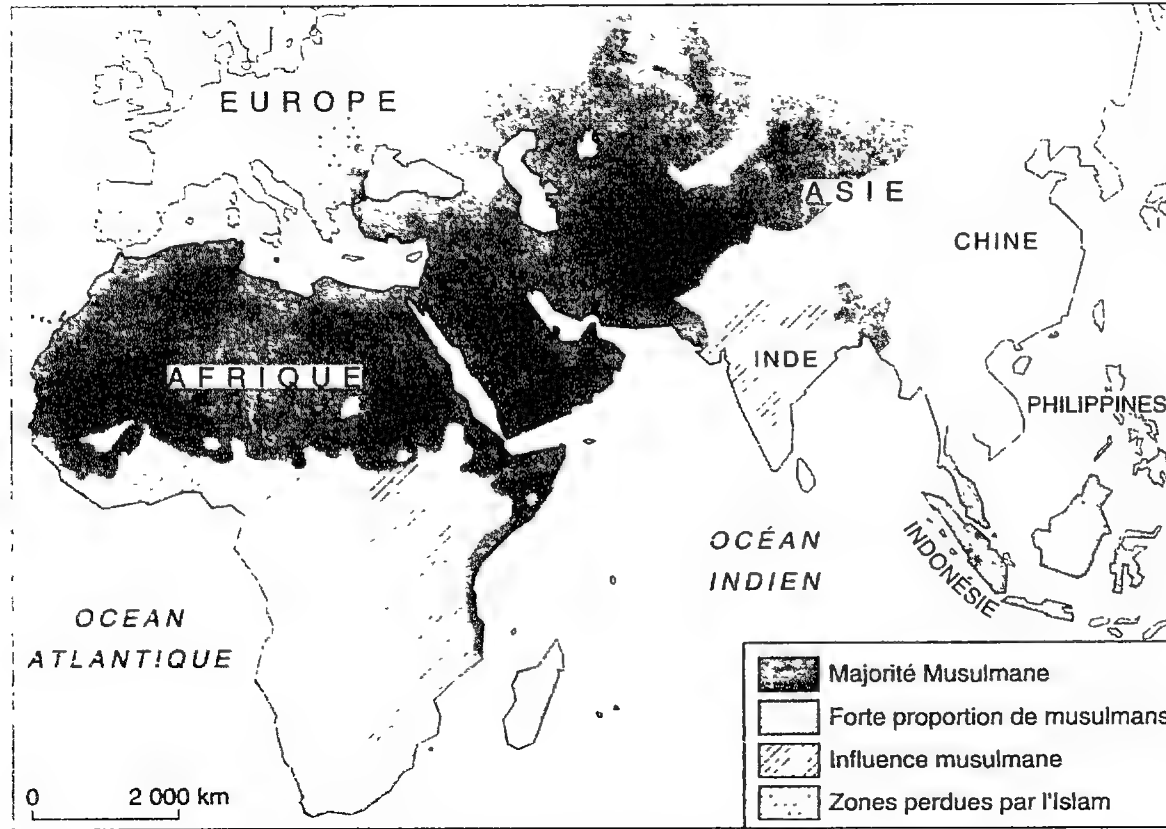
الهوامش :

(١) سلالة من البربر، حكمت بلاد المغرب من الجهة الغربية وجزء من أسبانيا من ١٠٥٥ حتى ١١٤٧ ومؤسسها هو عبدالله بن يس

(٢) سلالة من البربر أزاحت الموراقين وحكمت شمال أفريقيا ونصف أسبانيا من ١١٤٧ حتى ١٢٦٩ ومؤسسها محمد بن Tumart

نهضة الإسلام المعاصرة

دخل الإسلام مرحلة التراجع فى خضم هذا الحجم الذى نطلق عليه العالم الثالث وكانت رحلة التراجع هذه لما قد سبق له من حياة أفضل لا جدال فيها وقد جاءت تلك المرحلة من الارتداد رغم وضوحها إلا أنها متأخرة بعض الشيء وكلفته خلال القرن التاسع عشر سلسلة من المهانة والمرارة والآلام ومكابده، ثم واجه آخر الأمر شمولية السيطرة الأجنبية فى وقائع معروفة غير أن تركيا استطاعت الإفلات من المصير العام المحتوم ومن ثم تستطيع إدراك مقدار رد الفعل وعنفه وروعته فى الوقت نفسه عشية ما كان محتملا بل محتوما من أحداث. كان ذلك مع بزوغ نجم مصطفى كمال باشا ١٩٢٠ ـ ١٩٣٨ حيث كانت المشكلة الرئيسية التى واجهته تأمين استقلال وطنه وكان أمرا عسيرا شاقا وأعسر منه مسايرة الدنيا الجديدة والنظر إلى المستقبل فبدت نظرة الدول الكبرى وقتئذ .



غالبية إسلامية

نسب مرتفعة من المسلمين

النفوز الإسلامى

مناطق فقدها الإسلام

الفصل الثالث

أفول عصر الاستعمار ..
وبزوغ شمس الحركات الوطنية

أفول عصر الاستعمار
وبزوغ شمس الحركات الوطنية

ليس أسهل اليوم من تسجيل المراحل التاريخية لمسيرة الحقبة الاستعمارية ثم مرحلة احتلال مختلف بلاد العالم الإسلامي التي وقعت واحدة بعد أخرى باستثناء الجمهوريات الإسلامية السوفييتية التي تتمتع بالاستقلال المطلق.

ويتناول حديثنا في هذا الفصل حركات الاستعمار الإنجليزي والفرنسي والبلجيكي والألماني والهولندي. إذا الثابت أن دورها في احتلال بلاد الشعوب الأخرى قد كان كبيرا ومع ذلك فقد كانت هناك حركة استعمارية روسية ثم سوفييتية لا يتحدث عنها كما نتحدث عما عداها فلم ترفع روسيا يديها عن ٣٠ مليون مسلم على الأقل أي ما يفوق نصف سكان المغرب الآن ثم هل يليق لفظ استعمار في هذه الحالة؟ هذا هو السؤال فمنذ الثورة الروسية عام ١٩١٧ بذلت جهود ضخمة هدفها التخلص من الاستعمار وتوزيع السلطات. وقد منح الحكم الذاتي لكثير من المقاطعات والولايات المحلية وتحقق نجاح مادي كثير واليوم تخطو كل الأمم الإسلامية في الاتحاد السوفيتي وخاصة شعوب التركستان والقوقاز بسلوكها الإداري والفني والسياسي الخاص وأجهزته الاستخبارية وجمهورية المثقفين فقد استطاعت هذه الشعوب اللحاق بالتتار وسد الفجوة التي كانت تباعد بينهم ولم تعد هذه الشعوب في حاجة إلى اللجوء إلى خدمات المثقفين من قازاخستان.

وكانت هذه الجمهورية المستقلة تمثل المركز العلمى للثقافة الإسلامية فى روسيا فيما مضى من أزمان ومع ذلك ضعفت فى تلك الفترة عوامل التماسك الطبيعى التى كانت سائدة بين مختلف الجمهوريات الإسلامية فى روسيا وأصبح من الأفكار البالية ذلك المشروع الذى كان يستهدف إنشاء دول طورانية واسعة فى محيط النظام الاتحادى السوفييتى الحالى إذ تبدو الثقافة وطنية مشكلا كانت فى المضمون عمالية اشتراكية السمات فكان من ثم أن بدأت ظاهرة «علمانية» تبزغ على حساب القيم الدينية والروحية التى بشر بها الإسلام مع ظهور نزعة وطنية منذئذ. محدودة من الآن وذات ميول وآفاق «إقليمية» دون أدنى تفكير فى الالتجاء إلى «أمة» الأخوة فى الإسلام وتعبر عن نفسها عادة بثورات وانتفاضات ذات نفس قصير تهدف إلى إدخال تحسينات على المؤسسات القائمة أو تحقيق متطلبات الشخوص الطارئة.

وبإيجاز شديد تبدو مشاكل المسلمين فى الاتحاد السوفيتى اليوم فيما لا يجاوز فعلا انتفاضات بعيدة كل البعد من تلك الانتفاضات الإسلامية المعروفة وتعبر عن نفسها على (الصعيد العالمى). بصوت مرتفع ليس غير. فالجمهوريات السوفييتية الإسلامية جمهوريات مستقلة ولكنها مرتبطة بسائر الجمهوريات السوفييتية (من سياسة خارجية مشتركة وتضامن فى شئون الدفاع الوطنى المال والتعليم العام والسكك الحديدية، وهكذا نجد أننا بعيدون بعدا شاسعا عن أحلام السلطان جالييف تلك هذه الشخصية الشيوعية البارزة ١٩١٧ ـ ١٩٢٣ قد صار فيما بعد المحرض والمعادى الثورى حتى حكم عليه بالإعدام عام ١٩٢٩ فقد كانت خلاصة حلمه تجميع كل مسلمى البلاد السوفييتيه فى دولة واحدة ونشر التعاليم الإسلامية ولو بالقوة حتى قلب القارة الآسيوية مستغلين سابق أمجادهم وفتوحاتهم لهذه البلاد.. هذه القارة الآسيوية الواعدة القابعة فى سبات عميق على حين لا تنظر إليها دول أوروبا الصناعية والعمالية (روسيا) إلا أنها مقرا وإن كان ثوريا فهو هامد خامد... فهل يستطيع الإسلام أن يكون فى مسيرته نحو الشرق... ذلك المشعل المضىء؟

إن الوحدة العربية وتعد اليوم نجم الإسلام السياسى تحل محله فى التعبير عن التيار الإسلامى كل فلم نعد نرى ولا نسمع سواها. فالعالم العربى التام هو قلب

الإسلام بكل وضوح وملتقى طرقه. ومن هنا تجىء الخطط بين الشرق الأوسط وامتداده المغربى والمزج بينهما لدرجة لم تعد ترى صورة عداها وبالطبع نجد انفسنا إزاء الجزء فى سبيل المجموع فهل خرجت السمة الرئيسية اليوم فى الإسلام عن تلك الانقسامات الخادعة وهذا التقسيم لوحدة أراضيه ووحدته الذاتية؟ بسبب الواقع الجغرافى والسياسى فهناك قطاعات معينة من بلاد الإسلام تخضع خضوعا شاملا لحضارات أخرى أو لنظم اقتصادية أخرى.

ففى ربوع شبه جزيرة الهند وهى الجزء الجنوبى الشرقى لقارة آسيا وفيها أندونيسيا والفلبين نجد أن الثمانين مليون مسلم الذين يعيشون مختلطين معاً مع اختلاف العقائد بين المذهب الإحيائى المؤمن بحيوية المادة وبأن النفس مبدأ الفكر والحياة الفكرية فى وقت واحد وبين العقيدة الهندوسية أنها شعوب امتزجت فى نظام اقتصادى خاص جدا وتعتبر كأطفال شبه تائهين وفى نطاق الهند نجد باكستان وقد انقسمت قسمين ضخمين تتهددهما المساحات الواسعة والتعددية المتفشية فى الهند ذاتها. وفى الصين يعيش عشرة ملايين من المسلمين فى شبه عزلة مآلهم الضياع حتما وفى أفريقيا السوداء نجد الإسلام الفاتح بالأمس وقد خضع اليوم لموجة عقائدية مشوهة ومشوهة وهى عقائد متعددة الأشكال راسخة حيث دينية يلجأون إليه من حيث هو عقيدة دينية كنوع من المقاومة والصمود إلا أنهم يعيشون مدركين أن مصيرهم هو الضياع إن لم يكن اليوم ففى الغد القريب ولم تعد كل البلاد الإسلامية تولى وجهها نحو مكة كما كان الحال من قبل ولم تعد شعائر الحج تمارس كمظهر من مظاهر التماسك والتضامن الإسلامى، فابتعاد الشعوب بعضها عن بعض مع ما تساهم به موجات الإلحاد والاتجاهات اللا دينية بشكل كبير فيما صار عليه الإسلام اليوم فلم تعد مكة منذ عام ١٩١٧ ترى سوى بضع مئات من الحجاج السوفيت كل عام.

ونرى الإسلام اليوم يتخذ نفس الشكل الذى كان عليه عصر غريباً لدّى حيث تصطدم الوحدة الإسلامية فى قلب البلاد الإسلامية وفى الشرق الأوسط بقدرات وانتفاضات وطنية محلية حادة وهائجة.

(فى شهر سبتمبر ١٩٦١ حدث الانفصال)

وواقعة الانفصال الغريبة بين مصر وسوريا مثل ناطق على ما آلت إليه أمور العالم الإسلامى من باكستان وأفغانستان وإيران وتركيا ولبنان وسوريا والعراق والأردن والعربية السعودية وتونس والجزائر والمغرب وموريتانيا واليمن، وكل منها تتمتع بخاصيات ذاتية وما أكثر النزاعات التى تنشب بين كل منها وغالبا ما تكون نزاعات وصراعات يحاولون إلباسها أقنعة مقنعة مستترة كى تبدو من ثناياها مظاهر وحدة «وقتية» كلما نشأت أو اشتد الصراع مع العالم الخارجى وما يمثله من مخاطر. تدفع هذه الانتفاضات الوطنية المثيرة الناس والطلبة فى المقدمة خاصة إلى إتيان تحركات درامية استعراضية غالبا وهى تحركات بالية وليست عدوانية كما يراها الغرب بمنظار ظالم، ثم أليس لنا نحن أيضا نفس الظروف؟ ألم نأسف كثيرا بالأمس على حركاتنا الوطنية التى دفعت أوروبا فيها ثمنا غاليا؟ وعلينا ألا ننظر فى زمن السوق الأوروبية المشتركة إلى هذا الازدهار فى الحركات المحلية دون أن تنقصنا النظرة التى تفتقد البشاشة ولنكرر قولنا إن هناك ظلما ما يحيق بالعالم العربى من واقع منظورنا له إذ ليس لتلك الانتفاضات الوطنية مواقف عنيفة ضد الغرب... ظلم فى الواقع هو اللفظ الذى استخدمه نجم الدين عام ١٩٥٩ وهو يصف موقف الغرب فى الإسلام إذ قال: إن على الإسلام اليوم أن يعيش ثورة دينية تقارن بالإصلاحية... ثورة ثقافية روحية فى الوقت نفسه تشبه الا «أوفكلارونج» وهو اللفظ الألمانى الذى يتطابق اليوم ما نطلق عليه الإشعاعات والاستبداد المثير فيما وقع فى القرن الثامن عشر من ثورة اقتصادية واجتماعية ولتلك التى عرفتها أوروبا فى القرن التاسع عشر تحت اسم الثورة الصناعية وذلك فى زمن تعاصر فيه تلك النظم الإقليمية الكبرى بين الكتلتين الشرقية والغربية وكان من الضرورى أن ندرك أسباب تلك الثورات والانتفاضات الوطنية الصغيرة فى عصر نرى فيه كيف تفتقد [illegible] والتحالفات والمواثيق العالمية إذ كيف يقف الإسلام اليوم فى مواجهة [illegible] باحثا غريباً لدى المسلم لتوحيد أقطاره المشتته وليس من [illegible] المضيئة لغار يبالدى إذ كان لحروب الوحدة الوطنية التى [illegible] فى أنحاء أوروبا تداعيات رهيبة معروفة. فهل يكون تقسيم [illegible] هو كائن لصالح

الإسلام؟ أو أكثر ملاءمة له؟ ألا يحتمل أن تعود الدول الإسلامية إلى طريق مسدود؟ وذلك فى عالم اقتصادى لم يعد يسمح بمثل هذه التجزئة ثم أليس ذلك مما يثير ويولد النزاعات الخطرة إذ لكل دولة مستقلة قوتها الحربية المتواضعة وتعبر عن رأيها فى الوحدة «الإسلامية» أو الوحدة «العربية» بما يعن لها من رأى فى نطاق ما تمليه مصالحها الذاتية وطموحاتها. وتتخذ هذا الحظ كل من الباكستان والعراق ومصر ولاشك أن الباب مفتوح أمام الآخرين، ومثل تلك النزعات الوطنية ليست مرحلة ضرورية أو اضطرارية ولا هى ثمن للدور الذى لعبته خلال حقبة الاستقلال الصعبة فكل نزعة وطنية كانت ولازالت «معادية» للاستعمار تمارسه كنوع من «الترياق» الواقى من السيطرة الأجنبية يهدف التحرر النهائى التام ثم إن إلتقاء كل الحركات الوطنية العربية فى تجمع فى مواجهة إسرائيل عدوهم القديم وصراعهم معه أمر لا يثير دهشتنا ولا نستغربه فإسرائيل التى قامت غداة الحرب العالمية الثانية أليست هذه الدولة الإسرائيلية ثمرة الغرب نفسه.. الغرب الممقوت الكريه؟ ونجاح وتفوق إسرائيل وتفوقها على صعيد التقنيات الحديثة الرائع.. أليس هذا النجاح وهذا التفوق هما ثمرة لرؤوس الأموال التى انهالت على إسرائيل من كافة انحاء العالم كله؟ واستعراضات القوة هذه ضد مصر عام ١٩٤٨ وأيام أزمة تأميم قناة السويس والمسيرة الزاحفة المنتصرة بجيش صغير عبر صحراء سيناء عام ١٩٥٦ ألا يثير كل ذلك الخوف والعداء والغيرة؟ وكلها إضافات تنضم إلى الصراع القديم.

كتب جاك بيرك يقول: بحق إن العرب واليهود إذا ما سمحت لنفسى أن أقول هم شعوب الله فهما الاثنان معا شعوب الله وهو أمر صعب جدا بالنسبة للمفاهيم الدبلوماسية والدول الرشيدة. وما الصراع بين الشعبيين إلا صراع يستحيل تفسيره ولا سبيل لأحد أن يغتفره ويكمن هذا الصراع فى تجاورهما فى الموقع معاً وهما الشعبان من صلب إبراهيم ويشتركان فى «وحدانية الله» ألا نجد أن كلا منهما اتخذ فى مواجهة الغرب طريقا معاكسا إذ عاش أحدهما فى الدياسبورا أى الشتات واستطاع بالرغم من ذلك الاحتفاظ فى عناد بمثاليته الجماعية المتصلبة وإخضاعها للتقنيات المتقدمة لدى الدول المتميزة وظلت الشعوب الأخرى قابعة

فى أراضيها ولكن بعد اجتياحها وتفتيتها فلقد صادفتهم مزايا أو لعلها مساوئ البقاء ولو شكلا فيما يشبه الاتحاد بما يوضح ويفسر ما نراه حاليا من تباعد السمات والمظاهر وقد فكر أكثر الباحثين استنارة من العرب مليا وبمرارة شديدة فيما أطلقوا عليه «كارثة عام ١٩٤٨» وهو ما دعاهم إلى تقديم النصائح إلى مواطنيهم بضرورة إحكام وضبط وتعديل الأوضاع الكفيلة بتفادى العودة إلى مثل تلك المغامرات والكوارث. وللنزعات الوطنية دور عليها أن تؤديه فى المستقبل القريب فسوف تواجه كل الدول الإسلامية بغض النظر عن كافة الظروف آجلا أو عاجلا برامج ذات أبعاد متسلطة دقيقة تمثل مواجهات محتومة.. وهى فى الواقع برامج تضامن وبرامج لنظم اجتماعية جديدة وسوف تساعد الروح الوطنية القومية فى هذه البلاد الفتية على مواجهة الصعوبات الاقتصادية الشديدة والتى تضغط عليها وفى الوقت نفسه تساعدها على تقبل التحديات اللازمة وهى تحديات تجابه أركانا دينية قديمة ومواريث قبلية وعشائرية وعائلية بالية تعود غالبيتها إلى عادات إسلامية قديمة ترسخت فى الحقب الإسلامية السابقة وكلها من الجائز أن تثير ردود أفعال عاتية.

وعلى أى حال ومهما تكلف الأمر سيجد الإسلام نفسه مضطرا إلى تحديث نفسه ومسايرة قدر كبير من تقنيات الغرب حيث صارت اليوم أساس الحضارة العالمية فلا تستطيع التقاليد رفض الأخذ بها ذلك أن المستقبل رهن برفض أو تقبل تلك الاتجاهات الحضارية الدولية رغم ما للتقاليد الموروثة من وزن طاغ أحيانا وذلك على الرغم مما قد يدفع الشعوب من كبرياء وطنى إلى تقبل ما تميل بالفطرة إلى رفضه.

وكثيرا ما أنكروا على الإسلام المرونة الضرورية للتكيف مع الضرورات العنيفة الملحة بحيث حملت عددا كبيرا من المراقبين على التأكيد بأن الإسلام بماضيه وروحه وأقطاره بل وحضارته وهى سمات عنيدة يصعب النفوذ منها فهى عنيدة متصلبة ولذلك يقول هؤلاء المراقبون إن الإسلام فى سياق «ضرورة التحديث» سيجد نفسه محاصرا بما يمكن من تدمير كافة جهوده للتحديث لمسايرة العصر... فهل الأمر بمثل هذا التأكيد؟ فى الواقع ليس الأمر كما يتصور المراقبون فلقد سبق للإسلام أن تقبل وبالتالى يمكنه اليوم أن يتقبل المزيد فى هذا العالم المتحضر الذى

يحاصره ثم يجب ألا ننسى أن المسيحية بالأمس كانت كالإسلام لم تتقبل كذلك كل ماهو «حديث» دون معارضات وتصادمات وتحفظات ولم تفقد شيئا من أصالتها وهى تتنازل طواعية عن بعض ما كانت تتمتع به من مزايا. فإذا ما نسبنا إلى الإسلام التصلب والعناد العقائدى والفريد فمعنى ذلك أننا ننسى تلك المرطقات التى تبرر وحدها مخاوفه واحتمالات نجاح محاولات لىّ طريقة (لَى مساره) فإن القرآن ذاته على أى حال يفتح أمام المنادين بالإصلاح الباب الذى لا يغلق أبدا وهو ما يسمى «بالاجتهاد» ويقال إن النبى كان قد بين أن القرآن والسنة قد لا يتناولان كل شىء صامتين ولذلك يدعو القرآن عندئذ إلى الاستدلال بـ «القياس» وسوف يتخذ هذا الاجتهاد وصفا متميزا ويلعب دورا كبيرا فى إرساء قواعد حديثة للإسلام والفكر الإسلامى ويتجاسر دعاة الإصلاح والتحديث اليوم على فتح أبواب الاجتهاد وبالعقل يطوقونها فهى بالنسبة لهم أبواب النجدة ذلك أن كل الديانات تمتلك أبواب الإسعاف والنجدة، والإسلام قادر على كبح محاولات الإصلاح والتصدى لها وفى الوقت نفسه قادر على الاستدارة أو على الأقل على التعرض للإستدارة، وعلماء الاقتصاد المتأثرون بهذه الحقائق اليومية لا يفتأون يعترضون على هذه التفسيرات وهذه السمات الراسخة فى المفاهيم الإسلامية وحياتهم اليومية إذ تصدر المشكلة فى رأيهم فى واقع الأمر عن اتساع الوثبة المطلوبة إذ تأخر الإسلام فى مسيرته قرنين من الزمان عن الغرب وهو الزمن الذى بدل وحور وغير من شكل أوروبا عما كانت عليه فيما بين القرن الثامن عشر وبين ما سبقه من أزمنة سحيقة، فكيف يستطيع الإسلام فى قفزة واحدة عبور تلك المرحلة من الأزمنة القديمة والسحيقة، وأن ينجح فى هز وتعديل مسار مجتمعاته الجاهلية القديمة على حين لا يمتلك إلا غطاء زراعيا فقيرا وغير ثابت الأركان وغير قابل للتغيير وصناعة منغلقة مكمومة (منغلقة ومحفوظة فى أكياس) منعزلة كأنما هبطت فوق اقتصادياتها وكذلك غير قادرة على مواجهة أعباء كتل بشرية ولود كثيرة النسل ثقيلة الخطى كشأن كل مجتمع فإن فى المجتمع الإسلامى أثرياءه وهم قليلون رغم ضخامة ما يمتلكون ويغلب ألا تكون المعتقدات أو التقاليد غير ضمانات وبراهين على تلك التى يتمتع بها سعداء الحظ الذين يجدون من

مصلحتهم الإبقاء على رمق أفراد فى مجتمعات تعيش حقيقة فى العصور الوسطى كالتى تجدها فى اليمن والمجتمعات الإقطاعية فى إيران أو المجتمعات الجاهلية فى العربية السعودية رغم توفر البترول أو بسببه.

وفى مواجهة تلك الصعاب تبدو جهود المصلحين وكأنها امتحان يتعذر الاعتراض عليه... جهود تذكرنا بتلك التى بذلها مصطفى كمال فى تركيا وما اتسمت به من عنف وكان ينوى بذلها قاسم فى العراق أو تلك التى اتسمت بتصلب الرأى والعناد من جانب ناصر فى مصر وتلك التى اتسمت بمهارة بورقيبه وفطنته فى تونس، ومهما كانت الظروف فإن العقبات التى واجهت جهود الإصلاح تكاد تكون كلها عقبات واحدة متشابهة حيث إن محاولات الإصلاح كثيرا ماهاجمت بعنف معتقدات تدعى لنفسها الألوهية «كمحرمات» لا تستطيع المساس بالمعتقدات الإسلامية الحضارية وهنا التجربة التى لا تخطئ هى قبل أى شىء تحرير المرأة وهى التى تسير فى خطوات بطيئة وإن تأكد أن التجربة سوف تتحقق. كما أن تجارب كمحاولات القضاء على تعدد الزوجات أو قصر الطلاق على طرف واحد يحقه الإسلام للزوج وإلغاء الحجاب وحق دخول الجامعات والحقوق الثقافية وحقوق العمل وحق التصويت فى الانتخابات لكل هذه الأمور اليوم آثارها الضخمة مما يدل على أن محاولات الإصلاح ليست قضايا خاسرة مسبقا بل فى حاجة إلى مدافعين ومقاتلين يتسمون بالتصميم والعزم وتواجه أكثر ما تواجه من خطر انقيادها ودونما وعى للتوقف إزاء الإغراءات أو الوقائع السياسية المعارضة والواقع السياسى يميل فى جميع الأوقات وفى غيرها إلى التهويل بهدف بث الإحباط والتوقف. فالأمر المثالى هو أن نقوم بعمل شىء واحد كل مرة وتختار فى كل مرة الأهم فالمهم، ولكن السياسة كلها حسابات وأمور منهجية وعقلانية فالتقدم والنمو الاقتصادى وحده بالنسبة إلى الإسلام وغيره ليس بأى حال ولا يمكن أن يكون محاولة تفضيل فيما بين مواقف عدة لا... بل وبين أمور مطلقة لأن فى العالم حيث يضطر المرء إلى العيش كثيرا، يجبر الإنسان على مواجهة الصعوبات القديمة والصعوبات الحادثة والطارئة بترتيب وقوعها فكل تلك البلاد المزهوة والفخورة باستقلالها إنما تواجه متطلبات سياسية ملحة وهائلة.

فى كل زمـان ومكان وعلى هذه البـلاد عبء إرضـاء تلك المطالبـات وغض الطرف عن مشاغل ليس لبعضها علاج وتبدو هذه الدول فخورة بعلاج مثل تلك المشاكل والعقبات. والإسلام كأوروبا نراه يضم تلك الجماعات من شباب نفد صبره يعيش فى قلق ويحرص على النجاح والاحتفاظ بخطوات وئيدة على طريق التقدم وهم اليوم يشبهون جماعات البولينيكنيك التى عرفتها مجتمعاتنا عام ١٨٣٠ وللإسلام كذلك رجاله المسلحون القادرون على القيام بأعمال طائشة وكذا القيام بانقلابات عسكرية كما حدث من العسكريين فى أمريكا اللاتينية قبل عام ١٩٣٩ كما أن لدى الإسلام أحزابه السياسيـة ذات الأنياب الطويلة والأطمـاع فى الحكم ولديه كذلك رجال السياسة المخدوعون حتى فى أنفسهم ويدفعون ثمن خطبهم تمثل آراءهم العنيفة... ثم ألا يجب رفع الصوت للتغطية على صوت الدنيا؟

وبالطبع فإن الخارج مائل، ففرنسا فى شمال أفريقيا وإنجلترا فى الكويت وفى السعودية جنوبا والولايات المتحدة فى كل مكان رابطة الجأش تعمل فى رصانة وهدوء متعهدة بتقديم المعونات والقروض والنصائح، وروسيا المتحفظة تتعامل بكياسة فى معطياتها وفق ما تقتضى الحالة ولكنها دائما يقظة متنبهة لأية حركات من هنا أو هناك فى حلبة الصراع الواسعة تلك وفى كل ركن أخيرا تطل الثورة الاجتماعية برأسها معبرة عن متطلباتها الضرورية وهى انتفاضات اجتماعية تمتلك رياح التاريخ توجهها لصالحها، ففى تركيا كم انبعث إثر الانقلاب العسكرى فى ٢٧ مايو ١٩٦٠ من آمال عديدة فى تحقيق إصلاحات اجتماعية غير أن تباطأت إيقاعات الثورة بالقياس لما حدث فى إيران رغم مجيئها من أعلى وكانت محافظة تقدمية وحققت بعض النقاط رغم الشباب ذى النزعة العدوانية وأنصار الوزير السابق مصدق حيث اللعب الصامت المكتوم من جانب حزب «تودة» الشيوعى وفى الأردن حيث واجه ملك شجاع كل المخاطر التى تحيط به وفى لبنان وطموحاتها فى أن تصبح سويسرا الشرق الأوسط وفى العراق حيث الثورة شكلية أكثر منها فعلية وحيث يمثل الأكراد جرحا عميقا فى جسد الأمة العراقية. وفى مصر غداة الانفصال مع سوريا اختط البكباشى الحاكم طريق الاشتراكية التى لم يتحقق سوى نصفها ذلك أنها كانت حركة نصف شيوعية اجتماعية من

الممكن أن تنتشر بالتدريج ولاشك يظل الاستعراض ناقصا مالم نذكر ما يعتلج فى نفوس الباكستانيين الذين تنتابهم المخاوف من الهند بتعاظم قدراتها العسكرية بأكثر مما كان مقدرا لها بالأمس، تريد أن تستحوذ على كشمير، ثم أندونيسيا التى شجعها انتصار الهند فى منطقة جوا على القيام بالمثل فتستولى على غينيا الهولندية فى إيريان لتضمها تحت حمايتها وشمال أفريقيا بأسرة حيث ينتظر بعد حل المأساة الجزائرية تحديد الطريق الذى يسلكه ويختاره ليعيش فى هذا العالم.
تشغل كل المشاكل والمسائل بال الحكومات الإسلامية وتؤرقها وتضغط بشدة على سياساتها وتعرضها لردود أفعال وانتفاضات وثورات خطيرة غير متوقعة وتجلت لها كل مرة ضربات شديدة لها بدون شك ردود أفعال جسيمة بالنسبة إلى البلاد الأخرى ممن كان بمقدوره شهود مدى ما كلفته مشكلة بنزرت العاطفية ودفعت ثمنها فرنسا، غير أن فرنسا غنية وتونس فقيرة ومن هذه المشكلة هل كان مصير بنزرت وحده عن المجازفة والرهان أم كان الأمر عاملى زهو وكبرياء جرح أحدهما الآخر فعمد الطرفان إلى تعقيد المشكلة بسرور وهدوء؟ ولكن فرنسا شعرت بالمرارة لأنها قدرت أنها فعلت الكثير للإسلام وتلك حقائق الواقع ولكن الإسلام يجد نفسه يشعر بالمرارة لاعتقاده بأن الاستقلال الذى منحوه إياه ليس كاملا.
صحيح أنه من بلد مستقل استقلالا تاما مادام اقتصاده يلفظه ويلقى به إلى متاهات العالم الثالث ومن واقع تلك التبعية الاقتصادية فإن الدول الاستعمارية القديمة مسئولة مسئولية جزئية إذ أن هذا النقص وهذا التدهور إنما يعود كذلك لأسباب خاصة ترجع إلى ماضى العقيدة الإسلامية ذاتها وفقر دوله الطبيعى كثرة أبنائه المفرطة وهذه كلها أمراض رهيبة ولو لم تكن بدون علاج.

الدول الإسلامية المختلفة فى مواجهة العالم المعاصر

يكون النمو أحيانا كثيرة مبعث قلق وصعوبة بالقياس إلى الإسلام فهو يواجه ذات المأزق الذى يواجه عادة كل بلاد العالم الثالث فيلزمه فى سبيل الاندماج فى حياة العالم الاقتصادية ليحقق بأسرع ما يمكن ثورته الصناعية.

وتلك مهمة من السهل صياغتها شكلا ولكن تطبيقها يستدعى دفع الثمن الباهظ وتحمل أعباء عمل شاق مع توقع ثمار آجلة لا تأتى فورا أو تتوقع بسرعة ولا سبيل لردود أفعالها وآثارها أن تنعكس على مستويات المعيشة بسرعة فالأمر إذن يحتاج إلى وقت طويل ويجب أن نعترف بأن الاستعمار قبل هذه المشكلة لم يعمل بالفاصل الزمنى الذى استغرقه على مواجهتها كما ينبغى ومن هنا تكمن المسئولية الضخمة التى تتحمل مسئوليتها وآثارها الدول الاستعمارية ويجب فى الوقت نفسه ألا نقلل مما أدخل الاستعمار على البلاد التى احتلها من ميزات واضح أنها كانت هامة جدا فقد جعل منها ـ وكانت شعوبها تحيا حياة جاهلية تقبع فى عصور قديمة ولم يطرأ عليها شىء من التقدم منذ قرون فأتاح لها الاستعمار المشاركة المفاجئة والاتصال بحضارات متقدمة متطورة ولا شك أن تلك المشاركة أو هذا الاتصال قد أعطيا شيئا ما لتلك البلاد ولشعوبها ويأتى من بين هذه المنافع فى المقام الأول مبادئ ونظم صحية وعلاجية حديثة مما أدى إلى انخفاض كبير فى معدلات

الوفيات وإلى نظم تعليم هامة ما استطاع وفق الأحوال (وفى هذا السياق بعد الاستعمار الفرنسى من أقل من يقع عليهم اللوم من المستعمرين وذلك فضلا عن إدخال تحسينات أساسية عديدة كالموانئ والطرق والسكك الحديدية وتحديث وسائل الرى بما يصاحبها من إقامة السدود والخزانات وضرورات الرى الحديث وإرساء قواعد سليمة لمشروعات التصنيع.

أكان ذلك كثيرا أم لم يكن، يجب الاعتراف فى الواقع بأن ما جلبه الاستعمار قد دمر جزئيا البنية الأساسية والدعائم القديمة ليحمل محلها دعائم للأسف لم تكن كاملة التشييد فجاء بناؤها بأسلوب ناقص ذلك لأنها لم تشيد على ضوء احتمالات المستقبل وضروراته واحتياجاته فى إطار اقتصاد وطنى محلى ولكنه ربط كل المشروعات الاقتصادية فى البلاد المستعمرة بنظائرها فى البلاد المستعمرة وهو وما يسميها البلد المتروبول وجعلها رهينة بصفة دائمة تخضع لرغبات الدولة الحاكمة الأم وأهوائها وتسيطر عليها فتتسلط أحيانا ظروف حياة العالم المتقدم، ويتضح ذلك مما نراه اليوم من تفاوت كبير فى خطط التنمية وفق القطاعات ووفق الضرورة مما دفع شباب الدول المستقلة حديثا إلى إعادة تخطيط وسائل التنمية والإصلاح لتتوافق مع دعائم بنيان اقتصادى هيكلى يناسب ويحقق احتياجات بلادهم الحقيقية الوطنية بدلا من تلك التى خطط لها الاستعمار تخطيطا عشوائيا أو ما يقترب من العشوائية ولاشك أن إعادة النظر هذه إنما تمثل عبئا ثقيلا ومهمة شاقة تضاف إلى عديد من مشاكل شعوب هذه البلاد وأقلها فقر الأراضى القابلة للزراعة.

ولمواجهة التصدى لهذه المشاكل كان على الدول الإسلامية أن تدرك أن التحدى يجب أن ينبع منها ذاتها وألا تخطط أبدا اعتمادا على الآخرين ويجب أن تنجح هذه البلاد فى التأقلم مع سياسة متذبذبة للأسف ومعترسة أحيانا تمارسها حكومات ومجتمعات الدول المتقدمة «المحظوظة»، وعموما فإن البلاد الإسلامية لا ينقصها ما تحتاج إليه اليوم من الذكاء أو الدهاء السياسى لمسايرة سائر دول العالم المتقدم، كما يجب عليها ألا تنسى أن تتمسك بتقاليدها مع التكيف فى الوقت نفسه مع أساليب الحياة العصرية وهو ما يمثل أصعب مهام تلك البلاد الناهضة.. وعموما فمعروف أن هذه مهام تبلغ ضخامة هائلة ولكن لا تقول «مستحيلة».

وليس الاقتصاد المتقدم ولا البترول المتدفق هما الحل فليست الحلول أمرا سهل التحقيق ولو ساندته تدفقات البترول السخية الكريمة ولاشك أن البترول يمثل الثراء حيث نلحظ آثاره الطيبة فيما تفعله بمستوى المعيشة وكذلك قدرات الدول البترولية الاقتصادية اليوم، ومعروف أن تلك الثروة هبطت على بلاد الشرق الأوسط بسخاء ولكن لم تستطع سوى الشركات العالمية الكبرى تحمل أعباء استخراج هذه الثروة واستغلالها ومواجهة ضخامة ما ينفق عليها فى عمليات التنقيب ثم الاستخراج ثم الاستغلال ثم التسويق وتظل هذه الشركات العالمية الكبرى أكثر المستفيدين لتحملها هذه المهام ضد القائم من «الملكيات».

أى تلك الأسر الملكية الوراثية ثم محاولة الاستئثار الوطنى كما حدث يوما فى إيران عام ١٩٥١ وكما ترنو العراق اليوم عام ١٩٦١ بأبصارها لتحقيقه وهى محاولات بلا طائل فاشلة مسبقا إذ لا قيمة لبترول بغير تسويقه وبيعه ولذا فلم تعد هناك اليوم أزمة بترول أو نقص بترول فى العالم الآن بل على العكس بدأ عصر البترول وزمن سيادته فى الأفول وأوشك على الدخول فى مرحلة «عدم الدوام» الأبدى وخصوصا فى عصر الذرة، ومن المفيد أن نضيف ملاحظة عابرة فتقول أن الاستغلال الأجنبى المكروه ليس وحدة القضية فقد وطدت الملكيات أى الأسر الملكية فى البلاد الإسلامية أركان امتيازات اجتماعية فلا يوزع العائد بعدل ولا إنصاف وربما بدت أحيانا كثيرة مظاهر البذخ الذى تبدو على طبقة من الناس دون غيرها بفضل ثروات مفتعلة إذ لم تسهم فى التنمية المحلية حيث يبعثرها ملاكها فى شراء ملاك ومنافع تقتنى فى الخارج ولن تكون أبدا إنتاجية لو أنفقت محليا (فى موقعها) فالبترول سبب إنشاء هذه المدن الجديدة التى تشاهدها فى العربية السعودية وكذلك تلك الحديثة والرائعة والسكك الحديدية والمطارات ولاشك أن كل مظاهر التقدم هذه واضحة وملموسة غير أن مظاهر هذا الثراء الجامح ربما ينطوى عليه من مفارقات ومغالطات تاريخية من جانب العائلة الملكية ورؤساء القبائل الأساسية.. لا تروق للشباب المتحمس المتأثر بالثورة المصرية كما لا يروق لطبقة بورجوازية (طبقة متوسطة) تطمع فى المشاركة ونيل دورها فى الأمور العامة ويبدو البترول فى عيون المراقبين كالفضة فى أمريكا فى القرن السادس عشر حيث تدفقت على أسبانيا وغيرها لتستقر فى أوربا فتزدهر وينمو اقتصادها.

وعلى العموم فإن البترول وسيظل أحد أسباب الصراعات فى منطقة الشرق الأوسط وكان آخرها وأقربها ما نشب من نزاع فى مواجهة ثمانى شركات البترول العالمية فى العراق بين رئيسها الجنرال قاسم (الزعيم) وبين ممثلها المحلى شركة بترول العراق ميكافيل وهاهى المباحثات والمناقشات التى دارت خلال ثلاث سنوات مرة أخرى تتوقف إذ سحبتها من الشركات الأراضى غير المستغلة من بين أراضى الامتيازات السابق منحها ولاشك يظل احتمال التوصل إلى صيغة «توفيقية» قائما فيحصل العراق على بعض الفوائد ويتجاوز حصة الخمسين فى المائة لكل من الطرفين ثم هاهو يتمكن من إدراج بعض المؤسسات الأجنبية فى مجال التنقيب واليوم نرى فوق عباب مياه الخليج العربى ناقلات بترول يابانية وإيطالية أقدر وأكثر استعدادا على التكيف لأنها آخر من دخل حلبة السباق إلا أن على البلاد المنتجة للبترول فى الشرق الأوسط رغم امتلاكها كثيرا من الأوراق الرائجة ألا تجازف بالوقوع فى حسابات خاطئة مخيبة للآمال. واليوم نجد كل البلاد الإسلامية تخطط لمشروعات تنمية حقيقية ونفذت بعض الإنجازات فالتنمية فى مجالات الإنتاج تنمية عامة لولا أن ازدياد عدد السكان بلا انقطاع إنما يعقد كل الأمور وكثير عديدا من القضايا فكل البرامج مع ذلك عرضة لإعادة النظر.

وفى مقال نشر فى جريدة الموند الفرنسية عن الشرق الأوسط قال الفريد سوفى يوم نشر المقال فى ٧ أغسطس ١٩٥٦: «العالم العربى كله - وكان واجبا قوله العالم الإسلامى - يعيش اليوم فى حالة من الفوران الديموغرافى (الشعبى): ففيه أعلى نسبة مواليد فى الكون (حوالى ٥٠ لكل ألف) أى ما بين ستة مواليد وسبعة لكل أسرة وليس ثمة مؤشرات تدل على احتمال انخفاضها ولكن هذه البلاد استفادت من تراجع وارتداد تعدد الزوجات وما طرأ من تحسن وتقدم فى الأساليب الصحية وفى مواجهة هذه النسبة المرتفعة فى المواليد نجد نسبة الوفيات فى انخفاض شديد بسبب تراجع الأوبئة وارتدادها وانعدام الحروب القبلية وليس معروفا اليوم يقينا نسبة الوفيات ولكن المعروف أنها تنخفض إلى ما يقرب من ٢٠ لكل ألف وتصاحب كل ذلك نسبه مابين ٢,٥ إلى ٣٪ ارتفاع فى زيادة السكان كل عام، مثال ذلك فى الجزائر وتونس ولاشك كذلك فى مصر ويعد هذا التضاعف السكانى

فى جيل واحد معدلا مرتفعا بأكثر مما أوقع أوروبا فى فورة غليان فى عنفوان شبابها إلى ١,٥ ٪ كل سنة ولا يتمتع بمنافذ كتلك التى تتيحها الهجرة واستعمار بلاد الغير.

والعالم الإسلامى يمزج نسبة الوفيات التى وقعت بأوروبا عام ١٨٣٠ نسبة مواليد لم تتح لها فرصة الوجود إلا أحسن حقب القرون الوسطى.... ولكن هذا المزج إنما ينبئ بالانفجار ومن ثم فإنه من السذاجه الاعتقاد بأن هذه البلاد التى ترتفع فيها نسبة المواليد وبالتالى تزداد احتياجاتها، حيث تمتلك إحداها البترول والأخرى خطوط الأنابيب الناقلة ويمتلك غيرهما زمام القناة (قناة السويس) سوف تكتفى بما تملكه قانعة بما يتدفق عليها من ثروات سواء من داخل أراضيها أو غيرها دون أن نتوقع أن تطالب بحصة أهم ثم إن نقطة التقاء التصاعد الديمغرافى أمر يعنى قبل كل شيء ارتفاع مستويات المعيشة وبخاصة أو بتعبير أفضل هذا الركود المتكرر فى مستويات المعيشة لدى سكان البلاد الإسلامية رغم ارتفاع معدلات الإنتاج والتنمية رغم ارتفاع معدلات الإنتاج والتنمية وهى ظاهرة تتكرر فى بلدان العالم الثالث.

ومع ذلك فقد اتخذت عدة إجراءات إيجابية فى كل مكان وبذلك انخفض حد العاطلين وفى تونس كى لا نأخذ سواها مثالا وبإمكانياتها الذاتية دون الحاجة إلى استثمارات ضخمة التحق بالعمل ما بين مائتى ألف وثلثمائة ألف متعطل سابق أو نصف متعطل وذلك بفضل مشروعات بناء طرق ومشروعات لردم المستنقعات وافتتاح عديد من المشروعات الحضرية وزراعة الأشجار وقد ذكر مؤخرا من واقع حسابات أحد خبراء الاقتصاد أن الإنتاج الزراعى فى الشرق الأوسط حقق تقدما فى مجملة يطابق المعدلات العالمية فيما بين عامى ١٩٥٢ و ١٩٥٨ فإذا أخذنا مصر مثالا وجدنا أن المؤشر العام للصناعات إذا قدرناه مائة عام ١٩٥٣ كالآتى ٩٥ عام ١٩٥١/ ٩٨ عام ١٩٥٢/ ١٠٠ عام ١٩٥٣ عام القياس ويصعد المؤشر إلى ١٠٧ عام ١٩٥٥ وإلى ١٢٥ عام ١٩٥٦ و ١٣٢ عام ١٩٥٧ و ١٤٣ عام ١٩٥٨ وهكذا نجد أن هناك تقدما حدث وكذلك الأمر فى باكستان فمن ١٠٠ عام ١٩٥٢ قفز الإنتاج الصناعى إلى ١٢٨ عام ١٩٥٤ و ٢١٥ عام ١٩٥٨ ومن

الواضح أن هناك تقدما وتصاعدا فى مستوى الدخل القومى مما يساعد على نمو القدرة على مزيد من تكريس للاستثمارات، ومع ذلك يواجه ذلك النمو المسار العكسى للصعود الديمغرافى إذ يتصاعد عدد السكان والكتل البشرية على ازدياد الموارد الوطنية ومن ثم ينخفض مستوى معيشة الفرد مثل كل حاصل قسمة فمقام (عدد السكان) إذا ما يزداد أسرع من البسط وكالسباح الذى يواجه الأمواج المتلاطمة فكلما ازداد تمسكه بالتقدم واستماتى محاولاته ازدادت الآمه لينخفض بالتالى تقدمه أما فى بلاد الإسلام حيث كل شىء فى تقدم فإن مستويات المعيشة فى تراجع مع صعوبة الاحتفاظ بمستواها ونضيف إلى ذلك أن حساب الدخل القومى هذا مقسما على كل رأس (من السكان) ليس حسابا دقيقا دقة مطلقة حيث لا يكون عدد السكان ذاته فى أحيان كثيرة عددا مؤكدا بل يخضع كثيرا لصدف وظروف تجعل حسابه صعب التحقيق فى مثل ظروف غياب أنظمة حسابية عالية الكفاءة... وبعد فكيف السبيل إلى تقدير أو تقويم دخل حرفية مشتته وموزعة متناثرة هنا وهناك فى إطار ضارب فى القدم وغالبا وزراعة تضم مناطق شاسعة بدائية ذاتية الاستهلاك؟ وعقد فى مثل هذه الحسابات وتقديرات ذات ترتيب تصاعدى دائما اليوم كافيا.

وبما أن هناك صعودا ديموغرافيا فإن مجرد الاحتفاظ بنفس المستوى فيما يختص بالدخل قياسا بالفرد إنما يعد دليل حيوية اقتصادية معنية قادرة على مجابهة الصعود البيولوجى

وإجمالا فإن لدى البلاد الإسلامية الدليل على توافر هذه الحيوية فإذا حدث أحيانا تراجع ما ظل الوضع مع ذلك معتدلا بغير تطرف. فالناس هناك يعيشون فى المتوسط بما يقرب من ٢٦٠٠ سعر «كالورى» (وحدة حرارية) يوميا وهو ما يقترب من الوضع المعيشى فى البلاد الميسورة ولكنهم بصفة عامة فوق المستوى/ المتوسط الحيوى فى كل مكان باستثناء تلك المنطقة الصحراوية خارج نطاق الجوع القاسى إذ بما يعنى أقل من الحدود فيما بين الثراء والفقر وأعلى من حدود الفقر والبؤس. وهذا فى حد ذاته يعد نقطة محققة.

وفيما بين هذين الحدين يختلف وضع البلاد المختلفة من بلد إلى آخر، فإذا ما أردنا بترتيب البلاد بقياس نصيب الفرد من الدخل القومى مقسما على السكان وجدنا البيان من أسفل إلى أعلى كما يلى: ليبيا /٣٦، أفغانستان / ٥٠، نيجيريا ٦٤، باكستان ٦٦، أندونيسيا ٨٨، الأردن / ١٠٠، سوريا / ١١٠، إيران / ١١٥، مصر /١٢٢، تونس /١٣٢، العراق /١٤٢، المغرب /١٥٩، الجزائر / ٢١٠، وتركيا /٢١٩، ولبنا ن/٢٤٧، دولارا لكل فرد، وهذه الأرقام متواضعة إذا ما قورنت بالأرقام فى البلاد الأوروبية فهى فوق ١٠٠٠ وفى الولايات المتحدة فوق ٢٢٠٠ وهى مقارنة ساحقة وإنما يمكن مقارنتها وتقويمها بالأرقام المتدنية فى القارة السوداء على سبيل المثال.

وسوف نلاحظ أن البلاد التى كانت بالأمس أو اليوم على اتصال مع فرنسا مثل لبنان وسوريا والمغرب والجزائر وتونس تتساوى تقريبا وتحتل أفضل ترتيب. ولا يعود ذلك بالطبع إلى الاستعمار الفرنسى فى ذاته حتى برغم ضرورة الاعتراف له بأنه تمكن من توطيد أركان طبقة من المثقفين ومستويات من الموظفين الأكفاء لا مثيل لهم فى حضارات أخرى. ويرجع ما تتميز به لبنان إلى قدرة سكانها على الهجرة التجارية والثقافية والرأسمالية معاً عبر كل بلاد الإسلام، ويعود شمال أفريقيا وأمريكا اللاتينية إلى تساوى حدى التعارض بين العقيدتين المسيحية والإسلامية. والجزائر بفصل الاستثمارات الفرنسية والاستثمارات الدولية ونجاح خطط الزراعة وإقامة السدود والطرق وإنشاء المدارس وتنظيم الخدمات الطبية العلاجية وما تحقق من إنجازات بترولية فى الصحراء وتدفق أفواج الهجرة إلى فرنسا من العمال «الشغيلة» وهى الهجرة التى لم تتأثر ولم تتوقف على الرغم من الحرب التى نشبت عام ١٩٥٤ وفى خضم ما يفرض على كل حركة اقتصادية فى مجال نضالها «للتنمية» فإن لكل اقتصاد أوراقه المتحكمة الحاكمة وكذلك فرصه السعيدة فلدى كل من العراق وإيران و المملكة العربية السعودية والجزائر بترولها ولدى مصر مياه النيل التى تخصب الأرض وقناة السويس وقطنها ذو الشهرة العالمية وجودته المرتفعة ولديها كذلك مصانعها للنسيج ولدى

كل من تركيا والمغرب نهضة صناعية وليدة ولكنها ماهرة أحيانا كثيرة وتتمتع أندونيسيا بتوافر خام الكاوتش والبترول ومناجم القصدير وتمتلك الباكستان مواردا ضخمة من القمح والجوت.. كل ذلك يعد أوراقاً حاكمة إلا أن الأمر يظل مع ذلك مهمة صعبة ومباراة غيرمضمونة.

أماما يجب إيجاد الحلول له من المشاكل فعويص صعب وهى مشاكل اقتصادية واجتماعية معا وهى تتشابك الواحدة بالأخرى حتى ليبدو من المستحيل مواجهتها كل على حده وهى كلها فى حاجة إلى خطة وبرنامج هائل للعلاج. ويحتاج الأمر فى الواقع إلى:

(ا) تحسين ظروف الزراعة وطرقها قبل كل شىء أى المساس بعنف لنظام قديم فى الملكية ثم معالجة عصرية لمشاكل الرى ومواجهة مشاكل تجريف الأرض أى وضع خطط فنية وسياسية فى الأراضى الزراعية.

(ب) إقامة منشآت صناعية (خفيفة أو ثقيلة أو خاصة بل وتابعة للدولة وربطها بقدر الإمكان بالموارد الاقتصادية الكاملة للدولة ويجب أن ترتكز على الدعائم الإجمالية لهذه الموارد الاقتصادية وتعمل على تنميتها بما تحدثه من تحركات.

(جـ) تسوية مشكلة الاستثمارات وهى مشكلة ساخنة لاستنادها على الإعانة الخارجية (رؤوس الأموال الدولية الخاصة عن طريق تمويل المصارف السويسرية والمساعدات الحكومية السوفييتية والأمريكية أو الفرنسية وقريبا ستكون رؤوس أموال أوروبية من السوق المشتركة.

(د) إنشاء سوق. وهنا تتضاعف الصعوبة فليس هنا مجال لقيام سوق إلا بتوفر مستوى معيشة معين وذلك ما يحيلنا إلى المشكلة المطلوب بالضبط إيجاد الحل لها وليس هناك مجال لوجود سوق فعلى مقبول.. إذا ما امتد إلى أبعد من السوق الوطنية ومن هنا تجىء تلك الأفكار التى تطلق بكثير من التصميم لا بعوامل النجاح كالسوق العربية المشتركة والسوق المغربية والسوق الأفريقية وهى أحلام حكيمة عاقلة إلا أن تحقيقها عسير.

(هـ) نشر التعليم وتوفير الأيدى العاملة الماهرة فى الوقت نفسه حيث تنشأ فيه الميكنة المتاحة فى مجال صناعة تبدأ من الصفر متجاهلة ما يسود حاليا من عمالة وهو موضوع أساسى يجب استخلاص حل له قبل أى شىء.

(و) إعداد شخصيات من الفنيين والمهندسين والمدرسين والإداريين والتعليم والتشكيل التقنى والفنى.

على جدول الأعمال.. وعليه تبرز هنا مشكلة ذات نفس طويل. فإذا ما قصرنا نظرنا على الحماس الشعبى الجارف إزاء التعليم ألفيناه قادرا على تخطى عقبات ضخمة، وعموما تبدو أهمية الاستثمارات الضخمة المطلوبة التى لا تدر ربحاً إلا بعد آجال طويلة. ولا شك أن أجيالا عديدة سوف يضحى بها سلفاً وهذه أمور تعرفها من الناس قلة ذات بصيرة نافذة وتعرف آثارها المحزنة. وهناك جماعة من شباب الشعراء السوريين، اللبنانيين شبهوا هذه الظاهرة رغبة منهم فى تفسيرها بأسطورة ناقوس الرب الشرقى الذى أنذر بموت اليم مع وعد بالبعث من جديد وهكذا يدركون حجم المرارة والمأساة المتوقعة لشعوب بلادهم.

ومن الضرورة الاختيار الأمثل إزاء وضوح المشاكل بين صعوبتها والمتطلبات الملحة للحلول وحول التضحيات المطلوبة التى لا سبيل إلى تفاديها فنجد من بيدهم شئون إدارة هذه البلاد يترددون فى اتخاذ الاستراتيجية الواجب اتباعها والاختيار الذى يقع ويتحكم فى بل يتجاوز كل مصير للإ سلام.

فأما البقاء ضمن إطار رأسمالى تابع خاضع للغرب نصف ليبرالى (حر) ونصف ميال إلى التدخل تحت مظلة ليبرالية سياسية (تحررية سياسية) أو الاتجاه إلى خضم تجارب اشتراكية تكون إما سوفيتية أو يوغوسلافية أو صينية وأكثر بساطة كذلك وبإيجاز فإن المراد هو الاحتفاظ بالمجتمع والحكومة كماهم مع برامج تحسين مهما تكلف الأمر أو طرح البناء كله أرضاً بضربة واحدة لإعادة تشييده على أساس آخر جديد وليست هذه الخيارات مجرد خيارات ثقافية للأسف بل ولا اختيارية وإنما تخضع كلها لعديد من آلاف العوامل بعضها داخلى وآخر خارجى.

ففي كل مكان أو بالتقريب في كل مكان فيه طبقة بورجوازية صاعدة مثقفة أغلبها من الشباب المتعلم تشعر بمشاعر الإحباط الأليمة التي عايشوها من تجارب تقليد الغرب فعلى الصعيد السياسي على سبيل المثال تتمتع كل البلاد الإسلامية باستثناء أفغانستان واليمن ببرلماناتها ولكن التساؤل هو ماذا أكسبتهم هذه البرلمانات؟ فهذه الجموع من الشباب اليائس المحبط الذي خابت آماله يتجه اليوم لا إراديا نحو الشيوعية حيث يجد فيها الوسيلة التي يتمكن بها توكيد أركان سيطرته ومساهمته في الحياة العامة إذ يبدو النظام البيروقراطي ونظم التخطيط في العالم السوفيتي في أعين هؤلاء الشباب ضمانات أكيدة للاستقرار ووسيلة فعالة في علاج المشاكل الاقتصادية شبه المعقدة وكثيرا ما تبهرها طبقة المثقفين الأنتليجانسيا (الشباب المثقف) في البلاد الإسلامية مظاهر التحديث التي تنادي بها التعاليم والأفكار الماركسية وليست كل هذه الانتقاضات والميول سوى ردود أفعال مؤكدة ضد نظم القرون الوسطى التي لازالت الصلة في شل حركة الفكر الإسلامي إلا أن خطورتها قائمة طالما وجد فيها مستيروها طريقا إلى حلول عقلانية حديثة كما في الغرب. ومع ذلك فلازالت الأفكار الماركسية حتى اليوم تبدو في عيون هذه الطبقات المثقفة الوسيلة الوحيدة الممكنة ويميل الغرب كثيرا إلى تفسير تلك الظواهر المتعلقة بالاتجاهات في البلاد الإسلامية في إقامة علاقات مساومة مع الاتحاد السوفيتي (علاقات على أساس مبدأ الأخذ والعطاء) على أنها بدافع مهارة للحصول على بعض الأسلحة والآلات الصناعية ولكن الأمر في الواقع أبعد من ذلك كثيرًا، فالتجارب الاشتراكية تسحر ألباب شباب البلاد الإسلامية وتثير إلهاماتهم فالغرب غالباً يستند في دعائمه على أرستقراطيات رجعية في إطار اجتماعي «مسرحي من الورق المقوى» (أي هشة) فهو في نظر هؤلاء الشباب مفلس لا يملك سياسة كونية لائقة، وليس الأمر في الواقع إقناع الدول الإسلامية بأفضلية الحي الغربي مقارنة باتجاهات أخرى بل وليس أمر فتح خزائن الاعتمادات المالية بالمعونات بل هو بإيجاز أن يقدم للدول النامية نموذجا صالحاً للتخطيط يكون قابلاً للتنفيذ ومتوائما يفتح لها طريق الأمل وطريق المستقبل الأفضل.

الحضارة الإسلامية فى مواجهة القرن العشرين

ذكرنا فى الفصل السابق أن الإسلام يواجه أزمة عميقة ونتساءل الآن هل تعرض هذه الأزمة العميقة للخطر حضارة الإسلام ذاتها؟ ويمكن طرح السؤال بعدة وسائل.

هل فى خضم هذه التقسيمات الهائلة لجنسيات الأرض وخضم تلك المنافسات السياسية من دول العالم.. هل هناك فى هذا الزمن حضارة إسلامية حقة معروفة أو معترف بها؟

فإذا كانت ما تزال قائمة أليست تلك الحضارة مهددة بذلك الرداء الكونى من التقنيات وهذه السلوكيات وأى ضرورة كما يقول جاك بيرك فى إفساح المجال للحضارة الصناعية الناتجة فى الغرب وتمتد اليوم آفاقها إلى العالم كله؟

ثم أليست المخاطر أكبر إذا حدث وكان على الإسلام أن يبلغ أعتاب تلك الحضارة الصناعية؟ للوصول إلى ذلك فإن الإسلام مجبر على سلوك طريق ماركسية كفيلة بتدبير فضل عوامل تماسكه وأفضل عناصر ترابطه وعقيدته الدينية ذاتها؟ ولنا أيضا أن نتساءل أما زالت هناك حضارة إسلامية؟ إذ يبدو أن الانقسامات فى البلاد الإسلامية سوف تفقد ولمدة طويلة آمال أنصار توحيد الدول

الإسلامية، وعموما فالواقع يقول إن توحد البلاد الإسلامية حقيقة واقعة اليوم، تماما كما كانت بالأمس.

ففى الحياة اليومية تجد سمات الحضارة وتلمسها بلا جدال وذلك فى نظرنا إلى مظاهر توافق المعتقدات وتطابق العادات وتماسك الصلات العائلية ووحدة الميول والأذواق والتصرفات بل وحتى الأطعمة نفسها.

لو تنقلت فجأة وأنت أوروبى تقطن بلدا أوروبيا من مدينة إلى أخرى من مدن العالم الإسلامى لأصبت بالدهشة من كثرة التطابقات أكثر مما تتوقع رؤيته من الاختلافات بين مدن الساحل الشمالى للبحر الأبيض المتوسط فإذا ما انتقلت إلى الباكستان أوشبه القارة الهندية وجدت الاختلافات تبدأ فى الازدياد، وأكثر من ذلك أيضا إذا ما انتقلت إلى أفريقيا الإسلامية تصطدم هنا بتيارات حضارية أخرى قوية أحيانا وأحيانا أخرى أقوى منها ذاتها فلم تعد الروابط داخل أفريقيا السوداء سوى ارتباط دينى وكذلك تجد برامج الوعظ والإرشاد تجرى كثيرا باللغة الفرنسية فى البلاد الفرانكو فونية حيث بادرت مصر باسم التضامن العربى بتجربة تبشير فى مبادرة من أدهى المبادرات؛ لأنها تجرى بطرق غير مباشرة وذلك فضلاً عن أن هذا التبشير لن يكون ذا فاعلية بين كتل الشعوب الأفريقية التى تحول «تبدل وتعدل» إلى مدى أفرقة عقيدة محمد الدينية تماما بمثل حرية تعديل ديانة المسيح وبإيجاز شديد نجد النفوذ الإسلامى إذا وجد إما سياسيا أو اجتماعيا على أكثر تقدير وهو نفوذ لا يرقى تماما إلى مستوى واقع حضارة ما. أما با كستان فتعد جزءاً من حضارة سميت بحق هندوإسلامية وتضم اللغة الوطنية - الأردية خليطا من مفردات جذور إيرانية أو عربية لكلمات مشتقة من السنسكريتية وهى كاللغة العربية تكتب من اليمين للشمال ولكن لا تشبهه إلا نادرا؛ لذا فإن إحدى السمات الأكيدة فى البلاد التى تنتسب بصورة فعلية إلى الحضارة الإسلامية هى وما تزال اللغة تلك اللغة التى كانت فيما مضى أوثق روابط الإسلام إنها اللغة العربية «الفصحى» التى صانها القرن العشرون فهى لغة الكتابة المشتركة التى تستخدمها المدارس والصحف والكتب أما اللغات الوطنية فليست سوى لغة التخاطب، وثمة

سمات أخرى من سمات الترابط هى المشاكل الاقتصادية والاجتماعية وكلها تقريبا وفى كل موقع متشابهة إلى حد كبير ففى الأساس نجد أن السبب إنما يعود إلى الصدام الناشب بين حضارة إسلاميه بدائية وحضارة عصرية تحاصرها وتجابهها من كل جانب ومن هنا تبدو المشكلة كأنما هى إجمالية. ومن هناك تقوم مشكلة تهاجم بصلابة كل هذا لا يغير من الواقع شيئا فقد يتصادف فى الحلول التى تفرض نفسها أن تتطابق وتتماثل وذلك بمنطق الأشياء نفسه بسبب تطابق وتماثل فقط الانطلاق: البلاد المتقدمة فى برنامج الإصلاح الذى تعده لنفسها تجسد فى تصور مسبق مستقبل البلاد الأخرى. وهنا كذلك نجد أن الإسلام المبعد فى أفريقيا السوداء (بقصد الغريب) وفى شبه القارة الهندية وفى الصين يخالف من المجموع لأن مصيره يرتبط بحضارات مغايرة ويبرز أمامنا تساؤل ثانٍ: هل يستطيع الإسلام أن يتخلص من حضارته التقليدية كرداء قديم أولا بأول كلما اقترب من عصر التصنيع والتقنيات المعاصرة المدنية؟ ليس هذا التساؤل خاصا بمصير الإسلام بل المعنى المقصود فى الحضارة العصرية الحديثة، حضارة الآلة ثم حضارة العقل الإليكترونى والآليات وعصر الذرة، هل الحضارة فى طريقها إلى توحيد أنماط الدنيا لتتماثل النظم؟ هل يكون ذلك لخيرها أم لشرها؟ ذلك أنها فى سبيل القيام بهذه الخطوة سوف تزيح حضارات أخرى لها سماتها الخاصة. فالآلة وآثارها بكل تأكيد قادرة على تدمير دعائم الحضارة وإعادة بنائها. لا كل الدعائم لأنها وحدها لا تمثل حضارات وتأكيد ذلك يعنى الادعاء بأن أوروبا اليوم قد ولدت من جديد فى زمن ثورتها الصناعية وهى الثورة التى بدت أحيانا كثيرة كأنها صدام عنيف وهى تغرس بذورها إلى آفاق بعيدة. إن مجرد التفكير فيما وقع لأمم أوروبا يجعلنا نشك كثيرا فى قدرة الآلة على تنميط الكون فإذا ما ألقينا نظره فاحصة على شعوب قارة أوروبا وأممها وجدنا أن عصر الآلة لم يستطع تنميط هذه الشعوب وتلك الأمم فنحن نتحدث حتى اليوم عن حضارة فرنسية وحضارة ألمانية وحضارة إنجليزية وحضارة بحر أوسطية وإن كانت شعوب وأمم تشترك فى مجموعها وتنسب حضارة واحدة (مشتركة) ونقصد بها الغرب المسيحى الديانة يتسم بنزعة إسلامية يعيشها منذ أكثر من قرن من الزمان فى ذات المغامرة

الصناعية المزودة بنفس التقنيات ونفس العلوم ونفس المؤسسات المتشابهة فى كل الأشكال الاجتماعية. لم يستطع كل هذا التطابق إزالة النزعة الفردية لدى كل لشعب يريد أن يتمسك ويحافظ هلى هويته المميزة الخاصةويكفى أى فرنسى يتمكن من عبور المانش أو أى إنجليزى تطأ قدماه أرض القارة أو أى ألمانى يتوجه إليها أيضا كى يوقن كل هؤلاء. وبدون أى عناء إن التصنيع الآلى لا يعنى التنميط لأن الآلة ليست قادرة على تدمير النزعات الإقليمية كما لا تستطيع التقنيات محق الشخصيات القوية التى رسختها حضارات قادرة قوية مؤسسة على دعائم من عقائد دينية وفلسفات وقيم إنسانية وأخلاقية فى غاية الاختلاف؟

ولكن هل تواجة المشكلة الإسلام بصورة مختلفة إذا ما عرضت عليه التقنيات بصحبة الماركسية أى مع قيم مغايرة متعارضة مع قيمه وتقاليده الإسلامية؟ والرد على مثل هذا السؤال الذى يطرح كثيراً ليس سهلاً ولا ممكناً تماماً.. هل نتجرأ فنقول إن الماركسية ليست وحدها حضارة بديلة بل اتجاهاً لا إنسانياً إرادياً ونهجاً عقلانياً إذا ما طبقت يوماً على الإسلام فمما لا شك فيه أن المآل سوف ينتهى إلى نوع من التعايش أو المشاركة فى الوجود وقطعا كنوع من التقسيم كما هو الأمر فى البلاد السوفيتية بين كل من الحضارة الروسية والماركسية ومثل ما هو قائم فى الصين بين الحضارة الصينية والماركسية فالماركسية بالرغم من أنها تمكنت من تحويل الاتجاه تحولا قويا إلا أنها لم تتمكن من إلغاء أى من هذه الحضارات. وعموما فليس ذلك من أهدافها ولا شك أن مبارك يحق له أن يقول: فى تجربة كهذه، يستطيع الإسلام المقاومة بأقل سهولة من المسيحية فى مواجهة النفوذ الماركسى وذلك من واقع لا يميز بين ما هو روحانى وما هو مادى. فالروحانى يجازف بالمرور أسهل من مجتمع يتحول إلى الماديات التقنية وكان فى الأصل مجتمعاً إسلامياً يتحول إلى النظام الشيوعى ولكن لم يحق له قول ذلك؟ ذلك أن المسيحية كادت تتمكن إجمالا فى كل مكان من الصمود «قبل» صدمة الثورة الصناعية من مقاومة الانطلاقة العلمية العقلانية العلمانية والتى تغلغلت فيها خلال التكريس الطويلة محتفظا بتوازنه متخليا عما كان واجب التخلى عنه فقد بدا مجتمعاً متسلحاً إزاء التقنية وأمام العلمانية بل وفى مواجهة

الماركسية ذاتها.

أما للإسلام حيث تتحكم الحياة الدينية فى كل حركة من حركات الحياة فإن التقنيات الماركسية أو غير الماركسية تبدو كطرق من النار عليه أن يعبرها طفرة واحدة حتى يتوقف بحيث يوصف بأنه إحدى الحضارات القديمة البالية ويتوصل إلى تجديد شبابه على صورة مشاعل الزمن الحاضر ويعود الطريق الذى يسلكه الإسلام إليه ويتوقف على العالم المزدوج الذى يهتز ويتقلب كأن ميزان ضخم يتأرجح فى ميله أحياناً إلى جهة وأخرى إلى جهة أخرى ويوشك الإسلام مثله مثل سائر شعوب العالم الثالث أن يتجه لا إلى الوجهة التى يريدها ولكن فى اتجاه أثقل الكتلتين أو الكفتين.

الهوامش :

(١) ايفيان مدينة فرنسية دارت فيها محادثات الاستقلال بين فرنسا ديجول والجزائريين الثوار.

حاشية عام ١٩٦٦

يكفى توالى الأحداث التى وقعت فى البلاد الإسلامية ، وحدها فيما بين عام ١٩٦٣ ، وعام ١٩٦٥ لوضع مجلد منفصل إذ تظل على جدول الأعمال ضد المغرب حتى شبه القارة الهندية مجموعة معينة من صور العنف أبرزها النزعة الوطنية وهى بالأحرى ظواهر إرادية تهدف لإخفاء الطابع الاشتراكى فى مجال الاستثمارات البترولية والأعمال الكبرى ضد الرأسمالية العالمية ومثال ما حدث عام ١٩٦٠/ ١٩٦١ فى مصر ويعد تعبيراً دقيقاً عن تلك الظواهر والأحداث ويصلح نموذجا لها كما يشابه ذلك التأميمات التى وقعت فى العراق (١٤ يوليو ١٩٦٤) أو أحداث الصراع والنزاع وسياسة العداء ضد الامتيازات والاحتكارات البترولية فى سوريا (٢ يناير ١٩٦٤).

أ ـ تظل الجزائر تحتفظ بمركز النجومية خلال هذه السنوات الأخيرة إذ حصلت على استقلالها منذ اتفاقيات إيفيان(١) المنعقدة بين فرنسا وثوار الجزائر فى ١٩ مارس ١٩٦٢ والاقتراع على الحكم الذاتى وتقرير المصير فى أول يوليو ١٩٦٢ .

واتسمت أولى لحظات الاستقلال بعديد من مظاهر الانفعال والفتن والانتفاضات الثائرة والفوضى واستطاع الجيش الشعبى الذى كان يعسكر فى

المغرب وفى تونس على الحدود فى مواجهة الجزائر فرض الأمن واستقراره واستتباب النظام. وقام بن بيلابتشكيل أول وزاراته فى ١٥ سبتمبر ١٩٦٢ فاستطاع طوال عام ١٩٦٣ المضى فى الإجراءات الاجتماعية لبرنامج ما سمى باتفاقية طرابلس وأهمها تأميم الأراضى التى أهملها المستعمرون الأوروبيون وإعداد برامج تنميتها على يد لجان إدارية واستندت الحكومة منذ تلك اللحظة على ديمقراطية قروية (من الفلاحين) ظلت تمثل عنصرها الرئيسى فى الحكم. ومع ذلك ظلت الصعوبات تترى عديدة من واقع تعميم التأميمات وحركةالرحيل الكبير المكثف من جانب الأوروبين والنقص البادى فى رؤوس الأموال وجماعات الفنيين المطلوبين. فأثارت الصعوبات السياسية كثيرا من الانشقاقات والاضطرابات الجماهيرية بصورة دائمة مستمرة لا تتوقف حتى بين خلاص ورجال المقاومة السرية السابقة وكثرت الاتهامات والإدانة ورغم كل هذا الخليط من المشاكل بدا بن بيلا وكمن يسيطر على مقاليد الأمور. تلك الأمور الصعبة والحاله الخطيرة التى كانت عليها البلاد فانتخب رئيسا للجمهورية فى ١٥ سبتمبر ١٩٦٣ وانتخب فى ١٦ ـ ٢٠ أبريل ١٩٦٤ أمينا عاما لحزب جبهة التحرير الوطنية. غير أن الثورات والضغوط الاجتماعية والاقتصادية ازدادت تفاقماً وكانت النتيجة: سخطاً واستياء من جانب طبقة بورجوازية بدا فرحات عباس من بعيد أنه قائدها وممثلها ، و ساد جمود اقتصادى صاحبه ارتفاع فى تكاليف المعيشة وازدياد حدة البطالة وزيادة عدد العاطلين واستقر النظام رويداً رويداً بين مختلف القوى ظهر بن بيلا قائداً للجيش وقائداً لجبهة التحرير الوطنية أما على الصعيد الخارجى فقد كانت العلاقات مع فرنسا حاسمة فيما يختص بالمعونات الاقتصادية والثقافية ووافقت فرنسا على تشغيل ما يقرب من نصف مليون من الأيدى العاملة فى فرنسا رغبة منها فى تخفيف حدة البطالة وآثارها.

وأرادت الجزائر أن تبدو محايدة إلا أن هذا الحياد لم يمنعها من قيام عاطفة وأهواء سياسية ودينية واشتراكية وقيام اتجاهات معادية للاستعمار وقبل كل شئ ويظل موقفها من البرتغال بسبب الكونغو البلجيكى سابقاً برهاناً.

وقد بدا فى ١٩ يونيو ١٩٦٥ أن سلطة بن بيلا قد تعززت منذ عام ١٩٦٢ ووضح أن كافة أجهزة السلطة والحكم قد تمركزت بين يديه بفضل استبعاد الحكام الآخرين الوطنيين الجزائريين ففى ١٠ أبريل حكم على آية بالإعدام لأنه كان قائدا لما سمى بالفتنة المسلحة التى قامت بها القبائل (ثورة القبائل) وإن عدل فيما بعد حكم الإعدام وصدر قرار العفو عنه ثم يحدث تغيير مفاجئ فى نظام الحكم إثر اندلاع انقلاب فجر يوم ١٩ يونيه قامت به مجموعة من الضباط يقودهم رئيس الأركان الكولونيل بومدين وكان حتى ذلك الوقت نائبا لرئيس الوزراء ووزيرا للدفاع، وباستيلاء بومدين على مقاليد الأمور اعتقل بن بيلا معه عديد من الشخصيات التى كانت تتصدر مراكز الحكم والنظام.

وأطلق بومدين على مجموعته مجلس قيادة الثورة ويكشف صورة «الطاغية» الذى حيد «اليوم» وإدارته السيئة الفاسدة للتراث الوطنى ويضيف بومدين فى بيانه ويجب أن نؤكد أنه لامساس بمكتسبات الثورة!!!

وفى ٤ يوليه تعلن أسماء أعضاء مجلس الثورة ويشمل أساساً عسكريين من الجيش القديم ورجال المقاومة.

وفى ١١ يوليو تشكل حكومة جديدة أغلب أعضائها من معاونى بن بيلا، وفى ١٤ يوليو تم توقيع اتفاقية هامة جدا بشأن مشروع هيدرو كاربور (لاشك يقصد مشروع الكهرباء من مساقط المياه) وتعد هذه الاتفاقية مداً للعمل بأحكام وقواعد منصوص عليها فى إيفيان عام ١٩٦٢ ويتكهن مسبقا بنظام جديد للشركات القائمة بأعمال الاستغلال وبصفة خاصة نظم محاسبتها وتنظيم المشاركة الواسعة بين فرنسا والجزائر للتنقيب وإنتاج البترول واستغلاله وتجارته وتسويقه وكان ذلك بمنزلة إقرار نظام جديد تماماً بين بلدٍ نام منتج للبترول ودولة صناعية متقدمة هى من أكبر الدول استهلاكا لهذه الخامة تم انعقد الاتفاق أخيرا على إنشاء نظام مشترك يهدف إلى تصنيع الجزائر باستخدام أرباح شركات البترول. وكان التوقيع على هذا الاتفاق فى حفل أسطورى فى ٢٨ يوليه بالجزائر وفتح الاتفاق كذلك صفحة جديدة من العلاقات بين فرنسا والجزائر ولم تتوان الجزائر فيما تلا ذلك من انتهاز كل فرصة لمساندة سياسة ديجول الخارجية وتأييدها.

(ب) المغرب اندلعت ثورة الطلبة والعاطلين فى الدار البيضاء يوم ٢٣ مارس ١٩٦٥ قاوها مقاومة شديدة العنف الجنرال أوفقير وزير الداخلية وفى ٢٨ مارس صدر حكم بالإعدام على أربعة عشر مغربيا بسبب دسائس «سرية» هدامة قاموا بها فى العام السابق ونفذ إعدامهم ثم يصدر الحسن الثانى فى الثالث عشر من أبريل قراراً بعفو شامل ويتعهد باستشارة كافة الأحزاب للتوصل إلى حكومة وحدة وطنية وتفشل هذه المفاوضات فى يوم ٧ يونيو حيث يضطر الملك إلى وضع حد للنظام البرلمانى الذى كان قد بدأ إثر الانتخابات الحرة التى أجريت عام ١٩٦٣ وتعلن حالة الطوارئ الاستثنائية ويحل البرلمان ويمنح إجازة ومنذ ذلك الوقت تقلد الملك مقاليد الحكم المطلق دون رقابة ثم يقع اختطاف أحد قادة المعارضة المهدى بن بركة فى باريس ليثير أزمة بين فرنسا والمغرب وتعلن فرنسا صراحة اتهامها لوزير الداخلية الجنرال أوفقير وليحتضن الملك وزيره ويتصدى لتغطية موقفه وتبدو العلاقة بين فرنسا والمغرب كأنما تتعرض للخطر.

(جـ) الجمهورية العربية المتحدة

كان فى ٢٤ أغسطس ١٩٦٥ أن وقع كل من ناصر وملك العربية السعودية اتفاقية هدنة لوضع نهاية للحرب فى اليمن حيث كان الأول يساعد أنصار الجمهورية على حين يمول الثانى - أى ملك السعودية - كل أنصار الملكية ويسلحهم ولا شك أن الشطر الأكبر من هذه الاتفاقية كان بإيحاء من الدبلوماسية الأمريكية التى بدأت تحقق نجاحا آخرا فى القاهرة بعد الدستور. كان ذلك فى أول أكتوبر كان تشكيل حكومة جديدة برئاسة زكريا محيى الدين ويتبع إعادة المعونات الغذائية الأمريكية لمصر غير أن هذا التطورلم يدم طويلا فتوقف فجأة حيث ناصر رفض مساندة سياسة الولايات المتحدة الخارجية. وتعد زيارة رئيس مجلس الوزراء السوفيتى كوسيجن للقاهرة بمنزلة دخول إيجابى للدبلوماسية السوفيتية فى الشرق الأوسط حيث تعلن موسكو عن إعانات واعتمادات جديدة لاستكمال أعمال سد أسوان ثم تكثف بشكل ضخم مساعداتها للجمهوريين فى اليمن، وعلى أى حال فقد عادت الحرب تنشب من جديد فى ربوع اليمن .

(د) وفى مارس ١٩٦٦ يقع فى سوريا انقلاب تولى به الحكم الجناح اليسارى لحزب البعث ويدخل الحكومة عضو الحزب الشيوعى واثنان من المتعاطفين معه.

(هـ) وفى يونيو ١٩٦٦ يتوفى إثر حادث الماريشال عارف رئيس الحكومة العراقية فيتولى شقيقه السلطة وكان من قبل رئيس الأركان فيوقع بتحريض من الاتحاد السوفيتى وإغراءاته اتفاقا من شأنه فيما يبدو وضع حد ونهاية لثورة الأكراد الناشبة منذ سنوات فى شمال البلاد. كما تمنح موسكو فى الوقت نفسه مساعداتها الضخمة لبناء سد على نهر الفرات.

الجزء
الثانى

القارة السوداء

الفصل الأول

الماضي

الماضى

تنحصر أو تكاد أفريقيا السوداء أو بالأحرى بلاد أفريقيا السوداء بين محيطين وصحراوين أى بين الصحراء الكبرى فى الشمال وصحراء كالهارى فى الجنوب والمحيط الأطلنطى فى الغرب والمحيط الهندى من الشرق، ولاشك يعد ذلك حواجز ذات شأن سيما وأن أفريقيا القبلية (ذات الطابع الغالب على سكانها) بصورة غير مريحة على مساحات المحيطات المجاورة فلا هى تتمتع بموانئ جيدة أو أنهار سهلة المنال حيث السيول والمساقط والشلالات وتراكم الرمال عند مصباتها.

ومع ذلك فليست تلك الحواجز عسيرة وعبورها إذ يعج المحيط الهندى منذ زمن مبكر بالمراكب الشراعية بفضل الرياح الموسمية ذهابا وإيابا، أما المحيط الأطلنطى فقد غزته الكشوف الأوروبية العظمى منذ القرن الخامس عشر على حين لا تغلق صحارى كلهارى سوى نصف المدخل إلى الجنوب.

أى إن أفريقيا السوداء مما يستخلص من ذلك إنما انفتحت على العالم الخارجى. على أن من الخطأ أن نتخيل أن مداخل أفريقيا ومنافذها قد كانت كلها مغلقة محكمة الإغلاق على مر العصور فقد قلنا من قبل إن صحراء كلهارى إنما تسد نصف الباب الجنوبى كما كان عبور الصحراء الكبرى واختراقها منذ القدم

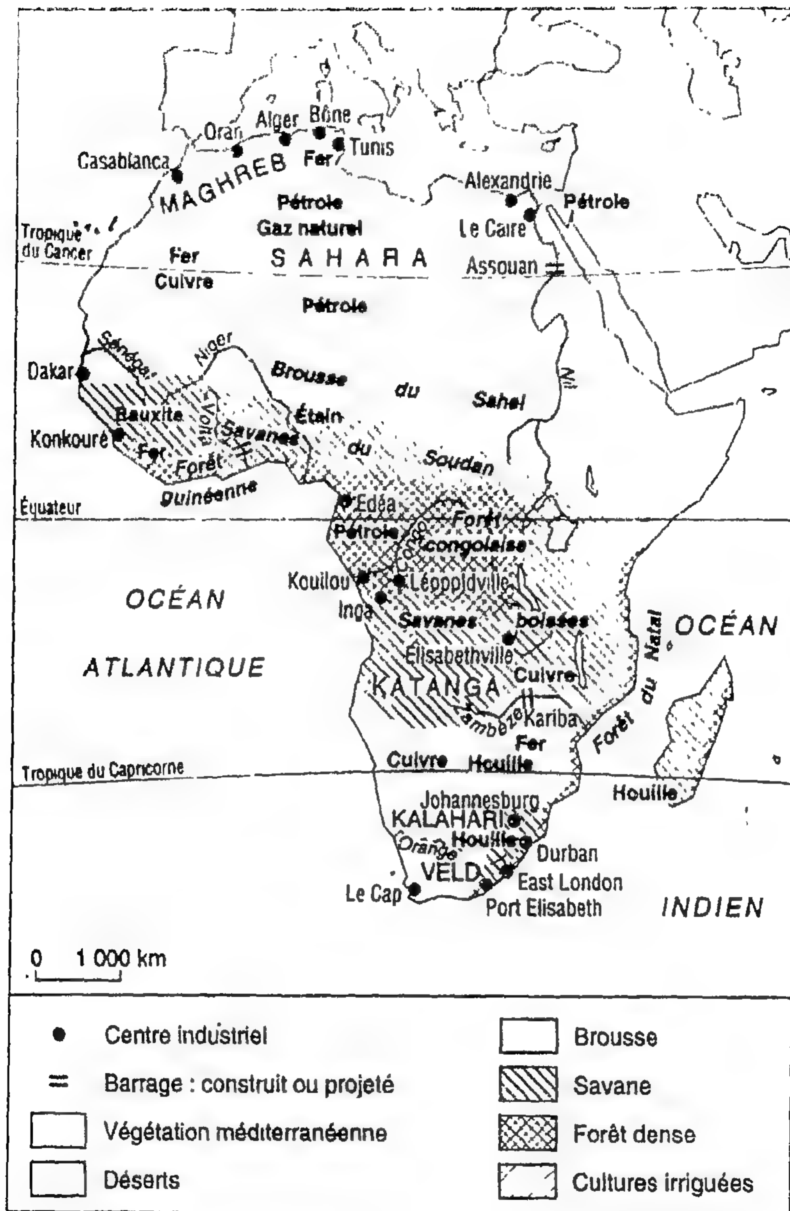
حيث اجتازت إليها قوافل الإبل وحيدة السنام مع القرون الأولى من عصرنا وبذلك فازدادت أضعافاً مضاعفة حركة مرور القوافل الصحراوية ونقل الملح ثم الأنسجة من بعد الأقمشة الصادرة من الشمال مع الانتقال بالرقيق من الزنوج والتبر الذهب من الجنوب. وكان جليا أن الطبيعة بسلطانها المطلق لم تكن وحدها فيما تفرض من إرادتها، بل كانت للتاريخ كلمته كذلك.

موقع الأراضى (المكان)

ولا خلاف على أن الحتم الجغرافى لا يهيمن وحده لذلك ندرك من دراسة بسيطة للحدود والتخوم وحواف القارة السوداء أنها ليست سوى جزء من أفريقيا.

ففى الشمال والشمال الشرقى والشرق تقوم الصحراء حاجزا عازلا يفرض حدودا مميزة للعالم «الأسود» أى أفريقيا السوداء كما تذكر تقارير لإحدى لجان السوق المشتركة عن أفريقيا جنوبى الصحراء من حافة البحر المتوسط حتى الساحل السودانى. نجد أن السكان فى هذه المناطق من أفريقيا من سلالة بيضاء ولا شك يجب إلى جانب هذه البقعة من أفريقيا البيضاء إضافة أثيوبيا ففيها عناصر من عرق أبيض لا يقبل الجدل، انصهروا فى مجموعة من السكان الملونين المهجنين يختلفون تماماً عن هؤلاء الأفارقة الزنوج (صفة للأجناس السوداء البشرة) وذلك فضلا عن حضارتهم ومسيحيتهم منذ عام ٣٥٠ الميلادى وصفات غيرهم فى الزراعة التى عرفت من قبل التربية والتدجين والمحراث البسيط والقمح والكرووم فأثيوبيا عالم «خاص» فريد منفصل عن غيره استطاع فيما سلف من أزمنةمقاومة الغارات الإسلامية التى تمكنت من محاصرته كما استطاع هذا الشعب فيما بعد التصدى للقوى الأوروبية التى أرادت عزله عن البحر الأحمر فالمحيط الهندى

ويميل مؤرخو الأجناس إلى الاعتقاد بأن أثيوبيا فى الأزمنة السحيقة كانت تمثل مركزاً ثانوياً لنشر استخدام المحراث والحيوانات الأليفة والتى نشأت فى الهند ويعتقدون كذلك أنه لولا قيام أثيوبيا بدورها الوسيط هذا ما عرف الفلاحون ذو البشرة السوداء تربية المواشى وهو بالنسبة إليهم من أهم المميزات غير المتوقعة



= سدود شيدت أو لازالت مشروعات

اراضى زراعات بحر أو سطحية

صحارى

سافانا

صحارى كثيفة

زراعات رى

مراكز صناعية

وهم الذين كانوا يستخدمون فى سابق عهدهم المعرفة وفى الواقع فما من منطقة شاسعة من أفريقيا الشرقية إلا تمثل أثيوبيا منها القلب وممتدة من وادى النيل شمالا عند الشلال السادس وشرقاً حتى المناطق الصومالية الصحراوية وجنوبا حتى كينيا بل وأبعد من ذلك تلك هى أفريقيا الوسيطة اللا بيضاء واللاسوداء بل الاثنان معاً التى تمتلك وكما تمتلك أفريقيا البيضاء أسلوباً للكتابة ولها تاريخ وحضارة مرتبطة بمراكز الإشعاع الشمالية فى موقعها هذا بين قارة آسيا والبحر المتوسط وأوروبا وسنلاحظ أخيراً أن الصحراء تمتد شرقا من أثيوبيا مرورا بأريتريا وبلاد الصومال أى فى تلك المنطقة الطويلة الفاصلة المقفرة والتى تمثل كذلك حدوداً القارة السوداء. جنوبا، أحداث تاريخية وقعت وسوف نتصف طويلا الامتداد الطبيعى لأفريقيا السوداء. ففى القرن السابع عشر أراد بعض الهولنديين إقامة مرسى على الطريق إلى الهند، فاستقروا عند الطرف الجنوبى للقارة فى بلد غير آهل عملياً وفى عام ١٨١٥ استولى الإنجليز على هذا الموقع الاستراتيجى وسرعان ما انطلق المستوطنون الهولنديون والبوير (فلاحون هولنديون) مهاجرين نحو الشمال ووصلوا حتى السهول المعشبة حيث أقاموا تربية وتجارة مزدهرة للمواشى وهكذا ورويدا استطاعت أفريقيا البيضاء أن تنشأ فى جنوب القارة كما فى شمالها وكانت ناجحة ومزدهرة ثرية بمناجمها من الذهب والماس وبصناعاتها وخاصة برغبتها فى الدفاع عن نفسها ضد المد الأسمر (مليون من البيض و ١٠ مليون من السكان ذوى البشرة السوداء ومليون ونصف من الملونين خليط وتصلبت جنوب أفريقيا فى سياسة عنصرية ميئوس منها (الأبار تابد التمييز العنصرى) وهى السياسة التى أدت بها إلى قطع علاقاتها بالكومونويلث عام ١٩٦٠ وما هذه المأساة إلا حلقة أو لعلها نوعا من القطيعة النهائية؟ قد لا تتوقف ولعلها تعجز عن التوقف برغبتها ولكنها لا تستطيع وقف عجلة التاريخ.

ومن الاستثناءات التاريخية جزيرة مدغشقر الكبرى التى يمكن وضعها خارج القارة السوداء حيث سكانها ـ كما نعرف ـ عن البيض «البانتوس» القادمين من الشمال فى موجات متلاحقة ومن بين هذه العناصر كان المختلطون أعدادا كبيرة ولكن الجزء الغربى من الجزيرة أكثر احتشاداً بالبانتو وأكثر الجزء الشرقى من

جزيرة ملقا والأغلب من واقع الاستكشافات لرغم نقصها مهجنة ويمكن فى خضم هذا المزيج من الأصول والأعراق الأندونيسية والإفريقية توزيعهم بنسبة ١ إلى ٢ حيث الأعراق الإفريقية هى الأغلب.

ومع ذلك نجد هذا الخليط من مختلف العرقيات المختلفة وحدة «ثقافية» تمنح الأقلية نوعا من الميزة ونقصد بها الأقلية ذات الأعراق والأصول الأندونيسية حيث تمتلك الأساليب الزراعية الفنية والحرفية وكلها مميزات لا جدال أندونيسية الجذور من حيث إتقان استصلاح الأراضى بالنار واستخدام المعازق ذات الأيدى الطويلة وغمر حقول الأرز وزراعة القلقاس والأزيام، وهى نباتات معمرة، والموز وتربية الكلاب والخنازير السوداء والدواجن والطيور وصيد الأسماك بالعنبر (نوع من الحيوانات الثديية البحرية) والصيد بالسلاحف والعصى الطويلة وصيد الوحوش والحيوانات بالرماح والأنابيب والسبطانة والمقلاع وجدل السلال وتضفير السجاد والحصائر وكلها حرف يتقنونها. وكانت السجاد والسلال والحصائر (جمع حصيرة) تمثل أسس تأثيث المنازل ولا شك جاء هؤلاء الملاحون من الشمال ولم يجيئوا عن طريق رحلات تتبع خطوط مستقيمة والدليل وإن كان هشاً وهو دليل على كل حال أن جزر الأرخبيل بالمحيط الهندى ويضم جزر موريس والرينيون ورودنج.

كانت حتى القرن السابع عشر أراضى مهجورة خاوية فى حين كان من الممكن والجائز أن تكون الطرق الطبيعية ،الاضطرارية، للرحلات فى خط مستقيم بشرط سلوكها بحراً بين الأنسولند وجزيرة مدغشقر(١).

وباختصار فإن تاريخ وحضارة المحيط الهندى هما اللتان ألحقتا الجزيرة الكبيرة وانتزعاها من القارة الأفريقية وإليها إلا أن موقعها إلى جوار القارة قد أسهم اليوم فى ضم مصيرها وإلحاقه بمصير جمهورية مالاجاس(٢).

ولفهم العالم الأسود نجد أن الجغرافيا تتفوق على التاريخ فالحدود الجغرافية هى السمات الأكثر تعبيرا والأكثر دلالة، وعموما فهى ليست الوحيدة التى يمكن حصرها. ويفسر لنا المناخ تتابع تلك المساحات الشاسعة من المناطق المليئة بالأشجار والأعشاب التى تضم أنواعا من الحياة مختلفة اختلافات ضرورية لا إرادية فنحو الغرب نجد الأمطار الاستوائية التى تظل فى مواقعها مكونة تلك الكتل

الضخمة من الغابات البكر الكثيفة وتشبه الغابات الأمازونية أو الأندونسية التى تمتد حتى خطوط عرض مشابهة إنها تلك التى يطلق عليها الغابات الإسفنجية (المنتفخة) المعمورة بالمياه الكثيفة المرتفعة المليئة بالأشجار العملاقة وكذلك ما يليها من أشجار قصيرة متشابكة فى صمت وظلام تفادى أى عمار بشرى بل تعوق حركة التنقل خارج نطاق التنقلات والانتقالات التى تجرى باستخدام مياه الأنهار، وهى منطقة حياة بكر منعزلة يعيش سكانها على القنص وصيد الأسماك إنها المأوى الممتاز حيث يعيش الأقزام من سلالة النيجريل الذين عاشوا فى غابات وصحارى أفريقيا الاستوائية وهم بلاشك أوائل سكان قارة أفريقيا. وهذه الغابة تكتمل أكثر فأكثر شمالا بأفضل مما تنمو جنوب خط الاستواء وتحيط بخليج غينيا على جانبها الشمالى ومن ليبيريا حتى الكاميرون. وبها قطاع أوسط تنمو بها أشجار عشب كثيف وسهول بها زراعات النخيل من داهومى الجنوبية حتى الشرق إذ نتوقف حتى حوض الكونغو عند حواف تضاريس أفريقيا الشرقية العالية وصول الغابة الكبيرة تمتد بصورة اندفاعية نحو المركز حيث تجمعات الغابات الاستوائية الجافة أكثر فأكثر نحو السهول ذات الأعشاب المشجرة العالية على طول مجارى المياه وأخرى جرداء وأخيراً السهوب

كما أن هناك منطقتين تتميز إحداهما عن الأخرى وتتعاقب عليهما فترات الأمطار وفترات الجفاف فيصاحب الأولى تربية المواشى على حين لا يمكن فى الأخرى عمل شىء خلالها بسبب ذباب التسى تسى المسماه ذبابة النعاس وتزدهر مواسم الزراعة بالنباتات المعمرة ذات الدرنات النشوية والذرة والأرز وتعد أغلب هذه المحاصيل للتصدير ثم القطن والفول السودانى والكاكاو دون أن ننسى نخيل الزيوت من أهم محاصيل نيجيريا بالذات ويدر عليها أرباحا وثروات ضخمة ومن الواضح أن التقسيم الأكبر بين نوعين من الحياة الريفية للقرويين مع حيوانات أليفة وبدونها وأن المنطقة الخارجية باتجاه كل من الشمال والشرق حيث تمارس تربية المواشى هى بالتالى الأكثر ثراء والأكثر توازنا والأكثر انفتاحاً كذلك على العالم الخارجى ومنذ عهد طويل. وكانت مسرحاً لكثير من أحداث التاريخ.

ومع هذا التقسيم للمكان تتطابق وتتوالى المناطق العرقية ومن بينها الأفارقة الميلانو ذوى البشرة السوداء.

ومن الحكمة ألا نعتقد لحظة واحدة أنهم من سلالة واحدة بل ينقسمون إلى أربعة أعراق وأصول مختلفة: الأقزام وهم بقايا سلالة متأخرة جداً أجبرتها الظروف على التوحش ولا تكاد لغتهم تتضح وتفهم ويعيشون على حافة صحارى كالهارى: المجموعات القليلة العرقية الهوتنتوت والبوشمى والشعوب السودانية من دكار حتى أثيوبيا والبانتو وأكثر هذه المجموعات عددا هم السودانيون وقبائل البانتو ذلك أنهما قبل كل شيء متحدان فى اللغة والثقافة ومما لاشك فيه أن قبائل البانتو من أصول أفريقيا البحيرات الكبرى وجذورها واحتفظت قبائل البانتو بنوع من التماسك أكثر من السودانيين إلا أن كلا منهما يتم عن اختلافات عميقة تعود إلى التحولات التاريخية والاختلافات البيئية ويجب بالنسبة للسودانين كذلك إثارة قضية الشعوب الإسلامية السامية بفضل تسرب شعوب جزرموريس وشعوب البربر المسلمة رعاة الأغنام الذين ازدادوا حضارة كلما زادت تنقلاتهم إلى خارج حدودهم. ولقد تعرفت كل تلك القبائل والشعوب المختلفة لأنواع عميقة من التجارب الانصهارية بسبب عديد النزاعات والتحركات والهجرات وغزوات البعض ودفع الآخرين وطردهم ومن هنا ولهذه الأسباب نجد هذا المزيج الغريب من التوترات والضغوط التى تحدث كثيرا فى ربوع هذه القارة السوداء ذلك أن تعمير هذه الأراضى قد وقع فى الأزمان الغابرة ووقع بالأمس القريب من قبل تلك الموجات المتدافعة إذ تدفع إحداها الأخرى أو تردها حسب مقتضيات الظروف، ولهذه الأسباب التي أملتها الطبيعة لا تجد حتى اليوم شيئا مستقرا وليس عسيرا على أى محقق واع يسعى إلى معرفة حقائق موجات الهجرات وتواريخها واتجاهاتها وسرعة الانتقال والترحال من موقع إلى آخر ذلك لأن من النادر أن نجد قبيلة لا تعرف جذور مؤسسهاوأصوله وستجد أكثر النزاعات فيما بين خط ١٥,١٢ من خطوط العرض شمالا حيث تقيم الشعوب السودانية ولا أول مما تفصح عنه هذه الشعوب (الجنس الزنجى الأول) وجذورها البدائية القديمة حيث تعيش على القنص، وجنى الثمار كما تضم جماعات من الفلاحين الحريصين على إخصاب الأرض وتسميدها وهى فى الغالب أراضى جبلية فقيرة تتخللها قطاعات قليلة من البساتين لا تكاد تقيم أود خمسين فردا على الأكثر لكل كيلو متر مربع وكان الناس يختارون محال إقامتهم فى مواقع يسهل الدفاع عنها من الجهات الغازية.

كان ذلك مصير شعوب من قبائل الدوجون القادمة من أقصى الشمال ذات الجذور الأعمق مما سواها من الشعوب الأفريقية العارية من أمثال قبائل كونيا جيوس وقبائل البشارين من غينيا وقبائل البوبوسى وقبائل اللوبيس من ساحل العاج وقبائل النانكاس من غانا الحديثة وقبائل كابريتى وقبائل سامباس من كل من توجو وداهومى وقبائل فابس وآنجوس من نيجيريا وكلها تجمعات عرقية صغيرة.

ومن الأفضل فيما يختص بالمواقع المكانية فيما بين الغابات الاستوائية والصحراء ذكر أسماء قبائل التدكو لدر أى كل الألوان وقبائل الماندينجز وقبائل البمباراس وقبائل الحوصة اليوربا وقبائل الأيبوس ومن القبيلتين الأخيرتين تتألف أكثر الكتل كثافة من سكان نيجيريا وهى البلد الثرى الأكثر إعمارا فى كل أفريقيا السوداء ولكل من تلك القبائل والأجناس أسلوب حياتها المختلف وكياناتها الاجتماعية ومعتقداتها وثقافتها وتختلف كذلك الواحدة عن الأخرى وكذا المزيج المتنوع الذى يعطى الأهمية لأفريقيا حيث تتبدل التجارب والمصائر واضحة متعددة بلا توقف، وبالتالى فقد كان طبيعيا ومنطقيا أن تنشأ الصعوبة فى توحيد مصير هذه الشعوب القبلية فى بوتقة واحدة .

ونجد أحيانا كثيرة مناطق اللجوء الملاذى التى يقطنها الأهالى (أى المناطق الآمنة) وفى خضم ما يعتريهم من نزعات للمقاومة فهم لا يتقبلون «أية سلطة، تفد عليهم من الخارج إلا أنهم يجدون أنفسهم يجاورون عواصم حضرية من مدن متقدمة وعصرية السمات وأكثر أخذاً بالأساليب الحديثة.

ويمكن القول بإيجاز أن هذا الخليط المتنوع من ألوان البشرة من الأسود الداكن للسودانيين إلى الفاتح الأقرب إلى الاصفرار لقبائل الهوتنتوت البوشمن ليس هذا الخلط المتنوع من ألوان بشرة الجلود سوى علامة مميزة للأجناس البشرية الأنتروبولوجيك (الأجناس البشرية) والطبيعة العضوية وظائف أعضاء الجسم لسكان مواقع ومناطق جغرافية لمجتمعات بشرية وهى تنوعات وتعددات ترجح من حيث الجوهر والأساس على ألوان البشرة.

وقد عانت هذه القارة ولا زالت تعانى أزمات عديدة من القحط كما عانت وتعانى من أسباب الضعف الجماعى الشديد. وليس من السهل تعدادها كلها

تفصيلا بل ولا كيف كانت تلك الأزمات عبر العصور ثقيلة أو خفيفة وكيف نشأت وكيف انقضت وقد سبق أن أوضحنا مساوئ انفتاح العالم الأسود على الخارج وهو انفتاح يمثل عبئا حقيقيا إذ أن كل تقدم حضارى إنما يأتى عن تدخلات وعلاقات من حضارة إلى أخرى يفسر ويبين هذا السياج النسبى فجوات وثغرات هامة لم تسد ولازالت من قبل وصول الأوروبيين وإقامة المستعمرات الكبرى، ونلاحظ على سبيل المثال غياب العجلة المحركة. والمحراث وحيوانات حمل الأثقال والكتابة باستثناء أثيوبيا وهى لا تعتبر على أى حال جزءا من قارة أفريقيا السوداء ما عدا البلاد التى دانت بالإسلام مبكرا على الساحل الشرقى للبلاد السودانية فإن الكتابة تعود إلى الإسلام.

تلك الأمثلة كفيلة وحدها بأن تثبت غالبا أن النفوذ الخارجى لم يتسلل إلا قطرة قطرة نحو قارة أفريقيا الشاسعة جنوب الصحراء.

وذلك فضلاً عما أثير كثيراً أن المسألة لم تحسم على الإطلاق فى أحقاب نفوذ مصر الفرعونية على المجتمعات السوداء فقد اكتشفت أحجار من زجاج اللؤلؤ فى الجابون وتمثال صغير للإله أوزوريس (أوسير) فى مدينة مالونجا فى الجنوب الشرقى من الكونغو البلجيكى السابق وتمثال آخر جنوب نهر زامبيزى.

وكلها براهين مع ضعفها إنما تفتح المجال على كل حال لاحتمالات ولوج الفراعنة هذه الأراضى حيث تركوا على الأقل آثارهم فى الفنون والتقنيات الأخرى كالسباكة وتذويب المعادن بل يجب على العكس أن نعترف أن وصول النباتات الخارجية مثل الأرز من الشرق الأقصى والذرة وقصب السكر والمانيوك، نبات النشا، وهى لا شك مقتنيات وردت فى عصور متأخرة وهى بعامة ليست من إنتاج القارة السوداء القديمة بل الأرجح كانت تجهلها وهناك أيضا من مظاهر الضعف الأخرى وتشمل رقة سمك الأراضى الصالحة للزراعة حيث أغلبها (صلبة أحمر اللون) ويدل اللون الأحمر الصارخ على أرض تصلح للحرث وهى وعادة كثيفة لولا ضآلتها وقلتها فضلاً عما يؤدى إليه المناخ من قلة الأيام الملائمة للزراعة ثم نقص اللحوم فى التغذية حيث يبدو كأنما حرمت منها الجمهرة الكبرى من السكان لا يذوقها الأهالى فى أغلب التجمعات القبلية إلا فى الأعياد والأعياد

الكبيرة وحيث يحتفظون بقطعان الماعز والخراف التى يربيها المزارعون الكيكايوس من قاطنى كينيا فى بعض الأراضى البور حول حقولهم للتضحية والحفلات ذات الطابع العقائدى ويعيش جيرانهم من البدو الرحل ورعاة الأغنام على منتجات قطعانهم من الماشية لولا أنها غالية نادرة لذلك يحافظون عليها ولا يذبحونها وتقدر اللحوم المشتهاة التى تغطى القوة والبأس فى كل مكان.

ويعبر عن هذا الوضع أغنية الملحمة الشعبية من أغانى الأقزام عند قيامهم بالقنص: لا أحد يعبر الغابة سواك.

يا صياد قم وانعس فلباسك انزلق، أجروا قفز

فاللحوم أمامك، اللحوم الضخمة المفرحة

اللحمة التى تمشى كالتل

اللحمة التى تفرح القلب

اللحمة التى سوف تحمص بيتك

اللحمة حيث تتغرس فى أسنانك

اللحمة الجميلة الحمراء والدم الذى نشربه (يغلى).

ومع ذلك يبقى علينا ألا نأخذ بكشف الحساب السلبى هذا، إذ حققت أفريقيا السوداء مظاهر تقدم قديمة فى زمن قصير سريع بل يفوق بمراحل مظاهر تقدم أوروبا القديمة فعلى سبيل المثال نجد وفى وضوح تماما باهرا فى مجال الفن لا فى روائع البرونز والعاج من بنين فحسب (القرن الحادى عشر، القرن الخامس عشر) بل ومن منتجات أقل شهرة من أقمشة منسوجة من مختلف الألياف النباتية كما عرفت أفريقيا ومارست أخيرا وفوق كل شىء عمليات استخراج المعادن منذ زمن مبكر جدا يمتد ٣٠٠٠ قبل الميلاد بالنسبة للحديد ولذلك فمن غير المعقول أو المنطقى الادعاء بأن الأفارقة لم يعرفوا الحديد إلا بعد وصول البرتغاليين من كاب يوجادور والأسلحة النارية الحديدية فى زمن مبكر جدا ومن المقطوع به أن تحسينات أدخلها سكان روديسيا على أساليب استخراج المعادن منذ القرون الوسطى

وكان خام التصدير معروفاً احتمالاً فى بلاد نيجيريا العليا منذ ألفى عام (٢٠٠٠ عام) . وأخيراً تذكر تفصيلا له دلالته إذا ما نحينا الإعداد والتنظيم إذ نجد فى مجتمعات السود طبقات من الأهالى قوية ماهرة من الحدادين لاشك ينتمون إلى تقاليد سحيقة القدم.

عبر ماضى القارة السوداء

ليس يعرف الماضى الطويل الذى مر بأفريقيا تماماً شأن الشعوب التى لم تعرف الكتابة فتاريخ تلك الشعوب لا يصلنا إلا عن طريق تواتر شفهى واكتشافات علماء الآثار حيث تجىء الشواهد مصادفة. وعلى الرغم من ذلك تبرز من هذا الماضى الغامض ثلاث مجموعات من الأحداث .

(أ) بزوغ المعدن والممالك والإمبراطوريات وكلها حضارات دماء مختلطة (خليط من دماء).

(ب) تجارة الرقيق والتى أخذت أبعاداً شيطانية جهنمية مع مستهل القرن السادس عشر وبداية ازدهار القارة الأمريكية بعد اكتشافها وقد كان نجاح أوروبا منها مهمة شاقة جدا.

(جـ) وأخيرا الاستقرار الوحشى العنيف لأوروبا والقوى الأوروبية انتهت فى مؤتمر برلين ١٨٨٥ الوضع بالاتفاق على تقسيم الأراضى المتبقية بدون سيد «نظرى» يسيطر عليها من كل ما تبقى من القارة الفسيحة المجهولة والغير مطروقة حتى وقتئذ وأصبحت منذ ذلك التاريخ مستعمرة كلها.

والتاريخ فى أفريقيا السوداء لم يساند ظهور الأشكال السياسية والثقافية الممتازة إلا فى المواقع التى كانت فيها من جهة تلك الموارد المشتركة من زراعة

وتربية مواشى وفيها من جهة أخرى مسالك اتصال بالعالم الخارجى أى بطول حواف شواطىء المحيط الهندى حيث الإمبراطوريات القديمة والمدن المزدهرة القديمة.

وهنا تظهر لنا أفريقيا ذات سمة خاصة معروف ماضيها ولو نسبيا بمجتمعاتها وثقافاتها منتظمة فى أمم فى مواجهة قارة أفريقية صناعية نجهلها تاريخياً وأما أهل القارة «الوطنيون» من سكان الصحراء على سواحل الأطلسى. وقد قال فيهم بازدراء مستكشف برتغالى: «إنهم حتى بغير ملك» ويعنى ذلك إذن أن هناك أفريقيا ذات ملوك عرفناها نسبيا فى التاريخ وأفريقيا إحدى أتى عليها النسيان ومن ثم نمت أفريقيا السوداء على حقبتين الأولى: إذ قدر لها أن تدخل فى اتصال بالإسلام ولم يكن اتصالا سلميا أو هادئا أو مقبولا دائما، إذ كان نوعا من الاستعمار على أن أفريقيا السوداء مع هذه السمة الاستعمارية قد تمكنت من التنفس على الخارج والتعبير عن ذاتها فالفترات التى لمع فيها الزمن للساحل الشرقى لأفريقيا خلال قرون العصر المسيحى إنما كان حين الاتصال مع الأمة العربية (أى الحجاز) وشبه جزيرة الهند ومع ذلك فمع الانتشار الأول للإسلام فى القرن السابع انطلقت موجات الاتصال المتوالية من جهة مع المملكة العربية وممالك الفرس ومع أفريقيا الشرقية من جهة أخرى كما نشأت مواقع تجارة وتبادل بضائع منذ عام ٦٤٨ فى مقديشو، سوفالا وميليند - وممباسا وبراڤا وزنزيبار التى أسسها عرب جنوب شبه الجزيرة العربية على حين أنشئت كيلفا فى القرن العاشر أسسها قوم من شيراز من بلاد الفرس واسمها يقال لهم الشيرازيون وقد عرفت كل هذه المدن بصفقات تجارية كبرى وحركة تبادل سلع وبضائع بسبب تجارة الرقيق والعاج والذهب وكانت السلعة الأخيرة وفيرة فى الموقع داخل سوفالا حيث وجدت آثار لبعض الجغرافيين العرب كالمسعودى ٦١٦ وابن الوردى ٩٧٥ ويبدو أن مناجم الذهب وغيرها من المناجم كانت تقع فوق هضبة ماتابيليه بين الزامبيز - وليمبوبو - وبلا شك وبالرغم من ذكر نقيض ذلك فلابد أن كانت هذه المناجم تقع فى منطقة الترانسفال الحالية (إحدى مقاطعات جنوب أفريقيا) والمقصود بخام الحديد هو تبر الذهب وكتله أيضا وكانت تلك التجارة كلها فى أوج نشاطها فى مواسم الرياح «الموسمية» مع بلاد الهند حيث يجىء الحديد والأقمشة القطنية.

ولم يكن فى هذه المدن سوى أقلية صغيرة من المستوطنين العرب والفرس وترتكز فى معيشة أهلها مع الاتصالات مع شبه القارة الهندية والمملكة العربية وقد ازدهرت تعاملاتها ومبادلاتها التجارية فى القرن الخامس عشر، على أن اقتصادها فى ذلك الوقت ظل بدائيا شيئا ما أساسه على الأقل «المقايضة» فى مجال التبادل التجارى مع داخل البلاد الأفريقية التى حققت هى الأخرى الاستفادة من هذا النوع من المبادلات التجارية، ولاشك أن هذه الاتصالات قد أتاحت الفرصة لرسوخ بعض النظم الأولية فى السياسة والتنظيمات السياسية مثل مملكة مونوموتابا فى جنوب روديسيا والاسم مشتق مونئين موتابا وكان سيدا على المناجم شهوراً أكثر من مجرد معروف بلاشك وفى القرن السابع عشر دمره المامبو ملك قبائل الردزى.

ونتساءل هل وجهت إقامة البرتغاليين فى المحيط الهندى بعد رحلة فاسكوداجاما (١٤٩٨) ضربة قاتلة للمدن التجارية على الساحل الجنوبى الأفريقى؟

لم يحدث شىء من ذلك حيث يثبت الواقع حاليا أن تلك الحضارة المشتركة خليط نصفه عربى ونصفه أفريقى واستمرت تسطع نحو الداخل ولم تحاول المدن الساحلية إخضاعها لسيطرتها وقد ظهر أنها من إطلال سواحل كينيا وتنجانيقا وكنا حتى الأمس القريب نرجعها إلى القرن الوسيط إنما تعود فى الواقع إلى القرن السابع عشر والثامن عشر بل إلى القرن التاسع عشر كذلك ولنذكر من التفاصيل واحدة لها دلالتها قبل الانتهاء من هذه الفقرة عن هذه المدن ونقصد بها أن أهلها كانوا يشتركون جميعا فى استعمال أوانى من الخزف الصينى الأزرق والأبيض.

وانتقلنا من إمبراطوريات منعطف مجرى النيجر إلى نحو حدود ثقافية أخرى مع الإسلام وهى فترة كانت مع اضطرابها ذات ازدهار ونجاح مثمر. ولقد سبق القول إن الاتصال مع المدن الساحلية والمبادلات التجارية مع مدن الصحراء.

١ - اتخذ أبعاداً كبيرة وازدهاراً فى مستهل العصر المسيحى وبعد وصول الإبل وحيد السنام إلى شمال أفريقيا والمناطق الصحراوية وصعود تجارة خام الذهب وتبره والرقيق. وقد أحدثت القوافل وزيادتها وتعددها أثرا بالغاً تمثل فى تعديات من جانب غارات أفريقيا البيضاء (الحامية السامية) على أراضى السكان السود «بلاد السودان».

ويبدو أن أول الإمبراطوريات إنما نشأت حوالى عام ٨٠٠ (غانا) فى تاريخ معاصر لتاريخ شارلمان وعاصمتها غانا ومعناها الثراء والغنى وتقع بين كرمبى صالح على بعد ٣٤٠ كيلو مترا شمالى باماكو على حدود الصحراء هل أنشأ هذه الإمبراطورية ذو البشرة البيضاء القادمين من الشمال؟ ربما كان ذلك وهذا احتمال قائم على كل حال إذ سرعان ما دخلت ممتلكات قبائل السوفنك وهم نوع من شعوب الماند. وقد هاجم المسلمون العاصمة واستولوا عليها ودمرت عام ١٠٧٧ ولكن تجارة خام الذهب وتبره من مناجم السنغال والنيجر العليا (أى أعالى نهر النيجر) استمرت وترسخت.

وسرعان ما بزغ نجم امبراطورية أخرى هى إمبراطورية مالى وامتدت حدودها بطول ضفاف نهر النيجر تحت حكم الخانقان موسى من عام ١٣٠٧ حتى عام ١٣٣٢ الذى حج إلى مكة وقد تدفق عدد كبير من التجار والمثقفين وصارت مدينة تومسيوكتو عاصمة تشع أضواؤها حيث يتجه أفراد القبائل الرحل من الطوارق وقد استولى هؤلاء فيما بعد على المدينة وساهموا فى تداعى الإمبراطورية وسقوطها ثم انطلاقة أخرى نحو الشرق حيث ازدهرت أوضاع إمبراطورية سونجهاى عواصمها جوا وتمبكتو حظيت بميزة ارتباطاتها مع برقة بفضل مآثرسونى على ربما يقصد (السنى على أو على السنى) ١٤٦٤ ـ ١٤٩٢ ويعد من أقوى الشخصيات التى أنشأت الإمبراطوريات ولم يكن هو نفسه مسلماً بل كان مسيحياً خالصاً إلا أن هزيمة وريثه على يد الغاصب محمد دسكيا سجلت انتصار الإسلام الفاصل فى تلك الإمبراطورية الوليدة.

وعلى أى حال فقد ولى العصر الذهبى للإمبراطوريات النيجيرية حيث جذب اكتشاف البرتغاليين للطريق البحرى الذهب ليتدفق من مناجم بلاد السود نحو الأطلسى وعلى الرغم من عدم إلغاء طريق التجارة عبر الصحارى إلا أن هذه الطرق الصحراوية قد أصابها الوهن وضعفت ضعفاً شديداً. وفى إطار هذا الانكماش يقع غزو رسمبكتو وتنهار إمبراطورية السونجهاى (السنغاى) مالى عام ١٥٩١ إثر حملة مغربية يقودها بعض المرتدين من (أصول أسبانية ولاشك يرجع إلى انتصارهم اللقب الذى أطلق على سلطان المغرب مولاى أحمد «المنصور» أى الذى حقق الانتصار و«الذهبى» ولم تدم فترة الزهو طويلا فانتكست إلى خيبة

الأمل بالنسبة لأبطالها الذين كانوا يعتقدون أنما يخرجون فى غزوة أسطورية إلى بلاد مناجم الذهب حيث لم يستطع السلطان الاحتفاظ بسيادته المطلقة إلا فترة وجيزة وذلك سيادة شكلية وقائية على هذه البلاد الفقيرة حيث تتوالى عليها من ١٦١٢ إلى ١٧٥٠ مالا يقل عن ١٢٠ باشا مائة وعشرون باشا كانوا بمنزلة دمى فى أيدى جنود الحاميات المغربية إذ أقصاهم جنودها واحداً تلو الآخر أو تخلصوا منهم كلهم عند الضرورة. وفى القرن الثامن عشر تقاسم السلطة فى البلاد النيجيرية كل من البدو الرحل وقبائل البامباراس من سيجو ومن كارنا (ربما يقصد الخارطة) أو ربما يقصد الكعرته وزال عصر الإمبراطوريات الكبرى وإن بقى ودام طريق التجاره الثرى عبر الصحراء حيث أثار وضغط ووطد أركان سلطانهم المبكر المتألق ولقد ماتوا معه، وما ينبغى أن تخدعنا هذه الدول الكبرى فقد كانت استثناءاً فلم تعرف الدولة العادية فى أفريقيا السوداء الازدهار إلا فيما ندر كدولة بنين التى عرفت الازدهار منذ القرن الحادى عشر ووصل فى القرن الخامس عشر إلى نوع من عصر الاتقان الفنى إلا أنه كان ذا مدى متوسط وهو أساسا ثغرة أسيئ تنظيمها عبر الكتل الصحراوية الاستوائية الكثيفة حيث تشملها الرياح الممطرة فيما بين مياه الخليج الغينى والهضاب الداخلية وهى تقع فى بلاد اليوروبا من دلتا نهر النيجر فى موقع مدينة لاجوس الآن وفى منطقة أضيفت عليها الحضارة المدنية فى زمن مبكر جداً وتفوق شهرتها مساحتها إذ تميزت عن غيرها بالدخول فى اتصال مباشر مع طريق الشمال مع تجار القاهرة الأثرياء وفنانيها وكذلك تميزت فيما بعد باتصالها بالبرتغاليين بأن صارت مركزا فنيا مدهشا فى نحت العاج وصهر البرونز ويعود هذا النجاح الذى يثير الدهشة كما قال بول ميرسييه إلى أسباب كثيرة منها ماتثير قضية كثافة السكان فى بلاد يوروبا عامة وبنين خاصة وبنيانها الحضارى وأخير ما يسمح به مناخها وجوارها من غينيا والاعتماد على موسمى أمطار ووقوعها أخيراً فى مسارين للشمس، باختصار محصولين اثنين بدلا من محصول واحد كل عام.

كما أن تجارة الرقيق مرت بواقع أساسى مع بداية القرن الخامس عشر وأكثر من ذلك مع القرن السادس عشر وعلى الرغم من التحريم الرسمى لها فقد استمرت فى شمال الأطلنطى حتى عام ١٨٦٥ تقريبا ثم فى جنوب الأطلنطى فيما بعد وأخيرا استمرت تعبد الطرق المؤدية نحو الشرق إلى البحر الأحمر. ولم تكن تجارة

الرقيق اختراعا أوروبيا شيطانيا ذلك أن الإسلام كان أول من مارس هذه التجارة فى زمن مبكر مع أفريقيا السوداء فيما بين النيجر ودارفور وعن طريق مواقعه التجارية فى أفريقيا الشرقية ومارسها بحارة جملة وهو ما اتبعته أوروبا ولجأت إليها فيما بعد بسبب نقص الأيدى العاملة لأداء مختلف الأعمال الشاقة غير أن تجارة البشر كانت ظاهرة عامة من مظاهر البشرية المبكرة ولم يخترع الإسلام المنشيع الجيد للرق تجارة الرقيق فقد تركت تجارة الرقيق وراءها عديدا من الوثائق فى سجلات أوروبا التجارية فى سجلات العالم الجديد(٣) حيث يمكن استخراج إحصائيات مستويات أسعار، وما تاريخ تجارة الرقيق هذه والمؤيدة بالوثائق الرقمية إلا قصة كريهة فى ذاتها وعموما فهى ليست قصة تجارة الرقيق بأسرها إلا بمنزلة إجراء ضرورى.

ففى القرن السادس عشر وصل مجموع ما وصل من الرقيق سنويا رقما يتردد بين ١٠٠٠ (ألف) وألفين وفى القرن الثامن عشر رقما بين عشرة آلاف وعشرين ألفا سنوياً ووصل الرقم إلى أعلى مستوى فى أعوام القرن التاسع عشر خلال أواخر أعوام السماح المحتمل ووصل إلى ما يقرب من ٥٠ ألفا كل عام وليس هذا الرقم دقيقا وغير مؤكد وكذلك الحسابات الإجمالية التى يمكن الارتكاز عليها والتعرض لها بهدف تقدير الرقم الإجمالى لعدد السود الذين رحلوا إلى العالم الجديد.

أما الرقم الإجمالى كما ذكر ب. رينشون وهو حوالى ١٤ مليوناً وهو بلا شك رقم أكبر مما قدره عام ١٨٤٢ مورو روجونس وحدده باثنى عشر مليوناً وأقل من الرقم الذى حدده أخصائى الشعوب كارل سامندرز الذى يميل إلى تقديره بعشرين مليونا من الرقيق وهو رقم غير دقيق بلاشك إذا ما أخذنا فى الاعتبار أنه قدر متوسط ٦٠ ألفا من الرقيق كل عام من أعوام القرون الثلاثة والنصف من ١٥٠٠ حتى ١٨٥٠ وهو رقم لا يتناسب مع إمكانيات وسائل النقل ويجب أن نضع فى الحسبان كذلك تلك الخسائر فى الأرواح وكانت كبيرة لوقوع السفن فى الأسر أو عمليات النقل التى كانت تجرى فى ظروف شديدة الوطأة ورحلات شديدة الخطورة محفوفة بالمخاطر وعلى العموم كان نزوح الرقيق من قارة أفريقيا السوداء فاجعة وكارثة بشرية بالنسبة لها مما أتاح الفرصة لابتزاز الإسلام بانفراده بالادعاء بالبعد عن الرق ووصل الأداء إلى قمته حوالى نهاية القرن الثامن عشر

حين كانت القوافل القادمة من دارفور تصل إلى مشارف القاهرة محملة بما بين ١٨ إلى ٢٠ ألفاً من الرقيق فى مرة واحدة وفى عام ١٨٣٠ كان سلطان زنزيبار يجبى رسوما (جباية) على ٣٧ ألف رقيق سنوياً (من العبيد) وفى عام ١٨٧٢ يغادر عدد يتراوح بين ١٠ آلاف و ٢٠ ألفا من العبيد سنويا، ميناء سواكن متجهين إلى المملكة العربية فتجارة العبيد الإسلامية تعد إذن من النظرة الأولى أكبر حجماً من تجارة العبيد الأوروبية وتسبب أحد الرحلات البحرية عبر مياه المحيط الأطلنطى فى وقتها والحد منها وسعة السفن المحدودة ثم وانطلاق إعلان إلغاء تجارة الرقيق فى عدة مناسبات وفترات عديدة خلال القرن التاسع عشر مما يؤكد أن تجارة العبيد استمرت على الرغم من التجريح والتجريم والصعوبات التى كانت تواجه المهربين.

وفى عام ١٨٧٧ قدر ف. ل كاميرون هذا الرقم بـ ٥٠٠ ألف هى القيمة الفعلية لخسائر الإسلام وأردف يقول: إن أفريقيا تنزف دماً من كيانها كله ولا يمكن تقبل هذا الرقم الهائل إلا بمواجهة ما يقابله من أرباح غير أن تجارة العبيد كانت ذات أبعاد قصوى أما الخسائر فى عدد سكان القارة فكانت خسائر فادحة وذات أبعاد مخيفة شنيعة.

والسؤال الذى يطرح نفسه كيف عالج الشعب الأسود هذه الكارثة أو كيف وازنها؟ عالجها ووازن آثارها بنمو ديمغرافى فى عدد السكان ففى عام ١٥٠٠ كان عدد السكان بين ٢٥، ٣٥ مليون نسمة بما فيها أفريقيا. السكان من بيض البشرة.. قدر العدد برقم تقديرى يصل إلى ١٠٠ مليون على الأقل وإذن وعلى الرغم من نزوح العبيد فقد وقع تطور ديمغرافى فى زيادة عدد السكان ولا شك أنها إنسانية فى نمو مستمر تلك التى تحملت أعباء تجارة الرقيق البشعة ولنعترف دون مبالغة بالقول أن تجارة العبيد الأوروبية توقفت فى ذات الوقت الذى لم تعد فيه أمريكا فى حاجة ماسة إليهم وتم استبدال العبيد السود فهجروا من أوروبا مع بداية منتصف القرن التاسع عشر إلى أمريكا الجنوبية. ومن الحقائق الثابتة لاشك وتعد إبراءً لذمة أوروبا بالنسبة إلى العبيد السود بفضل المشاعر الغاضبة التى اجتاحت الممالك الأوروبية وأدت إلى بزوغ حركة ويلبير فورت فى إنجلترا منادية بتحرير السود وإلغاء تجارة الرقيق ودون ميل إلى وصف أى من تجارتى العبيد سواء فى نزوحهم

نحو قارة أمريكا أو نزوحهم إلى البلاد الإسلامية، وهل هذه التجارة أكثر إنسانية من تلك فلابد من الاعتراف بالواقع السائد حاليا فى ربوع مدن القارة الأمريكية وهو قيام أصول عرقية نمت وتنمو ودامت حتى يومنا هذا فى شمال أمريكا وجنوبها فى وقت لم تدم أو تستمر تلك العرقيات والجذور التى رحلت إلى بلاد الإسلام سواء فى بلدان أفريقيا أو بلدان آسيا وليس الأمر هنا نصب محاكمة. أو مدح الاستعمار الأوروبى لأفريقيا ولكنه ببساطة تسجيل ما تركته حركة الاستعمار هذه من كشف حساب بشقيه السلبى والإيجابى فى المجال الثقافى. كما أن الأمر ليس دفاعا عن الاستعمار ولا عن مساوئه، بل ولا عن فظاعته أو مهازله فى شراء الأراضى مقابل بعض لفائف من الأقمشة أو مقابل قدر زهيد من الكحوليات (الخمور) ولكن ما يعنينا فى هذا المقام ذكر ما نتج عن تصادم الحضارتين من نوع من ومضات الاستنارة، ليس الأمر كذلك فيما نحن بصدده الآن من الإقرار بأن التصادم الحضارى كان فى أغلب الأحيان حاسما ومكسبا للكيانات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية للشعوب السوداء التى استعمرت فقد كان ذلك فى الواقع عقب الفصل الأخير من مؤتمر برلين المنعقد عام ١٨٨٥ وهو آخر كبريات مغامرات الانتشار الأوروبى. وإذا كانت اتجاهات الوضع تحت الوصاية قد دامت فترة زمنية قصيرة (أقل من قرن) فقد كانت المواجهة حامية وأوروبا والاقتصاد العالمى فى كامل الازدهار.

إنه مجتمع صناعى راشد فارض لمشيئته مالك وسائل عصرية فى العمل وفى الاتصالات وهو ذلك الذى احتل واستثمر العالم الأسود الذى ارتضى التأثير والتأقلم مع ما يعرضه الغرب من مستحدثات العصر والأخذ بها وتطويرها باستمرار لتتواءم مع تقاليده وثقافته وحتى فى جنوب أفريقيا حيث خضع شعب البانتو إلى نوع من موجات التأقلم الاجتماعى بأسرع من موجات التصنيع والتحديث العصرى فالرجل الأسود المتطور إذيحيا على النمط الغربى يظل وينوى البقاء مرتبطا بمحرمات ورثها عن ماضيه وتقاليده وخاصة على الأقل فيما يتعلق بالزواج والأسرة ودور الأشقاء والابن الأكبر أو الابن الأصغر ولكى نقتصر على مثل واحد هو أداء المهر لوالد الخطيبة ويقدم اليوم نقدا وكان من قبل يسرد برؤوس المواشى وفق التقاليد الموروثة فإذا ما تحدثنا عن الجانب الإيجابى فى كشف الحساب فلن نتكلم عن تلك المزايا من المظاهر المادية كالطرق والسكك الحديدية

والموانى والسدود وإنجاز عمليات استقلال الأراضى والمناجم مما أقامه المستعمرون مستهدفين صراحة مصالحهم قبل أى شىء ومع ما يبدو من أهمية تلك المشروعات أحيانا فإنها ذات فائدة ضئيلة أما النظم الصحيحة والطب والإدارة فتعد أفضل ما جلبه المستعمرون ويقابل الوجه العكسى ويشمل عوامل الهدم التى أحدثها الاستعمار الأوروبى فى تقاليد وعادات قبلية قديمة وكذا تقاليد الأسرة الاجتماعية وعليها تستند كل أنواع الثقافة. وليس من السهل أن نفصل الآثار التى لحقت بالمجتمع من مستحدثات عصرية فى أجور الأعمال واقتصاديات النقد والكتابية والملكية العقارية الفردية وكلها مستحدثات أضيفت إلى نظام اجتماعى قديم. ولكن هذه المستحدثات ليست بالضرورة لازمة لمناهج التطور الجارية اليوم. وعلى العكس فإن من المساوئ الأخطر تلك التى كانت بسبب استعمار القارة وأدت إلى تلك السلسلة من تقسيمات الأراضى والمقاطعات فرنسية وإنجليزية وألمانية وبلجيكية أو برتغالية وتتوالى اليوم فيما كان من تلك المجموعة المزدهرة من الدول المستقلة الحرة العديدة ما سمى أحيانا بلغة القارة الأفريقية

ونتساءل هل نستطيع أن نقول أن ما وقع من تلك التقسيمات فى القارة الأفريقية بحكم تدفق المستعمرين كان شراً لاعلاج لهم حيث إنها تقسيمات قطعت بها شعوب بطريقة عشوائية اصطناعية لم تراع فيه مجرد التكلات الثقافية والعرقية. ولاشك أن تقسيمات كانت عقبة أمام تحقيق حلم رواد البعض وهو توحيد القارة الإفريقية أو إنشاء السوق الأوروبية المشتركة علي الأقل حتى مع العلم بأن قارة أفريقيا لم تكن ناضجة بما يكفى ليتحقق لها الوحدة السياسية بل ولا الوحدة الثقافية إذا لم تكن الحدود الإقليمية القديمة هى التى حددت تلك التقسيمات المتناثرة بل لتضم اليها تلك المتنوعات العرقية والجذور المختلفة والاختلافات العقائدية والدينية بل وحتى اختلاف اللغات واللهجات والمأخذ الرئيسى الذى قد توقع اللوم عليه اليوم بشأن تلك التقسيمات الوطنية هو أنها لم تأخذ فى اعتبارها ضرورة تلازمها كي تتطابق مع خطط سابقة الإعداد يراعى فيها تنوع الثقافات ولكن هل كان ذلك ممكنا منذ قرن أو يزيد؟ وثمة ملامة أخرى قد تعد مأخذاً أخطر وهو ماهيأه الاستعمار للشعوب السوداء على صورة أداة لتوحيد لغة مشتركة دولية السمة حديثة المظهر وهذا هو بالضبط ما يمكن تسميته بالحيلة السيئة التى لعبها المستعمرون فى شكل توطيد لغتين على الأقل هي الفرنسية والإنجليزية وما

عسى أن يتجه ذلك من محتوى هدفه التأثير على التعليم والعادات والأفكار بل واكثر من ذلك كان ينزع إلى فصل وتعويق وحدة أفريقيا بتمزيقها إلى كتلتين فرنسية من جهة وإنجليزية من جهة أخرى وكاد واضحا أن لا أمل لأى من الكتلتين أن تكتسح بل تسيطر على الأخرى أو تؤثر فيها بسهولة سوى ما تتمتع به كتلة اللغة الإنجليزية من انفرادها بميزة «العددية» مما قد يوحى بأن فى استطاعتها تحديد النفوذ والسيطرة علي كتلة أفريقية ناطقة باللغة الفرنسية تبدو ثقافيا من زمن طويل متمتعة بأصول وقواعد ونظم ثقافية ذات قيمة مما وفر لها (طبقات) سياسية وإدارية صلبة ومتمرسة ويضمن لها اليوم النجاح والتقدم .

وليس هناك ما عساه يزيد الأمر سوءاً كالعقبة فى مواجهة الوحدة الأفريقية أكثر مما قام به ورسخ أقدامه نفس جغرافية أفريقيا وتاريخها وقد ساهما بكل سخاء فى توفيره لها مسبقاً.

الفصل الثانى

أفريقيا السوداء
اليوم وغدا ..

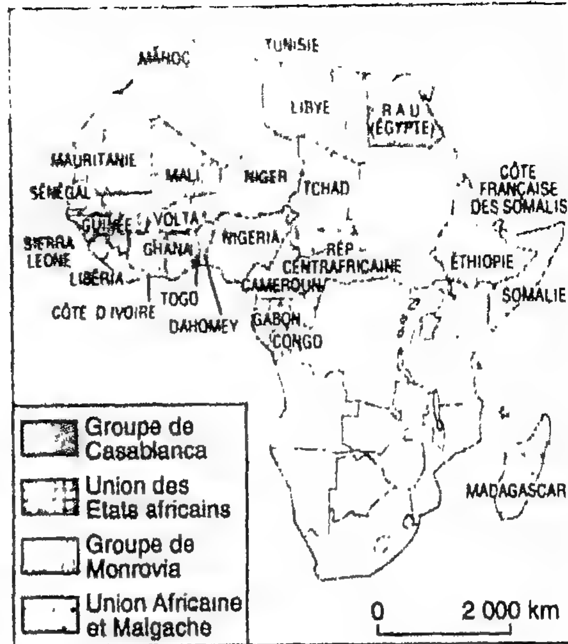
مقدمة

يجد الباحث فى دراسة إحدى الحضارات أن قارة أفريقيا تتيح حالة فريدة له فمع تلك الحركات والتطورات التى انتهت بالاستقلال لطائفة كبيرة من البلاد الإفريقية امتدت هذه السنوات الأخيرة لتشمل الجزء الأكبر من أراضيها مع تعاظم زنجيتها وتلك النزعة الإنسانية الوليدة التى بدأت بالكاد تشعر بقيمها الذاتية وإمكانياتها وقدراتها، ومع الدوافع المتحمسة لإرساء قواعد لتاريخ لها تبنيه إن أمكن تخلقه خلقاً أوتبتدعه ليميزها عن غيرها.

ومع ذلك تبدو القارة الأفريقية كعالم ثقافى فى مرحلة الانصهار فى بوتقة المسار المؤدى إلى الظهور. فى كيان ملموس. والمظاهر أمام عيوننا من كافة الأشكال عديدة منذ أقدم مظاهر جذور العرقيات الضارية فى أغوار الزمان حتى مظاهر التمدن العصرى فى أوج تقدمه وأكثر مظاهر رفع المستوى الثقافى والتأقلم الاجتماغى العصرى .

نهضة أفريقيا

تستيقظ قارة أفريقيا والأفارقة كلهم متفقون على ضرورة الوثوق فى المرونة الفائقة التى يتمتع بها الإنسان الأسود وتتسم بها ملامحه وما يحظى به من سجايا وكذا إمكانياته اللامحدودة فى التأقلم والتكيف مع كل ماهو عصرى، بالإضافة إلى مايتحلى به من صبر وجلد وإن كل هذه المزايا والصفات ماسوف يكون لازمة له لعبور ذلك الطريق الشائك الطويل الذى عليه أن يختاره فى سبيل استكمال دعائم متينة لاقتصاد عصرى بكل ماتعنيه الحداثة وعليه وحده أن ينجح فى هذا المثار بما لايزال فيه من شوط طويل وشاق بحكم صعوبة الانتقال من اقتصاد بدائى فطرى إلى اقتصاد عصرى وإن لم يكن بحال مستحيلا وذلك رغم معوقات تقيد مجتمعات ضاربة جذورها فى أغوار ماضى عقدى لتتحول إلى مجتمعات عصرية تساير التطور العالمى وعليه كذلك القضاء على جذور النظام القبلى المعوق وماتركه فى نفوس الأفارقة من آثار صارت بحكم الزمن لصيقة بموروثات قديمة لم تعد صالحة لعالم اليوم الذى يتجه إلى التحول الصناعى والتحديث ويدرك الرجل الأسود أن عليه اليوم أن يبدأ من جديد وأن يخلق كل شىء بما فى ذلك المفاهيم والعقليات، ومايتبغى أن ننسى أن أفريقيا السوداء تواجه اليوم هذه المشاكل وهذه التجربة وهى تعلم أنها تجربة طويلة المدى وأنها تواجه هذه المشاكل



افريقيا وكتلاتها الداخلية

كتلات وطنية ذات علاقات غير وطيدة بين مجموعة دول القارة السوداء



افريقيا والغرب

بلاد مشتركة مع أوروبا

دول الكومنولث

وهى متفرقة مع ماتملك من إمكانيات قليلة ضعيفة بل وتعلم أن الطرق الواجب اجتيازها مختلف المسارات باختلاف المناطق والشعوب.

١ـ أولالازالت قارة أفريقيا قليلة السكان النسبى محرومة من وفرة الأيدى العاملة التى على أكتافها تتحقق التنمية ولعلها كذلك وفى الوقت نفسه ترهقها كما هو الحال فى البلاد النامية. وفى زمرة هذه البلاد النامية تأخذ القارة مكان القاع الأوفى وهو بلا أدنى شك يسمح بظهور النجاح المظهرى وإن كان فى الوقت نفسه يبين ماينبغى اجتيازه من مسار طويل للوصول.

٢ ـ وليس فى لباب قارة أفريقيا مايختص بثقافاتها القديمة ولاسيما حضارتها التقليدية بمعتقداتها الكثيرة وعاداتها البدائية وذلك فضلاً عن أنها ذات حيوية متدفقة إذ تقبلت مادخل عليها من إسهامات عقائدية على رأسها الإسلام بما يتمتع به من نظم اجتماعية وثقافية وتجاوزه الهائل عن الديانات البدائية وهاهو الدين الإسلامى يعبرها ويخترقها ولكن لايقصيها أو يستبعدها وكذا المسيحية التى ازدهرت عموما حيث تجرى المبادلات الاقتصادية فارضة نفسها على ماكان سائدا قبله من مجموعة المعتقدات والعادات القديمة.

٣ـ نضيف إلى ذلك الاختلافات التى يخلقها الاقتصاد والفوارق بين المناطق المفتوحة وتلك المغلقة وبين الريف والحضر.

وفى هذه الكتلة الشاذة الغريبة من المشاكل التى تنتوى القارة السوداء التغلب عليها رغم المعوقات فى مسارها المتقد وخطواتها الحثيثة نحو الغد، يواجه السكان السود مع جماعة المثقفين بكل ثقة وشجاعة ونظرات واضحة وإيمان أنهم إزاء مغامرة حتمية أساسية أعمق تفكيرا من تلك المعارضات التى تبديها، جماعات من الشباب لمواجهة الدنيا أو لمواجهة مشاكل لأوطانهم ملحة وتفرض نفسها على أفريقيا بأسرها كقارة تريد النهوض والتطور. كل هذه المشاكل والصعاب التى وضحت (أمكن حصرها) من خلال جلسات مؤتمر الدار البيضاء عام ١٩٦١ / يناير ومؤتمرمونروفيا (مايو ١٩٦١) ومؤتمر لاجوس (فبراير١٩٦٢) ولا يجب يقينا إهمال السياسة إلا أن السياسة ليست سوى أداء أو أسلوب فهى تتلون وتختلف

عند أول «نسمة رياح مفاجئة» ولو كانت نسمة خفيفة فالسياسة قبل كل شيء لاتتحكم ولايمكنها أن تتحكم فى مصائر الشعوب بل يمكن القول إن مصائر الشعوب هى التى تقود مسارها وقد تجرفها أحياناً.

والعقبة التى تواجه الثقافات والديانات البدائية هو ماضيها التقليدى الذى يعوق الانطلاق نحو التقدم أو يؤخر على الأقل التوصل إلى التأقلم مع الظروف الضرورية العصرية. ثم إن الجزء الأكبر من سكان أفريقيا السوداء وخاصة فى المناطق الريفية حيث الغالبية لازال منغلقا فى إطار تقاليد وديانات وعقائد بدائية يركز عليها كل كيانه ونظامه الاجتماعى وهذه العقائد الدينية تأخذ أشكالا متغيرة حسب ماتقتضى به مواقع إقامة القاطنين فيها وكذلك حسب مقتضيات الجذور العرقية الروحية التى تعيش فى وجدان كل البشر وتظل واقعا حتى بعد الموت وكذا الإيمان بالأصنام وعبادة الجماد والسحر فى كل موقع تقريبا وعبادة الأجداد الأولين أو أبطال أساطير يتمتعون بنوع من الإجلال ينتهى بالتقديس بحيث يختلط الأمر بينهم وبين الأرباب والآلهة الأفريقية ، وينضم إلى هؤلاء غالبا الإله الأكبر رب السماء والأرض أورب الكون والإلة والأرباب وأرواحهم لاتنجلى فقط للأحياء ولكن المعتقدات تقول بقدرتها على العودة لامتلاك أرواح الموتى وهذا مايفسر لنا الدافع لمثل هذا الجديد من الرقصات المقدسة وعلى سبيل المثال نجد فى داهومى تلك الرقصات التى تعتبر طقوسا شعائرية حيث تهبط الإلهة فودون أوالإله أوريشاس على رؤوس بعض ممارسى الرقصات فسرعان ما يبدأون فى نوبة من الارتعاش بتأثير العاطفة فى نفس اللحظة التى تسكن الآلهة أجسادهم وفى مثل هذه الشعائر وأمام مايسمى بالمحراب أو الهيكل الإلهى أو مذبح الأقدمين يجب تلاوة الصلوات والابتهالات ثم إجراءات لتقديم الصدقات والهبات من الأطعمة وزيت النخيل والغذاء ببعض الحيوانات «لإطعام» الآلهة أو إطعام الأسلاف وتغذيتهم وفى المقابل توقع تدخلهم وذلك لحماية الأتباع فى مختلف الشئون وهذا النظام العقائدى هو الضمان بالنسبة للمجتمع الأفريقى والمؤسس على نسبة القرابة الأبوية وهى مرتبة اجتماعية صارمة تقدس وتمنح لرب العائلة سلطة تامة يمارسها على جميع أبناء القبيلة أو العشيرة وانتقال هذه السلطة ينتقل عادة حسب

أويزيد وعدد سكان مدن حضرية يبلغ مائة ألف فقط لذا نجد أن المجموع الحقيقى للنخبة لايزيد فقط عن ألف شخص ينتمون إلى ثقافة حقيقية وكم من صعوبات ووجهت لتكوين تلك النشرة الاجتماعية الضئيلة التى لايكاد يشعر بها أحد. وفى مدينة مثل بورترنوفو مايوقف التقدم ممكن أن نتخيل مسبقا إلا وهو «جمود» المجتمع التقليدى» المتنوع» أوعلى الأقل ثلاثى الإصلاح منها قبائل الجون المنحدرون من جذور فلاحى داهومى الوافدين على المدن وقبائل الباروبا وهم تجار من جذور نيجيريا المجاورة وأخيرا السود العائدين من البرازيل وغالبا من المسيحيين وأحيانا يكونوا قد تم تحويلهم إلى العقيدة الإسلامية على أثر مغامرات تثير الدهشة ولكل مجموعة من هذه المجموعات أنماطها الخاصة فى جميع المجالات مثل لون البشرة والمعتقدات المؤثرة وأشكال المقاومة وكل واحدة منها لديها نسلها ونسبها ولنتخيل أنه على أساس من هذه الأنساب والأنسال تتحدد وتتجمع مواقع الإمامة والمنازل وعلى أساسها تتم زيجات الزواج بل وتمارس العقائد الدينية. وعلى هدى هذا الرباط الاجتماعى الذى هو الديانة نذكرما أورده بشأن هذا النوع من الترابط واحد من المبشرين الموفدين إلى مدينة بورتونوفو: نحن أمام مؤسسة منشأة جميلة فى طريقها إلى الزوال ويضيف لكى لاأقول ديانة جميلة. وكانت المرأة أول من ثارت على قاعدة الأنساب والنسل وهى اليوم تتمتع بالارتباط الزواجى باختيارها إلا أن هذا التحرر مازال قابعا فى ماضى تعدد الزوجات ومحافظا عليه بشدة. ولقد ذكرت إحدى النساء وهى تبوح بسرها عندما فكر زوجها فى الارتباط بالزواج بزوجات أخريات: «عهد إلىّ بالنقود لأننى كنت الزوجة الأولى وكنت أقوم بتوزيع النقود على شريكاتى الزوجات، وقد كنت أنا التى اختارت لزوجى زوجتيه اللتين اتخذهما زوجات بعد سنوات من زواجنا وشريكاتى يحيوننى بالانحناء على مفاصل أقدامهم ويقومون بأداء كل ما آمرهم به من أعمال». وامرأة أخرى تقول: «إننى أقوم بتحية زوجى بالانحناء أمامه على ركبتى وكذلك أفعل أمام حماتى والأعمام والخالات والأشقاء والشقيقات الأكبر لزوجى ولكن لا أنحنى أمام الإخوة والشقيقات الأصغر إلا أننى أكن لهم الاحترام وأنا أقوم بخدماتى لكافة أفراد عائلة زوجى فأنجز المشاوير وأعمال البيت وأجلب

أويزيد وعدد سكان مدن حضرية يبلغ مائة ألف فقط لذا نجد أن المجموع الحقيقى للنخبة لايزيد فقط عن ألف شخص ينتمون إلى ثقافة حقيقية وكم من صعوبات ووجهت لتكوين تلك النشرة الاجتماعية الضئيلة التى لايكاد يشعر بها أحد. وفى مدينة مثل بورترنوفو مايوقف التقدم ممكن أن نتخيل مسبقا إلا وهو «جمود» المجتمع التقليدى» المتنوع» أوعلى الأقل ثلاثى الإصلاح منها قبائل الجون المنحدرون من جذور فلاحى داهومى الوافدين على المدن وقبائل الباروبا وهم تجار من جذور نيچيريا المجاورة وأخيرا السود العائدين من البرازيل وغالبا من المسيحيين وأحيانا يكونوا قد تم تحويلهم إلى العقيدة الإسلامية على أثر مغامرات تثير الدهشة ولكل مجموعة من هذه المجموعات أنماطها الخاصة فى جميع المجالات مثل لون البشرة والمعتقدات المؤثرة وأشكال المقاومة وكل واحدة منها لديها نسلها ونسبها ولنتخيل أنه على أساس من هذه الأنساب والأنسال تتحدد وتتجمع مواقع الإمامة والمنازل وعلى أساسها تتم زيجات الزواج بل وتمارس العقائد الدينية. وعلى هدى هذا الرباط الاجتماعى الذى هو الديانة نذكرما أورده بشأن هذا النوع من الترابط واحد من المبشرين الموفدين إلى مدينة بورتونوفو: نحن أمام مؤسسة منشأة جميلة فى طريقها إلى الزوال ويضيف لكى لاأقول ديانة جميلة. وكانت المرأة أول من ثارت على قاعدة الأنساب والنسل وهى اليوم تتمتع بالارتباط الزواجى باختيارها إلا أن هذا التحرر مازال قابعا فى ماضى تعدد الزوجات ومحافظا عليه بشدة. ولقد ذكرت إحدى النساء وهى تبوح بسرها عندما فكر زوجها فى الارتباط بالزواج بزوجات أخريات: «عهد إلىّ بالنقود لأننى كنت الزوجة الأولى وكنت أقوم بتوزيع النقود على شريكاتى الزوجات» وقد كنت أنا التى اختارت لزوجى زوجتيه اللتين اتخذهما زوجات بعد سنوات من زواجنا وشريكاتى يحيوننى بالانحناء على مفاصل أقدامهم ويقومون بأداء كل ما آمرهم به من أعمال» . وامرأة أخرى تقول: «إننى أقوم بتحية زوجى بالانحناء أمامه على ركبتى وكذلك أفعل أمام حماتى والأعمام والخالات والأشقاء والشقيقات الأكبر لزوجى ولكن لا أنحنى أمام الإخوة والشقيقات الأصغر إلا أننى أكن لهم الاحترام وأنا أقوم بخدماتى لكافة أفراد عائلة زوجى فأنجز المشاوير وأعمال البيت وأجلب

الماء للجميع وأذهب للسوق وأقوم بطحن التوابل (الفلفل) وعندما أقوم بتحضير الغذاء أقوم من وقت لآخر بتقديم بعض من الأكل الذى قمت بطهوه إلى واحدة من الخالات أوواحد من أشقاء زوجي وإلى حماتي وحماي». ولنتصور أحد «المتطورين» وسط مثل هذه التقاليد والعادات ويظل نصف قروى وهو ينغمس فى هذه العادات الجديدة العصرية المكتسبة من الخارج وتلك الطقوس التى لم تفقد كل معانيها بالنسبة له بين ارتباط عائلى والإذعان المستحيل.

والذى يدفع كل شيء أمامه هو المحيط العصرى للمدن والعمل والمدرسة بل وحتى المشاهد فى الشارع بينما وعلى مبعدة من المدينة نجد أن كل شيء يظل قابعاً بعناد وإصرار لايتحرك ونذكرأقوال واحدة من « المتطورات» وتعمل خياطة تدربت على الحرمة عند راهبات مدينة كوتونو وبعد ذلك تزوجت موظفاً إدارياً وهى سعيدة بورشتها وعملائها (زبائنها) وبعد عام من الزواج تم نقل زوجى إلى شمال البلاد حيث لم يعد لى عمل أقوم به لأن النساء هنا يرتدون أوراق الأشجار أويمشون عرايا وأخيرا تبدلت مشاعر زوجى العاطفية وأقطن منذ عام فى مدينة بورتونوفو واشترى زوجى لى ماكنية خياطة أخرى. وفى سياق مثل تلك الاعترافات لنتخيل تلك النساء الأنيقات من قاطنات المدن أمام رجل من دكاد ملتف فى متكور فى قماش أبيض رائع . ترى مثل تلك الجريئات العصريات قاطنات المدن ولاشك أقل شاعرية من قاطنات المساكن القديمة فى جزيرة جورية المواجهة ولكن يتبعن الموضة فتتابعهم النظرات. وانطلق الحوار بين الريف والحضر (القرى الريفية والمدن) وهو حوار قديم قدم الزمان بين الحضارات الرفيعة والثقافات الدنيا ولكن لاتمثل المدن سوى قشرة رقيقة أو كسرة صغيرة من العالم الأسود وستكون سرعة تطوره نحو التقدم آخر الأمر مرتهنة بقوة الدفع لدى تلك المظاهر الحضارية العصرية ومرتهنة كذلك بما يحتمل أن تثيره من معوقات. وقد أثبتت الحكومات المستقلة صلاحيتها وتماسكها المتوقع إزاء انتقالها من الاستعمار إلى الاستقلال. كما أن الظاهرة عامة تجد الواقع يسفر عن أن هذه الحكومات المستقلة وجدت صبراً غير محدود من جانب المحكومين يكاد يفوق مظاهر خضوع رعايا لويس الرابع عشر بالأمس وهو الذى لقب بالملك الشمسى

ذلك أن الحكم وممارسته فى أفريقيا السوداء إنما يعنى بالضرورة السيطرة والتسيد ومن كان يصدق أن الحكم وممارسته لايحدث التآكل بل يجدد الشباب وينعش ولاشك، فالرئيس تويمار رئيس دولة ليبريا فى موقعه سيدا للبلاد منذ عام ١٩٤٤ ويحكم حتى عام ١٩٦٢ إن ذلك يعد استثمارا طيباً لصالحه ولاشك أن السلطة هنا جوهراً منفرداً يحميها من مثل تلك الانتقاضات وعدم الاستقرار الذى تزخر به المجتمعات الأوروبية وقد نقول إنه جوهر سنة ملكى.

وعلى أى حال نجد على قاعدة تمثال أو ساچتيبفو ومعناها المنتصر دائما فى غانا وعن الرئيس نيكروما نقرأ تلك الحكمة التى تقول «ابحث أولا عن المملكة السياسية أماالباقى فسوف يأتيك من تلقاء نفسه» أى باختصار يعنى: السياسة أولا، إذن فالأمر هو الاستحواذ على السلطة ثم المحافظة عليها والسلطة لاتتجزأ ومن النادر السيطرة عليها ولامسوغ لقيام المعارضة على الإطلاق فإذ ماحاولت التعبير عن نفسها فإنما يعنى ذلك أنها تجرى وراء حتفها.. هكذا تقول لنا تجربة كل من غانا وسيرليون وغينيا بكل قسوة وهانحن اليوم نرى جماعات من الشباب المثقف عارضوا الحكومات الدكتاتورية فى بلادهم سائرين فى شوارع أوروبا أوتراهم متفرقين على مدرجات الجامعات الأمريكية اللهم إلا إذا ماكانوا من السفراء المغضوب عليهم ورأوا من الأسلم ألا يعودوا إلى بلادهم وتلك حالة لاتوافق أذواقنا ولاطبائعنا نحن الغربيين ومن هنا نجد كلمة رئيس وزراء السنغال فى نفس السياق. إن الغانوقراطيا (مشتقة من ديمقراطية غانا) لاتثير اهتماماتنا بأى حـــال. وهذا مثل واضح يدل على أن أفريقيا ولو على الصعيد السياسى ليست متماثلة. غير أنه يجب علينا الاعتراف بأن على أغلب الحكومات التحلى بقدر كبير من الحكمة حتى لاتستسلم أمام مايفرض نفسه عليها ويكاد ينبع من تلقاء نفسه، فإذا ما أردنا نحن الأوروبيين أن نكون عادلين نحو هذه الحكومات التى تضللنا وتحيرنا وجب علينا أن نتنبه إلى محدودية الطبقة الحاكمة حول سادة أفريقيا السوداء إنهم نفس الرجال القلائل الذين يتحركون مثيرين للقلاقل وهم أقل عددا بكثير ممن كانوا حول رينيه دانجو أوفيليب الطيب فيما مضى، فبلد مثل ليبيريا يديرها فى الواقع ٢٪ من «الأفرو اميريكان» أى أفارقة متأمريكون أو

أمريكيون عاشوا فى أفريقيا ولا يمكن الجزم بأنهم كلهم كانوا موظفين مشغولين ويظل أغلب السكان ما بين خمول خارج مانطلق عليه النطاق الشرعى ولايعنى ذلك أن هذه الجماعات المحدودة تظل غير منقسمة فهى فى الواقع فى تشابك دائم ذلك أن التحركات النشطة والانتفاضات غير المتوقعة لها عذرها ومسوغاتها. ومن جهة أخرى إذا كان الحكم يواجه قليلا من المشاكل السياسية فإن مشاكله الإدارية ليست قليلة، منها مثلا تهيئة السكان لمسار حضارى يستوجب بدايةً اقناعهم به ثم تدريبهم عليه ولما حاولت بعض الحكومات المعنية ممارسة هذه التجربة وهذه هى المهمة الشاقة انزلقت أقدامها فى اللعبة، وهى لعبة الريماجوبية (الغوثمائية) ذلك أنها لكى تدير شئون الحكم بصورة فعالة تحتاج إلى رجال وتحتاج إلى كادرات (مستويات عاملة) وتحتاج كذلك إلى إخلاص لاتشوبه شائبة ونظام دقيق لكى تعيد البناء من جديد كما تحتاج إلى رؤوس أموال وإلى استثمارات مقدرة على أسس حسابات معدة إعدادا دقيقا وكل ذلك فى إطارمن «التعقل» والأخير هو الأكثر ندرة فى كل بلاد الدنيا ففى غينيا التى تعد من أقدم الممتلكات الفرنسية التى اختارت الحرية والاستقلال حين حققت حكومة الجنرال ديجول هذا الاختيار لغينيا عام ١٩٥٨ لم تكن الخطة الثلاثية التى أعدتها حكومة سيكوتوريه ذات الاتجاه الاشتراكى هى الخطأ أوهى بالخطة الرديئة وإنما كان الخطأ يكمن فى أنها خطة جاهزة أعدت إعدادا مسبقا على ضوء معايير اقتصادية ومجموعات أرقام بينما المجتمع التقليدى هو العنصر الذى كان من الضرورى أخذه فى الاعتبار دائما قبل التخطيط له . فإذا ماذكرنا كيف فشلت الواحدة تلو الأخرى من تلك المؤسسات الحكومية المكلفة بعمليات استيراد المنتجات الخارجية إذ تخصصت اليماج فى استيراد المواد الغذائية عموما وتخصصت مؤسسة ليبرايور فى استيراد الورق والأدوات المكتبية ومؤسسة إيمانيك فى المواد والأجهزة التقنية. وتخصصت مؤسسة فرما عيينا فى استيراد المنتجات الطبية والصيدلية وكما كان نفس الحال بالنسبة إلى باقى الشركات الشقيقة، ولحق بكل منها الفشل وتراكمت خساراتها فضلا عن الفضائح الداخلية (أو الخارجية) كل ذلك راجع إلى أن النظام ذاته لم يكن محسوباً على أساس العنصر البشرى الغينى، ولم يكن الأمر افتراضا بوجود

رجال أمناء ومثقفين بل كان يحتاج إلى طبقة وبصفة خاصة قادرة وذات كفاءة بأعداد وفيرة حسب المقتضيات.. وهنا تبرز الحاجة الضرورية لتشكيل وإعداد كل هذه العناصر اللازمة لنجاح نقل أى مجمتع نحو النظام الاشتراكى.. ومرة أخيرة تشكيل وإعداد مسبق لهذه العناصر.

تجارب المخاطر الاقتصادية والاجتماعية

لايزال مصير الدول السوداء غير معروف لسوء التخطيط المرسوم فمازالت على رقعة شطرنج العالم مباريات تجرى بكل همة وتحوطها الخدع والأوهام. ومن بين تلك المباريات الناجحة يقينا نضع النزعات التوسعية والاستعمارية ذات المرمى القصير تجاه الجار المباشر. وقد ذكرنا تلك التقسيمات والمقتطعات الاصطناعية كما سبق أن شبهناها ولم نؤيدها على أى حال ويقدرما فالمغرب تطالب بكل أراضى موريتانيا كما تطالب ب «ريودى أورو» وإفنى وجزء من صحراء الجزائر ترنو وغينيا التى تحكمها سيكونورية نحو سيراليون المكتظة بالسكان ، كما أن لدى غانا المشتق اسمها من اسم الامبراطورية الكبرى المفقودة ادعاءاتها التاريخية لتسويغ رغبتها فى التآلف وضم توجو وساحل العاج ونجد مالى ذات الاسم المعبر تراودها الأحلام لضم فولتا العليا فى دولة فيدرالية مشتركة مع النيجر وكذا الاستيلاء على جزء من الصحراء الجزائرية وكل واحدة من هذه البلاد يستطيع تقديم البراهين الدالة على «حقوقه» فيما يطالب به، كما أن هناك مباراة أكثر ضراوة ونقصد بها ماأسفر عنه مؤتمر عام ١٩٦١ من روح عدائية بين مجموعتين من الدول ثم مؤتمر الدار البيضاء حيث كان المغرب وغانا والجمهورية العربية المتحدة وانفصال سوريا بعد وحدتها مع مصر وغينيا ومالى ووصفوا بكل تأكيد «بالمتطرفين» ومن جهة أخرى فى المواجهة مجموعة مونروفيا أى: تونس وليبيا وموريتانيا والسنغال

وسيراليون وليبيريا وساحل العاج وفولتا العليا ونيجيريا والنيجر وتشاد والكاميرون وأفريقيا الوسطى والجابون والكونغو برازافيل وأثيوبيا والصومال ومدغشقر وفيما مايطلق عليهم بالدول المعتدلة «العقلاء أو الحكماء». وليس من دليل على أن هذه التصنيفات سوف تظل متماسكة فسوف يتحقق استقلال الجزائر القريب ويجلب معه عنصرا جديداً كعامل لايمكن التكهن بآثاره ونتائجه ، ولاتزال حلية الصراع مفتوحة بما فيها من رغبة فى الوحدة أو البحث عن الوحدة على الأقل وكان ذلك على أى حال ماأسفر عنه مؤتمر ثالث انعقد فى لاجوس فى بداية فبراير ١٩٦٢ وقد أساءت حكومة نيجيريا إعداده فلحقه الفشل حيث اصطدمت مجموعة «برازافيل» الاثنتا عشرة وفوجئت بمعارضة مجموعة الدار البيضاء التى وجدت فى (عدم دعوة) مسوغاً قويا لموقفها.

ولاشك أن مايحدث لايعدو أن يكون مجازفات خطيرة معقدة فما من مجاهر بالمطالبة بتوحيد أفريقيا كلها من حيث المبدأ ولكن هذه الوحدة تظل موضوعا يمكن التفاهم «عليه بشتى الطرق فالرئيس نكروما يرغب فى إنهاء الاستعمار الأوروبى أوما تبقى منه مع آخر ديسمبر ١٩٦٢ وفى الوقت نفسه يرغب فى الاستحواذ بهذه المناداة على «موقف زعامة» لشخصه تظهره بمظهر الرجل القوى إلا أن الدول الأخرى تبدو غير مستعدة لمنحه هذه الميزة وقد وضح ذلك خلال المباحثات التمهيدية لتوحيد كل من غانا وغينيا ومن الصعب اليوم التكهن بأى من المجموعات يمكنها أن تفرض على غيرها الوحدة المشتركة. وعموما فإن السيطرة وهى بقدرما مشكلة قدرة وقوى حقيقية وفاعلة تستطيع أن تفرض رغباتها على الآخرين بقدرما هى مسألة حكمة أكثر مما هى مسأله خشونة وعنف وإملاء وإذا ماطرقنا أمر توافر الرجال ومايمثله من ثراء فى توازن قارة قليلة السكان فسنجد بكل تأكيد أفريقيا الناطقة بالإنجليزية هى الفائزة بفضل وفرة الكثافة السكانية والمدن فى غانا وسيراليون ونيجيريا حيث يكمن النجاح والتقدم فى المدن فنجد مثلا أن أكبر مدن أفريقيا السوداء هى مدن نيجيريا حيث تستوعب مدينة لاجوس أكثر من ٣٠٠ ألف من السكان ومدينة كإيبادان أكثر من نصف مليون نسمة أما الدول الإفريقية الناطقة بالفرنسية ماعدا غينيا فها قد رأينا مالى تعقد اتفاقا مع باريس بشأن برنامج اقتصادى يرتكز على مقدرة السوق المشتركة

وهو مالاتقبله دول مثل نيجيريا أوغانا ولو انضمت إنجلترا نفسها إلى هذه السوق المشتركة الأوروبية وتتفوق دول أفريقيا المتحدة بالفرنسية رغم ضعف كثافة سكانها وبطبقات وشخوص (وكادرات) من المثقفين لها قيمتها حيث نجد التعليم مزدهرا ويمنح أكبر الدفعات ـ ولنعد إلى حديثنا السابق عن المدن وعلماء وخبراء الجغرافيا إذ يقولون ويكررون بأن أى مدينة وحدها هى مركز قوة بما تتمتع به من «موقع جغرافى» ويطلقون على سبيل المثال على مدينة راكار ذات الطابع الإمبراطورى المدينة الدولية فهى تطل على المحيط الأطلنطى جنوبا وتتحكم فيه كما تقع فيما وراء المدار الجوى المستعرض الأفريقى ولاشك أن هناك احتمالا بأن كل ذلك يتغير بإيقاع الاتصالات الدولية وقد يتأكد. وأليست المباراة الحقيقية هى التطور على صعيد القوى والعدد والتقدم الاقتصادى؟ ذلك أن اقتصاد القارة الأفريقية الذى يعد متخلفا جدا إنما ينتج منتجات مناجم ومنتجات بدائية (غير مشكلة وذلك إذا مااستثنينا معاصر الزيوت السنغالية أو مصانع الألمنيوم فى غينيا وتشترى دول القارة المنتجات الصناعية وكل شىء يخضع وهذا بدهى لرغبات المشترين والموردين ومطالبهم وفق الظروف القياسية والعادية للموازين التجارية وإمكانيات التنمية والاستثمارات السنوية، وهى عوامل تظل متواضعة جداً ويصبح ماتحرزه من تقدم بطيئا ويوقع محاولة التغلب على هذا البطء بعض الدول فى أسر الاعتمادات والفروض التى تفتح الباب إلى الوقوع فى نطاق التبعيات المباشرة أرادت تلك الدول أم أبت، فإذا ماقام الاتحاد السوفيتى بتوريد القضبان اللازمة للطريق بين «كوناكرى وكان» كان هو يحتاج إلى إعادة كاملة لإقامته برزت فورا مشكلة الفنيين اللازمين لتشغيله، ومشكلة عمال السكك الحديدية ونقاباتهم. وإذا ما أرادت داهو مى إنشاء كلية كبيرة لايستطيع إنشاءها إلا على أساس المقاييس التعليمية الفرنسية وسرعان ماتجد نفسها فى مسيس الحاجة إلى أساتذة لملىء الجهاز التعليمى وإلى الاعتمادات التى ترد من فرنسا لتسيير العملية التعليمية كما هى العادة فيما تعودته داهومى منذ بدأت نظم التعليم فيها تماماً كحاجتها إلى خبراء التقنيات والمدرسين المعلمين للمدارس الثانوية.

وعليه فإن أفريقيا السوداء لاتستطيع الكف عن استجداد العون والمساعدة من الكتلتين الصناعيتين ولا تنسى الكتلة الثالثة ونقصد بها كتلة الدول الصيفية التى

تقدم وتعرض خدماتها أشبه بروح «صليبية» تصحبها دائما إرساليات بشرية كثيفة ولعل في وفرة عدد سكان الصين مايفسر تلك الجموع الكثيرة التي تصاحب كل معونة تقدم. وإذا أخذنا أحد هذه الحلول أو أخذناها كلها معاً باستثناء كبرى مشروعات في الأشغال العامة حيث يفتقد ماقد نسميه خططا اقتصادية منظورة فلن تكفي هذه التضحيات شبه المذهلة التي وافقت عليها النيجر مؤخرا بمناسبة عيدها القومي (١٩ ديسمبر ١٩٦١) عيد استقلالها ومنها: تخفيض مرتبات أعضاء الحكومة وإلغاء استخدام السيارات في الشئون الإدارية ووقف أجور ساعات العمل الإضافية وزيادة الضرائب وكل هذه التضحيات فالأمر يحتاج إلى خبراء تسيير دولاب العمل. وقد اضطرت دول كدولة مالي بعد انفصالها بالأمس عن السنغال إلى الصمود فأنقذتها جمهورية بون بكميات هائلة من الشاحنات التي أمنت الطريق المؤدي إلى كانكان وفيما بعد المحيط سكك حديد كوناكري وبعد فإن كل معدات الدنيا لاتعني شيئا بالنسبة إلى تلك الدول دون وجود الشخوص (الكادرات طبقات) من العمال الفنيين القادرين على استخدامها وترتبط هذه المشكلة بتطور داخلي مسبق مصحوبا بمجهود واع فعال.

وقد قام صحفي سويسري بنقل حديث دار بينه وبين أحد الخبراء الفنيين التشيكوسلافيكين في غينيا تحت حكم نظام الرئيس سيكولوزي ذي الميول الاشتراكية: قال الخبير إن الفرنسيين كانوا يتفوقون علينا بميزة خلاصتها أنهم كانوا يستطيعون إصدار الأوامر وقد وقع مثالا بالأمس لسيارتي طارئ فجائي بعطل في البطارية.. عطل بسيط ولم يستمعوا إلى الإداري في الجراج فأسرع العامل الإفريقي الأسود بلمس الكاربيراتير.. إنها عادة غير معقولة لديهم تدفعهم إلى الانقضاض فورا على كل ماهو دقيق والنتيجة أني منذ ذلك الوقت أسير على قدمي ويبدو أن تلك الحالة ستدوم وقتاطويلا أما لووقع الحادث لفرنسي لأسرع يجنح صائحا بصوت مرتفع بينما لا يحق لنا ذلك وإن كان مفيدا يقينا تحت هذه السماء. وفي تلك الأجواء المشبعة بالرطوبة ولست أدري أو أستسيغ كيف تمسكت إنجلترا وفرنسا وارتبطت كل منها وتشبثت بمثل هذا العبء الثقيل، وعموما فلدي التزامات بعقد لمدة عام وسوف أكون سعيدا عندما ينتهي العقد إذ سيكون في استطاعتي المغادرة دون إبلاغ أحد بذلك إن الأمر بكل تأكيد ومستحيل وفوق كل

احتمال وعموما فليس مايحدث سوى دراما اجتماعية صغيرة مغزاها فقط فى كلمتين، مامن ثقافة تفيد إلا إذا تقبلها المتلقى بحماس وترحاب. وصورة أخرى يجب علينا وضعها فى مقابل الصورة التى ذكرناها حتى لانتهم بتحريف المعنى: اكتشف مدرس فرنسى من الموفدين إلى الكوت دى فوار (ساحل العاج) فى أكتوبر ١٩٦١ وهو منبهر وفى نشوة هذا الظمأ غير العادى للتعلم والثقافة وسرعة التطبيق التلقائى الذكى لدى طلبة من الصف الرابع والثالث أنهم يعرفون أبناء أفريقيا الغد.

الفنون والآداب

ترى أية دلالة وأية علامـة مميزة يضفيها الفن والأدب على هذا العالم الذى تدب فى أوصاله الحركة وفى خضم تلك التمزقات والتقسيمات التى تدفع به إلى هنا وتبعده إلى هناك.. اليوم وغداً.

يلحظ المراقب أن الفن الأصيل الذى لم يطرأ عليه تغيير ويتباهى به الغرب كالأقنعة والبرونزيات والعاجيات والأخشاب المنحوتة .. يتدهور اليوم تحت أعيننابل يمكن القول إنه فن اندثر وكما يقولون وهو فى جزئياته صحيح أن الطبقات الاجتماعية والدينية منها خاصة ينبع فيها ومنها الفن.. كل الفنون ومنذ الأزمنة السحيقة ولكن هذه الطبقات كلها إما اندثرت أوفى طريقها إلى الاندثار تحت وطأة الصدام العنيف المتكرر الذى جاءت به الحضارة العصرية..الحضارة الصناعية؟ وعلى أى حال فإن الواقع يشير إلى أن قارة إفريقية تبتعد عنا بأزهازيجها وأغانيها ورقصاتها ومفاهيمها الفنية وعقائدها الدينية وأحاديثها الشعبية التى تتغنى بها أحيانا ويتناولها الرواة أحيانا أخرى ومأثوراتها من الزمن الذى ولى ..الزمن المفقود الزمن الضائع.. زمن الرجال وعصره وعالمه، عالم النباتات وعالم الحيوانات وعالم الأرباب والآلهة وإجمالا.. حضارة تقليدية بكل ماتعنيه..حضارة سوف تكتسح كلما تسارعت خطوات التدهور السارى وهو

بالاشك مانعرفه نحن فى الغرب من واقع التجارب بفضل تمكن أوروبا بماضيها التقليدى من الاحتفاظ بأكثر من أثرمن آثارها وماتزال على الاعتزاز والتعلق به فى قلوب أبنائها دون أن تعى أوتعرف ذلك أحيانا كثيرة ونتساءل بدورنا عما عسى أن تتمكن أفريقيا من الاحتفاظ به من ماضيها السحيق التليد.. من حضارتها السابقة؟ ذلك أن يرجع بنا إلى حضارة مفقودة عتيقة أقدم من تلك التى نرى اليوم بأعيننا بعض آثارها وكذلك ماتبقى من آدابها هذه الآداب التى نرى اليوم كيف حلت محلها محاولات أدبية شابة غربية السمة على الأقل باستخدام اللغات الأوروبية فى كتابتها ونجد فيما ندر بعض تلك المحاولات الأدبية الإفريقية باللغات الإفريقية الشفهية حيث لازالت صعوبات النسخ الذى تأخر لصعوبة تدوين هذه اللغات الإفريقية القديمة وتعود بنا هذه التطورات فى مجالات المحاولات الأدبية إلى الطرف الآخر لمرحلة التطور الأسود أوماسوف تكون عليه هذه الموجة من التطور عند مايتمكن أغلب الإفريقيين من رؤية النور ،أى حين يتمكن يتقدمون أشواطا كثيرة تطويرا وتنمية ولاشك أن هذه المحاولات الأدبية الناهضة إنما تعكس الواقع الإفريقى فى نظر هذه الفئات المتطورة من المثقفين الأفارقة اليوم وهم يلقون بأنوارهم الذاتية على تلك المحاولات من مضامين أصيلة كامنة فى أعماقهم يصوغون منها القصص والحكايات الزاخرة بكل ماهو مستخلص من جذورهم ومفعم بالحيوية والجمال.. أنوار جديدة علينا نحن.. طبعا لكنها بالنسبة إليهم بمنزلة استعادة لمشاعرهم نحو جذورهم وأسلافهم الأوائل.

وذلك إذا ما قرأنا على سبيل المثال القصص الجديدة لأمادوكومبا وكتب ذلك الكاتب المشهور بيراجو ديوب ونجد أن مادة كتبهم يعود للأمس على حين ينحصر الشكل بين سردجاف ولكن متوازن ومحتوى طبقا لقواعد الفن الأدبى وليست مؤلفاتهم كما كتب جان ديڤوچند يقول: هذه الجثة المفقودة للحكايات والقصص الشعبية وحتى أشكالها ذات السمات الغربية تعبر وحدها عن مشاعر وأحاسيس أدب مقتطع من جذور هذه المجتمعات طالما ظلت تحلم بهذه الجذور كأحلام أوائل الكتاب اللاتين فى زمن الغال حيث تتحدد ساعة انبثاق حركة أدبية جديدة للسود أو الكتاب أفريقيا أوللعالم الجديد بسمة من سمات واحدة أى بلغة غربية من

الفرنسية أوالإنجليزية أو الأسبانية أو البرتغالية بقلم لانجستون وريتشارد رانب وإيميه سيزار وسنجور (رئيس جمهورية السنغال) وديوب وفانو وجليسان وأديونو وديوليه وكاماراالى أوأين تدق هذه الساعة حيث يجب ألانتحدث عن الخيانة بل على العكس من ذلك الارتباط العاطفى فوق المسافة الاضطرارية بالمراحل التى أجتيزت. لقد عدلوا المسارات العميقة لشخصياتهم كما نكرجاد دافينيو بالقدر الذى تصبح فيه إحدى اللغات مثلاً واحداً من الثنائنات ونمط من أنماط البقاء وفى نطاق هذا التحول تذبل وتموت إلى الأبد: قصص الأساطير، ولكن ليست اللغة التغيير الوحيد الذى عاناه هؤلاء الرجال فى دوامة التشابكات كما جاء فى قصة «الصبى الأسود للمؤلف كاماراليى وهى قصة قروى شاب وابن أسرة كبيرة من الحدادين درس فى باريس ووالدته ظلت عاجزة عن التعبير بسبب أسفاره المتلاحقة وتداعى أفكارها بين مدرسة كوروسا مدرسة القرية والطريق منها إلى كوناكرى ثم إلى باريس وفرنسا. وعلى مدى ذلك الوقت إذ كثيرا ما ناسلت وكافحت ودفعت أمامها تلك العجلة ثم عجلة أخرى وثالثة عجلات أخرى لم يرها أحد.. ماذا فعل الناس لوقف تلك العجلات من الدوران والتشابك ولم يكن فى مقدورها غير النظر إليها وهى تجرى وتتحرك كما يتحرك ويجرى مصيرها ، مصير ابنها الذى كان عليه أن يسافر .

نعم هنا حضارة جديدة تبزغ مهما كان هذا البزوغ صالحاً أم طالحاً حضارة هاشة أو آمنة مؤمنة إزاء مستقبل حياة قديمة نابعة من حضارة قديمة تقليدية مفعمة بالحيوية ودائما مغذية مطعمة وهنا تكمن النقطة الهامة: ذلك أن أفريقيا فى طريقها إلى إهمال حضارة عمرها ألف سنة ومع ذلك فلن تفقد إفريقيا حضارتها الخاصة والنابعة من جذورها وستظل دائما حتى مع انقساماتها وتمزقاتها إحدى تلك الحضارات الخاصة ذات الخاصية التى تتميز بمشاعر سيكولوجية ذاتية وأذواق وذكريات خاصة بها مشاعر عميقة الجذور تضم ماهو صالح كى يكون مذاقا خاصا سيكولوجية كما يقول سنجق: فارضة نتحكم فى مواقف عاطفية فى مواجهة عالم يجعل من العالم الأسطورى أكثر واقعا من العالم الظاهر فى عيون الإفريقى الأسود وأكثر واقعية من هذا العالم المرأى أمام أعينهم، ومن المثير للدهشة أن

الغالبية العظمى من الكتاب الأفارقة ذوى الميول والسمات الغربية هم أكثر المتعلقين بخدورهم بإصرار مذهل. ولنأخذ بعض سطور قصة الطفل الأسود حيث نقرأ فيها، وهو يتحدث عن العطايا الباهرة شبه الأسطورية التى وهبتها له أمه فيقول: هذه العطايا العجيبة التى تتراءى لى اليوم كأحلام أسطورية لماض سحيق.. وبرغم ذلك فهو ماض أشعر بأنه قريب منى بل ويعود إلى الأمس ومع ذلك فالعالم يتحرك والدنيا تتغير وعالمى يتحرك ولعله أسرع مما تتحرك العوالم الأخرى بحيث أحس أننا لم نعد من كنا بالأمس ولم نعد حقا كما كنا بالأمس إذ بينما تتجمع فيه كل هذه المعجزات أمام عيوننا وتحت أبصارنا، تراودنى الأحلام فى شعار قبيلتى .. قبيله أجدادى إذ برغم أن لى طوطمى (العلامة والرمز الوثنى المميز للقبيلة) فأكاد اليوم لاأعرفه.. هل هناك أفضل مما ذكرنا لشرح هذا التمزق وهذه الانفصالية عن الجذور وبالغرابة الأمر مع التمسك والتشبث بها؟ يسترسل الكاتب فى سياق سطور قصته: إننى أتردد فى ذكر تلك القوة الروحانية التى كانت تتدفق من أعماق أمى ولست أرغب فى وصفها كلها وأن أعرف أن روايتى ستكون موضع كثير من الشكوك بل حتى أنا نفسى عندما أستعيدها لاأعرف كيف أتقبلها أوكيف يجب علىّ أن أتلقاها ذلك لأنها تبدو لى اليوم كأنما لاتصدق.. أمور غير قابلة للتصديق ومع ذلك يكفى أن أتذكرما رأيت.مارأته عيناى.. هذه الأشياء التى لاتصدق..رأيتها وأستعيد رؤيتها كما كنت أراها ثم أليس هناك دائما أحداث وأشياء لايمكن وصفها أوتفسيرها؟ وعندنا كثيرا مانجد أشياء لايمكن وصفها وكانت أمى تعيش فى صحبتها الودودة اللصيقة.

حاشية (١٩٦٦)

خفت حدة الصراعات بين التكتلات السياسية الأفريقية على أثر استقلال الجزائر الذى تم باتفاقيات إيفيان فى ١٩مارس ١٩٦٢ وقبول عضوية موريتانيا فى الأمم المتحدة فى ٢٧ أكتوبر ١٩٦١ . وقد كان لذلك ثماره الإيجابية التى اتضحت عام ١٩٦٣ فى مؤتمر أديس أبابا الذى عقد فى ٢٥ مايو من نفس العام حيث كان التوقيع على إنشاء منظمة الوحدة الأفريقية والاعتراف بكل الحدود السياسية الموروثة عن الماضى الاستعمارى وفى هذا المؤتمر اتخذت عدة قرارات بإجراءات معينة ضد البرتغال. وفى المؤتمر الذى عقد بدار السلام (فبراير ١٩٦٤) بمناسبة نشوء حركة التمرد فى تنجانيقا والمؤتمر الذى عقد بالقاهرة (يوليو١٩٦٤) بدت منظمة الوحدة الأفريقية الوليدة قادرة على توحيد مجموعات الدار البيضاء القديمة فى نوع من الإنتاج بين مونروفيا والوحدة الأفريقية ومالاجاش وقد أحرز ذلك بضربة حظ سعيد إلا فيما يتعلق بالكونغو البلچيكى السابق وربما تحققف له هذه الخطوة بسرعة شديدة عام ١٩٦٠مما جعله منذئذ يعانى أزمات وعدم استقرار وتسوده حياة معيشية مأساوية مما أدى إلى تدخل من جانب الأمم المتحدة واغتيال لوممبا وانفصال إقليم كاتنجاه وظهور تشومبى على مسرح الأحداث المتلاحقة التى صحبتها حركات التمرد من جانب القبائل. وفى الوجه المقابل

اندلعت ثورة فى زنزيبار فى يناير ١٩٦٤ .. ثورة على النمط الصينى مما يثبت أن المشكلة الأفريقية ذات أبعاد دولية يشترك فيها العالم كله.

وفى أبريل ١٩٦٤ تتحد كل من تنجانيقا وزنزيبار فى دولة واحدة ومنذ نوفمبر اتخذت الدولة الجديدة اسم تنزانيا حيث يتصارع فيها كل من النفوذ السوفيتى والنفوذ الصينى للفوز بالمكانة الأولى.

كما نشأت دولة مستقلة جديدة وهى نياسالا التى أصبحت مالاوى فيما بعد.

وكانت التحركات البارزة حاليا على السطح (فبراير١٩٦٥)(٢) هى مابرز خلال مؤتمر نواكشوت وتتلخص فى محاولة تجميع دول أفريقيا الناطقة بالفرنسية . وهى الدول التى تكافح من التسلل والتسرب الصينى المتزايد والانفتاح على الدول الرأسمالية وهو ماكان رغبة لم تتقرر بعد بشكل حاسم .أشبه بالقلق المستتر.

وتضافرت أحداث كثيرة كالصعوبات والعقبات التى تواجه أنظمة الحكم ذات الميول (التوجهات) الاشتراكية وكتدهور المجتمعات الأفريقية وتخلفها المستمرين والتخلى عن الآمال والطموحات الثورية التى كانت فيما مضى مشاعر حية تراود النخبة من المثقفين الأفارقة السود كل هذه المشاكل والتحركات أثارت انعكاساً وردود أفعال عديدة خلال أعوام ١٩٦٥ ، ١٩٦٦ أعقبها موجة من الانقلابات العسكرية فينهار فى غانا نظام حكم نكرومالصالح مجلس عسكرى ويختفى فى نيجيريا نظام الحكم البرلمانى الفيدرالى الذى ثبت أقدامه مع أحداث الاستقلال ويختفى إثر انقلاب دبره وقاده الجنرال إيرونسى كما تندلع أزمة مفاجئة فى جمهورية وسط أفريقيا ليلة ٣١ ديسمبر ومع تباشير الساعات الأولى لعام ١٩٦٦ يستولى على مقاليد الحكم أحد جنرالات (كولونيل) الجيش ويقوم فى داهومى الجنرال سوجلو بطرد كل الحكام السابقين الذين تعاقبوا على السلطة من المدنيين منذ الاستقلال وتنهار الحكومة فى فولتا العليا بعد ستة أعوام من الاستقرار تحت حكم الرئيس ياميوجو أمام فريق من الضباط العسكريين. وفى الكونغو البلچيكى السابق قام قائد الجيش الجنرال موبوتو بإرساء قواعد حكمه الديكتاتورى. وقد أدى ذلك كله بهذه الدول الإفريقية فى ظروفها الراهنة وفى مواجهة القلاقل والاضطرابات والفوضى السياسية إلى عجز أغلبها عن مواجهة الأحداث أو علاجها.. ولم تستطع المساهمة فى إحياء منظمة الوحدة الأفريقية التى نشأت فى

الخامس والعشرين من مايو١٩٦٣ فى مؤتمر أديس أبابا فلم تتمكن الدول الأفريقية بسبب هذا الواقع الأليم من الوقوف فى وجه حكومة الأقلية من المتمردين البيض فى روديسيا برئاسة أيان سميث وكذلك لم تستطع الدول الأفريقية المستقلة تقديم العون وانقاذ جيرانهم الأفارقة فى صراعهم مع السيطرة البرتغالية وكان صراعاً صعبا لاينبئ بفوز عاجل فى كل من أنجولا وموزمبيق إلا أن الصراع كان أفعل وأكثر حزماً فى غينيا.

الهوامش:

(١) من الأحياء الشهيرة فى باريس حيث نجد تجمعات المثقفين والجامعات.

(٢) مرة ثانية نذكر أن الكاتب ألف كتابه عن تاريخ الحضارات فى مستقبل الستينيات لذا لزم التنويه واعتقد أنه كتبه فى ١٩٦١/ ١٩٦٢ على وجه التقدير ونشر عام ١٩٦٣.

الجزء
الثالث

الشرق الأقصى

مدخل إلى الشرق الأقصى

نهدف هنا إلى الاقتصار على استعراض السمات المميزة لقارة آسيا وخطوط التقارب بين بلادها باستعراض جغرافية الموقع من الكون ثم التاريخ ثم استعراض جذور الحضارات البعيدة مغرقة فى القدم ولازال جزء كبير منها حيا نعاصره تحت عيوننا ولانزاع فى أن هذا العنصر الأخير عنصر الحضارات وحضارات آسيا أهم تلك الملامح.

الجغرافيا.. ماذا نعنى

سوف تدرك إذا ما ألقينا نظرة على هذا المسرح الشاسع الذى تحتله آسيا على أرض الكون الذى نعيش فيه ونفهم مصيرها وحضاراتها الغريبة. وليس أفضل من خبراء الجغرافيا والصحفيين والمسافرين إذ يستطيعون من كتاباتهم تو ‹ ›به خطواتنا فى البحث والتنقيب مستهدفين فهم كيانات هذه الأمم التى عاشت فى آسيا على ألايتصف سردنا لتلك الحتمية الجغرافية «المطلقة» ولم تعد قائمة فى آسيا ولا فى أوروبا أو أى بلد حركته أحداث التاريخ وتقلباته طويلا وصاغت ملامحه جهود البشر فيه والشرق الأدنى فى مجموعه عالم استوائى المناخ شبه مدارى ومن عوالمه مرخل الهند وغاباتها وأدغالها، ومنها الصين الجنوبية بغزير أمطارها وحرارة مناخها وجنوب شرق القارة (أندونيسيا والفلبين) الاستوائيتين بغاباتهما

ذات الأشجار العملاقة ونباتاتها الغريبة ومايتميز به بعضها من سرعة النمو (ترتفع مترا كل يوم) بويتنزورج فى جزيرة جاوا. ومع ذلك تظل الهند بنهر الاندوس ونهر الجانج المتوسط والديكان الأوسط الجاف على مبعدة من الغابات الغريبة الجافة المجدبة، والصين كذلك هى الصين الشمالية بمواسم شتائها القارص وأراضيها الغاصة بالطين والغرين ومنشوريا المزدحمة بالأشجار وصحارى الشمال الثلجية وعلى طرفها بكين العاصمة الإمبراطورية والتى تعيش تحت سياط البرد حتى قيل إن الفلاح فى تلك المناطق ينام فى الشتاء فوق فرن ويقول المثل: «مطلوب من كل إنسان أن يزيح ركام الجليد أمام باب بيته ولايعير التفاتا للصقيع المتجمد على القرميد الذى يكسو منازل جيرانه». ولقد قرأنا لأحد مثقفى القرن الثامن عشر يصف ماكان يحدث فى الشتاء أيام تراكم الجليد عند زيارة بعض أهالينا وأقاربنا وأصدقائنا الفقراء ويطرقون بابنا يسارع أهل الدار إلى طهو قصعة كبيرة من الأرز وتوضع كميات الأرز فى راحة كل منهم ونضيف فوقه ملء قصعة من زنجبيل منقوع فى الملح والتوابل. كانت هذه الوجبة أفضل وسيلة للتدفئة خصوصا لكبار السن والفقراء. كنا نطهو العصيدة ونرتشفها ونحن نطبق بأيدينا على القدح وكانت رقابنا أثناء الارتشاف تدخل بين أكتافنا وكانت أوصالنا (أجسادنا) تسرى السخونة فيها فنتنفس وتدب الحياة فى أوصالنا من جديد. حدث عام ١١٨٩ أن كان الجليديكسو «هانج تشو» عاصمة «سونج الجنوبية»، وتقع على مقربة من «يانج تس كيانج» فكانت فروع أشجار البامبو تتكسر محدثة أصواتا غريبة.

وهكذا نجد أن الجغرافيا - للوهلة الأولى - خير شاهد على تنوعات هذه البلاد ذات الوجوه المتعددة ولكن هل نترك الجغرافيا تخدعنا وتضلل خطانا؟ فإن الوسط الجغرافى فى ذاته هو الذى منه نشأت وحدة جنوب شرق آسيا ومع ذلك تبقى حضارة مادية رتيبة تفرض وجودها فى كل مكان وتضاف إلى العوامل الجغرافية والطبيعية والبشرية وهى حضارة قديمة جدا تمتد جذورها إلى عصور سحيقة فى التاريخ وهى نتاج تطورات سيكولوجية فردية وجماعية معاً بحيث يجوز القول إنها مشتقة من نفس الوسط المحلى الطبيعى فهى كائنة بذاتها جزئيا كقوة مستقلة وبدورها حاسمة قاطعة.

وتتضح هذه الحضارة بغير لبس وبصورة رتيبة حيث سبرت الأغوار كما تتفاعل النباتات ذاتيا وسجل تلك الحقيقة ملاحظات المسافرين من الغرب ما أن

تطأ أقدامهم أراضى تلك البلاد. فأهل اليابان لايأكلون من اللحوم سوى مايحصلون عليه من القنص كما ذكر أحد الأسبان عام ١٦٠٩ وفى حوالى عام ١٦٩٠ ذكر أحد الألمان بأنهم لايعرفون الزبد واللبن ويقتاتون على الجوكورت كالصين على الأغذية الخمسة فى الأرض. إذا يعد رقم الخمسة مقدسا فى اليابان وهى: الأرز الأبيض كالجليد والساكى وهو شراب مسكر من الأرز نقض الشعير على الماشية ومنه يصنع أحيانا الدقيق وقطع من الحلوى وسنابل الشعير فى الحقول كما ذكر الزائر الألمانى نفسه ذات لون أصفر عجيب يسر الناظرين ويقول بيضاء تشبه الفول لدينا ويضاف إليه الذرة البيضاء والخضروات والأسماك وقليل من اللحم، قليل جدا من اللحم دائما وفيما بعد ذلك بعشرين عاما يصف طبيب فرنسى الزحام الشديد الذى يصاحب مركب المغول الكبير كما أوردنج ذيب فى رحلته من دلهى إلى كشمير إذ لاحظ الهزال الذى كان عليه الجنود وما اتسموا به من قناعة فى غذائهم فليس هناك ضمن هذا العدد الكبير من الفرسان من يأكل اللحم طالما حصلوا على الكشريس وهو مزيج من الأرز وبعض الخضراوات الأخرى يصبون فوقها نوعا من الزبد الصفراء الغريبة من اللون الأحمر وهم سعداء مسرورين من طعامهم هذا! وكذلك أهالى آشيم فى جزيرة سومطرة فهم متواضعون وقنوعون فالأرز غذاؤهم الوحيد كما ذكر أحد الرحالة عام ١٦٢٠ .. والذين يتمتعون ببعض الثراء منهم يضيفون إليه بعض الأسماك وبعض أعشاب المراعى. ويجب على المرء أن يكون سيدا كبيرا فى سومطره للحصول على دجاجة مشوية أومسلوقة.

وتعيش الصين على الشعار نفسه قال بابا لاس كورتس عام ١٦٢٦: لو أكل الصينيون قدرما نأكل نحن فى أسبانيا من اللحوم فلن تكفيهم أية خصوبة للمراعى وربما تمتع الأغنياء بشىء من اللحم فوق موائدهم ينثرونه قطعا صغيرة لفتح الشهية ليس غير مع قطع صغيرة مما يمتلكون من لحم الخنزير أو الدجاج وكلها مما نطلق نحن عليه بفاتح (للشهية) مجرد فاتح للشهية وهى الملاحظات التى ذكرها رحالة إنجليزى فى القرن الثامن عشر حتى فى بكين التى تصلها حيوانات مضيق المحيط الهادى ذلك أن الشعب لايأكل سوى قليل من اللحوم يمزجها بالخضراوات لإعطائها بعض الطعم أما اللبن والزبد والجبن فيعرفها الصينيون

معرفة قليلة وليس معنى ذلك أنهم ينفرون من اللحوم بل على العكس تراهم إذا نفق حيوان إثر حادث أومرض بقرة أوجاموسة أو جمل أو خروف أو حمار سرعان مايأكلونه ولايفرق هذا الشعب بين اللحوم الجيدة واللحوم القذرة (الصالحة وغير الصالحة) ويضيف هذا الرحالة الإنجليزى باشمئزاز!؟ قائلاً: فى الصين يأكل الناس الثعابين والضفادع والجرذان والكلاب والجراد وإلى جانب هذه المشاهد كلها نجد عديدا من المؤشرات التى تعرفنا بالآداب الصينية الرائعة الدقيقة وفق المراد وهى تصف موضوعات الحياة اليومية لهذه الشعوب ومن بينها شخصية تلك القصة التى تحكى عن أرملة ذات شخصية مثيرة للسخرية إذ تريد يوما على الغداء بطة واليوم التالى سمكا والذى يليه خضروات طازجة وحساء من براعم الخيرزان المستخرج من أشجار البامبو كما تحب على مائدتها البرتقال والبسكويت ونباتات النيلوفر (السوش) وهى تشرب كثيرا من نبيذ الأرز وتأكل كل مساء طيور المقلبة (المعكرة) ومحارات السرطان المملحة كما تعُب لتراً من رحيق الزهور. ومامن شك أن كل ذلك مظهر من مظاهر الفساد والزهو الكاذب ومالإانزوة من نزوات الأثرياء.

وكتب تشيخ بان كيا وهو من المثقفين الشعراء ورسام وخبير نسخ (١٦٩٣ ـ ١٧٦٥) يقول: كنت أتمنى أهل بيتى يشاركون فى أيام الأعياد وأن تحتوى المائدة على الأسماك والأرز والفواكه والحلوى وتشمل الأطعمة التى يشير إليها فى مصنفاته حلوى الحنطة والعصائد الكثيفة والأرز الساخن وهذا هو المعيار القياسى لمظاهر الثراء والواسع الذى يمتلكه واحد من أصحاب دار الرهونات الذى يتاجر ويقرض أمواله بالربا شأن هذه القصص التى تروى عن بخلاء العصور الوسطى ممن يغتبطون لرؤية كل ضروب المال، يجدونه فوق الأرض ويتغذون بطبق من الأرز البارد يرشحونه بالماء المغلى لتدفئته ولم يتغير شىء حتى اليوم ولقد كتب صحفى عام ١٩٥٩ مشيرا إلى مايتمتع به المطبخ الصينى: أعرف أن المطبخ الصينى كان دائما يقنع بالكفاف وبأقل القليل حتى يتمكن من إطعام عدد هائل من السكان حيث لايسمح بتبديد هذا المقدار من السعرات الحرارية التى تحتويها الأبقار وهو شعب يجاهد بالانتفاع بما نلقيه نحن فى سلة المهملات ويظل الشعب

الصينى نباتيا يستخلص ٩٨٪ من السعرات الحرارية من الحاصلات النباتية ولازبد ولاجبن ولاألبان وقليل جدا من اللحم وقليل جدا من الأسماك ويحصلون على هيدرات الكربون جزئيا من الذرة البيضاء والقمح الآتى من الشمال ومن الأرز السائد بكثرة فى الجنوب ويحصل على البروتينات من فول الصويا ومن حبوب الخردل ومن مختلف الزيوت النباتية.

بلد واحد فقط فى آسيا يتغير اليوم فى هذا المجال ويتشكل وذلك بالزيادة المطردة فى استهلاك مقادير هائلة من الأسماك وخاصة ما أخذ به من الاعتماد على اللحوم .. ذلكم هو اليابان.

إن توفر الأرز في كل مكان من الجنوب الشرقى لآسيا وتصديره إلى المناطق الشمالية هما - فى رأينا - علة هذا النظام النباتى الذى عرف عن سكان هذه المناطق.

والمعروف عن الغرب أن سكانه يتغذون بالقمح أو الحبوب البديلة ولهذا اضطر الغرب إلى التزام نظام تعاقب دورات الزراعة مع فترات راحة يتيحها للأراضى الزراعية (وهو ماعرف بالزراعات الموسمية) وبدونها تفقد الأراضى ماكانت تغله من محاصيل وكان جزء من الأرض قد ترك تلقائيا للمراعى والمروج والكلأ ذلك أن إنتاج القمح يحتاج إلى معاونة حيوانية كبيرة وعلى العكس من ذلك نجد أن زراعة الأرز تجرى على مساحة الأرض نفسها كل عام على التوالى دون توقف وتجرى النسبة الكبيرة من العمل بالعمل اليدوى أما الجاموس فيستخدم فى حرث مزارع الأرز المليئة بالطين وهناك فى كل مكان فلاحة دقيقة للبساتين وكلها تفلح بالعمل اليدوى وفى مثل تلك الظروف يكون استعمال اللحوم للتغذية تبديدا غريباً غير وا قعى ذلك أن الحيوانات تتغذى على الحبوب أما الإنسان فيفضل أكلها بنفسه وقد أدى هذا النظام إلى صعود ديموغرافى كبير نسبيا (زيادة فى عدد السكان) بأكثر من أى نظام غذائى آخر يعتمد على لحوم الحيوان فى التغذية ومن المعروف أن عدداً يتردد بين ستة وثمانية من الفلاحين يستطيع إعداد وتوفير ما يحتاجون إليه من غذاء من غلة هكتار واحد من الحقول إذا كانوا يعتمدون فقط على التغذية النباتية .

وبقدر متساو نجد أن إنتاجية البشر النباتى أعلى بكبثر من إنتاجية الآخرين وهو مايفسر تلك الوفرة المذهلة فى مجال «تفريخ» البشر ومما لاشك فيه أن الزيادة المطردة فى عدد السكان فى الهند ومثلها فى الصين أمر واقع حديث ذلك أن نقطة البداية كانت فى الجنوب الصينى حيث تسمح أراضيها بما يسمى بالمحصول الثنائى السنوى بحيث فى القرن الثامن عشر وصل مقدار الزيادة فى عدد السكان على الأرجح إلى مايقرب من ١٠٠ مليون فى القرن الثالث عشر وابتداء من القرن السابع عشر فقد أصبحت تلك الزيادة تثير العجب بحيث يستحيل على هذه الجموع الغفيرة ولو أرادت أن توفى غذاء ها إذا غيرت النظام النباتى الذى تعودته ولذلك فالسكان مرتبطون بقوة بنظام حضارى صارم لايستطيعون منه فكاكا ولا يستطيعون سوى السير فى الطريق الذى رسمته لهم تلك الحضارة.

ونجد منذ القرن الثامن عشر أن عدد سكان الهند قد تخطى المائه مليون وحسب نظرية ويتفو جيل فإن حضارة الأرز تستتبع نظام رى اصطناعى مثقل بنظام انضباط . صارم فى أبعاده الوطنية الأهلية وتنعكس آثاره على التوجهات الاجتماعية والسياسية.

فبالأرز ارتبط سكان الشرق الأقصى ارتباطا وثيقا وبالماء ابتداء من «خزانات» مياه الهند الجنوبية إلى مياه وادى الهندو جانجيتيك كما يعتمدون كذلك على آبار وقنوات تتدفق من مجارى المياه.

وفى الصين نجد الأمر نفسه حيث يتخذ نظام الرى كافة الأشكال فهو مرتبط بالأنهار الساكنة فى الجنوب وبمواسم الفيضانات المألوفة المنتظمة لبحيرات بويلخ وكونتج تنج على أطراف نهر اليانج تسد وكذا آبار وقنوات كالقناة الرئيسية وهى القناة الممهدة لتكون وسيلة انتقال من جهة وتستخدم للرى من جهة أخرى والأنهار المتوحشة المنحدرة من الشمال مثل نهر بوى هو ونهر هوانج والأخير كان من الضرورى حجز مياهه بالسدود ثم ترويضه وقهر نزواته فى الفيضان المدمر وهى نزوات تحدث فى مواسم معينة ولازالت تقع حتى اليوم ولذا تجرى نظم الرى فى كل مكان من أراضى القارة سواء فى أطراف جزر الفلبين أوشواطئ جاوة أو الصين الكانتو فيه (مقاطعة كانتون) وكما فى اليابان بالقنوات التى تعد من أعواد البامبو (الخيرزان) أحيانا كثيرة وكذلك بالمضخات البدائية أو الحديثة

حيث فرضت نظم الرى هذه نظام انضباط صارم فى العمل والطاعة كما كان النظام فى مصر القديمة وهو نظام رق تفرضه احتياجات الرى.. وقد مهدت وسويت الأراضى الواطئة ورفع منسوبها لتصلح لزراعة الأرز التى امتدت رويدا رويدا لتشمل كافة الأراضى التى يمكن ريها بالمياه فتتحسن تربتها بفضل الحبوب المنتقاة بعناية تسمح بظهور محاصيل سريعة مبكرة وتردت زراعة الأرز منذ ذلك الحين إلى ظهور نظم حكم بيروقراطية مستبدة وإلى بروز عدد وفير من ممثلى الدولة ومندوبيها لتنفيذ أوامر الدولة ومتابعتها هذا التفسير الذى يقبل الجدل فى أكثر جوانب تفاصيله كما أثاره معارضوه بصورة أدق فى ظل مبدأ الحتمية التى تقول بأن أفعال الإنسان والتغيرات الاجتماعية عوامل لاسلطة للرد عليها ونقصد بها حتمية ماتفرضه المياه وترويقها .. المياه الضرورية لزراعة الأرز بل للأرز ذاته..كل تلك الضغوط لاتمثل سوى عامل واحد من العوامل الضرورية لتوطيد نظام اجتماعى أعقد من ذلك بكثير .كل هذا يمثل حقيقة يجب ألا تغيب عن بالنا وأنظارنا وعلى ذلك فلا ينبغى كذلك لضغوط حضارة الأرز وحتمياتها أن تغيب عن أبصارنا وإن كانت دائما ولازالت فى الحسبان كما أن هناك مناطق شاسعة تظل مهجورة وموحشة (برية) فى الشرق الأقصى.

تنمو وتزدهر خاصة حضارات السهول والأراضى المنبسطة المرتبطة بنظم الرى كما تظل حقول الأرز المغمورة بالمياه والواقعة فوق سفوح الجبال إحدى الحقائق وقد نشاهدها فى مساحات ضيقة نسبياً أو فى مناطق مكتظة بالسكان حيث صار العمل الشاق الكبير على تلك السفوح بنظام مستوى المياه ممكنا. وهكذا كان الوضع فى جزيرة جاوة حيث أثمرت الدقة والدأب زراعة كثيفة إذا لا يمتلك الإنسان المتمدين فى الشرق الأقصى سوى قطعة زهيدة من الأرض أما سائرها خصوصا فى العروض العليا (الشمال) والمناطق المعزولة وذلك فضلا عن جزر معينة هى مأوى لسكان وزراعا ت بدائية وينقلنا كتاب جورج كوندوميناس إلى القرب من سايجون خلف المصيف المشهور الدالات القريب من موقع إحدى القبائل البدائية التى تعيش على ماتتيحه لهم غابة تمكنوا من زراعة جزء منها كل عام حيث تطوق الأشجار ثم تقطع وتزرع الأرض بعد تنظيفها مما عليها بإعداد

حفرة سرعان ما تفتح لغراس الحب بضغطها فى الأرض بإبهام القدم أما المحصول الرئيسى فهو بالطبع الأرز المزروع بالطريقة البعلية (أى بدون رى الأرض) وتزرع رقعة من أرض الغابة كل عام ويعودون بعدما يقرب من عشرين عاما إلى الرقعة التى بدأوا بها، سارت الأمور على مايرام أى بمعنى أن تكون الغابة التى تركت هذه المدة الطويلة نسبيا قد «استراحت»، ويسمى هذا النوع من الزراعة المتجولة والمتنقلة «لاونج باللغة الماليزية»، ويمكن مشاهدتها فى كل مكان تقريبا وتحت مسميات متنوعة وهى أسلوب من الزراعة البدائية من الوجهة العملية دون عون الحيوانات الأليفة ويكفى إنتاج هذا النوع من الزراعة لإقامة أود آلاف من سكان هذه المناطق المتخلفة تخلفا كبيرا ومن الطبيعى أن الأزمنة الحاضرة لم تعد تشجع على بقائها بل ولا وجودها... ومع ذلك نجد أنها لازالت صامدة فى مناطق تعيش على هامش الحياة.

هذا على عكس الغرب حيث استطاع فى زمن مبكر دمج سكانه البدائيين ممن كانوا على الفطرة وإن لم يعدم مناطق متخلفة فى شبه عزلة يسهل التعرف عليها حتى اليوم، غير أنه استطاع ضمها وتعليمها الدين المسيحى بل ونقلها إلى مواقع المدن واستمالة قواهم الحيوية وترويضها. ولكن شيئا من ذلك لم يحدث فى الشرق الأقصى وهذا الفرق الشاسع توضحه حقيقة شعوب كثيرة فى الصين لم يدمجوا إلى اليوم فيها كما نرى فى الهند قبائل عديدة تعيش خارج المناهج التى تعودها الأهلون فى معيشتهم بحيث يمكن القول إنهم خارج نطاق الحضارة الهندية وفى تفاصيل ماروته كتابات الماضى والحاضر، ما كان عام ١٥٦٥ وفى ساحة القتال فى تاليكوتا مملكة الهند وفيد شايناجار فى منطقة الدوجان رانو بالرغم من مليون محارب فقد تعرضوا لضرب الخيالة حتى الموت فضلا عن مدفعية سلاطين الإسلام وإذا المدينة الرائعة الواسعة تصير فجأة بغير دفاع. وما من سبيل لسكانها إلى الهرب حيث انسحبت المركبات والأبقار المعدة للحرث مع فلول الجيش غير أن المنتصرين لم يكونوا هم الذين نقصدهم بأعمال النهب والسلب إذ تباطأوا فى ملاحقة المنهزمين وذبحهم بدلتً من اقتحامها عشائر البدائيين وقبائلهم من سكان الضواحى فاندفعت عشائر البدائيين من سكان الضواحى نحو المدينة فأعملوا

السلب والذهب. وتركوها خاوية، أولئك هم سكان برنزشاربس المشهورون بجسارتهم وجرأتهم وقبائل لامباديس وكورومباس.

وكلهم انقضوا على المدينة فنهبوها وسلبوها كل شيء وحدث أن تاجراً ألمانياً كان في طريقه إلى سيام فقابله تاجر ياباني كان قد غرق منذ بضعة أعوام سابقة عام ١٦٨٢ قرب جزيرة قفر قرب ساحل لوسون وباح له بأسراره فقال: «كنا عشرة نجونا من الغرق فوق هذه الجزيرة الفاصلة وكان علينا أن نتغذى على بيض الطيور وهو هناك بكثرة والطيور هذه متوحشة وكذلك كنا نقتات على المحار ومحتويات الأصداف التي كنا نجدها على الشواطئ والصخور الكثيفة وبعد مرور ثماني سنوات في هذه الحياة الشاذة التي تكاد تكون خارقة لغرابتها تمكنّا من صنع قاربا أقلعنا به وأخيرا وصلنا إلى جزيرة هاينان منهوكي القوى وهي جزيرة في خليج تونكين وقد نجوا من موت محقق». وهذه الجزيرة الأخيرة سكانها صينيون والنصف الآخر بدائيون متخلفون وقد كان من حسن حظهم أنهم نزلوا على شاطئ الجزء الصيني وإلا كان نصيبهم القتل.

وفي عام ١٦٨٣ قام الصينيون بغزو جزيرة فورموزا حيث ظلت منقسمة جزء صيني وآخر غير صيني مثلها مثل بقية أجزاء القارة واليوم نجد أن تعداد الصين حاليا، ومنها شعوب غير صينية وتظل الصين بلدا مثيرا للدهشة والنسبة المئوية للسكان غير الصينيين ٦ ٪ فقط أي مايقرب من ٣٦ مليون نسمه ٦٠،٠ ٪ من الأراضي الصينية بما فيها تلك المناطق «الشاردة» مثل كوبي والتركستان والتبت التابعة للصين على مستوى الموقع الجغرافي ومع ذلك تظل تمثل الغالبية.

وتضم الصين أربعة شعوب هي تشدوانج كوانجس ومياوس وشعوب الليس وشعوب القاييس والبيس وهي شعوب متناثرة موزعة بكثرة في أراضي الصين من منطقة يونان حتى كان سو وشعوب هوفييس سكان كان سو والياووس وفي مواجهتهم كلهم نجد أن سياسة الدولة الصينية الإمبراطورية وبالأمس صين تشانج كاي تشيك كانت سياسة تمييز عنصري صارم وللتدليل نذكر أن المرء يقرأ على أبواب مدينة ييس «ممنوع على سكان مدينة ييس التجمع أو السير في مجموعات تزيد على ثلاثة أفراد في الشارع» وكذلك نقرأ «ممنوع على سكان مدينة ييس

المرور فوق الجياد، وقامت الصين الحالية بتحسين أوضاعهم فمنحتهم نوعاً من الحكم الذاتى وهو نمط يغاير شبه الاستقلال الذى منحه السوفييت للأقليات العرقية.

وعموما فإن أفراد هذه المجتمعات المتأخرة بما فيهم عبيد قبائل اليبس من لانجهان وبما فيهم كذلك من عبيد أولا لدى سكان النبت، انقلبت أوضاع تلك الشعوب حيث شرع فى أعمال حاسمة تستهدف توفير حياة كريمة ومن بينها توفير الدولة لهم لغة يكتبونها. وهكذا نجد الصين اليوم تهتم بمصالحهم ولكن المؤكد أن هذه الشعوب تشعر بدلاً من الارتياح والغبطة بالانزعاج وهى ترى انحسار التخلف الذى عاشت فيه وتظل فيما بين أحضان الشعوب المتأخرة بين فلول الحيوانات المتوحشة بجوار المناطق التى لحقت بها مظاهر التمدين العصرى.

بتلك السمة الأخيرة يتميز الشرق الأقصى فى مجمله إذ تتكاثر الحيوانات المتوحشة بوفرة عجيبة منها الأسود من منطقة البنجاب والخنازير البرية من سواحل سومطرة وتماسيح الأنهار فى الفليبيين وتجد فى كل مكان تلك الوحوش النمر اللص آكل البشر وتلك هى إحدى حقائق اليوم كما هى إحدى حقائق العهود الغابرة فى الحكايات التى تروى. ومنها كارواحد من المبشرين وهو الأب اليسوعى الأسبانى وكان زورقه قد تعرض للغرق عام ١٦٢٦ قرب سواحل مقاطعة كافتون فتحدث عن هذه النمور الكثيرة المنتشرة فى الحقول الصينية وقد تصل إلى أطراف المدن وتدخلها بحثا عن فريستها من البشر. وفى عام ١٦٦٠ قام طبيب فرنسى وهو فرانسوا برنييه بزيارة دلتانهر الجانج وقال فى سياق حديثه عن البنغال وعن النمور فيها بأنها المنطقة الأكثر ثراء والأكثر اكتظاظا بالسكان وهى هبة الجانج تماما كما أن مصر هبة النيل وهى منطقة عامرة بزراعة الأرز والسكر وبين ما تتمتع به من عوامل الازدهار نجد أمثال هذه الجزر القاحلة حتى بين فرعى النهر يعج بالنمور ويؤمها القراصنة ويضيف برنييه قائلا: «ليس بهذه الجزر من السكان سوى النمور التى تسبح أحيانا بين جزيرة وأخرى قد تعثر على الغزلان والخنازير بل وعلى مجموعات من الدواجن التى توحشت بحكم البيئة (فصارت متوحشة) فمن الخطورة بسبب هذه النمور أن يحاول الإنسان وضع

أقدامه فى الأرض عندما يقرر السفر والترحال بين هذه الجزر كما يجب الاحتياط بألا تربط المراكب قرب الشواطئ فى جذوع الأشجار إذ لابد أن نجد بعض الذين يقعون فى الفخاخ يدعون بأن بعض النمور الجسورة قد توغلت بين الزوارق والتهمت البحارة أثناء نومهم، وتضيف القصص بأن النمور كانت تختاز فريستها من بين الرجال «السمان» الممتلئة أجسادهم بالشحوم!!

التخلف فى مواجهة الحضارة
شهادة التاريخ

كان ممكنا للحضارات العظيمة لكل من الهند والصين أهم بلاد الشرق الأقصى أن تعيش فى سلام وهدوء ما لم تنغص عيشها تلك المناطق القابعة فى عهود همجية متوحشة داخل أراضيها ويعيش قاطنوها على نظم الزراعة «آكلة الغابات» وأبرز أوجاعهم إنما تصدر عن هذه الصحارى الشاسعة غرب الصين وشمالها وشمال الهند وغربها حيث المناخ الملتهب تحت شمس الصيف وتحوطهما فى الشتاء الثلوج وتكاد كتل الجليد تدفن سكانها وفوق هذه الأراضى القاسية المتوحشة اللا إنسانية تعيش شعوب من أجناس متعددة من رعاة أغنام كالأتراك وقبائل التركمان والقرغيز لإحدى الجمهوريات السوفييتية الآن، والمغول وحشود من الفوارس يعرفهم التاريخ وهم اليوم على فطرتهم كما كانوا قديما بما يكشف عما هم عليه من طبائع عنيفة وميل إلى غارات السلب والنهب على جيرانهم وتمتعهم بهذا النوع من الشجاعة والجسارة الطائشة التى تصل أحيانا إلى حد الجنون محتفظين بآخر ما جبلوا عليه من عظمة تاريخية حتى منتصف القرن السابع عشر حيث استطاعت الشعوب الحضارية منذئذ بفضل «بارود» المدفع أن تتغلب عليهم فكان أن انكمشوا واستكانوا وقبعوا فى مواقع بعيدة فصاروا كماً مهملا قليل الأهمية ولكنهم صمدوا صمودا بائسا مخلدين إلى معيشة كلها تقتير حتى عصرنا هذا ولا تعتبر بلاد المغول

اليوم بشقيها الداخلى والخارجى أى الصين والسوفيت وبلاد التركستان كذلك بشقيها الصينى والسوفيتى بلادا رئيسية أوأساسية بمقياس شعوب الدنيا وإنما ينصرف الاعتبار إلى مساحات بلادهم ومطاراتهم التى ليست ملكا لهم.

ولكن لماذا نهتم بهذه الشعوب من رعاة الأغنام الرحل فى حديثنا عن أحداث الحضارات ووقائعها ذلك لأن ترفاتهم المؤثرة كانت عنصراً فاعلاً تمكن يقيناً من تأخير يدعو حضارات كبرى مجاورة وتطورها. يقول هيرمان جويتز فى موسوعته الصادرة عام ١٩٢٩عن عصور الحضارة الهندية عن الهند بما يصدق كذلك بغير شك عن الصين: إن الهند لم تنفتح فعلا على عالم البدو الرحل إلا عند ممر خيبر الضيق عبر الجبال الأفغانية حيث كان من حظها السيئ وقوعها على حواف منطقة جوبى الشاسعة بدعمها سور الصين المشيد منذ القرن الثالث قبل الميلاد ويعد عائقا حربيا هاما أكثر منه رمزا مؤثرا إذ أتيح اجتيازه آلاف المرات ويقول أودين لاتيمور من علماء الحضارة الصينية: إن هؤلاء البدو الرحل فلاحون قدامى أبعدهم نظام زراعة متميز متقن نحو الشمال إلى بلاد الشعوب «آكلة الغابات» وخاصة نحو أطراف الفيافى والغابات الصحراوية فلم يجد هؤلاء الفلاحون المبعدون عن المناطق الثرية ملاذاً يؤويهم إلاّ تلك المراعى الشاسعة المتواضعة ولنا من ثم أن نتساءل هل كان ذلك حضارة أم تخلفا همجياً إذ جعلت من الزراع القدامى رعاة أغنام رحل؟ ومع ذلك فمن هذه المآوى يعود الهمجى بلانهاية إثر الأزمات الداخلية والثورات الاجتماعية وتزايد السكان إلى حد الانفجار والهرب إلى مواقع الحضر وقلما كان هذا التدفق نحوها يتم بهدوء وسلام بل يقبل المتخلف فى صورة المتسلط ومظهر المنتصر وما هو إلا ناهب ينقض للسلب. وهكذا نرى راعى الأغنام يحتقر ويزدرى ساكن الحضر المسكين المقهور. ولنستمع إلى حديث بابر إذ استولى عام ١٥٢٦ على شمال الهند على أن الهندوستان إن كانت بلداً ذات سحر فقد كان سكانها يفتقدون البهجة وسعة الصدر فلا تجد فى المعاملات التجارية معهم ليونة أو نوعاً من التراضى والرضا بل ولا حتى الرغبة فى تواصل علاقات تجارية وهم ليسوا على قدرة فى العمل ولا لهم تلك البشاشة الاجتماعية المحببة ولا هم كرماء أو أذكياء ولا فيهم مشاعر الرجولة

ولا هم كما فى مداركهم وأعمالهم يرتدون ملابس ذات مظهر لائق وذلك فضلا عما ينقصهم من المبادئ والقواعد فى العمل ومايفقدون من خيول جيدة أو لحوم شهية ثم لا عنب ولا شمام ولا شيء من فواكه لذيذة الطعم والمذاق وهنا لا نجد الثلج وتفتقد الماء الطازج ولا تستطيع فى الأسواق الحصول على أطباق الأطعمة المرغوبة ولا الخبز الجيد ولا يعرفون معنى الحمامات ولا الشموع ولا المصابيح ولا الشمعدانات... كل هذا ليس معروفا لديهم.

وفيما عدا الأنهار والينابيع والجداول التى تنحدر فى الأودية والوهاد وتجاويف الأراضى فليس لديهم سواء فى حدائقهم أو قصورهم المياه الجارية وتفتقد معانيهم الرونق والجمال والتهوية والنظام والفخامةونرى القرويين والطبقات الفقيرة عراة يمشون عادة وكل ما يرتدونه فوق أجسادهم لباس يطلقون عليه اسم لانجوتا لا يعدو قطعة قصيرة من قماش تتدلى من أجسامهم تحت السرة ومن تحت هذه القطع الصغيرة أخرى يثبتونها بين الفخدين كجدائل اللانجوتا يدخلونها فيها لربطها من الخلف وتربط النساء حول الجسم رداء اللانج يتركون نصفه متدليا على الخصر والنصف الآخر فوق الرأس.

وأهم ما يتميز به «الهندستان» بالإضافة إلى مساحة أراضيها الشاسعة، مقادير الذهب الكبيرة سواء سبائك أو مسكوكة نقودا به وهكذا نجد هذا المسلم من التركستان ومن أعلى قمة انتصاره ابتداء من صحرائه ومرورا بخيلائه بوصفه راعى غنم رحال ومن غلو عظمته الإسلامية التى ينتمى إليها، نجده ينظر إلى الحضارة الهندية القديمة وفنونها وفنون عماراتها، تلك النظرة غير المستحبة.

أما غزوات المغول الكبرى فلا يهمنا هنا الإشارة إلى تفاصيلها إلا فى نطاق ما أثارته من قضايا بين كل من الهند والصين وذلك فى نزاعات تدمى ضرباتها قلبيهما كل مرة.. ومع ذلك على أثر موجتى الغزوات الكبرى وكانت الأولى بين القرنين الثالث عشر والرابع عشر والثانية بين القرنين السادس عشر والسابع عشر.

وربما كانت علة ذلك بما قيل منذ بداية القرن الخامس عشر من وصف الصين «بالرجل المريض» الذى يجتذب المغامرين من معتادى السلب والنهب الطامعين فى أراضيها وقد توفى عام ١٤٠٥ تيمور لنك.

ويعد الهجوم على الصين وغزوها تيمورلنك. ولد عام ١٣٣٦ بمدينة كيش قرب سمرقند ملك على ما كان يسمى دولة تراتنسدكيان منذ عام ١٣٧٠ حتى ١٤٠٥ ثم اجتاح أراضى إيران ودمرها وأشاع فيها الخراب ومات أثناء إعداده لحملة حربية يغزو بها أراضى الصين. وعلى كل حال ففى كل مرة يهب فيها عالم البدو الرحل المقاتلين بطبيعتهم فإن أراضى كل من الصين والهند هى التى تتحمل الضربات القاتلة العنيفة بحيث يطرق أبواب عاصمتها المغيرون وهناك أربعة تواريخ تكررت اثنين اثنين كما قيل: ففى عام ١٢١٥ عام الأبقار استولى جانكيز خان على بكين وفى عام ١٦٤٢ اندفع المانشو (شعوب مقاطعة منشوريا) تعززهم جحافل المغول يستولون مرة أخرى على بكين عام ٥٠ ثم يعاود تيمور لنك عام ١٣٩٨ الاستيلاء على دلهى، وفى عام ١٥٢٦ يتمكن باير من الاستيلاء على دلهى تارة أخرى.

وكل هذه الأحداث كوارث لا توصف إذ تفنى كل مرة ملايين من الأرواح. الغرب بعيد لا يقدم على مثل تلك الأحداث حتى فى حروب القرن العشرين التقنية فلم يعرف الغرب موجات المجازر هذه ولا تعميم انتشارها وقد وقعت فى الهند حيث تندلع تلك الحروب المتعددة وينشب الصراع بين حضارتين حكاية رهيبة خلالها لم تصمد فيها إلا بفضل ما أوتيت من قدرة عظمى على الحياة والبقاء ولا ننسى أن قبائل البربر الذى اجتاحوا الهند كانوا قد تحولوا إلى دين الإسلام، كما أن صمود بلاد الهند حيال تلك الغزوات إنما يعود كذلك إلى أن اكتساح أراضيها لم يكن تاما حتى لسان رأس كوزموران وربما عاد إلى موجة من موجات النزوح (الهجرة) المرتبط ببلاد المحيط الهندى.

وكان تلاطم أمواج البحر بالنسبة للهند كما هو بالنسبة للصين إنما يعنى خاصة موجات تدميرية وعوامل تكبح جماح المغيرين وتمتصهم ولكن كم كان الثمن؟ تراه المفتاح الرئيسى لمصير الشرق الأقصى وقدره... يصعب الحكم وربما استطعنا تأييد هذا الرأى بالنسبة للهند ونسأل هل المغير (الهمجى) هو المتسبب والمسئول؟ عن التنقلات فى الموقع والزمن وهى أمور كانت تتلاحق وتتصاعد إذا

قورنت بأحداث الغرب، فالهند إنما تنبع جذورها منذ ألفى سنة قبل الميلاد حيث يماثل الآريون من البنجاب أسلاف اليونان القدماء شعوب الكلت والأثيوليين والجرمان كما تماثل الإلياذة والأوديسة تلك الروح الفروسية التى تنبثق من روايات مهاباراتا التى ألفها فى القرن الخامس قبل الميلاد. فى عصر بوذا حيث يمجد حروب شعوب الهند فى مقاومة الغزاة الطامعين فى سهل سهر الجانح الأعلى ويعج شمال الهند بالجمهوريات الأرستقراطية والممالك الصغيرة التى تضارع ممالك هيلا وهيلاس وهى المقاطعات الوسطى لليونان القديمة مع مشروعات لخطط تجارية مع جيرانها. وفى القرن الثالث شبه تشاندراجونيا ومعه أزوكا أول إمبراطورية قدر لها أن تضم أفغانستان والهند كلها باستثناء الجرف الجنوبى الذى لا يخضع بظروفه دائما إنه العصر الذى بدأت فيه تظهر ملامح الإمبراطورية اليونانية المقدونية التى سيدها الاسكندر. ثم كان مع ميلاد المسيح وعن طريق بداية الشمال الغربى أن بدأ غزو شعوب السكيثيين. وهى من أصل إيرانى وأدت إلى ظهور إمبراطورية جوتبا العظمى فيما بين القرنين الثالث والرابع وتجدد فى عصرها القتال اللانهائى بسبب الهند وكان رجال هذه الإمبراطورية الوليدة خليطا من مقاتلين ذوى بشرة فاتحة وآخرين ذوى بشرة قاتمة وسرعان ما ظهرت جحافل الفلاحين المستعبدين، وفيما بين القرنين العاشر والثالث عشر ظهرت الدول الإقطاعية كما وقع فى الغرب فى القرون الوسطى وقد لا يكون هناك وجه شبه وخاصة من ناحية أشكال الإقطاعيات والمجتمعات هنا وهناك ولكن لم يكن فى كل من الجانبين فروق فى المستوى حتى القرن الثالث عشر حين انطلق إعصار المغول الرهيب.

وهنا بدأ التحول التاريخى الكبير يثبت لنفسه موقعا بالتدريج المتصاعد. وقد واجهت الصين بالتدريج المتصاعد القضية نفسها بالقياس إلى تأخر نموها وتأخر تطورها بتأثير غزو المغول عام ١٢٧٩ وغزو قبائل المانشو (من أقاليم منشوريا) من ١٦٤٤ حتى ١٦٨٣ وكانت الصين فنياً وعلمياً على درب التقدم حتى القرن الثانى عشر على الأقل ثم تبدأ الصين فى الابتعاد عن مسار التقدم والتطور... بعيدا عما وصل إليه الغرب.

ولا سبيل على كل حال يقيناً أن نحمل المغيرين من السهوب والفيافى كل المسئولية عن المصير المضطرب الغامض... مصير الشرق الأقصى صحيح أحدث المغيرون دماراً رهيباً ومع ذلك أمكن إصلاح كل شيء وأمكن مع الزمن للجروح أن تلتئم التئاما قد نقول تاما وكانت الغزوات التى وقعت فى الغرب تعنى هلاك حضارات وميلاد حضارات جديدة. فقد كانت هذه الغزوات بالنسبة للصين والهند بمنزلة «كوارث مادية» لا أكثر ولكن دون أن تغير من الحقيقة شيئا فلا هى على الصعيد الشكلى فى قوالب التفكير وأشكاله ولا هى أدخلت تعديلات على الأسس الاجتماعية السائدة ولم يحدث أبداً مثل تلك القفزة الهائلة التى تضاهى بتلك القفزة التى نقلت الحضارة اليونانية القديمة إلى روما ومن روما إلى المسيحية أو مضاهاتها بعبور الإسلام بلاد الشرق الأوسط.

هذا النوع من الإخلاص للذات فى بلاد الشرق الأقصى ومقاومة كل جديد ودخيل لدرج الجمود إنما يعودان من غير شك إلى عوامل وأسباب داخلية لعلها تفسر ولو جزئيا علة تأخر بلاد الشرق الأقصى وهو تأخر نسبى على كل حال وذلك أن الشرق الأقصى لم يتراجع فى الواقع إذ صمد فى موقعه كما كان على مدى قرون وقرون على حين ينمو العالم ويتقدم مبتعدا عنه يوما أكثر فأكثر.

جذور سحيقة
أسباب الجمود الثقافى

مما لاشك فيه كل شيء استقر قرونا قبل التاريخ ومنذ بدء الحضارات إذ تبدو حضارات الشرق الأقصى مجموعات خليقة أن تنضج نضوجا جد مبكر ولافت للنظر فى إطار يجعل من أسسها وأركانها الرئيسية شيئا شبه ثابت ولا يتغير إذ جنت منه ما قد نطلق عليه «وحدة» وتماسكاً وتلاحماً وكلها عوامل بل حقائق تثير الذهول ولكنها على المقياس نفسه صعوبة قصوى فى مجال التطور الذاتى بل وفى الرغبة والقدرة على التطور، كأنما كانت هذه الشعوب ترفض أو ممتنعة فى عناد عن التغيير والتقدم.... وعمر كل من حضارتى الشرق الأقصى الكبيرتين أكثر من ألف عام وذلك ما يجب ألا ننساه وعلينا محاولة فهمه متجاهلين تجاربنا فى الغرب.

فالإنسان فى كل من الصين واليابان غير قابل للهدم رغم بلادهم المشيدة من خفيف مواد البناء فهم ليسوا بشر الأمس بل بشر ماضٍ سحيق شأن مصر الفرعونية مع الإقرار لهم بالتمكن فى الاحتفاظ العجيب بجذورهم كما نجحوا فى الوقت نفسه فى التأقلم على نمط الحياة العصرية كلها مع الحفاظ على عقائدهم القديمة وبعض من آدابهم وسلوكياتهم وصيانتها ولازالت الهندوسية حية وهى الأساس الثابت للحضارة الهندية كلها ولم يطرأ عليها تغيير منذ أكثر من ألف عام

قبل الميلاد قد تواصل خلودها وهى الديانة الشعبية عن طريق الآلهة تاو وكذلك عبر الكونفوشية والبوذية التى لم تستطع يقيناً إبطال هذه الشعائر إذ هى حية حتى اليوم وبهذه الأشكال الدينية والعقائد المتنوعة القديمة والحية ترتبط كيانات اجتماعية عانت كذلك قسوة الحياة مثلها ونقصد بها نظام الطبقات الشعبية والروابط الأسرية والاجتماعية فى الصين ويبدو فى الحالتين أننا إزاء نوع من الدوام اللانهائى والخلود وثيق الارتباط أحدهما بالآخر. ويظهر طابع هذه السمة من تلك الثقافات الأولية البدائية التى تتداخل فيها تداخلاً كاملاً كل أنماط الحياة والفكر وأشكالها وذلك فيما قد نطلق عليه إلهام ما فوق الطبيعة، أو الوحى بما قد يعد مثيراً للبلبلة إذا تعلق الأمر بحضارات متطورة فى مختلف مجالاتها إلا الصين والهند ومع ذلك يظل هذا الإلهام لافتاً للنظر إذ يتجاهل الشرق الأقصى على عكس الغرب الذى يحتم الفصل بين ما هو بشرى إنسانى وإلهى ربانى تلك التفرقة وذلك التمييز، فالدينى يتمازج ويختلط بكل أشكال الحياة البشرية، فالدولة هى الدين والفلسفة هى الدين والأخلاق هى الدين والعلاقات الاجتماعية هى الدين يسهم الدين ويشترك فى كل هذه الأشكال تماما وتنبع من المقدس.

ولا شك تستنتج منها ميولها نحو الثبات والبقاء والخلود وعلى عكس يثير فضولاً لا يسهل إدراكه، نجد أن هذا الإلهى الربانى يمتزج بكل تصاريف الحياة بل ويمتزج فيها بالمتبدل والأشد ابتذالاً وذلك فى الغالب بالنسبة للغربى الذى اعتاد الدين على قمة روحية ما يعطى انطباعا بغياب المشاعر الروحانية وتستبدل بها مناسك وشعائر ذلك لأن الإنسان فى الغرب يصعب عليه فهم كنه هذه الشعائر وهذه العادات. ومجرد ملاحظة ذلك يعنى الالتزام بنظام إلهى يدبر ويسوس أمور الإنسان إنه العيش بتدين فى ورع وتقوى.

وهكذا تشمل الهندوكية كذلك أساس الاعتراف بالقيم التى تتيحها نظم الطبقات الدينية على مثال المعتقدات الروحية وشعائر الأرباب وهى ليست سوى جزء منها.

وكذلك الأمر عند الصينيين إذ لا يعيرون اهتماما كبيرا للتمييز بين خلود الآلهة فالمهم عندهم ممارسة فروض الشعائر وأن يعيروا للآلهة القديمة كل ما تستحق ويجب من مظاهر الولاء والتقديس ثم تطبيق دقيق فى مجالات الحياة والعلاقات

العائلية آخر الأمر لمناسك تلك العبادات والشعائر المعقدة حقا إن المفهوم الروحى فى كل من الصين والهند مختلف تماما عما يرتبط بها من أنماط الديانات والأشكال الاجتماعية وقلما تتشابه فإذا ما حاولنا أن نقيم مواجهة بين الغرب والشرق الأقصى فسوف نجازف بإغفال رؤية التناقضات المتعارضة التى تدفع إلى تقسيم الشرق الأقصى، فالهند ليست الصين وإذا بدت الصين تجاه أوروبا تبدو علامة على حياة دينية غازية ومكتسحة فهى بالمقابل تتأكد تجاه الهند من حيث هى بلد عقلانى انطبع بالقضية الثقافية الكبرى التى خاضتها وفاقت بها الممالك المقاتلة (القرن الخامس – القرن الثامن) قبل الميلاد يشبه كما قيل تلك الأزمة الفلسفية الأساسية التى عاصرت فى اليونان مولد الروح العلمانية فقد جمعت الديانة الكونفوشية كما سنرى ميراث تلك الأزمة أزمة العقلانية وظهور مذهب إنكار العقل والتشكك فى قدرته على المعرفة ثم تولت الكونفوشية إخضاعها للضرورات السياسية وأتاحت لها اجتياز الأزمات الدينية الطاحنة التى انبثقت فيما بين القرن الثالث والقرن الخامس لإعادة تشكيلها فيما يسمى بالكونفوشية الجديدة وكان لها سبق الظفر والسيادة ابتداء من القرن الثالث عشر.

وفى الصين نجد أن هناك تيارين متوازيين كل من جانب ويرجع عمود المجتمع ويستند إلى كيانات سياسية واقتصادية واجتماعية بقدر ما هى عقائد دينية. وعلى حين يلعب ما وراء الطبيعة فى الهند الدور الرئيسى – وهنا يبرز التساؤل : كيف يمكن أن يتطور المجتمع وكيف يمكن إعادة طرحه للبحث والمناقشة مادام النظام المرتكز عليه ذاتى الجوهر؟ جوهر إلهى.

الفصل الثانى

الصين التقليدية

الصين التقليدية

أخذت الصين الكلاسيكية التى نتحدث عنها ولم يحدث أن اختفت تماما زمنا طويلا حتى تكتسب وتحدد بدقة سماتها الأصلية، وتبدو اليوم كمجموعة متماسكة فى التحام اندماجى عبر قرون عديدة وعبر زمن توالت عليها فيه كوارث وغزوات تبدو الآن كوجه ثابت لا يتغير.

ومع ذلك فعلى الرغم من بطء عملية التطور حيث تبرز كحقيقة على السطح فلم تكن أبدا حقيقة جامدة أو ثابتة فالحضارة الصينية مثلها كمثل كل الحضارات كدست تجاربها وجمعتها واختارت اختيارات لا حدود لها وجددت هذه الخيارات أحيانا فيما بين ثرواتها واتجاهاتها، وأخيراً وعلى عكس ما تبدو المظاهر لم تغلق أبوابها على العالم الخارجى المحيط بها إذ هبت كثير من الرياح عليها آتية من الخارج وتمكنت من إدراكها وفرض وجودها عليها.

الأبعاد الدينية

وأول تلك الأبعاد وأهمها وأصعبها كذلك على الفهم وإدراك أبعاد الحياة العقائدية التى ليس لها حدود فاصلة واضحة ذلك أنها تتسع لترتضى بالتصوف والعقلانية معاً، ولنتخيل أحد الأوروبيين وهو يتنقل متردداً دون أقل عائق ثقافى أو

ديلى بين إصلاح الكنيسة الكاثوليكية وبين موجة الإلحاد والزندقة ويتخذ فيما بين الاثنين ما يراه لصالحه. ويعج المجتمع الصينى بمن يلتصقون التصاقا ظاهرا بمذهب «اللا إرادية» أى ذلك المذهب الذى ينكر قيمة العقل وقدرته على المعرفة وكذلك نجد الأكثر امتثالا للنزعة الامتثالية للتقيد بالأعراف التى استقر عليها المجتمع، كما أن هناك الفوهنوى أو الصوفى المستتر وكذلك يؤمن أهل الصين بالخرافات، ومن يؤمن بمذهب اليقين الإيجابى أو بالأحرى بمن يؤمن بالاثنين معا وهو ما يبدو لإنسان من الغرب أحيانا أمراً لا يدرك أو يفهم، تلك ملاحظات عما يسيطر على كيان المجتمع الصينى الحالى عامة من مشاعر يجب التذكير بها ونحن نخطو عتبة الاستعراض التاريخى فهى تفسر لنا قبل كل شىء تلك الحقيقة الجوهرية ونقصد بها أن شيئا لم يستطع إقصاء مذاهب الكونفوشية ولا التاوية ولا البوذية عندما تأصلت فى الأراضى الصينية وكلها متعاصرة أو تكاد. وآخرها البوذية رغم الصراعات التى نشبت بينها وليس سهلاً التمييز بين مذهب وآخر منها إذ جاءت كلها لتضاف إلى سالف حياة عقائدية دينية بدائية موغلة فى القدم ولكنها ذات قدرة جبارة ويقال إن هذه المذاهب الثلاثة ويطلقون عليها «العظماء الثلاثة» أبحرت فوق مياه هذه الديانة القديمة وفى الحقيقة والواقع أن هذه المذاهب الثلاثة قد غرقت تماما فى مياهها المتلاطمة. وللحياة الدينية فى الصين أسس أقدم جذورا من التيارات الروحانية الثلاثة فجذورها بأشكالها المتعددة والمتأصلة صامدة فى مواجهة كافة الممارسات العقائدية. إنه ميراث قديم قائم قبل ألف سنة من ظهور المسيح فى فجر الصين الأولى المتماسكة دون أن يعبيرها شىء رأسا على عقب. ثم إن ظهور المحراث أتاح توفر أعداد كثيفة من السكان تجمعوا فى قرى أو مقاطعات سيادية وكانت الصين الأولى هذه تمارس العقيدة المزدوجة عقيدة الأسلاف وعقيدة تربة الأرض الإقطاعية.

يتوارثها الابن عن الأب ومن فوق تلك الأسر هناك الطبقات الواسعة من البشر ويسمون باللغة الصينية السيخ ويتمثلون من سلالة وأصول واحدة متشابهة القسمات بما فيهم عائل عشائر السوسو الأعظم ويو الأكبر البطل الأسطورى الذى أفاض الطوفان.

ينبع هذا النظام وما يرتبط به من عبارات الأسلاف أساسا من أسر النبلاء (الأشراف) وهى أسر النبلاء الوحيدة ثم ظهرت فيما بعد الأسر العامة بتقليد هذا النمط السلفى واتجهت كذلك إلى توفير أسلافهم واحترامهم كما كانوا يوقرون ويبجلون أربابهم مع الأسلاف ثم يجىء على مستوى مختلف قليلا وضع أرباب الإقطاعيات المحلية من أرباب كل منزل وأرباب التلال وأرباب مجارى الماء (ينابيع المياه) وأرباب كافة القوى الطبيعية المحصورة فى أى بقعة من الأرض حتى رب التربة الإقطاعية والرب تشو المسيطر عليهم أجمعين، حين قامت الوحدة السياسية بإخضاع السيادة الإقطاعية للسلطة الملكية فرض رب التربة الملكية نفسه على كل الأرباب المحليين وصار رب الأرض وكان طبيعيا أن يكون هناك رب للأموات حيث يحتفظ بهم فى سجونه المظلمة فى غياهب «الظلمات التسع قرب الينابيع الصفراء» كما كان هناك رب للسماء الذى فوق، وأرباب الجبال وأرباب البحار الأربعة وأرباب نهر «هوانج هو» الرهيب وهكذا نجد بقدر أعداد الأرباب الكثيرة آلاف الطبائع والأمزجة والسمات التى يتحلى بها الصينى ونقصد به الصينى التقليدى (الكلاسيك) ويؤمن هذا الاتجاه فى الشرك وتكاثر الآلهة بخلود الروح أى يؤمن «بالمنابع الصفراء» وبقائها الجهنمى أى دنيا السماء ورب العالم الأعلى «ما فوق» أو الأرض فى معابد الأسلاف وكثيرا ماتنطبع هذه المعتقدات فى البقاء فى العالم الآخر على الطبقات الاجتماعية فى هذه الدنيا (على الأرض) حيث يعرف الأمراء والوزراء وكبراء هذه الدنيا ما ينتظرهم من سعادة فى السماء حيث يجد أهمهم العون من خدمهم، أما عامة الموتى فيتجهون إلى «المنابع الصفراء» إلى الظلمات «التسع» فالنار مثواهم ولإنصاف المحظوظين العيش فى القبور... قبور الأسلاف وكل هذه المعتقدات ضبابية إلى حد ما، طالما أن لكل إنسان عدة أرواح وأن ما بعد الحياة ليس مستحيلا بفضل القرابين والأضاحى التى يقربونها للأرباب، ذلك الأموات والأرباب يأكلون وتقول أغنية عقائدية سوف تملأ الأقداح الخشبية بالقرابين وكذلك تملأ أقداح الطين ما فاحت الرائحة وصعدت إلى السماء، بادر رب السماء يتناول الطعام...

أما فيما بين الأرباب والأحياء، فالأسواق هى القاعدة حيث توفر القرابين الحماية كما يقول أحد الأرباب بقدر ما تقدمون لى من أضحية وقرابين أعطيكم

من السعادة، وصرح أحد الأمراء بقوله: لسوف تساندنى الأرواح على ما أقدم من قرابين كثيرة نقية، ويشكو أمير آخر قائلاً ما هذه الجرائم التى ارتكبها البشر هذه الأيام حتى أرسلت السماء هذا السيل الأحزان والكوارث! كم من أطباق الحب والخضروات أعددتها وما من رب لم أقدسه وقدمت إليه فروض الإجلال بل ولم أقتر على الضحايا!

وفيما بين القرن الخامس والثالث قبل الميلاد تفككت الصين الإقطاعية فى فترة التقلبات الصاخبة، فترة الممالك المتحاربة واختفت الإقطاعيات يومئذ لصالح الإمارات التى كانت أقل أهمية من الإقطاعيات لولا أنها كانت على الأقل مستقرة بين تلك المعارك والحروب المتصلة ثم توطدت فيما بعد أركانها وفرضت السلام الذى وحد إمبراطورية الهند وصاحبت هذه الأزمة الطويلة العنيفة موجة من القلق (الاضطراب) النفسى مما رفع المفكرين الصينيين فى خلال مجادلاتهم الأيديولوجية والمذهبية إلى ردود أفعال ضد ديانة العصور الأولى ومعتقداتها الشكلية (مذهب الاعتداد بالشكل وليس الجوهر) وظل المصير الثقافى للصين كلها تهيمن عليه إرهاصات تلك الفترة التى تردنا إلى المقارنة بينها وبين يونان القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد أو إيطاليا عصر النهضة بمناسبة السياسية والاجتماعية حيث اتضح أن القضية الكبرى بالنسبة للطغاة المستبدين وأعوانهم ورعاياهم هى البقاء أو العيش على الأقل.

وهكذا كان لصين القرون من الخامس حتى الثالث قبل الميلاد (سياستها فخطباؤها (علماء البلاغة والبيان) مشغولون بحساب وتقدير مذهب (ينادى بأن المخلوقات وأفعالها (إنما هى مناسبات) وهو ما يمكن اختصاره بين الحظ والفرصة أو الفرجة والمناسبة أى مبدأ أو نزعة كما كان للصين فى هذه العصور خطباؤها وصوفيوها ممن اهتموا «بالصالح العام» وهؤلاء الصوفيين ينتمون عادة إلى مدرسة الماوتى القديمة أو الموتسو أو الموهيزميه وقد أقام أنصار مذهب الموهيزميه المشار إليه من قبل أمداً قصيراً نسبياً نظاماً فروسياً فى خدمة المعدمين والمظلومين كان تجمعا عقائديا للإخوة المبشرين وتتضمن التسمية إلى حد ما نشاطهم وتعهداتهم تجاه المجتمع. أما ما وصفهم به المؤرخون بعد فوات الأوان بأنهم «الصوفيون» إنما

فيفسر لنا كذلك ميولهم الخطابية وكلامهم المطنب والفوز والإقناع بالكلمة والمجادلة بلا نهاية كل فيما تخصص فيه وكلها فكر نسبى (مذهب النسبية) وفكر عقلانى كذلك منفصل عن أوامر الدين القاطعة ومنبثق من بين ثنايا هذه المحاولات الحيوية ومن هذه الحداثة الفلسفية لم يحتفظ عصر الهون بغير جزء سيصبح فيما بعد مذهب الكونفوشية (نسبة إلى فيلسوف الصين كونفيشوس وأشهرهم عاش من عام (٥٥١ – ٤٧٦) قبل الميلاد ومؤسس النظام الذى يضع فى اهتمامه الأول الجهود المتصلة المستمرة لتثقيف الذات حتى يمكن إرساء قواعد التوازن فى الكيان الاجتماعى الواسع وكان هذا المذهب سببا فى بقاء نوع من الإتجاه شبه العقلانى فى الصين ليواجه هجمات التاوية واندفاعاتها العقائدية وبالذات مذهب البوذية التى دامت سطوته حتى القرن العاشر وفى القرن الثالث عشر تشكل من جديد وبصلابة مع مذهب الكونفوشية الجديد.

وليست الكونفوشية محاولة للشرح العقلانى للدنيا فحسب، بل هى نوع من العلم السياسى والاجتماعى إن لم يكن دينا حقيقياً أو على أقل تقدير هى موقف فلسفى يتأقلم فيما بين نوعية معينة من التدين وبين مذهبية الشك والارتياب: الشك فى مبادئ الدين الأساسية كالخلود والوحى أو مبدأ اللاإرادية أى إنكار قيمة الفعل وقدرته على المعرفة. ولم يترك الفيلسوف كونتوسيس أو كونفوشيوس الذى عاش فيما بين ٥٥١ و٤٧٩ قبل الميلاد وراءه شيئا مكتوبا وإنما قام مريدوه وأتباعه بنقل ما نادى به من مذاهب وهو بالفعل مؤسس ذلك النظام وتلك العقيدة التى سرعان ما ستكون مبدأ تعتنقه حتى طبقة المثقفين الصينيين (أنتيليجانسيا) ومن جهة أخرى فإن الكونفوشية قبل كل شيء هى التعبير عن طبقة من المجتمع، طبقة المتعلمين ممثلى النظام الاجتماعى الجديد وما أطلق عليهم الماندريون وهم مجموعة كبار موظفى الإمبراطورية القديمة فى الصين، وكان هذا النظام السياسى والاجتماعى قد بدأ يتبلور رويدا رويدا بعد تفكك نظام الإقطاعيات أى بظهور مجموعة الموظفين الإداريين فى هذه الصين الحديثة وقتئذ، واجهة تعبر عن سلطة الدولة، ثم بدأت أعداد الموظفين المثقفين تتكاثر مع بداية ظهور الإمارات الكبيرة فأصبحت القدرة على الكتابة هى الشرط الذى يفرضه نظام الحكم فى

مـجـال الإدارة أو إصـدار الأوامـر. وكـان العبء الأكـبـر يقع على عـاتق الأسـر الأرستقراطية، أما الأعمال الأقل أهمية فقد نيطت بالمرؤوسين التابعين وكانت وظائف ثانوية وتأكدت سلطة مجموعة كبار الموظفين المثقفين وكبر نفوذهم مع نشأة الإمبراطورية العظمى إمبراطورية الهند ٢٠٦/٢٢٠ قبل الميلاد وجاء تطوير مذهب الكونفوشية ونماؤه وثيق الصلة بتطور التعليم المعفى منه المثقفون. وكانت المدرسة الكبرى التى تأسست عام ١٢٤ قبل الميلاد وأنشأها الإمبراطور ونتولى تلقين مبادئ مذهب معقد يرتكز على قراءة وتفسير خمسة كتب كلاسيكية (تقليدية) كل ما فيها طقوس وعادات وهى التحولية (نظرية التحولية التى تنسب إليها الدور الأساسى فى ظهور الأجناس البشرية وكتاب القصائد الغنائية وكتاب الوثائق وكتاب فصول الربيع وفصول الخريف وكتاب الطقوس والشعائر وهى كتب نسبت إلى الفيلسوف كونفوشيوس ولكنها فى الواقع إنما تعود إلى تاريخ سابق ولاحق معاً ثم روجعت ونقدت وأعيدت صياغتها بتفسيرات واضحة وأكثر فهما على يد مثقفى القرن الرابع والثالث قبل الميلاد. وكل مدرس لا يكلف إلا بتدريس أو تعليم كتاب واحد بصورة دائمة وبتفسير لا يتغير، وهكذا ضمت المدرسة الكبرى عددا من كراسى أستاذية متخصصة فى واحد من التفسيرات الممكنة ولا يكلف كل مدرس إلا بالتدريس لعشرة من المعاونين الذين يتولون بدورهم تعليم التلاميذ وفى العام ١٣٠ من عصرنا كان عدد الطلبة بالمدرسة ١٨٠٠ دارس و٣٠ ألف مستمع وفى هذه الدراسات كانت تتحكم امتحانات شاقة عسيرة حيث تدون الأسئلة على جذاذات (وريقات) خشبية كان الطلبة يقتطعونها بالأمواس والأسهم رمزا للسؤال المطلوب ردهم عليه.

وقد ظل هذا النظام باقيا فى مجموعة حتى يومنا هذا تقريبا ولكن حدثت (وهذا طبيعى) تعديلات وأدخلت تنقيحات عبر العصور، كما أعدت عدة ملخصات بعناية فائقة بحيث يمكننا وصفها بأنها أصبحت مؤلفات وكتبا موجزة حقيقية، ومع أكثر ما أدخل من تنقيحات (تهذيب) فيما بين القرنين الثامن والثانى عشر تولاها الأساتذة الخمسة مؤسسوا ما سمى بالكونفوشية الحديثة وأشهرهم تشوهى الذى أعد عام (١٢٠٠) المذهب الذى صمد ودام حتى سقوط الإمبراطورية الصينية (١٩١٢) وظل طوال هذه المدة المذهب الرسمى للحكمة الصينية.

والكونفوشية من حيث هى فكر مهذب منتقى محاولة لشرح الدنيا وتفسيرها وتستهدف القضاء على المعتقدات الشعبية البدائية وفى الوقت نفسه احترام القواعد العامة للتقاليد الموروثة ومن ثم نجد تلك المحاولة لاستبعاد الديانة الشعبية وإقصائها إقصاء اشبه متعال بل بصورة محتقرة إقراراً فى الوقت نفسه لمذهب الشك والريبة بوضوح وجلاء ولم يتكلم كونفوشيوس أبدا عن الأرباب وفى ذات الوقت يحترم نفحات العقل ويحترم الأسلاف ويفضل إبقاءهم على مسافة بعيدة منه وكان يقول كيف يستطيع من لا يقدر على خدمة الناس أن يقوم بخدمة النفوس ومن لا يعرف الأحياء كيف يعرف الأموات، ولدى أتباع المذهب الكونفوشيوسى مفاهيم عن قوى الطبيعة والعلاقات بين الناس وارتباطهم بالظواهر فوق الطبيعية.

ولهذه المفاهيم تفسيرات ودلالات متنوعة تصل فى مجملها إلى ما قد نطلق عليه بالنظرية العامية للكون ومن معتقداتهم أن ما يهيمن على الحياة فى الدنيا ليس نزوات الأرباب ولا نزعاتهم أو غضبهم أو حتى حسناتهم وإنما يعود إلى القوى اللافردية فتفاعلاتها هى المسئولة عن كافة الظواهر والتحولات، وهكذا نراهم يقولون الرب الذى فوق ومع ذلك احتفظ أنصار المذهب الكونفوشيوسى ببعض مفردات وكلمات قديمةبل من جذور وأصول شعبية ريفية كان يستخدمها القرويون وحملوها معانى فلسفية جديدة ومنها **البين واليانج**.

والأول: فى الأدب الشعبى يعنى الظل. **والثانى**: الشمس، والأول هو الطقس البارد المطير أى الشتاء والثانى الجو الحار الجاف أى الصيف والبين **كل ما هو أنثوى وكل ما هو سلبى واليانج كل ماهو مذكر وكل ما هو إيجابى** وقد أخذت الكونفوشية هاتين الكلمتين لتعمل منهما رمزاً لمظهرين من مظاهر الكون وهما يتعارضان فى المكان ويتعاقبان فى الزمن ومن تضاد هما تنبثق كل قوى الكون وهما البين واليان لا يتصاحبان فى الوجود أبدا ولكنهما يتتابعان أبدا (بلانهاية) الواحد إثر الآخر ويتحكم تتابعهما فى كل الأمور وخاصة المواسم فالبين الخريف، والشتاء فى أعقاب اليانج (الربيع والصيف) وهذا ما يفسر كذلك تعاقب النهار والليل والبرد والحر ويتحول هذا التصارع الثنائى داخل الإنسان إلى الحب

والحقد أو إلى السعادة والغضب... أما الإيقاع الذى يتولى هذه التحركات التناوبية للبين واليان فهو التاوية أى مبدأ التعاقب وبالتالى وحدة كل كائن وكل تطور والمثل يقول: مرة يين ومرة يان وهما وحدة التاو ولكن للأسف إذا كانت كل الأشياء فى مجال الطبيعة تجرى على طريقة فلسفتهم التاوية طريقهم المستقيم وإذا كان اليان من السماء والبين من الأرض يتعاقبان بدون نقاط ضعف وبلا خطأ للتحكم فى كافة أمور الطبيعة والبشر فالإنسان فى هذا الكون يعد عنصراً مميزاً خاصاً وذاتياً وكثيراً مايثير القلق والارتباك فى محيطه، وهو الوحيد فى الكون الذى يملك حرية عدم اتباع التاو فى طريقه ويحيد عنه فى اتجاه معاكس والإنسان بهذه الأفعال والتصرفات الرديئة إنما يقوم بتدمير الإيقاع الذى سبقت نشأته ويعتقد أتباع الفلسفة الكونفوشية أن الإنسان هو الذى يثير كل القلاقل وكل إخلال بالنظام المادى ككسوف الشمس وخسوف القمر والهزات الأرضية والزلازل والفيضانات والسيول والنظام البشرى (الإنسانى - من صنع البشر) كالتمرد والعصيان والثورات والفتن والمصائب والكوارث والنكبات... إلخ وعلى العكس نرى اتباع الكونفوشية الجديدة وقد انتقصوا من قدرة الإنسان ينسبون إثارة القلاقل إلى الإنسان نفسه لأنه بفقدانه للفضيلة يدين نفسه بنفسه ويعترف بذنوبه ويقر بانحداره إلى أسفل وهو كما سنرى نفس المبدأ المنادى بالسلطة العليا، ذلك أنهم يعتقدون أن الأسياد والعظماء مرفوعون لأعلى ذاتياً أى «مودعون» أى محتجزون بقدرما يتبعون المعايير السماوية أو الضوابط السماوية.

وعن الكونفوشية تتوالد إحدى قواعد الحياة... نوع من الأخلاقيات يهدف إلى الحفاظ على الطبقات والنظام فى المجتمع والدولة وهى التى تهب لمواجهة الفوضوية الثقافية والاجتماعية التى يدعو إليها الصوفيون وعلماء القانون، وانطلاقا من الممارسات الدينية السلفية (القديمة) أن الضار أتباع المذهب الكونفوشى وقد أدخلوا سلسلة من الشعائر هى ممارسات ومواقف اجتماعية أسرية وهى نوع له دوره الهام فى بناء التوازن النفسى والسيطرة على العواطف فالشعائر تنظم حياة كل إنسان وتحتفظ له بمرتبته والطبقة التى ينتمى إليها ويستحقها وحقوقه وواجباته أما من ينتمى إلى مذهب التاو فإن أتباع طريقه الخاص

(مساره) أو بالأحرى المسار الذى يخصه إنما يعنى كذلك المسار الذى يجدر به ويرون وقبل كل شىء المسار المحدد له فى سلم النظام الطبقى الاجتماعى.

وهذا هو المعنى العميق لتفسير كونفوشيوس الخالد المشهور عن الحكومة الفاضلة، فيما ينادى: أن يكون الأمير أميراً والمواطن (رعية) مواطناً والأب أباً والابن ابناً، وطبيعى أن الطاعة والاحترام الواجبين نحو الأمير وكبار موظفى الامبراطورية ينبع من مراتبهم العليا، ففضيلة الأمير كالريح وفضيلة أهل الطبقات الدنيا كالعشب الذى ينحنى دائما وأما الفضيلة الرئيسية الأصلية التى يجب أن يتحلى بها الرعايا فهى الطاعة المطلقة شرطاً أساسياً للتوازن فى المجتمع أو فى الطائفة. ومن هنا يمكننا تفسير الأهمية لدى مذهب الكونفوشية فى المحافظة على طقوس الأسلاف القدامى المجردة من كل ما هو دينى عقائدى إلا أنها ملزمة بتوطيد أركان نظام الطبقات والمراتب الاجتماعية ذلك أن الطقوس لدى الأسلاف القدماء تصون فى المحيط العائلى المراتب الاجتماعية والطاعة المطلقة. وكان واضحا أن ما بشر به أتباع الفلسفة الكونفوشية من فضائل من بينها: الاحترام والتواضع والخشوع والخضوع والطاعة ونظام التبعية لأهل الطبقة العليا وكذا أصحاب المنزلة والطبقة والعمر كل ذلك إنما يقوى ويدعم بقدر كبير السلطة السياسية والاجتماعية لطبقة المثقفين. أى بمعنى آخر للطبقة التى ينتمون إليها. وهذه النزعة الأخلاقية الشكلية التى تعتبر عرفاً تقليدياً مألوفا قامت بتدعيمه وكان لها حساب كبير فى بناء المجتمع الصينى واستمراره وثباته.

وبالتقريب كنزعة معاصرة للمذهب الكونفوشى التى جاء ميلادها من ثنايا الأزمة الممتدة فإن المذهب الطاوى الفلسفى بحث صوفى وعقيدة فردية للخلاص، والطاوية فى شكلها الشعبى مرتبطة بالحياة التى لها أهميتها فى الصين كشكل من إشكال الجماعات السرية تعود أصولها من الناحية النظرية إلى لاونتسو الشخصية الخرافية من القرن السابع قبل عصرنا ولكن الكتاب المنسوب إليه ويحتوى على مذهبه يعود إلى ماقبل ذلك (القرن الرابع أو الثالث قبل الميلاد فقط) والطاوية بحث صوفى للمطلق والخلود وقد قام أنصار المذهب الطاوى وكما فعل أنصار وأتباع مذهب الكونفوشية أو التاوى كما تراءى بإعادة تفسير المفاهيم والأفكار

العامة لليين ومفاهيم الطاوية وهم يرون أن التاوية تعنى المطلق الصوفى (الزاهد) وتعنى كذلك المقدرة الأولى للحياة ويصير كل شئ عن طريقها أى يحدث كل شيء (الصيرورة) ولا جدال فى أن محاولة تفسير هذا المطلق نادر تحقيقه أو التوصل إلى معناه ولنستمع إلى نص قديم منسوب إلى الفيلسوف مؤسس مبدأ التاوية: إن التاو الذى تسعى إلى التعبير عنه ليس هو التاو ذاته أما الاسم الذى ترغب فى إطلاقه عليه فليس اسمه الملائم وهو يمثل بدون اسم رمزاً الأصل الكون فإذا ما أطلقنا اسما عليه فإنما يعنى أم كافة الكائنات (البشر) ولكى ندرك سمه نلجأ إلى اللاوجود وبفضل الوجود نلج إليه، والعدم والوجود يخرجان من قاع وحيد لا يختلفان إلا فى اسميهما وهذا القاع الوحيد يسمى العتمة (الظلام) وتعتيم هذه الغمة أو هذا الظلام ها نحن أمام باب الأعاجيب... كل ما هو عجيب والكمال والطهارة (القدسية) التى يبحث التاويون عنها هى التوحد الصوفى مع التاوى الأبدى... هو الاندثارحيا فى ذلك الوجود الأصيل السامى الذى يغلِف كل شيء ولا يُغلفَ أبدا... فى اللاشكل الذى تتوالد منه كل الأشكال... فى التاو الذى تمتع بحياة خالدة وفى الوقت نفسه بلوغ الخلود الأمر هنا أننا بإزاء تجربة صوفية ليس يسيراً إدراك معناها بغير الاستلهام والتفكير والتأمل... لا تسمع بالأذن ولكن استمع بالقلب أى ما يعنى الروح للإنسان الصينى... ولا تستمع بالقلب وإنما استمع بالتنفس (ربما يقصد النفثات) (وإنما استمع بالنفثات والتنفسى) ذلك أن النفثه إذا خلت (لا هواء فيها) أدركت الواقع .

والتوحد مع التاوى (التاوية) لا يمكن الحصول عليه إلا بالفراغ... بالخواء وهذا هو صيام القلب والهدف هو ما يستطيع واحد من الممتازين الموهوبين المحظوظين التوصل إليه بعد أعوام طويلة يقضيها فى التأمل والتطهر وبالأعمال الطيبة المتكررة أو كما يقولون لنا فى بضعة أيام، ففى مدى ثلاثة أيام استطاع الانفصال عن العالم الخارجى وفى مدى سبعة أيام تمكن من الانفصال عن الأشياء القريبة وفى تسعة أيام استطاع الانفصال عن وجوده الذاتى ثم حظى بالاختراق الواضح، فقد عاش ما يسمى بالأوحد وبعد أن رأى ما هو أوحد تمكن من الوصول إلى حالة اللاحاضر واللاماضى وأخيرا استطاع بلوغ المرحلة حيث لا حياة ولا ممات...

وبهذا يكون مذهب التاوية قد انضم إلى كافة التجارب الصوفية الكبرى سواء كانت مسيحية أو إسلامية أو بوذية ولكن الخلود الذى يبحث عنه التاويون ليس خلاص الروح فقط بل خلود الجسد بفضل سلسلة من وصفات إطالة العمر والتطهر والتخفف من الجسد وممارسات عديدة منها رياضة التنفس التى تتيح التدفق الطليق للدم وتفادى العوائق والتجلطات وكثر العقد، ومنها ما هو متعلق بنظم التغذية وأساليبها كأن تهمل الأغذية المعتادة وخاصة النباتات الموسمية واستبدال الأقراص أو الأعشاب وعقاقيرها سواء منها ما هو نباتى أو معدنى وأخيرا طقوس وممارسات خيمياوية (الخيمياوية هى الكيمياء القديمة وتتدرج هذه الأخيرة من الآنية الذهبية الذى تتطهر فيه الأغذية ويذوب الذهب خاصة كبريتور الزئبق (وهو الزئبق المكبرت) عندما يتحول إلى زئبق ومن زئبق إلى تسع مرات على التوالى تصنع منه اقراص الخلود الحمراء وفى نهاية هذه الممارسات تتحول العظام إلى ذهب ولحم الإنسان إلى يشب (حجر كريم) كما أن الجسد يصير غير قابل للفساد أو الفناء ويتخفف مثل قشة لا قيمة لها يمكن أن يعلو ويتسامى إلى نوع من التأليه اللذين يسحران الأنصار بعد أن صاروا خالدين عند نعام الأرباب ولكى لا يعكرون صفوا الأحياء فسوف يتظاهرون بالموت كالآخرين تاركين كل منهم من ورائهم عصا أو سيفا يعطوها أو يضفى عليه مظهر الجثة وتعطى هذه الأبحاث الخيماوية (الكيميائية) عن إكسير إطالة الحياة معنى لقصة **تشانج كشووين** (الربيع الخالد) ذلك الناسك من انصار مذهب التاويه الذى كان قد بلغ الثالثة والسبعين من عمره وينسبون إليه (احياناً عمراً يصل إلى مائتى عام) حين اجبره جانكيز خان على مغادرة الدير الذى يقطنه ليلحق به فى منغوليا ويأتى له بوصفة إطالة العمر معه ولما وصل الناس إلى نهاية رحلته فى التاسع من ديسمبر عام ١٢٢١ سأله الإمبراطور : أى علاج أحضرته لى ويرد الناسك الصينى لا شيء فليس معى سوى تاوى ليضمن الحياة. ومات الإمبراطور والناسك بفارق زمنى بضعة أيام عام ١٢٢٧.

كما أن هناك أخيرا ديانه شعبية تاوية تتجاهل كلا من طهارة الأسياد والممارسات المتشابكة للبحث عن الحياة.. الطويلة وتفرق اللغة الصينية ذاتها بين الشعب التاوى أى التاو من الأنصار الحقيقيين التاوتشى وتكتلات التاوين الفانعة

من المساهمة فى عديد من المهام ومضاعفة القرابين نوبات الندم وهؤلاء الخلصاء المؤمنون لا يستطيعون ادعاء الخلود غير أن من كان منهم يمارس حياة نقية ومتطهرة يستطيع أن يضمن حياة أفضل فى الدنيا والأخرى... لن يفلتوا من الينابيع الصفراء (النار) ولكنهم سوف يستخدمون موظفين لآلهة رب الأرض وسيحكمون ويسيطرون على حشد الأدوات البائس وتؤكد هذه التفاصيل الأخيرة تماما العقيدة أو الفلسفة التاوية التى اضطرت لصالح الشعب إلى التلاؤم والإرتضاء بالمعتقدات القديمة فى هذا المجال كما فى غيره من المجالات. وقد مرت العقيدة التاوية بعدة مراحل تنظيمية من معابد طبقية وسلسلة من ملل وطوائف أشبه بالتجمعات السرية ذات الميول الصوفية والفوضوية وكانت العقيدة التاوية فى الواقع وفى مواجهة فلسفة كونفوشيوس التقليدية ونصيرة النظام الاجتماعى دائما رمزا المبدأ الذاتية الفردية وللحرية الشخصية والتمرد والعصيان.

أما البوذية وهى ثالثة وآخر المذاهب الكبرى ديانة، جلبها معهم المبشرون القادمون من الهند وآسيا الوسطى ولكنها بدورها تقترض من أغوار الفكر الصينى وتشكلت بعمق من التأثر به وتشكلت البوذية فى الهند فيما بين القرنين السادس والخامس قبل الميلاد وازدهرت مع عصر الإمبراطور اكوكا (٢٧٣ – ٢٣٦) واستبعدت بشكل غير محسوس (بهدوء) فترة من الفترات وما تلت العقيدة الهندوسية وحافظت على حظوة معينة فى شمال وشمال شرق الهند مع مؤسسى السلالات اليونانية من قبول غزوة الإسكندر وبعد ذلك كان لها رواج فى وسط آسيا وبكتريانا وحوض تازيم (أحد أنهار الصين) وهنا تقابلت مع الغزو الصينى تقريبا فى القرن الثانى قبل الميلاد. واحتاجت إلى ثلاثة قرون لتنتشر فى ربوع إمبراطورية الهند فى القرن الأول الميلادى عن طريق مسارات آسيا الوسطى وكذلك طرق البحار المحيطة وطرق اليونان وفى القرن الثالث فقط بعد تأخير زمنى طويل انتشرت هذه العقيدة البوذية انتشاراً فعلياً بين المجتمع الصينى بشقيه من النخبة والكتل الشعبية وكان لها نفوذ واسع حتى القرن العاشر.

والبوذية من تعاليمها أن البشر بعد الموت يولدون من جديد فى أجساد أخرى ليعيشوا حياة أكثر سعادة تقريبا (ومن الأعمال والتصرفات التى كانت فى الحياة

السابقة) وكانت دائما مليئة بالآلام ولا مخرج من هذه الآلام سوى الطريق الذى يعلمه بوذا ويسمح بالوصول إلى النرفانا أى حالة الفناء المطلق أى بمعنى الامتزاج فى الحياة الأبدية المطلقة وغير المشروطة والخلاص من «عجلة» التناسخ من جديد وهو الطريق الشاق ذلك أن مايعيد الحياة للإنسان بعد موته إنما هو تعطشه للحياة وتلك مرتبة يبلغها المرء بالانفصام أو التجرد والزهد ولذلك يجب إدراك أن «الأنا» الأنانية المحيطة به ليس كيان فعلى وإنما هو سراب خادع. وهذا المفهوم ليس من المعرفة العقلانية وإنما هى نوع من الاستشعار الحدسى[1]... نوع من الاستنارة والوحى الإلهامى لا يتمكن العاقل من بلوغه إلا بالاستغراق فى التأمل وممارسة تمارين روحية متكررة فى واحد منها وفى عدة حيوات (جمع حياة) أحيانا كثيرة وكان النجاح الأولى والرئيسى لهذه الديانة الشاذة الغريبة عن الروح الصينية بوجهها الفعلى.... كان السبب ما نستطيع أن نفسره بسوء فهم طويل فهى ديانه لم تتقدم للصينيين بوجهها الصحيح الواقعى وذلك أن طليعة أنصار المذهب البوذى ممن خرجوا من الأوساط التاوية اتخذوا من البوذية نوعا من التغيير عن عقيدتهم الذاتية وهما العقيدتان فى الواقع ليستاسوى ديانتين للخلاص. وتتماثل الممارسات فى التأملات فى وقت نجدها فى البوذية أقل مشقة للجسد مما جعلها ذات جاذبية اكثر أما النصوص الهندية القديمة (السنسكريتية) وكانت خليقة أن تثير الجدل حولها فلم تعرف إلا ببطء ويصعب جدا ترجمتها إلى اللغة الصينية وقد توصل المبشرون الهنود إلى المساهمة فى الترجمة وكان من طلائع أنصار المذهب التاوى وكان طبيعياً أن تسود المفردات اللغوية التاوية ترجماتهم مما زاد فى غموضها وبهذا صارت البوذية ومحاولاتها للتنوير نوعا من التوحد مع التاوية وترجمت النرفانا.

الفناء المطلق بالكلمة الصينية التى تشير إلى البقاء الأبدى وقد انتشرت تلك العقيدة البوذية التى شوهت وحرقت بسرعة بفضل شبكة واسعة من طوائف الرهبان والراهبات وصارت إحدى الديانات الشعبية لتجميع المؤمنين الخلصاء الذين يكتفون بالمساهمة فى الصلوات والأعياد وتلاوة الأدعية ومضاعفة

---

(١) الحدسى البديهى مذهب فلسفى يقدم الحدس على البرهان كشعور مسبقى بما يحدث فى المستقبل.

الصدقات والدعوة إلى تجنب الآثام وخاصة الخطايا الرئيسية الخمسة وحضور جلسات الاجتماعات المأساوية حيث كان الراهب مكلفاً بإنقاذ الروح والتذكير بأرواح الأسلاف ومواقع النار (جهنم) وذلك هو ما كان «المؤمنون المخلصون» يستطيعون بعد أدائه زيادة إيمانهم وأملهم فى كسب السماء والوصول إلى سماء الغرب بعد الممات بعد كسب شفاعة القديسين الذين يتوسطون لخلاص الأروح الهالكة (الملعونة).

ولم ينقشع الغموض الذى أحاط بالبوذية إلا بعد أن تعددت الترجمات للنصوص السنسكريتية الأصلية أى متأخرا جدا ليس قبل القرن السادس والقرن السابع، وفى الواقع نجد أن مذهب الطاوية والبوذية يتعارضان ويختلفان اختلافا عميقاً، فأحدهما يبحث عن «عقار الخلود» ولافنائية الجسد والثانى يعتبر الجسد قيدا مفروضا على البشر بسبب نقائصهم بل ويذهب إلى حد القول بأن لا وجود فعليا له «فالأنا» ولدى البوذى إذ تتحلل فى مرحلة الترفانا (الفناء المطلق) كل شخصية على حين يحتفظ التاوى الطاهر فى الجنة الموعودة للخالدين بجثته إلى ما لا نهاية، وقد أزعج بعض المفكرين الصينيين وفقط أنهم اكتشفوا متأخرين تلك الاختلافات والفروق من حيث استحالة استخدام المذهب البوذى لإدراك معنى التاو فقد كتب واحد منهم فى القرن السابع أن البوذية صارت منذ ذلك التاريخ «صينية» وقد عاصرت فترات كانت فيها مذهباً يحظى بكل اهتمام ومفضلا على ما سواه أعقبته فترة اضطهد فيها البوذيون بقسوة عام ٨٤٥ وانتهت بإغلاق كل معابدها وبقيت على الرغم من ذلك أعداد معينة من المعتقدات المنتقاة أدخلتها الصين فى تراثها دون تعديل وهكذا نجد أن الاعتقاد فى ترحال الأرواح قد انتشر فى ربوع الصين وكذلك الميتافيزية ما وراء الطبيعة تفسير فلسفى لنظرية عامة ومجردة وهى إحدى فلسفات المذهب البوذى وهما نظريتان نفذتا بقوة فى مذهب الكونفوشية الجديدة فى القرن الثالث عشر ولذلك لا يمكن القول إن الحضارة الصينية قضت على البوذية وإنما الحقيقة أن البوذية انضافت وانتمت إلى الحضارة الصينية ذاتها وطبعتها ببصمات لا تمحى ويكفى أن نتذكر آثار فنونها واستسلمت فى نفس الوقت لتلك الحضارة بصورة نهائية وعموما كان ذلك مصير كل

الديانات في الصين وقدرها. وإذن ما هو دين غالبية الصينيين بعيداً عن تصحيحات المذهب الكونفوشيوسى الجديد منذ القرن الثالث عشر حتى اليوم كذلك؟ بعبارة أخرى ماذا تعنى هذه المعابد المشيدة بقوالب القرميد ذات الألوان الصارخة التى تفوق البيوت العادية ذات اللون البنى أو الرمادى وحوائطها الخشبية أو المقامة من الصلصال؟ ليس ثمة ديانة معينة... ومع ذلك نجدها كلها معاً... فكل واحد من المخلصين يتوجه إلى الرهبان البوذيين أحيانا أو يتوجه إلى رهبان التاو أحياناً أخرى ونجد فى المعبد نفسه كلاً من الفريقين يقوم بعبادته ونجد تمثال بوذا منتصبا كهيكل الإله المحلى (الشعبى) . أو اكتمال كونفوشيوس المعبود تقريبا. وتقدم القرابين لكل منهم وفى أثناء الحرب الأخيرة أقيمت صلاة مشتركة فى أحد المعابد الصينية كانت موجهة إلى ٦٨٧ من الأرباب المعبودة ومن بينهم المسيح، والمثير للدهشة أنه نلاحظ أن هذا الجمع من الآلهة جاءوا من آفاق وآماد سحيقة وأن الصراعات العقائدية القديمة لم تؤثر المحاباة عقيدة أو أخرى وفى زمن ماركوبولو(١) وفى بلاط الخان الأعظم الذى كان مسيطرا على الصين وإمبراطورية المغول نشبت زوبعة دينية كادت تعصف بكل سئ حيث تمكن المغول من إزاحة أتباع العقيدة الكونفوشية وابعادها مع الاحتفاظ بوظائفهم فى خدمتها وقام هذا الإمبراطور الخان باضطهاد أتباع مذهب التاو(٢) حتى الموت مفضلا عليهم المغول الإتيميست وهم أنصار الإحيائية مذهب حيوية المادة والاعتقاد بأن النفس هى مبدأ الفكرة والحياة العضوية بل وأكثر من ذلك حابى البوذيين من أصول أسلاف التبت واستقبل فى بلاط اللاماس وهم طائفة تدعى المعجزات ومن السحرة واستفادت إحدى النحل المسيحية من طائفة النسطوريين من هذه الفرصة وبعد فترة قصيرة من مغادرة ماركوبولو تمكن أحد رهبان الغرب فراجيو قانى من مونتكور فينو من بناء أول كنيسة كاثوليكية فى كامبالو (بكين) بالقرب من قصد الإمبراطور الذى قدر عليه سماع أجراس الكنيسة كما سطر

---

(١) الرحالة الإيطالى ولد فى فينيسيا فى ١٢٥٤ وتوفى فى ١٣٢٤ وكان قد قام برحلة عبر فيها كل قارة آسيا عن طريق منغوليا بعد أن خدم فى بلاد كوبلاى خان ١٦ عاما.

(٢) الذين يعبدون الطبيعة والقوى الخفية فى آسيا الوسطى .

فراجيو فاني في مذكراته وكان لهذا الأمر وقع عظيم لدى شعوب الصين كلها ولكن ليست آمال هذا الراهب ولا آمال اليسوعيين (الجزوت)[1] وتمكنا فيما بعد من توحيد أهل الصين في عقيدة دينية واحدة وخاصة في ديانة غريبة واحدة وافدة عليهم من الخارج .

(١) جماعة الجيزويت : أسسها إيناس دى لا يولا ظهرت فى ق ١٧ .

الأبعاد السياسة

يجب فى مجال الأبعاد السياسية ألا نتابع مسيرة التطور البطىء المتعدد ولا نقتصر على إعطاء لمحة عن كتلة العادات والطقوس التى تحتويها هذه المؤسسة الإمبراطورية الهائلة ولكن الأمر يحتاج إلى أن نشرح العلة فى ارتكاز قوتها على أكتاف مجموعة من الموظفين المتعلمين وهم طائفة الماندارين (طبقة الموظفين العموميين) وكانوا حتى الأمس أقوى الدعامات التى ارتكزت عليها قوى المجتمع الصينى وحضارته ويجب أخيرا أن نسجل عن هذه المؤسسات أنها أثبتت فعاليتها بالنتائج التى نجحت فى تحقيقها وهى توازن يسود أراضى مجتمع ضخم وصيانة نوع من الوحدة السياسية، هذا التوازن وتلك الوحدة هما علة كيان هذا الكيان الإمبراطورى الضخم وبقاؤه حيث تمكن من تجسيد البقاء والصمود العينيين ويمكن طبقا لكتابات المؤرخين الصينيين أن ترصد أربعة آلاف عام من التاريخ مع تعاقب ٢٢ سلالة من الحكام فى تسلسل تاريخى دون أقل توقف أو انقطاع على ألا ننخدع إذ وقعت توقفات وقلائل فضلا عن بضعة أحداث فرضت نفسها كما لم تكن هناك وحدة حقيقية ولا مؤسسة إمبراطورية إلا منذ الوحدة الصينية التى أرسى قواعدها أول الأباطرة من سلالة التسى إن تسى وهو الإمبراطور تشيه هوانج تى (٢٢١ – ٢٠٦) تلك الوحدة تواصلت وتوطدت بفضل سلالة الهن عام

٢٠٦ قبل الميلاد و٢٢٠ بعد الميلاد، فإذا ما تقبلنا نقطة الانطلاق هذه لمعقوليتها وجدنا أن المؤسسة الإمبراطورية استمرت من عام ٢٢١ قبل الميلاد حتى عام ١٩١١ - ١٩١٢ حيث حدث سقوط سلالة الماتشوا التى تسمى كذلك سلالة التسنج (١٦٤٤ - ١٩١١) مما يوحى بخط زمنى طويل لمح دار حوله على امتداد قرون تاريخ الهند فى دوران هادئ بطيء وكان مستطاعا لنا منذ ذاك اهتمام فلاسفة الصين ومؤرخها لو أن اهتمامهم انصب على المؤسسة الحاكمة وشرعيتها بنظرة إلى الماضى فى تسلسل تاريخى وذلك لأن التاريخ أهمل هذه الناحية ولم يوفيها ماى يكفى من وضوح كما أن النظام الإمبراطورى الحاكم لم يكن إنسانيا فحسب بل كان كذلك دينياً مؤسسا على قيم غير طبيعية أى قيم إيجابية (من الوحى) والنظام الاجتماعى ونظام ما وراء الطبيعة ظاهرا وباطنا من نسيج واحد وكل مايصدر عن الإمبراطور ينحدر من كل ما هو دنيوى وقدسى وليس ولأفعاله صبغة علمانية واضحة إذ يشرف الإمبراطور فى الواقع وفى الوقت نفسه على النظام الروحى والنظام الطبيعى فى عالمه ويحتفظ بهدوء ويصون هذين النظامين ومن واجباته ودوره أن يعين كبار الموظفين الإداريين ويشرف على نظام طبقات المعابد أو خلع لقب على «فلان» من قدامى الحكماء حين يؤله أو يرأس حفل الافتتاح طبقا للطقوس عند بدء موسم الزراعة يشق الخط الأول للمحراث فى عيد الربيع ويقول الخبراء والعلماء ممن تخصصوا فى الشئون الصينية أن سلطة الإمبراطور ليست نابعة من حق إلهى من غير شك إذا ما تذكرنا الملكية الغربية فى العصور الوسطى وأول العصور الحديثة وسنلحظ بين السلطة الحاكمة الإمبراطورية الصينية والسلطة الحاكمة كما عرفتها روما نلحظ أكثر من شبه فيما يشتركان فيه من ملامح فلم تعمد السياسة الصينية قط إلى نشر ما يشبه المذهب الغربى عن حق الملوك الإلهى وهل كان ذلك ضروريا إذا كان الإمبراطور حقا ابن السماء وكان يحكم بمقتضى تفويض سماوى أو كما قال فلاسفة صينيون بمقتضى عقد لا يكافئ سوى الفضيلة.. ودورها ضرورى إذا ما أردنا تفسير تلك الكوارث التى لا يستطيع الأمير أن يجنبها إمبراطوريته أو حتى يتجنبها هو نفسه كالسيول والفيضانات ونوبات الجفاف المفجعة ورفض سداد الضرائب وهزائم الحدود فى مواجهة الهمج وعصيان الفلاحين. وكل هذه الفوضى إنما تعود إلى

توقف العقد الأساسي أو نقص في الفضيلة من جانب الإمبراطور وعندئذ يفقد صفة «الوكيل السماوى» وتلك نذر لا تخدع ولا تخطئ أبدا وإنما هي بمنزلة إعلان عن تغيير سلالة. وتعد انتفاضات العصيان والتمرد الشعبي في الصين القديمة على الأقل نذيراً يسبق سقوط إحدى الإمبراطوريات وفي قول قديم مأثور كمقولة الغرب - أي صوت الشعب هو صوت الرب - مانصة: السماء ترى كما يرى الشعب، وهكذا وببساطة شديدة ينتقل التوكيل السماوى شرعا من أيدى أسرة فقدت كل أهلية إلى سلالة جديدة تتملكها بالضرورة إذا ما تسلمت التوكيل ولفظ الصينى الذى يعنى الثورة في لغتنا وتبنته الصين الجمهورية يعنى حرفياً «سحب توكيل» وعلى كل حاكم فقد تلك الحماية الضرورية أن يتخلى عن موقعه فهناك إذن حاجة إلى صيانة استمرار الإمبراطورية (الحاكمة) ووحدة الصين وضبط السلالات الحاكمة في تعاقب تاريخي سليم مع استبعاد الدخلاء ولنقل عنهم أنهم «اللاشرعيون» أو معارضو العدالة، وعندما تنتهى سلالة من السلالات فلابد لأخرى أن تتسلم من السماء التوكيل المخول وتبدأ حيرة المؤرخ واضطرابه حين يجد في فترة من عهود سادتها القلاقل أن السلطة تنازعتها عدة أيادٍ وتقاسمتها فيما بينها فيصعب على المؤرخ الصينى تحديد هذا، استودع توكيل الاستمرار النشنج كونج ويقول عنها في الغرب «جائز الشرعية» فيعمد المؤرخ في مواجهة هذه الحالة إلى اختيار الذين يبدون من وجهة نظره «أجدر» من غيرهم ويخلع عليهم إذن وبصفة سلفية كل الاعتبار الواجب لابن السماء وهذه الشرعية المعترف بها بحق لمن أولى القدرة على أخذ السلطة إذ لابد جاءته القدرة من السماء، إنما يفسر لنا سر تلك الاستمرارية الصينية على الرغم من الكوارث المأساوية السياسية التى لحقت بها.

ثم إن عظمة هذه الحاكمية المستقرة عظمة عجيبة بكل مظاهرها عظمة البلاط وعظمة القصور التى يسكنها الوزراء والمثقفون والعلماء وحرس القصور والخصيان والمحظيات والخليلات والقصور المخصصة للحفلات والأعياد وكان الإمبراطور سونج[1] يتجه جنوب عاصمته هانج تشو يقدم القرابين للسماء وللأسلاف في

(١) امبراطور رومانى ابن أخت يوليوس قيصر ولد عام ٦٣ ق. ٢٠.

المعبد المقام فى الضاحية الجنوبية حيث مهدت أرض الطريق وفرشها بالرمال قبل مسيرة الإمبراطور عليه وكلف الجنود بإقامة سياج يكتنف الطريق وأعدت مجموعات من الفيلة مكسوة بملاءات مزركشة تسبق العربة الإمبراطورية فإذا مابدأ المسير انطلقت كل المشاعل التى كانت أضيئت فى المساء أسفل جانبى الطريق فى مشهد رائع فيه من الفخامة الكثير يجرى فى جو مشحون بالعواطف الشعبية الجياشة وتستند الملكية الحاكمة فى الصين إلى جذورٍ عميقة فى القدم وكان لاحتفالاتها الرسمية المعقدة بما تتسم به من الدقة المتناهية والبذخ الأسطورى وما كان لها كذلك من مظهر دينى وحسبنا أن نتخيل على سبيل القياس ما كانت تعنيه فى أوربا تعاقب سلالات أباطرة منذ عهد أوجست حتى تاريخ الحرب العالمية الأولى وماعساها تتحمله شعوب أوروبا؟

ويتعايش نظام الحكم هذا البدائى فى جوهره مع تمدين وحداثة هيئته من قادة مثقفين هم طبقة الماندارين أى كبار الموظفين الإداريين وقد استغرب الغرب وجودهم مخطئا فهم مراكز هم باحثاً بلا جدوى فى الصين على عهد المنج (سلالة حاكمة) أو فى عصر المانشو (سلالة أخرى) عن أفق اجتماعى يذكرنا من قريب أو بعيد بما كان إلى جوار الملكية من طبقة الكهنة والنبلاء وكانوا بمنزلة دولة ثالثة وكانت أهمية طبقة الماندارين تضفى عليهم مظهر النبلاء فى مفهوم شعوب العرب ولكن لم تكن جماعات الماندارين كما سبق أن أوضحنا من النبلاء بل طائفة من كبار موظفى الدولة لم يكن عددهم او كانوا يجندون ويختارون بدقة بعد اختبارات عديدة معقدة بل حتى ثقافتهم كوظائفهم كانت عن تسلسل طبقى ضيق لا دخل للميلاد فيه وقد لايزيد عددهم جميعا على العشرة آلاف من الأسر بمصر القرن الثالث عشر وهم طبقة اجتماعية غير منغلقة عن الشعب بلاشك لولا صعوبة الولوج إليها أو الوصول إلى حدودها إذ كانت حكرا على المثقفين دون سواهم فى أفراد يتقاربون بفضل لهجاتهم واهتماماتهم وأفكارهم بل واتجاهاتهم الذهنية فيجمعون فيما قد نطلق عليه «التواطؤ» مما كان يدفع بهم إلى نوع من العزلة عن سائر الرجال. ونركز على القول بأنهم لم يكونوا قطعا كالنبلاء ولا السادة كطبقات محدودة أو حتى كأثرياء الحظوظ (ملاك الثروات) وذلك إذا ما

أردنا نوعا من المقارنة وكما يقول اتيين بلزاس مؤكدا أن أحداً لا يشبه هذه الطائفة من الماندارين سوى هؤلاء التكنوقراطيين فى مجتمعاتنا الصناعية هؤلاء الذين يعدون فى أيامنا بصورة غير مباشرة ممثلى الدولة القوية وهم بطبيعتهم «متداخلون» بشدة مهتمون بقيمة الإنتاج أوفياء لفكر عقلانى ويتعلقون به بشدة.

والماندريون يشبهونهم فى :

١ - ألقابهم الثقافية التى تعود إلى حقوق اجتماعية يتمتعون بها بفضل مكانة نادرة واستثنائية.

٢ - ويشبهونهم فى أنهم طبقة تتمتع - على قلة عددها بنفوذ واسع وقدرات لايستهان بها تتيحها مكانتهم ومواقعهم ونفوذهم.

٣ - ويشبهونهم فى أنهم لا يتقنون غير وظيفة وحيدة هى أن يحكموا ويقودوا، وفى فترة ساقها منسيوس الفيلسوف الصينى ٣٧٢ - ٢٨٩ كان يعد على رأس كبار الكتاب ممن أرخوا للعقيدة الكونفوشية من حيث هى فلسفة فى معرض المقارنة بين من يفكرون ومن يشقون وليست اهتمامات المتميزين ذوى المراتب العليا الرفيعة هى ما يهتم به عامة الرجال إذ ينكب الأولون على ما يحتاج إلى العقل من أعمال والآخرون على ما يحتاج إليه الجسد من مهام، فأما من ينكبون على المهام والأعمال العقلية فيحكمون الآخرين، أما من يستخدمون قوتهم فيحكمهم الآخرون والمحكومون يكونون فى خدمة الآخرين ومن يحكمون يكون الآخرون فى خدمتهم. والعمل اليدوى الرهيب مسمى فخرى أما يد العالم المثقف بأظافرها حيث يتركها تفرط فى النمو لا نستطيع أداء سوى عمل واحد هو تناول البرقاش / الريشة التى ترسم الحروف.

ولكن ترى ما معنى الحكم فى الصين القديمة يكاد يكون كما يجرى فى دوله من دول اليوم.. الإضطلاع بكل مهام الإدارة والعدل، فالماندريون يتولون جباية الضرائب ويتصدون لإقرار العدل ويؤمنون الشرطة وقد يكلفون بقيادة عمليات حربية ويعدون سجلات التقويم (تقسيم الأزمنة) وتوزيعها بمعنى توزيع الأعمال على مواقيت معينة ويباشرون إنشاء الطرق والقنوات والسدود ونظم الرى فدورهم

تصحيح مسار الطبيعة القاسية واتقاء آثار الجفاف والسيول والفيضانات وتوفير احتياطيات غذائية... وبإيجاز .. تأكيد سلامة سير العمل وانتظامه فى مجتمع زراعى معقد يتطلب نظاما دقيقا يتبعه الجميع واجبا مقدسا وخاصة فى سبيل التوفيق فى مراقبة نظم الأنهار وحركتها والإشراف عليها وانتظام الرى. وطبقة الماندارين هى هذا النظام الدقيق وهى الاستقرار ورسوخ المجتمع والاقتصاد والدولة والحضارة إنهم النظام فى مواجهة الفوضى ومما لا شك فيه لم يعرف هذا النظام سوى آثارٍ ونتائج سعيدة ولكن ثمن التجانس ودوام الحضارة الصينية وحيويتها كان كبيرا فقد كانت أيدى طبقة المندارين الحديدية قادرة على صيانة وحدة إمبراطورية شاسعة فى مواجهة الإقطاعيين من جهة وفى مواجهة مجتمع زراعى (القاعدة هنا بدون استثناء) وقع فى براثن الفوضى من جهة أخرى كلما أُهمل وحيدا يواجه الطاوية خصم كل قهر جماعى وخصم أنصار المناداة بالعودة إلى الطبيعة، وكان على المثقفين أن يمجدوا فضائل الفوضوية ومفاهيم الروح الكونفوشية.

وبهذا المعنى نجد طبقة المندارين (كبار موظفى النظام) مسئولين مسئولية تامة عن الجمود الاجتماعى الصينى فقد تمكنوا من صيانة نوع من التوازن بين كبار الملاك وأصحاب الأراضى المتمسكين بمواقعهم وبين الفلاحين البائسين القانعين مع ذلك بأراضيهم البائسة (القليلة) وقد تمكنوا كذلك من حماية الرأسماليين االمرتقبين والتجار والمرابين والأثرياء الجدد وهؤلاء لم يفلتوا من أن تقهرهم وتخضعهم لمكانتهم طبقة الماندارين، ومن يوم لآخر كانت تداعب آمال خلفاء التجار من محدثى الثراء وتجرفهم نزعة الإغراء فى بلوغ مستوى معيشة المثقفين وجاذبية السلطة وبهذا يمكننا أن نوضح ولو جزئيا على الأقل لمَ لمْ تتطور المجتمعات الصينية كتطور المجتمعات الغربية... نحو نظام رأسمالى فظلت المجتمعات الصينية واستمرت حبيسة تتشبث بعقلية أبوية سلفية تقليدية أما الوحدة الصينية أى الشمال إلى الجنوب فلم تعرف الأراضى الصينية وحدة حقيقية إلا مع بداية القرن الثالث عشر فى ذلك الزمن الذى تعرضت فيه الصين بأسرها لكثير من الكوارث الأرضية التى أصابتها وانتهى الغزو المغولى (١٢١١ - ١٢٧٩) بغزوة قبائل السونج الزاحفين من الجنوب حيث عاصمتهم هانج تشو التى زارها

فيما بعد الرحالة ماركوبولو فيزداد إنبهاره بجمالها وازدهارها ولم يكتف حكام الصين الجدد بمد حدود سيطرتهم إلى أراض أخرى ما استطاعوا بل تمكنوا كذلك من أن يوفروا لتلك البقاع الساحقة القوة والبقاء وسبل الحياة ولئن كانت قبائل عصور الهن والتانج والسونج قد ربطوا حقا بين تلك الأراضى فقد كان ذلك بداية التطور الحقيقى وإن سبقت محاولاته منذ أمد بعيد وهو التطور الذى أدى إلى اتساع رقعة البقاع الجنوبية وثرائها وتفوقها لتشمل كل الصين وكل أطراف الإمبراطورية فقد ظل الجنوب قرونا ويشبه المغرب الأقصى فى أمريكا شبه بدائى همجى قليلا سكانه وأغلبهم من سلالات بدائية كان حتما طردهم قسرا وقد كان، ولكن بسيء من الصعوبة ومع ذلك بدأ الجنوب ينهض من سباته وركوده فى القرن الحادى عشر على الأقل حين عرف سر إنتاجية محصولى الأرز فى كل دورة زراعية وانتشرت فى ربوعه تلك المعجزة العجيبة وأصبح الجنوب منذئذ بمنزلة مخزن غلال الصين، فإذا كانت سيطرة رجال النهر الأصفر هى التى سادت فى الأعوام الألفين الأولى فقد انتقلت السيطرة والسيادة فى الألفية الثالثة وحتى يومنا هذا فيها لرجال اليانج تسوكيانج وما وراء ذلك نحو الجنوب حتى كانتون ثم استبعدت رويداً رويداً عاصمتها بلاد النهر الأصفر وهما هانج تشو وتانكين لصالح العاصمة الجديدة بيكين وهى المدينة التى انشئت فى الشمال لأسباب جغرافية بديهية لمواجهة خطر غزوات الهمج وبدو الشمال الرحل وكانت مواجهة غاراتهم تحتاج إلى الاحتفاظ بتحصينات قوية وسرعان ما وضحت سيادة الجنوب عددا ففى القرن الثالث عشر كان هناك عشرة صينيين من الجنوب مقابل صينى واحد من الشمال ولم تشمل السيادة والأولوية للناحية العددية فحسب بل كذلك للنوعية والفعالية إذ نجد غالبية المثقفين العظمى حتى يومنا هذا من أحفاد القرون الثلاثة الأخيرة وهم من جذور مقاطعات كيانج سو وتشوكيانج وينحدر أغلب قادة ثورة القرن العشرين من اقليم هوتان وقد كانت لتحولات مراكز الثقل موقع إلى آخر آثار بعيدة المدى فيما بين القرنين الحادى عشر والثالث عشر، ويمكن القول إن رقعة الرمال الصينين الشاسعة المترامية الأطرف انقلبت لصالح رقعة أراضى الأرز مع نقص الذرة والقمح ولكن الصين الجديدة هذه تظل هى الصين القديمة فهى

الجديدة ساعدتها على الامتداد والنمو والثراء والجنوب هو بقدر أمريكا والصين كما سوف تكون عليه منشوريا فيما بعد منذ القرن العشرين.

الأبعاد الإجتماعية والاقتصادية :

نلاحظ فى شبه خمود الصين الكلاسيكية (التقليدية) شبه جمود دعائمها الاقتصادية والاجتماعية فهما دعامتا البيت الهائل مثلها كمثل كل مجتمع متكتل يبدو والمجتمع الصينى كأنه عدة مجتمعات أشبه باندماج جزء فى آخر احدهما تقدمى والآخر قديم بالٍ ويرتبط مصيرهما بحركة تطور بطىء غير منظور. ففى أعماق هذا المجتمع الصينى نجد مجتمعا زراعيا وعماليا على أوسع مدى وذلك بسبب كتل ضخمة من الفلاحين والمزراعين الفقراء وسكان مدن حضرية بائسين ولا يكاد أفراد هذا المجتمع الفقراء يشاهدون سادتهم أما إمبراطورهم فنادرا ما يشاهدونه هو أو الأمراء من نسله وهو مجتمع يضم عدداً قليلاً من أصحاب الثروات الأغنياء أو كبار ملاك الأراضى ويمثلهم وكلاء اعمال مكروهين يحكمون عليهم ويقدرون مجهودهم عن قرب اثناء ممارسة العمل أو من كبار الموظفين الموهوبين الذين يحكمون البلاد من بعيد وبأيديهم عصى الخيزران لزوم الطاعة وعلى العكس يتمتع صغار البيروقراطيين بقدر من التعاطف والمحبة وأخيرا نسمع كل يوم الابتهالات بالموت والنهاية المفجعة للمرابين ولمقرضى الأموال مقابل رهان.

وقد حفلت القصص الشعبية على كل حال بكل تلك الأوضاع ولعلنا نصف تلك المجتمعات بأنها مجتمعات أبوية (السيادة للأب أورب العشيرة) ومجتمعات قائمة على الرق ومجتمعات من فلاحين ومنها الحديثة والبعيدة بعداً شاسعا عن المجتمعات الغربية فهى أبوية عشائرية بحكم سطوة الأنسباء والنسل والأبناء غير القابلين للإنكسار حسب طقوس المذاهب القديمة والتضامن الأسرى والعائلى إذ يمتد ليشمل أبعد الأقارب بل وليشمل كذلك أصدقاء الطفولة والأمر هنا ليس نوعا من البر أو الإحسان أو المحبة وإنما هو نوع من العدالة فالمحظوظ الذى ينجح فى مهنة من المهن يستثمر فضائل الخلية الأسرية أو العائلية وعليه تتدفق بركات الأسلاف المشتركة. إن من العدل وعلى من يستنفد فرص العائلة أن يعكس على أهل الرخاء الذى يستحقونه منه والواجب عليه نحوهم.

وهذه المجتمعات كذلك مجتمعات ذات جذور تتصف بالعبودية أو كانت على أقل تقدير العبودية سارت فيها، أحياناً كثيرة ما لم تكن سادتها كلها والعبودية هى الشكل التلقائى للفقر المستديم. إذ تؤدى كثافة أعداد السكان وشدة تزايدها بحيث يبيع الإنسان نفسه فى الأوقات العصيبة ويعمد الأهل كما هو مألوف فى كافة بلاد الشرق الأقصى إلى عرض أولادهم للبيع، وقد استمر هذا السلوك سائدا فى الصين حتى صدور المرسوم بقانون عام ١٩٠٨ فى نهاية عصر سلالة المانشو إذا ألغى الرق وحرم بيع الأولاد ومع ذلك فقد كان يسمح للأهل فى بعض أوقات المجاعة والقحط بالتوقيع على عقود طويلة الأجل لاستخدام أولادهم فى العمل قد تمتد ٢٥ عاما.

وليس مجتمع الصين الريفى إقطاعيا بالمعنى المفهوم حيث لا إقطاعيات بالتكليف ولا إقطاعيات ممنوحة أو موهوبة وليس هناك مزارعون أرقاء ويمتلك كثير من الفلاحين قطعاً من الأرض صغيرة جداً لولا أن فوقهم وجهاء من علية القوم القرويين التشى تشى يستأجرون أراضيهم وعند الحاجة يصبحون أقرب إلى المرابين حين يقدمون القروض لقاء أعمال شاقة أقرب إلى السخرة أو مقابل استخدام الفرن أو المطحن يكون المقابل فى أغلب الأحيان عينا عن مكيال عشرة أرطال من حبوب أو وعاء من الدهن ويرتبط عليه القوم هؤلاء فى الوقت نفسه بالمثقفين وهؤلاء كذلك بالمناسبة من كبار ملاك الأراضى ويمثلون كما قلنا من قبل الدولة والسلطة ومصلحة الدولة قبل كل شئ وفى هذا الإطار يبذلون كل جهد لمنع أدنى محاولة متجاوزة لسيطرة طبقة على أخرى وخاصة وأد أية محاولة من طبقة إقطاعية قادرة على منافسة السلطة المركزية ومزاحمتها.

هذا النسيج الاجتماعى متعدد الجوانب يحافظ على النظام بين الجماعات الأربع القديمة بجذورها السلفية وعلى رأسهم طبقا لطقوس المراتب الاجتماعية القديمة المثقفون ثم الفلاحون الـ نرنج يليهم الصناع المهرة أو الحرفيون الكونج والتجار التشانج وهاتين الفئتين الأخيرتين كان ممكناً أن تلعبا دوراً محركاً لكبح جماحهما كسائر الطوائف بفضل حكومة يقظة ولم يكن دورهما لينمو ويضطرد بغير انتفاضات اقتصادية وكانت انتفاضات منقطعة لا سبيل إلى تشخيص ما حدث فى الصين على أن حالة من النقص مقارنة بأوروبا فالنقص إنما يتعلق

بالكيانات وبالأسواق المفتوحة وشخوص رأسمالية تجارية فليس هناك منذ البداءة مدن حرة ولا أسواق تسيطر عليها تلك الرغبة الجامحة لتحقيق الربح الذى كان سببا للتقدم الحاسم فى بلاد الغرب مكروها كان أو محبوبا وكان التجار الصينيون منذ القرن الثالث عشر على استعداد للتضحية بكثير من مظاهر الكبرياء والزهو والخيلاء وحب الظهور ولكنهم كانوا يتحلون بالذوق والعاطفة وحب الثقافة والعلم كنجل تاجر كان يقرض الشعر وكان التجار من واقع تاريخ القصص الشعبية فى عصر السونج يحرصون على كسب الأرباح التى تكفل لهم حياة رغدة وأداء واجباتهم الاجتماعية والأخلاقية وخاصة الوفاء بما عليهم نحو عائلاتهم وأهليهم جميعا وكان ممن هم أكثر ثراء مما أتاح لبعض أهلهم وأقربائهم إمكانية الانتقال إلى طبقة المانداران الساحرة ذلك فكر يشبه ما كان يسود المجتمعات الغربية الرأسمالية من فكر بل كان هناك أكثر من ذلك ما لانهاية له من طبقات التجار الحرفيين الرحل وكان هذا التشرذم وحده علامة على اقتصاد لم يتضح بعد. وفى القرن الثالث عشر فقط تخلصت أوروبا جزئيا من هذا النوع من التجارة المتجولة التى كانت سمة مطالع عصورها الوسطى وتعددت بعد ذلك بيوت التجارة ذات المواقع الثابته (المحلات) فما كان أسوأ حال هذا التاجر الذى يصطحب كل بضائعه وليس لديه موظف يأتمنه ولا فرع لنشاطه ويفقد قدرة إنهاء تعاملاته بالخطابات ويماثلة ذلك الحرفى الذى يحمل على كتفيه أدواته وبعضاً منها على ظهره يترجل متجولا بين المدن والقرى بحثا عن عمل وقد سمعنا فى القرن الثامن عشر عن هذه الطبقة من العمال ممن كانوا يصنعون السكر فى ربوع الصين يجيئون إلى ملاك الحقول ومعهم معداتهم ليسمح لهم وبقوة أذرعتهم يقطع قصب السكر لاستخلاص عصيره والسكر المشوب (المخلوط) ولذلك كانت التجمعات الصناعية وتمركزها نادراً. وهناك بعض مناجم الفحم لازالت حرفية فى الشمال يتولاها صناع مهرة وتكثر فى الجنوب تلك الأفران الشهيرة حيث نلقى صناع الأوانى الخزفية المشهورة.

كما لم يكن البيع أو الشراء بالأجل معروفا حتى بداية القرن الثالث عشر أو القرن التاسع عشر ومن ثم قد تغير دور المرابى المندس المغرور كأنه شوكة تدمى

جسد هذا المجتمع القديم وفيما كانت عليه الشعوب الصينية مما يتيح وحده دلالة واضحة من هذا المرابي على اقتصاد متخلف جدا يتنفس بصعوبة. وعلى الرغم من الأنهار والقنوات، وتلك السفن ذات الأشرعة العالية المشهورة المعروفة في بلاد الشرق الأقصى ذات القلاع والزوارق ذات المجاديف والأخشاب العائمة كالقطارات والإعفاءات الممنوحة بين المقاطعات وكثرة الحمالين وقوافل الجمال في المناطق الشمالية فقد كانت رغم كل وسائل النقل تلك بلداً سيئ الروابط سئ الانفتاح على أطرافه وعلى بعضها البعض كما كانت الصين كذلك سيئة الانفتاح على العالم الخارجي ثم كانت آخر الأمر وخاصة الصين القديمة التقليدية (الكلاسيكية) تعج كثرة بالسكان لا نظير لها في أي مكان.

ولما لم تكن مفتوحة (منفتحة) على العالم الخارجي فقد عاشت متقوقعة على نفسها لا انفتاح فيها على خارج حدودها إلا عن طريقين وحيدين: طريق البحر وطريق الصحراء ومع ذلك فقد انتظرت رغم هذين الطريقين حتى تجد شريكا يقبل تبادل التجارة معها قادراً عليها.

ففي عصر المغول ١٢١٥ - ١٣٦٨ وعلى مدى قرابة قرن من الزمان (من ١٢٤٠ حتى ١٣٤٠) افتتح الطريقان معاً إذ بذل الإمبراطور كوبلاي كل جهده لإنشاء قوة بحرية للتحرر من السفن المسلمة فضلا عن حماية بلاده من منافسة اليابانيين ومزاحمتهم وقرصنتهم كما أنه حرر الطريق المنغولي الطويل الذي يمر إلى ما وراء بحر قزوين للوصول إلى البحر الأسود حيث مستعمرا ، جنوا المزدهرة ومستعمرات الفينقيين.

وجاء انفتاح الصين ليجعل منها يقيناً بلادا مزدهرة يفد إليها التجار من الغرب يتاجرون معها في مبادلات مثمرة مقابل نقود من الفضة وتعرفت الصين إلى أعجب الأعاجيب إذ عرفت للمرة الأولى النقود الورقية وإن لم تدم طويلا.

وعلى أي حال فإن الثورة الوطنية الكبرى لسلالة المنج هي التي ألقت بالمغول إلى الصحراء (١٣٦٨) وأتاحت للأراضي الصينية أن يؤمها الأجانب ولم تكن الصين «الجديدة» وفي ذلك الوقت قادرة على تخطي العائق الضخم فقد حاولت

من جهة البحر شعوب سلالة المنج أن تفتح دون جدوى هذه الطرق الرئيسية إذ تولى الأميرال تشبخ هو قيادة سبع حملات بحرية متتالية ضمت إحداها ٦٢ جونكا ضخما فى الأعوام من ١٤٠٥ حتى عام ١٤٣٢/٣١ وهى السفن ذات الأشرعة الطويلة وعلى متنها ١٧٨٠٠ جندى وغادر هذا الأسطول البحرى كل أراضى تاتكين لتجديد الحماية الصينية على جزر السوند التى كانت توفر للصين التبر والفلفل والبهار. وتقدمت سفن الأسطول حتى سيلان وفيها أبقوا إحدى الحاميات مندفعين حتى بلغوا سواحل البحر الأحمر والخليج الفارسى والساحل الإفريقى ومن هذه الرحلة جلب الصينيون معهم قطيعاً من الزرافات أثار منظرها بمالها من عنق طويل دهشة السكان وذهولهم. وكان عصراً أثار دهشة العلماء الصينيين كما أثار اهتمامهم كذلك وتعود سفن الأسطول تارة أخرى مشرعة قلاعها فتصل إلى سواحل رأس الرجاء الصالح قبل البرتغاليين بنصف قرن واكتشفوا أوروبا بل وقارة أمريكا ذاتها، وانتهت المغامرة عام ١٤٣١ - ١٤٣٢ لم تترك آثارا أو توابع.

وقامت الصين الشاسعة المترامية الأطراف بحشد قواها فى المناطق الشمالية فى مواجهة خصومها الخالدين.

ففى عام ١٤٢١ أهملت نانكين وصارت بكين هى العاصمة وقام الأباطرة من سلالة المانشو فيما بعد بإعادة افتتاح طريق الصحارى فى القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر وتمكنوا من احتلال أراضى شاسعة امتدت حتى بحر قزوين والتبت حماية لبلادهم من غارات البدو الرحل وأبعادهم حتى الغرب واستتب الأمن والسلام للصين الشمالية بفضل تلك الغزوات بل وأمكن للصين فيما وراء منشوريا.. الاستيلاء على سيبيريا حتى الأمور[1] (معاهدة نيرتشينسك) عام ١٦٨٩ وقد تداعت عن تلك الغزوات نتيجة أخرى هى فتح ايركونسك جنوبا منذ النصف الثانى من القرن الثامن من عشر على أسواق كياتكا الكبرى حيث الفراء النادر المقبل من الشمال مقابل الأقمشة القطنية والحريرية والشاى من الصين أما باب البحر فقد حاول الأوربيون فتحه فى القرن السادس عشر.

---

(١) نهر شمال آسيا يفصل بين الصين وشرق شمال سيبيريا.

ثم أعادوا فتحه فى القرن السابع عشر ثم القرن الثامن عشر وتمكنوا من اقتحامه فى القرن التاسع عشر.. وكان ذلك لصالحهم.

وللصين المكتظة بالسكان لعلهم ١٠٠ مليون صينى (٩٠ مليوناً فى الجنوب وعشرة فى الشمال) وقد تناقص هذا الرقم فى نهاية الهيمنة المنغولية وفى ثورة المنج الوطنية عام ١٣٦٨ وفى عام ١٣٨٤ انخفض عدد السكان إلى ٦٠ مليونا ثم عاد السلام فبدأ العدد يسترد صعوده القديم. ثم تراجع من جديد مع غزوة المانشو ١٦٤٤ - ١٦٨٣ ثم عاد إلى الصعود مع السلام الذى ساد البلاد مع التوسع الضخم فى القرن الثامن عشر وأصبح معدل زيادة السكان مذهلاً مخيفاً ومما لا جدال فيه أن هذا الارتفاع فى المعدل الديموغرافى (عدد السكان) انعكاسا فى المقابل، فهذا الثراء البشرى كان سبباً عاق بعض الشئ التقدم التقنى الممكن إذ يتكاثر البشر تكاثرا يجعل استخدام الآلات أمراً لا ترجى منه فائدة.

كما كان الأمر من مثال قديم فى اليونان وروما وكان كل منهما يعج بالعبيد: أن الإنسان قادر على كل شيء. ففى عام ١٧٩٣ شاهد رحالة إنجليزى ومستغرب أدهشه كيف تمكن قوم بسواعدهم من حمل سفينة بسواعدهم لنقلها من مياه إحدى القنوات لترسو فى مياه قناة أخرى مستعينين بهويس. وورد فى مذكرات القس لاس كورتس. (١٦٢٦) كيف تمكن جماعة من الحمالين الصينيين من رفع حزمة ضخمة من جذوع الشجر. وعلى الجملة فما من عمل لا يقدر البشر على أدائه بنجاح مذهل والبشر فى الصين ثمنه زهيد جدا.

ولكن هذه الوفرة البشرية أثارت الضيق فى الحياة الصينية وجعلت الإنسان فى الصين يبدو جامدا لا يتحرك كمن أصابه الشلل وفى عنقه هذا الطوق الحديدى الذى تفرضه إدارة حاكمة غير تقدمية بحال وخاصة إدارة حاكمة أغلقت الباب فى وجه انطلاق التقنيات العصرية والعلم الصينى فى الواقع بل مجموعة من العلوم متوفرة يكتشفها الخبراء والباحثون كل يوم ويكتشفون ما تنطوى عليه من ثراء وتفتح مبكر ومهارة بل وعصرية كما يقول المؤرخ جوزيف نيدهام ومفهومه «العضوى» للعالم هو ما ينزع إليه العلم الحديث متعارضا مع المفهوم الآلى وكان منذ نيوتن حتى نهاية القرن التاسع عشر هو المحور الذى ارتكز عليه العلم فى

الغرب... وأما فى الصين وبالغرابة ما فى الصين فقد حدث أن التقنية لم تتعقب العلم ومازادت على أن رسمت له الخطى، والسبب الرئيسى لاشك تلك الوفرة الزائدة فى الأيدى العاملة حيث لم تكن الصين فى حاجة إلى تخيل آلات لتفادى مشاق الإنسان... وكانت البلاد الصينية دائما ضحية من ضحايا الفقر الذى جرفها نحو هذا المرض المتوطن... مرض الاكتظاظ السكانى الرهيب.

الفصل الثالث

الصين بالأمس واليـــــــوم ..

الصين بالأمس واليوم

لم تضمحل الصين التقليدية(القديمة) بين يوم وليلة بل تدرج اضمحلالها فلم يبلغ غايته قبل اكتمال القرن التاسع عشر ثم تبدأ الأحداث تتلاحق وقد تم فتح البلاد الصينية بالقوة وتبع ذلك فترة خضوع طويلة وظلت تعانى من الإذلال زمنا طويلا حاولت فيه جاهدة إيجاد العلاج لهذه الفترة من تاريخها وتمكنت من الخروج منها بفضل جهود خرافية لم يذكر التاريخ شبيها لها.

زمن المعاهدات غير المتكافئة

الصين الذليلة الشقية الخاضعة والمريضة (١٨٣٩ ـ ١٩٤٩):

لم تحتل الصين كما احتلت الهند ولم تتحول مثلها إلى مستعمرة ولكن الأراضى الصينية اغتصبت ونهبت بالقوة وتقطعت أوصالها. وكل القوى الكبرى حصلت واحدة إثر أخرى على نصيبها من الأراضى الصينية ولم تستطع الخروج من هذا الجحيم إلا بإنشاء الصين الشعبية عام ١٩٤٩ وكانت التجارة الأوروبية منذ القرن السادس عشر قد اقتربت منها إلا أن الحدث الأهم جاء بعد ذلك من المعاهدات غير المتكافئة ففى عام ١٥٥٧ استقر البرتغاليون فى ما كاد ى مواجهة كانتون ولعبوا دورا مهما كبيرا بين الصين واليابان إذ استولى كل من الهولنديين

والإنجليز فى القرن السابع عشر على أفضل الأراضى وأخيرا ومع بداية النصف الثانى من القرن الثامن عشر حيث بدأ العصر الذهبى لنوع من المبادلات التجارية مع الصين ومع ذلك ظلت مقتصرة على ميناء كانتون دون سواه.

لم تكن هذه التجارة غير المشروعة فى جملتها ذات أثر يذكر على كثافة سكانها. فقد أقام التجار الأوروبيون وخاصة الإنجليز منهم علاقات مع شركة محظوظة من التجار الصينيين يحتكرون كافة المشتروات والتوريدات ويؤلفون ما يسمى بالكوهونج وتتصاعد تلك العمليات والمبادلات خاصة حول الذهب الرخيص فى أسواق الصين لندرته وسعره المرتفع مقابل الفضة إذ تتضاعف أسعاره تقريبا مرتين عنه فى أوروبا، كما تركزت التجارة على الشاى حيث يتصاعد الطلب عليه فى الغرب بشكل يثير الدوار وكذلك على القطن والأقمشة القطنية المستوردة خاصة من الهند وأخيرا تركزت معاملات الغربيون على لعبة الأموال والتجارة والائتمان والقروض إذ يقرض التاجر الأوروبى التاجر الصينى الأموال والسلع لتوزيعها بدوره مقرضا إياها لقاء سلع ومنتجات من المقاطعات حتى من تلك النائية فى أنحاء الإمبراطورية منشئا لذلك شبكة متداخلة من الشبكات المالية وتلك وكانت الطريقة التى يلجأ إليها الأوروبيون للفوز بتداخلات تجارية: إقراض التاجر المحلى فى كل رحلة ما يلزمه لتجميع حمولات الرحلة القادمة والشراء قبل الآخرين من الأسواق.

ومما لاشك فيه أن التجارة مع الصين بهرت الأوروبيين أيما إبهار (أعجبتهم إعجابا شديدا) وحققت لهم دائما أرباحا طائلة كما كانت أرباح الصينيين كذلك حقيقة خصوصا أن الصين لم تر فى هذا النوع من التجارة صعوبة ولم تشعر بهذا التدفق المتطفل من السلع والأساليب الغربية الأجنبيبة. وكان الأمر محصورا على مستوى هذه البلاد الشاسعة ثم تغير مع بداية القرن التاسع عشر كل شئ فقد أصبحت أوروبا قوية تتشدد فى مطالبها وتفرض رغباتها...

وساعد على هذا الجو غزو الهند واستعمار الإنجليز إياها واستخدم كمحطة وثوب بما يفسر قسوة التدخل الغربى العنيف وما أحدثه من دمار. وفتحت حرب الأفيون (١٨٤٠ ـ ١٨٤٢) أمام الغربيين خمسة موانىء من بينها كانتون وشنغهاى (معاهدة نانكين) ثم جاءت ثورة الثانى بينج.

فأتاحت للغربيين (الأوربيين) تدخلا بغير حق جديدا عام ١٨٦٠ كما كانت السبب غير المباشر فى ظهور سبع موانى إضافية ثم تنازلوا للروس عن إحدى مقاطعات بحرية أنشأوا فيها فلاديفوستك وبدأت مصائب الصين تترى بحرمانها باندلاع الحرب بينها وبين اليابان ١٨٩٤ ـ ١٨٩٥ من كوريا وانتهاز القوى الكبرى يومئذ الفرصة للاستفادة من جديد باقتطاع أجزاء من أراضى الصين فاستقر الروس فى منشوريا ثم كانت حركة البوكسرز[1] الوطنية سببا فى بدء حركة التطور (١٩٠٠) وكانت الحرب التى اندلعت بين الصين واليابان عام ١٩٠٤ سببا فى حصول اليابان على بعض المزايا التى كان الروس قد انتزعوها من الصينيين ثم جاءت الحرب العالمية الأولى تمنح اليابان بعض ما كانت ألمانيا تمكنت من الإستيلاء عليه ومنها شانتونج.

وبدت الصين عام ١٩١٩ كمن اقتطعت من أراضيها أجزاء هامة حتى داخل أراضيها ذاتها تمكن اليابانيون والغربيون وداخل حدودها من الاستحواذ على مزايا وتنازلات وامتيازات وصلاحيات عديدة أشهرها ما أطلق عليه امتياز شنغهاى الدولى إذ أتيح لهم الإشراف على جزء من السكك الحديدية والجمارك كنوع من الضمان حتى سداد الفوائد التى فرضت على القروض الأجنبية وعمدوا منتهزين هذا الوضع إلى إنشاء مكاتب للبريد تابعة لهم وإنشاء مصارف ومكاتب قضائية قنصلية وزعت هنا وهناك بالإضافة إلى ما سبق من مؤسساتهم التجارية والصناعية والتعدينية فى المناجم وبلغت استثماراتهم فى عام ١٩١٤ (بليونا و ٦١٠ ملايين دولار لليابانيين منها ٢١٩.

ومنذ الحملات التى شنتها القوى الكبرى الثمانية واحتلال العاصمة الإمبراطورية عام ١٩٠١ أصبحت منطقة المفوضيات الأجنبية داخل بكبد منطقة عسكرية محاطة بمنحدر قوى للدفاع ضد أى محاولة للتدخل وحرم على الصينيين إقامة أية مبان فى هذه المنطقة وقام أفراد الأجهزة الدبلوماسية بالفعل إن لم يكن بحق بممارسة نوع من الوصاية القاسية الشديدة على كافة الشئون

(١) اسم أطلقه الإنجليز على حركة صينية سرية آثارت التدخلات من جانب القوى العظمى بالاستيلاء على تيانتسين وبكين.

الصينية وعلى الأقل على كل ما كان من نتيجته الإشراف على حكومة بكين وتوجهها.

وفى هذه البلاد باقتصادها المهلهل بدأ نوع من الغزو الجديد كان هذه المرة غزوات ثقافية ودينية فغمرت الصين بالغزوات الحسية والمعنوية بل والروحية وذلك فى زمن المعاهدات التى أطلقت عليها بحق المعاهدات غير المتكافئة.

كانت العبودية للغرب وتحكمه يعنى للصين الأخذ بنوع من التغريب المسبق.. نوع من التحديث أى إعادة التشكيل الإصلاحى والتحرر وهما مهمتان غالبا متعارضتان ولكنهما مع ذلك فروكبان. وكان متوقعا أن يستغرقا وقتا طويلا ومشقات كبيرة وتجارب مريرة قبل أن يتضح المعنى الحقيقى للنضال القادم. ولم تتمكن الصين بين يوم لآخر من استيعاب درس الغرب كاليابان وقت ثورة الميدجى[1]وكانت مهمة عسيرة شاقة وكانت الثورة القوية المزدوجة التى شنها التاى بنجز من القرويين والكلاسيكيين ١٨٥٠ ـ ١٨٦٤ أقاموا فى ثانكين حكومة منشقة انفصالية ذات نزعة ثورية وطنية وتحمل الكره للأجانب كما أرادت فى الوقت نفسه مهاجمة المعتقدات القديمة من سياسية أو اجتماعية حيث استطاع التاى بنجو بمدة نجاحها القصيرة إلغاء نظام الرق وتحديد المرأة وإلغاء تعدد الزوجات وعادة ربط الأقدام.

مع السماح للنساء بدخول الامتحانات وممارسة الوظائف العامة بل وذهب تفكيرهم إلى حد إدخال نوع من الحداثة التقنية والصناعية ولو كانت بصورة سطحية، كانت ثورة تستهدف أساسا الأراضى الزراعية خاصة كما حدث كثيرا فى الصين القديمة وبصورة منتظمة عشية تغيير السلالات وبحثت ثورة التاى بنجز فى هذا الاتجاه موضوع إلغاء ملكية الأراضى فى مشروع تأميم تجميعى للأراضى الزراعية ولكن الثورة فشلت وفشل مشروعها بسبب المساعدة التى منحها الغرب لسلالة حكم المانشو للمحافظة كذلك على امتيازاته التجارية كما أن مشروعات التحديث والاتجاه العصرى لم تكن دقيقة ولا واضحة والأشخاص فى

---

(١) ولركيونو (١٨٥٢ ـ ١٩١٢) امبراطور يابانى العلى النظام الإقطاعى وأقام طوكيو عاصمة له وفى عام ١٨٨٩ أعد لليابان دستورا وأدخل فيها مبادئ الحضارة الغربية.

الصين من النضوج بحيث تتقبل مثل هذه المشروعات أما جمعية البوكرز السرية التى عكفت على طقوس غامضة مرعبة فلم تلق قبولا ولا تشجيعا إلا لدى حركة الغضب على الأجانب وكانت قد بدأت تجتاح كافة أراضى الصين ابتداء من الإمبراطورة المخيفة العنيفة تسى هوى[1] التى أعطت الإشارة لحركة معاداة الأجانب وكرههم بالاتفاق فيما يحتمل مع جماعة البوكسرز مما أدى من ثم إلى سحقهم بل وسحق الصين كلها، وعلى أى حال فإن الإمبراطورة تسى ـ هى كانت فى الوقت نفسه عدوا شرسا عنيفا لكل تقدم فتمكنت بذكاء ومهارة من إفشال حركة إصلاح مستثيرة قامت عام ١٨٩٨ وعرفت باسم المائة وأرست نظريا على الأقل قواعد ثورة حقيقية شبتها المؤسسات القائمة كما كانت ثورة لإرساء قواعد سليمة لاقتصاديات الصين وباختصار لم تكن ساعة العمل لأنصار الإصلاح قد دقت بعد فى بداية القرن العشرين، فقد اصطدموا بالتصميم العضوى من جانب المانداران (طبقة كبار الموظفين) والتى قيل فيهم إن آذانهم كان من الصعب فتحها كالموانىء الصينية تماما، كما واجهتهم اللامبالاه من جانب الشعب الذى بدا كمن يحاول قبول ثورة الإصلاح ظاهرا فقط حيث لم يكن يستطيع التخلص والتحرر من عقدة كره الأجانب وإن كان فى قرارة نفسه يريد أن يتعلم من الأجانب وسائلهم الماكرة واكتساب فعاليتهم.

وظلت المشكلة صعبة الحل فى جانبيها المزدوجين ـ إقصاء برابرة الغرب بلاشك، ولكن لتحقيق هذا الهدف كان لابد من التدريب على أساليب وتقنيات الغرب وكان هذا التدريب البطئ جدا محور اهتمامات بعض شباب المثقفين المنتمين إلى طبقة بورجوازية متصلة بتعاملاتها التجارية مع الغرب وتنتقل إلى بلاد الخارج وكذلك انضم إليهم الطلبة وكان عددهم يزداد بسرعة وكانوا من الطبقات الفقيرة التى تلتحق بالمدارس والجامعات التى أنشأتها الحكومة على أحدث النظم العصرية وكان ذلك فى أواخر أعوام حكم سلالة المانشو، وبدأت جمعيات سرية تتألف علانية بعضها ذو اتجاه جمهورى وأخرى لازالت تداعبها أحلام ملكية حكم السلطة.

---

(١) رامبراطورية صينية ووصية على العرش ١٨٣٤ ـ ١٩٠٨ قامت ببعض الإصلاحات فى الداخل إلا أنها كانت تشجع الجمعيات السرية مثل جماعة البوكسرز وحركة إثارة كره الأجانب.

وكلها برغم التناقص جادة فى مساعيها للنهوض بالصين وإدخال الإصلاحات الجذرية عليها، وهكذا تكونت فى الصين أول حركة ثورية حقيقية ارتبطت ارتباطا وثيقا تحت طبيب من صلب قرية كوانج تونج اسمه صان يات ش ١٨٦٦ ـ ١٩٢٥ كان قد عاش طويلا خارج الصين وانضم إلى عدد من الحركات الثورية. وفى طوكيو ١٩٠٥ صار رئيسا لإحدى الروابط الجمهورية سرعان ما أحرزت اهتماما كبيرا من جانب سكان كل الأراضى الصينية وأعدت برنامجا رزينا وكانت هذه الحركة على اتصال مباشر بثورة عام ١٩١١ التى أطاحت بسلالسز المانشو ووضعت صن يات ش على رأس حكومة جمهورية ولكن سرعان ما أجهضت هذه الثورة وتنازل صن يات عن صلاحياته الرئاسية للجنرال يوان تسيه كانى (١٩١٦ الذى حاول أن يعيد إقامة أركان النظام القديم لصالحة .وعطل الدستور الليبرالى الصادر عام ١٩١٢، وتغوص الصين فى دياليز الفوضى وسرعان ما تحالفت الحكومات العسكرية فى الأقاليم مع «وجهاء» المدن بغية استخلاص أقصى الفوائد وأصبحوا الأسياد القساه للصين ويقوم صن يات صن ـ وكان قد هاجر بتأسيس حزب جديد أطلق عليه اسم كومن تانج، ومعناه حزب الثورة، فى تلاعب بالألفاظ ومعانيها وذلك أن كومنج بمعنى الثورة وكيومن بمعنى الأمة لتصبح الكومن تانج حزب الأمة الأكبر المؤسس عام ١٩١٢ فى غمرة السعادة التى انتشرت فى شهور الجمهورية الأولى غير أن الحزب لم يحقق رسالته فكان لابد من إعادة صنع الثورة من جديد . ولم تتمكن الصين من التوصل إليها دون عبور وتخط قاسى وأحداث دامية متكررة فلم تتوقف أو تنته إلا بقرار صدر عام ١٩٤٩ مع انتصار الشيوعيين وإقامة الصين الشعبية وبالمناسبة فإن للتواريخ مغزاها (من حرب الأفيون ١٨٤٠ ـ ١٨٤٢) (إلى عام ١٩٤٩) إذ كان على الصين أن تقضى قرنا مليئا بالجهود المضنية الشاقة وتتحمل الآلام حتى تتمكن فى النهاية من استعادة استقلالها وفخرها. ويصرح أحد الأساتذة عام ١٩٥١ بقوله (نستطيع نحن الصينيين اليوم أن نشعر من جديد بالزهو..!).

وكان وعلى مدى هذا القرن المفعم بالانتظار والجهود المضنية أن طفق نظام الحكم القديم يتحلل، ويتلاشى فى كل مظاهر التقليدية وجموده واندثرت طبقة كبار موظفى النظام (الماندارين) بأزرارهم الصوفية أو بأزرار قمصانهم من اللؤلؤ كما تلاشت طقوس العروس الإمبراطورية المذيلة بالرياش القرمزية والفضية بأيدى

أبناء السماء وتلك الجلسات التي ٪ انت ترتدى خلالها ثياب البروكا المقصب بالخيوط الفضية وبدأت تتلاشى أخيرا تلك الامتيازات الفادحة التي كان يتمتع بها الغربيون واليابانيون وعلى الجملة ها قد بدأت الصين بعد تجربة قاسية طويلة تواجه لحظة من اللحظات حتى الآن أساسا لدى الشعب الصينى ومما زاد فى صعوبة الاتجاه هذه الدعامات كانت أعمارها آلافا من سنين ومن ثم يشير الواقع إلى أن دمارها لم يكن كاملا وستظل الصين الجديدة مرتبطة بأنماط فكرية ومدارك حسية مادامت عنوانا معبرا عنها وعن شعوبها ويحتاج الأمر بغير أدنى شك إلى بعض العقود الزمنية حتى تنبثق هذه الحضارةالصينية الجديدة الوليدة تماما ولا نستطيع سوى محاولة التمييز بين معانى التجارب السارية ومفاهيمها ولم تكد تبدأ.

الصين الجديدة

ليس الأمر هنا إطراء للصين الشعبية وإن كان ممكنا ولا هو كذلك بالقدر نفسه إدانة لها وهو الأقل ممكن، ولكن ما يعنينا فى المقام الأول تسجيل ما أرادت أن تحققه ثم نرى أو نحاول بعد ذلك رؤية ما أصبحت عليه اليوم الحضارة الصينية فى صراعها مع التجربة الإنسانية العنيفة الهائلة ولم تعرفها الإنسانية حتى اليوم على امتداد مسيرتها التاريخية الطويلة وهى تجربة متعددة الجوانب لتنظيم العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ثقافيا وروحيا. وكان الأمر إخضاع البشر والأشياء والعالم الخارجى إذا أمكن لحالة مستجدة خلقتها الإرادة الصينية وساهم معها شىء من كبرياء هى على الأقل وسيلة لاستئناف الارتباط مع صين قديمة جدا واثقة من قدرتها على وسط قلب الكون فالصين الشعبية مساحة شاسعة مكتظة بالبشر وثروات بعضها حقيقى فعلى وبعضها الآخر افتراضى تقديرى يتيسر تحقيقه، ومن هاتين الحقيقتين ينبثق النمو الاقتصادى ولم يتوقف التصاعد فى عدد سكانها حيث كان ٥٧٢ مليونا عام ١٩٥٢ نما فى الأعوام التالية كما يلى:

٥٨٢ مليونا عام ١٩٥٣ و ٦٣٥ مليونا ١٩٥٧ و ٦٩٥ مليونا عام ١٩٦١

٥٩٤ مليونا عام ١٩٥٤ و ٦٥٠ مليونا ١٩٥٨

٦٠٥ مليونا عام ١٩٥٥ و ٦٦٥ مليونا ١٩٥٩

٦٢٠ مليونا عام ١٩٥٦ و ٦٨٠ مليونا ١٩٦٠

ولنسارع بالقول بأن ذلك ليس إحصاءاً دقيقاً ماعدا إحصاء عام ١٩٥٣ مع التحفظ على هذا الرقم أيضا وهو حال طاقة الدول النامية وكانت الصين عام ١٩٤٩ أكبر الدول النامية ذات النسبة العالية فى زيادة عدد السكان تصل إلى ٤٠ فى الألف مع انخفاض فى نسبة الوفيات ما آثار أمامها مشاكل جمة وهذه النسبة الرهيبة فى زيادة عدد السكان إنما تحول دون ارتفاع مستوى المعيشة ويهدده بصورة جادة وعلى الرغم من ذلك كانت نسبة النمو الإقتصادى من عام ١٩٤٩ حتى عام ١٩٦٢ أشبه بالمعجزات وليس لها شبيه تاريخى معاصر. إذ لم تحقق الخطة الخمسية الأولى فى الاتحاد السوفيتى نموا شبيها كما تحقق للخطة الخمسية الأولى الصينية ٥٣ ـ ١٩٥٧ وتتعلق هذه النسبة باقتصاد ينطلق فى مجمله من الصفر وهى ميزة تتحلى بها الدول المتخلفة حيث تبدأ وهى فى أشد حالات الفقر بتخصيص مضاعف لما تمله وهو قليل فتكون النتيجة تضاعف أصولها دون أن تكون من الأثرياء وليس ثمة ما يمنع وقوع ما يقع فى دول العالم الرأسمالى للدول ذات النظام الاشتراكى، وهو ما يقع عند بلوغ مستوى تنمية معين إذ يميل قانون الإنتاج إلى الإنخفاض ويجب لقياس غرابة التنمية فى الصين الشعبية ألا يفوتنا إدراك ماهو ثمن تلك الإرادة المتشددة بلا رحمة ومجهودات الكتل الكثيفة من البشر فى مجموعات لا شبيه لها فى الدنيا وأن الإقتصاد المخطط علم راود السوفييت فى تجربتهم القديمة بل راود الرأسمالية المعاصرة ولسنا بصدد مناقشة موازين ضيقة ويكفى أن نورد فيما يلى الأرقام والمؤشرات دون غربلة حيث كانت نسبة النمو كالتالى:

١ ـ ١٠٠ عام ١٩٥٢

٢ ـ ١١٤ عام ١٩٥٣

٣ ـ ١٢٨ عام ١٩٥٤

٤ ـ ١٢٨ عام ١٩٥٥.

٥ ـ ١٤٥ عام ١٩٥٦

٦ ـ ١٥٣ عام ١٩٥٧

٧ ـ ٢٠٦ عـام ١٩٥٨ و ٢٤٩ عـام ١٩٥٩ ونسب الإرتفـاع عـامى ١٩٥٨ و ١٩٥٩ هى ٣٤٪ و ٢٢٪ وهو ما يمكن أن نصفه بنسبـة خرافية مما يثبت قفزة عجيبة حدثت.

سيحكم المراقب الذى ليس عالما اقتصاديا بسهولة أكثر على هذا التقدم بأرقام أكثر واقعية وسيرى أن إنتاج الصلب على سبيل المثال كان وفق الأرقام الآتية مقدرة بمليون طن:

عام ١٩٤٩ـ ٣٢ مليون طن فحم، عام ١٩٤٩ ـ ٠١٦, مليون طن صلب

عام ١٩٦٠ـ ٤٢٥ مليون طن فحم، عام ١٩٥٢ـ ١,٣٠ مليون طن صلب

عام ١٩٦٠ـ ١٨,٤ مليون طن صلب، عام ١٩٤٩ ـ ٠,٢٥ مليون طن جديد مذاب (زهر)، وعام ١٩٦٠ـ ٢٧,٥ مليون طن، والكهرباء بمليار كيلومترات ساعة عام ١٩٤٩ ٤,٢، وعام ١٩٦٠ ٥٨.

والقطن بمليون متر عام ٩٤٩ـ ١ ١,٩، وعام ١٩٦٠ ـ٧٦٠٠. والغلال بالإضافة إلى البطاطا (الحلوة) والبطاطس بوزنها وهى طازجة بالأطنان

عام	عام
١٩٥٧ـ ١٨٥ مليون طن	١٩٥٩ـ ٢٧٠ مليون طن
١٩٥٨ ـ ٢٥٠ مليون طن	

وكذلك خطوط السكك الحديدية عـام ١٩٤٩ وتلك التى صـدرت قبل ١٩٦٠ وتلك التى تحت الإنشاء. وكذلك الإنشاءات الضخمة فى محطات الكهرباء من مساقط المياه القديمة والحديثة تحت الإنشاء كلها، وكذلك معامل الطاقة الحرارية أو تلك المشروعات الضخمة للسيطرة والتحكم فى مياه يانج تسوكيانج عند تدفقها من حوض يس تشود بن فى منطقة المنحدرات ومضايق خبسى لينج، وتستطيع هذه المشروعات الجسورة جدا أن تنجح فى حفظ مقادير هائلة من الطاقة تسمح برى مساحات شاسعة من الأرض فى اتجاه الشمال كما تنظم مسار النهر الأزرق المنفح بالفعل على آلاف الكيلو مترات لسفن البحار مما يشجع على انشاء أحدث

المصانع وكل هذه النتائج كانت ثمرة جهود بشرية (**جمهورية جبارة فوق قدرة البشر**) بفضل تهيأة المجتمع الصينى لا بالقهر والجبر وحدهما ولكن ببعث الحماس السياسى والإقبال على العمل الهائ بهدف إعادة تشكيل الإنسان الصينى وليست هذه المهمة وحدها وسيلة لتحقيق إنجاز نادر ولكنها هدف ورهان يجازف به نظام الحكم حيث يدرك أن بقاءه مرهون بالنجاح فى هذه المهام التى يقبل عليها بلا توقف ويقابله نوع من الرضا من جانب الجماهير الصينية يتمتع به نظام الحكم الحالى وحسبه فى عيون هذه الجماهير نجاحه فى وأد فساد النظم الحاكمة السابقة المروع وخاصة التى سادت أعوام تشانج كامى تشيك الأخيرة. وقد استطاع نظام الحكم تحمل المسئولية ونجح فى لملمة وتجميع فلول الشعب المتناثرة فى بوتقة واحدة ضمت الفلاحين والعمال والمثقفين وأعضاء الحزب، أما الطبقة البرجوازية ذات الثراء الكومبرا دورية التى كانت تشعر بنوع من «رفيع المقام» بفضل تمثيلها حركات الوساطة بين التجار الأوروبيين والتجار الصينيين **ولقد أفل نجمها عام ١٩٤٩ فى حقائب تشانج كاى تشيك** وأمكن امتصاص البورجوازية الصناعية وقت تغيير المنشآت الخاصة وتحويلها إلى منشئات مختلطة ومنشئات عامة عام ١٩٥٦ ولم يعد باقيا فى الساحة سوى بورجوازية من بعض رجال الأعمال وفى جزء فقط من القطاع التجارى فى وضع مؤقت لن يدوم طويلا.

وفى الريف كان الإصلاح سريعا متقدما بخطى ثابته طبقا لقانون ٣٠ يونيه ١٩٥٠ الذى أطاح بشكل عنيف بالملاك وكبار الفلاحين المزارعين والفلاحين المتوسطين حيث تركوا فى أراضيهم مع انقطاع جزء منها يقدر بـ ١٥ آر (الآر ١٠٠ متر مربع) هذا بيانا للمساحات الهائلة من الأرض المقتطعة (٦٠٠ مليون صينى وأكثر من ٥٠٠ مليون من القرويين) ولم تكن تلك القطع الصغيرة من الأرض سوى البداية المؤقتة لنوع من الملكية الصغيرة (الميكرو) المتساوية للكل.

وفى عام ١٩٥٦ وفى شهر أكتوبر بدأ الاتجاه التعاونى الجماعى إنشاء مزارع «جماعية» فى خطوة جديدة إلى الأمام حدث بعد ذلك عام ١٩٥٨ بإنشاء الكوميونات القروية تضم ما يقرب من ٢٠ ألف فلاح دفعة واحدة على حين لا

تضم المزرعة الجماعية سوى بضعة مئات فى نظام كان فريدا مبتكراً ولعله أكثر جرأة مما كان متوقعا بحكم ما اتسم به، إذ الفلاح كذلك جندى، وبعض الفلاحين مزودون بالسلاح وذلك فى سياسة زراعية صناعية حربية معاً مما أتاح لنظام الحكم ضمانا إضافيا يتمثل فى احتياطى من «القوة» الحربية المسلحة مستعدة دائما للتدخل ولكن كان فى العشرين من نوفمبر ١٩٦٠ أن بدت الكوميونات كأنما جردت من امتيازاتها وسلبت سلطاتها ومهامها لصالح الوية انتاج يصعب اليوم الحكم على ما إذا كان مصيرها النجاح أو الفشل ولكن المؤكد أن نظام الحكم يسوده نوع من تردد لا يتعلق بالطبع بالهدف المرجو بلوغه ولكنه تردد إزاء الحلول حيث النمو الزراعى هو المؤشر الوحيد فى تحديد المسار تحديدا حقيقيا. ويضف العمال عند الوضع نفسه وعدهم لا يفتأ يرتفع وتسيطر الثقافات عليهم بالتعاون مع الحرب وقد طالبتهم الحكومة كما طلبت من الفلاح بضرورة بذل جهود خارقة بعد الخطة الخمسية الثانية حيث قامت دعاية واسعة بهدف احراز قفزات انتاجية بأكثر ممارسته الخطة مما يفسر لنا هذا التزاحم المثير للشعارات التى أطلقت أمثال: نحو الأكثر، نحو الأفضل، نحو الأسرع، نحو الأكثر اقتصادا، يوم مثل عام، وعام يساوى ألفا، ويحل عام ١٩٥٨ ليصبح أول ثلاثة أعوام من النضال المضنى ألف عام عشرة قرون.

وسيكون من السهل أن نورد آلاف الأمثلة عن هذه النزعة إلى التفانى والإخلاص البطولى الذى يرقى إلى مرتبة الملاحم... كل هذا على الرغم من سوء أحوال العمل وظروفه والأجور المتدنية ووجبات الغذاء غير الكافية ونقص أماكن السكن (المنازل) ولنتذكر تلك المهام الإضافية التى يكلف العمال بأدائها فى المصانع حيث يبللون وجوههم بالمياه الباردة وهم فى نوبات عمل ليلية.

أما طبقات المثقفين والطلبة وأعضاء الحزب فإن «البطولة» بعيدة عن مفاهيمهم قليلا أو لعل البرامج المقترحة عليهم أكثر تعقيدا أو أكثر التواءا وأكثر أسى فأعضاء الحزب ليسوا دائما بعيدين عن حملات التطهير والنقد الذاتى. وهكذا سمعنا قصة الثلاثة ثم قصة الخمسة المعارضين. كانت الأولى فى يناير وفبراير ١٩٥٢ ضد الفساد (الإسراف والتبديد) من جانب بعض كبار الموظفين حيث كشف عن

فضائح واسعة تضخمت فيما بعد عمدا وعن قصد ضد «رفاق» في المدن من شخوص الحزب فقدوا مواقعهم التي لم يكونوا على مستوى استيعابها، وفي العام نفسه كشف النقاب عن الخمسة المعادين وما اقترفوا من فساد وتهرب ضريبي وغش وتحايل على القانون وبيع ممتلكات الدولة وسرقة أسرارها الاقتصادية مما أدى إلى وقوع انتفاضات شعبية ضخمة وحوادث انتحار واتهامات متعددة قاسية ثم حملات تطهير جديدة وحملات نقد ذاتية تبعتها حوادث انتحار.

أما عدد الطلاب المتزايد فلا تكاد تمضي لحظة واحدة لا تضمد الأيدي الممسكة بزمامهم إلى هزهم وإعادتهم إلى إطار الخضوع والاحتفال للنظام وإجبارهم على القيام بأعمال ومهام يدوية شاقة في الحقول والمصانع، أما المثقفون والأساتذة (البروفيسور) فلم تنقصهم حملات اللوم والإزعاج إذ منحوا حق النقد زمنا وفي اليوم التالي لأحداث هنغاريا[1] سحب منهم هذا الحق فورا وقد سميت تلك الفترة الزمنية القصيرة بفترة المائة زهرة إذ يمكن للفكر أن يتفتح كالورد في مئات الأشكال والأنماط وأصبح المثقفون عند تخديرهم من تفسير أفكارهم ومعتقداتهم إذاراودهم التردد خوفا واضطروا للإذعان يقفون وسط حالة غريبة خصوصا وأن أقوالهم وتصريحاتهم كانت تنشر في الصحف ولقد قال واحد منهم إن الماركسية اللينينية نظرية قديمة بالية عنيفة لا تصلح للصين وهي في حاجة إلى مراجعة، ويبدي أستاذ عجزه عن الحكم على بعض الأمور فيقول: إنني متخوف من الحرية الحالية إذ أن أساس هذه الحرية وجوب الكلام علينا والضغط مؤلم لي وأوفق لذلك أن نتراضى قليلا، ولسوف نرى ما حدث فيما بعد. ومن الأساتذة من ذكر: إن الشعب لم ينجح في أن يتزود بقوته بنفسه. والبعض يقول: إن مستوى المعيشة ارتفع، ضجيج رخيص ومبتذل من جانب أساتذة لم يستفيدوا جيداً من إعادة التثقيف الماركسي ورغم ذلك كان كل ذلك أمورا جادة فلم تدم المائة زهرة حتى ولو في ربيع واحد بل ولا شهر واحد من ٨ مايو إلى ٨ يونيه ١٩٥٧ فسرعان ما ذبلت بصورة عنيفة وتبعتها حركات قمعية طائشة وهكذا فقد المثقفون مكانتهم فقداناً تاماً شاملاً وذلك لكي نتذكر أن لا حوار مفتوحا في

---

(١) ثورة اندلعت في مدينة بودابست ضد الوجود السوفييتي وقد قامت الدبابات الروسية بقمعها بوحشية.

الصين وإنما هناك نضال للحياة فالمشكلة هى كيف يعاد تشكيل المجتمع.. وإعادة روح جماعية وتنقية المجتمع الصينى من أخطائه وموروثاته وحمايته من نوبات الندم المحتملة وشحنه حتى الثمالة بعوامل الزهو ومشاعر الفخر وبث روح العمل فى أوصالة والطمأنينة فى نفسه وخاصة أسلوب قيادته والأخذ بيده حتى ينخفض شعوره بكره الطاعة وتتأقلم روحه عليها فإذا أمكن إجبار ٦٥٠ مليون صينى على التفكير السليم فسوف يقودهم ذلك إلى التصرف السليم وفق المعايير اللازمة التى وضعها الحزب الشيوعى الصينى حتى تصبح مسيرة هذا الشعب الهائل مسيرة سليمة لتحقيق الصين الإشتراكية ولتحقيق هذا الهدف بدأت حملة دعائية لا تتوقف عن طريق الإذاعات والصحف والخطب لا مثيل لها فى أى تجربة اشتراكية أو أى نظام شمولى وسلاح هذه الدعاية النقد المنظم كل يوم فى كل مواقع العمل.

وخلال المناقشات والمجادلات الإجبارية تحقيقا لما هو أفضل للجماعة أما تلك التى يتعذر تحقيقها فيجب اعداد وسائل مكافحتها حتى تخضع للحل وللتغلب عليها من جانب كل فرد فى المجتمع.

وما حملة توشنج الشفوية إلا مزيج من النقد المهنى العنيف والسخرية والتهكمات والصفعات ونادرا جدا أن تقتصر نوبات العنف على واجهتها يسيره أو معقولة وهذه النزعة الأيديولوجية مصممة بحيث تكون طويلة الأنفاس معقدة مركبة هائلة (ما وتسى تونج) وقد تكون ضيقة فى الأوساط الاجتماعية ووصله سقيمه بما يكفى فيما يخص الفلاحين وعلى العكس كانت متقدمة جدا فى محيط التجمعات العريضة كالمصانع والمكاتب والجامعات والمدارس ووحدات الجيش وتواجه تلك الظاهرة المذهبية بعض المقاومة وبعض العواقب ولم تكن الأخيرة دامية كما كانت فى أول الثورة ومع ذلك تظل صدمة.

ففى مجال الآداب والفنون نجد عضوا مفوضا ثقافيا يمثل الحزب ومكلفا بالنظام ومكافحة أية تسربات بورجوازية أو رجعية قد تتبع وسائل ماكرة ومفروض على كل كاتب أن يكون نموذجا يحتذى ليس فى الفاظة فحسب، ويحكى عن أحد المؤلفين كان يعيش فى القرية ويكتب كل يوم عن مفهوم الزراعة الجماعية ويقوم فى نفس الوقت بزراعة حقل بطاطة ويرعى قطيعا من الخنازير،

أما الكتّاب الذين ينحرفون يميناً (النزعة اليمينية) فيتعرضون للعقاب كما وقع للروائى تنج لنج الذى أوفد إلى المناطق الشمالية ليتلقى دروسا فى إعادة التثقيف بالعمل حيث كان عليه البقاء عامين فى منشوريا، وبالطبع تعد مثل هذه العقوبات غير ذات قيمة إلى جانب أحداث الإعدام الرهيبة الجماعية التى وقعت فى الشهور الأولى للثورة التى قام بها الفلاحون وبالطبع أيضا ما حدث من مقاومات وأعمال تخريب كشفت عنها الوثائق الرسمية ذاتها رغم قلتها وصاحب كل هذا موجات عديدة من الرغبات الجادة والحماسية للإنضمام تحت لواء هذه الأفكار (الأيدولوجية) الظافرة.. وكانت بمنزلة للانضمام تحت لواء وطن وأمة.. بمنزلة الإيمان بمستقبل... الإيمان بالصين.

وتجربة الإصلاح الزراعى كانت تمثل الفشل الحقيقى الوحيد بالنسبة للصين الشيوعية حيث استطاعت الأرقام القياسية المعلنة عن المحاصيل فرص الإخضاع الساذج للإحصائيات ومظاهر التفاؤل الرسمى حتى ١٩٥٨ ... ولكن ذلك كله لم يكن بمقدوره اخفاء الحقائق عن كارثة محاصيل عام١٩٥٩وعام ١٩٦٠ وعام ١٩٦١فقد وجهت تلك الحقائق ضربة قاصمة ظالمة جرتنا إلى موجات التفاؤل إذ نتج عما حدث من تدهور فى الإنتاج وصلت إلى دول الغرب إخباره بأنه لأسباب طبيعية مما يتعاقب مع الصين منذ القدم كوارث طبيعية متزامنة متناقضة من سيول وفيضانات إلى فترات جفاف وخاصة فى مقاطعات الشمال الشاسعة؛ ففى عام١٩٦١ أن تلف أكثر من نصف المحصول وأصابت الأعاصير والزوابع فضلا عن الفيضانات ملايين الضحايا على حين كان ممكنا من شهر مارس إلى يونية من العام نفسه قطع المسيرة على الأقدام عندحافة نهر هوانج هو الذى تحول إلى شبكة مياه مضحكة حيث لم يلق حشود الأعداء من الجفاف، الأعاصير والسيول والحشرات الضارة أسلحتها أمام الصين الجديدة، وهل يمكننا التعقيب كذلك أن الصين شأن كل الجمهوريات الاشتراكية تدفع ثمن نجاحها الصناعى ولعلها راهنت كثيرا على مجال الصناعة وأهملت الزراعة حيث أشارت الصحافة الرسمية إلى الآفات والنكبات الطبيعية التى لا نظير لها منذ قرن من الزمان بإصبع الإتهام إلى الناس وتحدثت عن أعمال تخريب وقع، فقد تفجر من أوفد من العمال المعاونين

(أغسطس ١٩٦٠) إلى المزارع لمساعدة الكوميونات الشعبية إنقاذ المحاصيل عن الوفاء بإلتزاماتهم وواجباتهم وخانوا أوامر الحكومة وتعليمات الحزب بالتواطؤ أحياناً مع عناصر رجعية من الأهلين وهنا لايجب أن نسكن إلى تقشير كيس الغداء فمن المحتمل أن يصدم نظام الجماعية أى شيوع الأراضى هنا بين أيدى الجموع أو النظم الجماعية كمثيلها فى غيرها من البلاد أكثر ما تصطدم بطبيعة الفلاحين وهم عادة أشد تمسكا بالتقاليد والموروثات عن سائر فئات المجتمع ويرون فى بعض الإجراءات المعينة نوعا من التنازل عن امتيازات يتمتعون بها لذا وجب التنويه هنا على الكتائب الإنتاجية الصغيرة لا على الكتائب الكبيرة. عموما وبإيجاز لما حدث من كوارث المحاصيل آثار كثيرة ابطأت النمو ومعدلاته وأجبرت الصين الشعبية على خفض صادراتها من المواد الغذائية إلى روسيا وكانت مقابل منتجات وخدمات روسية، بل وأدت بها إلى التماس العون من الدول الرأسمالية للحصول على شحنات من الحبوب بلغت ما بين تسعة ملايين طن وعشرة طلبتها الصين كذلك من كندا واستراليا والولايات المتحدة وفرنسا وبورما بل طلبتها كذلك من فور موزا وقدر فى لندن حيث جمعت تلك السلع لتنظيم نقلها بحرا، ما كان على الصين سداده ما بين ٨٠ مليون جنيه سنويا ولمدة ٣ سنوات قادمة.. كيف؟ من المحتمل أن يكون السداد مقابل كميات من الزئبق والمعادن التنمية. من ذهب وفضة ولاشك كانت ضربة للاقتصاد فى سبيل الانطلاق ويمثل علامة استفهام عن مستقبل الصين. ومع ذلك فإن الجانب المظلم لكل نجاح جانب أكيد ناصح لا يقبل الجدل وجدير بالمشاهدة.

الحضارة الصينية فى . .
مواجهة الدنيا المعاصرة

لم يكن ممكنا تحقيق هذا التقدم الضخم دون موافقة وقبول وتأييد النزعة الوطنية الخاصة ودورها الفعال ذلك أن لفظ الفن الزراعى أو النظام الزراعى يبدو لفظا غير مقبول، أما تلك النزعة الوطنية فشعور بالفخر ونزعة زهو ثقافية لا وطنية أو إن شئنا نزعة وطنية حضارية قديمة لازالت حية، ويجب توضيحها، ذلك لأن الصين اليوم التى تبدو من أول نظرة ضالة جديدة ترتبط هنا بما لها من الزهو، آذاها ومس مشاعرها قرن كئيب (١٨٤٠ ـ ١٩٤٩) سبق التجربة الشيوعية.

وترنو الصين بأبصارها لتكون قوة عظمى وحضارة كبرى كانت تؤمن دائما بتفوقها على سائر الكون وأسبقية حضارتها حيث لم يكن بعدها فى الكون كلمة سوى الهجمية والوحشية. وفيما مضى من أزمان شمل الصين نوع من الفخر ساد الغرب بالأمس وكان قرن المعاهدات غير المتكافئة قرنا قاسيا مشوها مضاعفا حيث انسلكت الصين أمة بين الأمم وكان ذلك أول بواعث الإذلال. أمة تسيطر عليها شعوب همجية. أجنبية طاغية وكان ذلك ثانى دواعى الإذلال خصوصا وأن المنقصين سيطروا على مقدراتها وأخضعوها لأسلحتهم وعلومهم ومفاهيمهم وليست النزعة الوطنية الحالية سوى حركة مملوءة بالحدة والاحتداد معاً وكانت

قبل كل شيء انتقامية «ثأرية» ... تهدف إلى أن تصبح الصين مهما كان الثمن دولة وأمة كبرى ومن هنا نستطيع إدراك سعيها الحثيث العتيد لأخلاق الثورة لا تترك لها فترة وللانقضاض على كل الخبرات والمزايا العصرية الجديدة مثل تعاليم ماركس ولينين والكتيبات الروسية المترجمة، كما انقضت بالأمس على النصوص المقدسة فى كتب البوذية وعبرت عن رغبتها فى معرفة أسرار الديمقراطية وتعاليمها وأسرار العلوم الحديثة وكما نتجه اليوم نحو التاريخ والعلوم الاجتماعية والايثنوغرافيا أى علم البحث فى خصائص الشعوب وعراقتها.

وليس هنا من شك فى أن الصين فى عهد ماو تسى تونج لاتشعر بأى ميل إلى قيادة الشعوب الكادحة ولذلك كانت الإغارة على الدول الفنية وتوضح لهم وسائل إعداد ثورة سريعة تعد الصين صفاتها بإعاناتها السخية ومع ذلك فلم تتوان الصين على أن تقدم على الرغم مما تعانيه هى من متاعب الغذاء ورؤوس الأموال إذ قدمت فيما بين ١٩٥٣ و ١٩٥٩ (١٩١ مليون مساعدات وإعانات) وزعت على كل من ألبانيا وبورما وكمبوديا وسيلان وكوبا ومصر وغينيا وهنغاريا واندونيسيا وكوريا الشمالية ومنغوليا ونيبال وفيتنام الشمالية واليمن ولا تتضمن هذه الإحصائية ما منح لثوار الجزائر كما لا تتضمن كذلك الاتفاق الموقع مؤخرا مع غانا عام ١٩٦١ (يلاحظ أن ٤٠٪ من هذه الإعانات منحت لدول وبلاد غير شيوعية) ثم إن هذه الإعانات تثبت نية الصين الشعبية فى أن تلعب دورا عالميا قد يكون أكبر من قدراتها الحالية ولكن المؤكد أنه أقل من طموحاتها.

وقد رأينا كيف قامت بشن غارة لاحتلال التبت عام ١٩٥٠ فكان منذئذ أن بدأ النزاع المستتر بينها وبين الهند ثم بمطالبتها بجزيرة فورموزا حيث يعسكر جيش تشانج طاى تشيك ورغبتها فى استعادة علاقات طبيعية مع اليابان ومع الدول الغربية ذات النظم الاقتصادية التى بأكثر مما يحظى به الاقتصاد السوفيتى (وعمليات التهريب السرى تقريبا للآلات والعدد عن طريق ما كاد[١] وهونج كونج ثم الرغبة أخيرا فى دخول الأمم المتحدة حيث يحتل مقعد الصين، يحتله بصورة

(١) أراضى صينية الأصل يحتلها البرتغال

متناقضة وبشكل مخالف من يطلق عليهم الوطنيون فى جزيرة فورموزا... كل ذلك يترجم نزعتها ورغبتها فى السيادة والنفوذ وكذلك التصدع والقطيعة شبه الكاملة بين الماركسية الصينية والماركسية السوفيتية فى آخر مؤتمر عقد فى موسكو عام ١٩٦١ حيث ترغب الصين وتراودها أحلام العظمة والسيطرة مثال ذلك هنا أن الصين عام ١٩٤٥ لم تكن قادرة على صنع الموتوسيكل ثم هاهى عام ١٩٦٢ على وشك صنع القنبلة الذرية (واليوم تمتلك القنبلة الهيدروجينية) ولم تكن الصين فى ثنايا هذه الثورة قد استعادت مجال ذكرى مجدها التليد السابق زهو أسلافها الأقدمين وجدادتها بصفتها إحدى الحضارات الكبرى. ويوجز ما يلى من قول ابين بالزاس وهو من الاخصائيين فى العلوم الصينية الرأى فى موضوع الحضارة الراهنة التى استعادتها الصين فى المجال الثقافى الطويل الذى سلكته.

أن تنجح التجربة الصينية بطريقة مقنعة وأن تجازف الدول النامية باتباع طريقها فإن ذلك وحده عطاء ضخم يثير المخاوف والفزع (فزع أعداء الصين وفزع أصدقائها) معا إذا ما طرحنا السؤال الآتى:

هل تنجح التجربة الصينية؟ أليست فى طريقها إلى الفشل؟ ولنقول بصراحة إن محاولة سبراغوار ما تنتجه الأرقام لا يجدى وكذلك الإحصائيات ذلك لأن الأرقام إنما تعد لإحتياجات القضية وضروراتها وفضلا عن ذلك فإن أرقام الإحصائيات الصينية تتلمس طريقها وتغوص هى نفسها سابحة فى مسالك ودروب من التجريبية.

وليس ثمة ما يدعو إلى الدهشة من أن إحصائيات الصين ليست مؤكدة تماما إلا أنها كافية للسماح بإعداد الخطط والتقدم دون أخطاء كثيرة وتقدير التجارب الجارية وتقييم نتائجها للتمييز بين التحركات واختيار الأفضل وهذه التحركات فى مجموعها تحركات إيجابية بكل تأكيد.. ومن الممكن أن نستهتر بفشل بعض الخطط الخمسية **كأفران الجيب العالمية** وضعت محصول الغلال والكوميونات الشعبية إلا أن العناصر الأساسية الثابتة التى تتمحور حولها التجربة الصينية أو فى لمعان الفكر من السخرية والإستهتار أو النقد ما دامت محسوبة بعناية ودقة:

١ ـ أن معدل نمو الصناعة يتصاعد وسوف يستمر فى التصاعد خلال سنوات قادمة ولاشك سوف يتفوق على المعدل فى الاتحاد السوفيتى ودول الديمقراطيات الشعبية الأخرى والدول المتخلفة بمتوسط ٢٠ ٪ مقابل مابين ١,٧ ٪ .

٢ ـ الإدارة الصادقة والرغبة الواضحة فى المسير على القدمين أطول زمن ممكن بمعنى الاحتفاظ بإيرادات الصناعة من أجل الاستثمارات فى سبيل المحافظة على معدلاتها فى النمو وإيقاعها المتصاعد والتصرف فى القطاعات الأخرى بالإمكانيات المتاحة وتقوم جماعات الحرفيين الذين يعملون فى القرى تحت إشراف الإدارة لتوفير ما تحتاج إليه الجماعات الضخمة من الفلاحين بكل ما تحتاج إليه من أدوات أساسية ومعدات يستلزمها العمل فى الحقول وكذلك الأدوات الاستهلاكية.

٣ ـ تقشف عام وغير محدود مما يعنى مطالبة التكتلات الضخمة من أفراد الشعب بتضحيات جسيمة ثقيلة.

٤ ـ أن يتحلى المديرون بمرونة وشفافية تتيح لهم النقد الذاتى والإقرار والاعتراف بأخطائهم ومعالجتها فورا وتصحيح المساريلا إبطاء وكل ذلك يرتكز على حقائق أساسية تنطوى عليها الحياة والحضارة الصينية ولم يكن مستطاعا بدونها عمل شىء أو تحقيق تقدم.

(أ) وأولا العدد لا يجب بأى حال من الأحوال إذا ما وقعت تضحيات ضرورية فى عدد الرجال بسبب مشاق التجربة أو تضحيات عددية كثيرة تعريض نجاح التجربة للحظر والمجازفة بنجاحها ذاتها لأن الناس كثيرون ولقد اكتظت الصين دائما بكثير منهم.

(ب) ولكن بصفة خاصة فيما تحوطه التجربة من إطار غير مسبق فيه تتكتل كثافة سكانية عددها أكثر من ٦٠٠ مليون نسمة يشرف عليهم عشرة ملايين من أعضاء منظمين منتظمين مخصصين كرسوا حياتهم وجهودهم للحزب يجلس على قمته بعض الاستثناءات تقريبا من «الحرس القديم» الرؤساء انقضى ثلاثون عاما من حروب أهلية واضطهادات ومقاومة مسلحة ضد اليابان وعديد من

التقدمات والتراجعات فى مجال الإستراتيجية العسكرية والتكنيكات السياسية... فى حقبة تجربة لا مثيل ولا شبيه لها فى إدارة البشر والأعمال ولا يمكن أن نتصورهم إلا خلفاء تقاليد بيروقراطية راسخة لإمبراطورية عمرها يقدر بعشرات القرون والسنين وهم فوق ذلك موظفون مثقفون اعتادوا حكم بلد ضخم بيد حاسمة حازمة جدا... كنوع جديد من الطبقة المثقفة يجيدون التصرف بجسارة وحسم أطاحوا بما فى الكتب من لغو وآراء متحجرة وأخيرا فهم يمسكون فى أيديهم القوية بمصير الصين ومصير الكتل الشعبية فى الصين وكانت دائما خاضعة للنظام.

وترى هذه الكتل الضخمة من الشعب الصينى اليوم تتابع هؤلاء الرؤساء الجدد بكل مظاهر الطاعة لعل هذه المنظومة الفعالة دون أى مظهر من مظاهر الضعف المصممة على الإستمرار من القمة حتى أسفل القاعدة وتستطيع تشغيل وتحريك كل الناس بصرامة هو سر هذه التجربة الفريدة فى زمن قصير فمن أقدم الحضارات السابقة صارت الصين اليوم القوة الأنضر شبابا والأكثر تقدما بين كافة البلاد النامية ولكن ربما كان ذلك لاستطاعتها الارتكاز على واحدة من أقدم وأرسخ أصالة نابعة من حضارتها القديمة: ونظامها البيروقراطى.

قصة أخرى تواجه

مصير الصين... نزاعها

الصراع الصينى السوفيتى

ترى هل كشفت المجادلات التى وقعت أثناء انعقاد المؤتمر الثانى والعشرين فى ١٩٦١ وضربات وتلميحات جريدة البرافدا وتلميحاتها (جريدة الشعب اليومية) فى مقالات ملبدة مغلقة وكذلك الصحف الرسمية الروسية والصينية عن صراع حقيقى بين الدولتين؟ أو أن المظاهر خادعة بحيث ينتهى التضامن الاشتراكى دائما بالفوز لأن التضامن هو العنصر الأقوى. والحق يقال إن الطلاق بين الدولتين يكاد يكون مستحيلا فلو قد حدث لكانت له آثار دولية خطيرة جدا بالنسبة للشريكين ومع ذلك تبدو العداوة عميقة الجذور حيث نجد أن الأسباب هنا كذلك تغوص فى أعماق التاريخ... تاريخ الحضارات الحاضرة ولاشك أن للنزاع أسبابا

حالية فالنزاع بين شعبين كبيرين حاولا التجربة الشيوعية بهدف مسايرة العصر الحديث حيث لا يزال أحدهما يلهث بعد أربعين عاما من الإملاق والحرمان وحيث ينفتح الثانى أو واجه فى مجهود يفوق طاقة البشر وتقشف بائس على حين يجلس الثرى الجديد على مائدة المفاوضات مزهوا مثيرا للجلبة والضوضاء ويجد القريب الفقير فى المحافل الدولية أن لا صوت له فى الاجتماعات التوفيقية.

كما يجد نفسه مبعدا عن الحلبة الدولية كأنه مصاب بالطاعون، وأحدهما محكوم عليه بالتقدم مهما كان الثمن حتى لا يتراجع والآخر أصبح متعقلا متيقظا حذرا فى خطواته كما تمثل كذلك بينهما مجالات للاحتكاك ولكن أليس الصدام نابعا من نزعة وطنية عميقة الجذور مع رغبتها فى الثأر من الغرب ومن روسيا إشتراكية كانت أم غير اشتراكية كذلك.

أما الغرب فلا يزال بالنسبة إلى الصين ذلك العدو الهمجى البربرى ولا تحرص الصين على شيء أكثر من حرصها على محو ماضيها وأن تصبح هى بذاتها عاصمة العالم الثالث وهكذا تعتقد أنها عندئذ صائرة من جديد إلى تكوين «إمبراطورية الوسط».

حاشية ١٩٦٦

تفاقم النزاع الصينى السوفيتى منذ عام ١٩٦٢ وعام ١٩٦٤ سقط خروشوف وغاب عن الساحة ولم يؤد سقوطه إلى حل للنزاع وكان الحدثان البارزان منذ ذلك التاريخ:

١ ـ استخلاص نتائج من اعلان الصين عن توصلها لأسرار القنابل الذرية «الصينية» فى ٦ اكتوبر ١٩٦٤ و ١٥ مايو ١٩٦٥ ثم ١٩٦٦، مما يدل على تقدم تكنولوجى ضخم لم يكن يتوقعه أحد أو كان أمراً مستحيلا فى زمن قصير كهذا خاصة بعد انقطاع المساعدات الروسية فى المجال النووى فى عام ١٩٥٩ وهكذا وجدت الصين الطريقة التى توقف بها كل الادعاءات والتهديدات من جانب الولايات المتحدة الأمريكية.

٢ ـ عودة العلاقات الدبلوماسية بين فرنسا والصين فى ٢٧ يناير ١٩٦٤ مما كان يعد اعترافا بالصين الشيوعية وكان هذا الحدث الثانى بمنزلة بادرة سياسية من الطرفين تحقيقا لأسباب اقتصادية أملته احتياجات الطرفين ذلك لأن حجم التجارة مع إنجلترا التى اعترفت بالصين منذ ٦ يناير ١٩٥٠ وحجمها وكذلك مع ألمانيا الاتحادية كان يفوق حجمه مع فرنسا.

ويعتقد الصينيون أن بلدان العالم غير الشيوعى ينقسم إلى ثلاثة إلى ثلاثة مناطق هى:

١ ـ بلاد العالم الثالث.

٢ ـ بلاد الدول الرأسمالية التى لا تسير فى فلك الولايات المتحدة الأمريكية .

٣ ـ الولايات المتحدة الأمريكية.

كما أن بلاد النظم الرأسمالية التى لا تسير فى فلك الولايات المتحدة الأمريكية فى خلاف مع الأخيرة فى بعض الأمور، كما يعتقد الصينييون أن دول العالم الثالث تعد منطقة وسيطة. ولذلك يعدون بلادهم هى المنطقة الوسيطة الثانية كما أن دول العالم الرأسمالى التى لا تسير فى فلك الولايات المتحدة الأمريكية هى دول أوروبا خاصة واليابان وهى بالنسبة للصين تعد أمامها مجالات متفتحة يمارسون فيها ومعها حركتهم ونشاطهم.

الفصل الرابع

الهند بالأمس واليـــــوم ..

الهند بالأمس واليوم

تبدو الهند كتجمع متقارب من الأراضى ومثله عديد من الأزمنة الماضية المتعاقبة تحاول التوافق بلا جدوى وهى أراضى شاسعة جدا (٤ أربعة ملايين كيلو متر مربع) وتقدر مع أراضى باكستان لثلاثة أو أربعة أصناف مساحة قارة أوروبا وهى مكتظة بما يصل عددهم اليوم إلى ٤٣٨ مليون من السكان (ماعدا سكان الباكستان) . ولم تعرف الهند هدوءاً فى ماضيها بين الديكان فى الجنوب وشعبها «المحافظ» بشرا وحضارة ومقاومة عنيدة وفى الشمال الشرقى حيث تمتد بلاد الأندوس حتى تلتحم بإيران، وفيما وراء ممر جيبر حتى أراضى التركستان ومنها حتى أراضى آسيا الوسطى (وسط آسيا) المفتوحة أمام الغزوات وتعد أخطر المناطق فى الأراضى الهندية وأكثرها إثارة للشفقة المثيرة وأخيراً (باستثناء حقبة الاستعمار الإنجليزى) لم يحدث أن استطاعت سيطرة سياسية أن تفرض نفسها على تجمع بلاد شبه القارة لا الأمس ولا اليوم بعد التقسيم المفاجئ العنيف الدامى بين كل من

الهند وباكستان عام ١٩٤٧

الأراضى الهندية القديمة

حتى قبيل الاحتلال الإنجليزى

نستطيع القول إذا لم نرجع إلى حضارة بلاد الأندوس الغامضة أى ما بين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف سنة قبل الميلاد أن ثلاثة بلاد هندية تكونت ببطء واستبدلت دون التسرع بالامتداد أحدهما نحو الأخرى:

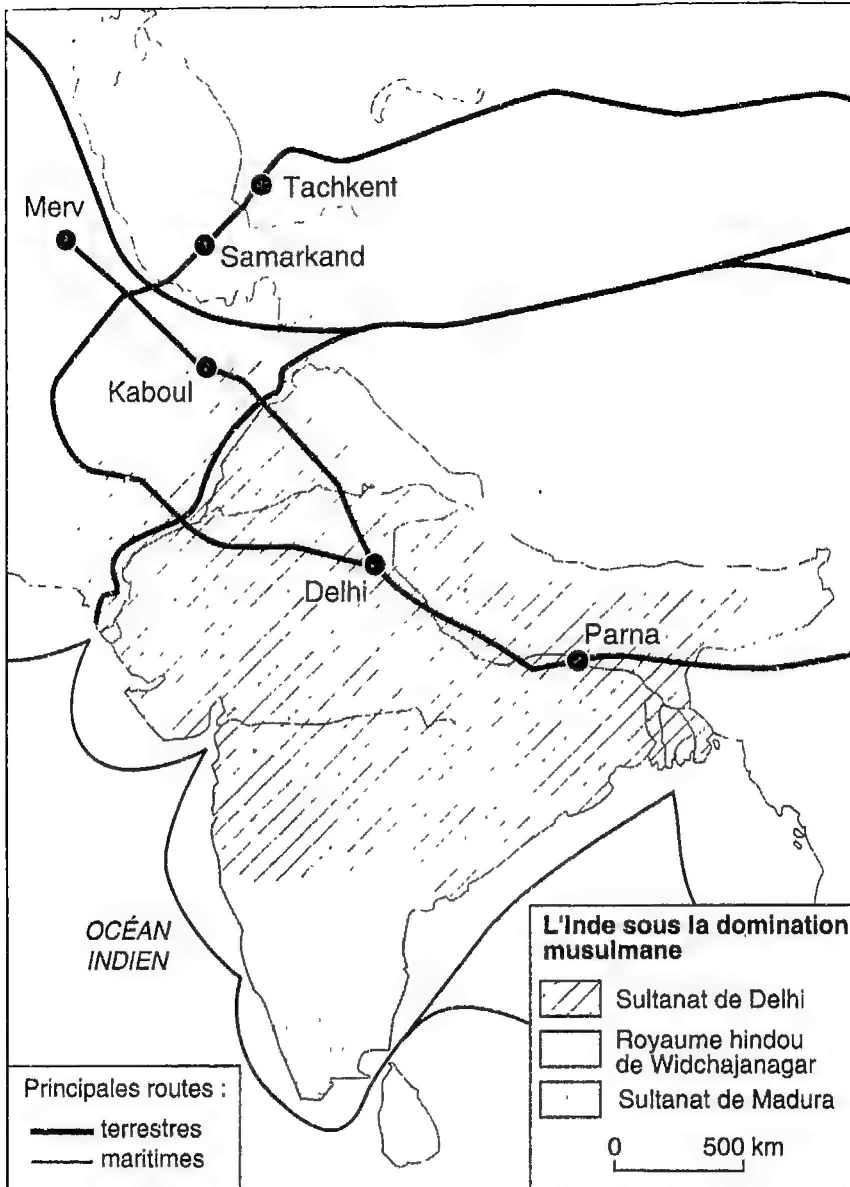
١ـ حضارة آرية هندية تسمى حضارة فيدا[١] وذلك من قبل الميلاد ـ ١٤٠٠ سنة حتى القرن السابع بعد الميلاد.

٢ ـ حضارة إسلامية هندية فرضها الغازى المسلم فارتدت شعوبها القميص المفروض اتقاءاً للشرور وكان ذلك ما بين القرنين الثالث عشر والثامن عشر وخلال تلك الفترة الزمنية الممتدة من الغزو حتى تتوديه بدوره ولم تتمكن منذ القرن الثامن عشر أى زمن الاستعمار الإنجليزى أى من تلك الحضارات المتمثلة فى هذه الإمبراطوريات العالمية التى كانوا يحتلونها من قمع سكان شبه القارة كلهم حتى القرن الثامن عشر فلم تخضع خلال هذا الزمن أراضى الهند لنظام موحد كما وقع لماضى الصين إذ مرت ببلاد الهند فيدا بثلاث أو أربع مراحل كبرى من ١٤٠٠ عام قبل الميلاد حتى القرن السابع بعد الميلاد حيث وقع خلال الألفين من السنين غزو واستقرار من قبل شعوب أرية اقبلت من التركستان إلى الأراضى الهندية من جهة الشمال الغربى متسللة فى هدوء عبر أودية بلاد الأندوس الوسطى ثم عبر الحانج الأوسط ولم يتأثر بحضارتهم سوى جزء من وادى الهند ـ جانج غير أن السبب إنما يعود إلى حيوية قلب الهند. وحضارة ما يسمى بحضارة الفيدا نسبة إلى فيدا حيث تألفت من تقاليد الوافدين على الأراضى الهندية ومن طقوس الشعوب التى استقر بها المقام فى الأراضى الهندية وتعلى حضارة فيدا هذه المعرفة المقدسة وسوف تتبلور فى بطء طويل كما صطدمت بالشعوب الأهلية السابق توطنها هذه الأراضى ومنهم رجال ذو بشرة سمراء أو سوداء من جذور مختلفة: أقزام قدموا مبكرا من افريقيا وأقوام من سواحل البحر الأبيض المتوسط وصلوا فيما بعد من بلاد العراق احتمالا واحتفظت نماذجهم بميزاتها مثل شعوب الدراويد ذوى السمات المنغولية التى تقطن شمالى الهند[٢]

---

(١) فيدا أحد كتب الهندوس الدينية الأربعة.

(٢) شعوب هندية من جذور من أوروبا.



الهند تحت السيطرة الإسلامية
الهندوكية ودشاجناجار
سلطنة مادورا

خطوط / طرق رئيسية
خطوط ارضية
خطوط ملاحية بحرية

قـادمـين مـن الجنوب وجـذورهم من آسـيـا الوسطى وخـاصـة البنغـال وهؤلاء الآريـون السـابقـون ملتصـقـون بالأرض أى مـزارعون يربون الحيوان وهم من سكان مناطق حضرية يتجمعون فى القرى فى المدن على ضفاف نهر الاندوس معقل حضارة قديمة من أهل المدن والتجار وتتعدد هذه الشعوب الآرية السابقة وستظل من الأمس إلى اليوم تمثل العنصر البشرى الغالب فى بلاد الهند وأغلب الهنود من السلالة الآرية من رعاة الأغنام الرحل ذو بشرة فاتحة وشعر أشقر ينتمون فى أصولهم إلى شعوب عديدة اجتاحت الوديان والهضاب ومن إيران وآسيا الوسطى وكذا الأراضى الأوروبية الثانية وغزاة اراضى الهند هؤلاء أشقاء للإغريق وسكان الجزر الإيطالية الأوائل وشعوب السكان والجرمانيين الصقالية.

٢ ـ **المرحلة الأولى : العام الألف: الغزو :** وقعت الغزوة الآرية الأولى من التركستان نحو إيران والهند وولقت من العراق حتى الأندوس وبحضارةمتجانسة مشعة مزدهرة بمدنها ومنازلها العالية وفلاحيها ذوى الجذور المتأصلة وكانت هذه الحضارة القديمة فى فترة تراجع وتفسخ عندما وصل الغزو أراضى الأندوس حيث قاوموا طويلا فى سبيل استقلالهم ضد الطارئين الجدد واستطاعوا تأخير تقدمهم نحو الشرق. وتحكى النصوص الآرية المقدسة باللغة السنكريتية عن هذه المعارك ومراحل الكفاح المستمر الذى جمع البشر والآلهة والعصاة لله والأزورا والمؤمنين بالألوهية الحامية للخصوم ثم انتشروا قبل العام الألف فى منطقة البيجاب وروافد نهر كابول وتتجلى هذه المرحلة الطويلة فى أغلب الكتب المقدسة أمثال زى الفيدا الشعرية وتسمى كذلك بكتاب الأناشيد حيث تفسر روايات الأساطير والخرافات المتصلة بالآلهة وكذلك المعتقدات فى أول من ديانات الفيدا وهم ثلاثة وثلاثون ربا على الأقل منهم أرباب الدنيا وأرباب الفضاء الوسيط أى أرباب الفضاء والسماء، ومن هذه الأرباب «الناهضة» بيزفارونا يتولى صيانة القوانين الكونية والروحية ورصد المذنبين الذين يقيدهم بالحبال ويبدر كذلك اندرا وهو رب أهم وهو حامى الأبطال من ذوى الشعر الفاتح سعداء آلاف المعارك قاهر الشيطان ڤيترا وهو محرر ماء السماء التى تغمر الأرض منذ ذلك

التحرير وترويها وتخصبها وتمتزج كل هذه الآلهة والأرباب بالناس كأرباب لأوليمب من قادة المحاربين الذين تلاهموا عند حوائط طروادة وكلهم يطالب بقرابين وأضاحى من لبن وقمح ولحم حيوان وأشربة مخمرة «سوما» من نبات غامض فهى باختصار ديانه تعددية قطعية تخضع لطقوس وهكذا أثبت هؤلاء الآريون الرحل أنهم لم يتنازلوا بعد عن معتقداتهم القديمة للتأقلم على حياة حضرية نظامية حتى فى المحيط الدينى.

(ب) المرحلة الثانية من العام الألف حتى عام ٦٠٠ قبل الميلاد مرحلة الفتح والانتقال من الترحل إلى الإقامة والاستقرار.

كان استقرار الغزاة قد تحقق فيما بين العام الألف والعام الستمائة قبل الميلاد فى المناطق التى توسعت نحو الشرق ولعبت فيها مدينة دلهى دور المحور الرئيسى وقد امتدت هذه الغزوة نحو الشرق حتى بناريس الحالية عبر معارك قتالية هائلة أو هكذا أوصفت لنا على الأمل وحوالى عام ٨٠٠ بلغت البنجال .

وربما أواسط الهند كذلك وتفسر لنا التغيرات والتحولات الجغرافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية هذه التجديدات الدينية المستحدثة مع ظهور عديد من كتب مقدسة جديدة ثم تفسيراتها من أمثال البراهمانية أو الأوبانيشايدية التى تفتح الأبواب المقدسة فى التأمل الدينى (الوص) مع الإحتفاظ بعمق الجذور ثم تبدأ هذه الديانة فى دخول مرحلة التعقيد رويدا رويدا ولذلك بدأت تظهر وتتأصل اتجاهات نحو «الوحدانية» على حين تظهر بفضل امتزاج شعوب غازية وأخرى مغزوة كتلة ضخمة من العقائد غير الآرية انتشرت عبر كل النظم الدينية الأخرى فيها اليدجا (أى السيطرة والتحكم الذاتى) التى تحتل ممارساتها وطقوسها مكانا بارزا فى الديانة الفيدية (نسب للآلهه فيدا) إلى جانب قرابين شعائرية. ثم بدأت هذه المعتقدات والطقوس الدينية تمر بمرحلة القيام والضجر الميزان للكآبة، ذلك أن لا تكف عن التفكير فى أن الأرواح إنما تتناسخ مجددة خلق أنماط جديدة من الكيان الأرضى دون نهاية محزنة البتة ثم فى الوقت نفسه تعزز تلك التقسيمات الاجتماعية (فارنا) فى مجتمع سحرى شبه اقطاعى مركب يقينا حيث لا مجال لشيء يصبح قابلاً للإدراك الحسى بمجرد الإتصال وإقامة العلاقات بين شعوب

بلاد غازية وأخرى غزيت ومن أوائل تلك التقسيمات (فى المقام الأول) نجد طائفة البراهمة وهم كهنة الروحانيات ثم يأتى من بعدهم المحاريون والملوك والأمراء والسادة الكبار الكشاتريباس وتقف فى المقام الثالث صغار الفلاحين ورعاة الأغنام والحرفيون والتجار الفايساس وفى الصف الرابع والأخير السودراس أو الكودراس ويمثلون أصلا على الأقل الأهالى المستعبدين ثم بدأت بعد ذلك ملامح هذا المجتمع تتأكد ببطء بمحرماته وفروضه المتعددة وانقساماته حسب الأصول النقية وغير النقية وتجزأة الدينوى والروحى حيث تتعامل بين أرباب الطبقات العليا وسرعان أن وجدت النظم الحاكمة البدائية نفسها مجردة من كل احتكار وامتياز دينى مع الفارق الذى كان بمنزلة القاعدة فى الصين كما فى مصر القديمة وارتباط المبدأين الروحانى والسياسى للأمبريوم (السيادة الحاكمة) الفريدة لم يكن كافيا فى الواقع أن يستخدم الملك براهماميم للطقوس الشعبية إذ كان عليه أن تكون ناصلة شخصية مع واحد برهمى ،بروهينا بمعنى ذوالمكانة المقدسة وقد تترجم إلى الكاهن ومع ذلك فما ينبغى أن يغيب عن بالنا فكرة وجود وقد أوطليعة روحانية وليس فقط لا لأن الآلهة لا يأكلون قرابين الملك دون بروهنيا.

ولكن لأن الملك يعتمد على هذا الأخير فى تصاريف الحياة التى تنجح بغير معونية فهو للملك ما للإرادة فى علاقة عريضة كأنها علاقة قران بإيجاز كما يقول الإلهة فيدا إنه يسكن فى موقعه ويزدهر وينمو حيث وفر له الأرض كل عطاياها والشعب بطبيعة نفسه.. الملك الذى يسير البراهمانى نحوه أولا وكما وصفها لويس ديمون فإن فصوص المذهب البراهمانى التى تشبه سيادة إلهية دينية وترتبط بالسلطة دون ما امتزاج بينهما هى السبب الجوهرى لهذا المجتمع المجزأ الذى يشبة تلاحم تلك الأجزاء كارتباط الواحد بالآخر فتتعارض الطبقتان الأوليان مع بقية الكتل الشعبية وكذلك الثلاثة الأوائل معا مع باقى الكادراسى (الكودراسى تنطق السودراس) وعمد البراهمة إلى تأسيس رفع شأنهم اعتبارا من المخاوف الوالهة المضطربة التى يوحون بها: طقوس متداخلة ومتشابكة إذ سرعان ما يتوارى الرب المرجو هاريا فيتولى الفارونا ممارسة نزعاته الإنتقامية بصورة قاسية شرسه ويستطيع الكهان المؤتمنون الحافظون لأسرار الطقوس عندئذ

التصرف حسب رغباتهم وأهوائهم وشن الهجوم على المذهب الآرى القديم(١) وإنقاص قيم الآلهة أندرا وكل الأرباب أبطال الأناشيد القديمة ويخلقون لاستخدامهم الذاتى إلهاساميا هو «براها» يترأس قرابينهم وأضحيتهم ولن يتميز هذا الرب مطلقا على أى حال بأية شعبية وفى المقابل سيقوم الهامه اثنان بإثارة حمية المؤمنين المخلصين وهما سيفارودرا لدى السكان الفلاحين والفيشنو المتشبة لدى الطبقات الأرستقراطية بأبطال كرشنا فاسوديفا بالإضافة إلى المحاربين والفلاحين (الطبقة الثانية والثالثة) وسيتجهون طواعية نحو اليوجا التى يمارسها البراهمة بدورهم وتجاه مذاهب أخرى تمارسها طبقة الأهالى وأخيرا اتجاه فكر فلسفى حر تولد منه منذ القرن السادس والخامس ديانتان اثنتان الجاتيزميه والبوذية.

(جـ) المرحلة الثالثة وتتضمن إشراقات المذهبين البانية(٢) والبوذية

كانت أولى عهود ازدهار هاتين العقيدتين نابعا من نظم حكم طبقات صغيرة جدا ثم من ثنايا مدن أرستقراطية مرتبطة بالتجارة وأصبحت هذه المدن آهلة بالسكان تستفيد من حيلها للبذخ وثروات بورجوازييها من ملاك المصارف ورجال البنوك والتجار يجنون أرباحا ضخمة من تجارة القوافل والمبادلات التجارية عبر البحار وهكذا ظهرت تلك الأقمشة القطنية الرفيعة وكذا الأقمشة الكتانية والحريرية الفاخرة ومنذ العام ٦٠٠ قبل الميلاد تأكد قيام صناعة الحديد بفضل ما عثر عليه من أسلحة فى أضرحة الموتى وكان ميناء عدن البعيد هو المركز الكبير حيث تنعقد صفقات إعادة شحن الحديد إلى البحر المتوسط وفى هذا الوسط النشط الذى يكاد يماثل اليونان التى عاصرتها فى القرن السادس والقرن الخامس قبل الميلاد ازدهرت ونمت الديانتان الكبيرتان المنفذتان البانية والبوذية المتساويتين فى السمات وإحداهما كالأخرى من الديانات خارج الإطار «علمانية» تمارسهما الطبقات المسيطرة خارج نطاق البراهمة وينتشر بها التجار وكل منهما تهتم بتشييد المعابد وعرض قواعد الخلاص الفردى، فالبوذية تنوع من أفكار الرغبة فى الحياة

---

(١) خلع صفات البشر على الله وتشبيهه بالإنسان.

(٢) البانية أحدى ديانات الهند ترتكز على تطهير النفس باللاعنف .

ومعناها تبحث عن وسيلة لكسر دائرة التناسخ الملعونة للوصول إلى النيرفانا، أما البانية فعلى العكس تجد فى العذاب الشخصى وسعيه طريقا سليما فعالا للخلاص وأسس الديانتين سادة كبار احدهما سيد هارتا جوتاما ولعله نجل ملك (٥٦٣ - ٤٨٣ ق.م) ويسمى كذلك ساكيامونى وحكيم الساكيا أو بودا المستنير ثم فارها مانا ماهاتر (٥٤٠ - ٤٦٨ ق.م) قاهر الدنيا (جينا) وتوصلت البوذية وأصلها من تيبال لوجيها عام ٥٢٥ وانتشرت منذ ذلك التاريخ خلال ما تبقى من زمنها عبر وادى نهر الجانج وتقوم ديانته المدعوة إلى تعديل مسارها بعد وفاته على أحاديثه وكلامه طبقا لما جمعه أتباعه ومريدوه ولا تأكيد بشأن الله إنه صمت لا إنكار لولا أنه يظل علامة بارزة على مذهبه كرفض كل وحدانيات الوجود.

وعلى وفاق مع الأفكار السائدة فى زمانه كأفكار الأوبانيشاد فهو ينكر واقع الدنيا والإنسان العام الشامل وليس ثمة ماهو حقيقة خارج ضميرنا ويقول: لقد عدت نحوى كعصفور على ظهر سفينة يطير مستقبلا الجهات الأصلية باحثا عن أرض ذلك أن هذه العناصر (التراب والنار والماء والهواء) فى ثنايا الضمير نقطة ارتكاز وتفقدها فى الضمير الوافد الحس، الناقص الشعور وكلما توقف الضمير عن كينونته (لم يعد كائنا) بادت عناصر الكون كلها.

وفى الحقيقة كان بوذا واحدا من الزهاد أى سنايازى والزاهد هو الإنسان الذى يغادر المجتمع هائما على وجهه منذ بداية زهده يعيش على الصدقات باحثا عن مطلق روحانى قادرا على تحريره وخلاصة وهو ليس منشغلا بإعادة تشكيل المجتمع الذى يتصرف عنه ولكن لتأمين خلاصه الذاتى الشخصى فالبوذية إذن لفرد أو رجل انفض عن مجتمعه وارتبط بالبدع التى تنبثق بصورة منتظمة فى الهند وتوفر طرق كثيرة للخضوع لديانه البراهمة بالتقشف والزهد الشخصى وقدسية المطلق والزاهد البراهمى بخلاف المسيحى الذى يحاول التهرب من الموت يجاهد فى التهرب من الحياة بحلقات دورية من عودة الحياة وظمأ السعادة هاهى: أيها النساك الحقيقة المقدسة لأبطال الألم: إطفاء هذا العطش بوأو الرغبة وإقصاء الرغبة بالزهد فيها وعدم ترك مجال لها وبهذا الثمن يمكن تحطيم دائرة عودة الحياة ولبلوغ مرحلة النيرفانا وعلى الإنسان الحق لبلوغها أن يتبع الطريق ذا

الأفرع الثمانية وبها يبلغ العــــلم الذى يخلص الإنسان من كل غرور ويتجنب المحرمات الخمسة (القتل، السرقة، الزنا، السكـــر، الكذب) والامتناع عن الخطايا العشر المحرمات وهى : السب والثرثرة والحســـد والغيرة والحقد والخطأ العقدى، وممارسة الفضائل الستة السامية وهى: حب الجار والصبر والنقاء الروحى والحمية والإحسان والطيبة أما بلوغ الكمال فمعـــناه وصـــول المـــرء إلى أبعد من ذلك أى يصبح بوديستافا قديسا ثم بوذيا وبمعنى الحصول على الإشراقات الصوفية الزاهدة وتقبلها والبوذيون وحدهم هم الذين يذوبون فى النير فانا.

خلال ما سمى بعصر الامبراطوريات الحاكمة من عام ٣٢١ ق.م حتى عام ٥٣٥ بعد الميلاد إذ حققت كل من البانية والبوذية. انتشاراً واسعاً فقد سيطرتا على السفن والفكر دون أن تستبعد لحظة واحدة الطقوس والممارسات السارية النابعة من شعائر فيدا وفى سبيل الدفاع عن مواقعهم استندوا أكثر فأكثر إلى الشعائر الشعبية التى جمعوها فى شكل معقل أو متراس ويؤدى هذا السياق البطئ إلى الهندوسية والستكريتية [1] على أقصى اتساع وبهذا تراسخ التدرج المسلسل الكهنوتى واكتمل خاصة تلك المنظومة منظومة نظام الطبقات الاجتماعية وهو نظام أساسى للهند وبدأت ملامحه ترتسم فى الأفق بين عام ٣٠٠ ق.م وعام ٧٠٠ للميلاد وهو تكوين متأخر نسبيا لا يجب الخلط بينه وبين نظم الفارنا القديمة.

فهذه تشبه طبقات المجتمع فى إيران قبل دخول الإسلام أما المنظومة الطبقية وهى إحدى الحقائق فى الهند المعاصرة فقد تشكلت فى حقبة طويلة (بضعة آلاف من السنين) وكان تشكيلها قد جاء صدفة عند امتزاج العرقيات والثقافات وبفضل التمايز المتصاعد للمهن والحرف ومن هنا نشأت عدة آلاف من الطبقات أصبح فى الهند ٢٤٠٠ طبقة اجتماعية ويجيء فى أدنى هذا السلم الطبقى فى المجتمع دور الطبقات المحرمة البارياس والمنبوذون.

واستفادت هذه الحضارة المتعددة العناصر من نشأة الإمبراطوريات (النظم الحاكمة والسلطات السيادية) الشمولية (سلالة الموريا من ٣٢١ حتى ٣٨١ ق.م

---

(١) مذهب التأليفية أى التوفيق بين المذاهب المتعارضة.

وأكثر من ذلك سلالة كونيا من عام ٣٢٠ حتى عام ٥٢٥ بعد الميلاد حتى امتدت حدود الهند إلى الشمال حتى نيبال والهملايا والتبيت وسيام وإلى اندونيسيا خاصة بعد اضمحلال سلالة كويتا لتسرب إلى جزيرة سيلان التى تستعمرها خاصة فى المنخفض الدراوويدى من الدوكان ونشرت فيه بالقوة اللغة السنسكريتيه التقليدية والأخرى المعقدة التى سوف تصبح عبر كل انحاء الهند مركبة الحضارة الباذخة التى تعارضها الكتل البشرية السكانية. وقد فازت العقيدة البوذية مع بزوغ نجم إمبراطورية موريا .

وحكم أسوكا الرائع (٢٦٤ ـ ٢٢٦ ق.م) ولكن بدأت تتأكد بعد قرون أركان هند جديدة تقليدية وذلك بانتصار الهندوكية التى قبل عنها عودة الروح للهندوكية إذ صاحب هذا الزمان الازدهار الفنى وبذلك صارت الهند سيدة على ما تمكنت من افتراضة أو استيعابه عن الآخرين وبالأخص من الفن اليونانى الذى أتى إليها منذ غزا الإسكندر الأكبر أراضيها بلاد الهندوس وظل فيها من ٣٢٧ ـ ٣٢٥ ق.م حيث تمكنت الهند كذلك من تثبيت قوتها ونقائها بل أبتعدت المعبد الهندى السكارى.

فى الإتجاه الذى سيطر على مقدراتها وعلى مصائر القرون القادمة ويشبه كاندرائيات الغرب فهو مشيد على مسطح عريض واسع تحوطه سلالم الدخول وتحدق به أماكن للصلاة (محراب) وفى قمته يبدو جبل ميرو وهو بمنزلة الأوليمبد (محراب أسطورى استقر فى عقيدتهم أن الآلهة تسكنه.

وكذلك كانت هذه الحقبة مزدهرة بآدابها ففى بلاط الإمبراطور تشاندرا جويتا ٣٨٦ ـ ٤١٤ يقال أن ما سمى بالأحجار التسعة الثمينة التى عاشت فى هذا البلاط وخلال هذه الحقب تفاعل الشعراء وأروع المفكرون فألقت الكتب الشهيرة وهى (نشا كبتالا) وهى القصة المأساوية التى ترجمت إلى الإنجليزية عام ١٧٨٦ وإلى الألمانية عام ١٧٩١ ويقال إن تأثيرها كان واضحا على فكر هردر(١) وجوته ومن حيث ورقت الهندوكية عن تقاليد قديمة موروثة فليس من السهل تحديد تاريخ بدايتها وهل كانت عند زوال سلالة كوتيا أو عند تفكك الامبراطورية؟ وكلها كانت

(١) ١٧٤٤ ـ ١٨٠٣٣ كاتب ألمانى باسم برحان جوتفريد هردر.

عرضة لزوال أو مع هارشا (٦٠٦ ـ ٦٤٧) ومع ذلك فمن المؤكد أن أركانها توطدت بشكل واضح خلال هذا العصر الوسيط الهندى ومنذ موت هارشا إجمالا إلى وقت سلطنة دلهى عام ١٢٠٦ والهندوكية أكبر من ديانة وأكبر من نظام اجتماعى إنها جوهر الحضارة الهندية قديمة الجذور جدا وظلت حية نشطة حتى أيام البانريت نهرو على أن تفسير هذا التطور بكل ما عندنا من مفرداتنا التى تشير إلى شبيه لها أو نموذج أوروبى من القرون الوسطى : من الإنقسامات الاقطاعية لن يلقى الأضواء متواضعا خطرا فى آن واحد فقد يشن عن غير قصد بحقيقة هذه العقيدة وسوف تلجأ مع ذلك إلى استخدام هذه المفردات دون أن نأخذها حرفيا إذ أن للهندوكية فى هذا العصر الوسيط أهميتها كما كانت المسيحية فى أوروبا فى عصورنا الغربية الوسطى وسوف نلاحظ أن الهند لم تكن تشبه أو تماثل سلالات أوروبا أيام الميروفنحيون[1] أو الكارولنجيون[2] ولا عصور الإقطاع **المضمون والسياق التاريخى** لهما أهميتهما: لعل انحسار أصاب حجم المبادلات التجارية قبل اندثار عصر جوتيا.

وقد أضرت فترة الخمود الاقتصادى هذه بالتجار وكذا بأنصار البانية. والبوذية.

فقد عرفت هاتان الديانتان أو قاستهما العصبية حيث تعرض أتباعهما لنوبات التعذيب والاضطهاد والرفع على الخوازيق والتنكيل وتدمير معابدهما، ومن جهة أخرى فإن الإمبراطوريات الكبرى ذات الأغراض التوحيدية كانت سرعان ما تنهار دون أن تعير طبقات الشعوب أدنى اهتمام بها ولا بمصائرها.. كان ذلك يقع كل مرة تنحسر فيها تجارة أكثر المناطق شراءاً ابتداء من شواطىء نهر الجانج وجود جيرات إلى بحر عمان ولا تعود فيها هذه الحركة التجارية المزدهرة. وكانت تحكم هذه الإمبراطوريات الضخمة حفنة من الملوك تابعه لمذاهب اجتماعية مغايرة لمذاهب رعاياهم، وكان من الطبيعى أن تتجزأ الأراضى الهندية إلى ولايات مستقلة وتنقسم كل ولاية بدورها إلى سلسلة من الإمارات والإقطاعيات والسيادات المتطاحنة فيما بينها. ويزدهر العصر الهندى الوسيط بظهور المحاربين

---

(١) سلالة ملوك فرنسا الذين هزمهم الكاوينجيون.

(٢) السلالة التالية للأولى وامبراطورهم المشهور حتر امان.

والقصص والحكايات الإقليمية المتعودة وتتقاسمها بدورها أناشيد وترتيلات محلية يتوه فيها بسهولة من كثرتها وتنوعاتها العلماء المتخصصون وليس مهما متابعة تاريخ هذه الولايات واحدة تلو الأخرى ولا التذكير بما كانت عليه من ازدهار وحيوية كما كان فى مناطق البنجال أو الجود جيرات أو الدوكان (بيزنطة الهندية) كما أسماها مؤرخون آثارهم خاصة مصيرها وقدراتها على الصمود وازدهارها البحرى ثم زمن إمبراطورية تشولا أخيرا (٨٨٨ ـ ١٢٦٧) ولكن الأهم هو ذكر ذلك الازدهار الأدبى فى كل من البنغال ومناطق الجود جيرات ومناطق الخليج من كامبى وشبه جزيرة كاتافيا باللغات الدراوودية وهى اللغات السائدة فى الديكان، وكان من أهم هذه اللغات لغة التامول وباختصار فإن العصر الوسيط رغم الانحسار الاقتصادى الذى صاحبه قد أعاد القوة والحيوية إلى كافة التقسيمات الجغرافية والإنسانية فى الهند وهذه التقسيمات تفيض وتنمو وتزدهر كنمو النباتات الاستوائية وذلك كله بمنزلة سمات عميقة للهندوكية التى سوف تستمر لتتوارثها الهند الحديثة العصرية... على أنها مع هذا التعدد فى اللغات وما يسبب لها من مضايقات كبيرة وبغض النظر عن هذا التنوع اللغوى قد تبلورت فى النهاية فى وحدة دينية وثقافية دقيقة وجلية.

وحدة نابعة من السنكريتية البرهمية

إن العقيدة الهندوسية فى المناطق الشمالية هى هذا التجمع العقائدى الذى حققه البراهمة اعتبارا من العناصر التى كانت تؤمن بالآلهة فيدا ومن تجمعت من بعدهم من عناصر غير آريةمنذ قرون ثم من عديد من المذاهب المحلية الخاصة التى احتضنت عقيدة دينية أرادت الارتباط بكل ماهو قائم. فماذا كان دور مناطق الجنوب؟ استطاع الجنوب تدريجيا ربط الشمال بالتناوب فى السياسة وفى الفنون وكذا فى الانطلاق والفكر العقائدى وحققت مناطق الدوكان ذرا النجاح فيما بين القرن السابع والقرن الثانى عشر وكان من أكثر الفنون ازدهاراً فن بالافا الخاص بالماما لابارام التقليدى البارع وفنون أيللورا العنيف السامى وفنون كوناراك الغنائى الشفاف ولنلاحظ كذلك أن الجنوب قبل تلك الفنون قد ذهب للهند أكبر وأقدم فلاسفتها مع سانكارا ورامانوجا وذلك أن الهندوسية كان مقدرا لها أن تشيع وتنتشر تحت آلاف الأشكال فهذا رب الرحمة سهلة المنال التى تعير وتغيث كل من

يناديها والتى تستسلم للتغير. فالتصورات تتغير ولكن المضمون يظل كما هو ضد البوذية والبانية وقد انتقمت الديانة الكلاسيكية القديمة وأخذت بثأرها ولكن بالتشبه والتناقل بمبادئ الطهارة ونبذ العنف بل وبالنزعة النباتية الخاصة بالملتين أو الطائفتين إلا أنه أعماق شعبية قديمة سوف تعبر عنها اللغة الجديدة وهكذا انتهت الهندوسية إلى التعايش السلمى مع ثلاثة آلهة عظام فى القمة وهم:

براهما الذى يتلقى خاصة الفضائل الثقافية وهو خالق الدنيا والإلة فيشنو الحافظ والإله سيفا المدمر وكل واحد منهم متلازمين أو منفصلين هو التعبير عن «الخالق أو الكائن الأسمى» ودوره تحريك العناية الإلهية بين البشر وذلك ما يفسر إلى حد ما ما قيل عن الهبوط عدة مرات إلى الأرض وافاتاراس الإله ڤيشنو وهو بمعنى آخر تجسيداته المتعددة فى خدمة السلام فى الدنيا فقد تجسد فى هيئة سمكة أو سلحفاه أو خنزير بربرى ضخم أو هيئة رجل أسد بل وفى الهيئة التاسعة للآفاترا فى شكل بودا أما الإله سيفا المدمر فقد تجسد فى هيئة الموت فهو تارة هارا الآخذ أو الخاطف وتارة مثل فيشنو يفوض سلطانه أحيانا كثيرة إلى ربات رائعات الجمال وكانت له فى جنوب الهند وجه ميناشكى ابنة ملك (تلك التى وصفت بذات عيون السمكة) وليس من اليسير التجول فى خضم هذه الخرافات الحافلة الثرية كما أن من المستحيل التوقف عند عديد الطقوس الدقيقة فى الصلوات والقرابين وطقوس الأموات وإعادة التجسيد وقد ظلت طويلا من مميزات أغلب أتباع المذهب الهندوسى والأطفال والنساك المتقشفون هم الذين يدفنون فى مراسم وطقوس مطولة معقدة وكذا حفلات الزواج، إذ كانت الهند وستظل محافظة بشكل مخيف فى مجال الطقوس والشعائر فإن مشكلة المؤمن الأساسية تخليصه وإنقاذه فإذا ما حوكم بشكل محترم فاز بالجنة بفضل أشعة الشمس أما إذا أدين وحكم عليه فمصيره إلى الجحيم فلن يتمسك المستقبل بهذه النتيجة براءة كانت أو إدانة فسوف تتجسد الروح حسب مصيرها التغس ويمكن للإنسان أحيانا بفضل الصلوات والطقوس والحج بفضل طلاسم لغوية وكذلك فأل سعيد بأن يهرب من الخارقان(١) . أو الكهرمان أى القدر الجبرى وهو العمل الذى يؤدى إلى مضاعفات

---

(١)عقيدة أساسية فى الديانات الهندية تقول بأن كل عمل وتصرف يصدر من الإنسان هو مقدر له.

دائما وخاصة فيما يتعلق بالتناسخ والمقصود نوع من الخلاص السلبى مختلف تماما عما تقول به البوذية من تحرر روحانى يستدعى التمتع بالطهارة والتقشف والزهد الفردى والعدول عن القدسية ومن تحت المياه الكثيفة للهندوسية، مياه حضارة الهند ذاتها فإن الديانة الهندوسية مثلها مثل العقيدة اليابانية اندمجتا فى أشكال معينة تاركة روحها حتى فى أقاليم البنغال حيث تأصلت جذورها العميقة ولكنهما خلفتا فراغا لم يملأ وفى الهند ودائما يحوز الناسك الزاهد المتخلى عن المقدس النجاح وتحت ثقل مجتمع متماسك متصلب لا يسمح بالحرية الفردية فى المجتمع الهندى إلا فى التجرد والحرمان والسلبية لذلك تكتظ الطوائف والنحل ذاتيا وتتكاثر فهى ايماءات وتحركات تأخذ شكل التحرر الثقافى والمعنوى وقد تفسر هذا الفراغ الذى خلفته البوذية وراءها هو هذه التحولات الهائلة إلى الإسلام فى مناطق البنغال نفسها بعد هذه الموجات من التعذيب والاضطهاد من البوذية فى القرن الثانى عشر وقد عايشنا مثيلالها فى البلقان فالمسيحيون أسلاف البلغار فى البوسنة وكثيرا ما تعرضوا للتعذيب يتحولون إلى الإسلام عند وصول الأتراك فى القرن الخامس عشر والهند الإسلامية (١٢٠٦ ـ ١٢٥٧) التى بدأت منذ القرن السابع بتأسيس المستعمرات التجارية على سواحل الملبار وتجسدت عام ٧١١ ـ ٧١٢ بغزوة قادمة من بلاد السند ثم ارتكاز بعض المستعمرات القارية ٠قارة من سنة) فقد اتسعت الهند الإسلامية اتساعا بطيئا جدا عبر تلك الأراضى المؤدية إلى الأندوس والجانج ثم حاولت فيما بعد الامتداد دون جدوى بسبب غزوة القارة... وكانت غزوة كبرى شاملة بامتلاك الأراضى شبه الصحراوية فى الشمال حيث نشب النزاع بشأنها مع المسلمين. وفى مستهل القرن الحادى عشر عام ١٠٣٠ بالتحديد وقعت أراضى البنجاب فى أيديهم واحتاج الأمر إلى قرنين من الزمان لتأسيس سلطنة دلهى (١٢٠٦) حيث امتدت حتى أراضى الهند الشمالية التى هى بمنزلة مفتاح يفتح سائر الأراضى أو كلها وقد أدت هذه الغزوة التى وقعت للمرة الثانية إلى احتلال عسكرى واسع النطاق فالمسلمون وعددهم قليل نسبيا قد استقر مقامهم فى المدن الهامة ولم يتمكنوا من الإمساك بمقاليد الحكم إلا بسياسة بث الرعب والخوف فكانت الوحشية يومية ومن ذلك إشعال الحرائق والقتل الجماعى

والحكم بالصلب أو التعذيب بالخازوق والتقلبات الدامية، ودمرت المعابد الهندوسية لتفسح المجال لإقامة المساجد والتحول إلى الدين الإسلامى بالقوة فإذا ما هبت انتفاضة فالردع والعقاب جاهزان فوراً بصورة وحشية فتحرق البيوت وتجتاح البلاد ويصرع الرجال وتسبى النساءعبيدا، وكانت مناطق السهول الوسطى تترك عادة لإدارة الأمراء المحليين أو المجتمعات قروية حيث يفرض على هذه الإمارات الأهلية دفع الضرائب والجزية فى مقابل نوع من الحكم الذاتى كما حدث لأراضى رجوات سلالة راجى بوتانا.

ولكن الهند بفضل ما تتمتع به من كثرة العدد وفخامته وتحليها بالصبر والاتساع الشاسع لأراضيها تمكنت من الصمود والنجاة من الاندثار وكما كانت الجزية والغرامات ثقيلة لا تحتمل فقد كان المحصول القليل يؤدى إلى المشاكل وإشاعة المجاعة والأوبئة التى تطيح بملايين البشر وكانت مظاهر هذا الفقر المدقع المخيف تمثل ما يواجهها من بذخ السلطات المنتصرة الحاكمة وروعة قصورهم وفخامتها والاحتفال بالأعياد فى دلهى حيث استقر مقام السلاطين وفيها شيدوا عاصمتهم لبث الإعجاب فى نفوس القادمين من الرحالة من أمثال ابن بطوطة وكان من حسن حظ سلاطين دلهى أن أفلتوا تقريبا من غزوات المغول الأولى التى قادها جنكيز خان وورثته المباشرون فى القرن الثالث عشر بل لقد انتهزوا الإكتساح المغولى وما نتج عنه من فواجع وهم شديد فى توسيع دائرة غزواتهم نحو الجنوب وهو الذى استطاع الوقوف فى وجه أطماع السلاطين المسلمين، وفى المقابل كان زحف تيمورلنك واكتساح أراضيهم، وقاد غارة ناجحة عام ١٣٩٨ حتى مدينة دلهى التى سلبت منازلها فى غير شفقة ونهب ثرواتها دون رحمة وسرعان ما انسحب الغازى بالثروات الطائلة التى سلبها من غنائم وأسلاب حتى تمكنت السيطرة الإسلامية القديمة من الاستقرار فى ربوع الهند، ومهما حدث وبأى ثمن ولكن بدون أن تستعيد عظمتها السابقة ثم كان بعد ذلك الزمان بمائة وثلاثين عاما أن بدت الهند إمبراطورية مريضة بل مجزأة فى الواقع بين عدة أيد حاكمة سيادية متنازعة يمكن باير من غزوها عام ١٥٢٦ فى ساحةالقتال فى بانيبات بجيش مؤلف من مغامرين أشداء وقال عن نفسه أنه خليفة جنكيز خان (أو

هكذا ادعى) وكان جيشه على صفره مزودا بالبنادق والمدافع على عجلات من حوامل المدافع مرتبطة بعضها ببعض بسلاسل غليظة فى ساحات القتال تتحمل ثقل الخيالة المحتمل، واتسعت دائرة هذا الجيش بفضل جنود مر تزقة أقبلوا من إيران وكشمير ومن بلاد الإسلام ثم من الغرب (أوروبا) وكان باير[1] مسلماً على مذهب السنة وكان انتصار هؤلاء القادمين الجدد انتصاراً للإسلام الحنيف أى إسلام هؤلاء الرجال ذوى البشرة البيضاء الذين يحوزون ذخيرة المدافع (يقصدبارود) كانت سبباً فى نشأة إمبراطورية المغول الكبرى ودامت أكثر من ثلاثة قرون حتى عام ١٨٥٧ وهو تاريخ قمعها بيد الإنجليز عند وقوع تمرد السبايز فكان أن انطفأ بريقها بعد وفاة أكبر قادتها أورينج ذيب ١٦٥٨ ـ ١٧٠٧ قبل احتلال الإنجليز للبنغال عام ١٧٥٧ ، وقد عاصرت الهند منذ عام ١٥٢٦ حتى وفاة أورنيج ذيب عظمة اسلامية جديدة تذكر بالسنوات السعيدة من عهود سلاطين دلهى وصراعاتها بل وتعايشاتها بالقوة ونالت وحققت النجاح نفسه فى صراعاتها لأن الإسلام بحكم بإثارة الخوف ويقيم بذخه وترفه على أنقاض إفقار شامل للهند والسؤال هو: هل كان يستطيع أن يفعل غير ما فعل؟ هناك هذا الثراء الأسطورى الذى يسلب لب المسافرين والرحالة القادمين من الغرب ثم هناك كذلك سلسلة المجاعات وكثرة الوفيات الأسطورية وهذا الكم الغفير من الأولاد الذين تركتهم أسرهم المشردة أو تبيعهم أسرهم وكذلك هناك هذا التعايش السلمى بالقوة المفروضة عن الروابط المتكاثرة كلما مرت الأزمنة والعصور ١٥٥٥ ـ ١٦٠٦ بأكبر سلاطين المغول طوال تأسيس منظمة إدارية أقل نزعة إلى التحكم وتأسيس ديانة جديدة تحاول فى نظام عقائدى واحد ربط الدين الإلهى الإسلامى والهندوسى معاً فلم تجد هذه الديانة لها أتباعا خارج نطاق الدوائر الضيقة التى تحوط الإمبراطور ولم يقدر لها البقاء بعد موته وتبقى للمحاولة مع ذلك دلالتها.

وفى واقع الحال لم يكن الغازى يستطيع إهمال رعاياه من الهندوس حيث ظلت مناطق شاسعة من الهند شبه مستقلة تسدد أولا الجزية والضرائب. كتب فرانسو

---

(١) ١٤٨٣ ـ ١٥٣٠ أخضع التركستان وجزء كبير من الأراضى الهندية وأسس امبراطورية المغول الكبرى بعد هزيمته لسلطان دلهى عام ١٥٢٦.

بيرتيبه الطبيب الفرنسى فى خدمة المغول العظيم عام ١٦٧٠ يقول: «فى هذه الأراضى الشاسعة ذاتها عدة أمم وعدة بلاد لم يتعرض ولم يستطع المغول فرض سيادته عليها فلكل منها سيدها أو رئيسها الخاص لا يؤدون الضرائب أو الجزية إلا خوفا من بطشهم وكثيرون لا يدفعون شيئا على الإطلاق». وكانت الضرورات الناشئة عن الحروب والصراعات المستمرة قد ساهمت فى الحد من السيادة المطلقةفى المبدأ فبلاط المغول الكبير إنما كان جيشا كبيرا من ٥٠ ألف إلى ٢٠٠ ألف من المقاتلين الأشداءالمرابطين فى مدينة دلهى منهم الفرسان وحاملوا البنادق ورجال المدفعية الخفيفة وفرسان الخيول الذين يقال لهم مقاتلوا الركاب.

وكذلك عدد وفير من احتياطى الخيول والفيلة وإجمالا مجموعة ضخمة من المحاربين ومن سواس الدواب والخدم. وينعم الرؤساء والقادة بالحصول على النفقات والمعاشات ومن بينها أراضى توهب لهم مدى الحياة، وهم غالبا من المغامرين من جذور وأصول متواضعة ولم يمنعهم ذلك من السير فى استعراض فى الشواع بأزياء رائعة وأحيانا فوق الأفيال أو ممتطين الجياد وفى أحيان أخرى فوق مركبة البالينكى، وهى كرسى محمول، يجرى دائما وراء عدد لا بأس من فرسان الحراس مع عدد وفير على أقدامهم من الخدم إلى جوارهم وأمامهم لإفساح الطريق ومطاردة الذباب والتراب بريس من ذيل الطاووس وربما يحملون السواك لتنظيف الأسنان أو المباصن وأوانى المياه للشرب أى أن هناك لأى حاكم مسلم مئات من الوثنيين كما ذكر برنييه.

ولم تستطع الجيوش أن تضم إليها المغول ذوى البشرة الفاتحة وكانوا خوفا من ضياع هذا الامتياز على ذريتهم يتزوجون أو يفضلون الزواج من نساء ذوات بشرة بيضاء من كمشير وكان فى دلهى دائما جنود راد جيبوت من سلالة رادجيبوتانا[1] يقودهم عادة راجاتهم وكان الصراع محتوما ضد المرتزقة من المسلمين أنفسهم أو ضد الفرس الشيعة وهم الجيران الخطرين أو ضد الباتان مسلمو البنغال، أو كذلك ضد أمراء الهندوس أو الأمراء المسلمين من الديكان وهم

---

(١)إقليم شمال شرق الهند حيث كانت امبراطورية راغلستان .

بطباعهم عدائيون. وكل ذلك يقوم بسداد ثمنه ثراء المغول العظيم لما يقوم به من تحويل تجارة بلاده الشاسعة التى تحقق له أرباحا وفوائد طائلة وهذا الثراء فى حقيقة الواقع مركز بحركة تلاقى هذه الأموال وتبديدها كذلك فكل قطعة نقود تدخل الخزانة العامة تثقب بخرم واسع وربما تثقب قطعة النقود ثقوبا عدة وهكذا ساهم جزء كبير من الهند غير الإسلامية فى هذه التوزيعات وعلى مر السنين فإن التعايش السلمى فرض نفسه على هذه التجمعات الممتزجة بفضل نوبات التسامح المتبادل النسبى وقد سبق أن نوهنا بالفنون المهجنة من خليط من الفن الإسلامى والفن الهندى الذى ازدهر فى كل من دلهى وعواصم المغول الأخرى وهناك حقيقة وواقع أكيد وهو أن هذا الفن خليط هندى إسلامى ومع ذلك فقد ظلت الهند على المستوى الثقافى وكذا المستوى الدينى العقائدى كما هى لم يدمغها الإسلام على الرغم من كل شىء بطابعه إلا قليلا هكذا قال تولسيداس أكبر شعراء الهند من أصل برهمى عاش من عام ١٥٣٢ حتى ١٦٢٣.

وهكذا كانت سيطرة الإسلام رغم مآثره وما تركه من بصمات على الأراضى الهندية استبدادية إلى حد ما ولكنه لم يتمكن من التأثير فى كيانات المجتمع الهندى ولا فى الاقتصاديات الهندوكية كما أثر ما كان مع بلاد الغرب من اتصالات وروابط بدأت منذ نهاية القرن الخامس عشر وتضاعفت فى القرن السادس عشر فلما تمكن الغرب فى القرن السابع عشر أطاح بتفوق بارود المدافع جانبا تفوقت بلاد المغرب هذه فور انطلاقة القرن الثامن عشر، وقد ذكرنا أن تدفق الغرب أزاح تفوق بارود المدافع من موقعه وكان سببا فى انتصار الإسلام عام ١٥٢٦ ومع ذلك تدفقت على الأراضى الهندية بلاد الغرب ودولة الأوروبى مع السقوط المدوى لسلالة فيدشنيساجار عام ١٥٦٥.

وعندئذ لم يعد الإسلام يمتلك تفوقا على الهند الخاضعة المشهوره، وكان عام ١٧٠٧ أن ترنحت الامبراطورية عند وفاة أورانج ذيب وفى مواجهة الأخطار المحدقة بها من الغرب ومن الجنوب وفى عام ١٧٣٨ استولى الأفغان على مدينة دلهى وبدأت منذ عام ١٦٥٩ الغزوة الكبرى من جانب المهرات وأمكن وقت تقدم هذه الغزوة فترة قصيرة فى أورنج ذيب.

وسوف تزدهر أيام تلك الغزوة فى القرن الثامن عشر وعلينا عند وصولنا إلى هذا القول أن نحذر المتعجل فى الحكم على الأسلمة الهندية فليس عدلا أن نحدد مكانتها من حيث هى تجربة استعمارية عنيفة ممتدة بين عديد من التجارب الأخرى من النوعية نفسها وسادت عالم ذلك الزمان وعلى أى حال فقد تركت هذه الموجة الاستعمارية التى تحدث كل قرن كتلا من المؤمنين المسلمين فى أراضى الهند المكتظة بالسكان حيث قدر المسلمون طبقا لإحصاء عام ١٩٣١ (٢٤٪) من جملة السكان مقابل ٢٣٩ مليون من الهندوكيين أى ما يقارب مسلما واحداً لكل ثلاثة من الهندوسيين واليوم فى ظل التقسيم السياسى عام ١٩٤٧ للهند ولم يكن تقسيما دقيقا، قدر عدد المسلمين فى الهند به ٤٤ مليون نسمة مقابل ٤٣٨ مليون من الهندوكيين وإلى جانب ٨٥ مليوناً هم عد سكان باكستان بعد التقسيم ويعيش فيها كذلك من غير المسلمين ما قد تتردد اليوم نسبته بين ٢٠ و ٢٥٪ وقد تطرح من ثم بكل وضوح ماهو من الحقائق أن الهند الإسلاميةقد دامت بأعجوبة مثيرة وهاهى بصعوبة تنفصل عن الحضارة المشتركة... الحضارة الإسلاميةالهندوكية.

الهند تحت الاستعمار الإنجليزى
اقتصاد قديم يصارع الغرب الحديث

احتل البرتغاليون فى القرن الخامس عشر من الشرق الأدنى طائفة من المواقع التجارية فقد تمكنوا من احتلال جوا ٢٥٨ عام ١٥١٠ كان الرحالة فاسكو داجاما فى السابع عشر من مايو ١٤٩٨ قد وصل كاليكوت التى عرفت يومئذ نوعاً من العظمة والازدهار طوال قرن من الزمان وسرعان ما عمدت المصانع الإنجليزية والهولندية والفرنسية إلى إنشاء فروع لها فى الأراضى الهندية، وفى عام ١٧٦٣ تمكن الإنجليز من إزاحة الفرنسيين بانتصار روبرت كلايف فى موقعة بالاسى القريبةمن كلكتا وأسس منذ ذاك الاستعمار الإنجليزى للأراضى الهندية الذى دام ما يقرب من قرنين حتى إعلان استقلال الهند عام ١٩٤٧ وكان احتلالاً على مراحل يتسع حثيثا رويدا رويدا ولم يكتمل فى صورته النهائية التامة إلا فى القرن التاسع عشر بعد غزو البنجاب عام ١٨٤٩وقد أسفر هذا الإحتلال عن نشأة طائفة من الولايات الوطنية تحت إمرة السلطة الإنجليزية فى استقلال شكلى بأكثر منه حقيقى وواقع الأمر أن صدمة كبيرة وقعت فى ربوع القارة (آسيا) كلها بسبب هذا الاحتلال الذى قامت دعائمه على تفوق اقتصادى هائل حتى اندلعت الحرب العالمية الأولى وأصبحت إنجلترا البعيدة أكبر قوة اقتصادية وتجارية ومصرفية فى العالم وشملت سيطرتها كل كيانات البلاد الهندية وصارت الهند سوقا منتجة للمواد

الأولية حيث يتسع الاستغلال المتنامى بشركة الهند التى لم تحل إلا عام ١٨٥٨ بسبب فساد اللورد كلايف الذى هوجم فى مجلس العموم ثم انتحر على إثر ذلك عام ١٧٧٤ وكان هذا الاستغلال ذا ثلاثة أفرع هى النفوذ المحلى والتجار والفلاحين. عمليات الإستغلال فى أكبر المقاطعات ثراءاً كالبنجال التى احتلت مؤخراً ومقاطعة بيهار ومقاطعه أوريساد لم تقم نظم معتدلة على شىء من الإنصاف إلا منذ ١٧٨٤ وفى هذه السنة أقيم نظام أكثر أمانة واعتدالا وكانت عمليات النهب والاختلاس خلال تلك السنوات الأولى على أشدها مما الحق بالمقاطعات كوارث مروعة ولقد كتب اللورد كورنتو اليس حاكم الهند يقول فى تقريره المؤرخ ١٨ سبتمبر ١٧٨٩ : أستطيع دون أى تردد أن أؤكد أن على الأقل ثلث الأراضى المملوكة للشركة فى الهندوستان غابة لا يسكنها إلا الحيوانات المفترسة تراه مبالغ فيما كتب؟ لقد كان المسئولون السادة الجدد يقينا ألعوبة وضحايا لأحداث لم يكونوا مستعدين لمواجهتها أو السيطرة عليها فمهمتهم الأولى إنما كانت السلب والنهب والهند التى تتحكم فى كافة أسواق المنطقة وما يجاورها من أقاليم وتسيطر على حركة التجارة فى شبه القارة الهندية وبلاد أخرى عرفت هذه الهند وبهذا التاريخ المعروف بسبب استغلال المؤسسات الإنجليزية فعرفت المصائب والكوارث التى لا مثيل لها إذ جلب القانون الإنجليزى والمفاهيم الغربية لملكية الأراضى كوارث فظيعة لا إرادية أحيانا.

وعموما فقد أصبح التوازن القديم النابع من جذور وماضى الهند فى خطر وانقلب وضعه إذ صارت الهند فى القرن الثامن عشر حتى نهايته بلداً ريفياً تنتشر فيه قرى عديدة.. بائسة.. يقطنون أكواخا كتلك التى نراها اليوم عام ١٩٦٢ قرب مدراس أو غيرها، جدرانها من الطين الجاف وأسقفها من سعف النخيل المجدول وأبوابها واطئة صغيرة وينبعث منها دخان نار موقدة بروث البقر المجفف ومع ذلك فقد كانت ترى ريفيه فيها مجتمعات متماسكة فيما بينها متوازية بذاتها يحكمها رئيس أو جماعة من الشيوخ وأحيانا كان للرئيس أو مجلس إدارته فى بعض المناطق الحق فى إعادة توزيع الأرض بصورة دورية منتظمة. وكان يلتحق بالقرى جماعة من أهل الحرف من حدادين ونجارين وفحامين وصباغة

يتوارثون هذه الحرف عن آبائهم منذ قرون ويحصلون مقابل أعمالهم على نصيب من محصول الفلاحين بل ضمت هذه القرى كذلك عدداً من العبيد يمتلكهم بعض الفلاحين الأثرياء أو ميسورى الحال، وكان سيد هؤلاء العبيد يمتلكهم بعض الفلاحين الأثرياء أو ميسورى الحال، وكان سيد هؤلاء العبيد مكلفا بتوفير مأكلهم وملبسهم ومأواهم والقرى مسئولة مسئولية جماعية عن الضرائب وعن أعمال السخرة التى تفرضها الدولة أو أقرب السادة فى الحى ويسلم جزء ما يحصل عليه هؤلاء السادة من الفلاحين إلى سكان المناطق النائية من الهند ممن يعيشون فى مدن حكومية أما الضريبة فكانت الرباط الوحيد بين المدينة والقرى الريفية التى لم تكن تستطيع شراء شيء مما كانت هذه المدن تشتريه من بضائع تستوردها أو تنتجها أو تصنعها إذ كانت هذه المصنوعات ترفاً يقتصر على فئات محددة من أهل المدن أوللتصدير ولكن امتيازات هؤلاء المحظوظين إذا اشتدت وطأتها وأصبحت فوق احتمال سكان القرية لم يستطع تغيير موقعها بحثا عن أرض أخرى جديدة فى سبيل مصير أفضل وبدأت هذه الأنظمة الظالمة المستبدة تتآكل باقتراب سنى القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر إذ بدأ الإنجليز فى جباية الضرائب إلى قدماء محصلى الضرائب بعد أن اعترفوا لهم بنوع معين من حق الملكية على هذه القرى وهو حق لم يتمتعوا به من قبل وهكذا أنشأ فى البنغال أولا هؤلاء الذين أطلق عليهم اسم الزامنداريين وهم ملاك الأراضى مدعون مكلفون بتسليم السلطة الإنجليزية حصيلة الضرائب المحددة مع منحهم حق جباية المزيد لصالحهم وسرعان ما وضح أن هؤلاء الملاك الأدعياء لم يعودوا يقيمون فى الأراضى المكلفين إذ لجأوا إلى وكلاء لهم وعلى أراضى مقاطعة البنغال الشاسعة نشأ أعجب وأغرب احتكار مرخص به يضم آلافا من الوسطاء والطفيليين أما الإنجليزى الذى لم يلجأ إلى زامندار فكان يتولى تحصيل ضريبته مباشرة ونقداً وكان الفلاح إذا أعوزه المال السائل لجأ إلى المقرضين الذين حققوا ثروات طائلة ثروات فريدة. وكانوا من قبل يحسبون ألف حساب لغضب القرى وثورة الفلاحين ومقاومتهم أما وقد أصبح من حقهم القانونى محاكمة المدينين إذا عجزوا عن السداد فقد كان من سلطتهم ومن حقهم أن يستولوا على ما فى المزرعة من دواب وأنعام أى على

رأس المال الحى ثم الاستيلاء بعد ذلك على الأرض نفسها وما أتعس الفلاح الفقير الريوت (أى الفلاح الفقير المعدم) وهو يرى أسعار الأراضى ترتفع بصورة دائمة وأمام المرابى فرص كثيرة يصبح فيها مالكاً للأرض ومهما يكن من شيء فإن هذا النوع من المضاربات فى الأراضى وخصوصا بعد تصاعدها قد جذبت انتباه نظام توظيف رؤوس الأموال التى يضمنها ريع الأرض وبذلك نشأت طبقة من كبار الملاك لم يكن يعنيهم كثيرا استصلاحها اكتفاء بريعها. وفى نهاية القرن التاسع عشر كان من بين ١٠٠ مليون فلاح ثلثهم من صغار الملاك ومتوسط ما يمتلكه الفلاح أقل من عشرة أفدنه[١] وهى أدنى مساحة تسمح للبقاء والمعيشة وكانت قد تلاشت واختفت عند تطور الأمور إلى هذا الحد... تلاشت واختفى ما للأسلاف القدماء من نصائح حاولوا استعادتها...؟ وتدهورت الأمور أيضا بسبب:

(١) الخراب الذى لحق بالصناع المهرة الحرفيين فى القرى حين نافستهم الصناعات الإنجليزية بل والصناعات الهندية الوليدة فكان أن انضموا منذ ذاك إلى الزراعة حيث كان الضغط عليها مرتفعا، ازدواجية النظم الرأسمالية الإنجليزية التى اعتبرت الهند:

(أ) سوقا لتصريف منتجاتهم الصناعية تمكنوا من وأد الصناعات القطنية الهندية القديمة وكانت قد حققت شهرة مدوية فى القرن الثامن عشر فى الوقت الذى اتسعت فيه آفاق الأقمشة الهندية سواء المطبوعة والمصنوعة.

(ب) وسوقا تشترى فيها المواد الخام كالجوت من البنغال والقطن من أراضى الريجور المقابلة لمدينة بومباى لتغذية المصانع الإنجليزية فى لانكشاير حيث تنقل هذه المواد الأولية الخام المخصصة للتصدير إلى الموانى بالسكك الحديدية التى أنشئت وكانت قدرة حقيقية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر بالنسبة للأراضى الداخلية منذ نشأت المدن العديدة وكل عملها تجميع البضائع وشحنها وصار الفلاح الهندى يزرع منتجات ومحاصيل لغير إطعام أسرته أو قريته بل للتصدير مما أشاع المجاعة والكوارث بين السكان خلال الثلاثين عاما الأخيرة من

---

(١) يساوى حوالى أربعة آلاف متر مربع.

القرن التاسع عشر (ماعدا البنجاب التى تنتج الحبوب ولكنها تصدر قمحها على حساب قوتها المعيشى) ثم جاءت الأزمة العالمية عام ١٩٢٩ وانهيار أسواق المواد الأولية مما أدى إلى تمركز الملكيات بين أيدى ملاك الأراضى والمرابين وأدى بدوره إلى هبوط حجم الزراعات الحرة ومستواها وتراكم ديون القروض التى تجاوزت حد المعقول والاحتمال وصار الفلاحون فى موقف أصعب من موقف العبيد الأرقاء حيال سادتهم وهم يواجهون دائنيهم الذى يستأسرونهم بديون باهظة متراكمة وأصحاب الريوت (أى الفلاح المعدم) الذى صار أكثرفأكثر حراً من الناحية الاقتصادية وله أيضا حريته فى مواجهة القانون. ولقد بدأت تباشير صناعات حديثة فى زمن متأخر مع بداية التعريفات (السعر الحماية) عن أعوام سنة ١٩٢٠ فقد انتعشت موجة الصناعات الأهلية المحلية وتشجعت بفضل وفرة الأيدى العاملة الرخيصة وكثرت الطبقات البروليتارية نتيجة لغزارة المواد الأولية ثم بفضل تدخلات الرأسمالية الهندية ودخول هؤلاء البارسس من سلالة الزادتشية وأتباعها (ديانة فارسية قديمة منسوبة إلى الحكيم زرادشت الذى هرب من فارس منذ أكثر من ألف عام) حيث تجمعت صفوفهم فى منطقة بومباى أو الماروايس من سلالة إحدى الطبقات الاجتماعية من مقاطعة راد جيبوتانا وكانوا دائما آمنين بعيدين عن المنافسة الإنجليزية بسبب تخلف منطقتهم أو من اليانيون من سلالة جودجارات.

وكانت تتحكم فى حركة التصنيع هذه ثلاث مدن منها كلكتا التى اختصت بالصناعات المعدنية وتصنيع الأقمشة من خامات الجوت وأشهرها عائلة بارسيس، وبومباى ركزت على صناعة القطنيات وتركيب أجزاء السيارات، وأحمد أباد على بعد ٥٠٠ كيلو متر شمالا وكانت مركزا قاصرا على القطن والأقمشة القطنية. وقد شملت هذه المصانع وغيرها وخصوصا الغذائية منها موجة تنمية صاخبة غير منتظمة خصوصا فيما بعد عام ١٩٤٢ مع نقص المواد الغذائية وأزمتها والأقمشة التى ارتفعت بسببهما الأسعار ارتفاعا خياليا فى السوق السوداء ما أثار المخاوف على الهند خصوصا مع بداية التهديد اليابانى الذى يمثل إن حدث تدميراً شاملاً وتخريباً لكل الأراضى الهندية.

وفى عام ١٩٤٤ قرر أرباب الصناعات الاتفاق لصالح خطة بومباى (وهو

مخطط شبه رسمى متفائل أكثر مما ينبغى) وكان يتكهن باستثمار ضخم مع سداد الديون الخاصة بالتعاقدات المبرمة تجاه الهند عن طريق بريطانيا العظمى، خلال الحرب العالمية الثانية وكان المشروع يشجع التفاهم مع الرأسماليين والشركات الإنجليزية، ومن المشروعات التى أبرمت اتفاقية بيرلا - نايلد بشأن صناعة السيارات وذلك فضلا عن أنه ورغم رؤوس أموال انجليزية مازالت ورغم الاستقلال حتى اليوم مستثمرة فى عديد من المشروعات التى تشرف عليها مصارف شارع كليفر فى كلكتا وقد أدت هذه الإنطلاقة الصناعية إلى التعجيل بموجات الهجرة والنزوح من القرى نحو المدن. ويقول مثل من التامول(1) بعد أن سارع الخراب إلى المدينة وتسببت فى هذه الموجات من هجرة الريف والمصانع وخدم المنازل حيث الأجور النقدية زهيدة تكاد تهوى إلى حفيض العدم. وتنشأ علائق غير متوقعة بين بعض الطبقات الإجتماعية من سكان شبه جزيرة كانافيار، وموجة تجنيد الطباخين العاملين فى منازل أثرياء بومباى أو بين أدنى طبقات المجتمع السكانى جنوب شرق الدوكان وهؤلاء الصناع المهرة وحرفتهم لف السجائر يدويا فى مصانع بومباى.. كل هذا النقل الناتج عن التنقل من موقع إلى آخر وما كان يثيره من بلبلة بين الأهالى أضاف كثيرا إلى معاناة الإنسانية الهندية مما ضاعف من تحركها الاجتماعى.

وهكذا عرفت الهند حتى قبل الاستقلال بوقت طويل المدن العصرية الحديثة التى تكتظ بحشود سكانها فى نطاق حاراتهم القذرة القاصرة على طوائفهم وخاصة فقراء بوستيز كلكتا وشد الزيومباى الأشهر. أو هؤلاء الشيريز من مدارس من قاطنى المآوى الطينية الشبيهة بمساكنهم فى الأرياف.

وقد أعادت إنجلترا النظر فى سياستها فى الهند وفكرت مليا فى تعديلها غداة ما وقع فى سيبابيس عام ١٨٥٧ ـ ١٨٥٨ من تمرد جنودها من السكان المحليين كانت هى المناسبة التى فيها راجعت إنجلترا سلوكياتها تجاه الهند ووضعت نهاية وحد التحكم شركة إربست إنديا (أول سبتمبر ١٨٥٨) واستبدلت بها مكتب الهند فى لندن فى شكل وزارة ذات نفوذ وفى كلكتا كان مقر النائب للملك حل محل حاكم

---

(1) منطقة وسط الهند وسيلان

عام الشركة السابق. ومما هو جدير بالذكر أن انجلترا فكرت في فك ذلك الارتباط الذي كان قد فرض فرضاً على أراضى الدولة (الأراضى الأميرية) فاعترفت منذ ذلك التاريخ باستقلال سلطة مايسود فيرو[1] وكان قد سبق ضمها كعنوان على الاتجاه الجديد... هذا الاتجاه الماكر الذى كان يلجأ عند استحالة الحكم المباشر إلى الإصرار الشديد على استبقاء الخلافات المحلية السائدة وإذكائها وسيلة إلى ضم كتف الكتلتين العظميين من السكانية الهنود والمسلمين وبداية الإبقاء على التقسيم فى نطاق الجيش. وفى هذا المجال نورد مثالا على ما عمد إليه اللورد ابلفينتون عام ١٨٥٨ مما له مدلوله من سوء استخدام السلطة فى سبيل الحفاظ على السلطة الانجليزية وقوتها حيث أحتاط لذلك بتأمين سلامة السفن التجارية بتجزئة هيكل السفينة أجزاء بالفواصل والقواطع والحواجز، ويقول: أرى تأمين إمبراطوريتنا فى الهند بتعبئة جيشنا فيها على ذات النهج... أى التجزئة بالفواصل المحددة من هندية وإسلامية ومسيحية من الهيمالايا ولم تكن دخلت الخدمة فى نفس الوحدات. ولكن تلك التفرقة سرعان ما تجاوزتها الأحداث إذ كان منذ عام ١٨٧٠ أن وقعت الأزمة الإقتصادية العالمية الطويلة ووصلت آثارها إلى الهند محدثة المجاعات والأوبئة والانتفاضات الشعبية وخاصة من فلاحى القرى. ومالت أفكار بعض ذوى العقول المستنيرة إلى أن الأمر يقتضى إطلاق حرية النظام الحاكم (أى تحريره) وإشراك بعض الهنود فى الإدارة بل فى الحكومة وعلى أى حال فقد تشكل عام ١٨٨٥ ببركة من نائب الملك حزب المؤتمر الوطنى الذى سوف يكون الصارخ المعبر عن النزعة القومية مع أقلية ضئيلة جدا ظلت وإن كانت مؤثرة من السكان بدأ عددها ينمو فيما بين الطبقات المتوسطة النشطة التى غزت المدن ودخلت الجامعات وذلك بعيدا عن الطبقات الأرستقراطية أو الثرية المترفة أو طبقة ملاك الأراضى المرتبطة ارتباطا عميقا بالماضى التقليدى ويسيطر عليها ذلك التحفظ الإجتماعى والنزوع إلى الإبقاء على ماهو قائم ومقاومة التجديد وحصرت همها فى إرضاء سادة الهند وإثارة إعجابهم، أما الطبقات الوسطى بجذورها المتنوعة المدفوعة بظروف الحياة الجديدة من الرأسماليين قبل البارسيس

---

(١) إحدى مقاطعات جنوب الهند وعاصمتها بانجالور

والماراريسيين واليانيين بل فضلا عن الإسماعيلية من المسلمين وأصحاب النزعات السياسية كالباندريت من أهل كشمير الملقبين بالبرهمية فكان منهم عدد من رجال السياسة أيام المغول ينحدر منهم جواهر لال نهر والذى يتولى حكم الهند اليوم وغاندى سليل أسرة كان منها خلال عصور وأجيال وزراء للإمارات الصغيرة فى شبه جزيرة كاتافيار وجوجيرات.

وهؤلاء الرجال ممن اجتذبتهم الحضارة الغربية وشعروا بفضائلها وخيراتها ورأوا مميزات أفكار غاندى وخواطرة ومنها على سبيل المثال مبادئ اللاعنف والمسالمة والنزعات الحادة المعروفة عن تولستوى ومواعظ المسيح التى القاها على الجبل... هم طبقه الانتيجانسيا المثقفة فى الهند والتى تسبح فى مياه مختلطة وتحكم بسنكريتيه دينية ونقاء هندوسى وكلها أفكار ومفاهيم راودن النفوس نابعة من جذور طبقات شعبية قديمة من ماضى الهند المتعدد المزحوم بالبدع والخرافات ومن المكن ذكر عشرات من الأسماء: من دياندسار اسفاتى ١٨٢٤ ـ ١٨٨٣ الذى أسس مذهبا جديدا من الهندوكية تستبعد الإسلام كما تستبعد المسيحية وتعترف بانجذابها نحو الغرب وتجاهد فى سبيل العثور فى ثنايا الفيدا[1] العصرية العلمية والكهرباء فضلا عن الآلة التجارية ذلك النموذج الذى استوحاه غاندى جوبال كريشناجو كاليه ١٨٦٦ ـ ١٩١٥ أورابندرانات طاغور ١٩٦١ ـ ١٩٤١ الحاصل على جائزة نوبل عام ١٩١٣ وأحرز بشعره شهرة عالمية ومن وصفه قصيدة جانا مانا التى أصبحت النشيد القومى للهند المستقلة ثم كان أن انتهت اللغويات من الهياج الشعبى والكثرة الطائرة من اجراءات القمع إلى إعلان استقلال الهند وكذا التقسيم الذى كان فى ١٥ أغسطس ١٩٤٧ وفى ظل موجات من النشرة وحصافة وتعقل ومراوغة وخبث وادعاء ومكر لم يكن حوار إزالة العهد الإستعمارى مثاليا إذ يصير العقل اليوم غباء الغد ولا تأتى التنازلات إلا متأخرة جدا بالإضافة إلى ما كان يرتضيه المسلمون (فصل البنغال وتجزأتها فى مقاطعتين انضمت الشرقية منها إلى أسام لتكوين مجمع عرقى عام ١٩٠٥) وكان هذا يثير سخط الهندوكيين وغضبهم وكذلك يثور المسلمون إذا استقر الأمر للعودة إلى عام ١٩١١ وكان من

---

(١) الأربع الثبت المقدسة من وحى براهما أحد آلهة الهند مجد المطلق مذب الكون

الصعاب التى لا حل لها توحيد الهندوس والمسلمين حيث تجمع هؤلاء فى الرابطة الإسلامية عام ١٩٠٦ وثانى الصعاب الكبرى وسيلة التوصل إلى عقلية الكتل السكانية الكثيفة وهو ما نجح فيه الزعيم غاندى ١٨٦٩ ـ ١٩٤٨ وكان طالبا يدرس الحقوق فى يومباى وأكمل دراسته فى لندن ثم أصبح محاميا فى الناتال مسقط رأسه للدفاع عن مواطنيه من المهاجرين إلى جنوب افريقيا وتمكن عند عودته إلى الهند عام ١٩١٤ من فرض شخصيته على القوميين ثم سيطر عليهم ودفعهم إلى الإمام وكانت حركته : استخدام دينى عقائدى للقوة السياسية وصار اسمه المهاتما، أى النبيل الثائر الوقر، أما القوة الوحيدة حسب تعاليمه فهى القادرة على كبح رغبات الغير وهى: الحقيقة واللاعنف فى مواجهة أى إنسان حى والنقاء بالتعبير السلمى العقائدى لنداءاته بالمقاومة السلبية استطاع غاندى استثارة (الجماهير) ولقد لاحظنا عند إعلان أول مقاطعة فى ٢٠ سبتمبر ١٩٢٠ أن انجلترا أرغمت على منح الهند دستورها فى ديسمبر ١٩٢١ عندما أصدر نداء مجمله عصيان صامت فلما اندلعت المظاهرات الصاخبة والإضطرابات التى ارتكب حوادث اغتيالات خلالها أوقف غاندى حركته فكان صادقا مع نفسه. وقامت الحملة الثانية بعد ذلك بثمانى سنوات أى من السادس والعشرين من يناير ١٩٣٠ وتركزت فى مقاطعه الملح الذى تحتكر الدولة ببيعه وتلا ذلك عديد من حملات الاحتجاج والإعتراض، وطالت الحملات بين عامى ١٩٣٢ و ١٩٣٤ حتى أعلن الدستور الجديد للهند أخيراً (مرسوم عام ١٩٣٧) وهكذا نضج استقلال الهند قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية التى عجلت به وفى ٨ أغسطس ١٩٤٢ انضم المؤتمر إلى نداء غاندى: على الإنجليز مغادرة الهند وفى عامى ١٩٤٢ و ١٩٤٣ ومع اندفاع الجيوش اليابانية فى بيرمانيا (بورما) والأخطاء التى تهددت أسام والبنغال أصبح الموقف محفوفاً بالمخاطر حيث دمرت محطات للسكك الحديدية ومبانى عامة كثيرة ولما عاد السلام تصاعدت التوترات، وفى ١١ يونية ١٩٤٧ إذا بالبرلمان الإنجليزى أخيراً.. يمنح الهند استقلالها ولئن تقطعت الجسور مع إنجلترا فقد كانت الهند المتحررة تتمزق فيما بينها وفى ١٥ أغسطس انقسمت وتجزأت إلى [illegible] دول الكومنولث البريطانى فكان الاتحاد الهندى من جهة والباكستان

من جهة أخرى وقد انقسمت كذلك إلى جزأين وكان التقسيم سيئاً للغاية فقد ترك على أراضى الهند أقلية تعدادها ٤٤ مليون مسلم كما نزعت الحدود السياسية فى الشرق مناطق إنتاج الجوت الخام لباكستان وصناعات النسيج بطول أو غلى للهند وبدأت موجات هروب الناس من موقع إلى موقع وكانت بشعة صاحبتها اغتيالات عديدة لا حصر لها من كلا الجانبين وحاول غاندى دون جدوى أن يجد أرضا للإتفاق والتفاهم مع الإسلام وفى ٣٠ من شهر يناير ١٩٤٨ قام متعصب من الهندوس تحت وهم الإعتقاد بأن محاولة التفاهم خيانة للهندوس، باغتيال الماهتما وتم الانفصال أو تحت التجزأة فيما يشبه جو الحرب الأهلية وسط موجات العنف الغريب.

كانت الحصيلة مليونين أو ثلاثة من القتلى ولقد قيل إن السياسة الإنجليزيه هى المتسببة فى هذا التقسيم... فهل هذا صحيح؟ من الصعب أن نعير آذاناً صاغية ونولى اهتماما بتحركات سياسية أو مواقف تآمريه واضحة المكر، والدهاء مرض، فقد قاصى الهند نفسه تارة أخرى على حاضرها أو بمعنى آخر انتقم من نفسه فهو المسئول عما وقع. وفى الرابع من فبراير ١٩٤٨ إذا بسيلان بحضارتها الأصيلة الخاصة وعالمها البعيد عن خضم الأحداث أو الارتباط بالهند المستعمرة الإنجليزية... تصبح بدورها من دول الكومنويلث البريطانى وفور تحرير الأراضى الهندية واستقلالها تقطعت قطعتين اثنتين بل ثلاثاً إذا ما وضعنا فى اعتبارنا استقلال بيرمانيا (بورما) وانشقاقها عام ١٩٤٧ .

هل تستطيع الهند إقامة اقتصاد ثورى كما فعلت الصين؟

تمكنت الهند منذ ذلك العام ١٩٤٧ من تحقيق تقدم صناعى كبير يفوق ما حققه خلال المائه والخمسون عاماً السابقة وهكذا استطاعت التكيف والتطور بأكثر مما استطاعت تحقيقه الباكستان منذ الإنقسام عام ١٩٤٧ فقد أقامت دعائم نظام داخلى (فقد قبلت فرنسا فى اتفاق بينهما على تصفية وكالاتها التجارية) كما استطاعت تصفية هذه الإمارات السيادية وإقطاعيات المهراجات (خاصة إقطاعية حيدر أباد ٠ سبتمبر ١٩٤٨) واستعادت بالقوة مقاطعة جوا من أيدى المستعمرين

البرتغاليين عام ١٩٦٢ وأسست واحتفظت بحقوقها فى كشمير وقاومت الإدعاءات الصينية بشأن الحدود الغامضة فى الأراضى بمقاطعة هيمالايا (أى المتنازع عليها) وبالفعل خيبت الهند أمل كثير من أصدقائها بسبب العنف الذى وقع عند احتلال جوا لما كانت مشهورة به عن تعقلها السياسى ومع ذلك يظل البانديت نهرو رجلاً عظيماً فهو دائماً المحامى المدافع البارز عن بلدان العالم الثالث فإذا أضفنا إلى ذلك ما يتمتع به النظام البرلمانى الهندى ودقته كما أظهرته انتخابات عام ١٩٦٢ (البرلمان المركزى) لوك سابها وما وقع فى انتخابات ١٤ ولاية والحل المتعقل والتقسيم الحكيم للهند ١٤ ولاية لغوية.. كل هذا إنما يدل على نجاح وتقدم مثير بكافة المقاييس وليس هنا مع ذلك تكمن أصولية الجذور الهندية فى مواجهة الدنيا ودنيا البشرية التى تمثلها وحدها فهذه الجذور الأصيلة إنما تعود إلى عمل حكوماتها الدؤوب إذ أرست خطط الخطة الخمسيه الثالثة عام ١٩٦١ - ١٩٦٥ للخروج من مشاكلها الرهيبة... سكان هذا المجتمع الذى يسرع الخطى نحو نصف المليار من البشر وبدون اللجوء إلى العنف ولا إلى تلك الشعارات الجوفاء الصاخبة وهى تترك الطبيعة والناس والأمور تسير سيرها المعتاد الطبيعى دون التدخل للإسراع فى المسار إلا حين تجد ممكنا لتحقيقها أى حين يبدو النجاح محتملا قابلاً للتحقيق. وفى ١٨ أبريل ١٩٦٢ شرح نهرو سياسته لصحفى فرنسى: لسنا متمسكين بعقائد اشتراكية إنما نريد ببساطة قيادة مسيرة هذه الأمة نحو التقدم والازدهار بخطوات متئدة واثقة وتخفيض الفروق الاجتماعية هاهو نظامنا الاقتصادى وفى سبيل تحقيق هذا الهدف يترك مساحة معقولة للقطاعات الخاصة جنبا إلى جنب مع القطاع العام الحكومى فجزء من قطاع الصناعات الثقيلة وكل الصناعات الصغيرة الخفيفة والصناعات المتوسطة الوسيطه وكل المشروعات الزراعية يتولاها القطاع الخاص وتحرص المزارع بالقرى على تشجيع التعاونيات وليست لدينا نية الوصول إلى ما يسمى بمبدأ الجماعية ولسنا كذلك ممتن يتمسكون بعقائد اشتراكية بحته إذ نسير خطوة خطوة ونناضل للتوصل إلى حلول سلمية للمشاكل وخذ على سبيل المثال حين قمنا بعزل المهراجات عن عروشهم فقد تركنا لهم قصورهم وحصانتهم وامتيازاتهم حتى توفوا ونحن دائماً نترسم الطريق

الديمقراطى بل هو الطريق بكل معانى الكلمة الطريق التحررى والقضية واضحة على أى حال لقد سلكت الهند الطريق واتخذت نبراسالها النظريات والآراء السائدة فى العالم الحر وتريد الهند ما يجب عليها من تحقيق ثورة... فهل فى استطاعتها ذلك... بتحقيق ثورة اقتصادية على الطريقة الصينية؟ ولنقل بصراحة إن المهمة قاسية والمجازفة خطيرة.. لإيجاد علاج للفقر المخيف الرهيب وهو يمثل السمة الغالبة دون شك ولكنه واقع أليم ويجب ابتداء المسيرة. والهند بخلاف كثير من الأمم والدول تتحلى بفضيلة عدم اخفاء جروحها لا على نفسها ولا على الآخرين وهذا الفقر كان دائما هنا عرفنا به حتى قبل العصر المسيحى وسمعنا عن المجاعات المذهلة التى نلاحظها حتى فى المدن الكبرى كمدن كلكتا وبومباى الضخمة ونيودلهى العاصمة فعلى مسافة قصيرة من أحيائها الراقية الجميلة نشاهد مناظر البؤس بؤس الملابس والأردية وبؤس الأجساد والمساكن وبؤس الطعام، وأكبر الظواهر كثافة السكان والأيدى العاملة، ففى أيام عصر المغول العظماء وكانت هناك أعداد من الأطفال باعهم أهلوهم عبيدا أرقاء وإذا استطاع أهلوهم بينهم لمشترين كان ذلك فضلا يتكرم به المشترون برقة قلوبهم وتقسيم العمل قائم إلى أبعد الحدود. كتب أندرية شيفريون عام ١٩٢٣ يقول: لابد من هذا الحوذى لقيادة المركبة وهذا السائس لفتح الباب وهذا المنادى بيون ليصيح بصوت مرتفع حاسب... احذر، وعلى الأوروبى أن يتحمل هذه الآلة وهذا النظام فإذا ما راودته فكرة المشى على قدميه فذلك عمل مخيف وكذلك إذا حمل طردا بين يديه ولا يستطيع الضابط الانجليزى تغيير مكانه دون أن يجد وراءه جماعة من الرجال يحملون الحقائب، والعام الماضى وفى لندن اعترف لى جندى عريف انجليزى بأنه فى الهند كان يدق الجرس مستدعيا خادمه يلتقط منديله الذى وقع على الأرض تماما كما كان فى روما حيث يجرجر الشريف الرومانى وراءه جيشا من الخدم والعملاء والعتقاء تلك واحدة من حقائق الأمس ولازالت من حقائق اليوم. ما ذا نفسر هذه المنازل البورجوازية المتواضعة وبها ما بين عشرة واثنى عشر من الخدم... وهؤلاء الرجال والنساء وأطفالهم التعساء على ضفاف نهر كلكتا (١٩٦٢) حيث ترتدى النساء السارى والرجال شبه عراة والأطفال فى اسما لهم الرثة البالية

والكل محاصر بجيوش من الذباب لا يأبهون بمجرد طرده سواء عن وجوههم أو عن أجسادهم وكلهم بمد أيديهم للمارة ثم ماذا تقول عن تلك الورش المتخصصة فى أعمال الصيانة والترميمات الخطرة على الطرق فتذكرنا بالجحيم إذ فيها نجد الرجال والنساء والأطفال يحملون بأيديهم القار الذى يستخدم لإيقاد النار فى مراجل وقدور كبيرة وإذا ما أعدت هذه الورش ليكون أكثر عصرية ازداد عدد العاطلين وفى بنخالور فى مقاطعة الدوركان نجد مصنعا عصريا على أحدث طراز مخصصا لصناعة حافلات القطارات (عربات) مليئا بجيوش من الذباب البشرى (عمال) انهمك كثير منهم بعمليات الدهان هذه الصور البائسة المضجعة التى تشغل بال مسئولى حكم الهند اليوم إنما ورثته من هند الأمس... هند كل العصور وكل الأزمنة فمن واقع الإحصائيات نجد من بين ٤٣٨ مليون نسمه هم عدد السكان أن نسبة الوفيات مرتفعة جدا فتصل إلى رقم يتردد بين ٢٥ و ٣٠ لكل ألف نسمة فى مواجهة نسبة تبلغ ٤٥ لكل ألف أى ما يقرب من ثمانية ملايين زيادة فى عدد السكان كل عام وهذا الرقم مخيف حيث أن معناه كل قبل شيء وقف ثمرات أى تقدم يحرز على كافة الأصعدة وكافة المجالات وعلى الرغم من ذلك فقد لاحظنا ارتفاعا طفيفا فى مستوى المعيشة والدخل القومى وعلى العموم نجد أن الأجر اليومى فى الورش يصل إلى روبية. والسؤال هو كيف السبيل إلى وقف الزيادة السكانية وتنظيم الأسرة؟ كاد لاينجح تعقيم الرجال فى بلاد كالهند فهى ليست كاليابان يعتاد الناس النظام والطاعة وبرغم ذلك لم يكن تنظيم النسل هناك موضوعا سهلا أما فى الهند فالأمر مختلف تماما إزاء هذا المد البشرى الرهيب ومع ذلك فليست هذه المشاكل هى كل ما تواجهه الهند وليس ضروريا أن يكون المرء خبيرا فى الإقتصاد لادراك معنى الخطوات والإجراءات التى تضمنتها الخطة الخمسية الثالثة (١٩٦١ - ١٩٦٥) إذ تستهدف مثل ما سبقها من خطط تحقيق وفرة فى انتاجية السماد الضرورى للزراعة ووسائل النقل والصناعات الثقيلة والصناعات الميكانيكية ولقد ساد المسئول نوع من التفاؤل الحذر حتى تأتى التدخلات من كل الجوانب الممكنة ولم تعط الحكومة آذانا صاغية للتوصيات التى أشار بها خبراء مؤسسة فورد حيث أوصوا بضرورة التركيز على الزراعة فهل كان

صوابا ما رأى بعض الخبراء الآخرين من أن خطة الحكومة لم تتخل عن ضرورة بذل الجهود فى التصنيع وفق توقع الخبراء توقيا من كارثة غذائية عام ١٩٦٥، ولكن على أن الواقع إن أشار إلى هذا الإحتمال فلقد عايشت الهند أمثال هذه المحن والتجارب واستطاعت الخروج منها أو السيطرة على آثارها على الأقل ومن بينها ضرورة تجنيب احتياطيات من الدخل القومى للإستثمارات الضرورية حتى ولو أدى ذلك إلى اختلال التوازن فى ميزان المدفوعات الذى يعانى عجزا من قبل حقا هناك ضرورات ملحة لاستيراد سلع ضخمة من الخارج يستدعى اللجوء إلى القروض الخارجية وأغلبها من مؤسسات خاصة ولا يتوقع منحها بدون مقابل ولكن كانت كثيرا ما تقدم شبه مجانية فإن فوائدها باهظة فى ظل الصراع المسرحى بين كل من الولايات المتحدة والإتحاد السوفيتى حيث تستهدف مساعداتهم نتائج استعراضيه كمساعدتهم لمصنع فولاذ سهيلاى وقد بعثرت الولايات المتحدة مساعداتها بتدخلات هنا وهناك لا فائدة منها.

ولكن لا أهمية لهذه الصراعات «بين الكبار» واهتمام أحدهما بمصنع الفولاذ الصلب والآخر بإنشاء مصنع لإنتاج الأفلام السينمائيسة وتوضح أهمية كيلو مترات الأفلام أن الهند تأتى فى المرتبة الثانية بعد الولايات المتحدة فى إنتاج الأفلام السينميائية فى العالم. والمثير للإهتمام هو أن تصبح انطلاقة الهند حقيقة واقعة سواء لتأتى بعد اليابان فى الترتيب أو أقرب إلى الصين إحدى القوى الصناعية فى القارة الأسيوية ولا يمكن أن ننسى على الأقل انطلاقتها الصناعية المبكرة عام ١٩٢٠ وهكذا نجدها اليوم وقد استفادت إلى حد بعيد من ماضى صناعى واليوم نجد أن السباق قائم بين النمو الإقتصادى والنمو البشرى إذ يبدوا اليوم وقد تحقق الفوز فيه للنمو الإقتصادى ومن الجدير بالملاحظة أن نذكر أن الدخل القومى لكل فرد من السكان عام ١٩٧٠ قد تضاعف وليس معناه أن الهند تحققت لها «الأرض الموعودة» وإن أمكن القول أن الهند على أى حال عرفت مسارها... عرفت الطريق وهو طريق سليم إلا أنه محفوف بالعقبات بعضها عقبات سياسية وبعضها الآخر عقبات وحواجز اجتماعية وثقافية ودينية .

ومن بين المصاعب السياسية : دكتاتورية الباندبت نهرو الروحية فلا يمكن أن تمر دون أن تفرض فى طريقها مسائل الوثائة حيث يقارب عمره اليوم الثانية والسبعين وحزب المؤتمر على الرغم من مكانته الرفيعة إلا أنه ينقصه النظام والمنهج التأسيسى فهو يسمح ولكن بشكل سيئ بمعارضات متعقله خصبه ويمين رجعى وها قد سمعنا أنه يتهم اليسار الشيوعى أو المتشيع (مجند للشيوعية) بأنه حلل أكل لحم البقرة مما يدل على أنه نوع الجدلية الخادعة فهذا اليسار الشيوعى لم يحقق سوى ١٠ ٪ من الأصوات خلال انتخابات عام ١٩٦٢ ولكنه حقق نجاحا ظاهرا فى الحكومة المحلية لمقاطعة كيلارا قبل ازاحته عن الطريق بشكل تعسفى ويتصرف تحكمى جائر كما أن هناك حالات كثيرة من النزاهة والفعالية وعناصر اشتراكية تتهم من جانبها الرئيس نهرو بأنه يحمى نظاما متهالكا فاسدا متعفنا. ومع ذلك تظل كل تلك الأصوات المعارضة هامشية.. إذ من ذا الذى يسمعها أو يهتم بسماعها؟ ومن المصاعب الإجتماعية ما يسهل التطرق إليه كالتوزيع العادل على سبيل المثال للثورات وهومسألة أساسية تتشعب منها مشكلة تعددية قوانين الأراضى الزراعية والملكية العقارية التى تحكمها وربما تصدر عن تنافس بين مختلف الولايات ومع ذلك تظل بلا فاعلية تذكر حيث تمكن كبار ملاك الأراضى بعد طردهم منها من استعادة نفوذهم وامتيازاتهم تدريجا على فقراء المزارعين ولو كانوا أحرارا وكان تحريرهم فى ذاته تقدما كبيرا ولكنهم ظلوا يعيشون فى البؤس وبغير سند تنظيمى يجمعهم ولا تزال مساحات شاسعة من الأرض بدون عناية لإستصلاحها لتكون قابلة للزراعة حتى نظام الرى يجابى كبار ملاك الأراضى فى حجز المياه لأراضيهم عند احتياجها ولا يساهم الفلاح الفقير فى التمتع بهذه الميزات ومما يزيد الطين بلة ويضاعف من شقاء الفلاحين المعدمين أن كبار ملاك الأراضى لا يعنيهم فى قليل أو كثير إدخال التحسينات والتقدم الآلى العصرى مما يمكن أن نقول عنه أننا نعيش فى نظام فاسد متعفن.. موقف أو حالة ما قبل الثورة وأخيرا هو أمر عجيب نجد أن حضارة الهند التقليدية لازالت تحتضن جماهير السكان فى شبكتها الدقيقة الصارمة فإن الإنسان الهندى يرى فى التخلى عن موقعه من سلسلة النظم الطبقية الإجتماعية وقبول معيشة مغايرة

لمعيشته العالية وتسمى الحداثة العصرية نوعا من التخلى عن جذوره الأصيلة. تلك حقيقة تثبت أن المذهب الهندوسى عقيدة دينية تمثل العقبة الرئيسية أمام كل تطور جاد يستهدف تحديث الهند لتدخل فى عصر جاد ولقد كان مستحيلاً تقدير كثافة مالا يكاد يصدقه عقل من عطايا وقرابين هائلة مكدسة أمام المعابد وحولها عام ١٩٦٢ يوم شاع خبر اقتراب نهاية الدنيا (القيامة) قرابين وعطايا من طعام يضحى بها شعب فقير مصاب أغلبه بسوء التغذية يقدمها للآلهة وكنت ترى الأبقار وهى مقدسة فى الهند تجلو الطرقات تلتقط هنا وهناك غذاءها المتواضع القليل وأسراب الغربان تلتقط الحبوب وتكاثر الحشرات التى لا تطارد ولو دمرت المحاصيل... عديد من الطقوس والتعاليم الهندوكية منها: تقديس الأبقار كما ذكرنا حين يجب احترام كل مخلوق حى وتوقيره فى صيانة ولا جدال فى أن أسوأ ما ينطوى عليه المذهب الهندوكى نظام الطبقات المجتمعية حيث يضيع السكان سجناء تقاليد وموروثات قديمة كما أن الجمود الاجتماعى ليس مطلقا حيث يشير الماضى إلى أن المصير محتوم عليه إلا أنه ظل واستمر قائما رغم وجود عديد من طبقات المنبوذين(١) والهاريدجانز ٥٠ مليونا من البشر على الأقل أعلن غاندى من نفسه مدافعا عنهم وأصبحوا اليوم أمام القانون مثلهم كمثل أقرانهم الآخرين أحرار حيث ألغى الدستور الهندى كل تفرقة قانونية بين المواطنين فضلا عن أنه علمانى ولكن المسافة بين النظرية حتى التطبيق تظل طويلة ذلك أن التطور ليس يسيرا إدراكه والإحساس به إذ لا يلحق التطور بغير الصفوة المثقفة كما تتكون طبقة من البسطاء (طبقات متوسطة) فى المجتمع الهندى بفضل ٤٦ جامعة أنشئت ومازال فريق من خريجها يعانى من البطالة ويطلق عليهم «البطالة المثقفة» وهى التى توفر احتياجات الإدارة من الشخوص وتوفر المحامين والأطباء ورجال السياسة. وهذه الطبقات الجديدة بجذورها المتباينة مفتوحة أمام سائر الطبقات الاجتماعية وتجهر بالإعلان عن نفسها بأزيائها وسلوكياتها ذات الطابع الإنجليزى ومع ذلك تظل الحياة والمحيط الأسرى لهذه الطبقات الملجأ والملاذ حيث يتناولون الطعام التقليدى ويرتدون ملابس أسلافهم بما يتح لهم نوعا من الراحة النفسية إذ يعايشون

---

(١) طبقة من سكان الهند تسمى بالمنبوذين ويحذر التعامل معها

طقوسهم العقائدية القديمة ويعاودون الإرتباط بجذورهم التى ترمز فى الحياة العصرية نوعا من الانفصام عن هذه الجذور العميقة القابعة فى وجدانهم العقائدى فمياه شبكة المياه العصرية مياه نقية غير ملوثة ولا أمسكت بها فى مسيلها أيد غير نقية وتقبل رغم تحريم الأسماك ابتلاع زيت أكباد أسماك المورة من أسماك البحار حين يصفها الطبيب بل يصل الأمر إلى الإعلان فى الصحف عن رغبة فى الزواج والتنبيه بأن الطبقة الاجتماعية ليست بذات أهمية أو سكن مهندسين وموظفين وعمال فى منزل واحد قرب مصنع جديد دون اهتمام بعادة تحريم بعض أنواع من الجوار تفرض على البعض والبعض لا يفترض على الآخر... كل هذا التغيير يدل على نشأة نوع من التقدم الناجح فى سبيل ماقد نطلق عليه «اصلاح أو إعادة تشكيل العقيدة الهندوكية» حورب تمسكها بالشكليات دائما منذ عصر بوذا من لدن أكبر التيارات الفكرية الدينية الهندية... ويمكن القول أنها اليوم فى طريق الانحسار فمنذ عام ١٨٠٠ جاهد رام موهان روى مؤسس مذهب جديد باسم البراهمو ساماج كثيرا لدفعها للسير فى هذا السبيل وكذلك فى طريق الوحدانية (الإله الواحد) ولسوف يحاول مصلحون قادمون وسوف يتبعهم الكثيرون ذلك أن الهند أدركت قيام هذه العقبة وكان ذلك منذ زمن غاندى وكان يقينا الملهم العظيم للهند اليوم بما كان يتمتع به من حماس ويتحلى به من صمود مثالى بعثمهما فى نفوس مواطنية الهنود وفى الواقع استند غاندى فى نداءاته على كافة التقاليد الروحانية الزاخر بها تاريخ الهند ليدفع بها نحو التقدم وفق تصوره فى إطار من التمسك بالإباء الوطنى وهكذا استطاع بحس مرهف صادق أن يثير حماس الجماهير نافخا فيها ذلك الانفعال الوجدانى الشعبى ومع ذلك كانت هذه التقاليد التى حاول إحياؤها من جديد تعنى فى كثير من الأمور ألا تتوصل الهند إلى حد معين من التحديث العصرى وهذا تفسير لكُنْه النزاع الذى نشب بين كل من الزعيمين فى كفاحهما المشترك الزعيم بكلمات نهرو: هناك هوة تفصل بين من تميل نزعاتهم نحو المستقبل وهؤلاء المندفعين إلى الماضى فقد ابعدت مبادئ غاندى حتماً عن كل تطور اجتماعى إذ الثورة فى مفهوم غاندى إنما تتفاعل ذاتيا فى القلوب وليس ثمة ما يسمى بملائمة النظام القائم وإنما دفع الناس مهما كان ثراؤهم أو نفوذهم إلى تكريس حياتهم لخدمة أقرانهم وأن يتقبلوا وفق كلام غاندى

التشيع والاقتناع بالفن والجمال اللذين ينطوى عليهما المد الثقافى وإنكار الذات وكذلك الفقر الإرادى... أى الإنقطاع لهذه الأنشطة التى هى أساس بنيان كل أمه حين يلتزم الناس فيها بغزل أرديتهم ونسجها وحياكتها بأيدهم وإقصاء كل نزعة طبقية من قلوبهم بكافة إشكالها وقيادة حملات للإقناع بضرورة التقشف والزهد والإقلاع عن المشروبات الكحولية والعقاقير ورعاية ونقاء الكائن الحى عامة، هذا طرق لتقديم الخدمات التى توفر وسائل المعيشة على مستوى الفقير ومن الأفضل أن تكون هذه المعيشة فى الإطار التقليدى للحياة الريفية وباختصار كما أنهى نهرو كتابه «حياتى وسجونى» وهو يتحدث عن موقع غاندى يقول: أما غاندى فليس لدى من كانوا يرغبون فى خدمة الجماهير ما يدعوهم إلى التعلق بشأن رفع المستوى المادى للحياة بل عليهم هم أنفسهم التواضع للنزول إلى مستوى الجماهير والامتزاج فيها بشكل متساو... هكذا كانت نظرة غاندى للديمقراطية الحقيقية ومهما كانت مظاهر الإعجاب والتقدير من جانب نهرو وأصدقائه وعبروا عنها تجاه تلك المعانى التى تنطوى عليها هذه المشاعر الأخلاقية الفردية فقد بدا لهم أن محاولة إبدالها أو تشكيلها إلى مثالية جماعية كانت محاولة تتعارض مع المفاهيم والمدارك المنطقية لدى كل ديمقراطى وكل اشتراكى بل وكل رأسمالى كذلك من أهل العصر وكان بمنزلة العودة إلى روح باليه متخلفة من الأبوية الأسرية الرحيمة وهى رجعية لا شعورية لا إرادية وكانت خاصة اتجاها بتجنب مواجهة الحقيقة بأن الأراضى الهندية قد تجزأت وتقطعت مع بعض مظاهر من ماضيها اللازمة الضرورية هذا إذا ما رغبت فى الخروج من موقع الدول النامية والخروج من فقر تلك الجماهير. وعلى أى حال فإن الهند اليوم سواء مالت أكثر تجاه مفاهيم نهرو أوجنحت نحو مفاهيم غاندى فإن ذلك ملحوظ مما منى به من فشل ذريع فينو بابيهاف ـ أحد أتباع غاندى ـ إذ قام عام ١٩٤٧ قبل وفاة غاندى البابو أى الأب بتأسيس حركة أطلق عليها اسم بهودان كان هدفه منها حل مشكلة الأراضى الزراعية التى تثير الجزع والغم حيث يتأتى الحل من وجهة نظر مؤسس الحركة تقطع الأرض بتنازل ملاكها عنها طواعية وإعادة توزيعها على الفقراء بصفة فردية أو جماعية مشتركة ويجب لكى ندرك مغزى هذه الحركة التى تشبه الجهاد الدينى أن نعرف أن مؤسسها فينو بابيهاف سليل عائلة طيبة مثقف وعالم رياضيات عمد عام ١٩١٦ بإحراق شهاداته الدراسية على مشهد من أمه تمهيدا

للدخول فى زمرة النساك الزهاد المتقشفين الهندوكيين وكان قد أسهم فى كل معارك غاندى ونضاله وصاحبه فى السجن، وحسب تقدير حاجته إلى ٢٥ مليون هكتار من الأرض الصالحة للزراعة لحل مشكلة الفلاح الهندى ولكنه بعد عشر سنوات من انطلاق جملته لم يكن قد جمع سوى مليونين.. وبدا واضحاً فشل الحركة من ناحية الرقم المطلوب. وكان خلال عشر السنوات هذه ينتقل من قرية إلى أخرى ماشياً على قدميه بقطع آلاف الكيلو مترات بفنات الكفاف زهيد ويغزل القطن كل يوم طبقا لتعاليم غاندى غير أنه لم يدرك أن زمان غاندى الموصى الملهم زمان آخر وما كان ممكناً أيامه قد أصبح نوعاً من المغالطة التاريخية فى هند اليوم ولئن استطاع فينو بابيهاف إثارة حماس فئة معينة من الأنصار فلكم قوبل بصيحات الاستنكار والسخرية كانت قرى مزارعى الجود جيرات تستقبله فى قراهم بدلائل واضحة على بزوغ عصر جديد، عصر من الإدراك والفهم الحسى الظاهر، وفشل هذا القديس يعد تعبيرا عن يقظة الهند بحثا عن حلول حقيقية معقولة وعصرية ضد نظام قديم متهالك نخر فيه السوس. وينهى نهرو حديثه فى كتابه فيقول: استخدمت التربية الثقافية القديمة فى الهند ذاتيتها إذ تصارع فى هدوء وصمت يائس خصماً جديداً قوياً جداً... هو حضارة الغرب الرأسمالى وسوف تتعثر خطاها وتستسلم أحيانا، ذلك لأن الغرب يجلب معه العلم والعلم هو الخبز لملايين الجياع ولكن الغرب يجلب معه ترياقاً ملينًا بسموم مهلكة... خطيرة تفرزها حضارته وهذا الترياق هو مبادئ الإشتراكية وفكرة التعاون لخدمة المجتمع لصالح الكافة وهى أفكار لا تبعد كثيراً عن مثالى براهمانى قديم ومفاهيمه فيما يتعلق بالخدمات والنفع ولكن هذا هو ما تعنيه كذلك يقينا تلك المذهبية البراهمانية فى المفهوم العلمانى لدى الطبقات وكل الجماعات وإلغاء التمييز الطبقى ولعل الهند وهى تغير رداءها وذلك مالا مفر منه ذلك لأن القديم ثوب رث بالٍ فهل تقوم بإعداد ردائها وحياكته حسب هذا (النموذج) بحيث يظل منطبقا على الظروف الحاضر ووفق افكارها القديمة ومبادئها وجذورها .. تلك المبادئ والمفاهيم التى ستنضوى تحت لوائها... ولابد أن تكون مرتبطة بأعماق تربتها وأرضها.

حاشية (١٩٦٦)

مع وفاة الباندیت نهرو فقدت الهند بموته شعاعاً من النور كان ساطعاً فى سمائها كما فقدت أملا كانت ترجومنه الكثير (٢٧ مايو ١٩٦٤) إذ تتصاعد سياسة الهند بعدم الانحياز والحياد ولكن خليفة نهرو ل. ب. شاستری یجد نفسه مضطرا إلى التعامل مع ضعف حزب المؤتمر الذى يرتكز عليه التوازن البرلمانى وانحلاله، ولم يكن لدى السيدة أنديرا غاندى التى أدارت البلاد بعد وفاة السيد شاسترى مفاهيم أو آراء خير مما كان لديه.

أما على الصعيد الاقتصادى فالأمور اليوم كما كانت بالأمس وقبل الأمس حيث لازالت المواجهة محتدمة حيال تصاعد رهيب فى عدد السكان يلتهم ويوازى فى إيقاعه كل ما تحقق من تقدم مادى ضخم كثيف، أما على الصعيد الدبلوماسى فمازال النزاع الداخلى محتدما حادا فى موضوع الحدود الصينية الهندية وأبرمت اتفاقيات شاقة عسيرة مع باكستان بشأن مسألة كشمير والأقليات الهندية التى تعيش فى باكستان الشرقية .. وفى ٢٤ أغسطس ١٩٦٥ تمخض النزاع المستتر بين الهند وباكستان بشأن كشمير عن نشوب حرب علنية وقد سارع الصين إلى جانب باكستان وتطلق إنذارها للهند تلزمها بفك تحصيناتها المقامة على الحدود الصينية الهندية وفى ٢٢ سبتمبر يصدر قرار مجلس الأمن بوقف

إطلاق النار يلتزم به الطرفان وتظل المشكلة قائمة كما كانت قبل اندلاع القتال كما يظل الطريق الذى يؤدى إلى الحفاظ على توازن متساوٍ بين المعونة الأمريكية البريطانية من جهة والمعونة السوفييتية من جهة أخرى... صديقا صعباً وتقف الهند اليوم فى موقع عسير فإذا ما رغبت الهند فى تسليح نفسها إزاء ما تسببه القنبلة النووية الصينية لها من قلق واضح حيث أثرت اعتمادات الأسلحة الحربية تأثيراً خطيراً على ضرورات التنمية الاقتصادية... وهكذا تتفاقم وتتشابك مشاكل الهند...!

الفصل الخامس

الشرق الأقصى الساحلى
الهند الصينية. أندونيسيا
الفلبين. كوريا. اليابان

مقدمة

في بداية الأمر سيكون من التعسف أن تضع كل هذه البلاد جنبا إلى جنب[1] الهند الصينية أو ما عرف فيما بعد بـ بورما وتايلاند وماليزيا وكمبوديا ولاوس وفيتنام الشمالية والجنوبية وكذا أندونيسيا والفلبين وكوريا واليابان. ذلك أن هذه المناطق النائية وإن بعدت إحداها عن الأخرى فهي قريبة تاريخيا بعضها من بعض حول البلدين الزاخرين بالبشر، الصين والهند فلم يتوقف إشعاعهما الحضاري عن السطوع إلى ما وراء أراضيهما، ولقد لعب الحوار أدوارا كبرى بسبب سهولة الدخول والخروج التي تتيحها الطرق البحرية إبحار الشرق وجنوب شرق آسيا وبحر اليابان والبحر الأصفر وبحر الصين الشرقية وبحار الباندا وجولو، وتكاد كلها أن تكون رقائق ضعيفة من المياه لبحار سجينة القارة القريبة وخارج نطاق الجوار، جوار الفلبين واليابان.

ولابد للوصول إلى الأعماق البحرية من الانتقال تجاه الشرق أو الجنوب حيث الجزر المتناثرة المتعرجة وكلها بركانية تفصل البحار المحصورة بين المحيطين الهندي والهادي وهي بهذا الشكل قد تعد بحارا مشابهة للبحر المتوسط، أي

(١) منطقة جنوب شرق آسيا بين الهند والصين وتشمل بورما وتايلاند وماليزيا وكامبوديا ولاوس وفيتنام الشمالية والجنوبية.

اتساعات بحرية تتناثر فيها تلك الجزر.. وكل شيء يجعل منها موقع يقطنها الناس كما أن هناك سمة مشتركة بينها فالرياح الموسمية كثيرا ما تكتسحها وتجتاحها بعنف رأسا على عقب فى أول الصيف وأول الشتاء وتهب الأعاصير فى كل موقع بأنوائها وعواصفها المدمرة وإن كانت رغم آثارها لا تمكث إلا زمنا يسيرا. وعلى العموم فقد عاصرت الملاحة مواسم مفجعة كما عرفت رحلات هادئة بين الجزر على امتداد السواحل برياح آمنة.. فمعنى الملاحة هنا التنقل من جزيرة إلى أخرى مع البقاء بعيدا عن ضربات الرياح على ألا يغيب الساحل عن الأنظار بأشجار المانجروف الاستوائية فإذا ما بدأ البحر يهدأ أنزلت المرساة سريعا لتثبت بالقاع.. كثيرا ما تكون الأرض قريبة وهكذا نجدها جزرا سواحلها أرض بحرية مما يسهل على القوارب الشراعية والزوارق الخيزرانية الصينية أو المراكب الشراعية الهولندية المخصصة لنقل الشحنات أن تتحمل تلك العواصف ثم تعاود الرحلات سيرها، تلك هى مميزات وإمكانيات هذه البحار الداخلية أو البحار المطروقة، فالبحار يكثر تواجده فوق مياهها ويجد فى عبابها راحته فى المبادلات التجارية. وقرأنا كثيرا عن مغامرات سكان ملقا وأسفارهم البحرية حتى جزيرة مدغشقر ومغامرات البحارة البولونيزيين بقواربهم من جذوع الشجر يتهادون فوقها حتى جزر هاواى وجزيرة عيد الفصح وجزر نيوزيلاند، ثم تبقى بعد ذلك قصص وحكايات هذه الشعوب التى تفضل الحياة البيئية كاليابانيين والصينيين. ففى عام ١٦٢٦ قال عنهم كورنيس القس المبشر فى لاوس: لا يمارس الصينيون الإتجار فى أعالى البحار.. هذه الملاحة فى أعالى البحار التى قادت إلى هذه الجزر النائية العرب ثم البرتغاليون والهولنديون والإنجليز فيما بعد، وقد أسهمت هذه الرحلات الملاحية كثيرا فى ملء هذه الجزر بالناس وقاربت بين سواحلها ومزجت بين حضاراتها وتاريخها وهنا يجب دوما أن نضع فى حسابنا أن هذه المياه.. مياه البحار قد أسهمت فى التأثير والتأثر العرقى وتشابه قسمات الوجوه فيما بين سكانها مع احتفاظ كل بقعة بجذورها الأصيلة التى لا تمحى...

الهند الصينية

(١) بلاد الأندوشين[١]

سبق أن أوضحنا أن هذه البلاد بهذه التسمية تضم الدول المعروفة اليوم بـ بورما وتايلاند وماليزيا وكمبوديا ولاوس وفيتنام الشمالية والجنوبية وتشملها شبه الجزيرة الواقعة جنوب شرق قارة آسيا بين الصين والهند.. وهى من جملة مرتفعات أطلق عليها عالم الجغرافيا الدانمركى ماليتابرون اسم أندوشاينا ـ الهند الصينية ـ ثم شاع الاسم بعد ذلك

وتتخلل شبه الجزيرة جبال مرتفعة تخترقها أودية عريضة من الجنوب إلى الشمال كأنها أصابع اليد المتباعدة ويزداد صغرها جنوبا. أما من الشرق والغرب فتحوطها البحار وكانت هذه الأراضى فيما قبل التاريخ ممرا دائما لعديد من السلالات البشرية التى تركت فيها آثارها كالأستراليين والميلانيزيين والمغول وهؤلاء من أصل صينى، وتمثل هذه السلالات المتعددة أصول السكان الحاليين وجذورهم، ويلحظ النموذج الميلانيزى لدى الشعوب الجبلية التى لازالت شعوبا بدائية، ومع تطور الزمن التاريخى وصل إلى هذه الأراضى أربع غزوات كبرى

(١) ومعناها جزر السود وتشمل غينيا الجديدة سولومدث وكاليدونيا وجزر فيجى

إحداها جاءت من الصين بالقوة، والأخرى اتسمت بالسلام سالكة طريق البحار قادمة من الهند، وأخيرا غزوتان بحريتان أولاهما إسلامية استولت على شبه الجزيرة الماليزية والأخرى من أوروبا - فرنسية إنجليزية - اتسمت بالشدة وازداد بطشها في القرن التاسع عشر تكتسح كل شيء في طريقها ولكن ذلك اليوم يكاد يتلاشى عن آخره في صخب الغد حين يبدأ عصر الاحتلال في الزوال.

تلك الحضارة القديمة التى كانت سائدة فى هذه البلاد - أى الهند الصينية - فالحضارة الصينية التى نجدها فى تونكين وفى أنام (أى فيتنام الشمالية والوسطى) اتسمت بالقوة وجرت وقائعها منذ ما يقرب من عشرة قرون بعد غزوة احتلالية استعمارية المظهر، وكانت غزوة حربية إدارية دينية كونفوشية تاوية بوذية معاً وتعتبر نقطة بارزة فى التاريخ الصينى وأبعدت أو اكتسحت جموع الأهالى الأصليين وحل محلهم الغزاة الطارئون وهكذا برزت هذه الشبه حضارة الخاصة بالشعوب الأنامية (نسبة إلى بلاد آنام) وقد انتشرت فيما بعد نحو الجنوب.. جنوب الهند الصينية.

وتمثل النفوذ الهندى فى التجار الذين أسسوا وكالاتهم لتبادل التجارة متحدين فى أغلب الأحيان مع الرئاسة المحلية والتى جنت من وراء هذه العمليات ثروات ضخمة مما أتاح لهم فرض إرادتهم ثم تمكنوا بعد ذلك من تأسيس الممالك بجذورها الهندية المهجنة وهكذا أنشئت مملكة تشامبا على ساحل فيتنام الوسطى أو عند الطرف الغربى جنوب شرق قارة آسيا وكذا مملكة المونز فى دلتا نهر الميكونج مملكة فونان التى اندمجت فيما بعد فى تشيللا وبامتزاجهما معا نشأت إمبراطورية الخمير (كمبوديا حاليا) التى سيطرت على جميع أراضى جنوب شرق القارة الآسيوية فى القرون من التاسع حتى الرابع عشر وتظل بما فيها فى عظمة آثار أنجور (جزء من غرب كمبوديا) وأطلالها.. ولقد نشأت إمبراطوريات أخرى من شعوب المنطقة وأهلها ممن يطلق عليهم الشعوب البرلمانز أو الشعوب الثايية ومعناها الشعوب الحرة نكاية فى إمبراطورية الخمير ومملكة الموتز فيما بين القرن الحادى عشر والقرن الرابع عشر وكانت هذه البلاد أساسا لميلاد الدولة البرمانية والتى حملت فيما بعد اسم لاوس وتمثل الجزء الشرقى والجزئين المندمجين سيام أو

تايلاند أو «أرض الأحرار» ولم يحتل الأوربيون هذه البلاد إلا زمنا يسيرا موقوتا من القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين ومع ذلك فقد تأثر الجنوب الشرقى من قارة آسيا تأثرا بالغا بهذه الغزوة الاستعمارية الإنجليزية غربا والفرنسية شرقا وقد تركت هاتان الغزوتان الاستعماريتان بينهما دولة سيام المستقلة بلاد حاجزة (تحول دون التصادم) وعرفت كذلك منذ ١٨٩٦، وقام الفرنسيون بضم بلاد تونكين وأنام وكوشنشين وكمبوديا ولاوس فيما أطلق عليه اتحاد الأندوشين سنة ١٨٨٧، وقام الإنجليز بربط بيرمانيا (بورما) إلى إمبراطوريتهم فى الهند أيام احتلالهم لها وفرضوا سيطرتهم على أطراف شبه جزيرة ملقا فى البلاد الماليزية وسنغافوره التى تمثل واحدا من أهم موانئ الشرق الأقصى، وفى خلال الحرب العالمية الثانية امتدت السيطرة اليابانية فترة من الزمن على جنوب شرق آسيا وأدت تلك السيطرة اليابانية إلى تدمير هذه الكيانات الاستعمارية السابقة وحصلت دول ماليزيا وسنغافورة وبيرمانيا (بورما) على استقلالها بدون صراع بفضل حكمة إنجليزية، ونشبت حرب طويلة ممتدة بين الفيتناميين والفرنسيين، ولم تحصل الهند الصينية الشرقية على استقلالها إلا فى ٢١ يوليو ١٩٥٤ بمقتضى معاهدة وقعت فى جنيف ومنذ ذلك التاريخ وجدت بلاد الهند الصينية السابقة نفسها مقسمة إلى أربع مناطق حيث قسمت معاهدة جنيف بلاد أنام إلى قسمين عبر خط عرض ١٧ شمالا، فكان الشمال مع تونكين وكونا جمهورية فيتنام الديمقراطية والجنوب لبلاد كوشنشين جمهورية فيتنام. وفى عام ١٩٤٩ اعترفت فرنسا بمملكة لاوس المستقلة فى ١٩ يوليو، ثم مملكة كمبوديا فى ٨ نوفمبر وظلت لاوس وكمبوريا دولتين على الحياد بين الكتلتين اللتين تتصارعان على الدنيا (الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى) واندمجت فيتنام الشمالية فى العالم الشيوعى المرتبط بالصين التى تمارس ضغطاً شديداً عليها وكذلك ارتبطت بالاتحاد السوفيتى وبالدولة الصناعية البعيدة تشيكوسلوفاكيا وأصبح جنوب فيتنام تحت إشراف الولايات المتحدة الأمريكية وكان أمامها فى مستهل استقلالها - وكان استقلالا هشا - تواجهه مشاكل جسيمة وصعبة أشبه بما تعانيه كافة البلاد النامية. ونجد أنها فى حاجة إلى الإسراع فى تحديث صناعاتها وزراعاتها وموازنة ميزان

مدفوعاتها كما تحتاج إلى دفعة ديموغرافية (عدد السكان) ولقد تحقق بعض النجاح والتقدم فى فيتنام الشمالية بفضل نظام الحكم الشيوعى (الاشتراكى) على حساب الانتقاص من الأساليب الحرة وعموما فليس من يستطيع اليوم الحكم على فعالية نظام بالقياس إلى غيره، إذ نجد فيتنام الشمالية على سبيل المثال تمتلك سلاحا من بقايا الأسلحة التقليدية الروسية كما تتولى تصدير الحبال من صناعة كمبوديا، وليس الوضع بالنسبة لهذه البلاد الفتية يسيرا سهلا فمع ما تحصل عليه فيتنام الجنوبية من معونات ضخمة من الولايات المتحدة الأمريكية فمازالت أراضيها ساحات للقتال المقنع مع قوات شيوعية تتسلل إليها ولم يكن سهلا أن يحتفظ نظام استعمارى على الطراز الأمريكى بموقعه دون أن تواجهه موجات من معارضة السكان، ومن ثم كان التوازن الحاضر توازنا عارضا (مؤقتا)، ومع عدم حيادلاوس وكمبوديا فالمصالح عديدة متضاربة بحيث لا يسهل التكهن بتداعياتها بشكل معقول أو بما عسى أن تسفر عنه هذه الصراعات وتظل قضايا الثقافات من وراء هذه المشاكل الملحة على قدميها قائمة إذ تتعارض كثرة سكان الوديان دائما مع المناطق الجبلية ونصفها تقريبا فراغ تام كما أن هناك عصران تاريخيان يتواجهان حيث كثرت مع زراعات الأرز حشود السكان بدلتا النهر الأحمر ونهر الميكونج وفيتنام وإبراوبادى إذ ترتكز فى هذه الأراضى الزراعية بكتلها البشرية دعائم الحضارات السائدة المسيطرة فسلالات الأناميون من آنام (فيتنام الوسطى) من أبناء الحضارة الصينية يحتلون منذ القدم أراضى دلتا النهر الأحمر الواطئة واستطاعوا فى القرن السابع عشر الحاق الدمار بأراضى مملكة تشامبا، وغزوا فى القرن الثامن عشر دلتا نهر الميكونج بانتصارهم على قبائل كمبوديا وسكانها وهو انتصار لاتزال أصداؤه تتردد حتى اليوم. أما ناحية الشرق فقد تهندت (أى من الهند) هذه الحضارات المتماسكة حضارات وديان كمبوديا، سيام، بيرمانيا (بورما) بشكل قوى وتركت العقيدة البوذية بصماتها واضحة.

ومع ذلك نجد فى الطرف الأعلى لهذه البلاد أى فى الجبال سكانا من البدائيين شبه مستقلين يؤمنون بمذهب حيوية المادة [1] وهم قلة تمارس زراعة

---

(١) مذهب اعتقاد بأن النفس هى مبدأ الفكر والحياة العضوية فى وقت واحد

الوقود (أى حريق شجر للزرع) حيث يحرقون الأشجار عمدا فى قطع من الأرض لزراعتها مؤقتا. وهكذا يحيون حياة بدائية بسيطة وفى هذه البلاد المتناثرة فى الهند الصينية حقق المبشرون المسيحيون نجاحا كبيرا دائما خارج نطاق البلاد التى يقطنها البوذية والمسلمون وهؤلاء استولوا على شبه جزيرة مالاتيزيا (ماليزيا)، وبعد عام ١٩٥٤ ارتد الفلاحون المسيحيون فى تكتلات بشرية (٣٠٠ ألف شخص) واليوم يحتفظ السكان الكاثوليك بسلطة الحكم فى سايجون. وكان طبيعيا أن تحقق الرعاية التبشيرية المسيحية أكبر انتصاراتها بين جماعات من السكان الإحيائيين (الذين يؤمنون بحيوية المادة)، وهكذا وجدنا فى بلاد اتحاد برمانيا (بورما) أن تحول جزء كبير منها إلى البروتستانية كان من شأنه أن قويت شوكة هذه الجموع مما أثارها ضد السلطة المركزية التى يملك زمامها البرناميون سكان بورما من أصحاب المذهب البوذى.

ولا تهيمن هذه التفاصيل على مصير جنوب شرق هذه الأراضى وهو مصير غامض متعدد الجوانب وإنما ينشر فوقها الضياء بالطريقة ذاتها التى نرى فيها نشأة المدارس الفرنسية أو الإنجليزية حيث يظل جنوب شرق القارة الآسيوية منطقة عبور تفتح ذراعيها لكل التيارات قد تحتفظ بها أحيانا أو تلتفظها أحيانا أخرى ولكن بصورة تختلف حسب تقاليد الجذور العرقية الأصيلة التى تتألف منها كياناتها.

٢ ـ أندونسيا

فيما وراء شبه جزيرة ماليزيا تسبح قارة آسيا فى مياه المحيط الهادى وتمتد أندونيسيا بطولها نحو الشرق بالآف جزرها حيث تعد أكثر الأرخبيلات اتساعا فى العالم. وكانت أندونيسيا من قديم الزمان إلى يومنا هذا ملتقى طرق متعددة الألوان ومع ذلك وعلى الرغم من عديد هذه التنوعات فهى تتمتع اليوم بنوع من الوحدة كما كانت بالأمس تحافظ عليها وقد تستعيدها. عاشت الجزر الأندونيسية وسط دوامة رياح عاتية كما لاحقتها أحداث كثيرة تقبل من بعيد.. كذلك كان مصيرها فى عصور ما قبل التاريخ. وفى بداية القرون الأولى من عصرنا حين وفد عليها البحارة والتجار من الأراضى الهندية ينشئون مستعمرات لهم كما نشأ فى أراضى بورما وسيام وكمبوديا حيث جلبوا معهم المذاهب الهندوكية والبوذية حيث أزدهرا

معا وتأقلما مع ثقافات تلك الجزر وكأنتا بمنزلة مرتكزات للممالك الجديدة الناشئة فاستقرت الممالك الأولى فى سومطرة ولكن فى جاوة كان أشدها ازدهاراً وكما كان نفوذها محددوا شأن الحضارة المستوردة (الدخيلة)، ومن بعد ازدهار جاوة بجبالها العالية وغاباتها البكر الشاسعة وزراعتها المنتظمة فى نطاق تقاليد حية مكتفية بسكانها بها، تأتى الحضار المشتركة الهندية الجاوية ويظل تكونها نابعة عن طبيعة الأرض وأوديتها كما اشتقت لغة السكان من لغة البالهى الهندية بأشعارها وحكاياتها الشعبية على النمط الهندى شأن معابدها وأضرحتها التى يتشكل منها الفن المعمارى حيث يضم تل بوربودور (القرن الثامن) صورة مطابقة للنموذج البوذى الخاص بالماهايانا (العربة الكبرى) . ثم تندلع الحروب المتصلة بين ملوك الكراتون ويبزغ أواخرا أعوام القرن الثالث عشر نجم إمبراطورية هندوكية دولية .. إمبراطورية (المادجا باهيت) التى انطلقت من جزيرة جاوة تخضع سائر الجزر بفضل شبكة من أراض تابعة وخاضعة وفق ما تملك من سفن بحرية نشطة ثم تسيطر على سنغافورة «مدينة الأسود» .

ومن جزيرة ملقا تبلغ غينيا الجديدة شرقا تلامس جيوشها، وشمالا جزر الفلبين ثم تتمكن عام ١٢٩٣ من تجريد الأسلحة لغزوه من قبائل المغول قادمة إليها من الأراضى الصينية غير أن هذه العظمة لم تدم طويلا إذا استطاع المسلمون عام ١٤٢٠ احتلال ملقا وتمكنت هجماتهم عام ١٤٥٠ من تفكيك أواصر الإمبراطورية أو ما تبقى منها حيث تنضم السياسة والحروب الدينية لتدمير البنيان الشاسع الذى لم يعد منه اليوم سوى أطلال وآثار وذكريات، حين جاء البرتغاليون فى بداية القرن السادس عشر ولكن جزيرة بالى وحدها استطاعت الاحتفاظ بسالف موروثاتها البرهمية وتقاليدها من عصور وأزمنة قديمة ويحتل البرتغاليون ملقا عام ١٥١١ وجزر المولوك عام ١٥١٢ حيث اجتذبهم سحر القرنفل ورائحته وبلغوا سواحل سومطرة عام ١٥٢١ حيث جاء هذا التوغل نتيجة الصراعات السياسية المحتدمة التى مزقت أشباه الجزر، وظل الاحتلال البرتغالى فترة قصيرة على أى حال ولم يقدر على أن يترك بصماته، وعند مغادرته ترك وراءه سكان الأرخبيل على حياتهم القديمة وتياراتها السلفية كما هى كما ترك المبادلات التجارية التى

تستغل بها السفن العربية فى آستم عند الطرف الغربى من جزيرة سومطرة حيث تشحن البهارات والتبر إلى البحر الأحمر من موانئ الصين الجنوبية فى رحلات بحرية منتظمة وكانت فى زمن ماركوبولو بل قبله بأزمان يقينا، أى منذ القرن السابع، وكانت السفن من شمال شرق جزيرة بورنيو تتردد على الجزر الأندونيسية بحمولاتها من لعب الأطفال والأوانى الخزفية (الصينى) والحرائر وقطع النقد الثقيلة من النحاس أو الرصاص والسايبك (وهى ضرب من نقود الصين) مقابل الأخشاب الثمينة والفلفل والبهارات والتبر من جزيرة بورنيو وجزيرة سيليبس. ولاشك أن التدخل البرتغالى المتطفل كان بمنزلة استغلال قسرى لتلك التبادلات التجارية القديمة التى كانت سائدة بين جاوه وماكا و قرب كانتون وفيما وراء ذلك حتى اليابان. ومع بداية القرن السابع عشر وقع تدخل آخر شرس هو تدخل الهولنديين فقد جاءوا إلى امبوان فى جزر الموليك عام ١٦٠٥ ثم تقدموا حتى جزيرة سيليبس فى جزر الموليك عام ١٦٠٥ ثم تقدموا حتى جزيرة سيليبس عام ١٦٠٧ وأقاموا مدينة بتاوه عام ١٦١٩ [١] وظلوا يسيطرون على جزيرة جاوة حيث أدركو أن عليهم أن يتمكنوا من الإمساك بمقاليد الحكم وأن يوقعوا بين سلاطين الجزيرة وأمراء القرون الوسطى ومنهم الكراتو القابعون على المرتفعات فى قصورهم المحصنة وأصبح القادمون الجدد سادة لأراضى الأرخبيل بكافة جزره منذ أن تمكنوا من طرد البرتغاليين من جزيرة ملقا عام ١٦٤١ وتحققت لهم وقتئذ السيطرة على طريقين ملاحيين من أطول وأهم الطرق الملاحية: طريق مضيق سلفابين سومطره والساحل الماليزى غربا ودولة سيام والهند. وطريق مضيق السوند بين جزيرة جاوه وسومطرة، المدخل الرئيسى للسفن الشراعية الكبرى القادمة رأسا من رأس الرجاء الصالح دون الاضطرار إلى إلقاء مراسيها فى الموانئ الهندية وكانت هذه السفن تعود إدراجها متجه إلى أوروبا بحمولاتها الثمينة. وأدى تنافس السفن الإنجليزية أن أسرع الهولنديون إلى تأسيس الشركة الهولندية للهند الشرقية عام ١٦٠٢ التى ظلت أمدا بعيدا من الزمان أروع أعمال الرأسمالية الغربية حتى إخفاقات ١٧٩٨ المزرية وذلك بسبب الاختلاسات

(١) الأسم القديم لجاكارتا عاصمة أندونيسيا

وضخامة ما أهدر المهيمنون على أمور الشركة وأنشطتها، وذلك بالإضافة إلى أخطاء كثيرة وقعت يومئذ كذلك ساهمت ظروف سياسية استثنائية فى التعجل باحتلال الإنجليز للأراضى الهندية التى كان الهولنديون يسيطرون عليها، وجاء احتلال الإنجليز زمنا ثم عادت هذه الأراضى بعدها عام ١٨١٦ إلى أيدى هولندا فتعمدت إلى إرساء قواعد نظام منهجى للسيطرة من جديد على جزر الأرخبيل دام حتى ٢٨ فبراير ١٩٤٢ حين نزلت القوات اليابانية على سواحل أندونيسيا، ثم إنهار هذا النظام النموذجى بعد هزيمة اليابان عام ١٩٤٥ وقيام أعضاء حركة القوميين فى أندونيسيا إذ تعاونوا مع الغزاة ودخلوا كذلك فى صراعات معهم فانطلقوا بقيادة الرئيس سو كارنو إلى إعلان استقلال بلادهم بين موجات الفرح والحماس الشعبى الجارف فى ٧ أغسطس ١٩٤٥، ثم نزلت بعد ذلك بشهر أى فى ٢٨ سبتمبر قوات الحلفاء على شواطئ جزيرة باتافيا (بتاوة) وكانت من الإنجليز والهنود حيث وجدت جدران المدينة غاصة بالعبارات المعادية للهولنديين. وكانت ردود أفعال الهولنديين مفجعة وهى ترى جهودها فى تأسيس نظام للبلاد محكم نموذجى ينهار، وجهودها تذهب أدراج الرياح، وتهب عاصفة مأساوية بانحسار الاستعمار عن هذه الجزر- عاصرت فرنسا شبيها لها مؤخرا- فإذا كان المستعمرون قد نجحوا بسهولة فى احتلال الجزر قليلة السكان فى سيلبيس وبورتيو وبريجاز فيما سمى بأندونيسيا الفارغة فقد واجهوا واصطدموا من أهل جزيرة سومطرة وجزيرة جاوة.. بمعارضة عاتية ذلك أن قوات جيش الاحتلال القديم كانت قد اتخذت قرارا مسبقا إلى جانب المتمردين فقام رجال العصابات بشل حركة القوات الهولندية وأبطال أثر نجاحهم الذى حققوه حول المدن الكبيرة وتصاعدت المشاكل إثر العملية الكبيرة التى سميت بمعركة الشرطة التى بدأت يوم ٢١ يوليو ١٩٤٧ وبدأ اقتحام هذه المشاكل صعبا ولا سبيل إلى التغلب عليها. كما كان أن تفاقمت المجاعات التى يعجز المرء عن وصفها إثر حصار مواقع التمرد فى جزيرة (جاوة) وهكذا بدأ التدخل الهندى مع قوات من أستراليا والولايات المتحدة الأمريكية، وفى ١٧ فبراير ١٩٤٨ أمكن التوصل إلى اتفاق «ناقص» قامت على إثره شرطة جديدة لم يقدر لها النجاح كسابقتها، وفى ٢٧

ديسمبر ١٩٤٩ وفى مدينة لاهاى الهولندية تضطر ملكة هولندا إلى إعلان تنازلها عن السيادة على أراضى الهند الهولندية السابقة ويرتفع العلم ذو اللونين الأبيض والأحمر علم أندونيسيا فى مدينة بتاوة التى أصبح اسمها جاكرتا (العاصمة) وينزل العلم الهولندى عن ساريته.

هذه التفاصيل الأليمة التى تلخص أحد الصراعات الدرامية المعقدة لا شك لها أهميتها لفهم الأمور فى أندونيسيا اليوم فهى لم تخرج بعد من مشاكلها بل تعيشها إلى اليوم ولايزال الحقد على الهولنديين ومشاعر الضغينة ضدهم يستغل كثيرا لصرف الأنظار عن مشاكل أندونيسيا الحقيقة .. ويبدو أن كره الهولنديين ضرورة لازمة تحتاج إليها الجمهورية الأندونيسية الوليدة لتأجيج المشاعر فى صراعها على جزيرة ايريان (غينيا الهولندية الجديدة) فهى تمثل آخر قطعة أرض من أراضى أندونيسيا يقيم سادة الأمس فوقها ويتمسكون بها تمسكا تحكميا تعسفيا فهى جزيرية برية متوحشة بدائية إلا أن ثرواتها بلا حدود ولاشك أنها فوق قدرة هولندا الإحتفاظ بها وكذلك قدرة آندونيسيا ذاتها، أما سكانها وهم بدائيون منهم البابوازيون [1] لا تميزهم سمات مشتركة سواء مع الهولنديين ولا مع سكان أندونيسا ذاتها... ولكن من ذا الذى يعير ذلك انتباها...؟

فإن جزر الأرخبيل تعج بمختلف الجذور الأصلية والعقائد الدينية والثقافات، ومستويات المعيشة وتتجاوز السمات الجغرفية فيما بينها فى واحدة من أكثر الحضارات امتزجا، ففى كل الجزر حتى جزيرة جاوة سكان بدائيون لا يزالون يعيشون العصر الحجرى مع اختلاف جذور أسلافهم، ففى جاوة تجد ثلاثة جذور هى: الماليزية والسوندانية والمادورائية أى الجاويين الأصليين، أما فى سومطرة فتجد الماليزيين والمينا ثيجانوس وهم سلاسة شديدة الغرابة، ثم البانكاس الإشنواه هذا فضلا عن ذرية التجار الصينيين المكروهين ولا غناء عنهم فى الوقت نفسهم فهم جامعوا البضائع يقرضوا الأموال والمرابون، وكذلك يقومون بأدوار الباعة الطفيليين الذين لا يستغنى عنهم ويستندون منذ ١٩٤٨ فى بقائهم على نفوذ الصين الشيوعية... عديد من الشعوب وعديد من اللغات واللهجات والألسن،

(١) اسم أطلقه الفرنسيون على غينيا الجديدة وأراضى بابويا جنوب شرق فينيا الجديدة، وهى أراضى كانت محمية من ممتلكات استراليا وحصلت على الحكم الذاتى عام ١٩٧٣.

وكانت الضرورة تحتم توافر لغة مشتركة للتفاهم بين هذه العوالم التى تعيش منفصلة بحواجز وقامت بذور هذه اللغة منذ القرن السادس عشر بل مثل ذلك لا شك أحد يعيد لغة الملايو البوليتيزية والأفضل تسميتها باللغة الماليزية ومنها اشتقت اللغة الأندونيسية «بهازا أندونيزيا» صارت لغة الوطنيين قبل أن تصير اللغة الرسمية فى الجمهورية الوليدة وكان لا بدمن استخدام هذه اللغة فى كافة الشئون وفى المهام العلمية خاصة. ثم ماذا عسى أن يقال فى هذه اللجنة المؤلفة من خبراء المصطلحات اللغوية التى عمدت وبضربة واحدة... إلى ادماج ٣٧٧٩٥ مصطلحا جديدا لتضاف إليها...؟ ومهما قيل فى هذه اللغة الجديدة فليس يمكن مقارنتها ومقارنة دورها بدور اللغة الهندية فى الهند حيث لاتزال تلعب دورها إلى جانب الإنجليزية الشائعة فى كثير من الطبقات ولم تكن للغة الهولندية هذه المكانة فى ربوع الأراضى الاندونيسية لعدة أسباب منها أن هولنديى الأمس أساسا لم يهتموا بتنمية تعليم التقنيات الحديثة ماعدا بعض الحالات المتأخرة، وكما قال واحد من خبراء الاقتصاد: أراد الهولنديون أن يفرضوا سيادتهم ونفوذهم على أساس جهل الأهالى الوطنيين وبمساعدتهم اللغة الهولندية لو كانت استعملت على التقليل من المهرة التى تفصل الأسفل والأعلى وتعالج هذا التنوع اللغوى وكذا تنوع الثقافات بل وفوضى الثقافات المختلفة المتباينة، لذا مرت بالعقائد الدينية الكبرى مغامرات غريبة فلم تستطع منفردة تحقيق أى نجاح إذ كان عليها أن تتعايش جنبا إلى جنب مع المعتقدات الشعبية التى تطوقها وتحاصرها إلى جوار ديانة كبرى منافسة. نجد على سبيل المثال سكان قرية تبعد عن جاكرتا ٢٥ كيلو مترا فى حوار مع الرحالة الأوروبين... قائلين كلنا هنا مسلمون والقائل كارجوديكروهو أحد القرويين قالها بغير تردد فيجيئه الرد. إذن لماذا تتحدثون عن أربابكم.. ومبلغ علمى أن المسلمين لا يؤمنوا إلا بإله واحد.. ويحرج القروى أيما إحراج ويسارع أبوه إلى إنقاذه من ورطته فيقول بصوت هادئ: نحن لا نستطيع أهمال الأرباب الأخرى فهم يستطيعوا إفادتنا أو الإضراربنا فأرزنا متعلق برضاء ديڤى شرى زوجة فيشنو (تيبور مند) وليس فى البلاد مسجدا واحدا والقرويون المسلمون يقدمون الفاكهة والمشروبات المنعشة على مذبح هيكل ديڤى شرى التى تطرد الأرواح الشريرة

وينصبون فى أراضيهم الزراعية هذه الآلات «الناى» من غاب البامبو فتصفر من ملامسة الرياح.. ومن عاداتهم التقطيع فى صمت وبلا صوت إلا آنى آنى وهو الشفرة الصغيرة التى يخفيها الفلاح الذى يعمل بالحصاد فيقوم بالتقطيع المطلوب لسيقان الأرز بسرعة وفى هدوء وصمت حتى لا تطير الأرواح الطيبة.

ونفس الملاحظات يمكن حصرها فى الجزيرة الرائعة.. جزيرة بالى حيث يحافظ حتى اليوم (ولا أحد يدرى إلى متى) على ميراث الإمبراطورية الكبرى الهندية الجاوية ومعتقداتها الهندوسية فالموتى تحرق أجسادهم لتتمكن أراوحهم من اكتساب النور السماوى.. حصيلة من المعتقدات القديمة الإحيائية (المؤمنة بمذهب حيوية المادة والاعتقاد بأن النفس هى مبدأ الفكر والحياة العضوية) وكذلك الطقوس الحية لأسلاف الأقدمين.. كلها لا زالت ماثلة مسيطرة على أفكار الناس.

وليس من السهل إيجاد نوع من الوحدة أو التوحد لهذه الشعوب ولم يعد كره الهولنديين كافيا لكل المشاكل كما أن تنمية وتقدم اقتصاد بدائى بائس فقير ليس بالأمر البسيط خصوصا بين سكان أغلبهم من الفلاحين القادرين على تحمل المشاق. وكان من أكبر خدمات الاستعمار الهولندى أنه لم يسمح أبدا بوجود إقطاعيات زراعية كبرى بل سمح بملكيات زراعية صغيرة ولذلك لم يضطر نظام الحكم فى الجمهورية الأندونيسية الوليدة إلى مواجهة مشاكل الإقطاعيات الزراعية الكبرى وصعوبة توزيعها أو التخوف من نشوء انفجار زراعى.. فالمزارعون الفلاحون في القرى يقفون عند خط فقر واحد..

هم فى الواقع على المدى البعيد تعساء وأسرى إنتاجية تقيم الأود أو تكاد من زراعة الأرز على حساب زراعات غذائية أخرى كالقمح والبقول كالقلقاس ونخيل النشاء أساسيات التغذية السليمة كما أن تربية المواشى وقف على أعمال الحرث ونقل المعدات والمحاصيل أما تناول اللحوم فشبه منعدم بل وشبه مجهول تماماً وطعام الأسماك متواضع جدا وباختصار فإن اقتصاد هذه البلاد يظل على هامش السوق حيث المبيعات البسيطة من مقدار كمية قليل من الأرز وقطعة من قماش ولعبة مصنوعة فى المنزل. وفى المدن الفرص لكسب من المال الزهيد لمشترات

أزهد بما فيها من سجائر رخيص طباقها معبأ برائحة القرنفل فى شكل مخروطى طويلة (كالأقماع) أما الصناعة فمازالت مبتدئة باستثناء المنشأت البترولية ومزارع الكاوتشوك ومنتجاته من المواد الخام ومناجم الفحم والقصدير وأغلبها فى سومطرة أو فى بانكا أو بيليتون، أما خام القصدير باشراف الشركات الإنجليزية الأمريكية ـ فيقال إن سوكارنو أممها مؤخرا ـ وعلى كل حال فإن الأنشطة الصناعية سواء كانت أوروبية أو صينية أو وطنية تظل بعيدة عن مسايرة النمو الأقتصادى لأندونيسيا وفى ذات الوقت فإن المنتجات الكبيرة المعدة للتصدير كالكاوتشوك والبن والتبغ والكوبرا (وهو لب النارجيل يعصر منه دهن النارجيل) والسكر وهى محاصيل نماها الهولنديون على حساب المنتجات الزراعية التى تحتاج إليها معيشة السكان. هذه المحاصيل التى كانت تمثل ثروات تصديرية كبرى لم تعد اليوم كما كانت بالأمس منذ قطع الاتصالات بهولندا ومع ذلك فإن هذه المواد الأولية كالكاوتش والبترول والقصدير هى التى تألف منها حصيلة صادرات الأرخبيل فلازالت مع أنها مستغلة تتفادى الموقف الذى تقفه البلاد المستعمرة تحت رحمة تقلبات السوق الدولية الخطيرة، وكان لتوقف الحرب الكورية ارتفاع أسعار المواد الأولية عام ١٩٥١ آثار مدمرة على ميزانية أندونيسيا صحبها تضخم نقدى سريع وتصاعد ديموجرافى رهيب فى عدد السكان بمعدل مليون نسمة كل عام ولاتزال الحالة فى تدهور مستمر، وتقع جزيرة جاوة فريسة لأزمة طاحنة حيث لا تتمكن من استيراد الأرزمن الخارج بكميات كبيرة بالإضافة إلى نقصان الشخوص المؤهلة لإدارة الأعمال وتكاثر الإدارات البيروقراطية وانعدام الأمن وتنامى قوة الجيش بشكل غير نظامى.. فهل يمكن استعارة جملة قالها سياسى من رجال المعارضة الأندونيسية يصف فيها الحالة السائدة يقول: نحن نعيش زمن الشعارات والحركات الفكرية والحملات المسرحية التى تشبه ما يحدث فى إيران .. فليس هناك خطط على أسس منهجية سليمة.. تلك الخطط ذات الضرورة القصوى ولاشك أن مشاعر الناس بالحرية التى حصلت عليها البلاد والسعادة التى تغمر الجميع تداعيا لتلك الحرية لم تترك للجماهير ضرورة الالتزام ببذل جهود كبيرة لحل المشاكل التى تعانيها أندونيسيا بالإضافة

إلى ما يؤرقها خاصا بوحدة أندونيسيا نفسها ويجب تحقيقها. فماذا تعنى الوحدة الملاحية دون بحرية وطنية؟ أو افتقاد طيران قومى وطنى؟ أما كثافة سكان جاوة على سبيل المثال فيضعها فى بوتقة نظام شمسى نادر فقد كان عدد سكانها خمسة ملايين عام ١٨١٥ ارتفع إلى ٥٠ مليونا عام ١٩٤٥ ثم إلى ٦٠ مليونا عام ١٩٦٢ ويتجمع فوق أراضيها ثلثا سكان أندونيسيا وفيها ثلاثة أرباع موارد البلاد كلها.

ولم يعد هناك مجال لاكتساب مساحات من الأراضى من الغابات التى تقلصت إلى الحد الأدنى.. والانتقال إلى مكان آخر معناه تخطى الحاجز الحرج، ففى جزيرة اسبيرانس التى أصبح اسمها سومطره ثلاثون نسمة لكل كيلو متر مربع (٤٠٠ إنسان لكل كيلو متر مربع فى جزيرة جاوة) كما تتمتع سومطره بمواردها المعدنية وأراضيها الوفيرة وهى ليست أراضى غنية كأراضى جاوة وتحتاج إلى إصلاحات لايقدر عليها جماعة الفلاحين الفقراء.

وتتفشى المركزية فى جاوة مغذية حركات انفصالية قوية رغم وجود حركات تنادى بنظام فيدرالى فعال. وخلال السنوات الأخيرة تصاعدت انتفاضات الانفصاليين بشكل سريع منها: حركة جمهورية المولوك فى إمبوان، وحركة دار السلام غرب جزيرة سومطرة وحركة بانسودان فى جاوة، وحركة دكتورهات فى منطقة بادانج، وفى سومطره، حركة انشقاق الكولونيلات فى جزيرة سيليبس وآخر هؤلاء الكولونيلات مسيو سمبولون الذى استسلم فى ٢٧ يوليو١٩٦١ . كما تواجه البلاد صعوبات أخرى حيث اتضحت ضرورة وضع حد لحرية الأحزاب الشيوعية والأحزاب الأشتراكية وحركات المسلمين الأحرار السوكار (نسبة إلى الرئيس سوكانو) تطفو على السطح كأنها الحزب الوحيد وبرنامجه وأهدافه تحقيق ديمقراطية موجهة رشيدة، إذا ما وضعنا جانبا هذه الحريات وهؤلاء الرجال خارج الملعب.. المعفى عنهم.. هذا صحيح إلا أنهم يظلوا «مبعدين».. كل شىء يدفع «الرجل القوى» يانج كارتو أى الرجل الأخ كارنو (سوكارنو) إلى اتخاذ موقف سياسى مسرحى (شكلى) وهكذا رأينا بالأمس خلال مؤتمر عدم الإنحياز للبلاد المحايدة من بلاد العالم الثالث عقد مؤتمره فى عناية ملحوظة فى باندونج عام ١٩٥٥ ... رأينا سوكارنو كيف يستميت صارخا ومطالبا باستعادة غينيا

الهولندية.. جزيرة إيريان وما هذه المطالبة.. وبهذه الصورة إلا ضرورية لإزكاء الشعور الوطنى وقد تتخذ سندا لحكومة ليس أمامها سوى حتمية مواجهة مشاكل جمة ثقيلة على كافة الأصعدة وفى جميع مجالات الحياة.. وهو ما سوف تواجهه حتما خلال السنوات القادمة.. مشاكل.. فى الحقيقة.. كئيبة.. كريهة.

٣ - الفيليبين

بلاد لا تستثنى من مجموعة القواعد والأوضاع التى تحكم جنوب شرق القارة الأسيوية فقد كانت هذه الجزر ملتقى مثيرا للدهشة والذهول، فسكانها منذ عصر السياسة الحديثة الـ(نيوبوليتيك) وصناعة الحديد معروفة من قبل عصرنا الحالى فى جزر الأرخبيل كلها منذ القرن الخامس قبل الميلاد وهى تطفو فى بحار تضم شبكة الحضارة المشتركة الهندية الماليزية التى تسطع أضواؤها بداية من جزيرة جاوة وقد بدأ اندماجها منذ أشرقت إمبراطورية المادجاباهيت ثم وصلت إليها من جهة أخرى حركة التجارة القادمة من الصين فى وقت مبكر جدا مما أدى إلى تكوين طبقة من التجار والبحارة سادت فى كل الأمور ونجدها دائما فى المقدمة ويخضع لنفوذها فلاحو الجزر وهم رقيق الأرض.

وينزع الإسلام فى القرن الخامس عشر فى جزيرة ماندانا الكبرى ويكتشف الأسبان فى القرن السادس عشر جزر الأرخبيل إثر رحلات ماجلان[١] وانتهت حياته هناك عام ١٥٢١، ثم استقر مقام الأسبان بعد ذلك فى جزيرة لوسون عام ١٥٦٥ وبه إحدى أكبر جزر الشمال وبدأت المسيحية تعاود صراعها الدائم ضد الكفار الموروس.

وظلت الجزر تحت التبعية الأسبانية رغم كثير من الثورات وانتفاضات التمرد والعصيان لسوء معاملة أسياد مانيلا وحكامها وظلت خاضعة لأسبانيا حتى عام ١٨٩٨ وإذا بحركة تمرد عارمة تنشب داخليا فجأة فيدخل على أثرها أسطول الولايات المتحدة الأمريكية ولم تحصل الجزر على استقلالها فورا ولكنها وضعت تحت سلطة الولايات المتحدة الأمريكية (معاهدة باريس فى ١٠ ديسمبر ١٨٩٨)

(١) فرناندو ماجلان رحالة برتغالى ولد عام ١٤٨٠ اكتشف مضيقا حمل اسمه عام ١٥٢٠ وقتل فى جزر الفلبين عام ١٥٢١.

على أثر انتهاء الحرب بين أسبانيا وأمريكا ما أثار حفيظة الوطنيين الفيلبيين وعمد الرئيس الأمريكى وليام ماكينللى[1] فى محاول لتهدئة ضميره مع تهدئة نفوس سكان الفيلبيين فتبنى مشروعا لتعليم أهالى الفيلبيين وتثقيفهم وتهيئتهم للحضارة ليصبحوا العرجاك الذين صلب المسيح وعذب من أجلهم.. كان ذلك شعاره الذى أطلقه .

وفى عام ١٩٤٦ فقط نالت الجزر استقلالها نظريا على الأقل وعدد سكانها بعد ماضى متقلب غير مستقر ٢٥ مليون نسمة، وهو كثير جدا، ويزداد بمعدل ٧٠٠ ألف نسمة سنويا على مساحة أرض لاتتجاوز ٣٠٠ ألف كيلومتر مربع أى أكثر قليلا من نصف مساحة فرنسا والسكان هناك خليط مهجن من جذور ماليزية نسبتهم ٩٥٪ مع عدة جذور وأسلاف متباينة يضاف إليهم ما يقرب من ٤٠٠ إلى ٥٠٠ ألف بدائى يصعب تصنيفهم، ومائتى ألف صينى مهاجر فضلا عن أقلية من النيجر يتوس تبلغ ٧٠ ألفا سلالة من ذوى البشرة السوداء. وإجمالا فإن فى الفلبين ٢٠ مليون مسيحى كاثوليكى ومليونى كاثوليكى من المنشقين (الأجليبا يانين) نسبة إلى مؤسس مذهبهم القسيس القديم أجليبيا وهو الذى قام بثورة ١٨٩٨، كما أن من بين سكانها ٥٠٠ ألف مسيحى بروتستانى ومليونى مسلم ونصف مليون وثنى، ونضيف فنقول إن اللغة الإنجليزية حلت فجأة محل اللغة الأسبانية التى ظلت لغة الأسر القديمة فضلا عن لغة التاجال وهى لهجة عامية محلية ماليزية الجذور أبقى عليها احتراما للمتحدثين بها وعديد من اللهجات الشعبية.. كلها منتشرة بين أجناس وشعوب وسكان نصفهم.. على الأقل من الأميين.

أما البلاد فهى فقيرة بل بائسة ومن القرويين أساسا وكان طبيعياً أن ترتفع الملكيات الكبرى على حساب الفلاح الصغير المعدم تقريبا أو كما وصف الوضع مراقب أمركى (برازيتو فيودال):

«إنه إقطاع طفيلى تفشل إزاءه كل محاولة للإصلاح الزراعى بمعونة من الخارج حيث لايتداول المال إلا فى مدينة مانيلا وحيث لاتعرف سائر البلاد سوى

---

(١) حكم رئيسا لامريكا من (١٨٤٣ ـ ١٩٠١) وكانت له نزعة امبراطورية وقد اغتاله أحد الفوضويين.

التـروك[1]، وقد أدى فقر الفلاحين إلى قيام ثورة شيوعية شبتها جماعة الباكس، وهم جماعة المتقديمن أيام الاحتلال اليابانى وقامت السلطات عليهم بحملات قمع واعتقال بعد التحرير ولكن النار كما يقول، المثل الصينى: كامنة تحت الرماد. وتراود حلول فيديل كاسترو فى كوبا أحلام وخيالات.. حيث لاتحظى مع المعونة الأمريكية ولا الاحتلال أو الإشراف من بعيد بشيء ولايحدث فيها تقدم يذكر ما دامت نسبة الزيادة السكانية ثلثهم.. ومسبقا.. التحسينات الزهيدة التى أمكن الوصول إليها!!!

٤ ـ كوريا

لعبت كوريا بالأمس منذ عام ١٩٥٠ حتى عام ١٩٥٣ دوراً مأساويا كانت ولازالت ضحيته، ذلك أن الحرب الكورية كانت فى الواقع حرب القوى العظمى وكانت معركة رهيبة دامية بين الشرق والغرب، كان واضحا خلال الحرب العالمية الثانية وفى مؤتمر بالتا المنعقد فى فبراير ١٩٤٥ ثم فى موسكو بعد ذلك فى ديسمبر من العام نفسه أن استقلال كوريا أمر مسلم به حيث حررت القوات السوفيتية الشمال وحررت القوات الأمريكية القادمة من اليابان الجنوب، ولم يكن يفصل بين القوتين المحتلتين سوى خط عرض ٣٨ شمالاً، وعلى الرغم من تدخل الأمم المتحدة فقد ظلت الأراضى الكورية مقسمة تقسيما تعسفيا وظهرت فى الجنوب دولة كوريا الديمقراطية المستقلة فى ١٥ أغسطس ١٩٤٨، كما نشأت فى الشمال جمهورية ديمقراطية ذات انتماء شيوعى. وفى عام ١٩٥٠ قامت قوات كوريا الشمالية الشيوعية باجتياح أراضى كوريا الجنوبية تلاه رد فعل عنيف مسلح من جانب الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها، وإلى جانب الكوريين الشيوعيين جاء التدخل الصينى التطوعى ليقيم توازنا بين القوتين، ثم انعقدت هدنة فى يوليو ١٩٥٣ تقر بأن خط عرض ٣٨ درجة بمنزلة حدود للدولتين إلا أن هذا الخط وهذه التجزئة لم تسهل الحياة لافى الشمال ولا فى الجنوب حيث كانت تجزئة غريبة غير معقولة.

---

(١) نظام المقايضة القديم.

الجغرافيا أولاً:

كانت كوريا ضحية موقعها الاستراتيجي بين الأرخبيل الياباني وإقليم منشوريا وسيبريا والصين.. حيث كانت تمثل المخاطر التي تتهدد دول الجوار الصغيرة للدول الكبيرة التي اعتقدت أن كل شيء مسموح به لها اليوم كما كان الحال بالأمس. وتبلغ مساحة الأراضي الكورية مائتي ألف كيلو متر مربع أغلبها في اتجاه شمالي جنوبي من شبه جزيرة يفصلها عن منشوريا وديان نهر يالو الضيقة ونهر تومين حيث يجريان بالتوازي على جبالها العالية التي يغلب عليها اللون الأبيض وكانا في الواقع الحاجز الذي حماها بل خلق استقلالها خلقاً من خط عرض ٤٣ حتى خط عرض ٣٤ درجة توازيا فإن كوريا تشبه السد طوله من ٨٠٠ إلى ٩٠٠ كيلو متر يبدو للوهلة الأولى أشبه بشبه جزيرة إيطاليا.

ويشاء خطها التعس أن تكون طريقا طبيعيا تماما كإيطاليا إذ ترى الصين في هذا الطريق بابا من أبوابها تجب رقابته كما ترى على الأسلوب نفسه التركستان أوفيتنام الشمالية على حين تقف اليابان قابعة في بحارها حيث لاتملك سواء بالتراخي أو بالقوة مدخلا تجاه هذا الحاجز الذي يبدو وكأن الجغرافيا أبعدت جزرها بعيدا عنه فإذا ما شعرت اليابان بأي رياح تهب تهددها أو شعرت بقوتها أو بهما معا فقد كان على كوريا أن تتحمل صدمات رد الفعل. وقد تحملتها بالفعل أكثر من مرة منذ الحملات الفاشلة التي قادها هايد يووشي من عام ١٥٩٢ حتى عام ١٥٩٨ للاستيلاء على شبه الجزيرة حتى كان النصر الذي حققه اليابانيون واستقروا على أثره في شبه الجزيرة الكورية محتلين إياها من عام ١٩١٠ حتى عام ١٩٤٥.

وتكمن ذروة مآسي كوريا كذلك عندما تتطلع روسيا إلى أراضيها فترى فيها المخرج من حصار الثلوج لميناء فلاديفوستك حيث يتجمد بحر اليابان فلا مفر من ثم أمامها من النظر إلى الجنوب.. إلى خط عرض ٣٨ درجة وقد حدث بالفعل في بداية القرن أن حالف روسيا القيصرية إلى الإهتمام بهذا الطريق الحاسم وكان امبراطور كوريا يسارع إلى اللجوء إلى مبنى السفارة الروسية عند أول بادرة تهديد من جانب اليابانيين، والبلاد فقيرة يسودها مناخ بارد على رغم ما فيها من حقول

الأرز إلى ما وراء سيول، وتغطى أشجار الخيزران مساحات شاسعة من غاباتها الصنوبرية ولاتتمتع كوريا بسواحل ولاوديان إلا نحو الغرب والجنوب وهذه الوديان لاتوفر الغذاء الكافى لواحد وثلاثين مليونا من السكان أى بنسبة تجاوز ١٤٠ للكيلو متر المربع. أما الجزء الجنوبى من شبه الجزيرة فينغمس عميقا فى البحر ممتدا بسلسلة من الجزر أشهرها جزيرة تسوشيما التى تفصل مضيق كوريا إلى جزئين وتبلغ المسافة بين شبه الجزيرة واليابان أكثر قليلا من ١٠٠ كيلو متر فى خط مستقيم، وتقع كوريا على بعد ٥٠٠ كيلو متر من مصب نهريان تسيه كيانج. وهكذا تعيش كوريا مغمورة فى عمق البحر ولايقتصر شعبها على الفلاحين الذين يعيشون على محاصيل زراعاتهم وغاباتهم ومناجمهم بل هو شعب من الصيادين والبحارة الملاحين والتجار وكانت منذ عصر باكر قد أرست قواعد لعلاقات واتصالات مثمرة مع الصين واليابان وكانت همزة الوصل منذ العصر الوسيط بين الصين الجنوبية التى ترد إليها قوافل التجار العرب وتجارة فارس فى مناطق الشمال، ومن حيث هى «معبر» أو طريق عبور كانت بلاد النازحين المهاجرين والتجار. وهى شبه جزيرة منغلقة بإرادتها على نفسها ولكنها منفتحة طوعا أو كرها على العالم الخارجى.. الذى تغذت منه بالثقافة. وفى تاريخ الممالك الثلاث البعيدة بين (القرن الأول ق.م) والقرن الخامس بعد الميلاد ما كان فى هذا الزمان من غزو الحضارة الصينية لهذه البلاد.. أما هذه الممالك الثلاث التى ظهرت تباعا على مدى أقل من خمسين عاما فى مملكة سيلا عام ٥٧ ق.م. ومملكة كولوريو عام ٣٧ ق.م ومملكة بابكيش الهشة التى لم تدم طويلا التى ساندتها اليابان. وفى عام ١٨ قبل الميلاد حاصرت هذه الممالك بعضها بعضا ولكن سرعان ما اجتاحتهم الحضارة الصينية واحدة تلو أخرى فاستقرت العقائد البوذية أولا فى كولوريو ثم فى بابكيش عام ٣٨٤ وأخيراً فى سيلا عام ٥٢٧ وكانت سيلا هذه أقدم قدما إذ سيطرت على الآخرين، ومنذ عام ٦٦٨ حتى عام ٩٣٥ استطاعت فرض سيطرتها على كوريا جميعا وتمتعت هذه المملكة النامية بازدهار تجارى ملحوظ فى عهد سطوع نجم إمبراطورية التانج فى الصين من ٦١٨ إلى ٩٠٧ وعاشت فى أحضان ما كانت تشعه هذه الإمبراطورية من أضواء

باهرة، ثم عادت نزعة وحدة الأراضى الكورية تتمحور وبعد تفكك مملكة سيلا الكبرى وحول دولة جديدة هى مملكة كوريو ومنها اشتق اسم كوريا وعندئذ عرفت الحضارة الكورية نوعا من الازدهار بفضل نماء كوريا وعندئذ عرفت الحضارة الكورية نوعا من الازدهار بفضل نماء حركة الطباعة التى اخترعتها الصين فى القرن التاسع، وإن الكوريين هم الذين اكتشفوا عام ١٢٣٤ حروف الطباعة المعدنية وعندئذ بدأت العقيدة البوذية تنتشر بين المثقفين بين الكتل الشعبية معاً بتقبل الشكل المبسط دتشلن بالصينية.

وتزين باليابانية ثم استقرت بل ازدهرت العقيدة الكونفوشية وبدأ ظهور التماثيل من الحديد المنصهر ثم ظهرت كذلك تماثيل من البرنيق[١] الصينى المجفف ومن السيراميك - أى الخزف الفخارى البراق - حيث يلاحظه الذوق الكورى التقليدى فى فنون الصياغة وكان هذا الازدهار فى الفنون انطلاقة عامة سادت بلاد الشرق الأدنى إذ كانت كوريا مثلا بمعزل عن نوبات الإعصار التى تنطلق بها جماعات من قبائل متوحشة فى الأراضى الصينية (بربر) إلا أنهم لم يمسوا شعوبها إلامساً يسيرا، ولكن حين عصر المغول التى حاولت ونجحت فى فتح كل أبوابها عصر امبراطورية الوسط[٢] وفشلت ضد اليابان ونجحت ضد كوريا التى اجتاحتها من عام ١٢٥٩ حتى ١٣٦٨ على مدى قرن من الزمان أو أكثر قليلا. ولما استردت استقلالها تولى آخر سلالالتها الحكم.. سلالة اليبى التى دامت حتى الاحتلال اليابانى عام ١٩١٠ إلا فى سنوات صاخبة فيما بين عام ١٥٩٢ وعام ١٦٣٥ حيث كانت الأراضى الكورية فى هذه الفترة قد تعرضت لغزوات حكام من سلالة الصين المنبج، ومن جانب اليابان العدوانية واستمر عصر سلالة اليبى مثمرا زمنا بفضل استتباب السلام والاستقلال وكان من أبرز سمات هذه القرون ميلاد طبقة وسطى وبالتالى انبثاق حضارة قدر لها أن تستمد جزءاً من مطامحها التى يفيض بها خيالها الشعبى وقد ساعدت نظم الكتابة الجديدة (الصينية حتى ذلك الوقت) على نشأة نمط من الثقافة الشعبية إذ كانت الكتابة بالصينية قاصرة على المثقفين دون سواهم وترجمت قصص وروايات إلى اللغة الكورية واستطاعت طبقة شعبية

(١) برنيق صبغة مصنوعة من بذر الكتان تدهن به المصورات.
(٢) اسم أطلق على الصين قديما باعتبارها منتصف الكون.

جديدة المساهمة والمشاركة فى إرساء قواعد نهضة ثقافية. وفى القرن الثامن عشر تبلورت تلك النهضة بفورة شبيهة بعصر التنوير ومع ذلك فقد استقرت فى الطبقة العليا من المجتمع الكورى حضارة أرستقراطية ثمينة تتميز بانتصار نوع جديد من العقيدة الكونفوشية تنطلق من اتجاه عقلانى واضح ومن اتجاه نابع من آراء المذهب الرواقى للفيلسوف الإغريقى زينون من حيث قولها إن كل شىء فى الطبيعة إنما يقع بالعقل الكلى ويتقبل أفعال القدر طوعا. وهكذا استقرت الشعائر الأسرية والمعنويات الخلفية التى أصبحت أساس المبدأ الكونفوشى الجديد ومازال أهل كوريا وحتى اليوم ورغم مما يعانون من شقاء ومآسى من أخلص أتباع هذا المذهب بدون شك.

واليوم

ليس من السهل فى زماننا هذا التحدث بعقلانية عن أى شىء فمن بلاد هيأتها الطبيعية وأعدتها للوحدة كما وحدها التاريخ عبر قرون فإن الوضع الحالى للأسف قد جعل منها قطرين منفصلين وقوتين عدوتين يتربص كل منهما بالآخر.. شقيقان يتصارعان فلم تعد العاصمة القديمة هان يانج باسمها المألوف سيدويل بمعنى العاصمة وهى فى أراضى كوريا الجنوبية تستحوذ أو تمتلك حرية توفير ضرورات كيانها الأساسى ولكى نقرب الوضع للأذهان فإننا ندعو إلى مجرد التفكير عما سيكون عليه الأمر لو قسمنا إيطاليا إلى جزئين وحرمنا روما من الطريق المؤدى إلى أنسون حيث يهيمن الجزء الشمالى على صناعات الصلب والمعادن والكهرباء وللجنوب الأرز والأملاك العقارية الكبيرة.. والبحر الواسع... كوريا اليوم دميتان اثنتان لا تتحركان فلقد أهملتا على كل حال منذ عام ١٩٥٣ .. ولم تعودا تتحركان إلا إذا جذب أحد خيوطيهما.

حاشية

خلال الأعوام الأخيرة كانت أندونيسيا محط الأنظار وبضغوط من الولايات المتحدة الأمريكية غادرت هولندا الأراضى الأندونيسية فى ٣٠ أبريل ١٩٦٣ وكذلك غينيا الغربية الجديدة وجزيرة إيريان وكانوا قد حاولوا الدفاع عنها بقوة السلاح طبقا للقانون الدولى. واعتقدت الولايات المتحدة بذلك التدخل أنها اكتسبت

ود دولة محايدة وعطفها، وكانت عن طريق الأمم المتحدة قد ساهمت كثيرا فى مساعدتها وتحظيهم بمعاونتها... وتفشل كل هذه الجهود بسبب إقامة دولة جديدة باسم ماليزيا تحت رعاية بريطانيا وفى كنفها وهى دولة ماليزيا (اتحاد ماليزيا) وشمال بورنيو وساراواك وسنغافورة الفيدرالى فى ٨ يوليو ١٩٦٣، وفى ١٦ سبتمبر من العام نفسه تهب المظاهرات العدائية ضد بريطانيا فى جاكرتا وتبدأ سياسة المواجهة من جانب ماليزيا ويعلن الرئيس سوكارنو قبول المواجهة وتجئ زيارة ميكويان ٢٢ يونية - ٢ يوليو ١٩٦٤ والاشتراك فى الحكومة من جانب الحزب الشيوعي المتعاطف مع الصين لتزداد الأمور تدهورا ويتضح منذ أغسطس ١٩٦٤ أن تغييرا كبيرا يلوح فى الأفق.. وأخيرا تعلن أندونيسيا انسحابها من الأمم المتحدة بموافقة وإيعاز من الصين ومن كوريا الجنوبية والتهديد بانشاء أمم متحدة ثورية، وتعلن أندونيسيا عن أنها تخطط لتصبح ديمقراطية وطنية إلا أن ذلك لم يدم طويلا، وفى ٣٠ سبتمبر وأول أكتوبر ١٩٦٥ تقع محاولة لانقلاب يقوم بها قطاع من الجيش الأندونيسى مما يثير حنقا ورد فعل عنيف من بقية قطاعات الجيش وبأوامر صادرة من الجنرالين ناسونيو وسوهارتو يستولى الجيش على زمام الحكم ويعزل الرئيس سوكارنو وينتزع منه كل سلطة حقيقية وتندلع واحدة من أكبر المذابح مات خلالها عدد قدّره المراقبون ما بين مائتى ألف وخمسمائة ألف نسمة.. وأصبحت أندونيسيا تحت حكم العسكريين وتقطع علاقاتها مع بكين وتوقف كل صراع مع ماليزيا التى كانت بريطانيا أنشأتها بهدف الحد من نفوذ الصين فى لمنطقة جنوب شرق القارة الآسيوية وتشمل شبه جزيرة ماليزيا وسنغافورة وبعض الأراضى البريطانية فى جزر بورنيو وساراماك وساباه، ولم يستطع هذا البيان المصطنع الوقوف ومقاومة الصراعات السياسية إذ فى التاسع من أغسطس ١٩٦٥ تنشق سنغافورة وتعلن استقلالها، أما الانقلاب السياسى الذى وقع فى أندونيسيا فلم يحقق لهذه المنطقة من العالم سوى هدنة مؤقته، وكان لهذه الأحداث وقعها وثقلها فى هذه المنطقة من العالم.. أشبه برقعة الشطرنج ومثل ذلك وقع فى كل من فيتنام الجنوبية وفى لاوس، وتتوالى الاضطرابات وتتأرجح المشاعر الوطنية على صورة تصعب متابعتها وتندلع الاضرابات وتتوالى

صراعات العالم المستترة والظاهرة، وسرعان ما تقع الانقلابات دون توقف فى فيتنام فى انعكاس للقلق الداخلى الذى لا يمكن التكهن مسبقا بردود أفعاله منذ بداية عام ١٩٦٥ وتدهور الموقف السياسى والعسكرى جنوب فيتنام بحيث عمدت الولايات المتحدة إلى شن عملياتها العسكرية بغارات على فيتنام الشمالية.. وتتصاعد هذه الغارات وبرغم هذا التصاعد وحلول فترات توقف قصيرة إلا أنها لم تؤد أبدا إلى حل للنزاع.. ذلك أن حرب فيتنام زادت من تطور الأحداث ووطأتها..

الفصل السادس

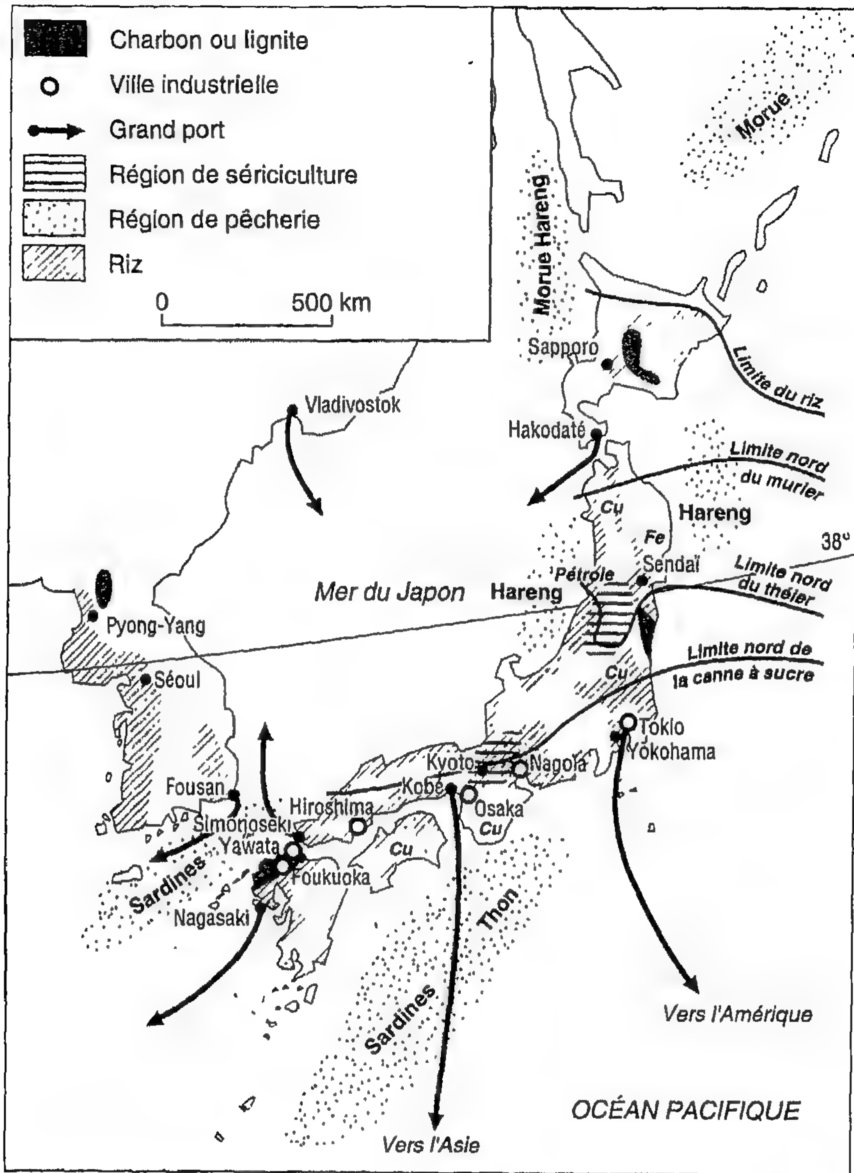
اليابان

اليابــان

تقع اليابان فى أقاصى بلاد الدنيا، حيث يغوص مع جزيرة يوزو فى دياجير العزلة الباردة الزاحفة من الشمال تجاه الشرق، حيث يقع أهم موانئها، فهى تنفتح على امتداد المحيط الهادى الغريب تحوطها ومن الغرب والجنوب البحار التى يغشاها الضباب غالبا وتضيق عند الأراضى الكورية وعند الجزيرةالغربية كيوشيو.

وقد وصف الأرخبيل أى اليابان بأن جزره فى مجموعها تشبه الجزر البريطانية لولا أن الأخيرة تكاد تلتحم كلما اقتربت منها القارة الأوربية ولكن الجزر اليابانية أكثر عزلة منها فهى رغم عزلتها متقوقعة على نفسها متروكة لمصيرها، ولذلك اضطرت اليابان لكسر هذا الانعزال إلى الانفتاح على الغريب الخارجى، ولقد صرح يابانى بقوله: إن كل ما يبدو يابانيا فى حضارتنا لابد أن نجد له مدخلا أجنبيا .. آتيا من الخارج، وهذا فى الواقع حقيقى حيث ظهرت فى عصور مبكرة يابان صينية منذ القرن السادس، كما تجلت منذ عام ١٨٦٨ يابان غربية .. حققت نجاحا واضحا، غير أن كل هذه الأنواع تبلورت أخيرا فى يابان «يابانية» الشكل والمحتوى ولا مجال للشك فى جذورها النابعة من كونها جزراً، ففى بلاد الحدائق الصغيرة الضئيلة وطقوس شرب الشاى وزهور أخشاب الكرز وحتى الديانة البوذية التى جاءتها بحكم التتابع الصينى على أراضيها.. كل هذه الأمور

والأحداث صيغت على النمط اليابانى الفريد، ولاشك أن هذه العقيدة البوذية المنسوخة يابانية ذات جذور مغايرة لجذورها الصينية. وواضح أن اليابان التى بدت طبعة قابلة للتكيف والتأقلم مع كل ما طرأ على أراضيها استطاعت من هذه القروض العديدة أن تنشىء لنفسها اختيارات خاصة، بها فهى مخلصة لكافة التيارات والتقاليد الموروثة وقادرة على التعايش جنبا إلى جنب مع موجة من التحديث العصرى على النمط الغربى المتقدم حيث استقبلتها منذ قرابة قرن من الزمان وبدون تحفظ؛ بل وباندفاع أحيانا بمبادرات متسارعة، عنوانا على مقدرتها وقوتها الذاتية وتفسر لنا هذه الثنائية الغريبة ما كتبه صحفى عام ١٩٦١ .. أن أكثر ما يمكن لليابان أن تعرضه من أمور خارقة غريبة وغير مألوفة .. هم اليابانيون أنفسهم.



اليابان بلاد الشمس والبحر

فحم ولانجو (خشب فحمى)

مدن صناعية

ميناء كبير

مناطق إنتاج حرير

مناطق حديد

أرز

اليابان الأصلية (الأولى) قبل الحضارة الصينية

كانت اليابان بجذورها العميقة الأولى من القرن الخامس قبل الميلاد وحتى القرن السادس من عصرنا الحالى مع دخول طلائع الحضارة الصينية تعيش حضارة شبه فظة غليظة لولا أنها حضارة قوية نشطة ظلت تنمو ببطء، وهذه اليابان الأولى غير معروفة بحيث يقول المتخصصون بأن اليابان ليس لها تاريخ قبل وصول العقيدة البوذية عام ٥٥٢ ق.م وفى الحق يبدو أن مصيرها كان ولايزال مرتبطا بصدمات الغزوات ووصول المحدثات الخارجية بما يمكن من القول بأن اليابان نشأت دائما أو أعيد إنشاؤها على صورة الغير.

من أول أسلوب جومون
حتى شارع يايوى والأرز

ومنذ القرن الخامس حتى بداية عصر المسيحية لم يكن هناك سوى منطقة مميزة بالوادى الأوسط الذى تقبع فيه اليوم مدينة كيوتو، وكانت تسمى طبقا للوثائق القديمة كينكى، أو فى اتجاه الجنوب الشرقى الـ «ياموتو» وهو بمنزلة قلب جزيرة هوندو الكبرى وعلى مبعدة قصيرة من ذلك المضيق الشبيه بالبحر المتوسط اليابانى المسمى لوسوتونو أووشى، والذى يربطها بالجزر الغربية

سيكوك وكيوسيو، وفوق هذه البقعة تتابعت ثلاث متغيرات كبيرة واحدة إثر أخرى.

من المؤكد وعلى وجه التقريب أن أوائل سكان الأرخبيل كانوا من قبائل الإينوس البدائيين والشاهد آثارهم فى جزر يوكيو حيث استقر بهم المقام اليوم فى جزر بيزوستمالين . إذن .. نجد أن أول ما يذكره علماء الآثار يتعاوض مع قطعة خزفية (سيراميك) بدائية مزينة برسوم حبال مطبوعة على الطين الطرى ومنه اشتق اسم حضارة أو ثقافة الجومون تماما كتروماتت جاء من كوريا من منشوريا ومن بحيرة بايكال البعيدة فى سيبريا.

ومن ذلك يمكن أن نستخلص الموجة الأولى من القادمين من قلب القارة وبداية الصراع الذى اشتد زمناً طويلاً فى الأراضى اليابانية ضد الإينوس

وفى القرنين الثانى والثالث قبل الميلاد وقعت غزوة جديدة جاءت من الصين الجنوبية خاصة، ومن أندونيسيا البعيدة، ومنذ ذلك الوقت ظهرت الأدوات الجديدة كالأدوات الفخارية والبرونزية ومرايا البرونز والأجراس والحديد ونقود الصينيين من قبائل الهان، وأخيرا الأرز والمنازل الضيقة المفتوحة والتى سميت حضارة شارع يايوى؛ حيث كشفت الحفائر التى أجريت فى هذا الشارع نفسه النقاب عن أدوات مميزة لهذا العصر. وكان الأرز الذى حل محل الذرة البيضاء القديمة يمثل وحده ثورة غذائية ثم فكرة الملك الرب الحى التى لزمت التاريخ اليابانى كله وقد جلبتها معهم قبائل طلائع الماليزيين، فهل من تفسير لها؟ لا أحد يدرى.

ويكشف حوالى القرنين الثانى والثالث من عصرنا بعد الميلاد عن عصر تميز بمقابر سادة حفظت حتى أيامنا هذه، وعن فرسان يقودون قبائل فلاحين وحرفيين كانوا أنصاف عبيد وأنصاف أحرار، وذلك فضلا عن جمع غفير من العبيد ورقيق الأرض، وكان السادة يدعون أنفسهم أبناء الآلهة المحليين وأطلق على تجمعات الحرفيين لقب بيه بمعنى مجموعة أو قسم يسبقه اسم صناعتهم وعلى ذلك كان هناك النساخ ويسمون فومابيه، والنساجون أورى بيه والسروجيون (صانعو السروج) كورا تسيكوريب بيه، والرواة القصصاصون كاتارى بيه وكان هؤلاء الرواة يتناقلون أحاديث الأبطال وأساطيرهم وسيرهم، كما نشأ كذلك نظام

سياسى ودينى وخاصة عقيدة دينية بدائية تتصدى وتتحدى قوى الطبيعة العديدة التى لم تستطع اليابان ـ المحافظة بطبعها ـ التخلص منها وسوف يطلق عليها فيما بعد فى القرن التاسع عشر الشنتو (طريق الأرباب الآلهة) وفى الغرب نحن نطلق عليها ديانة الشنت[1] و ثم بدأت تظهر عندئذ فى مواجهة بلاد الإينوس من مناطق قبائل الياموتو القديمة تباشير إمبراطورية اليابان وهى متصلة بالجذور الأسطورية للسلالة الإمبراطورية اليابانية المتحددة من ألوهية الشمس أما تيراسو من مأثور دينى متوارث كانت معابد الشنتو تحتفل بذكراه حتى قبيل هزيمة ١٩٤٥ وتحت ضغوط المحتل الأمريكى اعترف إمبراطور اليابان الحالى[2] بعدم انحداره من جذور إلهية.

واستقر المقام بطيئا بهذه الإمبراطورية حتى القرن الثانى مع بداية أحداث اليابان الأولى كما تسطرها الوثائق، فاليابان ليست موحدة تماما إذ كان توحيد البلاد عملا بطيئا إذ كان من السلالة الإمبراطورية وعشائر اليوجى المجاورة قادتها وأراضيها ومزارعوها وحرفيوها تماما كالسلالة الإمبراطورية ما دام هؤلاء السادة الحكام من جذور أجنبية (كورية وصينية) وربما شجع التوحد والانصياع للنظام ضرورة الصراع المشترك ضد قبائل الإينوس برابرة ما وراء حاجز الشرق وقد بدأت ملامح هذه الملكية الملتصقة بإقطاعية ظاهرة قوية تتبلور حين أدخل الكوريون الحروف الصينية فى النسخ والطباعة وكذا المذاهب الكونفوشية والبوذية فى القرن السادس وصارت قوة الأفكار والمفاهيم الكونفوشية واضحة المظاهر منذ بدأ تحرير مراسيم الأمير شرتوكو الذى أعلن حقوق السلطة المركزية دون تقسيم فليس للبلاد كما نادى هذا الأمير سيدان... ولا قائدان.. وهكذا بدأت اليابان التاريخية تظهر بطبقات مجتمعاتها ومنسوجاتها وكتابها وأحداثها وسفرائها المبعوثين إلى أباطرة الصين (أولى السفارات كانت عام ٦٠٧) ومن حول الأمير تشكلت طبقة النبلاء «الكوج» فهو موزع الأراضى والأرباح الشووين والمزايا كذلك ويجاهد الكل فى تحويلها إلى أقطاعيات وستنمو هذه اليابان الإمبراطورية وتزدهر

(١) ديانة الشنتو وهى ديانة أهالى اليابان التى تمجد الأجداد وقوى الطبيعة

(٢) هيروهيتو وقد توفى

بإشعاعات جديدة تهب عليها من جانب الصين ذات النفوذ المتصاعد والحضارة المسيطرة القومية إلى أقصى مدى، ومن آثار هذا النفوذ أن أطلقت الصين اسمها على الأرخبيل وهي تباشر مراسم تعميده .. «بلاد الشمس المشرقة» باللغة الصينية جوبين ومنه اشتق اسم اليابان واليابانية نيبون وفق نطق الكلمة ذاتها.

اليابان فى مدرسة الحضارة الصينية

سطعت خلال عدة قرون أنوار الحضارة الصينية أحيانا على جزر الأرخبيل اليابانى وهى تغير من شكل المعطيات حتى ليبدو وما حدث للعقيدة البوذية غريبا وهى تتشكل فيما عرف بزين.

بتناسخ دينى فريد سيصبح مذهبا لجماعة من الدمويين «الساموراى» منذ القرن الثانى عشر وكانت معطيات أخرى تتمسك أحيانا بأشكال قديمة لم تعد الصين ذاتها تتمسك بها أو تذكرها ومنها هذه الموسيقى الصينية المفقودة فى الصين واحتفظت بها وحافظت عليها اليابان وإن أقامت اليابان على تعديل أشكال الموروثات وتغييرها تحت نفوذ نزعة إنسانية ومجتمعية وتقاليد مغايرة تماما للنمط الصينى خصوصا وأن هذا النموذج الصينى كان ينتشر فى أراضى اليابان محملا بالشكل الكورى الذى لم يكن يشكل دائما الجذور الأصلية.. وكانت أولى الحضارات اليابانية الصينية هى العصر الذهبى لليابان القديمة فخلال هذه الحقبة الطويلة من التثقف (التأقلم الاجتماعى والثقافى) كان كل شىء موضع تحول وانتقال من تقاليد فى نسخ الخطوط وفن الرسم وفن العمارة وإقامة المنشآت والحقوق (حقوق عشيرة الناتج)

---

(١) ومعناها جزر السود وتشمل غينيا الجديدة سولومدث وكاليدونيا وجزر فيجى

وتنقسم اليابان كالصين إلى مقاطعات ليست بالطبع بتلك المساحات الكبيرة التى عليها المقاطعات الصينية، وفى عام ٧١٠ شيدت العاصمة «نارا» ومعناها العاصمة باللغة الكورية وكان بناؤها - طبقا للنموذج الصينى - شبيها بمدينة لويانج فى كوريا كهيئة رقعة الشطرنج مع إقامة القصر الإمبراطورى فى الشمال. وفى عام ٩٩٤ عندما انتقلت العاصمة إلى مدينة هانكيو بمعنى عاصمة السلام أو كيوتو (ومعناها باليابانية العاصمة) أعيد بناؤها على النموذج نفسه ومنذ ذلك التاريخ توقف انتقالها كما كان يفعل كل إمبراطور يشيد عاصمة خاصة له ومنذ عصر «نارا» أصبح العرش والمكاتب أثقل من أن تنتقل هكذا دائما عند كل حكم جديد وظلت كيوتو العاصمة التى صمدت قرونا. وظل النفوذ الصينى سائدا كل شىء حيث كتب ما يروى النساخون من أحداث كبرى على نموذج الماندراران (كبار الموظفين فى الإمبراطورية الصينية) لدرجة استعمال أمور صينية لنسخ الكتابة اليابانية ويجب ألا ننخدع على أى حال بهذه الاستعارات العديدة ذلك أنها كانت فى محيط ضيق هوبلاط الإمبراطور الذى كان يحاول نشرها فى سائر أنحاء البلاد بأساليب سيئة لم تستطع أن تطفئ شعارا باهرا قد تشوبه بعض الظلال.. استتبعها عصر ذهبى مبكر من نهاية القرن العاشر حتى القرن الثانى عشر، إلا أن تصاعد الحياة المادية لم يتح لهذا العصر الذهبى الدوام إلا أمدا محدودا جدا إذ تلته عصور مظلمة وعاش عصر كيوتو الزاهر فى الكتابات الشعرية والأدبية الثمينة فى المونوجا تارى (حكايات شعرية) نصفها حكايات ونصفها روايات أشبه بقصص سندريلا وكذلك فى صحف نيكى (صحف شعرية كانت تكتبها سيدات القصر باللغة اليابانية)، أما الرجال فكانوا يسجلون أشعارهم باللغة الصينية حيث تشرح لنا الأدبيات النسائية أفراح البلاط والحفلات الموسيقية والرقص والمحاورات الشعرية ومسابقاتها وكلها بادرات إمبراطورية فى محيطهم ومباهج تخضع لمراسيم دقيقة تجعل من الحياة فى القصر عرضا منظماً كالباليه، ولاشك يمكننا أن نتخيل فى ثنايا هذه المعيشة أحداث الدسائس السياسية والعاطفية التى تقع دائما فى أمثال الاختلاط الذى يسود هذه المجتمعات الضيقة وأبوابها الرفيعة التى تشف بسهولة عما وراءها.. عالم تافه.. عاطل أفسده الأدب، إذ تميز بين المقبول السائغ

والمستحب وبين المستهجن القبيح والكريه تكتب تقول فالأخيرة وهذا طبيعى عددها أكثر من الأولى كشعرة علقت بريشة الكتابة أو حبة رمل تعلقت بالريشة تصدر صريرا كلما احتكت، إنها شخصية تافهة لا وزن لها ويثرثر ضاحكا بشدة لحظة.. تود تستمع شيئا رضيع ينبح كالكلب حين يبصر رجلا يريد اللحاق فى سرية بك ليلا فيبدأ فى العواء ... الرجل الذى استعصى إخفاؤه على أى صورة والذى يبدأ الشخير، أو هذا الذى يقبل عليك خلسة وعلى رأسه قبعة عالية ظاهرة للعيان ثم يحاول عند مغادرته جاهداً ألاّ يراه أحد ولكنه يصطدم فى أى جسم يصدر صوتا عاليا، وعلى أى حال لو صح أن هذا كان نمط حياة المحظوظين فقد عزت البوذية الأراضى اليابانية ببطء وهى تمقطر (تنشر الديمقراطية) وظهر من رجال الدين المستنيرين من اتصل بالطبقات المتوسطة ومهرة الصناع وصغار الملاك وطقوسه مبسطة، وتدور فقط حول المنقذ بوداء بودا أميدا الذى يضمن للمؤمن به ولوج السماء الغربية فإن الإلمام وطبقا لتطور مشابه للصين وأفكار البوذية الحقيقية وعقائدها سرعان ما تصبح ما يميز علماء اللاهوت (الدينيين) أو رجال الصفوة على حين تأخذ البوذية الشعبية على عاتقها سائر ما تبقى بما فى ذلك من معتقدات الشنتو القديمة بحيث تكاد تصبح ديانة حقيقية مشتركة.. إنها عقيدة الشيخون التى يصبح الأرباب المحليون لديها تجليات ربانية خاصة ومؤقتة من الألوهيات البوذية.

وتصبح المعابد الصينية المقدسة تحت إشراف هيئه العقيدة الوليدة أى ما يسمى الشنتوية الثنائية. وتقوم إحدى الأنقونيات(عبادة الأيقونات) البوذية وتبدأ فى الانطلاق مع ظهور أميدا.

وفى هذه الأزمنة تزدهر أطر الطبيعة اليابانية الرائعة فى لفائف وصور وتماثيل وإشارات وحركات طبقات المجتمع المختلفة فى مشاهد مفعمة بالدعاية، كما شاعت وانتشرت على نطاق واسع حروف كتابة هجائية مبسطة (تشمل ٤٧ مقطعا لفظها فقط) ثم بدأ نظام الحكم الأمبراطورى منذ القرن الثانى عشر ينهار فقد ظل طويلا يعبر عن ضعفه فإذا كان قد نسخ صورة من صور الصين المزدهرة أيام التانج إلا أنه لم يعرف أو لم يقدر على خلق طبقة المثقفين القائمين لخدمة

البلاد الذين كان باستطاعتهم كسر قوى طبقة الأرستقراطيين القدامى وتطلعاتها وكان مقدرا عليه أن يترك مكانه لنظام حكم الشوجوناى خلال عصر وسيط طويل امتد قرابة أربعة قرون من عام ١١٩١ حتى ١٨٦٨ إذ كانت جماعات الإقطاعيين منذ نهاية القرن الثامن وحتى عام ١١٨٦ تحاصر السلطة الإمبراطورية؛ حيث كان الأباطرة يملكون ولا يحكمون حكماً فعلياً، كانوا أسرى وألعوبة فى أيدى الفوجاوارا الذين تقلدوا مناصب القيادة فيوفرون للإمبراطور نساءه وعشيقاته يختارونهن من محيط أسرهن، وهم الذين يخلعون الملوك ويختارون خلفاءهم، ولقد قال أحد المؤرخين بحق: إنما سلطة الميكادو عليه فارغة يحتفظ الفيجاوارا - بعناية - بمفتاحها وفى نهاية عصر الفيجاوارا الطويل بدأ يتفتح عصر الشوجينو فى تجربة غير متوقعة أضفت نوعا من الرسمية على شخص الشوجان؛ حيث كانت سيطرة الإمبراطور عن طريق السادة الإقطاعيين بفضل تلك الأسر العديدة، وأغلب أبنائها من صلب الأباطرة وتمثل نوعا من طبقة النبلاء ممن منحوا إقطاعيات، فالشوجونو بمنزلة حكم دائم لهم خلاله تتدافع الجماعات وتتبدل ولكنها تتفق على الأقل فى النهاية لتحقق بقية السكان من الأهلين المنقسمين طبقات اجتماعية متعددة، ويمارس السادة - دون جموع الفلاحين والحرفيين والتجار - حياة مترفة كما يحلو لهم وفى قاع السلم الطبقى أبزس الطبقات هم بخاصة عمال الجلود وهم المنبوذون وإن كان عددهم أقل من أمثالهم فى الهند. وبانحسار الحياة الاقتصادية تتوالد فى عصر الشوجونات أنواع من ردود الأفعال الإقطاعية والعسكرية فى شكل تراجع مادى عام كأنهم طبقة أرستقراطية متصارعة تقتطع بعيدا عن أعين البلاط الإمبراطورى ساحات شاسعة من الأراضى الزراعية فى المناطق الجديدة شمال وشرق جزيرة هوندو خارج السور يمارسون فيها تربية الخيول وحرص النظام فى مواجهة كيوتو وأمرائها المخنثين بما يتسمون به من الطيش والدناءة والمكروهين على حكومة من الجنود الباكوفو (حكومة الخيام) على رأسها القائد العسكرى الشوجان تناصر مبدأ المساواة شبهت بالحكام الميروفنجيوان (أوائل ملوك فرنسا) عند زوال عهدهم وإن اختلفت اليابان حيث لا يستبعد الملك الخامل الكسول فالميكاد إذ يستمر يملك ولا يحكم إلى جانب الشوجان الذى يتلقى

منه التكليف بصفته الإلهية كما كان يفعل البابا للأباطرة واستقر أوائل الحكام الشوجان فى أطراف جزيرة توكايدو فى الطريق من كيوتو إلى ييودو وفى كاما كورا العاصمة الفعلية وقد ظل الأمر كذلك حتى عام ١٣٣٢ ثم عاد فاستقر فى ضاحية كيوتو فى موروماتشى من سنة ١٣٩٣ وحتى ١٥٧٦ ليستقر أخيرا فى ييدو التى كانت حتى ذلك الوقت ميناء للصين (١٥٩٨) وظلت العاصمة فيها حتى عام ١٨٦٨ ويتحدث المؤرخون تطوعا من عصور كاما كورا وموروماتشى ويبدو بما يمكّن بتجميع هذه العصور جنبا إلى جنب من تغطية حقبة الشوجانات الطويلة (١١٩٢ ـ ١٨٦٨) ومهما كان تفسيرنا لهذا العصر فقد كان واجهة مسرح الأحداث عن الطبقة المسيطرة من المقاتلين والفرسان البوشى، فقد فرضوا آراءهم وأذواقهم وخشونتهم فى بداية عهدهم فكان لديهم نوع فريد من البساطة فى الحكم كبساطتهم فى فرض أشكال المنازل وطرز الملابس، كالملابس المبسطة السويكان أو الهيتانارا استبدالا بما كان من الملابس المنتفخة المعوقة عن السير النوشى أو السوكاتاى وكانت مسايرة مراسم تلك العصور، وحلّ الصيد ومبارزات الفروسية وسباق الخيول محل ألعاب تسلية تلك الأيام الخوالى وكلها ألعاب مزعجة. وكان خلال إقامة الشوجان فى كيوتو من (عام ١٣٩٣ حتى عام ١٥٧٦) أن بدأت المدنية تأخذ حقها ودورها فلم يتلاش العصر الذهبى الكلاسيكى فى عصر الجنود والفرسان ثم جاءت أواخر أعوام القرن السادس عشر وأوائل أعوام القرن السابع عشر لتقطع بعنف عصر الشوجان الطويل إذ نشبت ثورة التوكيجاوا التى تتمكن على مدى أكثر من قرنين من عزل اليابان عن سائر بلاد العالم كما تفاقمت النظم والسلوكيات الإقطاعية، وبالفعل استطاع أحد أبناء الفلاحين هايد بوشى ممن لا يحملون اسم الشوجان أن يرد النظام إلى البلاد وينشر السلام فى ربوعها فاستتب له الأمر ثم شن على كوريا حربا طويلة لم تكن بحال معقولة أو مسوغة ولم يضع حدا لها إلا موته فعمدت على ذلك جماعة من توكيجاوا ففرضت سطوتها على يد هايد يورى وكان عبقرياً صبوراً أضفى عليه الإمبراطور اسم شوجان وقد استقر رأيه على الإقامة فى بيدو التى كان رأى فيها عن فكر عاقل أفضل موقع يستطيع فيه حكم الجزر اليابانية الصاخبة لا من مدينة كيوتو وكان حين تخلى عن الحكم

لأبنه قد استطاع جعل الشوجانات توارثيه فى أسرته وبذلك تمكنت من حكم اليابان حتى عام ١٨٦٨ ومن أكبر قرارات حكومة بيدو، هذه طوكيو الحالية كانت عام ١٦٣٩ حتى تقرر إغلاق اليابان فى وجه الغرباء (الأجانب) لا يدخل جزرها سوى السفن المسموح بها من الصين وهولندا التى لم يكن مسموحالها بأى حق إلا استيراد الذخائر والأسلحة والقطارات والتبغ أما سائر جزر الأرخبيل فتسطيع، وقد استطاعت العيش على مواردها الأصلية وكان الحظر مفروضا كذلك على السفن اليابانية شأنها شأن السفن الأخرى بل لقد بدأ بها الحظر (١٦٣٣) فهل من تفسير لهذا التصرف الذى صدرت عنه ردود فعل كثيرة...؟ ويبدو أن حكام اليابان قد بدأت تساورهم المخاوف من الغربيين البرتغاليين الذين سبقوا إلى المجئ، كانوا قد وصلوا إلى كيوسيو عام ١٥٤٣ بمدافعهم وبنادقهم على سفنهم التى بهرت سكان الجزر مع موجة التحول إلى المسيحية التى تمكن الدخلاء الجدد من تحقيقها فهل تشجع هذه الديانة عصيان الكبار (كبار الحكام) وثوراتهم فضلا عن الفلاحين كما وقع عام ١٦٣٨ وكانت الصين من جهة أخرى قد نظمت فى منتصف القرن السابع عشر عادات المجتمع وكانت الهند البعيدة قد أسمعت كذلك صوتها وران على كل الأفق انحسار اقتصادى هائل، فهل أصاب اليابان الذعر من هذا الانحسار العام فقررت الاحتماء منه فكان خاصة وقف خروج معادنها الثمينة، فمنذ عهدها بديوشى البطولى وبداية العداء ضد كوريا والصين كان تصاعد أعمال القرصنة ضد الصين ينبئ بانطواء اليابان على نفسها وبدأ إشعاع الصين فى عصر سلالة المنج ينحصر عن جزر الأرخبيل ثم تعاظمت الرغبة أخيرا فى تجميد مجتمع كان على استعداد للتحرك بما يضم من فلاحين حريصين أشد الحرص على نيل حريتهم رغم ما خضعوا له كثيرا من اليأس وبدا أن الانغلاق قد حجّر واستمر حتى وصلت سفن الأميرالاى بيرى السوداء واليابان حتى ذلك الوقت تعيش على مواردها وتصون عشائرها وطبقتها النبيلة وكل ما يخضع لهذه الطبقة الأساسية وفى ذلك ما يشير إليه نجاح الديهايانا والزين وهما المذهب (فكرة / الشكل) الشاذ فى البوذية وربما كانت هذه اليابان التى آثرت الانغلاق على نفسها أقل إحساسا بالبؤس وأقل تجردا مما نظن للوهلة الأولى فقد كان عليها أن تنمى

مواردها المادية وغيرها من موارد كانت حقيقية ودليلا على القيمة حتى تصل إلى مستوى مرموق، فكان منذ القرن السادس عشر أن انتقلت من أدبيات عامية اللهجة خشنة إلى نهضة مسرحية حية نصف غنائية ونصف راقصة كالكابوكى ومن ثم لم يكن عصر الشوجونات كله مظلما، ولا سبيل إلى تصور تجربة الشوجونات أو إدراكها إلا فى إطار نظام دقيق قد نطلق عليه شرطة الدولة إذ كان للسادة الكبار روساء العشائر والمقاطعات «الدايميوس» (وهم حوالى ٢٧٠) أتباع ومريدون ضمن جمهرة من «المؤمنين» والساموراى ممن يخدمونهم بالمال وبقروض ومقايضات عينية ولايجرى كما فى الغرب أى تبادل للأراضى الموهوبة التى تمثل لهم نوعا من الاستقلالية فقد كان محتوما على الرونان أو الساموراى الذى تخلى عنه أو هاجر سيده أن يموت جوعا أو يلقى به مع قطّاع الطرق ليصبح مخلصا جسداً وروحا، كل يقول وكل يكرر ويعلن، هكذا تنادى العقيدة الدينية وهكذا ينادى الشرف.. شرف الساموراى.. وطقوس البوشيدو الشفهية رقصة الـ ٤٧ من أتباع الرونان الذى انتحر رئيسهم بالهاراكيرى إذ ينتقمون للميت ثم بدورهم ينتحرون فوق قبره (وقعت هذه الحادثة فى شتاء عام ١٧٠٣) وقد ظلت هذه القصة تروى كثيرا وقد شكلت شريعة الشرف العنيفة، هذه مدرسة العنف فى غير رحمة من سلسلة الحروب الأهلية. واليابانيون يتقاتلون ويتعاركون فيما بينهم وضد بعضهم البعض غالبا، ولقد حاولت الصين أيام المغول مرتين عام ١٢٧٤ و عام ١٢٨١ أن تطلق أسطولا من سفنها على جزر أرخبيل اليابان ولكن «ريحا إلهية» أثارت عاصفة هوجاء (مرت سفن الغزاة ولم تدم الحرب اليابانية ضد كوريا سوى ستة أعوام. وهكذا يمكننا أن نقول: إن اليابانيين استخدموا السيوف والرماح ضد بعضهم البعض وقد شكلتهم هذه الحروب المتصلة وغرزت فى أعماقهم تبجيل قيم رسخت فى نفوسهم فكانت اللغة اليابانية حتى عام ١٨٦٨ تحدد بمفرداتها وأفعالها بدقة موضع الفاعل والمفعول، على سبيل المثال: إن استخدام الفعل المساعد يدل على أن الفعل المعبر عنه بالفعل الأصلى مكتمل بفعل أدنى لصالح فعل أعلى والنتيجة.. كانت على هذه اليابان ذات النظام الصارم الشاذ المنقسمة طبقات ذات سيطرة دقيقة حازمة وبائسة معاً ومن هذه الأوضاع المزدوجة واجهة تعبر عن

عظمة البعض وروعتهم، وأخرى تعكس الفقر المطلق يعيش فيه آخرون وصدق فى ذلك بتعبيره الرائع طبيب اسمه «كامبفر» كان يعمل فى الشركة الهولندية (١٦٩٠) ولا يمكن لمن يقرأ كتابه أن ينسى الرحلات الصعبة وهذه الأنهار التى كان عليه المرور فوقها بطول معابرها العميقة تحميه حبال السفن لكبح جماح تيارات المياه المتدفقة وتوفير العبور المحفوف بالمخاطر وهذه القرى ومنازلها البائسة والفلاحون الراكعون فى حقولهم عند مسار المواكب الباذخة للسادة الإقطاعيين .. هذه الطرق التى يسلكها الكثيرون من كيوتو إلى ييدو حيث يقيم الشوجان وتعج بمواكب الدايميوس ممن فرض عليهم الانتظام فى زيارة الشوجان مع أتباعهم من حملة الطبر نوع من الرماح من الجنود وحملة البنادق ومن خدم يصاحبون فى ركاب السيد وفى طريقه إلى العاصمة، وكان يجب على هؤلاء الإقطاعيين الأثرياء أن يقطنوا فى قصورهم ويقيموا بمدينة ييدو ستة أشهر كل عام ذات الواجهات المعمارية الفنية إلى جوار قصر الأمير، وكان هؤلاء الإقطاعيون - بعامة - بمنزلة المساجين ولو كانت إقامتهم فى قصور باذخة فهم دائما موضع رقابة. وأسرهم رهائن، ويستحيل عليهم غالبا مجرد أفكار الهروب فلا يستطيع أحد منهم الإفلات إذا ما تقررت محاكمته فيلاحقهم المراجعون والمشرفون عليهم فى كل مكان حتى فى الطرق وفى المدن حيث يشكل كل شارع وحدة على الطراز الصينى مغلق من طرفيه بأبواب تغلق عند وقوع أى حدث من سرقة أو اختلاس، فيعتقل مرتكب الحدث فورا ولا يتأخر عقابه عادة فهو الإعدام. ويمارس الإشراف الدقيق القاسى على من يسمح لهم بالمرور مع بعض القيود بالبطبع. وبعد عام ١٦٣٩ أصبح الصينيون وكذلك الهولنديون الذين عرضوا بلا حياء مساهمة مدافع سفنهم لقمع انتفاضة اليابانيين المسيحيين عام ١٦٣٨ .

وكانت سفن شركة الهند الهولندية كلما جاءت إلى موانئ الجزر اليابانية وضعت فى الحجر الصحى فى جزيرة ديشيما، وفى ميناء ناجازا كى حيث تفحص بعناية شديدة البضائع والبحارة والوكلاء وكل موظفى الشركة وممتلكاتهم .. كل ذلك بما يعطى الانطباع بأن هناك نظام حكم مرتاباً حذراً بحيث يدلف المرء إلى بلاد زاخرة بالقلاع مزدحمة بجنود صاروا لكثرتهم معوقين أكثر مما نجده فى الغرب

حيث العدالة أكثر حزما، وأكثر مرونة، فكل مسافر هنا يشاهد ما يذكره بمشهد صلب المسيح؛ إذ ينكل بالأجساد، وتخضع للعذاب، وعلى مقربة من بعض التلال قرب كيوتوما أطلق على أحدها.. للتذكير والتحذير .. جبل الآذان المقطوعة.

وقد تطورت اليابان الإقطاعية على الصعيد الثقافى بل وعلى الصعيد الدينى كما كان فى كوريا والصين، وعرفت البلاد أنماطاً متعددة منها النزعة المتزمتة ومعناها السوسن حسن النية، وتنادى بأن اليابان هى بلد يودا الحقيقية وكذلك بلد الإله زين القادم كذلك من الصين، وسوف يكون منذ القرن الثانى عشر مأثرة الساموراى على حين تتأكد الكونفوشية الجديدة العقلانية بأنها العقيدة الملائمة لأتباعها من الشوجونات، وتصير هذه البوذية الخاصة العقيدة للجنود الدينية وهى بعيدة كل البعد عن معناها الأصلى: الأمل، دين المحبة، واللاعنف، وما كان هذا التحول إلا تعبيرا عن عصر.. وعن مجتمع وتجىء نصائح الآله زين فى أوصاف قصيرة جدا باسم الـ كوانز ذات الروحانيات والسلوكيات الأخلاقية الغريبة ذلك لأنها تبشر بالخلاص بأى ثمن للإنسان الذى لايعى، ولا يشعر الغريزى بالفطرة ويكون عادة نصف نائم: دع روحك وكن كالكرة فى خضم السيل الجارف المنقض من الجبل.. جهد غريب يكلف به الإنسان لحل هذه الغرائز وفكها ثم إيقاظها بعد ذلك ثم التواكل على انطلاقها.. تبدو لنا هذه اللهجة فى تفسير التعاليم كنوع من التأمل فى التحليل النفسى.

دون أية مركبات نقص ومثل: هل يبدو يصيح؟ إذا تسيرت فسر إذن.. تجلس كن جالسا.. خصوصا لا تتردد .. ونصيحة لا تتردد تكون حيال أى شىء وتصلح غالبا للجندى أزح عن طريقك كل المعوقات. فإذا ما تقابلت وأنت فى طريقك على الـ بودا.. اقتله وإذا تقابلت مع سلفك (جدك الأول) اقتله، وإذا تقابلت مع أبيك وأمك فاقتل أباك واقتل أمك، وإذا ما تقابلت مع قريبك فاقتل قريبك، كذا فقط تصل إلى خلاص نفسك.. هكذا وفقط تهرب من النيران وستصير حرا، ومما لاشك فيه أن هذا الكلام لا يؤخذ بحرفه قيودا السلف (جد الأب) والأهل هم رمز كل الواجبات الاجتماعية فى مجتمع ذى فروض مرهقة يجد الإنسان نفسه فيه منذ الطفولة فتاة أو فتى، فكل ولد يحوطه هذا القيد الحديدى من نزعات تعليمية لا

تهاون فيها.. وكل شيء حوله يجبره على اتباع أسلوب ينظم أسلوب تناوله الطعام وأسلوب التحدث وطريقة الجلوس، بل أسلوبه في النعاس حيث يضطر إلى اتباع قواعد اللا حركة والرأس موضوعة على وسادة صغيرة من خشب.. أى باختصار ألا يفقد السيطرة على روحه أو جسده بفضل حركات وسلوكيات تبحث عن إنجاح انعكاسات أكثر طبيعية مثل الحديقة المنمنمة، حيث تنمو النباتات والأشجار نموا طبيعيا ويبدو كأنما توجه كل التعاليم المخصصة للجنود ضد المحرمات والفروض لما يمكن أن نسميه نظام الأدب اليابانى، ولئن كانت الحياة كما فى كل مجتمع تؤثر المرونة فاليابان هى بلاد الشدة والحزم وبلاد المرونة والتساهل فى الوقت نفسه.. وما للآلهة زين إلا مقابل ضرورى.

اليابان الحديثة

استمرت القطيعة بين اليابان والعالم الخارجى أكثر من قرنين حتى الثورة التى فتحت عصر الميجى (١٨٦٨) الذى أعقبه تصنيع البلاد تصنيعا كبيراً يمثل ظاهرة مستقلة بذاتها.. إنها معجزة حيث أضفى التصنيع على الحضارة اليابانية أضواء ساطعة حيث لا يمكن تفسير نجاحها غير الطبيعى حسب تقديرات علماء الاقتصاد، وهى تقديرات ليست بغير جدوى، ولكنها وحدها لا تكفى للدلالة على أن سنوات التقوقع والانغلاق من عام ١٦٣٩ حتى ١٨٦٨ كانت حقبة حققت اليابان خلالها تقدماً كبيراً ملحوظاً منذ القرن الثامن عشر، فنرى ازدياداً فى عدد السكان إثر ازدياد إنتاجية الأرز وإدخال أنواع أخرى من المحاصيل واتساع المدن، وكان يعيش فى مدينة ييدو وحدها مليون نسمة ولم تكن هذه الزيادة السكانية ممكنة لولا زيادة الإنتاج الزراعى وخاصة الأرز ووفرته فى الأسواق دون إتاحة نوع من الوقود من الفحم النباتى وكميات كافية عند الحاجة.

وكان المجتمع نفسه متقبلا لهذا التطور بأكثر مما وقع فى المجتمع الصينى بكثافته السكانية حيث أجبر المجتمع الزراعى السادة على الاتجار فى كميات كبيرة من محصولهم من الأرز وجلبه إلى الأسواق والمساهمة فى منح القروض بتسهيلات أكثر مما كان معروفا من قبل منها نظام الصكوك كما لم يكن مسموحا

للسادة بالاتجار حتى لطائفة الساموراى، فصاروا أقرب إلى الهشيم أى لا حول لهم ولا قوة وهكذا تكونت طبقة من التجار تقرض النقود إلى الدانميوس ليقوموا هم بأعمال التجارة، يتسللون إلى أوساطهم وسرعان مايرتدون ملابسهم ويدخلون بناتهم وأولادهم فى محيط هذه الأسر الرفيعة ويصاهرونها، ويتخذون عاداتهم وكلها مظاهر مسرحية، مما كان يتيح للحكومة القيام بمصادرات مثمرة، وكان هؤلاء التجار بعامة يقضون حياتهم فى الظل وكانت أهميتهم خاصة فى مدينة أوزواكا مركز اليابان التجارى وقتئذ فى هذه المدينة عاش الـ نانتس كلهم سادة ورجال أعمال فى «حارات الزهور» وهى مواقع للترف فى المدن ذاتها حيث تقيم شراذم العاهرات من بنات الجيشا ذات الثقافات العالية وتولين الدور الذى كانت تتولاه نبيلات بلاط إيان فى كيوتو. وكانت أحداث حارات الزهور هذه من فضائح وحوادث انتحار أو قتل تلهب مشاعر الكتاب وتغذيهم لإبداع نوع من الأدب المسلى الساخر مما كان يقبل عليه أفراد الشعب قليل الثقافة، ذلك أن المثقفين الحقيقيين كانوا يفضلون هذا النوع من الثقافة العامة (الرخيص) مباهج عقيدة الكونفوشية وملذاتها. وكان هذا كله يكشف من قبل عام ١٨٦٨ عن حركة حياة منتعشة سادت مجتمع اليابان من طفرة اقتصادية أدت منذ القرن الثامن عشر إلى نشأة باكورة رأسمالية نشطة جاهزة للازدهار. وعند حلول القرن التاسع عشر ازداد نشاط هذه الرأسمالية النشطة ولم يكن عصر المبجى قادرا على تفسير تطوره دون أن ندرس آثار هذه التراكمات الرأسمالية وتجمعها وتدفقها فى شرايين المجتمع اليابانى ومرافق أحيائه مما أدى إلى عديد من التطورات وردود الأفعال، فقد أدت مظاهر الترف والثراء إلى خراب كثير من الدائيميوس، ويمتلئ اليابان رويداً رويداً بطوائف الساموراى دون قادة وطوائف الرونان والفرسان دون جذور أصيلة.. كان الوضع شبيها إلى حد ما بألمانيا القرن الخامس عشر وحق القبضة[١] .. وسرعان ما يتحقق الفوز لطبقة المجتمع المهمل من الثورة التى تندلع، ثم كان وصول الأسطول الأمريكى عام ١٨٥٣ بمنزلة الشرارة التى أشعلت النيران، وفى عام ١٨٦٨ عندما أمسك الإمبراطور ميتسو هيتو بالسلطة أطاح بنظام حكم

(١) لاشك يريد أن يصف الحالة بالضعف / الشلل العام.

إقطاعى قديم متهالك بطبقاته التقليدية.. أى لم يُسقط سوى زخرف لا قيمة له، ولم تكن حركة التصنيع ظاهرة أقتصادية فقط وإنما كانت تحولا اجتماعيا تدفع بها أو تعوقها المسارات الاقتصادية ولم تكن هناك فى حالة اليابان معوقات من جانب المجتمع. ومما هو جدير بالملاحظة أن التصنيع يهز أركان المجتمع عادة، ففى الغرب وفيما يختص بحركة التصنيع حدث وفق مفاهيم كارل ماركس أن بدأت الطبقات البروليتارية فى الثورة وبدأ صراع الطبقات ثم قيام الثورة العمالية الاشتراكية.

وكانت اليابان حالة فريدة إذ حققت ثورتها الصناعية وتكيفت من جديد مع الأنشطة التى تحدثها حركات التصنيع عادة فى أى مجتمع ولكن المجتمع اليابانى لم يهتز ولم تصاحبه ثورات أو إنقسامات إذا أمكن دمج هذا التحول الهائل فى ثقافة سائدة واتبع طريقا جديدا جديرا بالتفكير قد يكون للأسباب الآتية: فربما يتعلق الوضع بمجتمع منتظم مطيع احتفظ وحتى فى تجربة عام ١٨٦٨ بنزعات النظامية والطاعة القديمتين وكانت هذه المجتمعات المطيعة التى تحترم الموروثات السلفية قد ظلت تتقبل أن يكون الثراء والبذخ من نصيب البعض.. وكان قبولا يخلو من مجرد الهمهمة وتقبلت فى الوقت نفسه على غير دراية كبيرة أن الرأسمالية الحديثة إنما تنشأ من جذور إقطاعية، وهنا نتذكر هؤلاء الصناعيين الروس فى القرن الثامن عشر الذين كانوا قد استقروا فى منطقة الأورال بين عبيدهم وتمثلوا بالقول السائد [١] وهذه هى الصورة التى قدمتها المنظمات الصناعية اليابانية الكبيرة وحققت خلالها نجاح التصنيع وجنوا من ورائها الأرباح دون إثارة ردود أفعال من جانب العمال. وكانت فى اليابان خمس عشرة أسرة قبل حرب عام ١٩٤٢ تمثل ٨٠٪ من رؤوس أموال اليابان أصبحت تعرف اليوم بمسمياتها الكلاسيكية سايباتسو وهى من أشهرها: ميتسى وميتسوبيشى وسيميتوفودياسودا وأكثرهم ثراء الأسرة الإمبراطورية ... من بعيد وهذه العائلات من كبار رجال الأعمال: هى المماثل لما كان يسمى فى الماضى الدايميوس وفرق عمال هؤلاء هم عبيدهم أولئك ورؤساء العمال والمشرفون على الأعمال أى

(١) مثل لاتينى يعنى تغيير ما يجب تغييره

المهندسين أو من عسى أن نسميهم جموع الساموراى اليوم.. وتظل المنشآت ذات صيغة أسرية.. فريق من الإقطاعيات والأبوات الرحيمة (نوع من الأساليب الأسرية العائلية فى إدارة الأعمال) وفى هذا الوسط بدت المفاهيم والأفكار الشيوعية والمنشآت الخاصة غريبة دخيلة على المجتمع وأفكار أجنبية تستهدف التدمير .. تدمير الكودو وهو النهج والطريق الإمبراطورى فى المجتمع اليابانى. وبين جموع هذه المجتمعات المطيعة والماهرة الصابرة الراضية بأدنى الأجور، استطاع الحكام والمديرون بالأمس بل اليوم أن يحققوا ما يرغبون. وبهذا يمكن فهم معجزة ١٨٦٨ أو التغيير المفاجئ، فالشوجان يترك مكانه للإمبراطور أى طبقا للمبدأ السائد، يخلى موقعه لأكبر قوة تقليدية فى البلاد أو نتخيل الحبر الأعظم (البابا) أو بالتفسير الغربى يأخذ بين يديه الحكومة العلمانية التى تتحكم فى الناس وفى أحوالهم. وتتولى هذه القوة التقليدية اختيار الثورة وتلغى طبقة الإقطاع وتصدر المراسيم لإقامة الصناعات وتطلق الاستثمارات اللازمة وتنشئ بنفسها المصانع ثم تعمد بعد ذلك غالبا إلى التنازل لأشخاص أو منشآت خاصة تختارها بنفسها وهكذا نشأت المؤسسات وكأنما تتنازل عن إقطاعيات شاسعة، وفى الوقت نفسه تفرض على الطبقات الوطنية برنامج عمل جاد، وقد تحقق بالفعل ذلك أن ابن الشمس المبجل فى المعابد بفضل أصله وجذوره إلى أميراتسو إله الشمس وبعدها انتقل إلى كل خلفائه وسلالته المنحدرين منه (أبنائه).

وعلى أثر كارثة ١٩٤٥ باستلام اليابان بعد إلقاء القنابل الذرية فوق هيروشيما فى ٦ أغسطس ١٩٤٥ وفوق نجازاكى فى ٨ أغسطس وقع فى البلاد اليابانية انهيار لم يسبق له مثيل فقد ضاع منها الجنوب الشرقى الذى كانت قد فقدته مؤخرا، وأسوأ من ذلك انهار كل ما تحقق من إنجازات منذ بداية العصر.. عصر سلالة الميدچى ١٨٦٨ تلك الإنجازات التى جعلت من البلاد اليابانية ظاهرة شاذة فريدة فى الشرق الأقصى فى مطالع القرن العشرين. وكانت معجزة اليابان الثانية (منذ ١٩٤٥) وعلى غرار كل من ألمانيا وإيطاليا وفرنسا أن استطاعت إعادة بناء أسس انتعاشها من جديد ووصلت أندفاعاتها إلى مستوى تنمية لم يسبق تحقيقه من قبل كان بمنزلة إفاقة من الدواء.. إذ لم تعد اليابان هذه القوة العسكرية قبل عام

١٩٤٢ ولكنها أصبحت بإعجاز قوى اقتصادية رهيبة تتوقع الخطة الموضوعة للعشر سنوات ١٩٦١ - ١٩٧٠ فى نهاية أعوام الخطة مضاعفة الدخل القومى وارتفاع هائل فلو قدرنا الأساس افترضنا مائة عام ١٩٥٥ لكان الإنتاج الصناعى وانتاج المناجم للسنة المستهدفة ٦٤٨ وعلى المقياس نفسه تصل صناعة الصلب إلى ٢٩٦ وصناعة الآلات ٤٤٨ والصناعات الكيماوية ٣٤٤ وطبيعى فإن هذه التوقعات ليست مؤكدة إلا أنها ليست فى الوقت نفسه مبالغا فيها فالماضى القريب يؤكد امكانية تحقيقها.

فقد عرفت اليابان معدلا للنمو بمتوسط ٤٪ كل سنة من عام ١٩٤٦ حتى عام ١٩٥٦ وكان هذا المعدل ١٠,٦٪ (فى فرنسا ٤,٣٪) وكان عام ١٩٥٧ حتى عام ١٩٥٩ بمعدل ٩,٢٪ ويظل هذا المعدل من عام ١٩٥٩ وحتى عام ١٩٦٢ مرتفعا جدا وكلها معادلات تقارب فقط كلا من المانيا الغربية والاتحاد السوفييتى وتركز خطة الأعوام ١٩٦١ - ١٩٧٠ على ارتفاع متوسط قدره ٨,٣٪ وليست أسباب هذا التقدم والارتفاع أسبابا غامضة إذ تتمثل أكثرها فعالية لاشك فى تصريح سلطات الاحتلال الأمريكية لليابان بإعادة تأسيس التروست أى اتحاد الاحتكارات الذى يقع بين عدد من الشركات، وكانت تبدو فى البداية كمن لا أمل فيها فلم يكن ممكنا إعادة احتكار الزايباتسو التى عمد المحتل إلى جعلها كما كانت على الرغم من تدخل بعض المؤسسات الكبيرة ذات الشهرة الواسعة، ولكنها أنشأت مؤسسات تعد اليوم بحق من أهم مؤسسات العالم فقد ساعد وأنجح رأس المال اليابانى هذه المؤسسات وبارك تقدمها المتنامى غير المسبوق كما حدث تماما فى الولايات المتحدة الأمريكية من نجاح رأس مال ضخم بوحداته العديدة التى تفوق بحسن استخدام الأيدى العاملة ورأس المال على ما تستطيعه تلك الوحدات المتفرقة وكذلك ما ينجز فى محيط شبه أسرى وبأيدٍ عاملة زهيد أجرها، ومن جهة أخرى حيث لم يعد تمويل المؤسسات كما كان عام ١٩٤١ تمويلا ذاتيا فقد انطوى نجاح الصناعة على مساندة من بنك اليابان لإعداد نظام متكامل من مؤسسات مصرفية وشركات استثمار تتمتع بحرية وحركة أكثر مما هو فى فرنسا وكانت هذه

المؤسسات الكبيرة فى الواقع أكثر قدرة على اجتذاب رؤوس الأموال من صغار المودعين بطاقة الوسائل والدعايات على النمط الأمريكي.

وكانت النتيجة حركة مضاربات فى البورصة حتى بين أوساط الفلاحين الحذرين بطبعهم، فالكل بسبب الأرباح التى تتحقق مندفع إلى بورصة طوكيو عند الارتفاع المفاجئ فى الأسعار. ثم كان منذ يونيه ١٩٦١ حين بدأ فى البورصة «الانحسار» أن أعاد التعقل وعادت المدخرات إلى خزائن البنوك وخزائن التوفير، وهذا ما يفسر صعود الاستثمار صعودا عاليا لأكثر من ٢٠٪ من الإنفاق الوطنى عام ١٩٦٢ وصعود معدلات الفائدة التى تحصل عليها رؤوس الأموال الأجنبية خاصة الأمريكية منها وهى فوائد مثالية حتى الآن (وقتئذ) ذلك لأن اليابان لم تكن قد حررت بعد مبادلاتها فأرباح رؤوس الأموال المستثمرة لم يكن من السهل تحويلها إلى الخارج، وفى مواجهة الأحداث كتبت إحدى صحف سويسرا تقول: إذا ما استعرضنا الأوضاع فإننا نفضل اليابان عن جنوب أفريقيا حيث لازالت رؤوس أموال أوروبية كثيرة ترقد فى نعاس، ولاشك أن هذه البلاد اليابانية تمر بمرحلة تصاعد مستمر وتزدهر بأيد عاملة ذات مهارات تفوق المستوى المتوسط ولا يتميز حكامها بإيمان عجيب فى تحقيق النجاح فحسب بل بما لديهم من قدرات مدهشة كذلك، وبامتزاج رأس المال الأجنبى تحقق لليابان صعود ونمو عرفت بفضلهما أسعد أيامها.

فهل تدرك العناصر التى حركت هذا التصاعد وهذا التقدم؟ ذلك أن الأرقام فى اقتصاديات متحركة قائمة.. تشيخ بسرعة وتخون تقديرات المراقبين غير أن من المؤكد أن وفرة الأيدى العاملة (حتى الأشهر الأخيرة) كانت عونا ضخما إذ تقول الإحصائيات أن عدد سكان الأرخبيل بلغ ٩٤ مليون نسمة عام ١٩٦١ وارتفع إلى ١٠٤ ملايين عام ١٩٧٠ أى بمعدل مليون كل عام، وهذه الزيادة السكانية لا تقف عثرة فى مسار النمو الاقتصادى ماداموا يتوقعون، ونكرر يتوقعون تضاعف الدخل القومى فى ١٩٧٠ . ومن جهة أخرى فإن رقابة أعداد المواليد تتوقع انحساراً فى تزايد عدد السكان وبالإضافة إلى ما سبق فقد حدث عام ١٩٦٢ أن سوق العمل وفدت عليه طبقات متخلفة من الحرب الأخيرة تتخطى عروض العمل وبالذات

للأيدى المؤهلة الطلب، ولذلك لاحظنا مؤخراً ارتفاع مستويات الأجور بالنسبة إلى المهندسين والمدرسين، ومما لاشك فيه فإن مستويات الأجور ومستويات المعيشة تظل أقل كثيرا من مثيلاتها فى الغرب فى الولايات المتحدة الأمريكية . وعلى أى حال فإذا ما وضعنا فى اعتبارنا الفروق فى السلوك والعادات وكذلك فى الاحتياجات لوجدنا الأمور أبعد من أن توصف بالكارثة، فلازالت الأكواخ القذرة منتشرة حول أوزواكا وضواحى طوكيو حيث يزداد فى هذه المدينة الأخيرة عدد السكان سنويا بـ ٤٠٠ ألف نسمة منهم ٣٠٠ ألف من المهاجرين وإن كانت الحصة الغذائية ٢١٠٠ سعر فى المتوسط وتصل الموارد بالدولار إلى ٢٠٠ و٣٠٠ أى أربعة أمثال الهند مع تنمية عمليات صيد الأسماك الضخمة التى تضع اليابان على قمة دول المنطقة وحتى المحيط الأطلنطى ومياه الكاريبى (الإنتاج ٦ ملايين طن سنويا) ومع تحسن طرأ على إنتاجية الأرض الزراعية بحيث قررت الولايات المتحدة الأمريكية ونصحت بإلغاء وبيع كل ملكية تجاوزهكتارين ونصفا (ومع ذلك حققت الزراعة فى الأحواض الزجاجية (الصوبات) محصولا إضافيا مع إعداد نظام لزيادة محصول الأرز بعيدا عن آثار الأعاصير الصيفية ولاشك أن البدايات كانت متواضعة بطيئة، وأصبحت النتائج اليوم بما أمكن من تهيئة وإعداد جزيرة بيزو الواسعة وبجوها البارد مشجعة مثمرة، كما يساند السوق الداخلى الانطلاق الصناعى، ويلاحظ من المشروعات الجديدة ارتفاع مستوى المعيشة كغسالات الملابس وأجهزة الترانزستور والتليفزيون وآلات التصوير؛ إذ تعمد الشركات الكبرى ومصانعها أولاً إلى إغراق السوق الداخلى حيث بدأت الأنواع والأذواق تكثر، مما ينبئ عن تصاعد معدلات الاستهلاك فى اللحوم والأسماك والمخبوزات والحلوى على الطراز الغربى عن المحفوظات من المواد الغذائية والأدوية وخاصة المهدئات والمشروبات الكحولية من الأرز فى صورة الجعة وكذلك الشاى الأخضر وإنتاجية (٧٧ ألف طن كل عام) وكذلك الشاى المشابه لشاى جزيرة سيلان وقد بدأ التشبه بنماذج أوروبا فى محتويات المنازل الداخلية والملابس ومن المؤكد أن الإنسان اليابانى - كما وصفه صحفى سويسرى - إنسان ثنائى الحضارة، قادر على ارتداء الملابس على الطراز الغربى فى الشارع ثم

العودة فى المساء إلى عاداته وتقاليده اليابانية، وواضح أنه يزداد التصاقا وانجذابا نحو النماذج والأنماط الغربية ومع ذلك تظل المشاكل قائمة.. فليس كل شيء فى الاقتصاد اليابانى على ما يرام فهو معجزة فى الجهد والعمل الدؤوب بصبر وذكاء وله فى الوقت نفسه حدوده وهشاشته وعثراته وأخطاؤه وأخطاره، ويجب ألا ننسى أن الإصلاح الزراعى خلق جماعات من الملاك الصغار جدا وأصغرهم مكرس لخدمة الأكثر حظا وكلهم عاجزون عن أن يتجمعوا وخاصة ترك المكان للحرية فى إقامة زراعة عصرية وعلمية حديثة وكما نوه أحد الصحفيين فى تقرير له قال: كانت الإشتراكية هنا فقط تستطيع .. (كذا) ذلك أن كل التجارب والمحاولات الاشتراكية فى مجال الإصلاح الزراعى فشلت تماما فى كل الأزمنة وفى كل المواقع، وكلما أرادوها إصلاحات سريعة جذرية (حاسمة) أحدثت خيبة أمل وحققت فشلاً تاماً، ذلك أن الكيانات الزراعية هى أكثر الكيانات مقاومة فضلاً عن أن اليابان التى تعيش بعدد من السكان يقترب من ضعفى عدد سكان فرنسا على مساحة نصفها القابل للزراعة بمقدار ١٥ ٪ فقط مقابل ٨٤٪ عندنا فتكون اليابان بلادا ذات موارد طبيعية بائسة.

ولا تدور الصناعة بغير الصوف والقطن والفحم والحديد الخام ويستورد النفط، كما يحتاج العمل إلى شراء كميات ضخمة من الآلات والمعدات من الخارج وقد اتضحت المخاطر منذ سبتمبر ١٩٦١ حين ظهرت المؤشرات المزعجة بسبب خلل الميزان التجارى على الرغم مما أطلقته حكومة أكيدا من عوامل التفاؤل حتى أن التوازن لا يحدث على أقل تقدير إلا باحتساب تكاليف إقامة جيش الاحتلال الأمريكى، ومن ثم كان التسليم بضعف هذا التفاؤل المزعوم. والمشكلة بالنسبة لليابان المرتبطة بازدهارها الصناعى هو كيف تنتج وأكثر منه تبيع؟ ومن هذه الناحية فإن الحالة تظل وقتية وعابرة ذلك أنها تعيش ولا تستطيع العيش بغير المبادلات مع العالم الحر، وذلك رهن بازدهار هذا العالم الحر نفسه ورغبته وهذا فى حد ذاته مشكلة.. ولازلنا نتذكر اليابان قبل عام ١٩٣٩ وهى تمارس إغراق الأسواق دون تخطيط مدبر ثم حقيقة يابان صناعية قوية يشجعها تنافس الأسعار فى تحقيق إنتاجية بأدنى الأجور، ذلك ما دفع الغرب وخاصة فرنسا ـ الحريصة

جدا فى هذا الشأن - إلى سياسة من التحفظ والحذر أدت إليها ذلك البطء فى عقد الاتفاقيات التجارية المؤجلة باستمرار.. أدى ذلك إذن إلى إثارة قلق اليابان قلقا جعلها أبعد من أن يغريها «حيا نهرو» وما يتيح لها ذلك الاندماج عمقا فى الاقتصاد الصينى وبلاد جنوب شرق آسيا، ومن ناحية أخرى نجد الاشتراكيين والشيوعيين اليابانيين مضطرين اليوم إلى تدبر يوم ينتهى فيه الاحتلال الأمريكى من انتفاضات تهب بين أفراد المجتمع منها على سبيل المثال لا الحصر عودة الدستورية البرلمانية لعام ١٩٥١ وعدوة المنظمات النقابية وهى البطيئة التكوين فى هذا المجتمع الهادئ المطيع مادام كبار الرأسماليين يبدون تساهلا تجاهها. وكل هذه الاهتمامات المتناقضة شملتها انتخابات عام ١٩٦١ التى لم تتح سوى بعض النجاح المتواضع لأحرار الوسط أى لكبار رجال الأعمال الذين قاموا طبقا لتقديرات بعض المراقبين بصرف مبلغ يقارب خمسة مليارات ين (١٠٠ ين تساوى تقريبا فرنكا واحدا) كى يحافظوا على الفرصة الأخيرة وقطع الطريق على الإشتراكيين. إلا أن المشكلة يستحيل تجنبها طويلا ذلك أن موجة الازدهار هذه إنما تفرض جوا من التوتر المستمر كما تفرض جهودا وواجبات والتزامات فوق ما يحمتله البشر فمدينة مثل طوكيو (١٠ ملايين نسمة) تختنق بسكانها حيث لا تتسع لأكثر مما يتيحه ضيقها، وهى تحلم ببناء أحياء جديدة ورد جزء من خليجها وهو ما حققته مدينة أوزاكا كى تحتشد فوقها منشآت الصناعات الثقيلة إلى جوار «مستودع» الأيدى العاملة التى تحتاج إليها.. تفسر لنا تلك التفاصيل كيف يتعايش العرض المؤقت الزائل إلى جوار الفخم العظيم فى التجربة اليابانية، أما على المستوى السياسى وفى كلمة أشمل وأرحب فترتسم عادة عوامل التشكك والريبة من أن تصبح اليابان بين يوم وليلة وبمرسوم وقرار أمريكى إحدى الديمقراطيات البرلمانية حيث تشير بعض العلامات المعينة إلى هذا الاحتمال فتثير المخاوف منه سلفا.. لقد كانت حاضرة ماثلة تلك النزعة الأبوية لدى رجال الصناعة.. حاضرين فى حذر ويترقبون ذلك أن موجات العنف الوطنية بالأمس لم تكن قد انطفأت بعد فاليابان تزخر بأحزابها وعنف اليمين المتعصب المستند إلى مالها من ركائز تقليدية موروثات ولايزال أثرها فى نفوس جماهير الشعب وعقلياتها وهكذا

رأينا الإمبراطور الذى ركع خاضعا ذليلا أمام المنتصر.. يظل إمبراطورا بحيث يجازف من يجرؤ على مقاومته أو يحتج عليه أو على إقرار أسرته بأن يقتله واحد من الناس.. فيابان الأمس ويابان كل العصور تهب للدفاع عن نفسها وعن كيانها...

وفى يوم ١٢ نوفمبر ١٩٦٠ كان يتحدث أمام التليفزيون الزعيم الاشتراكى أنيجيرو آرما الملقب بميرابو [١] اليابانى وكان يحاول كشف زيف التحالف بين الولايات المتحدة واليابان بشأن الأمن ويصفه بآلة العنف الأمريكى «اليانكى» وكان يشاهد ويستمع إليه ملايين من الشعب اليابانى وسرعان ما رأوا أحد «تلاميذ المرحلة الثانوية وعمره ١٧ سنة يندفع ويسدد إليه طعنة قاتلة وذراعاه منعقدان مستندان إلى خنجره طبقا لتعاليم جودوكا حتى لا تنحرف الطعنة، ثم إذا به بعد عشرين يوما وهو قابع فى زنزانته سجينا.. ينتحر، وفجرت الجريمة والانتحار موجات من الانفعالات إذ لا يمكن لليابانيين أن يحرموا أنفسهم من إبداء إعجابهم بمن يعرف كيف يموت فى سبيل آرائه ولو أثارت الجريمة عليه مشاعر السخط أو الغيظ، وهذه الوقائع والأحداث وغيرها.. ألا ترى فيها وفى مثلها ردود أفعال ونتائج نابعة عن عقيدة دينية؟ فاليابان بمقاييسنا بلد دينى قليلا.. مشغول بما وراء تناقضات الهند.. فإن ما يتولى القيادة والتوجيه هنا إنما هى رموز المجتمع والثقافة والشرق، ولم لا نقولها رموز حضارته!!

---

(١) ميرابوخبير وخطيب الثورة الفرنسية ١٨٤٨ ـ ١٩١٧ وكاتب مسرحيات وأديب كان يثير الجماهير بخطبه

حاشية (١٩٦٦)

تعطى اليابان - أكثر فأكثر - الانطباع المعبر عن القوة المستردة أو التى عثر عليها وتتمتع بهذه القوة الذكية الواسعة إلا أن كل نجاح تتبعه توترات ولا يمكن لليابان الحفاظ على توسعاتها إلا إذا تأكدت من منافذ لمنطلقاتها وهى تزداد كل يوم إعجابا وانجذابا نحو سوق الصين الضخم القريب منها، وانجذابا نحو احتمالات اتفاقها مع الاتحاد السوفيتى ولو بإعادة بعض جزر الأرخبيل والتنازل له عنها فى جزر كوريل ومساهمتها فى تنمية إقليم سيبيريا الشرقية.. فهل تستطيع اليابان أن تؤمن بلادها إزاء جارتها الصين دون اللجوء إلى التسلح النووى، وكذلك تجاه الإتحاد السوفيتى؟ فقد أعلنت اليابان اعتراضها على كافة التفجيرات النووية وأبدت غضبها وعدم تحملها للغواصات النووية الأمريكية فى مياهها إلا بشروط معينة محددة حتى فى نطاق المعاهدة الصينية الأمريكية فى هذا الشأن. ثم إن تجربتها الكبرى المستمرة على الصعيدين السياسى والاجتماعى هى من النمط والنموذج الشمولى «الجماعى» وليس التحكمى المتسلط.

ومنذ أعلن رئيس الوزراء أيكيدا انسحابه لأسباب صحية فى ٢٥ أكتوبر ١٩٦٤ انتقلت أعباء هذه السياسة والتزاماتها لتقع على عاتق رئيس الوزراء الجديد ساتو منذ ٩ نوفمبر ١٩٦٤ وحزب الأحرار.

الجزء
الرابع

أوروبا

نبدأ مقدمين ببعض المعلومات التى نؤمن بفائدتها وإن كانت بديهية:

١ ـ أوروبا شبه جزيرة آسيوية هى رأس صغير من آسيا ومن ثم نجد تفسيراً للقول بأنها ثنائية النزعة: أ ـ كان اتصالها بالأمس بمساحة قارية وافرة نحو الشرق صعباً ثم أصبح سهلاً بفضل تطور السكك الحديدية واليوم بفضل الطيران.

ب ـ جعلها اتصالها من كافة الاتجاهات بالجهات ببحار الدنيا السبع أشبه بفن ورحلات سفن وقوافل وانتصارات تحقق كلها على مساحات المياه المالحة الشاسعة، ولم يخطئ بطرس الأكبر فى رحلته الأولى إلى أوروبا عام ١٦٩٧ فى قوله: سوف يعمل الإنسان فى مصانع السفن فى القرية المعجزة ساردام القريبة من أمستردام إذ تركت هذه النزعة البنائية منذ انتهاء أعوام القرن الخامس عشر وانفتاح أوروبا الغربية على بحار الدنيا مع بداية الاكتشافات الكبرى.

٢ ـ ثم تقع التعارضات بين الشرق والغرب أو بين الشمال والجنوب أو بين البحر المتوسط ويدعى كذلك البحر الداخلى الجنوبى ذو المياه الساخنة والبحار

---

(١) منطقة جنوب شرق آسيا بين الهند والصين وتشمل بورما وتايلاند وماليزيا وكامبوديا ولاوس وفيتنام الشمالية والجنوبية.

الشمالية الباردة بحر المانش وبحر الشمال وبحر البلطيق، انعكست كل هذه التعارضات والاختلافات ـ من أى نوع كانت ـ على الناس والأغذية والميول بل وعلى قدم الحضارة السائدة وقتئذ. كما كانت هنا خلجان لحضارات متميزة تربط الشمال بالجنوب منها الخليج الروسى والخليج الألمانى والخليج الفرنسى تضيق كلما اقتربنا من غرب أوروبا بشكل فريد يوحى لأى عالم جغرافى بطرق القمع.. ثم تنفتح بسعة نحو الشرق.

ثم إن كل الاختلافات والتناقضات بين الشرق والغرب أو الشمال والجنوب كما فى الجغرافيا إنما يرجع إلى أسباب تاريخية . فالغرب يتجه نحو روما والشرق يتجه نحو القسطنطينية، ويقع الانفصال الكبير فى القرن التاسع من عصرنا إثر النجاح الحاسم الذى حققه كل من القديس ميثود[1] (مبشر السلالة الصقلية ٨٢٥ ـ ٨٥٥ والقديس سيريل[2] وهما الشقيقان اللذان استطاعا تشكيل المستقبل الشرقى.. مستقبل العالم الأورثوذكسى. ثم وقع فيما بعد انفصال آخر بين الشمال والجنوب هذه المرة إثرمولد البروتستانتية التى يمكن أن نقول إنها مزقت المسيحية بصورة فضولية غريبة وبشكل يشبه بعض الشبه الليم الرومانى القديم.

مواقع الأراضى

والحريات

تحكم فى مصير أوروبا من أولها إلى آخرها التطور المتسمر للحريات الخاصة والصراحات التى تتميز بها بعض الجماعات المعنية فبعضها ضيق وبعضها فسيح وتتعارض هذه الحريات أحيانا كثيرة بل وتتباعد إحداها عن الأخرى.

---

(١) و(٢) قديسان بشرا بالإنجيل بين الشعوب السلافية.

الفصل الأول

ساحة الحريات

ساحة الحريات

تساعدنا الخريطة المرفقة فلا نعدد سرد مجموع الأحداث والغزوات وكل ما بدا بانقسام الإمبراطورية الرومانسية نصفين تحت الإمبراطور ثيودوسيوس.

١ ـ ومنحه كلا من ولديه نصفا، ومنذ ذلك التاريخ كان هناك دائما أو يكاد بحر متوسط شرقى كثيف السكان غنى ذو حضارة قديمة مزدهرة بصناعات، وغربى حسن إن لم يكن جاهلا أميا فظا حيث أقامت روما حدثا كانت تترك فيها أحيانا بعض ينابيع حضارتها أو الطابع المحرف لحضارتها ووقعت حين تم التقسيم عام ٣٩٥ سلسلة من الهزات الأرضية على الحدود الثلاثة التى تحيط بالجزء الغربى: فى الشمال الشرقى على امتداد نهر الراين ونهر الدانوب وجنوبا فى البحر المتوسط على حدود الأطلسية الطويلة من الدانيمرك حتى جبل طارق وكانت دائما هادئة، وكانت هذه الكوارث والأخطار هى التى حددت رقعة الأراضى الأوروبية وهى:

حدود نهر الراين والدانوب من الشمال الشرقى، ولم يستطع هذا القطاع مقاومة ضغط قبائل البربر الفارين أمام جحافل الهن عام ٤٠٥ وهجماتهم التى بلغت مشارف إيطاليا وانتهى بها المطاف حتى توسكان وكان بعد ذلك بزمن يسير فى ٣١ ديسمبر عام ٤٠٦ أن عبرت جماعات عن البربر نهر الراين المتجمد قرب مايينس واجتاحت بلاد الغال وهكذا أمكن اختراق الباب الذى لن يعاود انغلاقه إلا

بعد فشل قبائل الهن على ساحات قطلونيا عام ٤٥١ وأمكن بسرعة إعادة الأمور إلى نصابها السابق فاستعاد الغالبون أيام حكم الميروفنجيين بلادهم على حدود الراين وقام الكارولنجيون فيما بعد بمد حدودهم إلى أبعد من النهر بعد إخضاع كل أراضي جرمانيا لسلطانهم بل وامتدوا كذلك حتى مشارف هنغاريا بشعوبها من الآفار (شعوب من أواسط آسيا) ويتعزز ويتوطد هذا التقدم نحو الشرق بالتحول إلى المسيحية على يد البابا القديس بونيفاس وهكذا ينجح الغرب فيما سبق وفشلت فيه حكمة الإمبراطور الرومانى أغسطى والإمبراطور البيزنطى تيبير بوس الذى عجز عن وقف زحف الآفار القادمين من أواسط آسيا وتمكنوا من اجتياح البلقان وفى مواجهة الغرب الآسيوى تصدت ألمانيا منذ ذلك التاريخ لحماية العالم الغربى وكان أهم إنجازاتها: تمكنها من وقف زحف الفرسان الهنغاريين فى ميرسبورج عام ٩٣٣ ثم استطاعت بعد ذلك دحرهم فى معركة أوجسبرج عام ٩٥٥ وبذلك استحقت الإمبراطورية الرومانية المقدسة تدعيم بقائها عام ٩٦٢ حين أرادت دخول إمبراطورية الكارولنجيين التى أسسها شارلمان فى مولد العام ٨٠٠ ولم تعد الحدود الشرقية مهددة بل اكتسبت أراضى جديدة تجاه الشرق مع نشأة البلاد المسيحية: بولونياوهنغارياوبوهيميا مع تصاعد الاستعمار الجرمانى (القرن الثالث عشر) ثم تستقر الأمور فى هذه البقاع ويسود الهدوء حتى غزو قبائل المغول حوالى عام ١٤٢٠ والتمكن بمعجزة من وقف زحفها على حدود بولونيا والإدريانى وأصبحت روسياكييف هى الضحية الوحيدة.

وضحت فى اتجاه الجنوب خطورة الحدود الجنوبية منذ النجاح الذى حققته الغزوة الإسلامية، وعلى الأخص بسبب ما وقع من خيانات متتالية من بلاد شمال إفريقيا وكانت تؤمن حتى ذلك الحين بالمسيحية وكذا من شبه جيزو وأسبانيا وجزيرة صقلية. وبهذا صار غرب البحر المتوسط «بحيرة إسلامية»، ودعت الضرورة إلى تكوين فرقة فرسان يكتب لها النصر مع قائدها شارل مارتل(١) فى معركة، قرب مدينة بواتييه عام ٧٣٢ وبدأت تباشير النصر تهب على كل الأراضى إلى ما وراء نهر الراين حتى ساكس (منطقة ألمانيا الشرقية - شرق ألمانيا) حتى هنغاريا. وكانت تباشير قصيرة العمر. فمازال الإسلام هو الجار

القوى، وكان على المسيحية أن تشن حربا ضروسا دامية وتخدع مسوغها بأنها حرب مقدسة فإذا هى الحروب الصليبية التى استمرت زمنا طويلا وتندلع الحرب الصليبية الأولى عام ١٠٩٥ ولم تكن بالطبع أولى المعارك ضد الإسلام ولكنها أول حرب جماعية واعية وآخرها ولم تضع حدا للصراع. حملة القديس لويس فى تونس عام ١٢٧٠ حين استعاد المصريون مدينة عكا عام ١٢٩١ توقفت مسيرة هذه المغامرات الشرقية وإن ظل نداء الحرب الصليبية يؤرق النفوس والقلوب مع الانتفاضات ـ بالطبع ـ هنا وهناك حيث وقعت فى القرنين الخامس عشروالسادس عشر وقعت توابع الحروب الصليبية الانفرادية كما أطلق عليها المؤرخ الفونس ديبرون الذى تتبع حتى القرن التاسع عشر هذه النزعة الروحانية المستبدة التى ترويها القصص بما فيها من مغامرات استعمارية بالأمس. وقدنتساءل هل كلفت الحروب الصليبية العرب بين (أعوام ١٠٩٥ و ١٢٩١ أربعة ملايين من البشر أو خمسة كما توقعت إحصائيات حديثة أجريت مؤخرا بالقياس إلى بلاد أوروبية عدد سكانها إبان بداية يوم اندلاع هذه الحروب قرابة خمسين مليون نسمة، تلك إحصائيات غير دقيقة لا يجزم أحد بصحتها وعلى أية حال كانت الحروب الصليبية مأساة لأوروبا الوليدة، أما نجاحها الأول الباهر والمزدوج فكان استعادة غزو قبر السيد المسيح المبكر فورا، وأما النجاح الباهر النهائى فكان هذه المرة باستعادة السيطرة على البحر المتوسط حيث تتجلى وتنقل الثروات وأتمت هذه الحروب من ناحية أخرى تحديد المواقع الغربية لأراضى قارة أوروبا فوق الأطراف الجنوبية الأهم من كافة الحدود الأخرى حتى عصر الاكتشافات البحرية الكبرى فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر

٣ ـ فى مواجهة الغرب والشمال الغربى حتى البحر الأبيض المتوسط:

تأخرت ميول أوروبا البحرية باستثناء الأراضى المنخفضة (هولندا) أيرلندا وإيطاليا ولكن أصابتها مفاجأة الغزوات النورماندية من قبائل الشمال، ولئن كانت أخذت على غرة وأقلقتها تلك الغزوات، فقد حققت على المدى الطويل من هذه الغزوات بعضا من النجاح لم يكن متوقعا مع فوائد أخرى، وليس الأمر هنا الدفاع عن هذه الغزوات فهى أشبه بالقرصنة القاسية لاترحم، إذ عمدوا إلى ابتزاز أوروبا

كلها وجعلوها ـ بصورة وحشية ـ كرهينة تحت أيديهم ومع ذلك فكيف لا ننظر بعين الإكبار والإعجاب إلى جولاتهم عبر المساحات الشاسعة من الأراضى الروسية واكتشافهم القارة الأمريكية، وقال عنها هنرى بيرن لم تكن أوروبا فى حاجة إليها بعد، والمؤرخون الاقتصاديون أكثر تسامحا وتفهما تجاه قبائل الفايكنج (غزاة الشمال) أتاح ما سلبوا من كنوز كانت دفينة نائمة وخاصة كنوز الكنائس حركة تداول أنقذت أوربا من عزلتها الاقتصادية وانطوائها على نفسها، وهى الأزمات التى مرت بالغرب فى أعقاب سقوط روما: فقبائل الفايكنج ـ حتى بسرقاتهم هذه ـ كانوا هم الممولين الذين أتاحوا للاقتصاد الأوروبى انطلاقته

ويجب لكى نفهم أول حضارات أوروبا استرجاع هذه الكوارث التى حاقت بها وتخيل الليالى المدلهمة فى القرنين التاسع والعاشر وفقر قارة ناضلت وكافحت وكان ذلك كله لزاما عليها حتى تعيش... إذ كانت فى الواقع محرومة من الأسواق التى تنطلق فيها مكتفية باقتصاد ولا يكاد يقيم الأود... كانت كإحدى القلاع المحاصرة أو بالأحرى المحتلة تلك هى أوروبا البائسة التى لم تكن لتتحمل ثقل الدول الشاسعة فما تكاد تنشأ حتى تنهار أو تتفسخ فقد قامت إمبراطورية شارلمان بسرعة وانهارت إثر وفاة ذلك الإمبراطور الكبير عام ٨١٤ والإمبراطورية الرومانية المقدسة لم يطل بها الزمن طويلا حتى صارت منزلا خربا متهدما، وتنقسم أوروبا الغربية فى عديد من السيادات الإقطاعية بما عليها من رقيق الأرض فإذا الأمور تؤدى إلى نشأة إقطاعيات أقل حجما لا تعدو صورة نظرية تجريدية فى مختلف الممالك الغربية حيث يتحضر بعضها وإن وقع بطيئا كمملكة، أما الممالك الأخرى فقد ظلت على العكس جامدة جدا (متشبثة بالماضى القديم) كالرايخ، وعلى الرغم من ذلك فإن هذا العالم الأوروبى المتألم بما تعرض له من سوء المعاملة فى الداخل وتربص الأعداء به من الخارج ـ على أهمية الانقضاض عليه ـ فقد صارت لهذا العالم حضارة ذات تجانس واضح ويجب أن نذكر بعيدا عن انقساماته واختلافاته أن حضارته مع ذلك الزمان كانت كما قال لوسيان فيبفر تواجه مشاكل عديدة ذلك أنها حضارة نشأت من بين امتزاجات عرقية متعددة وامتزاجات اقتصادية متنوعة وصراعات متكررة ومعتقدات دينية مشتركة

وعصبيات واضطرابات حاولت جاهدة أن تجد لها العلاج وكان النظام الإقطاعى هو الذى بنى أوروبا فوصلت أوروبا فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر مرحلة شبابها الأول بمرحلة عنفوانها تحت تأثير نظامها الإقطاعى الحى أى بما اختصت به من نظامها السياسى والاجتماعى والاقتصادى المميز أصلى فى قوة ... حضارة كانت قد بلغت مرحلة الاختمار الثانية أو الثالثة. ولكن كيف توصف هذه الحضارة «متعددة الألوان».

(١)لم تكن فى أوروبا ولافى غيرها إقطاعيات لم يسبقها تفسخ وتحلل نظام سياسى عريض وفيما نحن بصدده الآن، فإن هذا النظام السياسى كانت تمثله إمبراطورية .. الكارولنجيين الكبرى ومن هذه الكارثة كان النظام الإقطاعى النتيجة الطبيعية، كهذا الضابط الفرنسى فى هزيمة يونية ١٩٤٠ كان يحلم لوأن كل وحدة من وحدات القاعدة تمكنت - ولو بمعجزة - من استرداد إرادتها الذاتية لحظة، أى حق التصرف بما تراه دونما اعتبار أو احترام للأوامر التى تربطها بقيادة بدأت تفقد فعاليتها فكانت دون أن تدرى تدفع كل مجموع نحو الارتداد والتقهقر والهزيمة ... وقد نشأ النظام الإقطاعى نتيجة رد فعل مماثل مع الفارق الأساسى بأنه لم ينشأ عن جراء كارثة عاجلة ككارثة عام ١٩٤٠ وكان لابد من مرور قرون وقرون حتى تستقر وجاءت طبيعتها على أى حال نتيجة لرد فعل دفاعى ورد فعل محلى حيث القصر الحصين على صفوة من قطعة أرض قرية، القرية أو القرى التى يحميها... لم تكن هذه الصورة نظاما مجانيا بلا مقابل كما لم يكن تعبيرا عن رفاهية، إنما كان أداة دفاع، ومع ذلك فإن النظام الإقطاعى شئ آخر مجتمع مشيد على أساس علاقات الإنسان بالإنسان وعلى سلسلة من التبعات، على اقتصاد ولم تكن الأرض هى وسيلته الوحيدة وإنما كانت الوسيلة الشائعة التى يسدد منها أثمان الخدمات، فقد حصل السيد من مليكه أو من سيد بعلوه مرتبة إقطاعية (أرض) تمثل سيادية على عاتقه (تفويض) أن يوفر له عديداً من الخدمات منها:

أ - سداد فدية السيد

ب - حفل تدرج الابن الأكبر إلى مرتبة فارس .

جـ عقد قران الابنة الكبرى

د ـ حين يسافر السيد إلى الحرب الصليبية وكانت أربع حالات عليه سداد تكاليفها، وبدوره تنازل السيد لسيد آخر أقل مرتبه أو الفلاحين ولهؤلاء تنازل عن أرض مقتطعة خاضعة لضريبة سنوية على كل فلاح فلاحتها وحرثها مقابل سداد إتاوةنقدية. والسيد لقاء ذلك مكلف بالدفاع عنهم وحمايتهم.

ومع هذا السهم الهرمى للطبقات الاجتماعية بالتزاماته وقواعده وفى مثل حشد القوى، هكذا كان الغرب حريصا على الاحتفاظ وصيانة ميراثا مسيحيا ورومانيا هدفا لتحقيق بقائه ومعيشته، وهو الميراث الذى امتزجت به مفاهيم وأيديولوجيات ومزايا النظام الإقطاعى السيادى، وحضارته المميزة، وعمليا فإن أوروبا التى نسيت آنذاك حتى اسمها بدأت تتشكل كعالم محوط بالحواجز... يحمل حسابا للمنطقة الصغيرة فقط للرقعة الضيقة!! وكانت هناك فى البداية لاشك حسنات كبرى فى بدايات الحياة الأوروبية حيث كانت هذه المناطق الصغيرة تتمتع بحرية النمو كما يحلولها كنبات حر طليق وسرعان ماشعرت كل بقعة بأن عليها أن تصبح كيانا منيعا قويا قادرا على الذود عن أرضه وعن استقلاله. والباعث على الدهشة أنه على الرغم من هذا التقوقع السياسى من علامات تضافرت لبعث حضارة ثقافية وزراعية وقد نوه بذلك الرحالة المسيحى القديس سان جاك دى كمبو ستيل فقال سوف يشعر المسافر المنتقل أنه فى بيته سواء كان فى مدينة لوبيك أو فى باريس أو فى لندن أو فى بروجز أو فى كولونيا أو ميلانو أو فينيسيا إذ القيم فى كل مكان والفضائل الروحية هى هى شأن القيم الدينية والثقافية وقواعد الحرب والحب والحياة والموت واحدة فى كل مكان من إقطاعية إلى أخرى مهما كانت صراعاتهم وثوراتهم ونزاعاتهم، لهذا تشعر مثلا بعقيدة مسيحية كما ذكر المؤرخ الفرنسى مارك بلوخ ١٨٨٦ ـ ١٩٤٤ بما قد نسميها حضارة الفروسية.

حضارة التروبادور شعراء غنائيون وشمال أسبانيا اشتهروا فى جنوب فرنسا أو اليروفير (شعراء وغنائيون اشتهروا فى شمال فرنسا) ... وأخيرا حضارة الحب العذرى... حب الغزل. وهكذا أثمرت الحروب الصليبية... أثمرت تلك الوحدة التى كانت بمنزلة تحركات شاملة، ومغامرات وانفعالات جماعية مشتركة لكل بلد من هذه الأوطان الصغيرة.

حرية أو أفضل الحريات فى القرن ١٨

لو اختبرنا الأحداث فى ذاكرة حديثة وسألناها أن تبرز لنا أهم أحداث مرت على أوروبا منذ القرن الخامس أو حتى الثامن عشر إلى يومنا هذا فسرعان ما تظهر لنا على الشاشة كلمة الحرية أو الحريات الأوروبية... ذلك أن كلمة الحرية هى مفتاح كافة الأحداث وقد احتار العالم االغربى بنفسه فى نضاله الأيديولوجى ولم يكن ينقصه من غاية النيات البعيدة ما حسن.. اختار أن يطلق عليه العالم الحر ويفض بلفظ الحرية كافة أشكالها وعلينا أن نتفق على ذلك حتى فى الشكل التعسفى الطاغى المغاير للمشروعية والعدل، ولم تتوان هذه الأنواع من الحريات عن التصارع فيما بينها وتهديد إحداها الأخرى فهى تتصدى لتجديد نطاق أو إلغاء آخرثم تواجه مع خصم ثالث وهكذا... وعموما كان هذا التوالى الذى لم يكن أبدا هادئا ولاسيما أحد أمراء نجاح القارة الأوروبية وتطورها وارتقائها لما يجب أن نحدد أن ما نقصده بلفظ الحرية ليس الحرية الفردية (معيار قياس العالم الحر اليوم) وبالتالى حرية الجماعات، ومما له دلالته ولاشك هو أن العصور الوسطى تحدثت عن المتحرزين وجمعها ليبرتاس والكلمة لاتميز بين المزايا أوجوراً ذلك أن الحرية فى الحقيقة إنما تعنى مجموعة الحصانات وكذا المزايا التى تحتمى وراءها جماعات من الناس أو المصالح فما إن تشعر بقوتها بفضل هذا الاحتماء حتى

تنقض على الآخرين بلا حياء، وكانت هذه الحريات الجماعية بطيئة فى مجموعها وظلت بطيئة فيما بعد حين أريد إعادتها إلى حدود معقولة... أو نشأت محاولات لكسرها، عموما كان لديها بعامة حياة صعبة قاسية وكان تحرير الفلاحين أول ما أتعب هذه البلاد وآخر ما أنجزته وقد نقول: إنه لم يكتمل حتى اليوم تحرير الفلاح بصورة تامة ونهائية فلا حرية بالمعنى المفهوم إلا إذا انتفت أية ملكية خارجية بين الفلاح وأرضه، ملكية سيادية إقطاعية أو مدنية أو رأسمالية... المهم ألا يحس الفلاح بأى تبعية تثقل كاهله، وأخيرا أن تقيم أرضه - بإنتاجها - أوده، وتوفير غذاءه ومن يعول.

وأن توفر له ما يعينه إذا قصد السوق المجاورة على شراء ما يلزمه واقتنائه على الأقل. ذلك بعض ما عاناه الفلاح فى أوروبا خلال مسيرة طويلة فى الماضى وما يتمتع به من حرية نسبية تفضل مصير فلاح آخر أكثرخضوعا منه بكل تأكيد... ويجب بالمناسبة أن نعرف أن كل وثبة اقتصادية كانت تجلب للفلاح الخير، وبذلك ارتفعت الإنتاجية الزراعية فى كل مكان حين كانت اليقظة الاقتصادية فى أوروبا منذ القرن العاشر أو قبله بقليل سواء فى مناطق الشمال الجديدة حيث تنتشر الأراضى الجرمانية وأراضى بولونيا وأراضى التناوب الزراعى كل ثلاث سنوات وكذلك أراضى المناطق النوبية إيطاليا وفرنسا الجنوبية حيث تكثر الزراعة التناوبية كل عامين وهو ما يطلق عليه استراحة الأراضى لإنتاج الحبوب.

وارتبط ارتفاع الإنتاج الزراعى بارتفاع فى المعدل الديمغرافى للسكان وظهور المدن، وكانت عبودية الفلاح بالأرض قد بدأت تخف حدتها وبدأ مصيره يتحرر من القيود التى كان يرزخ تحتها بعد أن كان من رقيق الأرض وبعد تطوره من حامل للسيف إلى رجل تابع للكنيسة ثم إلى رجل ممسك بالمحراث.... وهنا وقعت المفاجأة فقد وقع «إهمال للأرض إذ تخلى عنها مقابل مبلغ نقدى سنوى زهيد يدفع للمالك القديم.. وقع ذلك والأراضى الزراعية يومئذ وفيرة والزارع نادر... أى حين ظهرت الحاجة إلى اليد العاملة والحاجة إلى إنسان أكثر من الحاجة للأرض ولاشك كانت هناك أراضى شاسعة (ليست كلها) لم تتحقق فيها

حرية الفلاح بتعبير المؤرخ هنرى بيرين متحدثا باسم الفلاح فى الغرب فى القرن الثانى عشر.

لم تكن تلك الحرب ولا كان هذا التحرر كاملا ولا عاما أو نهائيا بعامة، فقد كان ثمة اتجاه ينادى بترك الأرض للفلاح يكون سيدا عليها، وتحديد قيمةالضريبة مسبقا وتضاءلت على مر السنين حتى صارت تدعو للسخرية. ومع ذلك فلم يكن الوضع مشكلة امتيازات منحت إذ لم تحظ باستقرار عليها بعد، ولم يعدم ملاك الأراضى بنوع من الحقوق يمكنهم من استعادة سلطانهم الجائر المتعسف وقد قرأنا عن عصيان الفلاحين وانتفاضتهم فى فرنسا عام ١٣٥٨ وثورة عمال إنجلترا وفلاحيها عام ١٣٨١ والثورة المفاجئة العنيفة من جانب فلاحى ألمانيا عام ١٥٢٥ ـ ١٥٢٥ ثم تارة أخرى فى فرنسا وقد أمكنت السيطرة على هذه السلسلة من الانتفاضات والثورات والعصيان والاضطرابات من الفلاحين خلال النصف الأول من القرن السابع عشر ومع ذلك فقد ظلت آثارها بما كانت تمثله من تهديدات ساعدت الفلاحين كثيرا فى الحفاظ على شيء مما كانوا حققوا من حريات ومزايا ثم عادت معارضة تلك الحريات ومقاومتها ـ عبر بلاد أوروبا ـ مع الانطلاقة الاقتصادية والرأسمالية للعالم العصرى الحديث النشأة منذ القرن السادس عشر خاصة مع بداية القرن السابع عشر، فلما بدأ الانحسار الاقتصادى تحول الرأسماليون إلى الأرض الزراعية ليتحكموا فيها، و بدأوا يحاصرون الأراضى الزراعية السادة البورجوازيون والمدن صغيرها وكبيرها وعمد جموع الملاك إلى غارة على الأراضى الزراعية وتظهر ملكيات جديدة وأراض مستأجره، كهيئة مزارع ومستودعات للغلال تختلف أسماؤها حسب المناطق وتندمج ملكيات شاسعة فى منطقة واحدة، وكل ذلك كان إضرارا بالفلاح فظهرت نزعة رأسمالية تسود ملاك جل اهتماماتهم تحقيق الأرباح وزيادة غلة الأراضى وبدأ الفلاحون يلجأون للمقرضين حتى يحل يوم يرى فيه الفلاح أرضه المرهونة تباع سداداً لديون تراكمت عليه، أو تترك له على الأقل بعد فرض الإتاوات الباهظة عليها لصالح الثرى، وهكذا بدأ تراكم الديون يتسع ورقعة أراضى الأكارة تزداد (إيجار الأراضى الزراعية) وازدحمت سجلات الأراضى الزراعية بكل معوقات العمل... وكل ما

من شأنه حرمان الفلاح من جهده وكده فى الأرض وبيع محاصيل الأرض من قمح وغيره ويظل عليه سداد التأمين نقدا، وعمت هذه الكوارث كل أنحاء القارة الأوروبية وكان أكثرها أسى فى أوروبا الوسطى وأوروبا الشرقية وفى ألمانيا فيما وراء الألب وفى بولندا وبوهيميا والنمسا بل وفى البلقان وفى موسكو وكان أواخر القرن السادس عشر تتسع رقعة أراضى العبودية (الرق الأرضى- العبودية) كما أطلق المؤرخون على هذه العصور (مرحلة الرق الثانية)، أن وقع الفلاح بين أنياب رق أكثر شراسة حيث أعطى المالك نفسه وظيفة المالك أولا ثم التاجر بائع الغلال ولتوفير ما يكفى لتلبية ما تنهال عليه من طلبات فكان يجبر الفلاح على مضاعفة جهوده فصارت حياته أقرب إلى السخرة التى استمرت كذلك فى الشرق حتى القرن التاسع عشر وكان ذلك علة التأخر النسبى لتلك المناطق مقارنة بغرب أوروبا حيث بدأ عهد أكثر تحرراً لصالح المزارعين ابتداء من القرن الثامن عشر،ففى فرنسا ظهر القانون الذى عجل بكل شئ حتى اندلعت الثورة الفرنسية وحررت الأرض بجرة قلم «أرض الفلاحين» من الإتاوات التى فرضت عليها أيام النظام الإقطاعى فى نموذج انتشر خلال حروب الثورة وحروب نابليون أما حريات المدن التى كانت تتمتع دائما بالقيادة والإشراف على الحركة وتوجيهها ومنذ الانطلاقة الأوروبية الأولى كان سكان المدن يتحملون عبء إدارة الأمور وحدهم فاستفادوامن ذلك بتحقيق حرياتهم، وتسبب انحسار الغرب مع بداية القرن العاشر فى تدهور للمدن مخيف حيث بدأ نشوؤها فلما أن بدأ المد يحول من اتجاهه الاقتصادى بالتصاعد المادى فى القرنين الحادى عشر والثالث عشر عاد للمدن ازدهارها السريع بما فاق الأقاليم الشاسعة التى لم تلحقها النزعة العصرية إلا فى القرن الخامس عشر وبدأ دخول المدن فى إطار العصريات الحديثة... بدأت تشكل ملامح المستقبل بل كانت هى ذاتها المستقبل... وبالطبع لم تتمتع كلها باستقلالها ومع ذلك فقد ظهرت- مبكراً- مدن عظيم شأنها فى إيطاليا التى سبقت غيرها من بلاد القارة الأوروبية وسرعان ما انتشرت الموجة فى الغرب كله حتى فى بلاد الأراضى المنخفضة وهى ترى وتسمع عن إيطاليا الثانية فينيسيا وجنوا وميلانو وفلورنسا وجاندوبر وجس وكلها مدن عصرية حديثة على حين كانت المدن فى

بلاد الملك القديس لويس (فرنسا) تعيش فى القرون الوسطى من وراء هذه المدن التى حكمها الدوقات أو القناصل. بدأت مدن كثيرة أقل أهمية ودرجة تطالب باستقلالها وحصلت بعد صراعات كثيرة على حق إدارة شئونها بنفسها والسهر على اقتصادياتها وإقامة العدل بين سكانها وفى الأراضى التى تمتلكها. وبصفة عامة فكانت الحرية التامة بعامة مكافأة كل ازدهار مادى أتاح هو وحده للمدن الثرية حق الدفاع عن أراضيها وذلك إلى جانب تمتعها باقتصادياتها وكان يطلق على هذه المدن اسم المدن «الدولة» وإن لم تظفر به سوى قلة من المدن بهذه الدرجة أما المدن الأخرى فكانت تستمد كيانها من التجارة ومن عديد من مهن وحرف كانت تعمل لصالح السوق المحلى والتجارة البعيدة أى الخارجية ولم يزدهر اقتصاد المدن - ولاشك - إلا حين فاض عن احتياجات السوق المحلى وفى بداية القرن الخامس عشر، وفى مدينة لوبيك ازدهرت المنشأة التجارية الملقبة بـ الهانز ومجموعة المدن التجارية الموزعة فيما بين البلطيق ونهر الراين وكانت لها علاقاتها واتصالاتها وقتئذ مع بلاد العالم المعروفة، وقد ينطبق القول - نفس الكلام - على مدن لـ فينيسيا (البندقية) أو جنوا أوفلورنسا أوبرشلونة وبدأت عناصر أولى الرأسماليات تتجمع من التجارة البعيدة (مع الخارج) وبدأ عصر التجار الوسطاء ممن يوردون المواد الأولية ويبيعون المنتجات الصناعية، وصار رؤساء الأعمال الحرفية مع تقدم الوقت أجراء وكذلك صار رفاقهم وهكذا بدا أن التجار هم المهيمنون أى الناس السمان أما صغار أفراد الشعب الرقيق كانوا يثورون من وقت إلى آخر بلا جدوى، كما كان مثلا فى مدينة جاند أو فى فلورنسا أو فى كيومبين حيث اندلعت ثورة عنيفة عام ١٣٨١ وخاصة ثورة صناع الفلاندر الحرفيين (منطقة بين فرنسا وبليجكا) وتشبه ما نطلق عليه اليوم الاضرابات طلبا لرفع أجورهم وهى باكورة لثورات المدن الصناعية، كما اندلعت كذلك المعارضات فيما بين رؤساء الحزب ورفاقهم ينحون جانبا لايهتم بهم أحد بحكم تكلفة الممتازين وأجورهم من رؤسائهم ممن بيدهم وحدهم ترقيتهم. فعمدوا إلى التجمع فى منظمات وجماعات ومحافل تتجول بين المدن ... كانوا بمنزلة طلائع البروليتاريات العمالية وظلت الأوضاع كما هى فى عصر المدن المستقلة أو شبه

المستقلة، ترى هل حدثت نموذجية مشابهة كما تساءل ماكس ديبرت لمدن العصور الوسطى الأوروبية لم تكن هذه المدن المقفلة كما وصفها فى الواقع لتتقبل بسهولة ما يأتيها من وراء حدود أسوارها إذاكانت الثورات المجاورة تقمع غالبا بسهولة فالفلاح الذى لم يكن مواطنا مضطر إلى بيع حبوبه لمستودعات المدينة دون السماح له بممارسة حرفةأخرى إلا لضرورة تحتاج إليها المدينة، كان هذا الوضع يقينا مغايرا لما كان يجرى فى أثينا القديمة . تمتع الفلاح بالمواطنة شأن ساكن المدينة، فلا مجال للدهشة من القول أن الفلاح الأوروبى فى تلك الأزمنة حرم لقب المواطنة التى لم يكن يكتسبها إلا بشق الأنفس ولا تمنح إلا بشح شديد ما لم تشعر المدينة بحاجتها الماسة إلى زيادة السكان فيها. وهكذا عام ١٣٤٥ وهكذا قررت فينيسيا عشية تفشى الوباء الأسود (الطاعون)عام ١٣٤٥ الاعتراف مسبقا بحق المواطنة لمن يرغب الإقامة فيها، ولم تكن روح الأسياد الإقطاعيين عادة منصفة إذ كان ثمة نوعان من المواطنة يقال للأولى لم تكن لتنشئ حقا للمواطنة كاملا بل من الدرجة الثانية وهو حق تافه تحت رقابة مشددة من قبل أسيادهم وهمهم الأول المحافظة على امتيازاتهم، فقد كان الأمر يستوجب الإقامة خمسة عشر عاما فى مدينة فينيسيا (البندقية) للفوز بحق المواطنة من الدرجة الثانية وعشرون عاما للفوز بحق المواطنة التامة بل وصل الأمر إلى التمييز بين مواطن قديم ومواطن جديد وظهر قانون عام ١٣٨٦ يحدد حق التفاوض والتعامل مع التجار الألمان المقيمين فى فينيسيا اقتصر فقط على قدامى المواطنين. وظلت المدنية بأنانيتها اليقظة والغاشمة على استعداد أحيانا للدفاع بكل شجاعة عن حرياتها إذا اقتضى الأمر.. لا تأبه بحريات الآخرين. ثم إن صراعات المدن التى تميزت بالشراسة كانت إيذاناً باقتراب الصراعات الوطنية.... صراعات القرون القادمة فتواجه المدن التهديدات عند بزوغ الدول العصرية، وكان بزوغها شيئا ما بطيئا ثم طفقت تتكاثر مع القرن الخامس عشر وتدهور نفوذ المدن حيال سلطة الدولة التى كانت تمنح الامتيازات وتوقع العقوبات الاقتصادية وغيرها ومن ثم نشأت الأزمات الحادة فى كاستيل عام ١٥٢١ من جانب الكومينيداد حين أخضع شارل كان (ملك أسبانيا) وقهر جان (بلجيكا) عام ١٥٤٠ ثم تلتها اتفاقيات تراض

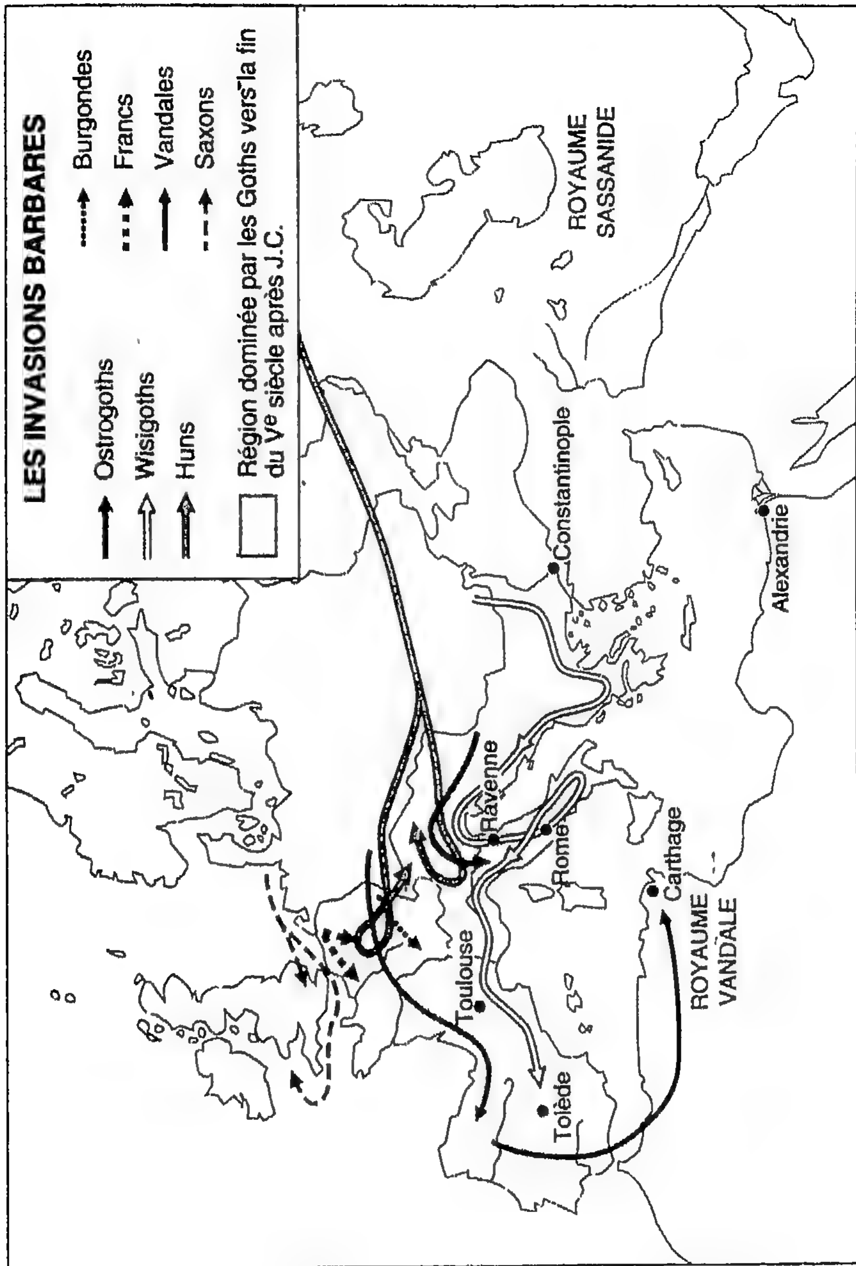
حتمية حيث لم تكن الملكية العصرية مثيرة إلابمساهمات المدن فكان عليها التخلى عن نوع معين من امتيازاتها للاحتفاظ بالأخرى وفى مقابل تخليها عن حرياتها (استقلالياتها) تفتح لهم الأراضى الحديثة فى الدولة يقيمون فيها مع منحهم قروضا مجزية وبدأت تنمو وتزدهر اقتصاديات الدول وتحل محل اقتصاديات المدن... إلا أن اقتصاد الدولة ظل يتجه وجهة رغبات المدن السابقة فظلت العصرية فى هذه المدن إلى جوار الدولة تسير الأمور، ولم تتضح معالم الدول العصرية المسيطرة على كافة أراضيها إلا فى تأخر فقد ظلت الملكية القديمة التى تأصلت على رباط الدم والعلاقات بين الإقطاعيات السيادية حقبة طويلة قبل أن تختفى أو قبل أن تتبدل أشكالها على الأقل وجاءت نقطة التحول منذ القرن الخامس عشر حينما ظلت ثورة المدن لا تتسع فلا إيطاليا ولا هولندا بل ولا ألمانيا التى عرفت مدنا حرة مستقلة نشيطة ثرية فكلها لم يكن أرضا لنوع الحكومة الجديدة إذ كانت الملكية العصرية تنمو وتزدهر أولا فى أسبانيا وفرنسا وفى إنجلترا وعلى قمتها ملوك من نموذج جديد منهم جان الثانى وأراجون أبو فرد يناند (الكاثوليكى) ولويس الحادى عشر وهنرى السابع فى لانكاستر بإنجلترا وفى خدمة الدول هذه دول الأراضى الواسعة التحق عدد من كبار الموظفين أو الضباط، وهكذا ظهرت مجموعة القانونيين ممن درسوا القانون الرومانى وكبار الخدم (الوزراء) حيث لعب التوقير واحترام جموع الشعب لصالح هذه الدول مالكة الأراضى دورا فى توطيد أركانها إذ كانت ترى الملك حاميها الطبيعى ضد الكنيسة والنبلاء واستندت الملكية فى فرنسا حتى القرن الثانى عشر على «التفانى الشعبى» على دين محبة ويواجه هذا النموذج من الدول العصرية الجديدة ضرورات قهرية من جراء الحروب والمدفعية والأساطيل التى تحتاج إليها المعارك ومستلزماتها الباهظة فالحرب هى أم كل شئ وهى التى صنعت العصرية الحديثة .

ولم تكن الدولة الحديثة تعترف بأية سلطة تعلو سلطتها بل ولا سلطة الأباطرة أو البابوية بما كان لها بالأمس من تأثير معنوى أخلاقى واسع فضلا عن تأثيرها السياسى فلقد كانت تتطلع إلى رؤية كل دولة نفسها «حرة» ولا رقيب ولا حسيب وبدأنا نسمع مقولة للمصلحة العامة الرسالة التى وجهها الكاردينال ديلاكازا إلى

شارل كان بسبب حادث مؤسف خسيس وقع عام ١٥٥٢ الاستيلاء على مانتو (مدينة فى إيطاليا) وكانت تمثل علامة على التطور الذى نشأ عن انتقال السلطة فى البلاد الغربية المتصوفة من الملكية التقليدية الأبوية الزاهدة إلى النظام الملكى العصرى الجديد الذى يسيطر عليه فقهاء القانون وفى فرنسا دافع جان بودان فى أطروحة الجمهورية عام ١٥٧٧ عن سيادة الدولة بدون قسمة أو تجزئة... فلفظ رميوبليك فى اللغة اللاتينية يعنى العام «الجمهور» فالدولة ذات السيادة فوق القوانين المدنية ولا تخضع إلا للقوانين الطبيعية والإلهية فليس فى المملكة السيادية رجال يعلون عليها إلا أن البابا لايستطيع الاكتفاء بالمشاهدة ومن ثم رأينا فى ختام المراسم والأوامر التى تصدر لأسباب حيوية لا تصدر إلا عن إرادته السليمة الصادقة وتحتاج الدولة إلى هذه «الإرادة» و «الأنا» تصير الدولة كما كتب مؤرخ ألمانى قائلا: إنها العبارة المشهورة التى التصقت بالملك لويس الرابع عشر «أنا الدولة» كما التصقت مرة على الأقل بإليزابيث ملكه إنجلترا وعموما فإن تلك النقمة الجديدة أصبحت ـ منهجيا ـ أمرا طبيعيا مسلما به وكلما ازداد استقرار الدولة العصرية الحديثة بدأ نفوذها ينتشر على حضارة أوروبا التى كانت حتى اليوم ثمرة جهود المدن الكبرى حيث نضجت فى ربوع عديد من تلك المدن المميزة الأصلية وتصير أراضى وطنية ومن خلال هذه الحضارات التى بدأ نطاقها يتسع تأكد دور العواصم بفضل ما كانت تنفقه الدولة عليها وفيها، وهكذا برزت المدن الممتازه كباريس ومدريد وكذلك لندن وأصبح ثقل حياة الدولة يدور حول ضوارى المدن الحضرية بدون منازع، إنما هى آلات تصنع الحضارة الجديدة وتزرع بؤس الناس. ولنتخيل حركة الناس الهائلة ورؤوس الأموال والثروات والانتقالات بعيدة المدى التى تلحق بجغرافيةالحريات إذا تحطم بعضها أو استسلم على الأقل فقد صارت مفضلة أثيرة أو لعلها شيدت لأغراض معينة حتى بتنا نسمع عن مدن مثل مارسيليا التى أستأثرت بتجارة الشرق وميناء لورينت تحتكر تجارة الهند... احتكارا بسيطا إلى جانب احتكار مدينة سيفيل (لعلها صقلية) التى احتكرت التجارة مع أمريكا منذ عام ١٥٠٣ حتى عام ١٦٨٥وفى هذا التاريخ انتقلت الميزة إلى مدينة كاديكس كما كانت هناك كذلك بعض الحريات التى انتزعت من الدولة

التى لم يقصر باعها عن الأنشطة وكذلك كان فى فرنسا الدولة المؤيدة للاستبداد بموت كولبرت عام ١٦٨٣ (وكان رجل دولة فرنسياً له أنشطة متعددة) وبموته فقدت الثورة فعاليتها وبدأت مشاعر الحريات «الإقليمية» تعارض الملك ذلك أن الامتيازات الاجتماعية كانت كأنما نقشت فى وجدان الدولة الفرنسية وكيانها: امتيازات رجال الدين من رجال الأكليروس والنبلاء ولم تتمكن الدولة من التخلص منهم فكان بسببهم إخفاقها فى اللحاق بالإصلاحات المستنيرة فى القرن الثامن عشر. حتى البلاد التى اختارت طريق الحريات السياسية فقد اضطرت إلى وضع مسئوليات الدولة بين أيدى جماعة من أصحاب النفوذ المتمتعين بمزايا معينة مثل حالة المقاطعات المتحدة لما يجتمعون عليه من بورجوازية الأعمال وحالة إنجلترا عشية ثورة ١٦٨٨ إذ يمثل برلمانها ازدواجية ارستقراطية من جماعة حرب الأحرار الويج وجماعة حزب المحافظين التوى وهم بورجوازية ونبلاء بكل تأكيد أما بقية الشعب فلا... ترى وسط كل هذه التكدسات من الحريات المميزة ما مصير الحرية الفردية؟ ذلك سؤال لا يعنى شيئا إذا ماطرح فيما هو اليوم إطار حرية الإنسان من حيث هو إنسان لأنه فقط إنسان، فإن الأمر يقتضى زمنا طويلا قبل الاستقرار معنى محدد للفظ الحرية وقد يمكننا أن نتساءل على الأقل عن حرية الفرد هل تتقدم أم لا؟ والرد فى هذا الوضع لاشك متناقض متشائم فإن مفهوم الحرية الفردية فى الحركة الثقافية لعصر النهضة أو عصر الإصلاح أن

تنطلق منها حرية لإرادة حيث تؤكد النهضة والمبدأ الإنسانى احترام الإنسان وعظمته من حيث هو فرد يقوم عليهما بذكائه وقدراته الشخصية حيث لا تعنى الفضيلة إلا المجد والعزة والإقدام والقدرة المثالية فى القرن السابع عشر مع الفيلسوف ديكارت (الذى قال أنا أفكر إذن أنا موجود) وبذلك ظهرت نظرية الفرد المفكر. وتزاملت مع هذه التطورات الهامة الفلسفية التى منحت للفرد انطلاقة القيم التقليدية وكانت اقتصاديات السوق فى القرنين السادس عشر السابع عشر قد انتعشت انتعاشا له أثره نتيجة ورود المعادن النفيسة من أمريكا وامتداد نظام الائتمان حيث بدأ المال يزاحم ويعدل مسار المنظمات الاقتصادية السابقة التى كانت سائدة فى المدن الحضرية فبدأت تفقد صلابتها المعهودة مع جزء من

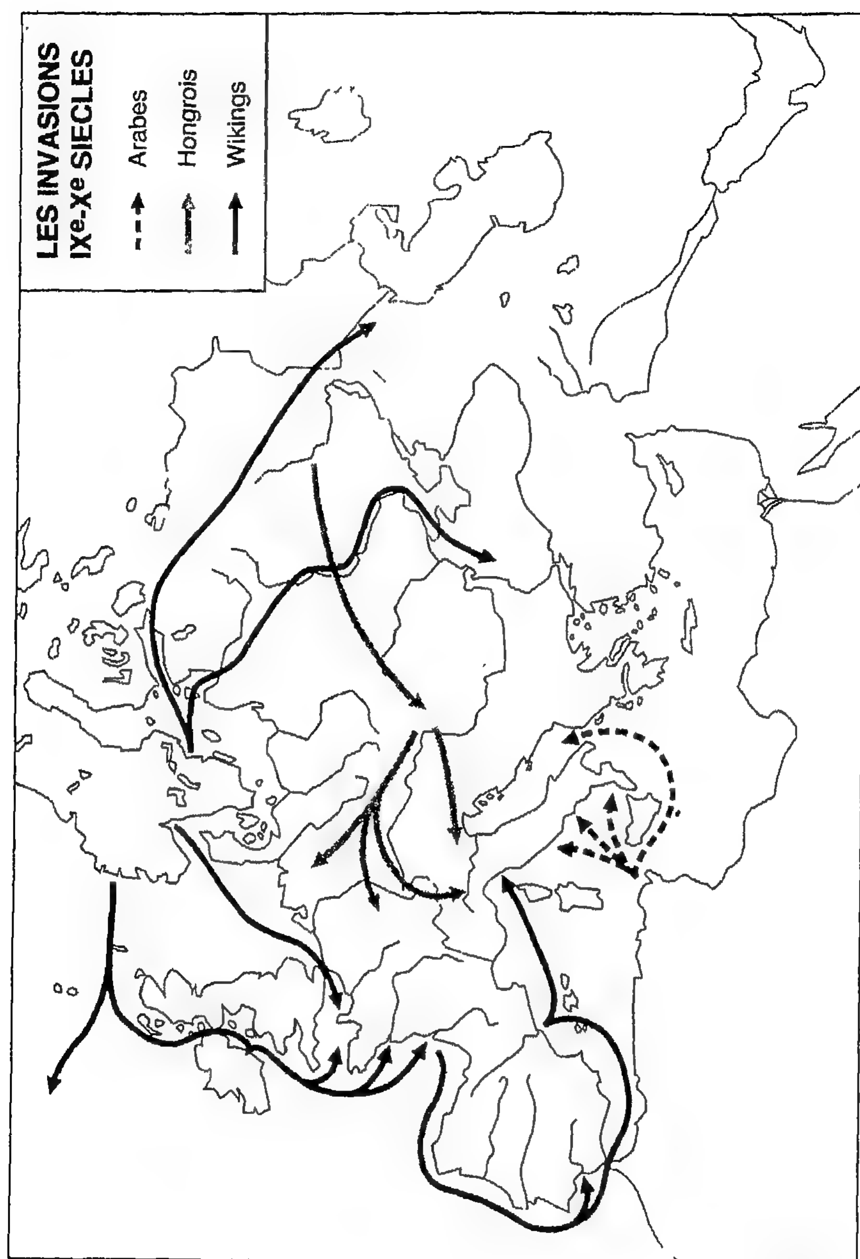


الغزوات العربية ١ ـ الغزوات الكبرى

بورجوند

فرنسيون ساكسون

فاندال مناطق إحتلتها القوط فى نهاية القرن الخامس بعد الميلاد



٢ ـ الغزوات الصغرى　　　غزوات القرن التاسع والعاشر

عرب هنغاريون فايكنج

فائدتها، وهكذا ظهر أمام الإنسان الفرد فى نطاق الحياة اليومية حرية اختيار معينة ومع هذه الكيانات العصرية الجديدة للدولة وضعت الحدود الملزمة للفرد وواجباته فى المجتمع واحترام الامتيازات والمقيز ابن. وفى رسالة للفيلسوف ديكارت تفسير واضح وشرح للمشكلة إذ كيف يعيش المجتمع إذا كان كل واحد من الناحية النظرية حراً ويمثل وحده كيانا ذاتيا وما هى القواعد التى يكون عليه اتباعها؟ هكذا وجهت السؤال إليه الأميرة إليزابيث فيجئ رد الفيلسوف الذى نشر عام ١٦٤٥ فى ١٥ من شهر سبتمبر-قائلا يبدو حين كل منا منفصلا عن سواه فإن المصالح من ثم متغايره بشكل ما عن مصالح سائر الناس كما يجب أن نتذكر دائما أننا لا نستطيع البقاء وحدنا ذلك أننا جزء من كيان الكون وجزء من هذه الأرض وخاصة أى جزء من هذه الدولة ومن هذا المجتمع ومن هذه الأسرة مرتبطين بها بحكم موقع الإقامة وبحكم القسم وبحكم المولد. ودائما يجب اختيار مصالح الكل الذى نحن جزء منه بدلا من المصلحة الشخصية، وكان باسم مصالح الكافة تلك أن فرضت فى القرن السابع عشر قيوداً صارمة على الفقراء وعلى كافة العناصر التى لا جدوى منها فى المجتمع، أى على كل من لا يعملون ولئن ازدادت أعداد الفقراء ازدياداً أثار القلق لارتباطه بتصاعد عددالسكان على امتداد سنوات القرن السادس عشر والأزمة الاقتصادية التى بدأت فى نهاية هذا القرن نفسه واستفحلت فى القرن السابع عشر ونتج عنها ظهور «التسول» والتشرد وكثرة السرقات مما استدعى ردعا زاجراً فكان منذ عام ١٥٣٢ أن يشرع بر لمان باريس فى جمع كل متسولى المدينة الكبيرة ومشرديها وإجبارهم على العمل فى المجارى مقيدين مثنى مثنى بسلاسل من حديد ثم لننظر كذلك كيف عاملت مدينة تروييز[١] البائسين عام ١٥٧٣. وعموما لم تكن هذه سوى إجراءات عابرة إذ على مدى العصور الوسطى كان البائس والمتشرد والمجنون فى حماية حق الضيافة المكفول باسم الله حيث ظهر المسيح تام الفقر وقدسه حين ارتدى يوما رداء الفقير وكان متاحا للفقير دائما أن يكون رسولا من عند الله، وقد أشادت كل النزعات الروحية التى يجسدها القديس فرانسوا بالقيمة الروحانية لقديسة الفقر ومهما يكن

---

(١) مدينة فرنسية من مقاطعة شامبان على نهر السين ١٥٨ كيلو مترا جنوب شرقى باريس.

من شىء فقد كان البائسون والمجانين ونفايات المجتمع يتجولون من مدينة لأخرى فتسارع كل مدينة إلى مساعدتهم فى استكمال مسيرتهم بدلا من الاحتفاظ بهم داخل أسوارها (إيوائهم) ثم كان هناك ـ على الأقل ـ شكل من أشكال الحرية الملموسة هى حرية الفلاح الهارب من سيده متلمسا من هو أقل قسوة، أو هذا الجندى يبتغى بلوغ المدينة بحثا عمن يجنده والمهاجر الذى يرحل بحثا عما هو أفضل أو يهاجر إلى الدنيا الجديدة (أمريكا) ووهم حياة افضل وكذلك حرية من هم من العاطلين المشردين أصلا والبلة والمتسولين والعجزة وأصحاب العاهات واللصوص ومن هم بلا عمل منتظم.. يصبح كل هؤلاء من الفئات التى كانت فى حماية ظل الله فى القرن السابع عشر أعداء للمجتمع الحضرى (فى المدن) والرأسمالى المأخوذ والمنهمك فى سبيل بناء الدولة حيث يحتجز فى كل أنحاء أوروبا البروتستانتية أو الكاثوليكية الفقراء والمرضى والعاطلين والمجانين ويبعدون فى وحشية، فلا شفقة ولا رحمة مع أسرهم ضمن المجرمين من كل نوع وهى الظاهرة التى درسها ميشيل فوكو فيما أطلق عليه الجنون فى العصر الكلاسيكى مشيرا إلى إعادة سجن الفقراء فى سجن محكم رهيب ثم إلى صدور مراسيم فرض الحراسات والمصادرات وما كان فى الوقت نفسه استجابة لطلب أسرة من سجن من الأبناء الفاسقين والسفهاء أو الآباء المبذرين ضمن خصوم الملك السياسيين بخطاب ممهور بخاتمه فيما أطلق عليه السجن الكبير ولهذا الغرض أقيمت المنشآت والمستشفيات والورش الخيرية ولم تكن مهما أعطيت من تسميات إلا ثكنات قاسية أو ورشا للأشغال الشاقة وفضلا عن ذلك فقد كان عليه تنظيم كل هذه السياسة الاجتماعية الجديدة فى فرنسا بعد مرسوم ١٩٥٦ الصادر بإنشاء المستشفى العام، وكان واحدا من مائة على الأقل وجد نفسه محبوسا فى مدينة كبرى كباريس ولم تخف حدة هذا العقاب الزاجر إلا مطلع القرن الثامن عشر فى عالم لا حرية فيه لغير أصحاب الامتيازات المحظوظين فقد ساهم القرن السابع عشر إذن فى الحد من هذه الحرية البسيطة وهى حرية الهرب، أو حرية التسكع وكان مسموحا بها للفقراء حتى ذلك الوقت، وقد ذكرنا من قبل ما كان من ردة لحريات الفلاحين وتقلصها ففى مستهل عصر التنوير كانت أوروبا لاتزال غارقة فى أعماق بؤسها

وشقاء سكانها. ووسط هذا الجو المشحون باليأس كان هناك جوًا إصلاحيا ونزعة مخففة تمثلت فى هذه الحرية التى لم يلحظها أغلب الناس إذ ظلت فى أوروبا بمنزلة المثل الأعلى الذى يتجه إليه الفكر بل يتجه كذلك التاريخ فى بطء شديد. إنها فى تاريخ أوروبا من الاتجاهات الرئيسية التى عبرت عنها معانى انتفاضات الفلاحين الثائرة فى القرن السابع عشر والاضطرابات الشعبية المتكررة كما كان فى باريس عام ١٦٣٣ وروان ١٦٣٤ - ١٦٣٩ وليون ١٦٢٣و ١٦٢٩ و ١٦٣٣ (١٦٤٢) وكذلك النزاعات السياسية والفلسفية فى القرن الثامن عشر، ولم تستطع الثورة الفرنسية ذاتها إقامة هذه الحرية التى لا يمكن أن تزهو بحيازتها تماما اليوم. فلئن ألغت الثورة الحقوق الإقطاعية مساء ٤ أغسطس، وهذه حقيقة، فقد ظل هذا الفلاح فى مواجهة الدائن (المرابى غالبا) ومالك الأرض ولئن ألغت التجمعات عام ١٧٩١ قانون شابلييه فقد بقى الفلاح فى الوقت نفسه تحت رحمة المخدوم ورب العمل واقتضى الأمر قرنا فى فرنسا حتى تصبح النقابات العمالية مشروعة مسموحا بتأليفها عام ١٨٨٤ ولا يغنى عن ذلك اعتبار تصريح حقوق الإنسان وحقوق المواطن عام ١٧٨٩ تاريخا أساسيا باقيا فى تاريخ هذه الحرية وهو تاريخ جوهرى فى سجل الحضارة الأوروبية...

حرية البحث عن المساواة فقد اعتقد نابليون أن الفرنسى لا يرغب فى الحرية بل يرغب فى المساواة، بمعنى التساوى أمام القانون وإلغاء الامتيازات الإقطاعية وبإيجاز فى القضاء على تلك الامتيازات الخاصة ومن الحريات إلى الحرية أى بتلك الصيغة التى أضاءت تاريخ القارة الأوروبية فى أحد اتجاهاتها ومساراتها الجوهرية، ومع ذلك فمازال مفهوم الحرية مفهوما مجردا نظريا وقد تهيأ من عصر النهضة مرورا بعصر الإصلاح إلى عصر الثورة واكتسب قوة جديدة حين تشكل فى إعلان حقوق الإنسان وحقوق المواطن بل وحين مثار عقيدة مذهبية مع النزعة التحررية، ومنذ ذلك الوقت فإن مفهوم الحرية المفرد وحده لا يعنى إدراك الدنيا وفهم وإدراك حركة التاريخ فمن هذا اللفظ اشتقت سواء شرعا أو مبالغة كل ايديولوجيات القرن التاسع عشر ومفاهيمه ومطالباته... هذه التحركات والنوازع والدوافع التى تغطيها كلمة تحررية المنمونة وهو لفظ مبهم غامض إذ هو

ثرى بمعناه فالتحررية تعنى وتتضمن المذهب السياسى وزيادة السلطة التشريعية والقضائية والحد من السلطة التنفيذية وتعنى بهذا المفهوم الوقوف فى وجه النزعة التحكمية الاستبدادية مذهب اقتصادى بين الأفراد والطبقات والأمم... ومذهب فلسفى يعلن حرية الفكر ويؤمن بأن الوحدة الدينية ليست هى الوحيدة بل هناك الوحدة الاجتماعية.... أى وحدة الأمة ومايستلزم بالضرورة روح تسامح واحترام الغير واحترام الإنسان وفق المفهوم القديم، وهكذا نجد أن النزعة التحررية أكثر من مذهب غربى.. هى مناخ فكرى وهى علامة على انتصار فكرة «دعه يعمل دعه يمر» إذ يستبعد الدولة من التدخل فى كافة المراحل الاقتصادية بين الأفراد وبين الطبقات وبين الأمم فتصادمت مع عديد من ظروف القرن التاسع عشر حيث تداخلت فى مهام لا حصر لها حيث امتزجت النزعة التحررية الليبرالية فى ألمانيا وفى إيطاليا بالنزعة الوطنية والحرية.. نعم.. ولا ننسى أليست هى أولا حرية الأمة؟ وتصادمت فى أسبانيا والبرتغال مع قوى لازالت جبارة لنظام حكم قديم راسخ يرتكز استنادا إلى الكنيسة ووصلت فى إنجلترا وفى فرنسا على مهل إلى أقصى مدى فى مطالبها السياسية وبدأت تتضح رويدا رويدا معالم الدولة الليبرالية الدستورية بحرياتها الأساسية: حرية الفكر وحرية الصحف والحرية البرلمانية والحرية الفردية فى امتداد حق التصويت.

ومع ذلك فقد كانت نزعة الليبرالية خلال سنوات نصف القرن التاسع عشر كلها بمنزلة ستار يحجب بورجوازية أرستقراطية من رجال أعمال من طبقة مالكة خارج هذه الحلقة الضيقة، فإن الفرد الذى كانت تدافع عنه هذه النزعة الليبرالية بكثير من الإخلاص لم تكن أبدا سوى نزعة تجردية، لم يكن ميسورا الاستفادة من حسناتها وميزاتها، ومن الحقيقى كذلك أنه فى إنجلترا صارا المحافظون والأحرار قدامى وحديثى الثراء مثل ما كان الوضع فى فرنسا فى عصر البعث وعصر ملكية يوليو فهذه الطبقة التى تملك وتدعى أنها تحررية ليبرالية كانت تقف ضد إقرار حق التصويت أى ضد الجماهير... فكيف إذن تساند سياسة كهذه متسمة بالأنانية وحب الذات فى مواجهة مجتمع صناعى تتسارع أمامه الحقائق المخيفة.... اليبرالية الاقتصادية التى تفترض منذ البداية صراعا متساويا بين

الأفراد، أليست أكذوبة كبرى؟ فكلما مر الوقت ازدادت هذه الأكذوبة ضخامة. وعموما فقد كانت هذه النزعة البورجوازية الليبرالية مؤخرة صراع ضد النظام الأرستقراطى القديم... تحدى الحقوق المكتسبة كتحدى الموروثات القديمة التى ترتد سنين تبلغ نصف ألفية من القرون السالفة وجعلتها حقوقا لها قدسيتها وبهذا فهى نزعة تريد الاندماج بين نظام الحكم القديم ومجتمعه الأرستقراطى والمفروض أن يقوم بتدميره والمجتمع الصناعى حيث تطالب البروليتاريا العمالية بحقوقها ،ويبدو بإيجاز أن زعم البحث عن الحرية هذا كأنما انضم رغم الظواهر إلى الصراعات القديمة التى كانت تنشأ بسبب الحريات وما كانت إلا امتيازات وفى عام ١٨٤٨ أقرت الثورة فى فرنسا حق التصويت فكان تاريخا حاسما بالنسبة إلى النزعة التحررية (ليبراليزم الليبرالية)، أما التاريخ الهام فى إنجلترا فهو الإصلاح النيابى (الانتخابى) عام ١٨٣٢ وإن لم يكتب له البقاء إلا فى شكل ليبرالية ديمقراطية امتدت مبدئيا لتشمل كافة الطبقات كل كما يريد ويعلن تولوڤيل وهربرت سبنسر عنها وعن انتصار جموع الشعب التى كانت تثيرمخاوفهم وسرعان ما تصطدم هذه الليبرالية عند هذا الحد من انطلاقتها مع التيار القوى المتعاظم الصريح... تيار الاشتراكية الذى يداعبها المستقبل فى الوقت نفسه كما فعل المعلنون عن النزعة التحكمية الاستبدادية وقال بعضهم عنها: إنها النزعة الفاشية سواء كان كارليل أونابليون الثالث.

من هذه الثورة الجديدة إذن تتضح معالم الاشتراكية التى تثير من التبدلات والتحولات الكبرى الكثير، وكذا تواجهها ثورة مضادة لا يدرى أحد اليوم ما اسمها أو إلى أى مدى سوف تصل، وقد تصل على حين تمضى الليبرالية فى طريقها وتضاعف حكوماتها وتعبر فى الوقت نفسه عن حكمتها وعن نزعات الأنانية وميولها البورجوازية ولا تجد أمامها أية شعلة تواجهها إلا فى فرنسا فى صراعها مع الكنيسة حيث أدرك الليبراليون عدم قدرتهم بل، وحتى قدرتهم على النضال مشكوك فيها.

وفى عامى ١٩٠٢ و ١٩٠٣ ظهرت فى المجلة العاقلة مجلة الميتافيزيك والمورال (مجلة ما وراء الطبيعة والأخلاق) سلسلة من مقالات بعنوان «أزمة

الليبرالية، كتبت بالذات بمناسبة ما أثير حول احتكار التعليم غير أن الأزمة النهائية الأخيرة إنما كانت تكمن فى موقع آخر... فيما بعد بين الحربين العالميتين... فمن ذا الذى يجرؤ على القول بأن الليبرالية التى أبعدت تقريبا عن السياسة والحركة قد أبطلت قيمتها تماما وبصورة حقيقية؟ أى أنها اليوم ماتت فعلا وشبعت موتا، ثم ألم تكن أكثر من عصر سياسى؟ أكثر من حاجب يتستر خلف طبقة من الطبقات؟.. لم تكن الرمز المثالى للحضارة الغربية وحتى بالرغم مما تعرضت له من خيانات فقد ظلت ولازالت فى موروثاتنا وميراثنا وفى لغاتنا وفى ارتكاساتنا ذلك لأن كل محاولة للنيل من الحريات الفردية يضربنا فى الصميم ويحرك مشاعرنا ويضربنا حتى فى مواجهة «الدول» المستبدة ذات النزعة التحكمية والتكنوقراطية فى مواجهة المجتمع الخاضع أبديا للنفوذ... ليبرالية معينة ولعلها فوضوية»... إلا أنها تنادى بحرية الفرد ... حرية مطلقة تامة ولذا فقد استمر بقاؤها باسم الإنسان الفرد وحقوقه ومسار حياته فى الغرب وفى الدنيا....

الفصل الثاني

المذهب المسيحي والنزعة الإنسانية والفكر العلمي (العلماني)

المذهب المسيحى والنزعة الإنسانية
والفكر العلمى (العلمانى)

ظلت الحياة الروحية ،االثقافية فى أوروبا عرضة للتغييرات العنيفة المفاجئة وبذلك خلقت ما كانت تحبه من انقسامات وتوقفات لمسيرات وإثارة لعواصف لا تنتهى فى سبيل البحث عن عالم أفضل، غير أن هذه العواصف وما كانت تثيره من أزمات لا يجب أن ينسينا تلك النزعة المستمرة الصلبة لتفكيرها وفكرها وحضاراتها الواضحة عبر كل التجارب المتلاحقة للفكر الأوروبى من خلاصة أفكار سان توماس داكوان حتى كتاب ديكارت فى «خطابات أوروبية فى عصور النهضة والإصلاح» بل وعصر الثورة الفرنسية نفسها والثورة الصناعية وهى تطور أساسى ولكنه لم يلحق بقطاعات حياتها ولا بفكرها.

المسيحية

تتطور كل الأديان ومع ذلك تظل كل منها على هواه، عالم خاص متناسق بإيمانه وثباته وديمومته الأصلية وكانت المسيحية الغربية ولازالت العنصر الرئيسى للفكر الأوروبى بل وللأفكار العقلانية التى نشأت ضدها ومنذ ظهورها كذلك ديانة وعقيدة وكانت دائما خلال تاريخ الغرب القلب بالنسبة لحضارة كانت سببا فى انتعاشها حتى فى الفترات التى انجرفت برغبتها أو بدلت من أشكالها، إذ كانت تعود دائما إلى جمعها وضمها إليها ذلك أن التفكير من أحد إنما يعنى البقاء

فى مداره ... فيظل الزنديق الأوروبى سبجينا لسلوكيات نفسية سقيمة تقبع فى جذور الشعائر المسيحية وأعماقها. كان مونثرلانت[١] يؤكد عن نفسه أن دمه مسيحى مع أنه لم يحافظ على إيمانه، وانتشرت الديانة المسيحية انتشارا واسعا فى أنحاء الإمبراطورية الرومانية وصارت العقيدة الرسمية كما أعلنها القاضى الرومانى قسطنطين عام ٣١٣ أى بعد ثلاثة قرون من ميلاد المسيح وكانت الإمبراطورية الرومانية تشمل كل ما على ساحل البحر الأبيض المتوسط من أوروبا وكذا بعض البلاد التى آلت إليها فى البداية بصفتها من العقائد الدينية الظافرة. أو كما حلا لبول فاليرى وصفها «عش الكواسر» وقد عرف عنه التلاعب بالألفاظ حيث أراد إظهار ما بين المسيحية والأرض والخبز والنبيذ والقمح والكرم من أواصر وما بينها وبين الزيت المقدس وكان بفضل ارتكازها الجغرافى على سواحل البحر المتوسط أن انتشرت العقيدة المسيحية إلى أبعد من ذلك كثيرا وذلك مثل الأعاصير من غزوات القرن الخامس وما أدت إليه انتصارات المد الإسلامى من كوارث فيما بين القرن السابع والقرن الحادى عشر إذ وجدت العقيدة المسيحية الوقت لتتواءم شيئا ما مع العالم الرومانى وتوطين أركان قيمها الاجتماعية وطبقاتها والتمييز فى دقة بين ما هو زمنى أى متصل بقيصر وبين ما هو روحانى والفوز فى موجة الجدال العقائدى ووحدة اللغة والفكر اليونانى السائدين وذلك حينما لاحت فى الأفق ضرورة تحديد الأسس اللاهوتية للمسيحية وتوضيح المعالم والسمات وإبراز الآثار وقد أسهمت فى هذا العمل المضنى الشاق ماعقد من مؤتمرات فى نيقيا عام ٣٢٥ وفى القسطنطينية[٢] عام ٣٨١ وفى ايفير[٣] عام ٤٣١ وفى فلفونيا[٤] عام ٤٥١ .... إلخ وآباء الكنيسة المدافعون عن العقيدة النصرانية أولئك الذين ناضلوا قبل قسطنطين وكافحوا ضد الوثنية ثم اتصل نضالهم ضد العقائد بين الذين فسروا العقيدة المسيحية فى مواجهة انشقاق الرأى ما نادى به القديس أوغسطين عن انشقاق الرأى ولم يكن آخر تلك السلالة من

---

(١) هنرى موثرلانت: كاتب روائى ومسرحى فرنسى (١٨٩٦ ـ ١٩٧٢)، انتحر

(٢) بلد فى آسيا الصغرى وكانت عاصمة للأباطرة البيزنطيين

(٣) على بحر إيجة

(٤) مدينة على البسفور.

المنشقين مع بعض مفسرى الكتاب المقدس ممن كانوا يعتقدون أن الخلاف امتد حتى القرن الثامن بل وحتى القرن الثانى عشر فى الغرب البربرى وقد ولد فى عام ٣٥٤ فى تاجاست اليوم هى سوق أحرس فى افريقيا (ربما يقصد سوق الأخرس أو الأهرس) ومات هذا القديس (أوجستين) وهو مطران أسقف لمدينة هيبون (اليوم مدينة بون) عام ٤٣٠ والفندال يحاصرون المدينة وكان لكتابه الرائع «مدينة الله» وكتابة «الاعترافات» بل ولآرائه المتناقضة ورغبته فى المزج بين الإيمان والذكاء أى إجمالا الربط بين الحضارة القديمة والحضارة المسيحية بين النبيذ القديم والجديد وكل هذه المحاولات والمبادرات التى سطعت فى أجواء المسيحية ما جعل منه أحد الأركان التى تتجمع فيها الآراء وواحدا من القلة التى نادت بضرورة السيطرة العقلانية بالعقيدة عنده هى التى تهمين على كل شئ، ومن أقواله عند ديكارت: أنا أؤمن كى أفهم... كما يقول: إنى إذا أخطأت فأنا موجود أى أن الشك يعنى الحياة وأن من الخطأ الجسيم أن نرى فى هذه الأقوال أية تناقضات ظاهرة ولاشك فقد احتفظت الأيام بمكان بارز واهتمام بالغ بآراء القديس أوجستين عالما لاهوتيا تقديرا لمحاولاته إثبات أهمية إدراك ماذا يعنى القدر، وحيرته الأحداث كما أن من آراء القديس أوجستين ومعتقداته وتفسيراته لاشك أنها تركت بصماتها على العقيدة المسيحية الغربية على الأقل بما كان يدعو إليه ويوجب من رفض الإيمان بغير إدراك وفهم ومعرفة لهذه العقيدة بعد عمق التأمل والتفكير من جانب كل شخص بإرادته الحرة حيث لم يكن الأمر أمر كنيسة فى دور الطفولة لاتدرى طريقها التى تفاجأ مسيرتها الكوارث والغزوات وهى العقيدة الثابتة وقد كان أثناء كوارث القرن الخامس أن ظهر معدنها الأصيل قبل إمبراطورية أو مثل حضارة العالم القديم الذى تصونه وتنقذه وهى تنقذ ذاتها ولقد صانت العقيدة المسيحية كيانها فى عالم تحيق به المخاطر وعبر عديد من المآثر والاقتصاديات. ولقد كان أمامها شوط طويل من العمل الشاق المضنى لإدخال القادمين الجدد فى العقيدة المسيحية والفلاحين ممن كانت عقيدتهم المسيحية فى حاجة إلى تدعيم أو ممن كانوا ينفصلون بسهولة عن تعاليم الكنيسة كثيرا، وكذلك ادخال أهل المناطق الجديدة التى دخلها الغرب إلى المسيحية (التبشير) كما

استدعى الأمر المحافظة على رباط وثيق مع بابا روما على حين تحاول النزعات الإقطاعية تجزئة هذه المناطق إلى ولايات صغيرة متعددة لكل منها مطرانيتها الخاصة، كما استدعى حسن قيادة المعارك الضارية التى تعارض الإمبراطورية وأشهرها معارك الإكليروس[1] ساكر دوك وانتهت دون الوصول إلى نهاية حاسمة بالاتفاقية البابوية (بين كل من الإمبراطور هنرى الخامس والبابا كاليكتس الثانى فى مدينة ورمس بألمانيا الغربية ١١٢٢.. كانت أزمنة مليئة بالصراعات وبالعمل الشاق والجهد الدؤوب فى التعليم المتكرر الذى لاحقته الانتصارات والهزائم بين أنصار البندكين وأليسترسيين والدومنيكان والفرنسيسكان وانتهت كلها إلى نوع من مستعمرات أنشئت خاصة بكل مذهب روحيا وماديا وصراعات نشأت في القرن الثانى عشر وأدت بدورها إلى حركة تبشير عنيفة للمدن فى القرن الثالث عشر وكان لكل قرن جهوده وواجباته ومعاركه ففى القرن الثالث عشر، على سبيل المثال شب الصراع ضد المانويين وفى القرن الخامس عشر نشأ الجدال العنيف بين مجموعات المطارنة والبابوية (مجمع كوستانزا ويال، وفى القرن السادس عشر اندلاع حركة الإصلاح والحركة المضادة للإصلاح التى قادها انصار الجزويت وحركة تبشير الدنيا الجديدة (أمريكا) والتفسيرات التعسفية التى صدرت عن مجمع مطارنة تيرنت (١٥٤٥ ـ ١٥٦٣) وفى القرن السابع عشر ظهرت النزعة وهى حركة دينية فكرية ذات مذهب أخلاقى مسيحى متشدد، وفى القرن الثامن عشر اشتد الصراع بين انصار نزعة زندقة أقل ضدا من ملحدى القرن السابق ولم يكتب لهذا الصراع نهاية حيث اندلعت الثورة الفرنسية، وأخيرا خارج نطاق هذه الصراعات المرتكزة على أقطار وأيديولوجيات برزفية عقلانية أحيانا وعكسها أحيانا أخرى، فقد اضطرت الكنيسة إلى مواجهة دائمة مع حركات تهدف إلى الخروج عن كنف المسيحية بشكل منتظم ممل هو أقرب إلى التخارج من النطاق الحضارى وفى كافة النطاق كما وقع فى إقليم الألب أو على أطراف أوروبا فى ميكليمبورج (ألمانيا) فى القرن الثالث عشر وفى ليتوانيا وفى كورسيكا فى منتصف القرنين الخامس عشر والسادس عشر وهذه المرة ظهور مذهب

(١) جماعة الإكليروس (القساوسة).

الثعبان وأنصاره من القساة المخادعين هنا وهناك كمذهب الموتى ومذهب الكواكب وكثير من المعتقدات الخرافية التى مازالت متعلقة (بحكايات شعبية) ملتصقة بأذهان الناس وأفكارهم ولم تعرها الكنيسة ما كانت تستحقه من اهتمام ومواجهة. ولقد استخدمت المسيحية كل أسلحتها من تعاليمها وحركات التبشير وقوتها الزمنية الوقتية وفنونها ومسرحياتها الدينية ثم معجزاتها ومذاهب القديسين الشعبية بحيث كان خدام الكنيسة الأوفياء مايعبرون كثيرا عن مخاوفهم ويعترضون.

وفى عام ١٦٣٣ فى لشبونة لم يتورع راهبان من أن يقولا إن انطوان[١] دى بادوا (مدينة فى إيطاليا) هورب لشبونه وكان الفقراء لا يلتمسون الصدقة إلا باسمه ولا يلجأون فى المخاطر التى تواجههم إلا إليه يتضرعون توسلا، فالقديس انطوان هو كل شئ لهم ... فهو بمنزلة جهة الشمال التى إليها يتجهون كما عبر صيت القديس انطوان البحر، ولقد ذكر أحد الرحالة الفرنسيين أنه لمس بنفسه إخلاص الناس وإيمانهم بالقديس انطوان فى البرازيل... وكان ذلك بعد قرن من الزمان من ظهوره فى إيطاليا، وعموما فإن الموروثات الشعبية أثبتت قدرتها دائما على حفر الخنادق وفى مسيرة الأديان والإساءة إليها من الداخل لدرجة وقدرتها على تعديل أسس الإيمان وقواعده وثبت أن كل شىء فى حاجة إلى إعادة نظر حين استقر القديس چان (حنا دبلاكروا) (الملقب بطبيب المسيحية ١٥٤٢/١٥٩١) (وله مؤلفات من النسك) مع اثنين من أنصاره فى دير ڤيللو إحدى مدن كاستيليا (أسبانيا) حيث أنشأت القديسة تيريز أول دير للرهبان/ أو الراهبات فى جبل الكرمل بالتبشير بالمسيحية غير عابئة بالحياة الصعبة بين الثلوج أيام الشتاء القارس فى حياة من الزهد والتنسك ولكنها لم تكن حياة منغلقة ذات حواجز؛ إذ كان الرهبان أحيانا كثيرة يتنقلون حفاة ويسلكون طرقا وعرة لتبشير شعوب أقرب إلى ضوارى الحيوانات، وتبشير الفلاحين ونشر تعاليم الإنجيل بينهم مما يدل فى محيط البلد الذى نشأت العقيدة المسيحية فيه، كم كانت المسيحية ذاتها فى حاجة إلى تبشير بها وهكذا سارت العقيدة المسيحية على مسارين واتجاهين مختلفين:

---

(١) القديس أنطوان مطران مدينة بادر فى إيطاليا بالقرب من البندقية وقام بالتبشير المسيحى فى أفريقيا ١١٩٥ ـ ١٢٣١

مسار حياة ثقافية تدافع فيه عن مواقعها فى مواجهة خصوم كانوا أحيانا كثيرة ذوى طينة طيبة ومسار آخر بين كتل بشرية كانت حياتهم القاسية البعيدة عن العمران كثيرا ما تدفع بهم خارج نطاق المشاعر الدينية بسهولة بعيدا عن الأرثوذوكسية الأصلية (استقامة المعتقدات) كذلك وقدلازمت هذا المسار تموجات وانحرافات من نجاح وفشل وتراجع وفترات ركود لايراها سوى الناظر من الخارج حيث تغيب عنا تلك الحياة اليومية الدينية بكل حقائقها فنتجاهلها دون أن ندرى ومع ذلك فلا يمكن لها أن تخدعنا عن الحركة العامة.

فيما بين القرن العاشر والقرن الثالث عشر حققت الديانة المسيحية قفزات تثبت حيويتها، فالكنائس والأديرة برهان ساطع صاحبت التصاعد الاقتصادى والنمو الاجتماعى فى ربوع أوروبا النشطة المليئة بالحياة فى طريقها لتحقيق توسعات عاجلة ... وفجأة يندلع وباء الطاعون الأسود وتبدأ ظروف الانحسار الدامى فى كارثة قاسية حلت بأوروبا وكان كل شئ مهيأ للتراجع حتى تلك الانتصارات التى كانت الديانة المسيحية قد تمكنت من تحقيقها خلال تلك السلسلة الطويلة من فترات البلبلة والاضطرابات والصراعات والتى يصفها المؤرخون بحروب المائة عام من ١٣٣٧ حتى ١٤٥٣ وامتدت هزاتها إلى أبعد من عنصرى الصراع فرنسا وانجلترا... امتدت آثارها على جميع بلاد الغرب... ومع النصف الثانى من القرن الخامس عشر عادت مياه العقيدة المسيحية تتدفق من جديد وتنتشر فى بلاد كثيرة عاد إليها الاستقرار بفضل ماساد وقتئذ من سلام، ومع ذلك جاءت الأزمنة القلقة «من عام ١٤٥٠ حتى عام ١٥٠٠» وقد أخطأ المؤرخون فى تسميتها بفترة ما قبل الإصلاح ذلك أن موجة من بلبلة الأفكار سادت فى كل المواقع ولم تنطلق بالضرورة على المواقف المتعارضة أو تلك المحتجة على اتجاه الإصلاح، وفى البلاد التى ظلت على ولائها لروما فإن القلق الدينى انعكست آثاره على حركة إصلاح أخرى... كاثوليكية كانت هذه المرة أطلق عليها المؤرخون حركة الإصلاح المضاد حيث أخطأهم التوفيق كذلك فى التسمية، وعلى أى حال فإن القرن السادس عشر والسابع عشر تميزا بالمشاعر الدينية اليقظة وبالصراعات الروحانية إلى أبعد مدى ولم تكن لتباغت أحدا أو تأخذه على غرة ومنها صراع

أنصار المذهب الجانزينيست الحاد (المذهب الأخلاقى المتشدد) وكذلك المذهب الأخلاقى البسيط المتسامح ولكنه فى الوقت نفسه إنسانى الاتجاه من جانب أنصار المذهب اليسوعى أيام القديس سان سيران (كان رئيسا لأحد الأديرة) سادة الباب الملكى ومدام دى سيفينيه[1] دراسين وباسكال (وهم من أعظم كتاب فرنسا من خريجى هذا الدير.

وهى مستهل القرن الثامن عشر يحدث انحسار طارئ يثير جدلا كبيرا كان هذه المرة اندفاعات ماديا لايخدم قضية الكنيسة إذ صاحبته حركة علمية وفلسفية تتصدى لها باسم التقدم... والعقل!!

النزعة الإنسانية[2]
وأنصارها[3]

لاسبيل إلى فهم الفكر الأوروبى بغير إطار من حوار مع المسيحية فهو وحده هو القادر مهما كان حيا أو كان النقاش حادا على إدراك النزعة الإنسانية والمظهر الأساسى للفكر الغربى.

ونقول فى البداية: إن لفظ الإنسانية غامض قد يثير الالتباس، لذا فمن الخطر ألا نوضح ونحدد استخداماته وهويته، وهو لفظ مختلق منذ القرن التاسع عشر واختلقه المؤرخون الألمان تحديدا عام ١٨٠٨ عن بير نولهاك مؤلف كتاب «بترارك»[4] والنزعة الإنسانية حيث ادعى أن له الفضل فى إدخال هذا اللفظ فى اللغة الفرنسية الجامعية عام ١٨٨٦ أثناء تدريسه بمدرسة الدراسات العليا. ومن ثم أثار لغطا كثيرا من حوله ومع ذلك نجد أنه مشتق أساسا من صفة البشر «الإنسان» وقد عرف به، فهم اتخذوه عنوانا لهم فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر غير أن لفظ الإنسانية لم يظل طويلا مرتبطا بأنصار هذه النزعة ولا مرتبطا بروح النهضة الإيطالية وحدها خاصة وبالروح الأوروبية عامة... فقد كان كل ذلك وفوق ذلك لفظا تنعكس آثاره على كثير من الأفكار وامتدت تداعياته على معان

---

(١) أحد الأديرة النسائية، شيد عام ١٢٠٤
(٢) مذهب الانسنه يتخذ من الإنسان وحياته الواقعية موضوعاً له
(٣) معدنتو مذهب الانسنة
(٤) فرانسسكو بتراك، شاعر إيطالى من أنصار مذهب الإنسانية ١٣٠٤ ـ ١٣٧٤.

لكثير من الأحداث بل وجدنا من استخدموا مشتقات لهذا اللفظ فقرأنا عن ذلك عام ١٩٣٠ وسمعنا عن النزعة الإنسانية الجديدة ونزعة المسيحية الإنسانية ونزعة الإنسانية الخالصة بل نزعة الإنسانية التقنية بله العلمية وهذا كفيل بأن يدلنا على أن اللفظ بل أى لفظ يمكن أن يصبح شعبيا فيرسم اتجاهات لعدة معان ويصبح رمزا لها وعليها ويمكننا تاريخيا أن نتحدث عن نزعة القرن الثانى عشر الإنسانية وتعنى مدارس المذاهب الإنسانية والفلسفية (فى العصر الوسيط) أى اتجاهات النزعة الإنسانية فى حركة الإصلاح وعصر النهضة بل والثورة الفرنسية، وفى العصر الحديث قرأنا عن نزعة كارل ماركس الإنسانية أو مكسيم جوركى، فإذا ما تساءلنا عن هذه المشتقات وجدنا أنها ألفاظ كانت توضح معانى الأحداث التى اسندت إليها ولعل من المعقول استعارة تفسير أعرض لمعنى اللفظ أوضحه مؤرخ النزعة الإنسانية أو جستين رتيوديه: قد نفسر بهذا اللفظ معانى النبل البشرية (أو الأصالة الإنسانية)أو عظمة الإنسان وقدراته الابتكارية وتتجة إلى دراسة تحركاته وتثنى على إمكاناته وقوته فى مواجهة قوى الطبيعة الجامدة... المهم أن الإنسان يظل الفرد الذى ينمى داخله - بنظام منهجى دقيق مستمر - كل القوى الإنسانية فيه حتى لا يترك فرصة لفقدان شئ يعوق عظمة الإنسان ويشيد بأمجاده أو كما قال الفيلسوف جوته ينزع الإنسان إلى أعلا أشكال الوجود ستندال[١] حيث يكتب إلى أوجين ديلاكروا (الرسام الفرنسى) قائلا: لا تهمل شيئا قادرا على أن يجعل منك إنسانا عظيما وهكذا نجد أن النبل الإنسانى يفرض المجتمع جهدا دائما حتى تسود العلاقات الإنسانية بين أفراد هذا المجتمع وما يستدعى عملا دؤوبا لتنمية الثقافات والتقدم العلمى الذى يوسع مدارك الإنسان والدنيا حوله وكلها جهود تخلق فى الإنسان النوازع المعنوية الفردية والجماعية المشتركة بينه وبين أقرانه فى المجتمع فيبزغ العدل وينمو الاقتصاد ويؤدى إلى توطيد أركان السياسة ويغذى الفنون والآداب. يكاد هذا التفسير الشامل أن يكون كافيا وان قصر عن التعبير الكامل عن هذه الحركة فقد واجهتها آراء معاكسة كما حاول اتيين جلسون تأكيده حيث يقول تعنى نزعة إنسانية عصر النهضة العصور الوسطى حيث تنادى...

---

(١) كاتب فرنسى ١٧٨٣ - ١٨٤٢ ألف عدة كتب.

الإنسان أكثر الله أقل وكان ذلك رأيا قاسيا وعنيفاً غير عادل ومبالغا فيه.. ومع ذلك تظل كلها آراء وأفكار لما ساد المجتمعات من أفكار الانحدار الطبيعى بشأن النزعة الإنسانية بعضها عن وعى وبعضها عن غير وعى... فهى ترفع من قدر الإنسان تحرره وتخفض من نصيب الله... هذا ما لم تكن قد نسبته تماما ولابد بشكل آخر أن تعترف أن لفظ النزعة الإنسانية إنما يعنى ببساطة الضد ضد الخضوع التام لله.. ضد كل إدراك حسى مادى للدنيا ... ضد كل مذهب يهمل أو يحاول إهمال الإنسان... ضد كل نظام ينتقص من مسئولية الإنسان... إنها المطالبة الدائمة... ثمرة... الزهو والفكر ولم يكن كالفن(١) مخطئا حين سخر قائلا ... كيف نفسر هذه النزعة التى يبتغون منها أن تعلمنا توجيه مسارحياتنا بفضل قوتنا الذاتية البحتة... ألا يعنى ذلك ربطنا بفرع واهنه من فروع شجيرة لا تتحملنا ولا نستطيع الاستناد إليها حيث إن تتخطم فنتعثر خطانا؟ ونترنح... ونسقط، واضح أن كالفان لم يكن ابتدأ من هؤلاء المؤمنين بالإنسان وأنصار مذهب الإنسانية... فالمذهب يعنى الكون... ويعنى إيمانه، بأن كل ماالديه إيمان... يعنى التلاؤم مع الثقة فى الإنسان والإيمان به.

وفى هذا المعنى للفظ النزعة الإنسانية الأوروبية يمكننا أن نفهم كلمة عالم الاجتماع ادجار موران إذ هرول مبتعداً عن الحزب الشيوعى قائلا: يا إلهى إن الماركسية درست الاقتصاد ودرست الطبقات الاجتماعية... شيء رائع ولاشك.. لكن يا إلهى لقد تناست دراسة الإنسان وتعنى النزعة الإنسانية مسيرة كفاح لتحرير الإنسان بالتدريج والاهتمام بقدراته لتحسين مصيره أو تعديله وتاريخها قد واجه كثيرا من الانتصارات والتراجع والتناقضات التى شكلت ماضى القارة الأوروبية ومهدت طريقه كما كانت النزعة ذاتها محاولات للبحث القلق عن حل آخر لأحداث الساعة الحاضرة ومشاكلها وأدت صعوباتها إلى انبثاق تلك الرغبة السقيمة فى الذهاب إلى كل جديد.. واستكشاف كل ممنوع.. مسيرة طويلة سنقصر حديثنا هنا على ثلاث حالات استثنائية ذات مغزى: النزعة الإنسانية فى عصر النهضة، تبدو النزعة الإنسانية فى عصر النهضة كحوار بين روما الوثنية

---

(١) مصلح فرنسى.

وروما المسيحية.. بين الحضارة القديمة والحضارة المسيحية... ولاشك كان حوارا من أثرى ما عرف العالم الغربى من حوارات، وما أكثر ماكررت عبارة قالها مكيا فيللى (يقصد بها إيطاليا ولاشك) تبدو كمن ولدت لإعادة الروح إلى الأشياء المعينة وفى ذلك ما يؤكد ان الحياة ذاتها كانت فى أمس الحاجة إلى ما قيل عن الأشياء التى ماتت ويعنى ذلك أنها كانت فى متناول الأيدى ولم تمت إطلاقا، والواقع أن روما الوثنية لم تمت فى الغرب وظلت حضارتها تعكس آثارها وتداعياتها على بلاد الغرب تستمد منها ترجماتها الأدبية ونماذج أفكارها بل وحال مواقعها المشتركة واستعاراتها اللفظية فتأقلمت أوروبا المسيحية مع هذا الحوار مع روما القديمة ولم يكن أمامها حضارة أخرى بديلة منافسة وقبلت المسيحية التعايش السلمى مع روما الوثنية قبل سقوط العالم الرومانى وكان القديس جوستان يقول «منذ القرن الثانى كان كل فكر نبيل حينما كان مصدره ميرات ملك المسيحية كما يؤكد ذلك القديس آمبروار يقول كل حقيقة مهما كان تفسيرها إنما تبعث من الروح المقدسة (روح القدس) وصاح تارتوليان(1) قائلا: ما هو هذا الشئ المشترك بين أثينا والقدس؟ ولكن صوته ظل بلا صدى... على أى حال إذا كان الميراث القديم هو الماضى فى الحياة فإن طرق التفكر ولغة العصر الوسيط فى الغرب وآداب العصر السالف القديم وشعراءه وفلاسفته أو مؤرخيه كانوا قد توقفوا عن شحذ الشاعر أو إثارة اهتمام المثقفين ولئن ظلت اللاتينية لغة حية فقد كانت اللغة اليونانية غير معروفة أو تكاد حيث أهملت المخطوطات فى أكثر المكتبات ثراء لتقبع فى النسيان تعلوها الأثرية ... إنها تلك النصوص التى يتعقبها أنصار النزعة الإنسانية فى كل مكان لإعادة قراءاتها ودراستها ونقدها بشغف تمجيداً للغات الأسلاف القدامى يونانيون ولاتينيون ومؤلفاتهم سوف تكون نبراسا حيا للأجيال القادمة، ولم يكن أفضل من مكيا فيللى ومقولته عند نفيه للمرة الثانية عام ١٥١٣ وكان وقتئذ بين الفلاحين والحطابين كتب يقول عندما يأتى المساء... أعود إلى مقرى وأغوص فى مكتبتى، فما أن تطأ قدماى عتبة الحجرة حتى أنزع عنى ما أرتدى كل يوم من ملابس مغطاه بالطين والأوحال لارتدى ملابس

(١) أحد المدافعين عن العقيدة النصرانية ١٥٥ ـ ٢٢٠ بعد الميلاد.

البـــلاط الملكى، وهأنذا فى هذا الزى المضــحك أدخل إلى بلاط الأســلاف القدماء... الذين يستقبلوننى بالذهاب والبشاشة فأتغذى بما أفضل من طعام فإنما هو غذائى الذى خلقت من أجله وهنا لا شعور بالخجل من تبادل الحديث معهم أو سؤالهم ومناقشتهم عن بواعث أفعالهم.. وهم من فرط ما يتمتعون به من إنسانية... يردون على.. فإن نزعة الإنسانية فى عصر النهضة إذن إنما تدل عليها تلك القرارات وهذه الأحاديث والمحاولات التى لا تنتهى ولا تتوقف، فالكاتبان الأديبان الفرنسيان رابلييه[1] ومونتين[2] من أتباع النزعة الإنسانية ويتضح ذلك من كتبهم التى صنفوها ويمكننا أن نستكشف إلى جانب ذلك كل نصير للنزعة الإنسانية أحد الأسلاف القدامى كأنما يقوده من يده وينزع عنه القناع ويفسر لنا آراءه أحيانا فهذا إيراز مس دى روتردام الهولندى الذى لقب بأمير أتباع المذهب الإنسانى إنما هو لوسيان يقول عنه أعداؤه وميكيا فيللى هو بوليب (بوليبوس)

وليس أمرا يسيرا تاريخ هذه الحركة الفكرية فقد تكون كل من الإنسانية التى ذكرنا وعصر النهضة اتجاهين وحركتين منفصلتين إحداهما عن الأخرى فى الزمان... وفى المكان معا ولاشك أن النزعة الإنسانية انطلقت من مدينة أفينيون (بالقرب من باريس وكانت مقراً للبابا فى القرن ١٤) هذه الانطلاقة كانت انطلاقة أخرى هى عصر النهضة وانتعشت المدينة مع عودة بترارك (١٣٣٧) (المؤرخ الإيطالى) حيث تظل طويلا أفخم المدن بفضل إقامة البابوات فيها كما كانت تعتبر أغنى المدن الأوروبية بفضل روعتها وما كانت تشع من تألق ومع ذلك فقد نبعت من مدينة فلورنسا النهضة، ومن ثم سيطرتها الثقافية وظلت كذلك حتى وفاة لوران عام ١٤٩٢ وحتى استيلاء الإمبراطور وكوزم دى مبديتشى عليها عام ١٥٣٠ ولاشك أن هذه التواريخ المتسلسلة (١٣٣٧-١٥٣٠) مقبولة بمجمل الحركة (النزعة الإنسانية) التى لم تصبح قضية إيطاليا وحدها بل أقحمت الغرب كله إذ ولد آخر أمراء النزعة المدعو إيرازم سى فى روتردام عام ١٤٦٧ وتوفى فى بال عام ١٥٣٦ غير أن المعنى الكامل لهذين القرنين الطويلين من حقب التاريخ

---

(١) فرنسوا رابلييه ١٤٩٤ - ١٥٥٣

(٢) ميشيل مونتين ١٥٣٣ - ١٥٩٢.

لايدرك إلا بالانفتاح العريض على الماضى قبل عام ١٣٣٧ وعلى ما يلى ذلك بعد عام ١٥٣٠ فأما نحو الماضى فلأن انفصالا كاملا لم يقع بين العصر الوسيط وعصر النهضة الذى لم يكن نقيضا لفلسفة القرون الوسطى وقد كتب أحد المؤرخين عام ١٤٩٢ يقول: كنانرى بين القرون الوسطى وعصر النهضة فرقا يوازى الفرق بين الأسود والأبيض أو بين النهار والليل... فرقا ساطعا يخطف الأبصار ثم نجد سببا يدفع سببا آخر فينتهى الأمر بنا إلى زوال الحدود بينهما فنكاد نحتاج إن أردنا التمييز بينهما إلى بوصلة توجه مسارنا.

وأما نحو المستقبل فإن ذلك غير واضح من بعد وفاة إيراسموس عام ١٥٣٦ وهو الرجل الذى أحبه ليبراليون اليوم الأحرار أن تكون هناك حضارة تصمد فى خضم هذه الحروب الدينية التى دامت قرابة قرن من الزمان.

ومما لاشك فيه أن حركة انتصار النهضة لم تتوقف أبدا وواضح أن أنصار مذهب الإنسانية قد حققوا الفوز فى مباراة طويلة المدى حيث فازوا فى مجال التعليم وظلت ذكريات القديم الخبر اليومى حتى اليوم ولا سبيل لأوروبا أن تتغافل عن الثقة فى عظمة البشر وذكائهم والذى يظل على طول المدى أكبر الدوافع التى تدعو إلى التفكير والبقاء فى بلاد الغرب فإذا كانت الاتجاهات الإنسانية ثمرة كفاح دوائر صديقة لاتينية ويونانية تتعاون من حيث درجة تحمسها أو عبرية ذات صبغة عبرية من أمثال توماسى بلاتر عامل الحبال أوبيك دى ميراندول أو بوستيل أى ثمرة جهود عقول مستنيرة من الصفوة ولم تقتصر تباشيرهم على المدن المشهورة أو بلاط الأمراء كبلاط فرانسوا الأول. فهذه العقول المستنيرة كانت مبعثرة فى أنحاء الأراضى الأوروبية ولها علاقات وثيقة فى نطاق ما كان بينهم من مراسلات توجد بينهم، منها على سبيل التدليل مراسلات إيرازم باللاتينية فى اثنى عشر مجلدا وهى التى تأثرت بها أفكار أوروبا كلها وعلى رأسها ايطاليا ثم فرنسا وألمانيا (دون إغفال الدور الهام الذى لعبته بوهيميا وهنغاريا وبولندا وهولندا وإنجلترا فضلا عما قد يرد من أسماء كثيرة فى هذا الصدد ونكتفى بما أصدره فرانسوا الأول من أوامر بتدريس المواد المحظورة وما ألف فيما بعد من هؤلاء من معلمى كولبج دى فرانس (الجامعة الفرنسية) هل النزعة الإنسانية

صراع مع العقيدة المسيحية وهل لا نرى فى هذه الحركة إلا أنها كانت تهدف إلى الإلحاد والزندقة؟ أو على الأقل تقديم التحية لميكيافيللى ورا بلييه ومونتين رواد الفكر الحر الأصلين.

قد لا يكون عدلا أن نرى عصر النهضة بعيوننا اليوم رغم إقرارنا بأنه تحول عن مسار التعليم التقليدى المدرسى الجامد أحيانا وعن مبادئ علم اللاهوت... كل ذلك صحيح.. ولكنه تمجيد لعلوم سلفية إلحادية وإن كانت للحركة كذلك أهداف فى تمجيد الإنسان... وهو صحيح كذلك دون أن يستتبع بالضرورة أن تكون الحركة ضد الله وضد الكنيسة كما ذهب تفكير البعض إذ يوحى أى تعمق فيما أولى لوسيان فيبفر دراسة متأنية لمؤلفات رابليه ملك النهضة لم يهمل البحث يقينا وإن لم يمثل بؤرة اهتماماتها، وجدير بالذكر أن حسم تلك الآراء المتعارضة التى أثقلت النفوس والقلوب كثيرا، وقضية الإلحاد بحكم ما أثارت من جدل للمعاصرين كثير عكف عليه المؤرخون. ومع ذلك فما ينبغى أن ينسينا الحكم عليها للأخطاء والغموض الذى يكتنف عادة المسائل التى يصعب حلها، وقد ثارت فضيحة كبرى عام ١٤٣١ من حوارات لوزنرو فالا ونشب صراع بين أنصار أبيوقراط وأنصار الرواقيين نسبة إلى الرواق الذى كان يجتمع فيه أتباع زينون التى تقول: إن كل شئ فى الطبيعة إنما يقع بالعقل الكلى وكان لهؤلاء الأخيرين خطوة وذيوع صوت.. كان جدلا بحتا تأكدت فى نهايته مفاهيم العقيدة المسيحية لما فوق الطبيعة واتضح فى نهاية المطاف أن احتياجات الإنسان ودوافعه وآماله ليست أبدا فى إطار نكران الله بل كانت جدلا فرضته ضرورات علمية صلبة سادت القرن السادس عشر وعلينا لذلك ألا نتسرع بوصم مكيافيللى بالزندقة لمجرد أنه انتقد الأساقفة والكنيسة التى وصمتنا باللادينيين وقدست وطهرت البسطاء لتواضعهم أو هؤلاء الذين يقضون أوقاتهم يتأملون ويرون الحبر الأعظم فى التواضع على حين وضعت الديانات السلفية القديمة فى عظمة الروح وألقوا عليه باللوم لمجرد أنه وضع السياسة خارج الأخلاقيات وكانت قد قبعت فيه منذ مدة طويلة وكذلك ينبغى أن نذكر الأكاديمية التى أنشأها لوران دى ميديتشى «الأفلاطونية الجديدة» واتخذت موقعا مضادا من الأوسطية ولعلها كانت تبحث عن صيغة توفيقية بين

السلفية والمسيحية فأما حين يحلم بى دى ميراندول ويدلى بخطب عن عزة نفس الإنسان وكرامته فإن لنا أن نتساءل كيف ينكرون عليه أن يحلم وهو فى آخر أيام حياته القصيرة جدا وهو يتجول فى ردائه الدومينيكى حافى القدمين بين المدن والحقول والضياع مبشرا بالإنجيل وفى يده الصليب المصلوب عليه المسيح كان أروع مثال على النزعة الإنسانية المسيحية وكذلك كان الأمر بالنسبة إلى بادوان بومبانا نزى الملحد فى عيون البعض المريب ففى عيون آخرين وسميت بالنزعة الإنسانية الدينية أو كتاب سنبالون موندى (١٥٣٧ - ١٥٣٨) الذى نقده لوسيان فيفر فى كتاب صدر عام ١٩٤٢ وخلاصته أن المسيح إذا كان رسالة السماء وجوهر كل هذا الجدل ففيم إذن حديث الزندقة والإلحاد وقد قرأنا المؤرخ الشهير فيليب موتبيه وما ادعى بأن النزعة الإنسانية التى فتنتها نوازع الكبرياء فى المذاهب القديمة قد صاغتها وكرمتها وتبنت نماذجها وأمثالها بل وأربابها وروحها ولغتها وإن كل حركة مهما امتدت بعيدا إلى أقصى مدى منطقى لم تكن لتهدف لغير إلغاء الظاهرة المسيحية قد يكون ذلك تفسيرنا نحن أو منطقنا ولعله لم يكن كذلك فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر، ثم لنقرأ ما قاله عالم الاجتماع أليكساندر روستوف باحثا عن عداء حين كان انتصار السلفية القديمة على الكنيسة فى أوجه بل داخل الكنيسة ذاتها. وكذلك ألم تستطع أنوارها من أكبر مراكز عصر النهضة أما ما كان من هذه التحركات ألم يكن البابوات هم الذين حركوها ووجهوها؟ ثم يجئ أليكساندر السادس الذى يصرع فى فلورنسا عدو النزعة الإنسانية وعدو أنصارها ثم شافونارولا (١٤٥٢ - ١٤٩٨) الذى أحرق بأمر من أليكساندر السادس فى ٢٠ مايو ١٤٩٨ لاتهامه بالهرطقة ونشر البدع، وفضلا عن ذلك فإن السلفية القديمة عادت فانبعثت فى نفوس الناس لنزعتها إلى التسامح وكان الفلاسفة اليونانيون سواء كانوا يؤمنون أولا يؤمنون بها يسهمون فى الاحتفالات والشعائر الإلهية. فلماذا إذن أو كيف يعمد أتباعهم ومريدوهم إلى حفر خنادق العداء للكنيسة التى لم تظهر لهم عداء كاملا أو تاما... وعموما فالكلمة لإيرازم (لارازناس) فى صحيفة أيها القديس سقراط... صلّ من أجلنا فإن النهضة هى التى تباعدت عن العقيدة المسيحية فى عصر النهضة على صعيد

الأفكار بأقل من ابتعادها على صعيد الحياة ذاتها، هى إذن إن أردنا نوعا من الخيانة الفكرية أو الثقافية لا فلسفية وكان محيطها نوعا من السعادة المتعددة سعادة العيون وسعادة النفوس والأرواح والأجساد كأنما الغرب يخرج من صوم دام قرنا من الزمان وتعنى النهضة النهوض الاجتماعى والنفسى للسعادة ولم يحدث أن مر بالإنسان مثل هذه المشاعر الفياضة والعيش فى عصر سعيد كهذا فها هو عصر الحياة يعقب ما كان من عصر الموت فى العصور الوسطى وها هو التأمل فى الموت والرقص الجنائزى الحزين مما تميزت به العصور الوسطى فى القرن الخامس عشر، ها هو الغرب ينتهى إلى عهد من البهجة والافتتان أو كما وصفه ميشيل فوكو انفصل الغرب عن التأمل فى الموت بحثا عن الحياة السعيدة ... فالحياة الأفضل وأصبح الموت بعد أن كان سماويا أصبح موتا «أرضيا».. موتا جسديا يتحلل به الجسد فى مصير كان على الإنسان مواجهته، أو كما قال القديس أوجستين نحن فى هذه الدنيا مسافرون يتنهدون بعد الموت ومع ذلك فما من مفكر فى أن حياة كهذه هى أقرب إلى الموت منها إلى الحياة.. نوع من الجحيم.. وبدأت الحياة تستفيد قيمتها... وقدرتها.... ومبتغاها.

يجب فى الأرض أن ينظم مملكته على تلك العقيدة الجديدة بأن كافة القوى الإيجابية فى الحياة العصرية كتحرير الفكر والتحرر من بعض السلطات وانتصار الصبغة الثقافية على ميزة التوالد... أى بإيجاز كما قال الفيلسوف نيتشه خلاص الإنسان، فكان من بوتقة التخمر الجديدة أن أصبح اتباع النزعة الإنسانية أكثر وعيا بلاشك فها هو العصر الذهبى تبزغ أضواؤه كما يؤكد مارسيليوفيسان (١٤٣٣ - ١٤٩٩) ثم كان عام ١٥١٧ ردو ايرازم المعنى نفسه فى قوله يجب أن نتمنى حظا سعيدا للقرن.. حيث يحل العصر الذهبى وذلك فى رسالته الشهيرة به فى ٢٨ أكتوبر ١٥١٨ إلى أحد أتباع النزعة الإنسانية وليباديير كهايمر من مدينة نورمبرج وكذلك يصرخ أورليتسن فون هاش قائلا ما أعجبه من قرن ما أعجبه من خطاب ... ما أسعدها من حياة...

وكانت هذه الصحوة المفاجئة بقدرات الإنسان المتعددة قد سبقت لاشك بتمهيد الطريق لكل ثورات العصر الحديث كما مهدت كذلك الطريق نحو نوبات الإلحاد

ولا نظير أن أحداً يستطيع الاعتراض على ما نقول ... إلا أن أنصار النزعة الإنسانية كانوا منشغلين فى تنظيم مملكتهم الخاصة .. فلم تتح لهم فرصة منازعة مملكة الرب.

ومنذ الثلث الأول من القرن السادس عشر بدأت تتوقف حركة السعادة فى عصر النهضة فبدأ المسرح الغربى يمتلئ بالإنسان التعس، وراجت فيه السعادة شأن كل عهد وسطعت الشمس كما كان فى كل العصور التى سادتها سعادة البشر أو سادهم الاعتقاد بأنهم سعداء، ثم تحل العصور المعاكسة كالذى احترقت فيه مدينة الإسكندرية أو عصر أوجست عصر النور... الذى لم تدم أضواؤه إلا قليلا ولتثور النزعة الإنسانية ويعود نهر النهضة ليتخذ مساره وتدفقه من جديد فيما بين القرنين الخامس عشر والسادس عشر وكان مسا ر نهر النهضة هذا بين تداعيات الحروب الدينية المفرطة إذ بدأت بالفعل فى ألمانيا عام ١٥٤٦ عام وفاة لوثر ولم تنته إلا بعد قرن من الزمان عام ١٦٤٨ خلال الحقبة الانتقالية فقد لحقت هذه الحروب بلاد أخرى تاركة فوق أراضيها خرابا ودماراً كاملين. وعقدت اتفاقيات تصالح (متأخرة) كان منها سلام أوجسبورج عام ١٥٥٥ ومرسوم مدينة نانت عام ١٥٩٨ وخطاب صاحب الجلالة فى بوهيميا عام ١٦٠٩ ومع ذلك فقد كان على الآلاف من الرجال والنساء فى سبيل الذود والدفاع عن عقيدتهم مواجهة الحروب الأهلية كثورة الأراضى المنخفضة العنيفة فى عهد فيليب الثانى أو فى فرنسا عند فسخ مرسوم نانت ١٦٨٥ (ذلك أن الإصلاح على عكس نزعة الإنسانية فى عصر النهضة سرعان ما يمس الكتل السكانية الكثيفة) وعصيان مدينة سيفين المسلح... أو النفى سواء إلى الدنيا الجديدة (أمريكا) أو إلى بلد آخر تلائم عقيدتهم الدينية تهدأ كل هذه الأنواع من التنكيل والإرهاب مع بداية القرن الثامن عشر أو قبل ذلك أحيانا، وعاشت البرتستانتية، وها هى اليوم تغطى بنزعتها الإنسانية الخاصة جزءا كبيرا من العالم الغربى وخاصة البلاد الأنجلو سكسونية والجرمانية ومع ذلك فليس يسيرا تحديد اللون الصحيح لهذه النزعة الإنسانية حيث لم تكن هناك كنيسة بروتستانتيه واحدة، بل كنائس عدة تماثل نزعات إنسانية عدة ذات أنماط متعددة مثل أفراد عدة وهم ليسوا جزءا من عائلة واحدة وخاصة إذا ما تعارضوا مع

جيرانهم فى العالم الغربى الكاثوليكى، ويهمنا الميراث الأروبى الذى ورثته ولا الإصلاح فى حد ذاته ولن نضيع وقتا طويلا فى التاريخ الكلاسيكى لعصر الإصلاح والبروتستانتيه ولكنا سنركز على ملخص أميل ليونارد فقد تعاقبت على مدى عشرين عاما حركتان للبروتستانتيه إحداهما تلك التى عرفت بالحركة العنيفة حركة مارتن لوثر (١٤٨٣ ـ ١٥٤٦) والثانية ما أطلق عليها الحركة الرزينة التى قادها كالفين (١٥٠٩ ـ ١٥٦٤) والرجلان لايتشابهان فأما لوثر ففلاح من أطراف الشرق الجرمانى كما أن هناك شيئا «مباشراً قويا» طبيعيا فى هذه الثورة الروحية القروية، فقد نزعت إلى الهجوم على تجاوزات ولا معقوليات وتعقيدات الكنيسة والخروج من كل الشكوك، والرهان بكل شيء على إخلاص الإيمان (مبعث الأمان) وكان هذا هو اتجاه لوثر الشاب الذى كان يقول: لم تعد الدنيا كما كانت بالأمس حيث كان البشر يساقون كالصيد، ولاشك كانت هذه الآراء متعارضة مع مواقف الأثرياء وأصحاب النفوذ ممن تألبوا عليه فلم يستطع الصمود ثم يضطر المصلح عام ١٥٢٥ إلى الانفصال عن الفلاحين الألمان الذين ثاروا ضده وبسببه (بعض الفلاحين) فيما بين نهر الألب ونهر الراين وجبال الألب كما واجه كالفان ساكن الحضر المثقف المنظم المثابر الممتلئ حيوية ونشاطاً.... عالم القانون الذى يشعر أنه فى حاجة دائمة إلى الذهاب إلى أقصى إسقاطاته. ويجد لوثر جبرية الأحداث (القضاء والقدر) كالرؤيا على حين يضعها كالفن فى معادلة يستخرج منها التداعيات فنجد فى كل الأزمنة أن الصفوة هم المختارون... وليس عليهم من ثم حكم الآخرين وهذا تولاه كالفن فى جنيف مستنداً إلى روح التواضع والخشوع (١٥٣٦ ـ ١٥٣٨) (و ١٥٤١ ـ١٥٦٤) ذلك ما اتبعه كروموبل[١] فى انجلترا هذان هما أكبر دول البروتسنانتية رغم اختلاف مجاليهما ولكن النقاط المشتركة بينهما كثيرة على الرغم من مقاطعتهما روما وإلغاء الأسقفية المنظمة وتخفيض القربان المقدس من سبعة إلى اثنين مع اختلاف فى القربان المقدس ذاته ولابد من اليقظة ونحن نتحدث عن اختلافات أنصار المذهب البروتستانتى إذ نجد المذهب البروتستانتى الإنسانى عند ترونجلى فى زيورخ وأوكيلامبا فى مدينة

---

(١) جماعة بروتستانتية فى القرنين ١٦، ١٧ تنادى بالتمسك بأهداف الفضيلة.

بال وهنرى الثامن فى انجلترا ونجد المذهب البروتستانتى التقوى[1] عند المنادين بإعادة العماد وقد عذبوا كثيرا. أما الحدود الفاصلة بين المذهب الكاثوليكى والعالم البروتستانتى والتى تمثل إلى اليوم عاملا مؤكدا فى نطاق الحضارة الأوروبية فليست نابعة من مصادفات الصراع، ذلك لأن أوروبا كجذوع الشجر تتوالى فيها على مر الأزمان الطبقات فتعرف منها أعمارها وأقدم الطبقات اللب أو القلب من الشجرة فقد امتدت الإمبراطورية الرومانية غربا وشمالا إلى التقاء نهر الراين بالدانوب من جهة وإلى الجزر البريطانية من جهة أخرى بل إلى ما وراء تلك الحدود وكان أن بدأت الحضارة الأوروبية تنتشر من بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية وبدأ الغرب فى صورة نبيلة يستعمر العالم المجاور فتقام فيه الكنائس ويبعث برسله وقد نتساءل فى هذه الحدود القديمة للإمبراطورية الرومانية أى بين أوروبا القديمة وأوروبا الجديدة، أكان مصادفة أن تكون فى جزء كبير منها الحدود التى فصلت بين الكاثوليكية والبروتستانتية. لاشك أن حركة الإصلاح وجدت أسبابها الدينية البحتة وهى ترى نبعها الروحى يرتفع فى كافة أنحاء أوروبا فأثارت الانتباه إلى تجاوزات الكنيسة وإلى إخلاص مبتذل لا تكفى فيه حركات هى إيماءات وإشارات أكثر منها درع حقيقى... من هذا الشعور عانت كل العقيدة المسيحية ومع ذلك فقد حافظت أوروبا القديمة التى ظلت لاشك أكثر تعلقا بتقاليد دينية قديمة ولها ما تربطها بروما على هذا الرباط على حين لم تكن أوروبا الجديدة الأكثر شبابا وانشغالا على قدر كبير من الارتباط بجذورها الدينية السالفة إذا استوعبت الانفصام حيث لاحت تباشير «رد فعل» وطنى ولاح المصير اللاحق للعاملين، وكثيرا ما غذى ما سمى فيما بالزهو «المتعصب» وإلى فضائل البروتستانتيه عزيت أسباب انطلاق الرأسمالية وظهور الفكر العلمى، ولم تعد مواقع الكاثوليكية ومواقع البروتستانتيه تتشابكان فى صراع تقليدى ولا فى سياق تاريخى اقتصادى عامة، فلم يعد النظر إلى البروتستانتيه فى الواقع بحيث يمكن من تأكيد تفوقها أو عدم تفوقها ثقافيا بالنسبة إلى العالم الكاثوليكى بل كان العكس إذ لاشك فيما خلقت البروتستانتية من هذا الخلاف الذى أقر انطباعا أصليا فى مجال الثقافة

---

(١) حركة دينية نشأت فى ألمانيا فى القرن (السابع عشر).

الأوروبية ولابد لتفسير هذا الانطباع من التمييز بين البروتستانتية الأولى لمكافحة التى ظهرت فى القرن السادس عشر والبروتستانتية الظافرة التى استقرت فى القرن الثامن عشر وسرعان ما وقعت حركة الإصلاح فى ذلك العناد نفسه الذى كانت تلوم عليه الحركات الأخرى... حرية الثورة وبذلك أرست قواعد بنيان صلب كما فعلت حركة القرون الوسطى الكاثوليكية فقد خضع كل شئ لقيم الوحى (قانون الطبيعة) فالدولة والمجتمع والتعليم والاقتصاد والعدل كلها على قمة الكتاب المقدس أما مفسروا الكتاب فهما الدولة والكنيسة البروتستانتيةولا حاجة بنا إلى أن نذكر أن هذا النظام لا يخلق الحرية الدينية، امتشق السلاح فى الأصل من أجلها، وذلك أن النظام الآمر والقوة واليد الحديدية إنما كانت للكنائس البروتستانتية الأولى فى مدينة بال (سويسرا) كما فى زيورخ حيث يفرق المنادون بإعادة العماد المنفرين، وفى هولندا[1] وقعت مذابح مماثلة حيث طورد هؤلاء التعساء الذين ينكرون الثالوث الأقدس وألوهية الابن ويتصدون للكنيسة والدولة والأثرياء وتعلق لهم المشانق على يد الأنصار الخاضعين للبابا... ولكن ما اسم من استطاعت حركة الإصلاح معاملتهم بنفس المعاملة القاسية؟ فقد قرأنا قصة ذلك الطبيب الأسبانى المعترض، فكان أن اعتقل فى جنيف عند خروجه من جلسة وعظ وكان اتهم بأنه ضد الثالوث المقدس وبأنه من أنصار الحلولية ثم عذب وأحرق ويبدى سيباستيان كاستيليون عام ١٥٥٤ وفى كتابه المثير اشمئزازه مما حدث وكان من أنصار الحركة الإصلاحية المستنيرة الليبرالية فيها جم سيد مدينة جنيف الذى أحبه وخدمه من قبل وقال فى كتابه ما من أحد مثلى يستطيع إدراك معنى أخطاء حركة الإصلاح وجرائمها الظافرة ثم يستطرد قائلا.. كيف ولم هذا التسرع بالاتهام بالهرطقة؟ بحيث إذا أراد إنسان اليوم أن يعيش كان حتما عليه أن من الإيمان والأديان قدرا كبيرا ومهما كان من سكان الحضر أو من أنصار الله[2] كالمسافر من بلد إلى آخر يضطر إلى استبدال نقوده من مكان لآخر فما يصلح هنا لا يصلح هناك وذلك إذا ما أراد التمتع بحرية التغيير، أما هؤلاء المنادون بإعادة التعميق بمفهومهم وتفكيرهم وما يكتبون عن كلام الله فإليهم وحدهم يؤوب

---

(١) المذهب القائل بأن الله والطبيعة شيء واحد (أى وحدة الوجود)

(٢) أنصار مذهب سوسين بإنكار الثالوث وألوهية المسيح.

مصيرهم الذى يتحملونه، ظل هذا الصوت العادل منعزلا ويائسابين أنصاريملؤهم شعور الوجد والحماس حتى أصبح واجبا فى القرن السابع عشر زمن النزاع بين أنصار كالفن المنادون بالاستسلام المطلق وبين المنشقين الأرض أو السونيدن إعادة طبع هذه الكتب وإعادة توزيعها وذلك ما كان فى مدينة أمستردام حيث طبع أحدها بالعنوان المثير المميز دشمعه ساڤوا ذلك لأن سافوبار كاستلليون[1] سوف يصبح فى حقيقة الأمر منذ ذلك التاريخ من الأنوار التى سطعت تعلن عن المسار الجديد الذى سارت فيه أخيرا البروتستانتية.

وكانت البروتستانتية الجديدة تؤيد حرية السرائر (الضمير) فبدأت قسوة العقيدة من ثم تخف وطأتها بالتدريج خصوصا فى القرن الثامن عشر كلما حققت ضغوط الكاثولوكية وخف نشاط حركة الإصلاح العادى غير أن تطور البروتستانتية ذاتها وما بدأت تنادى به من حرية السريرة على نفس مسار عصر الاستنارة تحت نفوذ التطور العلمى قد جعل من الصعب التمييز كما هو الحال دائما بين الدافع والأثر وكذلك القول بأن البروتستانتية فى عودتها إلى منابعها الروحانية قد قادت أوروبا فى طريق الاستقلال الروحى أو على العكس فإن العقيدة البروتستانتية بتطوير نفسها لم تهتم بالتطور العام للفكر الفلسفى والعلمى الذى ساد البلاد الأوروبية ولا يمكن أن ننكر أن البروتستانتية على عكس غريمها الكاثوليكى قد تداخلت واندمجت فى العصر الليبرالى الكبير كما لا ننكر كذلك بالقدر نفسه أن هناك بلاداً ذات تكوين وتقليد كاثوليكى كفرنسا وجدت نفسها على قمة هذه الحركة نفسها وعلى العموم نجد البروتستانتية تولى وجهها شطر حق الفحص الحر وحق نقد تاريخ النصوص المقدسة، أى إلى نزعة عقلانية فى عبادة الله وحده فبدأت بسرعة تتصالح مع نفسها، وهكذا كان حال كل الملل الهامشية التى كانت حتى ذلك الوقت مبعدة منفردة على الهامش كأنها نزعات مريبة مشكوك فيها ومنها مذهب الأتقياء الأطهار (البيورتيان الذين يتمسكون بأهداب الفضيلة فى انجلترا وأنصار مذهب إعادة التعميد فى كل من ألمانيا وهولندا وحققوا نجاحاً بارزا فى انجلترا وعبروا بها إلى أمريكا حيث شيدوا مستعمرة قدر لها أن تكون إحدى

---

(١) عالم لاهوت فرنسى ولد فى ١٥١٥ ـ ١٥٦٣ كتب ترجمتان للكتاب المقدس إحداهما بالفرنسية والأخرى باللاتينية.

الجماعات النشطة البروتستانتية بالولايات المتحدة الأمريكية وفى آواخر القرن السابع عشر بدأت تعاود الظهور ملة ذوى الإلهام التى كانت قد ظهرت فى القرن السادس عشر بفضل أتباعها الذين أطلق عليهم اسم الأصدقاء وعرفهم العالم فيما بعد باسم الكويكرز(١) أى الصحابة الصاحبين الأصحاب ومعهم وليم بن عام ١٦٨١ الذى أسس قواعدة فى بنسلفانيا وكذلك نشأت إعادة التجديد فى ألمانيا لصالح مذهب التقوى(٢) وقد أسسها قسيس من الرعاة الصالحين اسمه فيليب جاك سبينر فى ظل حماية أمير من أمراء الإمبراطورية الرومانية المقدسة من أسرة براندنبرج وقدر له من بعد عام ١٧٠١ أن يكون أول ملوك بروسيا فر يديريك الأول كما أسس سبيز جامعة هال القوية عام ١٦٨١ وقد ثارت عليه كل جماعات أنصار لوتر حول منتصف القرن الثامن عشر ولم تدم حركة على قوتها سوى حركة الميتو ديزم الانجليزية (حركة دينية إصلاحية نهجية) مؤسسها ويسلبى وايتفيلد على أنه لا يهم هنا تعداد هذه الملل والنحل وانتصاراتها وانكساراتها سوى بإبراز تألق الفكر البروتستانتى فى إطار مشاعر دينية لم تعد تفرض النزعة اللاهوتية الصارمة والمتشددة وقال فى ذلك فرديناند بريسون عام ١٩١٤ أحد الأكاديميين البروتستانت أن اللاحرية لا تطابق ولا تماثل عقيدة دينية ولابد من انقضاء إحداها لتعيش وتدوم الأخرى وهذا ما يقر عمق الخلاف بين المجتمعات البروتستانتية والمجتمعات الكاثوليكية الآن فالبروتستانتى دائما وحده مع الله ويستطيع إعداد عقيدته الدينية الخاصة ومعايشتها والبقاء على وفاق مع العالم الدينى ويظل مسايرا، وأفضل من ذلك قدرته على أن يجد بين عديد من هذه الحركات الدينية واحدة منها تحل مشكلة الخاصة بدون ألم، ويمكننا أن نقول إن الخلافات الشديدة بين هذه الملل والحركات الدينية تتقاسمها أحيانا كثيرة جماعات طبقية اجتماعية متنوعة كاختلافها، وهكذا نرى أن المجتمع البروتستانتى يتجاهل مايسود المجتمعات الكاثوليكية العصرية من هذا الانشقاق بين العلمانى والدينى إذ على كل إنسان أن يختار بين نوع معين من خضوع النفس وبين قطيعة مع الكنيسة التى هى بمنزلة تجمع سواء أكانت أو لم تكن فكل النزاعات الروحانية

---

(١) شيعة الصاحبين البروتستانتية التى تدعو إلى السلام والبساطة وحب البشر

(٢) حركة دينية نشأت فى ألمانيا فى القرن ١٧ وأكدت على درسة الكتاب المقدس.

مفتوحة واتخاذ المواقع إلزامى ضرورى، أما المجتمع البروتستانتى فمعلقه على النزاعات الروحانية داخلية التى لا تتوقف عن الظهور ومن هنا نستطيع إدراك أسباب تلك السلسلة عن الخلافات التى تقسم بها سلوكيات كل من/ الأنجلوساكسونيين وأوروبا الكاثوليكية ومواقفها وكلها حدود خصومات غير منطقية ولا سبيل إلى مجرد تبسيطها وتظل النزعة الإنسانية الثورية سمة من سمات أوروبا ويوصى بها كل تاريخها ويكررها فقد كانت أوروبا ولازالت إلى النهاية مع ذلك، مضادة للثورة، هذا باستثناء الثورة الفرنسية فهى الوحيدة التى كان لها معنى أوروبى ودولى قبل الثورة الروسية التى اندلعت عام ١٩١٧، ولم يكن معروفا قبل هذه الثورة الروسية سوى الثورة الفرنسية رغم نشوب عديد من ثورات أخرى كانت أقل أهمية فى كل البلاد الأوروبية التى لم تعرف الهدوء، ومن بينها ما سبقت الإشارة إليه من انتفاضات الفلاحين بين القرن الرابع عشر والقرن السابع عشر وواضح أن أغلبها لايصدق عليها لفظ ثورة بل كان أقرب إلى الحركات التحررية الوطنية كثورة المقاطعات السويسرية وانتصارها الحاسم عام ١٦٤٨، وثورة المستعمرات الإنجليزية فى أميركا فيما بين ١٧٧٤ و١٧٨٢ وأمريكا الأسبانية بين ١٨١٠ و ١٨٢٤ أو كذلك حركات الانفصال العنيفة سواء كانت بالاتفاق الودى أو بشكل خشن فظ فى البلاد الاسكندنافية: السويد والنرويج والدانيمرك وكلها حركات أقرب إلى ردود الفعل ضد الدولة الحديثة، وأكثر من ذلك ضد «الأجنبى» الداخلى بهدف تحقيق نوع من الإصلاح الذاتى وكانت الثورات الجديرة بهذه التسمية قبل عام ١٧٨٩ هما الثورتان الإنجليزيتان الأولى: الدموية العنيفة، والثانية. الهادئة عام ١٦٨٨ أما الثورة الفرنسية التى قوضت أركان أرسخ الدول الأوروبية نظاما فكانت مختلفة آثارها حين امتدت على مسرح الأحداث فى أوروبا من عام ١٧٨٩ ـ ١٨١٥ رمزا قادرا فى كل جيل على استعادة شبابه والتغذى بمشاعر جديدة مازالت منذ ذاك تتأكد كل يوم وقد ذكر أحد المؤرخين الفرنسيين حين زار روسيا أنه وجد زملاءه الروس ينسبون إلى الثورة الفرنسية فضائل ثورتهم كما روى هذا المؤرخ نفسه فى البرازيل أنه أثناء محاضرة له فى كلية ساوباولو عام ١٩٣٥ عن الثورة الروسية ونزعاتها الإنسانية فوجئ

بدهشة الطلبة من حديثة الذى رأوا فيه نوعا من انتهاك المحرمات وصاح أحدهم لتكن رؤيتك لهذه الثورة الروسية كما تراها أما نحن فنحن فى انتظار مثل الثورة الفرنسية ثورة عام ١٧٨٩ وهكذا عاشت الثورة الفرنسية فى نفوس الناس أجمعين حتى اليوم ولازالت فى فرنسا مفاهيم الثورة الفرنسية تسيطر سيطرة كاملة على الفكر النقابى والثورى بل على الفكر السياسى، ولقد نشبت فى الواقع ثورتان أو ثلاث أو أربع ثورات فرنسية أخرى؛ ولكن الثورة الفرنسية الأصلية كانت أشبه باستهاب ذى الأدوار المتتالية إذ تجلت فى بداياتها كانطلاقة تحررية ذات اتجاه معتدل مع بعض المشاهد الدرامية كالاستيلاء على مبنى الباستيل وماساد الجو من خوف أكبر كما أن من مراحلها الأربع المتتالية تمرد الأشراف (طبقة النبلاء) عام ١٧٨٨ ثم تمردا بورجوازيا (طبقة القانونيين التى سميت بتجمع الولايات العام ثم ثورة مدن حضرية ثم ثورة الفلاحين وكانت الثورتان الأخيرتان حاسمتين

وأعقبتهما ثورة عنيفة عشية إعلان الحرب فى ٢٠ أبريل ١٧٩٢ ضد النمسا وكانت حرب عام ١٧٩٢ هى التى أدت إلى تحول الثورة الفرنسية كما ذكر القونس أولارد ثم احتلال الأراضى المنخفضة (أى هولندا) بعد مدينة جيماب[١] ومن ثم لم يعد ممكنا تجنيب النزاع، ولنعترف بأن الثورة وهى تؤسس فرنسا دولة من الدول الحديثة قد كشفت النقاب عن قوتها وهيأت الانفجار وانقضت هذه المرحلة بعنفها داخليا وخارجيا إثر سقوط روبسبير ٢٧ ـ ٢٨ يوليو ١٧٩٤ وكانت الثورة الثالثة إذا ما أطلقنا عليها ثورة كذلك (من ٢٨ يوليو ١٧٩٤ وحتى ٩ ـ ١٠ نوفمبر ١٧٩٩ تشبه أحداث الشهور الأخيرة من أجل اتفاقيات المشارطة، وعلى مدى حكومة الإدارة وشملت الثورة الرابعة زمن القنديلة بأسره وعهد الإمبراطورية وفترة المائة يوم (١٧٩٩ ـ ١٨١٥) ومن المؤكد أن نابليون استمر فى توطيد أركان الثورة والسيطرة على مجريات أمورها بالإضافة إلى التقلبات الدرامية التى واكبت مصيره وهشاشة نظام حكم غير شرعى، وكان لزاما عليه أن يصحح أوضاعه وأكسبها الشرعية مهما يكلفه الأمر ومهما كانت العقبات والمصاعب، ثم كان بعد معركة أوسترليتز أن دخل الإمبراطور فرانسوا الثانى مع تصفيق أنصاره مدينة

(١) جيماب: مدينة فى هولندا انتصر فيها القائد الفرنسى دميدييه على الهولنديين عام ١٧٩٢.

فيينا عائدا إليها حيث قابل السفير الفرنسي وقال له في وقاحة: سيدى... هل تعتقد أن رئيسك كان يستطيع العودة إلى باريس كعودتى هذه ... بعد أن هزمت في معركة كتلك التي فقدتها الآن؟ وكان مغزى هذه الوقاحة ومعناه نفسه حين صاح فرنسي من أنصار الملكية وسحرهم انتصار نابليون .. يالسوء الحظ إنه ليس واحدا من البوربون[1]، كان مقدرا للثورة الفرنسية في مستهل أيامها أن تكون استبدادية ذات اتجاه عقلاني مستنير وكان خلال هذا التاريخ الحافل الصاخب أن اتسمت في مجملها بنوع من الشذوذ ... وتحول غير متوقع فقد كان ممكنا في ربيع عام ١٧٩٢ ثورة هادئة ناجحة على النمط الإنجليزي في الاعتدال الذى راود كثيرا من العقول الفرنسية المستنيرة من أمثال فونتيكيو إذ كتب عام ١٧٢١ في مؤلفه رسائل فارسية يقول يجب ألا تلمس القوانين السائدة إلا بيد ترتعش أوروسو (جان جاك روسو) الذى كان يعتقد أن شعبا قديما كالشعب الفرنسي لايستطيع البقاء بهزات وصدمات ثورية فحين ينكسر «حديدها» (يقصد سيوفها تسقط متناثرة وتندثر بلا رجعة) وتتوافق بدايات الثوروة مع هذه الروح إصلاحات أكثر منها ثورات وكان ممكنا أن يتولى شئونها ملك حازم يقود مسيرتها، ولكن فضائح كل من ميرابو[2] وبار ناڤيه[3] لم تكن كافية لإقناع لويس السادس عشر بالتخلى عن امتيازاته التي كانت تغمره وجعلته أسيرها في بلاط ذاته أو التنازل عن بعضها ... وعلى العموم فهذه قضية أخرى... قديمة لافائدة ترجى من إعادة فتحها.

ولم تكن المرة الأولى التي أهملت فيها الحلول ذات المعاني والأهداف الطيبة إذ عطلت نداءات المصلحين المستنيرين في فرنسا وضرب بها عرض الحائط منذ بداية حكم لويس السادس عشر حتى إبعاد ترجو عام ١٧٧٦ وكان المصير نفسه قدر كل برامج الإصلاح التي أرسى قواعدها في أوروبا أنصارها المؤمنون «بالاستبدادية المستنيرة» بل أولئك الذين كانوا يعتقدون أن حسبك كسب ود الملك أو الأمير وبذلك يصحح كل شئ، ولكن ملوك وأمراء عصور الاستنارة إنما كانوا يفضلون أنصاف الحلول وأنصاف الإجراءات حتى قلص فريد ريك الثانى

---

(١) أسرة البوربون التي حكمت فرنسا من القرن العاشر حتى القرن الثاني عشر.
(٢) ميرابو ماركيز فرنسي من خطباء الثورة الفرنسية.
(٣) بارناڤ سياسي فرنسي قطعت راسه أثناء فترة الإرهاب.

امتيازات النبلاء إذ نفذ ذلك بنوع من «الاعتدال» بحيث صارت الدولة البروسية عام ١٧٨٧ عند وفاته مسرحا لإرهاصات واسعة للإقطاعيين والنبلاء، ترى هل كان فى مقدور لويس السادس عشر أن يفعل مالم يستطع فريدريك الثانى أن يفعله؟ وهل توقع أحد منه ذلك؟ لقد لجأ حين أوشك زمام الأمور أن يفلت إلى المساعدة الأجنبية فأثار بفعلته هذه القوى المضادة الثورية واختلفت ردود الأفعال الأوروبية وسرعان ما طفقت الثورة حين فوجئت بردود الأفعال الخارجية تتخبط فى مسارها الخاطئ الذى لم تكن خططت له ولاكان محركوها قد استهدفوه.. وقد اعترفوا بذلك كما قال كارنو: إن قوة الأحداث تقودنا أحيانا إلى نتائج لم تكن أبدا قد فكرنا فيها وكان هذا الطريق المفاجئ مسلكا قاسيا أليما بالنسبة إلى الثورة والآخرين فما تماسكت الثورة إلاشهوراً فقط حتى سقوط وبسبير حيث فتح باب «ردود الفعل» وباب الأمل فى عودة الحياة ومباهجها... وصارت باريس أكثر بهجة بل وقعت تغيرات كثيرة بعد نهاية روبسبير(١) ولكن هل كان ميشيليه على حق فيما ذكر من الثورة الفرنسية انتهت عام ١٨٥٣ ؟ لم يكن ذلك صحيحا قطعا فقد عادت فرنسا إلى الثورة العاقلة ولم يقطع أحد فى الخارج بانتهاء الثورة فقد كتب السفير الروسى فى انجلترا رسالة باللغة الفرنسية إلى حكومته ١٧٩٧ يقول: إن ما كان محتمل الوقوع قد وقع بالفعل فى باريس حيث قام النظام الثلاثى التريمقيرا من ثلاثة وزراء فقط، فعمدت تلك الحكومة الدكتاتورية إلى اعتقال اثنين من المديرين (الحكام) و٦٤ من أعضاء مجلسيها دون أى شكل من أشكال المحاكمات وسوف ينفون إلى جزيرة مدغشقر، وهاهى ذى الحرية الفرنسية الجميلة وهاهو ذا الدستور الجميل الذى يتحدثون عنه!!.. إننى أفضل أن أعيش فى المغرب لا فى هذا البلد الذى يتشدقون فيه بالمساواة وبالحرية.. فإذا ماتساءلنا: لم هذه الشراسة الفظة؟ فذلك لأنهم فى الخارج لا يتحدثون ساخرين منهكمين عن «الحرية الفرنسية الجميلة» وها هو نابليون وباسم الثورة الفرنسية ينتقل من غزوة إلى أخرى موطدا دعائم القوانين والعادات وذلك على الرغم مما تنطوى عليه القلوب من حقد وكره يثيرهما المحتل.. أى محتل وطفق هيجل وجوته (فيلسوفان

(١) روبسبير من خطباء الثرة الفرنسية ولعب أدوارا كثيرة وعدم شنقا هو وأخوه

ألمانيان) يؤيدان نابليون فى مواجهة قارة أوروبا الرجعية والمتأخرة جدا على صعيد التطور السياسى والاجتماعى السائد وقتئذ فى فرنسا وكانوا يتمثلونها كروح الدنيا تركب حصانا وذلك فى كلمات الفيلسوف هيجل، وظلت الهواجس تنتاب البلاد الأوروبية خوفا من غزوة نابليونية عاجلة وهكذا عاشت ردود أفعال الثورة الفرنسية فى عقول أوروبا بين معجب بها أو لاعن لها وامتدت آثارها عبر دول الغرب ونقاسمتها قلوب سكان أوروبا ووجهت مشاعرهم ثم بدت أخيرا الثورة بألوانها العنيفة وقديسيها وشهدائها وبآمالها الناجحة أحيانا والخائبة أخرى وإن أمكن دائما استعادتها، وهكذا بدت الثورة الفرنسية فى مستهل القرن التاسع عشر .. مثل الإنجيل.

رسالة الثورة الفرنسية

بعد عام ١٨١٥ ران الصمت على الثورة الفرنسية ومع ذلك فقد ظلت قابعة فى القلوب والضمائر بما حققته من منجزات وحركة للإصلاح لم ترجع عن الامتيازات الاجتماعية الملغاة (حقوق الإقطاع على وجه الخصوص) كما لم ترد الثروات الوطنية إلى أصحابها القدامى وظلت المكتسبات الثورية تحت حمايتها كحقوق الفرد التى منحت للمواطن بموجب إعلان عام ١٨١٤ وعندما بدا فى الأفق أن حكومة شارل العاشر قد تتقبل رد فعل جديد هاجت الجماهير على الفور واهتزت الملكية وبدأت لهجة الثورة (مبادئها) تعود إلى الظهور من جديد وبدأت تلوح فى الأفق كلمات جان جاك روسو: إنكم صائرون إلى الهلاك إن نسيتم أن الثمار ملك للجميع أما الأرض فلا أحد يملكها وربما يفسر ذلك لنا كيف استطاعت الثورة حتى أيامنا هذه أن تتكلم باللغة التى تريدها كل أجيال هذه الرموز بعد الانحسار الظاهر للإمبراطورية الثانية عام ١٨٧٥، ركائز مبادئ الجمهورية الثالثة. وتستمر الحركة الاشتراكية إحدى دعائم الثورة فى مسيرتها. وأما مايثير ذكريات الحركة الإنسانية الثورية فهو أساسا مشروعية العنف فى خدمة الحق.. العنف سواء كان الثورى هو الفاعل أو كان الضحية ذلك أن الهبوط إلى الشارع إنما يعنى أنك تسقط فيه بعد أن تصبح صيحتك الأخيرة محتجا أو معترضا قبل السقوط ولكنها شجاعة العنف.. .. شجاعة الموت أو شجاعة تسديد الضربة حيث

لا يمكن تقبلها إلا إذا كانت هى الطريقة الوحيدة لإخضاع القدر وجعله أكثر «إنسانية» وأكثر أخوية» وباختصار رفاق الثورة إنما تتدفق من رهان مماثل وعيبها إزاء التاريخ هو النظر إلى الخلف... فى محاولة للرجوع إلى الخلف.. ولذا فلا سبيل إلى العودة إلى الماضى بغير صعوبة وتخطى عقبات كثيرة لتحقيق فوز يدوم لحظة، أما على المدى الطويل فلاسبيل لأى فعل أن يكون ذا وزن فى مسار التاريخ ويدوم إلا إذا اتخذ هذا الفعل مسار التاريخ... وإلا إذا استطاع أن يضيف سرعته إلى سرعته الخاصة بدلا من محاولة وقفة أو تعويقه بلا جدوى، وربما جاز لنا أن ندهش من أن ٨٩ (عام الثورة) استخدم كمشعل أثار حركات الكتل الجماهيرية الضخمة التى ثارت بين العمال حتى القرن العشرين أولا لأن ثورة عام ١٧٨٩ فى أهدافها الأولى وفى نتائجها ظلت واحدة فى الثورات الحصيفة الرزينة مع سيرتها الأسطورية المليئة بالمعجزات وأنصاف الآلهة والعمالقة والجبابرة، وقد خفف من أضواء هذه الثورة وغشاها رشد التاريخ الموضوعى المحايد على خلاف مؤرخى اليسار الذين يرون تركيز حماسهم الثورى على شهادة الوثائق فانقذوا الثورة، ومن ثم كثيرا من قديسيها ومع ذلك ظلت رسالة الثورة الفرنسية تتألق بكل النقاء والوضوح. وقد أعادت هذه المراجعة وأعادت النظر فى الأمور والأحداث: الاعتبار والأهلية للفترة «الحمراء» لعصر «الرعب»[1] وأبرزت معنى الآلام التى تحملها الشعب فى تلك الأيام.. الآلام التى كابدها تماما كتلك التى كبدها الآخرين وحكم بها عليهم وحاول تسويغها بحسن نيته «للتخفيف من آثارها المأساوية... ومنذ ذلك التاريخ ظهر ماسمى بعهد النزاهة وبرز جراشوس بابوف (من الأبطال) الذين جاءوا متأخرين قبل كارنو «منظم الانتصار» أودانتون ووصلتنا لغتهم ومنطقهم... لغة قوية ذلك لأنها كانت لغة «التوقعات» منها كان منح كل مواطن حق الإدلاء بصوته وفصل الكنيسة عن الدولة ومرسوم فانتوز الذى كان يتوقع نوعا معينا من إعادة توزيع الأراضى والثروات... أى أن كل هذه الانتصارات التى لم تدم طويلا وحققتها الثورة الفرنسية وتنكر لها للأسف بعد زمن

---

(١) فترة الرعب هى فترة من فترات الثرة الفرنسية اتسمت بالدموية من صدور قانون الاشتباه فى ١٧٩٣/٩/٥ وسقوط روبسبير فى ١٧٩٤/٧/٢٧ وفيها أنشئت محاكم الثورة التى حكمت على مايقرب من ٤٠٠ شخص بالإعدام.

الترميدور[1] كلها إنجازات بلا أدنى شك فقد ينقضى زمن طويل حتى ترتد إلينا ونتواثب نحونا وتصبح بعضا من تراثنا وميراثنا.

وبفضلها على أى حال تعيش اليوم بيننا تلك الاتجاهات الإنسانية الثورية التى برزت منذ عام الثورة عام ١٧٨٩ ـ أما التردد والحيرة وما تمثله من تحفظات فى اشتراكية الأمس الأوروبية خصوصا فى مواجهة الشيوعية (التى خلقت مثالية أخرى وشكلا آخر من أنماط الثورات) كالاعتراضات التى أثارها جواريز مثلا ضد الأفكار الماركسية عام ١٩٠٥ بعد عقد الاتفاق مع جول جيسد منشئ الوحدة الاشتراكية برعاية المانيفستو الشيوعى.. وكلها علامات تشير إلى أيدلوجية يسارية تغذيها كذلك الذكريات والألفاظ وقد رفضت أن تماثل ثورتها ثورة ماركس وثورة الروس السوفييت فيما بعد، ونتساءل: ألم يشرجواريز فى كتابه «التاريخ الاشتراكى للثورة الفرنسية» إلى أنها سوف تكون فى الوقت نفسه مادية مع كارل ماركس وصوفية زاهرة مع ميشيليه؟ أى أمينة مخلصة تجاه الزهد الثورى كما قال ميشيلية؛ أى تجاه الميراث الحى الذى تركته الثورة الفرنسية، وهاهى الحضارة الغربية فيما بعد داخل فرنسا وخارجها تتقاسم ـ متأخراً وبصورة ناقصة مثالية ـ ثورة ١٧٨٩ وتخفف كذلك من حملها.

---

(١) الشهر الحادى عشر من السنة الجمهورية الفرنسية

التفكير العلمى

قبل القرن ١٩

تسيير انبثاق الفكر العلمى فى أوربا فى القرن الثامن عشر قضية العلم الحديث فقد سبقه مايمكن أن نطلق عليه مرحلة العلم المبكر تماما كما نطلق اسم الصناعة المبكرة التى سبقت عصر انبثاق مرحلة التصنيع، ولسنا نحاول هنا تحديد الزمن الذى سبق وفصل بين الاثنين، وليست القضية التى تطرح نفسها هى كيف بل لماذا هذا الاتجاه العلمى فى حضارة الغرب؟ ولنأخذ بقول چوزيف نيد يلهام العالم الكيميائى المتخصص فى حضارة الصين: لم تنشئ أوروبا أى نوع من العلم بل خلقت علما دوليا وخلقته لها وحدها أوتكاد، فإن كان الأمر كذلك فلم لم تبدأ مرحلة انبثاق العلوم فى إطار الحضارة المبكرة كالصين أو الإسلام، على سبيل المثال هناك مراحل متتالية للنمو العلمى ولنفترض نقطة البدء، لم يعرف العلم الغربى منذ القرن الثالث عشر حتى يومنا هذا سوى ثلاثة تفسيرات عامة. أى ثلاثة نظم هى مرحلة أرسطو وآرائه وتفسيراته العلمية النظرية التى سادت الغرب مع بداية القرن الثالث عشر وفيما كان يمثل تراثا قديما جدا ثم عصر أ فكار ديكارت ونيوتن التى نهض عليها العلم الكلاسيكى الذى يعد البناء الأصلى للغرب هذا إذا نحينا الأفكار التى توصل إليها أرشميدس وأخيرا ظهور نظريةِ النسبية لإينشتاين عام ١٩٠٥ بما فتحت من أبواب العلوم العصرية الحديثه. وكل هذه الأفكار هى

التى سادت مسيرة التطورات العلمية. وهى حقا لا تمثل هذه المسيرة كلها إذا تخللتها مشاكل وقضايا معقدة إذ لم تكن أحياناً تساير الأحداث ولاالواقع فكانت من ثم تتطور إلى ماانتهت إليه كتاريخ عام للعلوم..كانت لحظات حاسمة.

وكان مذهب أرسطو وآراؤه ميراثا قديما جدا يمثل المرحلة الأرسطية (القرن الرابع قبل الميلاد) حيث وصلت رسالته الأساسية إلى الغرب عن طريق الترجمات المتأخرة من طليطلة (أسبانيا) وعن تفسيرات الفيلسوف العربى أفيروس ابن رشد لآراء أرسطو ومذهبه ففى فرنسا عام ١٢١٥ قامت ثورة علمية حقيقية قلبت مناهج التعليم رأساً على عقب كما تدرس أساسا اللغة اللاتينية وآدابها وشعراؤها خاصة، واستبدلت بالمنطق الصورى وولجت الفلسفة كل شىء وألغت كل شىء، تضاعفت ترجمات أرسطو التى أثارت كثيراً من النقد، ثم بدأ صراع فكرى بيد «القدامى» والمحدثين. وفى بعض أبيات من الشعر نظمها أحد شعراء هذا الزمان حوالى عام ١٢٥٠ يقول الفيلسوف للشاعر: لقد كرست نفسى للمعرفة (أوللعلم) على حين تفضل أنت الأشياء الصبيانية والنثر والإيقاع وبحور الشعر فبماذا تفيدنا كلها، قد تعرف قواعد اللغة ولكنك تجهل العلوم والمنطق.. لم إذن تنتفخ أوداجك ولست إلا أحد الجهلاء، وقد نمت مناهج ونظم الدنيا بفضل نظريات أرسطو وسادت كل ربوع أوروبا حتى القرن السابع عشر بل والقرن الثامن عشر ذلك أنها لم تستسلم فور هجوم كوبرنيك وكيبلر وجاليليه. ومن المتفق عليه أن فيزياء أرسطو زالت آثارها ولم تعد سوى إحدى النظريات العالية رغم أنها لم تكن فيزياء رياضية، كذلك نجد أن أرسطو نادى بأولوية بديهية هى وجود وحدة كونية أو كوزموس، ولكن هل اتجه آينشتاين اتجاها مغايرا إذ سأ له بول فاليرى ولكن قل لى ماذا يثبت لى أن هناك «وحدة» فى الطبيعة فيرد عليه أنها عقيدة إيمانية ويستطرد فاليرى فيما بعد فيقول: لا أعتقد أن الله يلعب النرد مع الكون، هذه الوحدة الكونية التى توصل إليها أرسطو هى أشبه بنظام ما، فكل «جسد» له موقعه الطبيعى وعليه أن يتبقى فيه فى راحة سرمدية وهذه هى الراحة الدنيوية بين الكون وأفلاكه المتتالية على حين تهز الكون سلسلة من التحركات: حركات طبيعية (كالجسم يسقط على الأرض) فالجسم خفيف الوزن كشعلة اللهب أو

الدخان الذى يصعد إلى السماء، وهو مايشبه حركة النجوم والكواكب الدائرية أو الأفلاك السماوية فى حركاتها العنيفة غير العادية ماعدا استثناءً واحدا هو الجسم المنطلق كالقذيفة المنطلقة فى حركة غير طبيعية وليست على اتصال بمحرك أى أنها «ليست مدفوعة، ولا مقطورة وستنطلق هذه القذيفة وسط الهواء الذى تخترقه.. هذه هى نقطة الضعف التى ظلت محل هجوم، انصب هذا الهجوم كله حتما على القضية التى طاما أثيرت وتوالت توابعها عن تسارع سقوط الأجسام أو جمودها وناقشها فى القرن الرابع عشر من الإسمائيين (١) كثيرون مثل: أوكام وباريدان والعبقرية الرياضية أوريزم الذى يعترف بقانون الجاذبية ونسبية وتناسبية السرعة لولا أن أفكاره لم تجد آذاناصاغية، وكانت معارك رائعة تخللتها أبحاث عديدة أدت إلى إنزال أفكار أرسطر عن عرشها تمهيدا لبزوغ علم الطبيعة والعلوم الكلاسيكية، وتبوأت نظريات نيوتن مكانها ولاشك أن هذه القفزة إلى الأمام كانت ثمار أفكار نادرة تناثرت بعضها مع بعض هنا وهناك، إذ كان العلم قد أصبح دوليا يتخطى الحدود السياسية أو اللغات وامتلات سماوات الغرب بالعلوم، ولاشك كان مبعث التقدم فى المجالات العلمية، كذلك التقدم الاقتصادى الذى نشأ فى القرن السادس عشر فضلا عن انتشار الفكر اليونانى بفضل الطباعة التى عرفت فأمكن من ثم التعرف على نظريات أرشميدس متأخراً خلال أواخر القرن السادس عشر فساعدت كثيرا فى ظهور حساب التفاضل، غير أن التقدم فى مجال الرياضيات كان بطيئا كما يوردها أحد مؤرخى العلوم إذا يقول سار التقدم على فترات، فترات انتقالية: علوم الهندسة التحليلية بفضل فرمات حول عام ١٦٢٩، ١٦٣٠/ ١٦٦٥ ونظريات ديكارت (١٩٢٧) وعلم التحليل التوافقى عام ١٦٥٤ وديناميكية جاليلية (علم القوى) ١٥٩١ ـ ١٦١٢ ولم تكن علوم الرياضيات وحدها التى شغلت العلماء فقد وقع الأمر نفسه لعلوم الفلك كنظريات بطليموس فى مركزية الأرض التى كشفت أن الأرض مركز الكون ثم الانتصار البطىء لكوبر نيكوكوس ١٤٧٣ـ ١٥٤٣ وكيبلر ١٥٧١ـ ١٦٣٠) وكان ماتحقق أكبر من حدث علمى ارساء قواعد نظام عالمى جديد ونقصدبه العلم التجريدى على أساس من نظريات ديكارت

---

(١) مذهب الإسمائيين أومذهب المفاهيم المجردة أو الكليات التى ليس لها وجود حقيقى وإنما مجرد اسماء.

الهندسية وأكثر منها نظريات نيوتن القائمة على أن الأجسام تتجاذب بسبب مباشر طبقا لكتلتها ومداها.. وقد واجه هذا العالم المبتكر هو الآخر صعوبات حيث عبر كل الثورات العلميه التى وقعت فى القرن التاسع عشر حتى ظهرت نظرية النسبية التى اكتشفها آينشتاين وكانت كشفا رائعاً للكون.

كل هذا الكون فى ثوبه الهندسى الدقيق لايعود إلى رأى من تحدثنا عنهم من العلماء وحده وإنما تقتضى الأمانه أن ننوه بمكانة رينيه ديكارت ١٥٩٦ ـ ١٦٥٠ التى يستحقها بينهم، ولنفتح له قوسين ونقول إن الرجل كان يتحلى بالتواضع والرصانة والحساسية فقد عاش من عام ١٦٢٨ باستثناء رحلات فى هولندا بعيدا عن فرنسا ومات فى استوكهولم وكان ضيفاً على ملكة السويد كريستنيجن وفى أمستردام حيث أقام طويلاً وهو مجهول من الجماهير، صنّف مؤلفاته القيمة انكسار الضوء التيازك والشهب والظواهر الجوية ثم مؤلف علم الهندسة وكلها نظريات تتحدى كل ماخرج به المنافسون والخصوم وبهذه المؤلفات وضعنا ديكارت أمام أول نقد منهجى حديث عصرى فى العلوم والمعرفة وضد كل الأخطاء والخدع التى ارتدت أثواب العلوم بغير حق وتخلص ديكارت بصعوبة عن النظريات الرياضية اليونانية كما تخطى آراء أسلافه من أمثال فيته دكافالبيرى أحرز تقدما فى نظرية المعادلات وكان علينا بعد ذلك انتظار جالوا (عالم رياضيات فرنسى وضع أسسا وقواعد فى علوم الجبر) وإذا كانت نظريات ديكارت فى الحساب لاتتعدى مدارك طالب الرياضيات حاليا فى مستهل حياته العلمية فإن ذلك لايمنع من أن نذكر مدى أهمية القفزة التى حققها ديكارت إلى جانب نظرية الجذور وتوابعها من جذر حقيقى أى إيجابى وجذر سالب وجذر تخيلى (وهمى) وغيرها، ولقد أقامت آراؤه أمام تحركات القرن السادس عشر وإنجازاته عن الفيزياء «النووية»، وأمام كل هؤلاء العقلانيين الذين ظهروا فى عصر النهضة ممن لم يروا فى الطبيعة إلا أنها أشبه بصندوق المعجزات أو تحديات أوهام. ثم تحل أعوام ١٧٨٠ ـ ١٨٢٠ لتضع أمامنا عقبة تتمثل فى ضرورة تخطى عتبة الباب الذى يؤدى بنا إلى العلوم العصرية الحقيقية. فألف جاستون باشتيلاء، كتبا قيمة فى تكوين الفكر العلمى عام ١٩٣٥ . وفيها أعطى للقرن السابع عشر حقه فى تمهيد

الطريق نحو العلم العصرى الحديث وكانت نوعا من التحليل النفسى للفكر العلمى فى قرن التنوير ولكنه لم يتناول الجانب الآخر عن الأخطاء والانحرافات والحماقات التى واكبت الفكر العلمى فى مسيرته، ولعل التجزئة فى العلوم تمثل أضخم عقبة فى القرن الثامن عشر.. تقسيم الأفكار العلمية، قطاعات بعضها عن بعض (مستقلة إحداها عن الأخرى) وهى اجتهادات علمية فى تقدم ملحوظ كالرياضيات والكيمياء والديناميكية الحرارية (وهو نوع من علم الفيزياء يتناول العلاقة بين الحرارة والطاقة الميكانيكية) والجيولوجيا والاقتصاد.. ولكن هل كان ذلك كله يعد علما..؟ وكذلك مجالات الطب والعلوم البيولوجية.. وكلها علوم تفتقد الرابط الذى يربط بينها، وقد بدأت هذه الصعوبات والعقبات تصحح نفسها ببطء فلم يحدث فى فرنسا اكتشاف « الأرض الجديدة» إلا بين عام ١٨٢٠، ١٨٢٦ سنوات إنشاء أكاديمية العلوم أكبر تجمع علمى يضم كل العلماء أمثال أمبير ولابلاس، ولوجندر، وبيوت، وبوانسوت، وكوشى (لويس دى بروجلى) وكان ذلك لصالح كل أوروبا ولكن يبقى أن نشرح أسباب تخطى عقبة الباب هذه السابق الإشارة إليها..؟ فنقول: إن الانطلاقة الاقتصادية المسبوقة فى القرن الثامن عشر أثارت الدنيا كلها، وأصبحت أوروبا هى القلب الحاسم وبدأت الحياة المادية والفنية تتضاعف طلباتها وضغوطها ويجئ الرد بأن العنصر الحاسم هو «المحرك» كنوعية ذاتية غربية - التصنيع وتلك الميزتان اللتان تزاملتا معا، فقد امتلكت الصين ولعلها سبقت الغرب بكثير .. علما.. أو مشروع علم متقدم راقٍ ولكنها فى سبيل عبور عتبة الباب هذه لم تعرف هذه القفزة الاقتصادية التى أثارت أوروبا ومكنتها من عبور العتبة وتخطيها وبدأت المدن التجارية تظهر فى العصور الوسطى وخاصة منذ القرن الخامس عشر عملت كل القوى الأوروبية سواء المادية أو الروحية كلها لميلاد هذه الحقبة الجديدة ثمرة حضارة فى زحمها ومسئوليتها التامة.

الفصل الثالث

تصنيع أوروبا

تصنيع أوروبا

من أكثر مهام أوروبا وواجباتها تحقيق ثورة صناعية وهى الثورة الصناعية التى انتشرت وتنتشر عبر كل بلاد الدنيا اليوم، وهذه الثورة الصناعية بحق نتاج جهود قارة أوروبا على مستوى حضارتها حيث بزغت منذ قرنين من الزمان تقريبا، ولم تكن قارة أوروبا حتى وقت زمنى قصير وعلى الصعيد المادى إلا واحدة من البلاد النامية تشق طريقها لابالنسبة إلى الدول المحيطة بها بل بالنسبة إلى ما سوف تكون عليه فيما بعد..أوروبا إذن فكيف استطاعت أوروبا عبور عتبة باب التصنيع.. وكيف كان رد فعلها إزاء تقدم صناعى من إبداعها وخلقها؟ تلك هى الأسئلة المطروحة للدخول إلى لب موضوعنا تصنيع أوروبا.

١- من الضرورى وصف حالة أوروبا قبل التصنيع حيث كانت تحاول تجاوز النظام السائد فى مناطق كثيرة من العالم.

٢- إن الثورة الصناعية ظاهرة معقدة مركبة ولم تنبت فى بقعة من الدنيا دفعة واحدة فقد ظلت قطاعات كثيرة تعوق مسيرتها كصناعة الصرف فى يوركشاير أو صناعة الخردوات حول مدينة برمنجهام حتى منتصف القرن التاسع عشر. تلك امثلة من بلد كان فى مقدمة الدول التى ظهرت فيها الثورة الصناعية. وهذا التنافر اليوم نراه فى بلاد أمريكا الجنوبية على سبيل المثال، وهو على كل حال تنافى أوتناقض مايظهر فى سماء كل بلد فى طريقه إلى التصنيع.

٣- ومثال أوروبا يثبت أن حركة التصنيع، ومنذ بواكير نجاحها تضع أمامنا مشاكل اجتماعية حادة فعلى البلاد التى تستهدف تصنيع نفسها أن تواجه فى الوقت نفسه ضرورة إعادة النظر فى كياناتها الاجتماعية، هذا إذا كانت تحرص على تفادى الانتفاضات الأيديولوجية الثورية كتلك التى سارت أوروبا خلال مسيرتها الصناعية وعانت منها كثيرا .

جذور أول ثورة صناعية

أربع ثورات صناعية كلاسيكية، ثورة البخار، وثورة الكهرباء، وثورة المحرك الانفجارى، وأخيرا الطاقة النووية، وقد توالت تباعاً واحدة تلو أخرى وعلينا أن نبحث كيف تمكنت قافلة هذه الاختراعات من التقدم فى مسيرتها وهو مايستدعى أن نطرح للمناقشة حالة إنجلترا الخاصة بين أعوام ١٧٨٠ و ١٨٦٠ ولماذا كانت إنجلترا الأولى فى تصنيع نفسها، وفى أية ظروف، وماذا كانت الحالة العامة فى أوروبا قبل عام ١٧٨٠ على الصعيد الصناعى؟

كان لفظ صناعة قبل القرن الثامن عشر أو على أحسن وجه قبل القرن التاسع عشر يثير احتمال سوء التفسير ولذا فسوف نتكلم هنا عما قبل التصنيع .

وفى الواقع ومنذ القرن الثانى عشر الذى شهد أول ثورة صناعية ونقصد بها أول تجديد لإدارة الطواحين المائية والطواحين بالرياح ولم تظهر أية استحداثات رئيسية أخرى إذ كانت طواحين المياه تنصب عند مجارى الماء[1] وتنصب طواحين الرياح حيث تكثر كما فى هولندا الرياح التى تتعدى قوتها أحيانا عشرة أحصنة فى الساعة[2] وكان عملها متقطعا بسبب افتقاد منابع طاقة كافية أونصف حركية وحولها تنشأ حياة اقتصادية عادية أو متأخرة يظل الناس أسرى لها من حيث قلة ما تغله من زراعات رهيدة ووسائل نقل بدائية مكلفة بالإضافة إلى عدم كفاية الأسواق كانت أجور الأيدى العاملة فى المقابل غزيرة وقد تفيض عن الحاجة، أما التصنيع كما هو فى مفهومنا اليوم فلم يكن متوفرا حيث كان التصنيع

---

(١) ، (٢) قوة حصان ساعة.

أحيانا إنما يكفى احتياجات السكان الأساسية وربما تميزت فى قطاعات معينة غطت احتياجات أسواق تطالب بصناعات ممتازة للترف كما حدث فى فرنسا منذ بداية القرن السابع عشر من تصنيع أدوات وملكية كصناعة المنسوجات ومنها كما سوف نرى كانت انطلاقة الثورة الصناعة الإنجليزية، وقد لاقت - فى الواقع - صناعة النسيج رواجا ملحوظاً منذ القرنين السادس عشر والسابع عشر بل والقرن الثامن عشر كذلك فى مدن تخصصت فى المنسوجات فى إيطاليا ومناطق الفلاندرز ولمواجهة طلبات التجار نشأت الورش فى نطاق المدن ونشأت معها مكاتب الوكالات التجارية حيث تعقد الصفقات، وإذا ازدهار صناعة المنسوجات يؤدى إلى قيام حركة لتصنيعها فى المنازل إذ يتفق ثلاثة شركاء أو أربعة يعقدون الصفقات مع الفلاحين بل والفلاحات فإذا هم بدورهم يلجون التصنيع المنزلى بأنفسهم، ومن وثائق القرن السادس عشر التاريخية مايدلنا على أن تجار مدينة سيجوفى كاستيلا فى أسبانيا قد أثروا من صناعة الأقمشة فقد حولوا منازلهم إلى ورش عمل كما ألحقوا خارج منازلهم عددا من العاملين قد يربو أحيانا على ألفين من رجال ونساء بأسرهم مقابل قرابة خمسمائة نساج وحائك ومن فوق هؤلاء يقوم على القمة ثلاثون تاجرا كبيرا كانوا بمنزله المنظمين الرئيسيين لهذا النوع من الصناعة إذ يتولون تنظيف البياض للأقمشة الخامة (غير المجهزة) وشحنها إلى حيث يريدون وكانت فئة التجار هذه أقرب إذ يوفرون المواد الأولية ويسددون الأجور ويخزنون الإنتاج ويبيعونه، وقد يصدرونه أحيانا كثيرة إلى أقصى الأقطار ويشترون عادة - لقاءها - منتجات أخرى أكثر نفعا تحقق ربحا أكبر، ولما كانت رحلات السفر طويلة وبطيئة فقد لجأوا إلى تقسيم العمل فكان الصوف مثلا فى القرن الخامس عشر ينقل إلى مغاسل أسبانيا ومن ثم يشحن إلى فلورنسا لتصنيعه ثم بيعه بعد ذلك أقمشة جميلة فى مدينة الإسكندرية بمصر مقابل منتجات قادمة من الشرق يعادبيعها فى فلورنسا أو غيرها فى أوروبا، وكانت هذه الدورة تستغرق أزمانا قد تصل إلى ثلاثة أعوام أو أطول، وكانت عمليات ذات نفس طويل تحقق أرباحا تستدعى تجميد رؤوس أموال وتعرضها للمخاطر، وكان التاجر الوسيط أى

---

(١) فلاندرز مناطق فى فرنسا.

المقاول هو القادر على هذا النوع من التجارة بفضل رأس ماله حيث يشاركه عادة تجار آخرون لتقاسم المخاطر والاحتمالات والسيطرة على الموقف، وكثيرا ماكانوا يحتفظون بالمخاطر.. وبالأرباح. فقد ظل الإنتاج أوالتصنيع لفظا طويلا يعنى تمركز العمال فى مبنى واحد أوفى أماكن متقاربة تحت إشراف ورقابة من رؤساء، عمال وامتدت الحركة حتى القرن الثامن عشر وإذا بتقسيم العمل ينشأ فجأة داخل الورش وقد رأينا فى إحدى مقالات مجلة أنسا يكلوبيديا عام ١٧٦١ أنها تغزو تفوق الأقمشة الحريرية من صناعة مدينة ليون الفرنسية إلى استخدام المصانع عماله تقدر إجماليا بثلاثين ألفا من عمال الحرير فى المدينة بحيث يكرس كل عامل حياته لعمله المحدد، وقد تعرض هذا النظام على أى حال لبعثرة الصناع المهرة وكانت بمنزلة القاعدة السائدة فى المدينة وعلامة أولى تنبئ بالثورة الصناعية. وقارة أوروبا قبل التصنيع لم يكن ينقصها الوسطاء التجار ولارؤوس الأموال كما لم تكن تجهل احتياجات الأسواق والأسواق الدولية حيث تتوافر لديها عمالة نصف ماهرة على مرمى البصر من التجار الوسطاء. وكانت أوروبا تعانى كما تعانى اليوم كل البلاد النامية من الاقتصاد غير المفصل ولم يكن قطاع الزراعة بالذات يتيح تصاعدا اقتصاديا أو الوصول إلى اكتماله فالسوق غير كافية والتنافس شديد قاتل أحيانا، وتؤدى أقل أزمة إلى انهيار كل شيء حيث تحدث كثيرا حالات الإفلاس الصناعى والتجارى، وقد ذكر تاجر من منتصف القرن الثامن عشر: أنك تجد فى مقاطعاتنا آثارا وبقايا مصانع مدمرة تتساقط وتقام مكانها كل عام مصانع أخرى سوف تدمر بدورها بعد حين، وعموما لم تكن حركة ماقبل التصنيع لتبقى وتدوم بالأجور الزهيده جدا للعماله، وكان السؤال: هل تحسنت ظروف العمالة فى بعض المناطق المزدهرة وارتفعت فيها نتيجة لذلك أجور العمالة؟ والرد لابسبب المناسبة الخارجية التى قضت عليها وكان ذلك حال مدينة فينيسيا فى القرن السابع عشر وهولندا فى القرن الثامن عشر.

وفى عام ١٧٧٧ يلاحظ معتمد بيكارديا أن اليد العاملة تحتاج يومئذ إلى مضاعفة أجرها لتوفر لنفسها أسباب الحياة، ومع ذلك فهى لاتكسب إلامايكاد يوازى ماكانت تحصل عليه منذ خمسين عاما حيث كانت المواد الغذائية أرخص

وليس لديهم اليوم سوى نصف الموارد التى يحتاجون إليها .. وعموما فكل شيء لايتغير أو سوف يتغير بالاختراعات الفنية حيث يجب الاعتراف بألاسبيل أن تقرر كل ماهو مطلوب منها وسوف يثبت ذلك من حالة إنجلترا حيث نشطت الاختراعات الفنية فى مجالين صناعيين رئيسين: صناعات النسيج والمناجم ومناجم القصدير فبمقاطعة كورنوال وبالذات التى استغلت من قبل منذ زمن بعيد ومع ذلك تعرضت لآفة تسرب المياة (الارتشاح) وهى آفة مستديمة ومشكلة قديمة تعرض لها چورج أمبريكولا فى القرن السادس عشر إذ لم تتمكن العجلات الهيدروليكية الكبرى المستخدمة من تزويد المضخات التى لم تكن لترفع سوى عمود واحد من المياه يرتفع عشرة أمتار تقريباً، ولقد أدت هذه الحالة حتى استطاع جون وان عام ١٧١٢ ـ ١٧١٨ هو من علماء جامعة أدنبره إعداد آلة بخارية أكثر فعالية ولم ينتظر النجاروات إذ قد لحقت منذ بداية القرن الثامن عشر آلات كثيرة اختراعات النجار فساعدت على تحقيق مما كان متوقعا تحقيقة بل وصلت إلى فرنسا حوالى عام ١٧٥٠فى مناجم الفحم وشيدت أول سفينة تسير بالبخار فى مصانع بيجلو دى جوفروى، وكان بناؤها عام ١٧٧٠ وتظل صناعة النسيج فى منتصف القرن التاسع عشر وعصر السكك الحديدية صناعة التحريك فهى التى تثير وتدفع الصناعات الاخرى شأن الصناعات الضرورية والمنتجات الفاخرة وقد ظلت هذه الإيقاعات كما قال ماكس ويبر تسيطر على كل ماضى الغرب الذى عرف بعصر شارلمان متشحا بالنسيج أو عصر الصوف ثم عصر القطنيات ثم مرحلة جنون الأنسجة القطنية فى القرن الثامن عشر، وكان القطن إذن هو الذى عاصر نمو المصانع بمعنى الكلمة بالاشتراك مع كل من الهند وأفريقيا وأمريكا، وذلك إثر جلب الرقيق من الشعوب السوداء حيث نجد أن القطن استقر فى الموانى الكبيرة أوحولها من ليفربول وجلاسجو مستفيداً من ازدهارها ومن رؤوس الأموال المجتمعة فيها وليس يدهش أن تكون صناعة نسيج الأقطان هى التى اجتذبت كل التحسينات فى الآلات وتقنياتها فبدأت الآلات الحديثة تظهر كل منها باسمه كالمكوك الطائر لمخترعه جون كبى عام ١٧٣٣ والمغازل التى اخترعها جينى هاردجريف وآلة الإطار المائى التى اخترعها هار كرانب عام

١٧٦٩ ثم آلة ميول من اختراع كامبتون ولئن كانت كلها تطورات فإن قمة الاختراعات كانت نسج أقمشة الجاكار ١٨٠١ ومخترعها جاكارد وكانت هذه القفزات والاختراعات كلها تجارب تنشأ عفوية أحيانا واستطاع القطاع الاقتصادى دفع القطاع الصناعى نحو التقدم وكان العلم وقدحقق تقدماً فعلياً فى القرن الثامن عشر وإن ظلت علوم عامة لاتخصص لها أشبه بالنظريات غير قابلة للتعاون مع الفنون الحرفية ثم تغير كل شيء حوالى نهاية القرن الثامن عشر حيث اتجهت بعض المتطلبات الصناعية منذئذ اتجاهاً ذاتياً مثل جون (١٧٢٦ـ ١٨١٩) ولم يكن على سبيل المثال حرفياً ماهراً فحسب بل كان عصاميا علم نفسه بنفسه متحليا بفكر علمى وأقرب إلى المهندس وعالم الكيمياء، وجو ن بلاك المولود فى بوردو عام ١٧٢٨ من أبوين أسكتلنديين وتوفى فى أدبنره عام ١٧٩٩ حيث كان أستاذا فى جامعة أدنبره وعالماً فى الكيمياء وخرج بدراسات فذة فى النوشادر وأتاح لوات «مبدأ الحرارة الكامنة» وأعد على أساسها آلته التجارية حيث لا تسترخى الحضارة إلابفضل درج فى الأسطوانة حيث تعمل كما تتولى التبريد، وبفضل هذه الاختراعات العديدة تقدمت العلوم وامتدت آثار التقدم على التصنيع الوليد فكانت على سبيل المثال عملية تبييض الأقمشة، وكان من قبل ينشر القماش وفرده وبله بالمياه خاصة الأطراف ثم النقع فى محاليل ثم أحماض مخففة وكانت عملية طويلة تحتاج إلى مكان فسيح وتستغرق وقتاً طويلاً يصل أحياناً إلى ستة أشهر لنوع من الإنتاج سريع الانتشار ولقد توصلوا إلى استخدام حامض الكبريتيك المذاب واحتاجوا إلى كميات ضخمة منه حيث يتدخل العالم چون وايت الطبيب والطالب السابق بجامعة لن ثم كان عام ١٧٧٤ بفضل السويدى كارل شيل الذى استخدمه الفرنسى بيرتوليه لتبييض الأقمشة ثم تطورت هذه الطريقة فى إنجلترا إلى أخرى عملية ممتازة وهكذا تعاون العلم على الصعيد الدولى، ومن أمثلة هذة المشاركة فى مجال العلوم والنواحى الفنية شخصية مانيو بولتون (١٧٢٨ ـ ١٨٠٩) إذ أخذ من جذور متواضعة نظريات وات وطورها إذ كان بدوره من علماء الكيمياء والتف حوله بالطبع جون وات نفسه مع أحد علماء الرياضيات يدعى وليام سمول كان كذلك طبيبا يدعى وليام سمول وشاعر طبيب اسمه إيرازموس

داروين وهو جد العالم داروين الكبير ومعهم آخزون وتصبح إنجلترا فى التصنيع إنجلترا العلمية برؤوس أموالها، ولنذكر مدنها برمنجهام ومانشستر ولندن وتظل رأسمالية التجار آمادا بعيدة عن هذه الأجواء العلمية المستحدثة فلم تأخذ دورها فى المساهمة فيها إلاحول عام ١٨٢٠ والواقع فى ذاته إحدى الدلالات.. إنه تلك الانطلاقة التصنيعية التى حركت العلوم ولكن هذا التفسير لايكفى وحده، إذ نجد فى فرنسا حيث العلم التطبيقى (نذكر هنا علماء الكيمياء من أمثال بماكيه (١٧١٨ ـ ١٧٨٤) أولويس بيرثوليه (١٧٤٨ـ١٨٢٢) وقد أحرزا تقدما فاق ماكان فى إنجلترا، ثم إن التقدم الصناعى كان أقل سرعة، فقد كان للثورة الصناعية يقينا مسار واجهت خلاله أسبابا ودوافع أخرى بعضها اقتصادى هو الأضخم وبعضها الآخر اجتماعى.

وكانت إنجلترا قبل انطلاقها بثورتها البورجوازية عام ١٦٨٨ قد توصلت إلى نوع من التوازن السياسى، حيث كان فيها مجتمع منفتح على الرأسمالية بما كان مثلا عن إنشاء بنك إنجترا عام ١٦٩٤، وكان اقتصادها قد استفاد من الاستثمارات العديدة فى بناء الطرق وشق القنوات حيث سادها فى القرن الثامن عشر نوع من جنون شق القنوات، وكان انطلاق الثورة الإنجليزية فى إطار انطلاق اقتصادى عام ساد القرن الثامن عشر وساد الدنيا كلها كما ساد الصين وبلاد القارة الأوروبية وكانت نسبة ارتفاع المواليد فى إنجلترا قد زادت فى القرن الثامن عشر مما أتاح لها أيدى عاملة وفيرة بأجور رخيصة وأخيراً جاء دور التحولات الضخمة فى الأساليب الزراعية الإنجليزية فعالجت مشكلة نقص المواد الغذائية وسارت الثورة الإنجليزية فى مسارين: الأول مسار القطن بين أعوام ١٧٨٠و ١٨٢٠ ثم مسار استخراج المعادن وتنقيتها ثم تجئ المرحلة الثانية وبدء عصر الصناعات الثقيلة فكان على أثرها إنشاء السكك الحديدية بفضل ماتوفر من أموال أول ثورة قطنية والقطن هو الذى نلجأ إليه إذا أردنا الحكم على هذه الانطلاقة الأولى. وراجت شهرة القطن كل أنحاء أوروبا بما فيها إنجلترا التى ظلت زمناً طويلا تستورد لحسابها ولحساب الأسواق الأوروبية وغيرها من الأسواق كل الأقمشة القطنية وكانت وكالاتها التجارية فى الهند تقوم أساساً لهذا الغرض، ولعبت التحسينات

الفنية دورها فى صناعة القطنيات وخاصة لرواجه على السواحل الإفريقية طلبا للقطن شأن الأسواق البرازيلية وتلاذلك نجاح الإنجليز فى احتكار كل بلاد أمريكا التى استعمرتها أسبانيا (عام ١٨٠٨) بل لقد أدى الأمر إلى أن نافس الإنجليز النسيج الهندى حتى قضى عليه تماما وبدأ بيع الأقمشة الإنجليزية فى كافة بقاع الأرض من عام ١٨٢٠ حتى عام ١٨٦٠ وكان فى تصاعد مستمر وتجاوزت أثمان القطن الخام الذى اشترته المصانع الإنجليزية مليونى جنيه عام ١٧٦٠ وبلغ عام١٨٥٠ حوالى ٢٦٦ مليون جنيه واستطاعت إنجلترا إغراق الأسواق العالمية بالبضائع المتنوعة فأبعدت الكثيرين عنها لولا أن لحقت التذبذبات وهى القاعدة الدائمة بهذه الأسواق فيما بين أعوام١٨٠٠و ١٨٥٠ فقد تخطت أسعار الأقمشة القطنية من ٥٥٠ إلى ١٠٠ بينما انخفضت أسعار القمح على سبيل المثال فضلا عن السلع والحاصلات الأخرى إلى الثلث أويكاد على حين تكاد تظل الأجور ثابتة وإن ظلت انعكاساتها على أسعار التكلفة ضعيفه فقد قلصت التقنيات المستحدثة كثيراً من مراحل العمل بالنسبة للإنسان فهل تدهشنا هذه المحصلات والنتائج السعيدة للإنتاج المكثف على الحياه الشعبية لنقرأ ما قاله ميشيليه (١) عن الأزمة القطنية فى فرنسا عام ١٨٤٢ تنتشر الصناعات المعدنية عادة فى وقت تالٍ متأخر ومن ثم ارتهن الإنتاج فى هذا المجال حتى القرن التاسع عشر وارتبط استثناءً بالحرب حيث ارتبطت عمليات صهر الحديد فى القرن الثامن عشر بظهور المدافع.. كما ذكر أحد الإنجليز عام ١٨٣١ ولكن الإنجليز لم يكونوا فى حاجة إلى مدافع إلا لتنام على أسطح سفنهم إذ لم تكن الحروب الأرضية لعبتهم المفضلة إلا بصورة ضئيلة فى القرن الثامن عشر أنتجوا حديداً أقل من فرنسا أو من روسيا وكانوا يستوردونه سواء من السويد أو من روسيا ولم تستخدم اكتشافات صهر الحديد بفحم الكوك رغم أنه اكتشاف حاسم إلا فى القرن السابع عشر، وظل صهر الحديد بفحم الخشب زمناً طويلاً، وقد تطلب إنشاء السكك الحديدية فيما بين ١٨٢٠- ١٨٤٠ كميات ضخمة من الحديد استهلكتها، فضلاً عن مقادير لابأس بها

---

(١) مؤرخ فرنسى ١٧٩٨ -١٨٧٤ ليبرالى التفكير وكان أستاذاً فى كوليج دى فرانس.

من الصلب والقصدير- وتغيرت الصورة تماما واندمجت إنجلترا فى إنشاء خطوط السكك الحديدية فى بلادها كما فى بلاد أخرى فيما وراء البحار، هذا بالإضافة إلى أن تطور السفن ذات الهيكل المعدنى المدفوع بالبخار قد غير تماما من أشكال بناء السفن الإنجليزية وحولها إلى صناعة ثقيلة، فلم يعد القطن هو القطاع البارز مفتاحاً لحياة بريطانيا العظمى الاقتصادية.

انتشار الظاهرة الصناعية
فى أوروبا وخارجها

تكاد ظاهرة التصنيع فى البلاد الأوروبية وغير الأوروبية أن تكون ظاهرة موحدة برغم وجود طائفة من الاختلافات فى مجال المجتمعات واختلافها من مجتمع لآخر وكذا إطار اقتصاديات كل منها، وعلى الرغم من هذه الاختلافات يظل النموذج هو نفسه أوكما يقول علماء الاقتصاد: نموذج موحد .. بسيط، ويحدد أحد علماء الاقتصاد الأمريكيين ثلاث مراحل (١٩٥٢) لأى تطور للتصنيع منها.

أ- مرحلة الانطلاق نقطة بداية فى الوقت المناسب، كالطائرة حين يبدأ الاستعداد للانطلاق ومغادرة المدرج، وذلك شأن كل انطلاقه اقتصادية إذتنفصل فجأة عن نظام سلفى سابق كان يربطها بالأرض وكثيرا ما يقع هذا الانطلاق فى قطاع أوقطاعين على الأكثر كالقطن فى بريطانيا وبريطانيا الجديدة (حالة خاصة) والسكك الحديدية فى فرنسا وألمانيا وكندا وروسيا والولايات المتحدة وأخشاب البناء ومناجم الفحم بالنسبة للسويد وينطلق هذا القطاع دائما كالسهم ويتحول إلى قطاع عصرى حديث بسرعة مغايرة ومختلف عن الانطلاقات الصناعية السابقة التى لم تعرف تلك القوة الدافعة ولاهذه الحركات ذات النفس الطويل. وهكذا نجد أن كل حركة تصنيع ناشئة تزيد فى إنتاجها وتحسن من تقنيتها وتنظم أسواقها ثم تبدأ بعد ذلك فى بث الرواج فى سائر قطاعات الاقتصاد ثم

تستقر بعد ذلك أوضاع عملية التصنيع الرئيسية من حيث هى تحرك أساس ومن ثم تصل إلى سقفها الأعلى وتساعدها ما جمعته من احتياطيات تؤدى إلى انعكاسها على قطاع مجاور لها يحاول كذلك الانطلاق ويحدد نفسه كى يصل بدوره إلى مرحلة الكمال..

ب ـ يصل الاقتصاد بامتداد هذه العملية من قطاع إلى قطاع آخر إلى مرحلة النضج الصناعى، ففى أوروبا الغربية جاء بعد مرحلة الانطلاق بفضل السكك الحديدية أى بفضل الحديد والفحم والصناعة الثقيلة بعد الصلب والصناعات البحرية الحديثة والكيمياء والكهرباء والآلات التى تأخذ دور البديل، وعرفت روسيا من بعد زمن طويل وعاصرت هذه الثورة، ولعبت فى السويد عجينة الورق والخشب والحديد الأدوار الرئيسية، وعموما تخطت بلاد العالم العربى فى مستهل أعوام القرن العشرين عتبة الباب إلى النضوج الصناعى فوجدت إنجلترا التى كانت قد تخطت هذه الحقبة منذ عام ١٨٥٠ نفسها تكاد تتساوى مع زميلاتها، ثم ظهر فجأة أن هذه الاقتصاديات التى حققت موارد حقيقية ورواجاً ملحوظاً وانتشاراً صناعيا ظاهرا لم يكن كل هدفها الأصلى ـ إذ واجهت تلك البلاد ـ كيف توجه كل قواها وإنجازاتها ومواردها؟ واتضح أن عليها أن تحدد اختياراتها ولم ترد المجتمعات الصناعية على هذا السؤال لتحديد اختياراتها بشكل جماعى أو بشكل متشابه إذ كانت اختياراتها فى إطار مفاهيم تاريخها الحالى ومعنى مستقبلها، ولذا فقد يمكننا أن نتخيل أنها فى نطاق حضاراتها قد استخلصت كل منها العوامل والمسببات التى حددت اختياراتها.

جـ ـ ويجئ الدور على مرحلة الاختيار بين نمط حياة مقبول ومشروع لكل أفراد المجتمع أو التضحية بالأمان فى سبيل الرفاهية أوبذل الجهود نحو تشريع اجتماعى حذر أو اعتبار أن السعادة والرفاهية لايتحققان بغيرا ستهلاك واسع من جانب الجماهير بشرط أن يتمكن منه أو باستخدام سلطة المجتمع المتنامى أو سلطة الدولة فى المحيط الدائم الخطورة، محيط السياسة الدولية، محيط البحث عن القوة والنفوذ!

فقد كانت الولايات المتحدة حول عام ١٩٠٠ قد توصلت إلى مرحلة نضوجها فحاولت عندئذ تحركا موخراً وإن كان ذامغزى للبحث عن نفوذما فنشب بينها وبين أسبانيا ١٨٩٨ صراع على كوبا والفلبين، وكتب الرئيس روزفلت وقتئذ يقول: كانت الولايات المتحدة فى حاجة إلى حرب أو منحها شيئا يدعو إلى التفكير فيه دون أن يمثل بالضرورة كسبا ماديا، ثم جاء بعد سنوات دور المحاولات السياسية والاجتماعية المتواضعة الوقتية ومع ذلك فهاهى الولايات المتحدة بعد انقطاع الحرب العالمية الأولى تنغمس انغماسا كاملا فى حل مشكلة استهلاك الجماهير المكثف ونشأت انطلاقة السيارات التى أحدثت رواجا مصطنعا، ثم تصنيع الـ لريادة وسائل الراحة فى البيوت، أما فى أوروبا فقد تأخرت بسبب الحربين العالميتين الاثنتين ساعة النضج الصناعى والإنشاءات التى تطلبتها هاتان الحربان ومن ثم لم تتضح معالم استهلاك الجماهير المكثف إلا عام ١٩٥٠ وإن كان مع القيود والتعديلات التى أدخلتها الحكومة وسياساتها ومع ضغوط الظاهرة الاشتراكية المتنامية فى فرنسا، ومنها على سبيل المثال مجموعة التشريعات الاجتماعية بداية من مجانية التعليم حتى تنظيم الضمان الاجتماعى والطبى، وكذلك يضاف تأخر قطاعات بأكملها كان مفتاح ظروف طارئة أو نتاج الصمت عن ضرورة الإقلاع عن عادات وتقاليد بالية، مثال ذلك تطور الإصلاح الزراعى على النمط الأمريكى ذلك الإصلاح الذى اصطدم عبركل بلاد قارة أوروبا بعقبات كثيرة أوقفت تقدمه مرات عدة كما حدث نفس الشيء فى روسيا وتعقدت الأمور فى إيطاليا وفرنسا فى منتصف مسيرتيهما لتحديث قطاع الزراعة وهكذا نجد أخيراً أن التطورات الضرورية لم تنشأ فى كافة المناطق كجنوب الولايات المتحدة الذى ظل مهملاً إلى مابعد عام ١٩٠٠كما عانى جزء كبير من أوروبا من التأخر والتباطؤ ومنطقة غرب فرنسا وجنوب غربها وإيطاليا فى الميزوجورنو (أى الأقاليم الجنوبية) وكل شبه قارة أيبريا تقريبا ماعدا المراكز الصناعية فى كل من برشلونة وبلبا ومجموعة الجمهوريات الاشتراكية ماعدا روسيا ذاتها وكذلك تشيكوسلوفاكيا وجمهورية ألمانيا الديمقراطية (الشرقية. فيما مضى) وسائر شبه جزيرة البلقان وتركيا، وباختصار كان هناك دائما أوربيتان بحيث كان أحد الصحفيين عام ١٩٢٩ يميز بينهما فشبه

إحداهما بمركبة الكريوله والأخرى بالحصان التجارى!! فإذا ماأردنا رمزا من بين ألاف لتقترب من كارسوفيا (بولندا) حيث المركبات الضيقة ذات العجلات الأربع خلال القرن الخامس عشر بحمولاتها من الخشب وقطع من الأرز فى حراسة النساء. أما اليوم وكانت بولندا الاشتراكية إذ نكتشف بمقارنة ما كان بالأمس واليوم أن هذا النقيض من الحياة الأوروبية اليوم جزء متمم مكمل، وصاحبت موجة الائتمان ورأسمالية المال ورأسمالية الدول الثورة الصناعية فاستفادت كثيرا من انطلاقة هذه الثورة الصناعية.

وكانت الرأسمالية أنواع معينة منها خاصة قائمة منذ بابل التى عرفت المصارف والتجار الذين كانوا يبرمون التعاقدات مع مناطق بعيدة مع كافة مايستتبع الائتمان من الصكوك والسندات الإذنية والشيكات وفى هذا النطاق سار تاريخ الرأسمالية منذ حمورابى[1] حتى روكفلر ولكن عمليات الائتمان ظلت متواضعة فى أوروبا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ونمت فى القرن الثامن عشر بسبب المبادلات التجارية مع الهند والصين وانتشرت موجة الائتمان التجارى إلى بقاع كثيرة انطلاقا من القارة الأوروبية ومع ذلك لم يكن أصحاب الأموال الحقيقيون فى هذا العصر يهتمون بالتجارة أو الصناعة وانحصرت اهتماماتهم فى تنمية العقود العامة، ومع نجاح حركة التصنيع انطلقت الأنشطة المالية والمصارف بحيث شارك رأس المال «الأموال» بل تعدى مشاركة رأس المال المستثمر فى الصناعات وانتهى الأمر بوضع يده وسيطرته على كل وسائل الحياة الاقتصادية وأنشطتها. وقد حدث ذلك فى كل من فرنسا وانجلترا عام ١٨٦٠ وتضاعفت أعداد المصارف القديمة والجديدة وامتدت شيكاتها وبدأت تنحو نحو التخصص من مصارف وبنوك إيداع وبنوك ائتمان وبنوك أعمال، ومن الجدير بالمتابعة فيما استحدث من أنواع المصارف قصة وتاريخ بنك الكريدى ليونيه الفرنسى المشهور.

وفى الولايات المتحدة تأسس عام ١٨٦٢ بنك بييربون مورجان بشبكاته المتعددة واستطاع البنك اجتذاب عملاء من كل مكان، وتمكن من الاستحواذ على

(١) حمورابى: هو ملك بابل ومؤسس إمبراطورية بابل ١٧٩٢ ـ ١٧٥٠ قبل الميلاد.

كل مدخرات «راكدة» مهما كانت قيمتها وبدأ يستثمرها فى كل اتجاه تجارى وصناعى ومد سكك حديدية وإنشاء شركات ملاحة بحرية، كما اضطر إلى إنشاء فروع له فى كل الدول وأصبحت رأسمالية المال عالمية بمعنى الكلمة ولم تقف المصارف الفرنسية مكتوفة الأيدى اكتفاءً بالقروض الخارجية فاتخذ له مساراً تجاه القروض من روسيا رغم مخاطرها وإن كانت ذات أهمية قصوى للاقتصاد الفرنسى، فرصيد حسابات كاسب يوازى رصيد خاسر، كما ساهمت هذه القروض الأجنبية فى توفير الأعداد اللازمة لجزء كبير من الأقطار الأوروبية بعد عام ١٨٥٠ بل ومناطق أخرى فيما وراء البحار ويبدو اليوم أن رأسمالية الأموال أصبحت كاملة فى أوروبا على الرغم من النظريات التى تصادم أحياناً الاتجاهات مع استثناءات القاعدة، ومن المؤكد أن مصرفاً للأعمال مثل بنك باريس والأراضى المنخفضة (هولندا) يمثل قوة من الدرجة الأولى وتظل مدن مثل لندن وباريس وفرانكفورت وأمستردام وبروكسل وزيورخ وميلانو مواقع مالية رئيسية وإن كانت ساعة الرأسمالية قد دقت واتضحت معالمها فقد صارت الدولة تماما كرجل الصناعة على أثر تأميم بعض القطاعات فى نظام الاقتصاد الموجة؛ ومن ثم لم تعد الدول أقل منزلة من رجل بنك بالإضافة إلى ماتوفر لها من وسائل أخرى لاجتذاب المدخرات كالضرائب المتنامية والشيكات البريدية وصناديق الادخار وسندات الخزانة العامة، باختصار صارت تحت إمرة الدولة موارد مالية كثيرة فهى سيدة الاستثمارات الإنتاجية لمواجهة كل تصاعد فى عدد السكان والنمو السياسى والاجتماعى وكل متطلبات المستقبل وإزاء هذا الوضع منذ اتضح ماوقع على كاهل الدولة من تحديد لاقتصاد مخطط يستطيع به مسبقا أن تحدد معالم التنمية المتفق على تحقيقها وظهرت فى روسيا السوفيتية الخطط الخمسية تتنافس معها ومثلها فى كل بلاد الدنيا، وفى يناير ١٩٦٢ أعلن الرئيس كيندى بنفسه خطة سنوات خمس للتجارة الأمريكية كما أثارت خطة فرنسا لأربع سنوات خلافات ومناقشات حادة وكان ذلك بمنزلة امتحان للضمير القومى حيث كانت الخطة الرباعية فى الوقت نفسه خطة اقتصادية تستهدف تحرير المناطق الفرنسية التى لم تلحقها التنمية الكافية..أى سياسة تدريبية ولايمكننا أن نوضح دور

المستعمرات إلابما وضعت أوروبا لاشك فى المقام الاول من العالم ونقصد بالاستعمار كل الانتشار الأوروبى على الأقل منذ عام ١٤٩٢ فما من منكر ما أتاح له هذا الاستعمار من ميزات مثلما لأوروبا فقد أتاح لها مناطق شاسعة فسيحة تستوعب مازاد عن حاجتها من الناس وكانت تحت يدها مناطق وبلاد ذات حضارات غنية قابلة للاستغلال، فقد بدأ فى القرن السادس عشر حين بدأت تصل وتوالى وصول «الكنوز» من أمريكا (سبائك ذهب وفضة) وحين فتح الهند العنيف بعد انتصار بلاسى (فى ٢٣ يونية ١٧٥٧) إذ قدم للإنجليز البنغال وما كان من الإكراه فى فتح الأسواق الصينية بعد حرب الأفيون (١٨٤٠ ـ١٨٤٢) وتقسيم أفريقيا فى بيرلين عام ١٨٨٠ فتحققت أرباح وثروات طائلة لكل من أيبريا أى أسبانيا وللهولنديين ثم الإنجليز بمعنى أن النتيجة كانت برسوخ أقدام هذه الشيكات الرأسمالية التى ساعدت على تقديم حركة تصنيع أوروبا وزادت احتياطياتها المالية بفضل هذه الأراضى البعيدة التى أمكن استغلال مواردها، وقد لعب هذا الاحتياطى من المال والثروات دوراً مهما فكانت بلامنازع المستفيد الأول والرئيسى من انطلاقة الإقلاع الأول، بقى علينا أن نعرف أن الثورة الصناعية وهى تعزز وتقوى أسبقية أوروبا ومكانتها لم تعزز الواقع الاستعمارى لصالح أوروبا ونجد على سبيل المثال أن الانطلاق الصناعى لفرنسا لم يجئ بسبب احتلالها السنغال أو الجزائر ١٨٣٠ أو الهند الصينية ١٨٥٨ ـ ١٨٦٧ وتو تكين أو آنام ١٨٨٣ (يقصد فيتنام) وسوف تكون قضية أخرى تناقش فيها ملفات حركات الاستعمار وأثارت تناقضات عديدة من العناصر المتشابكة المتداخلة حيث تتداخل كل المسئوليات والإدانات والذنوب، ولذا نكتفى بالقول أن استعمار الأمس كانت له معالمه السلبية والإيجابية من الجانبين، ويبقى شىء واحد أكيد: قصة استعمار الأمس وتاريخه التى قلبت الصفحه.

الاشتراكية فى مواجهة المجتمع الصناعى

تكمن مقدرة أوروبا فى بحثها عن رد اجتماعى إنسانى سريع فاعل ذى قيمة بعد مسيرة التصنيع ومظاهر قسوتها العديدة فقد نجحت فى خلق ظروف إنسانية اجتماعية خلال ماساد القرن التاسع عشر وبعدها من مسيرة درامية حزينة فهى درامية إذا قيست بالحروب والاضطرابات وبرغم ذلك حققت المسيرة تفوقا ملحوظا إن شئنا قياس التقدم العلمى والتقنى

والتقدم الاجتماعى وبصورة أقل، وهاهى المحصلة النهائية أمامنا اليوم على كل حال فى هيئة حقائق منها التشريعات الاجتماعية الهادئة التى قد تبلغ مرحلة الكمال لتحقيق مصير أفضل للتكتلات الجماهيرية واقتلاع جذور الانتفاضات الثورية، ولم يتحقق كل ذلك بسهولة بل كانت معركة شرسة أحاطت بها مراحل ثلاث:

١ـ المرحلة الثورية الأيدلوچية، مرحلة ظهور المصلحين الاجتماعيين أو الأنبياء على حد قول أعدائهم وهى مرحلة بين أعوام ١٨١٥و١٨٧١ منذ سقوط نابليون الأول.

٢ـ مرحلة النضال العمالى المنظم (نقابات وأحزاب عمالية) بدأت قبل المأساة الباريسية ربيع ١٨٧١ وهى أساسا تقع بين هذا التاريخ وعام ١٩١٤.

٣ـ المرحلة السياسية ومن الأفضل تسميتها مرحلة الدولة حيث أخذت الدولة بين أيديها تنفيذ البرامج الاجتماعية بعد عام ١٩١٩ إذ تحققت آماد الازدهار المادى من ١٩٤٥ حتى يومنا هذا.

ويوضح الرسم البيانى أن المتطلبات الاجتماعية فى مواجهة التصنيع كانت غالباً تعدل من مفاهيمها ونبرتها وفق التذبذبات فى الحياة المادية وتذبذبات عنيفة وساخنة فى عصور الاتحاد الاقتصادى (١٨١٧ ـ ١٨٥١ـ و١٨٧٣ ـ١٨٩٦ و ١٩٢٩ـ١٩٣٩) ثم خفت حدتها بالتصاعد والنمو الاقتصادى أعوام ١٨٥١ ـ١٨٧٣ ثم من ١٩٤٥ حتى اليوم، قال أحد المؤرخين عن الحالة فى ألمانيا وخاصة عن المطالب الاجتماعية فى عام ١٨٣٠ : لم تكن كلمة بروليتاريا معروفة فى ألمانيا وفى عام ١٩٥٥ بدأت تعرف على استحياء ومن بين هذه المراحل الثلاثة الأولى منها تكمن فى موقع الأفكار الاجتماعية وهى أهمها لما عسى أن تحدد من منعطف ونقطة تحول حضارى كاملة إذ كان فى الأعوام من ١٨١٥ حتى ١٨٧١ أن تزاحمت الأقطار والتحليلات الحادة والتنبؤات أى وقع بإيجاز ماقد نسميه بتنقلات المصالح الأيديولوجية والسياسية واتجاهاتها نحو المجتمع وكل ماهو اجتماعى ولم تعد الدولة هدفا لسهام المطالبات بل كان المجتمع فى حاجة إلى الإدراك والفهم والعلاج والتحسين وإلى برامج جديدة بدأت تطفو ولهجات جديدة بدأت تسمع فظهرت كلمات من أمثال: مجتمع صناعى وبروليتاريا والتكتلات السكانية والجماهير والاشتراكية واشتراكى ورأسمالى وشيوعى وشيوعية.. وكلها تشكل نمطا جديدا من الفكر الثورى، وكان الكونت دى سان سيمون مخترع الاسم الموصوف والنعت المشتقين من مصدر لفظ «صناعة» ومشتقاتها من مجتمع صناعى وغيرها ثم انتحلها أوجبست كومت وهربرت سبنسر وغيرهما، أما كومت فقد تحدث عن المجتمع الذى حل مكان المجتمع العسكرى الذى كان يقول بأن الشيوعية هى التى تحمى وتصوت الفرد، وظهرت كلمة رأسمالية لدى لويس بلان فى مؤلفه «تنظيم العمل ١٨٤٨ ـ ١٨٥٠» ولدى برودهون عام ١٨٥٧ وفى معجم لاروس عام ١٨٩٧ غير أن انتشارها الواسع إنما كان فى بداية القرن العشرين إذ صاح لامارتن عام ١٨٤٣ قائلا: من ذا الذى سوف يتعرف على الثورة فى أيدينا؟

هاهى فرنسا بدلا من العمل وصناعة حرة تباع للرأسماليين، ومن الألفاظ التى لم تحقق ذيوعا ولا معنى ألفاظ البورجوازية ولفظ الجماعية ومع ذلك لم يفقد عام ١٧٨٩ ـ عام الثورة الفرنسية ـ رونقه وسيطرته فلازالت كلمات من أمثال اليعاقبة وعصر الإرهاب وعصر الخلاص العام تلاحق النفوس وتثير الذكريات أمثلة على الرعب والفزغ، أما عند أغلب المصلحين فإن لفظ الثورة يظل لفظا ساحرا له قدرة الخلق والإبداع وفى عام ١٨٧١ صرح راؤول ريجولت بقوله نحن لانصنع مساواة بل نصنع ثورة، وظهر فى فبراير من عام ١٨٤٨ البيان الشيوعى الذى وضعه كل من كارل ماركس وإنجلز وهو البيان الذى ظل حتى يومنا هذا بمنزلة إنجيل المستقبل الشيوعى. ولاشك منذ القرن الأول للحركة القرن التاسع عشر فى أن قائمة طويلة من الذين نادوا بالإصلاح ألقت الضوء على الدور الرئيسى الذى قام فى ثلاث مناطق مهمة كلها بالتصنيع وهى انجلترا وفرنسا وألمانيا ولاشك أن الأسبقية كانت للإعداد الفرنسى وظهور آراء الكونت دى سان سيمون ذلك الرجل الفريد الذى تميز بشىء من الجنون والعبقرية وكان الباعث على كل المفاهيم «الاجتماعية» اشتراكية وغير اشتراكية ثم فضلا عن ذلك عالم الاجتماع الفرنسى (چورج جيرفيتش) بما كان له من نفوذ قوى وحاسم على العملاق الآخر كارل ماركس بل يتفوق عليه من بعيد وكان كارل ماركس فى شبابه وقتئذ قد قرأ كل مؤلفات سان سيمون واستخلص منها كثيراً من أفكاره وبراهينه واستدلالاته فإذا ما استثنينا السلف العجوز سان سيمون أمكننا تقسيم المصلحين إلى ثلاث طوائف عمرية: الأولى لهؤلاء الذين ولدوا خلال الأعوام الثلاثة الأخيرة من القرن الثامن عشر ومنهم أوين عام ١٧٧١ وفوربيه عام ١٧٧٢ وكابيه عام ١٧٨٨ وكومت عام ١٧٩٨ ثم الذين ولدوا خلال السنوات العشر الأولى من القرن ومنهم: برودون وكونسيد يران ولويس بلان وكانوا أكثر نجانا مع كارل ماركس المولود عام ١٨١٨ وانجانز ١٨٢٠ ولاسال ١٨٢٥ ثم المجموعة الألمانية التى أقفلت المسيرة وقد قيل إن مقتل لاسال فى مبارزة عام ١٨٦٤ قد أزاح المنافس الوحيد الذى كان فى مستوى كارل ماركس مما أتاح له النجاح دون منافس، وعموما فمن المستحسن أن ينسب هذا النجاح إلى نفوذ رأس المال (١٨٦٧) وغير مستطاع ـ ولاشك ـ فحص

كل هذه الفلسفات الخاصة بكتل الجماهير واحدة واحدة فكل منها ينهج تحليلاً للمجتمع ومصيره وصيرورته وهذا التعبير الأخير لسان سيمون: إنها نوع من المعالجات والتطبيبات والترياق، كل هذا حقق النجاح لأتباع سان سيمون المخلصين ممن جمعوا أمثال شيفاليه وانفنتان ثروات من المعاملات التجارية فى عصر الامبراطوية الثانية حيث تركزت الجهود حول عملية تنظم الإنتاج الفرنسية والذى كان حتى ذلك الوقت هو الرائد السائد على المسرح بحيث لم يجرؤ هربرت سبنسر على تأكيد لفظ بروليتاريا فى عام ١٨٢٨ فى معجمه الأكاديمى وتصبح كلمة الكتل بمدلول المفرد وخاصة فى صيغة الجمع هى كلمة السر لإدراك الأعراض اللفظية للحديث عن التطور والتنمية اللتين اندلعتا فى عصر لويس فيليب كما صرح بذلك لامارتين عام ١٨٢٨ ولويس نابليون فى كتابه عام ١٨٤٤ «انقراض العوز» .. اليوم زال عصر الطبقات ولايمكن الحكم إلا مع الجماهير، وهذه الجماهير أو التكتلات هى التى تقطن المدن وهى عمالية فقيرة مستغلة، وبدأت معارضات الطبقات ـ كما أطلق ماركس عليها ـ تظهر، والظاهرة قديمة وجدت فى المجتمعات كافة التى تطورت ماديا من الماضى ولكن هذا لايمنع أن القرن التاسع عشر قد ضخمها حيث بدأت كلمات اشتراكى واشتراكية مع أعوام الـ ٣٠ وكذلك لفظ الشيوعية بالمعنى المبهم بالمساواة الاقتصادية والاجتماعية حسب أقوال أوجست بلانكى جنرال الجماهير الثورية بجنونها ـ فى رأيهم ـ ولكنها ماتت لأنها لم تنظم اقتصادها، وقول فورييه الذى كان بدوره يحتقر الثورة: إنه يجب خاصة تنظيم الاستهلاك، ويظل كل من باربيس وبلانكى ولويس بلان مخلصين لمبادئ ثورة ٨٩ إذ يمكن أن نصف الاثنين الأولين أنهما جالى النشاط والحركة ونسمى الآخرين رجال المبادئ وسوف نتحدث خارج محيط كارل ماركس عن أكثر هؤلاء المفكرين أصالة وهو برودهون الذى سلبته الحرية كل تفكيره حتى النخاع بل إلى حد الفوضى تجاه الدولة وتجاه المسيحية فى سبيل البحث عن جدل (ديالكتيك) اجتماعى يستطيع أن يمسك بنواحى الدولة العلمانية وهى تطوى أمام عيوننا تناقضاتها التى كان يجب إيجاد الحلول لها للسيطرة على الآليات والحركات الاجتماعية التى هى من صنعها وهنا نحن بإزاء نوع من التأمل العلمى البعيد عن

المشاعر العقائدية الدينية بعيدا عما سمى بالحركة المناقضة لأقطار مذهب التجمع الإنتاجى المشترك ودعا إلى أقامته كل من أوين وكابيه وفورييه[1] والأخير خاصه على نفس المسار الفكرى الثورى لكارل ماركس وكان ذلك على العمال المصممين على تحقيق مايعلنون عنه من عالم أفضل انتظاراً لتحقيقه بأيديهم.

احتلت فرنسا الأولوية فى هذه المجالات إذ كانت بلاشك بلاد الثورة الكبرى المخلصة لمبادئها وتحقق لها التقابل فيما بين أعوام ١٨٣٠ و١٨٤٨ وعام ١٨٧١ إذ أشعلت ـ وحدها وهى مهذومة من الخارج ـ فتيل اللهب الثورى فى كميون باريس. غير أن فرنسا الاشتراكية كانت يقينا أثرا من آثار حركة تصنيعها الخاصة حيث وقع فيها مايقع فى كل مكان من الفكر الإصلاحى أو الثورة وهو ثمرة المثقفين المتمتعين بالمزايا الاجتماعية فى غالبيتهم الكبرى وكذلك وكما يحدث فى كل مكان لم يكن لأفكارهم أن تكتب لها الحياة إلى حين تصل إلى الأوساط العمالية غير أن الأثار الثقافية فى فرنسا كانت مبكرة وعنيفة أكثر من غيرها على حين كانت حركة التصنيع على العكس من ذلك أكثر تأخراً من مثيلتها فى إنجلترا ولذلك فإن مرحلة الانطلاق تقع فيما بين ١٨٣٠ و١٨٦٠.

ولكن ساعة الإقلاع أو الانطلاق إنما تبسط الأمور أكثر مما ينبغى حتى لانتجاهل كل زمن الميلاد السابق فقد حدث فى فرنسا عام ١٨١٥ وحتى عام ١٨٥١ ارتفاع فى معدل الإنتاج الصناعى يقدر بـ ٢ر٥ ٪ فى المائة، وكان كافيا لإدخال تغييرات فى أحوال المجتمعات القديمة وإعطاء فرنسا ـ التى كانت تهتز بالثورة وبوادرها وحروبها ـ ملامح ساحات التدمير التى طرقت أبواب البلاد المعاصرة، كما أدى انتشار المدن إلى التدهور السريع للطبيعة المحيطة مما أثار كثيرا من الأدباء والفلاسفة من أمثال بلزاك إلى فيكتوزهوجو وانتشار الفقر والتسول والإجرام وزيادة معدلاته وتشرد الأطفال وانتشار الأوبئة..كل ذلك تجمع بسرعة بسبب تكدس العمال بين حيطان ضيقة وفى اختلاط مزرٍ يفوق الوصف لأن سكان الريف لم يتوقفوا عن النزوح من أراضيهم، ويصف ميشيليه كيف وقف الفلاح

---

(١) الفيلسوف الإشتراكى فوربية.

مذهولا لمايراه فى المدن، فهو يريد كل شىء وسوف يبقى فى المدينة إذا استطاع فالقرية ما إن يغادرها سكانها لايعودون إليها أبدا، وكان لابد فى مدينة أورلياتز عام ١٨٣٠ عام القلاقل من مساعدة ١٢٥٠٠ نسمة بين ٤٠ ألفا من السكان أى من كل ثلاثة واحد كان فى حاجة ماسة للمعونة والإسعاف واتضح أن المجتمع الحضرى قد أهاجته حركة التصنيع حيث لمسها وعايشها بنفسه وانجذب إليها أوجذبته اليها مع العجز عن تحملها بل والعجز كذلك عن معايشتها فقد عجت المدن بضحايا التصنيع فى تجمعات عمالية لم تكن حركة التصنيع وهى تجد لهم أعمالا تأبه بظروفهم المعيشية، وهكذا أوجدت الأقطار الأيديولوچية الأولى مجتمعات تشابه تلك التى تعج بها البلاد النامية اليوم منذ يتحقق النجاح لحركة تصنيع فى المدن. وتحسنت أوضاع الطبقة العاملة منذ الارتفاع الاقتصادى خلال عصر الجمهورية الثانية ١٨٥٢ ـ ١٨٧٠.

من التنظيم العمالى إلى الضمان الاجتماعى

يطرح هذا السؤال قضية يصعب طرحها للمناقشة بعمق فقد تطلب الأمر متابعة لمسيرة أفكار ومفاهيم اشتراكية متعارضة ويظهر على السطح السؤال التالى: كيف تأخذ هذه التكتلات العمالية على عاتقها مسئولية تحقيق هذه الأفكار والمفاهيم الاشتراكية؟ ونجد من الصعب الرد على هذا السؤال والمثل هو ماحدث فى إنجلترا إذ يتصدى العالم العمالى دائما لتنظيم صفوفه لصالحه هو وبأسلوب واقعى حذر بعيد عن أيديولوجيات السياسة النشيطة العنيفة حيث كانت الساعة الأولى ساعة علماء النظريات الاجتماعيه الثانية ساعة التجمعات النقابية والثالثة ساعة الأحزاب السياسية ومن المؤكد أن الأخيرة كانت تمثل الدولة سواء كانت تسلم بالمطالب طواعية أى بتعقل وحكمه أو رغما عنها مكرهة ويكادان يتشابهان فى محاولة نزع مسبق للفتيل قبل اشتعاله وهناك من ثم أربع جماعات على الأقل علينا متابعة خطاها من علماء النظريات من كافة الاتجاهات والآفاق إلى النقابيين من كل الأجناس ورجال السياسة من جذور عالم عمالى وممثلين للدولة على

اختلاف قواهم فيما بينهم ، وبدأت ترتسم فى الأفق ملامح تطورات تكاد تتشابه فى سماوات أوروبا وخاصة فى أهم الدول وهى إنجلترا وفرنسا وألمانيا فضلاً عن الدول المجاورة كهولندا وبلچيكا والدول الأسكندنافية وسويسرا ولم يكن التأخر ومظاهره الواضحة فى غير هذه البلاد فى حاجة إلى دليل..ويهمنا فى هذا المقام ماوقع فى البلاد المتقدمة (التى تؤمن بالإصلاح السياسى والاجتماعى) .

بدأ قبل عام ١٨٧١ إنشاء الاتحادات العمالية بعدد كبير عام ١٨٥٨ ـ ١٨٦٧ وبدأت منذ نشأتها صراعها لإلغاء قانون السادة والخدم وعقد عام ١٨٦٦ أول مؤتمر لنقابات العمال التى لم تكن تضم إلا العمال الأكفاء.

ولم يحدث فى فرنسا تطور إيجابى إلا عام ١٨٦٤ بصدور القانون الذى أجاز الإضرابات إلا مايتعارض منها مع الشرعية وكان عام ١٨٦٥ أن أفتتح مكتب فرعى فرنسى للإنترناشيونال (الشرعى) سبقه فى إنجلترا مكتب أنشىء عام ١٨٦٤ ثم مكتب فرعى آخر فى ليون عام ١٨٦٨ وكانت الإمبراطورية الثانية تقدمية ومقيدة للحريات معاً ولئن كانت أدخلت التحسينات على ظروف معيشة العمال فقد وضعت عينها لمراقبة حريات العالم العمالى وكانت المسيرة البطيئة نفسها فى ألمانيا وحكاية لاسال قد أسس عام ١٨٦٢ فى لندن «الاتحاد العام للعمال الألمان» ثم كان بعد ذلك بسبعة أعوام أن جاء مؤتمر إيزنباخ لينشأ على أثره الحزب العمالى الاشتراكى الديمقراطى ذو الاتجاه الماركسى، قبل ١٩١٤ كانت مظاهر التقدم التى تحققت فى هذا التاريخ عديده ، ففى إنجلترا أسس هايدنمان عام ١٨٨١ الاتحاد الفيدرالى الديمقراطى فكان بداية نشرالدعاية الاشتراكية فى أوساط العمال الذين كانوا حتى ذلك الوقت مبتعدين عن السياسة كما بدأت حركة التسبيس (التحزب السياسى) منذ انضمت إلى الحركة النقابية منذ عام ١٨٨٤ أكثر طبقات العمال فقرا أى من غير صفوة العمالة المتميزة ثم وقعت بعد عشر سنوات إضرابات عمال أحواض السفن وكانت حركة إضراب تاريخية وقعت فى ضواحى لندن وفى عام ١٨٩٢ تأسس حزب العمال البريطانى وبعد ذلك بخمس سنوات تأسس الاتحاد العام للنقابات، وعلى أثر النجاح الذى حققه حزب العمال فى الانتخابات تكونت أول حكومة شبه ثورية وراديكالية عام ١٩٠٧ وكان التصديق

على مجموعة من القوانين الاجتماعية وبدأت فى إنجلترا مظاهر جديدة تتضح فى الأفق.

وكان فى فرنسا العمل نفسه بإنشاء جول جيد أول صحيفة اشتراكية تحت اسم ليجاليتيه (أى المساواة) ثم تأسس بعد عامين الحزب العمالى الفرنسى P.O.F واعترف القانون بالنقابات عام ١٨٨٤ وأنشات بورصات العمل منذ عام ١٨٨٧ وجاء عام ١٨٩٠ ليشهد أول احتفال تخليد لذكرى أول مايو (عيد العمال) وفى عام ١٨٩٣، ينجح جان جواريس نائبا لمدينة كارمو وفى عام ١٨٩٥ تأسست C.C.T ثم تأسس حزبان اشتراكيان عام ١٩٠١ أحدهما الحزب الاشتراكى لفرنسا ثم الحزب الاشتراكى الفرنسى عام ١٩٠٤ وتأسست صحيفة لومانيتيه[١] عام ١٩٠٦ حيث كانت كذلك أول محاولة لإدماج حزبيه معا وتأليف الحزب الاشتراكى الموحد.

وفى ألمانيا عمد بسمارك إلى مطاردة الاشتراكيين عام ١٨٧٨ وظهرت من عام ١٨٨٢ اشتراكية الدولة لتضاعف من الإجراءات الاجتماعية وعاد بعد تقاعد بسمارك إنشاء النقابات من جديد واجتمع من أعضائها قرابة مليون مشترك حققوا تجاها سياسيا كبيرا بما يناهز ثلاثة ملايين صوت فى انتخابات عام ١٩٠٧ وفى عام ١٩١٢ بلغ عدد الأصوات أربعة ملايين و٢٤٥ ألفا ونستطيع فى ضوء ماسلف أن نقول: إن نفوذ الإنترناشونالى الثانى منذ عام ١٩٠١ قد صارله كل الحق فى التأكيد أن الغرب عام ١٩١٤ كان - وهو على عتبة الحرب - يتخطى عتبه الاشتراكية التى كانت على أهبة الاستعداد التام لتسلم زمام الحكم وإعادة إنشاء أوروبا أكثر حداثة وعصرية وربما أقوى مما هى عليه اليوم وبعد أيام بل وبعد ساعات اندلعت الحرب ودمرت كل الآمال. ولاشك كان خطأ جسيما فشل الاتجاه الاشتراكى فى تجميد الصراع وهذا هو رأى أكثر الناس تعاطفا مع المبدأ الاشتراكى ومعرفة من الذى يتحمل مسئولية هذا التراجع من جانب السياسة العمالية، وفى يوم ٢٧ يوليو عام ١٩١٤ وفى مدينة بروكسل فى بلچيكا التقى كل من جواهر وديمولان وهما سكرتيرا C.G.T الفرنسى مع سكرتير مركز النقابات الألمانية فهل

---

(١) جريدة تعنى الإنسانية وهى لسان الحزب الشيوعى فيما بعد.

جاء تقابلهما مصادفة فى أحد المقاهى لغير تبادل عوامل اليأس؟ لاندرى قطعا ولن ندرى كذلك معنى الخطوات الأخيرة التى أقدم عليها جان جواريز.

فى اليوم الذى أغتيل فيه (٣١يوليه ١٩١٤) لقد بنت أوروبا اليوم وبغيرما لديها من مفاهيم اشتراكية نفسها ببطء.وبصورة غير كاملة (ناقصة) بسبب أصوات الانتخابات السياسية والتشريعات وكذلك بإنشاء التأمين الاجتماعى فى فرنسا عام١٩٤٥ ـ ١٩٤٦ وبعد ذلك بوقت قصير فى إنجلترا، وها هى السوق الأوروبية المشتركة وهى تضع أسس المساواة بين الدول تجاه الأعباء الاجتماعية تقرر امتدادها فى أقرب فرصة زمنية ممكنة على أوروبا ذات الأعضاء الستة.

الفصل الرابع

الوحدات الأوروبية

الوحدات الأوروبية

يحذرنا أحد أعضاء النزعة الإنسانية هوفرانكوسيمون مما يدعى «الوحدات الأوروبية» ولايمكن الرد عليه بأنه محق ومخطئ فى الوقت نفسه لأن الواقع أن أوروبا هى فى الوقت نفسه وحدوية وتعددية وقد شرحنا فى الفصول السابقة كيف انغمست القارة الأوروبية فى مصير واحد إجمالا بفضل العقيدة الدينية وفكرها العقلانى الرشيد وتطور العلوم والتقنيات وكذلك ميولها بما يجب أن يكون عليه التطور والمساواة الاجتماعية وما توصلت إليه من نجاح فى هذه المجالات. ومع ذلك نجد على الرغم من هذا التناسق الإيقاعى أن هناك اختلافات «تحتية» بسبب المشاعر الوطنية هنا وهناك وهى مشاعر فاعلة ضرورية عزيزة فيما بين بريطانيا والإلزاس وبين وسط فرنسا وشمالها وبين متزوجورنو وليومونث وبين بافاريا وبروسيا أو بين أسكتلندا أو إنجلترا والتلامان والدالون وكاتالونيا وكاسيتلا وأندلوسيا على أن هذه الاختلافات الوطنية لاتنفى مع ذلك الواقع الوحدوى لبلاد القارة الأوروبية.

الوحدويات المتألقة
الفن والروح

بماذا نقصد بصفة التألق، إنما نقصد بها تلك التقابلات وتلك المظاهر الوحدوية التى تضفى على ما فى الحضارة الأوروبية من مستوى ثقافى وذوقى وعقلى مظهراً أخويا يكاد يكون متماثلا كأنما غمر هذه الحضارة ضوءاً واحداً.. ضوء مشابه. ولكن ترى هل نستطيع القول أن لكل الأمم الأوروبية نفس الثقافة ؟ لاشك يكون الرد لا وإن كانت كل حركة تقع فى موقع سرعان ما نجد فيها ميول الانتشار فى سائر المواقع، وقد قلنا ميولا للانتشار إذ أن كل تقدم ثقافى قد يصطدم بأنواع من التحفظات والرفض فى جزء أو آخر من أوروبا أو العكس وقد يحدث أحيانا كثيرة أن يتخطى الحدود كل تقدم لينتشر فى بقاع أخرى كأنما هو تقدم غير أوروبى أصلاً ويصبح «عالمياً»، ومع ذلك يظل مجمل الموقع الجغرافى الأوروبى ينشئ مجالاً متلاحماً فى مواجهة سائر بلاد العالم ويتخطى الفن وتوابعه حدود أوروبا، وسرعان ما ينتشر فى أنحاء العالم سواء نبع أصلا من موطنه مثل كتالوينا أو كان فناً رومانيا أومن آيل دوفرانس أو منطقة كاترشنتو (إيطاليا) أو فلورنسا أولومباردیا أو فينيسيا (البندقية) أو من رسوم الفنان تيتيان أو اتجاهات باريس التعبيرية الانطباعية [1] وهى لون من النظريات الجمالية وكأن الأبنية كالقصور

---

(١) شكل من أشكال الفن يبرز الانطباعات ويهمل التفاصيل.

وبيوت النبلاء والموسرين والكنائس تجذب إليها الفنانين من كل أنحاء أوروبا كما كان فى القرن الخامس عشر، ونوه بذلك كتاب هذا العصر من أمثال دوق بورجون وكلوس سلوتر وفنانو عصر النهضة الإيطاليون وربما يبدأ فنان رسم لوحة فيتولى آخر تكملتها، ورب كنيسة تتابع عليها عديد من الفنانين ككنيسة سانتا ماريا ديلفيور فى فلورنسا إلى بروليتشى وترجع إقامة قبابها ولعب عزوز الأمراء والنبلاء وأثرياء التجار دورا مهما فى تطور الفنون بما يفسر لنا انتشارها السريع فلولا تشجيعهم وإرضاء نزواتهم لما تحقق للفنون هذا الازدهار رغم بطء وسائل النقل والانتقال فى تلك الأزمان، ففى هذه الأعوام (أعوام القرن الخامس عشر) قام الإيطاليون بالذات بدور أساتذة أوروبا كلها أما فى القرن الثامن عشر فنجد الفرنسيين هم الذين نشروا الفن الكلاسيكى حتى روسيا من قصر فرساى إلى الحدائق الفرنسية الشهيرة، وعرفت أوروبا عندئذ بعد هذه الموجات من انتشار الفنون وإن كان بطيئاً فقد ساعدتها على استعادة تكاملها من مجالات الفنون الرومانية والفن القوطى وفن الباروك والفنون الكلاسيكية وكانت كل موجة من هذه الموجات الفنية بعد ذيوعها وانتشارها الكثيف بمنزلة دفع مثير وظاهرة تدوم طويلا فقد دام الفن القوطى مايقرب من ثلاثة قرون ولم يتعد جنوبا بورجوس وميلانو أمابلاد ساحل البحر الأبيض المتوسط فلم ترغب فيه على حين احتضنته فشملته فينيسيا فى مستهل القرن السادس عشر ولكن على أخص أنماطها وبدأ هذا الفن القوطى يجد طريقه إلى باريس حوالى عام ١٥٥٠ ولم يؤثر إلاقليلا على الفن المعمارى فى عصر النهضة كما كان فى اللوفر وفى قصر مدريد الذى انمحى اليوم وكان فى فونتينبلو أن وافت المنية ليوناردودافنشى حيث كان يعمل الفنان الرسام النحات الإيطالى بريماتيس وقد تأكدت منذ القرن السادس عشر عظمة فن الباوك وبخاصة وهو فن من جذور روما و أسبانيا معاً فكان ثمرة من ثمرات «الإصلاح المعاكس» أوكما اطلق عليه بالأمس بالفن الجزويتى وانتشر فى بلاد أوروبا البروتستانتية وامتد كذلك شرقا فى فيينا وبراغ وبولونيا وأخذت فنون العمارة الفرنسية فى القرن السابع عشر وقتا أقل لتنتشر بما يفسر اليوم هذا التغيير فى أشكال المدن الحضرية لكثير من مدننا ومنها تورز وبوردو ولازال أوضح

الأمثلة مدينة لينينجراد (سان بطر سبورج) التى تعد بحق أجمل مدن القرن الثامن عشر، نشأت الانطباعات والأفكار نفسها فى فنون الرسم بالزيت أو فى الموسيقى إذ تدخل تقنيات هذه أو أجزاء تلك بغير صعوبة فى عديد من المسارات والاتجاهات الأوروبية، ولسنا هنا بصدد التحدث عن تقنيات الآلات الموسيقية وتنوعاتها التى سرعان ماالستحدثت فى أوروبا فى عصور متلاحقة قد تناولت الآلات الموغلة فى القدم من أمثال الفلوت والهارب الأبدى والعقول بالتطوير والتحديث فكان ظهور الـ (معزف قيثارى الشكل كالبيان القديم) وانطلاق (الكمان) الذى استخدمه عباقرة العازفين الطليان غير أن ظهور الفيدلونسيل كان اختراعا فرنسيا من القرن الثامن عشر فقط ثم كان ظهور البيانو فيما بعد. وارتبط تقدم الآلات بما طرأ على الأشكال الموسيقية من نجاح إذ كان الغناء فى العصور الوسطى سواء مصحوبا بآلة موسيقية أم غير مصحوب هو السائد وبدأ تنوع الأنغام والأصوات مع أعوام القرن التاسع مع استخدام الأورج فى تقديم الشعائر الدينية وبدأت فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر أنغام عدة أصوات مشتركة معاً صاحبتها الآلات الموسيقية فأحرزت فى موسيقى كابيلادى بالسترينا صفة الكمال فى الأعوام من ١٥٢٥ إلى ١٥٩٤ وإذا الموسيقى الصوتية تترك مكانها للموسيقى الآلية خاصة بعد نجاح الآلات ذات الأقواس وبدأ ظهور الكونشرتات التى سميت وقتئذ موسيقى الحجرة وهى أصلاً مرادفة للموسيقى الدنيوية تكتب لعدد من الآلات منها الرباعى كوانيود أى موسيقى البلاط فى مقابل موسيقى الكنيسة، وماموسيقى الحجرة إلا نوع من الثنائى وكانت إيطاليا مهدها مع الكونشرتو مع طائفة متحاورة من الآلات بعضها مع بعض حيث تتفرد بآله واحدة فجأة لتعطى الرد لكل الأوركسترا وكان كوريللى (١٦٥٣ ـ١٧١٣) أول من عزف منفرداً كما كان فيتالدى ١٦٧٨ـ ١٧٤٣ هو القائد، وكان الجمهور فى ألمانيا يفضل السوناتا (آلتين وأحيانا آلة واحدة) أما فى فرنسا فيصاحب ذلك كله عديد من حركات الرقص ثم ظهرت أخيرا مع السيمفونيات أنواع الموسيقى الأوركسترالية الكبيرة موسيقى التكتلات الجماهيرية لعدد من الآلات وعدد من الرواد المتمعنين كذلك، وفى القرن الثامن عشر عالج ستامتز شكل السوناتا فى شكل آخر هو السيمفونية ثم تطورت فى القرن التالى، العصر

الرومانسى فى شكل آخر تقوية لكتل الجماهير وذلك برفع مما سمى العازف المنفرد وبراعتة الفنية (باجا نينى وليست) ويجب أن نفرد مكانا خاصا بالأديرا الإيطالية التى ولدت بلاشك فى فلورنسا حوالى نهاية القرن السادس عشر ومن إيطاليا انتشرت بما حققته ألمانيا وكل أوروبا من نجاح، وظهرالموسيقيون العمالقة أمثال موزار وهاندل وجلوك بفضل ماشرعوا فى كتابته من أوبرات إيطالية أعقبتها أوبرات ألمانية.

وازدهرت فنون الرسم وتطورت وامتدت عبر كل بلاد القارة الأوروبية ويحدد تاريخ فن الرسم ثورتين هامتين هى ثورة عصر النهضة فى إيطاليا حيث يصبح المجال التصورى مجالا هندسيا قبل أن يتمكن جاليليو وديكارت وعلومهما من هندسة العالم بوقت طويل، أما الثورة الثانية ففرنسية تبدأ من مطلع القرن التاسع عشر حتى نهايته بحيث جعل فيها فن الرسم قضيته فى ذاته وانتهت هذه المرحلة إلى ظهور المذهب التكعيبى والمذهب التجريدى، ولقد ذكرنا الإيطالية والفرنسية وذلك لتحديد مواقع ظهور هذه الفنون وانتشارها بأنواعها وقد عاصرت كلها أشهر الأسماء فى هذه المجالات ويمثلان فى الحالتين فن الرسم الأوروبى، واليوم يمكننا أن نقول فن الرسم فى الغرب ذلك لأن هذه المدارس الرئيسية انعكست آثارها على كل أنحاء أوروبا وما وراء البحار الأوروبية. وعموما فإن نظرتنا على أى مدينة كبرى فى أوروبا من ناحية التأثر الهندسى فى معمارها أوعلى متاحفها كلها إنما تعبر عن نوع مطمئن من التطابق حيث تتقابل هى مع فنون چيولوچيا تكاد تكون موحدة ومع تماثل فى الألوان من السهل التعرف عليها فإذا ماوجد فى مدينة نمط بارولى وجدنا أخرى ذات نمط عصر النهضة والثالثة ذات نمط كلاسيكى وإن كانت فينيسيا قدمسها نموذج قوطى خاص بما يحمل الأوروبى من أى موقع على سرعة فهم كافة أشكال الفنون التى يشاهدها ويعرفها ويفهم خيوطها دائما بسرعة كأنها نابعة من جذوره.

وما الفلسفات بدورها إلارسالة وحدوية وهى كما يحلو لچان بول سارتر أن يقول فيها: إنها فلسفة مسيطرة على هوى المجتمعات وفق مقتضياتها وظروفها سواء كانت أفكار ديكارت الفلسفية فلسفة طبقة بورجوازية صاعدة أولم تكن وهى

على الرغم من ذلك فى عالم رأسمالى بطيء التحول تفرض سيطرتها وتملأ كل ربوع أوروبا الكلاسيكية، كالقول بلاجدال بأن الفلسفة الماركسية فلسفات طبقات العمال الصاعدة وطبقات المجتمع الاشتراكى أوالصناعى البازغ، فمن الواضح أنها أقطار سيطرت على الغرب عن طريق سيطرتها على بقاع العالم، وهذه الوجودية فى الفلسفة[١] تفترض اتصالات نهائية تنتشر من بلد لآخر. ولنأخذ حقبتين هامتين من حقب الفلسفة الألمانية تمتد أولاهما منذ ظهور مصنف كانت عام ١٧٨١ نقد العقل المجرد حتى وفاة هيجل عام ١٨٣١ والثانية من هوسيرل.

١ـ (١٨٥٩ ـ ١٩٣٨) حتى هيدجير المولود عام ١٨٨٩ ولم يكن ميسوراً إدراك أهميتها دون أن تأخذ فى الحسبان عديد الترجمات الفرنسية والإنجليزية والإيطالية والأسبانية والروسية التى تصاحب كل مؤلف وكلها تمثل انعكاسات سرعان ماتتكامل وتندمج فى حياة أوروبا، وهى هنا من أصول حركتين فلسفيتين ألمانيتين ومن الجدير بالملاحظة فى موضوع مذهب الوجودية من حيث هى مذهب فلسفى أن ترجمتها وتفسيراتها الفرنسية لسارتر وميرلوبونتى هى التى دفعت بها إلى الدنيا كلها خاصة أمريكا اللاتينية، أما العلوم الموضوعية فقد ظلت علوما أوروبية بحتة منذ طليعة نجاحها وليس من السهل توزيع انتصار إحدى المخترعات ونجاحها على واحدة من الأمم الأوروبية ذلك أنها من حيث هى مخترعات كانت تنطلق وتنتشر فى كل مكان من أوروبا فى وقت واحد معاً وذلك على مراحل تثيراستحسان علماء أوروبا واهتمامهم تباعا، وما من مثل نورده هنا إلا يفيد فى تحرير هذا الواقع ولنكتفى بمثل ثورة كيبلر (١٥٧١ـ ١٦٣٠) فهو مرتبط بأسرة من المفكرين وكامن أسلافه كوبرنيك ومعاصروه جاليليو وأنصاره وكلهم انتشروا عبر كل الأراضى الأوروبية، ولم تشذ علوم الطب والبيولوچيا كذلك عن القاعدة ولاسبيل مثلا للتحديد ولو فى زمن مجدد ما إذا كانت علوما ألماينة أو إنجليزية أو فرنسية أوإيطالية أو بولونية .. إذ كانت دائما علوماً، أوروبية. أما علم الاجتماع فمن أصول فرنسية كما أن علوم الاقتصاد السياسى وخاصة فى السنوات الخمسين الأخيرة علوم إنجليزية أو أنجلوساكسونية، وعلوم الجغرافيا ألمانية وفرنسية

---

(١) الوجودية فلسفة معاصرة تذهب إلى أن وجود الإنسان يسبق جوهره تاركا له حرية الاختيار ومسئوليته.

فى الوقت نفسه ومن علمائها رانزيل وفيدال ولابلانش وعلوم التاريخ خاصة ألمانية حتى القرن التاسع عشر إذ سيطر عليها اسم ليدبولد دورانك (١٧٩٥ - ١٨٨٦) حيث أخذ على عاتقه تحقيق تاريخ دقيق للقارة الأوروبية وتدخلت فى علوم التاريخ مدرسة فرنسية كانت لها سيطرة من هنرى بير وهنرى بيرين ولوسيان لوفيفر ومارك بلوش وهنرى هوسر دوجورج وارتكز لوفيفر على علماء فى الاقتصاد من أمثال فرانسوا سيمياند وعلماء فى الاجتماع من أمثال موريس هالبراكس وكان عالم التاريخ الألمانى ليوبولد دورانك يرى فى التاريخ وعلومه حصيلة تتجمع فيها كل معارف الإنسان فجدد أساليب الأحداث ومنظورها التاريخى، كما يمثل الأدب أكثر أنماط الوحدوية غير المتكاملة فى أوروبا ولاسبيل إلا أن نحمد الله على عدم اكتمال هذه الوحدة فى مجال الأدب فالروايات والمحاولات الأدبية والمسرحيات إنما تستند عادة على أشد مايميز التناقضات الحضارية الوطنية ولهجاتها ولغاتها وحياتها اليومية المعتادة وطرق تأثرها تجاه الألم والسعادة والحزن والحب والموت والحرب أساليب ترجيه أوقات فراغها وأكلها وشربها ومناهج عملها وفيم تفكر وتعتقد وعبر الأدب تستعيد الأمم شخصيات وأفراداً يمكن تحليل تصرفاتهابل تحليل نفسياتها بفضل تلك الشهادة الأساسية ولاجدال يوجد بين هذه الأنواع من فنون الأدب نقاط التقاء ظاهرة قابلة للبقاء فهى تجيز وترتضى أنماطا منها: تلك الموجة من الاتجاه الرومانسى الذى ساد كل أنحاء أوروبا وشملها بعد انتشاره وأضفى عليها كثيرا من أضواء العلوم والمعارف توالى بعدها ذلك الاتجاه نحو الواقعية الاجتماعية بعد الواقعية الرومانسية وكانت المؤثرات تضفى انعكاساتها الواحدة تلو الأخرى وكانت انعكاسات «فردية» أحيانا وانعكاسات مدارس فنية ويظل كل إنجاز أدبى يغوص فى اعماق الأوساط الاجتماعية معبرا عنها تعبيرا روحيا خاصة وكل ذلك فى مجال تجربة أصيلة، ولم يعد ممكنا التحدث عن وحدة أدب شعبى وطنى وبالأحرى لم يكن ممكنا التحدث عن وحدة أوروبية فى مجال الآداب. وعموما فقد ظهرت عقبة رئيسية عقبة اللغة فلم تستطع أيه ترجمة أن تثيرادراك الناس لعمل أدبى إدراكاً تاما، فكانت كل لغة من اللغات الأوروبية الرئيسية تختلس من الأخرى بعضا من

كنوزها كما وقع من قبل للغة اللاتينية وكما وقع للغة الفرنسية فى القرن الثامن عشر وصارت اللغة الملكية التى امتد انتشارها حيث يمكن اليوم الاكتفاء بلغة موحدة فى مجال العلوم فقط إذ شملت هذه اللغة العلمية فى حقيقة الأمر مرادفات لفظية صناعية لهاسمة العالمية ابتكرت كنوع من التعريف والتقارب يتداولها العلماء ويدركون معانيها وبقدر انتشارها بين العلماء بقدر ابتعادها عن مدارك الكتل الجماهيرية، فاللغة الفرنسية فى القرن الثامن عشر لم تدم على المستوى الدولى إلابين طبقة الصفوة الضيقة. ترى هل كانت هذه الوحدة الثقافية - بكل ماحققته من نجاح وماشابهها من نقص - كافية لتحقيق آمال أوروبا التى تحلم بإلغاء الحدود بين بلادها؟ والرد بالنفى بلاشك وذلك بحكم انحصار اهتمام علماء أوروبا وأنصار توحيدها سياسيا الأساس فى التعليم على نمط جديد ومتعقل رزين يتيح للطالب الاستمرار فى دراسته من جامعة لأخرى ومن بلد لآخر. وهم اليوم يهتمون بإمكان إنشاء جامعة أو جامعات أوروبية (المبدأ متفق عليه) تهيئ مجالا عاما للدراسات الأوروبية. .ثم أليس هذا الهدف - علميا - هو التنويه بصورة قسرية على اتجاه ونزعات إنسانية وعصرية وحديثة مفتوحة عن آخرها على اللغات الحية وهى بكل تأكيد لغات أوروبا؟

الوحدات الراسخة

الاقتصاد

كان يؤرق أوروبا منذ زمن طويل تحقيق وحدة اقتصادية وذلك لأن حياتها ونشاطها المادى كانا يدوران دائما فى محيط مواقع سيادية آمرة تتمتع بالامتيازات، فكان كل شيء فى العصور الوسطى الأخيرة يصب فى فينيسيا ومنها يعود إلى الانطلاق ثم انتقل مركز الثقل بعد بداية العصر الحديث إلى لشبونه زمنا انتقل بعدها إلى إشبيلية أو بصورة أدق بدأ يتذبذب بينها وبين أنفرس حتى الربع الأخير من القرن السادس عشر ثم بدأت بعد ذلك فى مستهل القرن السابع عشر تنشأ فى أمستردام ركائز التفوق التجارى حتى بداية القرن الثامن عشر وانتقل النشاط بعد ذلك إلى لندن وظل هناك حتى عام ١٩١٤ بل حتى عام ١٩٣٩ وهناك كانت دائما جوقه (أوركسترا) وقائد للجوقة إذ كانت مراكز النقل هذه تزدهر فى كل زمن بفعاليتها فتؤثر على الحياة الأوروبية كما تؤثر فى كل بقاع الدنيا، ولم تكن لندن بالنسبة إلى أوروبا عشية الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ السوق الكبرى للتعاملات الائتمانية ومركز كبرى شركات التأمين البحرى وشركات إعادة التأمين وحسب بل كانت كذلك مركز تسويق القمح الأمريكى والقطن المصرى وكاوتشوك ماليزيا وقصدير باتجكا وبيليتون وذهب جنوب أفريقيا وصوف أستراليا وبترول أمريكا أو الشرق الأوسط. وساد أوروبا رخاء مادى متماسك مشبع

بسياسة مالية ونقدية مرنة متحركة تعززها حركات دوران عبر بحار ومحيطات تحيط بها وقنوات ثم طرق ممهدة تخترقها سواء تلك التى تسلكها الدواب أو العجلات وكانت دواب النقل فى وقت مبكر جدا تحقق بغيتها على حواجز جبال الألب عن طريق ممر برميز فى اتجاه فينيسيا أوطرق جوهارد أوسيمبولون نحو ميلانو عن طريق جبل سنيس وقد وصفت هذه الطرق المسارات بالانتصارات الكبرى التى حققتها قوافل الحمير والبغال حاملة الأقمشة الممتازة الفاخرة ومنتجات الشرق مما أتاح ازدهار الاقتصاد الإيطالى، وانعكست آثاره شمال أوروبا وشمال غربها فى القرن السادس عشر وازدهار ليون التجارى بالإضافة إلى ماحققته لها أسواقها ومعارضها، يضاف إلى ذلك مراكب النقل النهرى والنقل بالعجلات والعجلات الكبيرة المتخصصة فى اجتياز ممرات الألب الوعرة ثم انكسرت منذ القرن التاسع عشر وفى منتصفه بظهور السكك الحديدية ماساد مناطق القارة الأوروبية من حدة التصلب والجمود حيث تقوم حضارة مادية تسودها تبادلات سريعة مع تقدم المدن الصناعية والمدن التجارية. نضرب هنا مثلين: أولهما: المود وهى قوافل السفن الشراعية التابعة للبندقية فى القرن الخامس عشر وشبكة طرقها وهى أصلا شبكة بحر أبيض متوسط وإن وصل امتدادها أحيانا إلى لندن وبروغ (منطقة فى بلچيكا) مخترقة طرقا برية ممهدة نوعا أخصها ممر برنير المؤدى إلى فينيسيا حيث يمتلك التجار الألمان مستودعاتهم الضخمة المشتركة قرب جسر ريالتو. والمثل الثانى: فى القرن السادس عشر هو حركة تداول النقد وخطابات الضمان تتنقل من مكان إلى آخر من صقلية وهى عادة المبالغ النقدية نفسها التى تتداول من موقع إلى آخر فى عمليات المبادلات والمدفوعات. وندرك علة هذه الموجة من ارتفاع الأسعار فى بعض المناطق الأوروبية إذ بدأ فى القرن السادس عشر ارتفاع ضخم فى الأسعار فى أسبانيا كأثر من آثار تدفق مفاجئ وفير من المعادن النقدية من أمريكا كان لها آثارها على أوروبا الغربية كلها حتى موسكو- يومها - مازالت تحبو فى إطار اقتصاد بدائى. غير أن ذلك لايعنى أن الحياة الأوروبية كانت كلها تسير على الخطى نفسها أو تقف على المستوى نفسه فقد كانت هناك بعض الفروق بين الخط الممتد من

مدينة لوبيك أوهامبورج ليمر بمدينة براغ ويصل حتى الإدريانى يختلف اقتصاديا عن أوروبا المتقدمة الممتدة غربا، بل هناك قلب أوروبا المتطورة مناطق أكثر تقدما ومناطق فى سبيلها نحو التقدم تفصلها عن المناطق المتطورة والمناطق المتأخرة أو التى فى سبيلها للحاق بركب التقدم، ونجد فى بلاد القارة الأوروبية وحتى اليوم مناطق تعد متأخرة مقارنة بباقى مناطق الدولة حيث نجد كل المستحدثات العصرية منجذبة نحو المراكز الأكثر حيوية وانتعاشا، وفى الواقع لاسبيل إلى اقتصاد مشترك بغير اختلافات من حيث القوى المحركة أومن حيث المستوى فهناك دائما مناطق تقود ومناطق تنقاد.... نمو هنا وتأخر هناك ومناطق فى مرحلة التطور بين الاثنين وكلها مرتهنة واحدة بالأخرى، وذلك مايفسره تاريخ البنوك فى فرنسا منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر ذلك أن انطلاقها إنما جاء من التعبئة المتأخرة لصالح المؤسسات المطلوب زيادة أحجام أنشطتها مثل بنك الكريدى ليونيه الذى تأسس عام ١٨٦٣ بفضل توفر رؤوس الأموال النائمة أو نصف النائمة (أى غير المستثمرة) وحصيلة إنتاج مناطق وقرى فرنسية انتابتها الصدمة من جراء اليقظة المفاجئة وترتبط بالحياة العامة وتتساءل هل يمكن تنظيم بواكير السوق الأوروبية المشتركة كرباط اقتصادى يوحد بلاد أوروبا رغم ما فى مناطق إقليمية أو وطنية من اقتصاديات مختلفة الأنواع واحدة عن أخرى؟ ذلك ماأسفرت عنه المحاولات التى انطلقت منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، وقد أثبتت التجارب أن السوق المشتركة أكثر تلك المحاولات تماما وإن لم تكن المحاولة الوحيدة ولا الأولى، وكل ذلك بدأ إثر حالة البؤس التى عاشتها البلاد الأوروبية بعد انتهاء الحرب عام ١٩٤٥ إذ نشأ عدم توازن نتيجة انهيار كامل امتدت آثاره على الدنيا كلها. وكان الوضع فى أمس الحاجة لاستعادة التوازن وبدأت بالإجراءات البناءة التى اتخذت فى لندن ولتكوين لجنة السبع (سبع دول أوروبية) الموحدة فى مايو ١٩٤٧ ثم مشروع مارشال فى ٣يوليو ١٩٤٧ بهدف إعادة إنعاش أوروبا المحطمة، كما كانت له أهداف أخرى عسكرية وسياسية واجتماعية تحقق لأمريكا به نوع من الهيمنة على قارة أوروبا التى كانت تعيد تكوين نفسها من جديد بغير كوارث الحرب العالمية الثانية، ونكتفى هنا بالحديث

عن القضايا الاقتصادية فتشير إلى فشل الـ (السبعة) التى وصفها أحد الصحفيين بالغرقى السبعة وانفتح بذلك الطريق نحو أوروبا «الستة» التى يطلق عليها اليوم السوق المشتركة ، وتثير القضايا المتعلقة بمجتمعاتها كلها و المنشأ فى ١٩٥١ ، الإيراتوم وخرج الاثنان من معاهدة روما الموقعة فى ٢٥ مارس ١٩٥٧وكانت حلاًجزئيا غير أن أوروبا إنْ قدر لها أن تعيد كياناتها حقيقة فلسوف تمتد عمقا ومساحة تستوعب طلبات الاشتراك مع مساهمة تركيا واليونان والدانمرك وإيرلندا وسويسرا والنمسا وإنجلترا ومازالت كل طلبات الاشتراك محل دراسة (يلاحظ عن المؤلف أن كتابه يكتب عام ١٩٦٢ فى شهر فبراير) وبذلك فإن السوق الأوروبية المشتركة مشروع قابل للاتساع وإن حرم علية الامتداد حتى الأورال ليشمل كافة مناطق أوروبا الكلاسيكية وحتى هذه اللحظة يظل انضمام إنجلترا يستحوذ على الاهتمام الأكبر إذن.. يمكن عن طريق السوق المشتركة دراسة فرص الوحدة الاقتصادية لأوروبا وقد جاء تكوين السوق المشتركة نتيجة مساع مثمرة ومفاوضات حول معاهدة روما (٢٥ مارس ١٩٨٥٧) ولعبت شروطها التى دارت حول مناقشات عديدة وعن دورها الفعال منذ أول يناير ١٩٥٨ . ويقتضى الأمر منا أن نحاذر ونحن نتلمس نقد هذه التجربة القصيرة الوليدة فلقد تحقق للسوق المشتركة بعض أسباب النجاح والتقدم بدأت بارتفاع معدل المبادلات التجارية بين الدول المعنية. وعموما فإن أهم مافى هذه التجربة هو المستقبل إذيتنبأ المشروع التقدمى لمعاهدة روما بمجموعة من المراحل منها مالاح فى أفق العلاقات بين الدول الأعضاء بما يوحى بإمكانية اندماج كلى فى الاقتصاد. إذ على عكس التكهنات المتشائمة استطاعت صناعات الستة بما فيها الصناعات الفرنسية ـ التى وصفت بأنها أقل رسوخا من الصناعات الألمانية ـ كلها التأقلم ومسايرة متطلبات السوق المشتركة حيث اضطرت إلى تعديل أدخلته على كياناتها الصناعية بالاتجاه إلى مركزية تجميع المنشآت الصناعية كمصانع رينو على سبيل المثال أومجموعات بيشينيى أو سان جوبان، كما اقتضى الأمر إعادة تحويل قطاع الفحم حيث أغلقت مناجم لم تعد تنتج أوذات إنتاج ضعيف وكانت هذه التجمعات المعاد تكوينها مسايرة لخطوط التطور الضرورى لتحقيق قفزات مثمرة، ومن المؤكد أن

القطاع الصناعى كان الأهم، وأصبح إدخال التقنيات الحديثة أكثر ليونة عن ذى قبل وبدأت الأموال الأوروبية تعرف نوعا من الاستقرار والصلابة فلم يعد الدولار يستحوذ وحده على تلك المكانة التى كان يتمتع بها زمنا طويلا حيث يتوازى مع الذهب بالنسبة للاحتياطى الوطنى فى البلاد الأوروبية وقد شملت هذه الظلال الاقتصادية :

١ ـ حدود السوق المشتركة الأوروبية.

٢ـ الحدود الأبعد من الحدود الأوروبية.

٣ـ القضايا والمشاكل الداخلية التى تثيرها أنواع التطبيقات الزراعية. ومن الواضح أن أوروبا «الستة» ليست كاملة إذ أن فيها فراغات مهمة ناحية الغرب، كما أن هناك السد القائم ناحية الشرق، هو الستار الحديدى أعقبته بالفعل سوق مشتركة أخرى أى الكوميكون، ولازال دخول بريطانيا هو المشكلة فهو محتمل وغير محتمل فقد ثار أوماثار منذ عام ١٩٦١ وتلك قضية صعبة لاشك أوسيكون على إنجلترا أن تتحلل أوعلى الأقل تبتعد عن ارتباطاتها بدول الكومونويلث والتخلى عن نظام الاقتصاد التفضيلى وهو نظامها الاقتصادى مع أقطار إمبراطوريتها السابقة إذ يخلق هذا الوضع على الصعيد الاقتصادى قضايا ومشاكل عديدة منها على وجه الخصوص ضرورة موافقة دول الكومونويلث، ويعنى ذلك معنويا ونفسيا أن على بريطانيا أن تقلب آخر صفحة فى سجل المؤسسات العظمى التى تحققت لإمبراطوريتها ولم يعرف التاريخ لها مثيلا. كما أن هناك أيضا مشاكل ومع سائر بلاد العالم خاصة مع بلاد أفريقيا الشمالية (باستثناء مصر وليبيا) ومشاكل العلاقات مع دول الكومنويلث غدا والمشاكل التى بدأت عام ١٩٦٢ مع أسواق الولايات المتحدة الأمريكية وهى أسواق عملاقة تستطيع التهام السوق الأوروبية الوليدة، وبإيجاز نجد أوروبا مرحلة أولى تليها مرحلة الاطلنطى مرحلة ثانية وبلاد العالم مرحلة ثالثة، على ألاننسى أن لهذه المشاكل طابعها السياسى أيضا، ومعروف أن السياسى لايتدخل لتبسيط المشاكل، وتبدو المشاكل الزراعية لأول وهلة أكثر تعقيدا وهى تمثل المستقبل الرئيسى للسوق الأوروبية المشتركة. ذلك أن هذا التطور غير القابل للتفاعل بين عالم رائع.. عالم

الفلاح الأوروبى بجذوره الكامنة فى أعماق التاريخ، وماهو معروف من تواضع إنتاجيته، وعالم الست دول ومجموع سكانها بملايينها المائة والستين من بينهم ٢٥ مليون فلاح بأسرهم، ويعلن مستر مانشولت وهو وزير هولندى قديم: أن ثمانية ملايين فلاح سوف يتحولون إلى أعمال أخرى غير الأعمال الزراعية خلال الأعوام القادمة. وكان هذا الوزير - يوم أن صرح بذلك - نائبا لرئيس السوق المشتركة، أما الزراعة فقد تكون حصلية زيادة الإنتاجية وانخفاض عدد العاملين تتطلب هذه الإنتاجية المتزايدة ميكنة متقدمة فإن أوروبا على سبيل المثال إذا ارتفع دخل الفرد فيها لجأ إلى شراء سيارة وجهاز تليفزيون واقتناء عدد من الكتب والملابس وخرج فى بعض الرحلات السياحية وذهب إلى المسرح ولكنه لايزيد من استهلاكه للخبز أو اللحوم ونرجو ألايزيد استهلاكه للنبيذ والكحوليات. نخلص من ذلك إلى أن الموارد الزراعية تزيد على مستوى التصاعد نفسه فى القطاعات الأخرى فقد وجب على كل فلاح من ثلاثة مغادرة الريف قبل حلول عام ١٩٧٥ حتى تغل مساحة الأرض المزيد لعدد أقل من المنتجين وتشير دراسة للإحصائيات المتوافرة إلى حاجة إنجلترا إلى ٢٢سنة وفرنسا إلى ٢٧ سنة لتحقيق هذا التحول من العمل الزراعى إلى أعمال أخرى، دون ذكر ماعسى أن يتوقع من مفاجآت فى إيطاليا وفيها أكبر وأضخم كتل من زراع وفلاحين أو مايقرب من أربعة ملايين ونصف المليون. ولذلك فليست المنتجات الزراعية الأوروبية تنافسية على مستوى السوق العالمية حيث يغرق فائض المنتجات الأمريكية الكندية الأسواق بأسعار زهيدة جداً بل بأقل من أسعارها فى أسواقها الخاصة بفضل الإعانات الحكومية. ولم تتمكن المنتجات الزراعية الأوروبية من الأسعار المرتفعة إلا بفضل الحمايات الجمركية التى تعزلها عن السوق الدولية.

وتكمن المشكلة العويصة الثانية التى تواجه السوق المشتركة فى الفرق الكبير فى مقدار المنتج الزراعى وبين أسعاره وفق كل بلد، ففى فرنسا حيث يجمع لها فائض لاتستطيع تصريفه خاصة فى الحبوب إلابسعر السوق الدولية مما تضطر معه الحكومة إلى شراء الفائض بالسعر الداخلى للسوق ثم إعادة بيعه للخارج بالخسارة ومن ثم عام ١٩٦١ بيع القمح والذرة الفرنسيين فى الأسواق الصينية

واللحوم المجمدة فى روسيا وقد حدث الشيء نفسه لإيطاليا فى الفاكهة والخضراوات وفى هولندا فى منتجات الألبان حيث واجهتها مشكلة الفائض. أما ألمانيا فهى على العكس مستوردة لكثير من المنتجات الزراعية ولكنها تشترى من خارج السوق الأوروبية المشتركة حيث تختلف أسعار الحاصلات الزراعية من بلد لآخر وفق الإنتاج والحماية الحكومية التى تضطر الحكومات إلى إسباغها على مزارعها، وهكذا نجد سعر الحبوب الفرنسية هو الأقل وسعر الحبوب الألمانية هو الأعلى، وأدنى سعر للألبان فى هولندا.. إلخ وينهض السؤال المطروح: على أى مستوى يكون توحيد الأسعار؟ ولما كان ضروريا فى خاتمة المطاف إدخال التحسينات العصرية على القطاع الزراعى مع الكلفة الباهظة فمن الذى يتحمل تلك الأعباء الضخمة؟ وتجئ مااتفق عليه من حلول فى بروكسل فى ١٤ يناير ١٩٦٢ لوضع هذه الأعباء فى حساب المجتمع الأوروبى عامة ولم يكن الحل لصالح ألمانيا لأنها دولة صناعية فى المقام الأول، ولكن الدول ذات الإنتاج الزراعى الوافر كفرنسا وإيطاليا وهولندا رفضت الانتقال إلى المرحلة الثانية من التصنيع مالم تتجدد السياسة الزراعية، وكان بعد مناقشات ومجادلات استغرقت زهاء مائتى ساعة من الجدل حتى أصبح مصير السوق المشتركة فى مهب الريح أن أحرزت المباحثات تقدما مثمرا جدا بواحد من الصحفيين الذين تابعو المناقشات الطويلة إلى التصريح مبتسما «استطاعت أوروبا بمرح ابتلاع الصلب والفحم والذرة وهى تتراجع أمام الخضراوات والفاكهة»، ونص الاتفاق على آجال ولايبدأ تطبيقه والإجراءات الأولى إلافى يوليه ١٩٦٢، وأدركت الحكومات والنقابات الزراعية على كل حال أن الوقت أمامهم محدود للبدء فى حتمية التطبيق واستقر الرأى على حرية انتقال المنتجات الزراعية مع سداد الضرائب التعويضية على الفروق بين مستوى السعر، ويحتاج المبدأ بالضرورة إلى تحديد المؤسسات ومراكز الرقابة والقواعد وتفسيرها أى توقع بحالات لقضايا عديدة. وفى الوقت نفسه كان على الأعضاء الستة إقامة نظام جمركى موحد على حدودها المشتركة تحتسب تجديداته على متوسطات التعريفات الخاصة بكل عضو من الجماعة وإلااضطرب التوازن الداخلى بحكم تفاوت الإغلاق، وهكذا تحققت وحدة جمركية يضمها اقتصاد مشترك، وبعد: هل نتوقف عند هذا الحد؟ لافقد ظهرت مشكله أخرى.. مشكلة الوحدة السياسية.

الوحدة السياسية التى لاتتحقق

للوحدة الثقافية نقول نعم وللوحدة الاقتصادية قد نقول نعم أما الوحدة السياسية فعلى العكس لايمكن لأن السياسة مترددة ... متحفظة ولديها مسوغاتها وأسبابها أحيانا طيبة وليست كذلك وأخرى بل هى خاطئة وترد بها على اهتمامات تشغل بالها، وكذلك على أباطيل (من القرن التاسع عشر حتى عهد قريب بل وبصراحة إلى عهود مستقبلية ...هكذا كانت السياسة دائما وتثبت الحقيقة لنا أن أوروبا انغمست منذ عهد طويل فى خضم اللعبة السياسية فما من بلد فيها حاول الابتعاد عنها إلا واجهته احتمالات ضياع ذاتيته نفسها، ولم تكن هذه اللعبة السياسية بالقطع تهدف إلى نوع من وحدة الفكر بين دول القارة بل على العكس من ذلك فقد قامت بتقسيمها إلى مجموعات تغيرت عناصرها وتنوعت دائما وكانت القاعدة السائدة إبعاد أى شكل من أشكال السيطرة أو الهيمنة عن فرض إرادتها على كل أعضاء الأسرة الأوروبية من دول: وليس ذلك بالطبع احتراما لفضيلة حرية الآخرين، فكل دولة تلعب دورها فى لعبة السياسة لصالحها الذاتى فإذا ما أدت دورها بإتقان فسرعان ماتجد نفسها يوما وقد تحالف ضدها الآخرون، كان هذا المبدأ إجمالا هو التوازن الأوروبى ونتساءل: هل تخلت أوروبا عام ١٩٦٢ حقيقة عن هذه اللعبة القرينة (كل قرن)؟

نجد القرن التاسع عشر وقد مورست فيه اللعبة السياسية دون توقف لم يبتدع التوازن ولاالتناغم الأوروبى ولاتوازن القوى، فإن هذا الوضع يرجع إلى تقديرات رؤسائهم؛ إذ كان وضعا جبريا فرض نفسه على دول أوروبا وهو على العكس من ذلك، كان توازنا عفويا تلقائيا نصف إدراكى

فرض فرضا على رجال السياسة وكانت القاعدة دائما هى هى فما إن تبدو دولة قوية ولوظاهرا أوخطأ حتى يتكاتف جيرانها الآخرون مجتمعين فى الكفة المواجهة لتعود إلى رشدها وتعقلها وحكمة تقديرها كحالة فرنسا فى عصر فرانسوا الأول (١٥١٩ـ ١٥٢٢)، وهزيمة بافى، وكان أسر الأسبان ملك فرنسا بمنزله خطأ وقع إذ كان الرجل قويا جدا إنه شاركان (ملك أسبانيا من أصل جرمانى) وكانت قوته أكثر مما ينبغى بحيث استدعى الأمر تكتل كل القوى فى الكفة المواجهة فضلا عن دعوة الأتراك إلى المساهمة فى هذه اللعبة..لعبة التوازن ثم أصبح تصاعد قوة الدول الأوروبية يمثل خطورة على الحسابات غير المؤكدة

أوهى أقرب إلى الحسابات الوهمية، وكانت إنجلترا المنفصلة عن القاهرة وحدها القادرة بلا عقاب على ممارسة لعبة توازن القوى بعيدا عن أسلوب الميزان الترجيحى هذه فهى تكتفى بممارستة وصيانته بنفوذها وقواتها وخاصة بنفوذها وكثيرا ما لعبت دورها ضد فرنسا متحالفة تلقائيا مع أعداء فرنسا فلما انتصرت المانيا على فرنسا عام ١٨٧١ حيث كانت وراء إنجلترا وأوروبا رغم انقساماتها لم ترفع الصيحة أن قف عند حدك.. لاتتعجل .. وأصبحت ألمانيا قوة كبرى بفضل طفرتها الاقتصادية بعد عام ١٨٩٠ وتصاعد عدد سكانها فقد تم عندئذ إعداد اتفاق ودى أعقبه تحالف بين فرنسا وروسيا وسط أعداء لها (ألمانيا) وكانت ألمانيا من القوة بحيث رفضت الإذعان لهذا الحصار كما لم تكن من القوة بحيث تتمكن بقوتها وتفوقها على أعدائها، فأدركت أنها بالحرب وحدها تستطيع الخروج من هذا المأزق، واليوم يمر العالم بهذا النمط المؤذى من التوازن زحف على العالم من أوروبا ليشمل أقطار العالم كله وبذلك عاصرنا المعسكرين الشرقى والغربى وبينهما تحاول الدول المحايدة الطريق الثالث الذى لايصلح قيامه بغير سند من قوة فعلية تنبع منه.. وهكذا نرى العالم يأخذ بنظام قديم بالٍ أثبت عقمه وقد يؤدى إلى

انقسام الجسد كله كما حدث للجسد الأوروبى مرات، وكان فشل الوحدة بالعنف هو الدرس الوحيد من هذ الحكاية المملة حيث ثبت للكافة أن العنف لم يكن بالقدر الذى يمكن أحدا من السيطرة على البيت الأوروبى كله ونكتفى هنا دون الرجوع إلى الوراء كثيرا عن شارلكان ونتوقف قليلاً ولو لحظة عند شارلكان (١٥٠٠/١٥٥٨) وهو أقلهم كرها وأكثرهم لطفاً وحظاً فى محاولة السيطرة فقد كانت تراوده أحلام الاستيلاء على كل الدول المسيحية حماية لها تحت سلطانه ودفاعها ضد أعدائها من «الكفار» المسلمين ومن ثم إعادة إصلاحها ولقد تنامت هذه الأفكارلدى شارلكان عن تراث قديم أورثتها إياه الحروب الصليبية الأسبانية ولم يكن ينقص شار لكان شيئا فقد توفرت لديه كل المساندات اللازمة أمثال أصحاب البنوك «فوجر» وكانت لديه دبلوماسية غير منقطعة النظير كما كانت له سيطرة على التجار ثم ثرواث أمريكا وكنوزها آخر الأمر، وأصبحت أسبانيا فى عهده الفيض الذى انسابت مياهه لتستغل مناجم الذهب فضلا عن أموال المناجم الأمريكية على حساب الموازين التجارية وإن كانت لصالح الضرورات السياسية .. فهل فشل أمام فرنسا كما قيل؟ الرد لاونعم، فنعم لأن شيئاً من هذا النجاح لم يتح له ولم يكن ليتبح له السيطرة على بلد ضخم كفرنسا فوجد نفسه (أسبانيا) فجأة وقد وقع فى قلب هذه الدول فقرر مرغما عام ١٥٢٩ توقيع معاهدة السلام الأبيض ثم تلا ذلك فشله إزاء ألمانيا البروتستانتية (١٥٤٦ـ ١٥٥٢ ـ ١٥٥٥) ثم تحقق فشله آخر الأمر إزاء الإسلام التركى الذى استنفد قواه وقواته وأصبح الإسلام على أبواب فيينا يهددها ويشن الغارات على السواحل الأسبانية نفسها حتى جبل طارق وما وراء جبل طارق. وواقع الأمر إنه التواطؤ الأوروبى الذى انتصر على شارلكان..بكل الوسائل.. بما فيها التحالف الشائن رغم كل شيء.. مع السلطان (يقصد سلطان تركيا) (على الرغم من أن ذلك كان على حساب الإسلام، لولا ذلك لكان الإسلام قد عم كل أوروبا حتى اليوم)

ولم يسيطر لويس الرابع عشر على أوروبا إلاخلال سنوات التدهور الاقتصادى فى القرن السابع عشر إذ نشأ نوع من التراجع فى القوى التقليدية بما توفر لها من إنتاج استفادت منه فرنسا بطاقتها الزراعية وقدرتها الرأسمالية المتواضعة بحيث تمكنت من وضع قدمها على أول الطريق حتى وافاه كولبرت ١٦٨٣، ولما استرد الاقتصاد العالمى قوته حول عام ١٦٨٠ إذ اللعبة سرعان ماتبدأ ففى عام ١٦٧٢

فقد حرمت الفيضانات التى اجتاحت الأراضى الهولندية على الجيوش الفرنسية دخول أمستردام وفى عام ١٦٨٨ أصبح وليم أورانج سيدا على إنجلترا بشكل معين وفى عام ١٦٩٢ خرج أسطول نورفيل من المعركة عمليا فى معركة هوج (بعد انتصاره على الجيوش الهولندية والإنجليزية) ولم تستطع فرنسا أن تواجه أعداءها فى حروب وراءها أسبانيا كما لم تتمكن كذلك من الاستيلاء على أيبريا ومايتاح لها من ثروات قادمة من مستعمراتها (أسبانيا) فى أميركا الأسبانية (أمريكا اللاتينية) ونتساءل ألم يحل بمغامرة نابليون المصير نفسه؟ كم من انتصارات حققتها المغامرة كما اوقعت هزيمة ترافلجار (الطرف الأغر) فكانت هزيمة وخسارة لاتعوض (١٨٠٥) وبينما كانت الغزوة الفرنسية أسيرة أوروبا الشاسعة كان فى طوع انجلترا التحرك على الاتساع المائى إذ كان يكفيها مائه وخمسون هيكلاً خشبياً لتفرض عدم منع المرور من مضيق كالية حيث يعتقد فى إمكان تجاوزه الوثوب منه عام ١٨٠٥ وكذلك كان مضيق مسينا ونابولى فى أيدى الفرنسيين أوسلطان مراد (سلطان عثمانى) وتبقى صقلية ملجأ لأسرة البوربون، ولكن واجهت نفس المصير ألمانيا الهتلرية التى تحالف عليها وعلى خطورتها وتهديداتها العالم كله أو أغلبه على الأقل، فهل تتمكن السوق المشتركة والوحدة السياسية الأوروبية من تحقيق ذلك اليوم بغير عنف بل عن اقتناع من الشركاء وإرادتهم؟ يلوح فى الأفق لهذه الوحدة رسم ظاهر.. تحوطه الحماسة وإن أحاطت به مع ذلك الصعاب الحقيقية ولقد ذكرنا بعضا من هذه الصعاب خاصة فى أوروبا الغربية التى وحدها المتعرضه لها (وقد اضطر المسئولون إلى إنشاء «أوروبا» بما تبقى من البلاد ضاربين عرض الحائط باحتمالات ظهور العقبات وتصاعد المصاعب على صعيد كل من الاقتصاد والسياسة. وكذلك التوازن الدولى وضروراته وما أشار إليه أحد ملاك المصارف العالمية وهو يفضى بما لدى بعض المناطق فى العالم من مخاوف أن تؤدى الوحدة الأوروبية إلى نوع من ممارسة تعصب عنصرى تجاه بلاد العالم الثالث (١٩٥٨/١١/١٤) بفضل ماتتمتع به من حرية الاختيار إذ هى تفضل المنتجات القادمة من أفريقيا الاستوائية جنوب الصحراء الكبرى وتفضلها على منتجات أمريكا اللاتينية غير أن أول الصعاب إنما كانت داخلية تتعلق بالمؤسسات ولم تكن يقينا من تلك التى يسهل عليها إيجاد

حلول لمعاهدة أو التوصل إلى نوع من التراضى والوفاق.. فهل تستطيع حكومات دول أوروبا كما قال ديجول (الجنرال ديجول) أن تتنازل عن بعض حقوقها السيادية وتضحى بها ... ويصرح أندريه فيليب فى الثامن من أغسطس ١٩٥٠ بقوله فى المجلس الأوروبى : منذ عام قبل مجلسنا تفاديا للخلاف كثيرا من الحلول التوفيقية وكانت النتيجة .. لاشىء تحقق .. ولن يحفل بنا الرأى العام إذا جئنا غدا وفشلنا فى إقناعه بأن حضورنا كان لإقامة أوروبا بشكل واقعى حقيقى ورجل السياسة نفسه هو الذى كان يهدد فى ١٧ أغسطس بتحقيق حدة أوروبا. فى مكان آخر وكان بعد إحدى عشرة سنة مرت على السوق الأوروبية المشتركة أن صرح هنرى سبال وزير خارجية بلجيكا فى ١٠ يناير ١٩٦٢ ببروكسل عشية توقيع الاتفاقية الزراعية يوم ١٤ يناير.. صرح بقوله..كل شىء يقودنى إلى الاعتقاد بأنه لا أمل فى وحدة أوروبية فعالة بدون جنسيات سامية فأوروبا الأحزاب مفهوم قاصر ولسوف أحارب مبدأ الاجماع وحق الفيتو (الاعتراض) ماحييت إذ عشت التجربة فى الأمم المتحدة منذ أسابيع وعايشت حق الفيتو السوفييتى وعشت تجربة مماثله فى مجلس حلف الأطلنطى فى تجربة من زمن قريب حول القضية الألمانية ومشكلة برلين وموقف جهة واحدة منعت الحلف من اتخاذ موقف حاسم بناء لايساعدنى مانراه حاليا فى قصر المؤتمرات بشأن القضايا الزراعية على تغيير رأيى، ففى هذه الظروف وخلال هذه المناقشات أحاول البحث بغير جدوى عند فكر مشترك فكل واحد يدافع عن مصالح زراعية، فإذا لم تكن قاعدة الإجماع هذه قائمة لتقدمت مباحثات مجلس الستة بسرعة.. إنهم يعرضون علينا أوروبا حزبية فى محيط السياسة الخارجية فماذا نفعل سوى الصياح والجلبة فمثلا كان ممكنا أن تتفق خمس دول على موضوع الصين الشيوعية فيتمكن السادس من تجميد كل القرارات، وأسائل نفسى: أليس جميلا أن نتخلى فى هذا المجال عن تلك النزعة العرقية المتفوقة؟

كانت كل هذه الحجج والبراهين شيئا جيدا ولكن قاعدة «الأغلبية» ليست ضرورة هى الترياق المعالج لحل المشاكل فيمكن مثلا تكوين أغلبية بالمساومات أوباتفاقات ودية بين مجموعات وهى مايطلق عليها فى المؤتمرات مباحثات الكواليس وهى لاتمثل بالضرورة سياسة متماسكة أو أكثر ترفعا من تلك المساومات

بشأن حق الاعتراض (الفيتو) وتبقى المشكلة الأساسية وهى معرفة مدى ماقد تصل إليه الاتجاهات السياسية للأعضاء الحاليين فى السوق الأوروبية المشتركة والاتفاق على الأقل على بعض الخطوط الرئيسية ذات العمق، وإلا فها نحن إزاء هذه المغامرات المحفوفة بالمخاطر.. مخاطر «التوازن الأوروبى» هاهى تنشأ فى منزل القارة الأوروبية الجديد! لكن الوحدة المستهدفة معبرة عن قرارات حرة كما يقول ويكرر أتباعها غير أننا سمعنا رجل أعمال ألمانيا عام ١٩٥٨ يصرح بقوله: لا أوروبا النابوليونية ولا أوروبا الهتلرية يمكنها إثارة الانفجار فى اللحظة التى تسترخى فيها قبضة الدولة المهيمنة، ولدينا أمام عيوننا مثل حى هو تلك الدول المجتمعة فى حلف وارسو من حول الهيمنة الروسية التى تسيطر على مقدراتها الاقتصادية والسياسية لصالح روسيا كذا ونحن بهذا الاستشهاد بالواقع من خلف أسوار حلف وارسو إنما ننير الطريق ولتوضيح زوايا المشكلة من بين مئات أخرى والمقصود بالنسبة إلى الكثيرين هو تجميع دول أوروبا لمواجهة الخطر السوفييتى وهذه هذ السياسة الأمريكية سياسة الدرع ضد الاتحاد السوفيتى وكان بول رينر رئيس وزراء فرنسا وخلال مناقشات مشروع تشومان فى ١٥ ديسمبر ١٩٥١ واضحا حاسما حيث قال: لنتذكر أن الفضل فى إهمال سياسة البنتاجون (أوان التخلى عن سياسة البنتاجون) التى تستهدف الدفاع عن أوروبا فوق جبال البرانس إنما يعود إلى الجنرال أيزنهاور إذ مافتىء يكرر أن البلاد الأوروبية وفرنسا على رأسها تريد أوروبا .. ولتتخيلوا بأنفسكم نتائج رفض المشروع ويمكن فى مواجهة هذه الحسابات بمعالمها السياسة الواضحة فضلا عن المعالم العسكرية كذلك أن نتخيل معالم أخرى أكثر عقلانية لأنها أكثر واقعية، ولنر كيف وصف السناتور أندريه ارينجو فى محاضرته القيمة (فبراير ١٩٦٠) بصفتة عنصرا فى المجلس البرلمانى الأوروبى. إن أوروبا فى حيرة بين انطلاقة اقتصادية اشتراكية ولدت عام ١٩١٧ فى بتروجراد قال فيها كل علماء الاقتصاد بأنها سوف تكون بدون غد وبين حملة التحرير على المستوى العالمى تحرير الشعوب التى استعمرتها أوروبا وعلى أوروبا إعادة تنظيم نفسها بشكل ثورى لابدافع المكسب الرأسمالى الوحيد الذى يخلق هذه النظم الحاكمة التى تبقى كل المزايا فى أيدى أقلية محظوظة ولكن بأقصى استخدام للأيدى العاملة وبذلك تتمكن من قلب ضغط التجار تماما .

حاشية

لم يتقدم بالقارة الأوروبية ذات الأعضاء الستة العمر بالسرعة التى يتمناها أنصارها العقلاء أوحتى الذين تحمسوا لمولدها، ولم ترغب إنجلترا التى كان لها أخطاؤها فى الحكم على الأمور فى أحيان كثيرة فى أداء ثمن دخولها وقطع المفاوضات فى يناير ١٩٦٣ بإشارة من الجنرال ديجول، وكان فشلا واضحا لعله مؤقت غير أن وزنه كان ثقيلا على أى حال ولن تستطيع أوروبا أن تكون غدا القوة الثالثة فى العالم تمتد لتشمل أكبر عدد ممكن من شركاء، ولقد انضمت تركيا عام ١٩٦٣ وتجرى المباحثات لانضمام أسبانيا والنمسا وربما الدانيمارك وفى أفريقيا نيجيريا، ولقد نشأت بعض الصعوبات الاقتصادية أمكن إيجاد حلول لها رويدا رويدا، وهكذا تنشأ أوروبا الزراعية ببطء (اتفاق ١٤ يناير١٩٦٢) و٢٣ ديسمبر ١٩٦٣ وهما اتفاقان تحققا بصعوبه: اتفاق على أسعار مشتركة للحبوب بدأ يسرى منذ ١٥ ديسمبر ١٩٦٤(بصعوبة أيضا) ويبقى الاتفاق على سعر لحوم الأبقار ومنتجات الألبان، ولكن العقبة ليست اقتصاديات فقط برغم أن الاقتصاد هو الذى مهد الطريق للوحدة وأقحم الدول والحكومات فى مسار تراجع عنه ومنذ ذاك بدأت السياسة تعرض مشاكلها الملحة: ضم ودمج المؤسسات وإنشاء سلطات تتخطى الحدود القومية .

وإقامة برلمان وحكومات أوروبية كما تبقى كذلك ضرورة تحديد قواعد الأراضى الزراعية المشتركة كما يحتاج الأمر إلى تذليل العقبات التى تواجه اللجنة التى تكونت فى يناير ١٩٦٥ وظلت هذه العقبات أزمة حتى يناير ١٩٦٦ تعوق أعمال الأعضاء الستة، وفى ٣٠ يناير ١٩٦٦ وقع على اتفاق إلا أن فرنسا رفضت أن تتعرض مصالح قومية أساسية لقرارات تصدر من أغلبية ما. واتضح أن أوروبا المراد إنشاؤها لازالت أسيرة مشاعر قومية كثيرة عريضة متنبهة ليست فرنسا وحدها ..للأسف هى المثل.

إن هذه الحكمة الداعية إلى وضع المشاكل لابمقياس الربح فى ذاته بل بمقياس الدفع إلى التنافس بين الشرق والغرب لتحقيق أفضل حل للمشاكل والقضايا الإنسانية فى مجتمعات القرن العشرين، فهل من أمل فى الاستماع إلى مثل تلك الحكم الرزينة؟ ولاتصبح المشكلة ماإذا كانت الوحدة الأوروبية سوف تتحقق أم لا؟ وهل هى قابلة للاستمرار أم لا؟ بل تكمن المشكلة الحقيقية فى ما إذا كان لديها أمل فى أن تتقبلها الكتلتان اللتان تتقاسمان السيطرة على العالم فكل منها قد تتخوف من الاتجاهات الاقتصادية أوالسياسية لهذه الوحدة. فهل يمكن لهذه الوحدة أن تتولد منها أوروبا واحدة هادئة مستقرة متكئة على ازدهارها وفيها ألمانيا متعقلة تتقبل التعديلات المتوقع حدوثها فى حدودها القديمة أم تتولد أوروبا عدوانية، هل نقبل أوروبا أن تلقى بوزنها فى حل مشكلات البلاد النامية وهى مشكلات تواجه الجميع فى عالم اليوم المترابط بلا فكاك؟ أم هى أوروبا التى تعتقد أنها غير قادرة على أخذ مكانها لتلعب دورها فى المستقبل أم تظل حبيسة تلك الحسابات الضيقة ..حسابات الأمم.. أمم أوروبا فحسب آخذة فى اعتبارها هذه المطامح القديمة البالية؟ باختصار أوروبا المبدعة كعنصر تهدئة .. أو أوروبا الروتينية عنصر إثارة التوترات؟ وهذا هو ما يثير التساؤل مطروحا أمام عالم الغد: حضارة أوروبا.. ومازالت تستطيعة تجاه عالم الغد أو لعالم الغد؟ هل نحن فى حاجة إلى أن نذكر أن هذا التساؤل ليس ذا أهمية فى اهتمامات بناة أوروبا حيث تدور مناقشاتهم حول الجمارك، المتبادلة ولايتحدثون إلا بلغة الحسابات والأرقام ولايبتعدون عن إطار التقنيات وأعلامستوياتها وحول خبراء التخطيط ولاأحد ينكر جدواها وضرورتها.

ولم تعد أوروبا اليوم تلك القارة المثالية المثقفة إذ تجئ فى ذيل قائمة البرامج التعميرية ولم يعد لديها هذا الاهتمام الصوفى القديم ولاتلك الأيديولوچية ولا تأبه لتلك الحياة الهادئة شكلا .. حياة الثورة أوالاتجاهات الاشتراكية بل ولاحياة القصيدة الإيمانية الحية.. إذن لن تكون أوروبا إذا لم تستند فى خطواتها إلى هذه القوة القديمة التى صنعتها ولاتزال تتعامل معها وفيها بعمق.. وفى كلمة واحدة ..إذا ما أهملت كل تلك النزعات الإنسانية الحية...وليس لديها الاختيار فإما أن تستند إليها كلها أو ..تتضافر حتمالدفعها وإغراقها فى يوم شؤم .. إن أوروبا الشعوب.. أمل وبرنامج جميل يظل فى حاجة إلى صياغة.. وتشكيل.

أوروبا عام ١٩٨١

مذكرة بقلم: بول بروديل

في عام ١٩٧٨ اقترحت جامعة بوكوني في ميلانو على «بيت علوم الإنسان» الذى يديره فرناند بروديل أن يشتركا معا في إعداد دراسة واضحة بناءة للمشاكل والقضايا التى يثيرها توحيد أوروبا. وكان بعد ثلاثة أعوام في عام ١٩٨١ بمدينة ميلانو أن أعلن فرناند بروديل أن تذكر ماوافق عليه من قبل متحمسا وعن عقيدة بأن المحاولة جديدة بالاعتبار لسببين على الأقل ذلك أن أوروبا - وخاصة أوروبا التى لا يزالون يطلقون عليها «القارة الصغيرة» - ولو كبرت فجأة بحجم مشاكلها حيث تنتقل من الأعضاء الستة المشتركين إلى تسعة فليست أوروبا إلا إحدى البدائل وليس الأمر مسألة عقيدة، بل حقيقة تبزغ أمام عيوننا وتتجسد كإحدى الحقائق الهشة وغير المؤكدة ولعلها مؤقتة وإن كانت غامضة يقينا فهى فى آن واحد إحدى الحقائق.. وإحدى الحريات، وهى فى الوقت نفسه إحدى الضغوط على كل منا بدوره مكابدتها.. ونحن نتعلم أن نعيش عليها بأسلوب أو بآخر.. ونعرف مسبقا كل عناصر ضعفها وكل ماتبرزه من أثرة وأنانية وهى لاتنجح فى إخفائها أو إسدال قناع عليها وأدنى من ذلك أنها لا تنجح فى السيطرة عليها ولكننا نعرف كذلك كل ماتتيحه وكل ماتقدمه وتجلبه لنا.. وذلك فضلا عن أننا نذكر أن فشلها سيجر علينا من الخسائر الكثير.. لعلها تأخرت كثيراً فى الوصول إلى رأى

لوسيان لوفيفر الذى يجب علينا على أى حال - أن نعترف بفضله فى تغيير معطيات المشاكل الأوروبية وأبعادها.. مشاكلنا كما تمكن من عرضها بجلاء وعبارات جديدة وعلينا نحن اليوم مواجهتها والتعرض لها والتصدى لمواجهتها بما إننا جندنا وأشركنا معنا كل المتخصصين الذين يتبادلون التفسيرات لعلماء أوخبراء متمرسين جاءوا من كل أنحاء أوروبا بغير استثناء وأحب إلى جانب هذا المنطق المتعقل أن أضيف سببا آخر هو بلاشك شخصى، فقد أحسست دائما وأيدت أن الوحدة إذا كانت ضرورية لعلوم الإنسان ويجب أن تتم حول التاريخ فلن يدرك التاريخ النجاح إلا إذا صار ماكان يجب أن يكون دائما.. على الواقع الراهن ... على أنى بصفتى مؤرخا وحريصا على التحقيق والتدقيق لما كان بين القرن الثالث عشر والقرن الثامن عشر من ظهور رأسمالية بدت لعيون كثيرين منا وليدة، أعترف بتساؤلى كيف لم يثرعجبى ما كان من تتابع ظهور المشاكل التى تواجهنا ونتعرض لها، وكان هناك سباق بين الاقتصاد والدولة وفى هذا السباق كان هناك التهديد، إن الاقتصاد يلحقه شىء وقد نجح وأقام على نجاحه أمام عيوننا الأخذ بالمبادرة وهو نجاح لم يكن دائما لاسهلا ولا منتظما غير أن الاقتصاد استطاع أن يتفادى ويتهرب من القواعد التى تبحث عن فرضها عليه أو أردتم أن يعدل لصالحه من قواعد اللعبه.. بالنسبة لى ...هو درس معارض النزهة فى القرن السادس عشر أو بورصة أمستردام فى القرن السابع عشر وهو مايجرى أمام عيوننا ولايستطيع المبتدئ ملاحظته.. ربمالاحظ فقط الانعكاس أما أنا فلم يفاجئنى ولايفاجئنى ولكنه ومع ذلك يثير إعجابى.. وأتمنى لاجتماعكم كل مايستحقه من نجاح وأحيى والمنظمين والمشاركين فى الندوة وأحيى رئيس الجامعة جاسبيرانى ولا بوكونى وإيطاليا كلها وأوروبا الغالبة التى تسير فى طريقها للتشكل من جديد.

فرناند بروديل

الجزء
الخامس

أمريكا

الفصل الأول

العالم الجديد الآخر
أمريكا اللاتينية

العالم الجديد الآخر
أمريكا اللاتينية

تضم القارة الأمريكية وحدتين ثقافيتين كبيرتين هما أمريكا لا أكثر الولايات المتحدة الأمريكية وتضم إليها كندا التى تقتفى أثرها، أى بإيجاز العالم الجديد بكل معناه... عالم روائع التحقيقات والإنجازات، إنجازات الحياة القادمة، أما أمريكا الأخرى الأكثر مساحة وتشمل نصف القارة وأطلق عليها اللاتينية منذ ١٨٦٥ بما فى ذلك من التلميحات فهى متعددة الدول ومنقسمة بعضها على بعض وعاصرت أحداثا درامية مزقتها ويرجع البدء بالحديث عنها إلى تفادى المقارنة المباشرة حتى لاتسحقها مسبقا تحت وطأة التقدم المذهل الذى حققته أمريكا الشمالية ولكى لاتغمط حقها فى رؤيتها بصفاتها العالية وعرض مشكلاتها وقضاياها الخاصة وبعض ما حققته من تقدم واضح أو كانت فى الحقيقة بالأمس أكثر تقدما من الأخرى فقد كانت طليعة أمريكا الثرية فجعل منها ثراؤها مطمع الكثيرين ثم دار الحظ دورته فصارت أبعد ما تكون عند وضعها بأنها سعيدة فهى محملة بظلال مثقلة ولم يبزغ الفجر بالنسبة إليها بعد.

المكان والطبيعة والمجتمع
دليل على ثقافة معينة

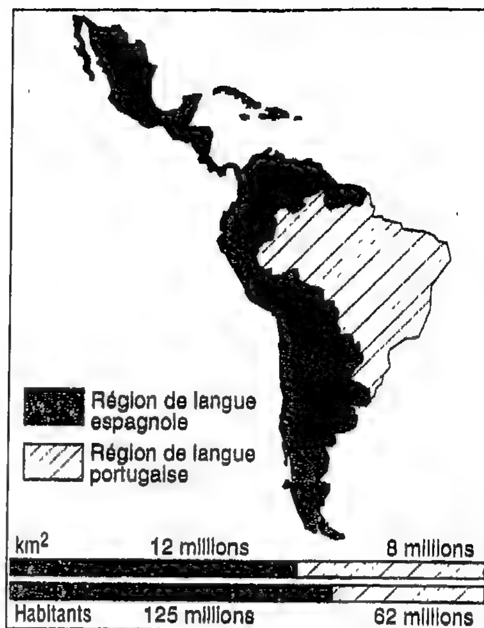
وتتغير أمريكا اللاتينية بأسرع مما تتغير منطقة أخرى فى العالم ولاتتوقف عن التغيير وبسرعة وتوشك صور الأمس على التلاشى فإذا لم يكن فى مقدورنا أن نراها بعيوننا فلا أقل من قراءة أدبها الرائع المباشر مع بعض السفسطة الساذجة الصريحة إذ تتيح للقارئ رحلات فكرية رائعة تتخطى الاستطلاعات والدراسات الاجتماعية والاقتصادية والجغرافية والتاريخية والأخيرة ممتازة ويمكنها أن توفر لنا معرفة تامة لما نبحث عنه وهى تكشف كذلك وبلا مقابل عطر هذه البلاد ومجتمعاتها التى تبدو منطوية على أسرارها على الرغم من صراحة الاستقلال ومظاهر البشاشة وأمريكا اللاتينية شاسعة ولاتزال مظاهرها الإنسانية ندرة تعوم فى رداء فضفاض واسع فى فيض من المساحة ووفرة تسكر الناس، ويوشك المسافر الأجنبى إلى هذه البقاع - منذ تمكن الطيران - من اختصار المسافات الشاسعة أن يغرب عن باله فلا يلاحظ عنصر التناسق الذى يطبع هذه البلاد بطابعه كأساس. فبالأمس القريب كان المرء يستطيع عبور حوض الأمازون فى ست ساعات... أى الطيران فوقه فلاسبيل إلى عبور الأمازون بغير مشقة وصعوبات كثيرة حيث الغابات، كما يقول البرازيليون وكان عبور جبال الأنديز بين الأرجنتين وشيلى يقع بطائرة ذات محركين مزدوجين وطائرات خفيفة الوزن تتداخل فيما بين الأدوية

أمريكا الاسبانية

وأمريكا البرتغالية .

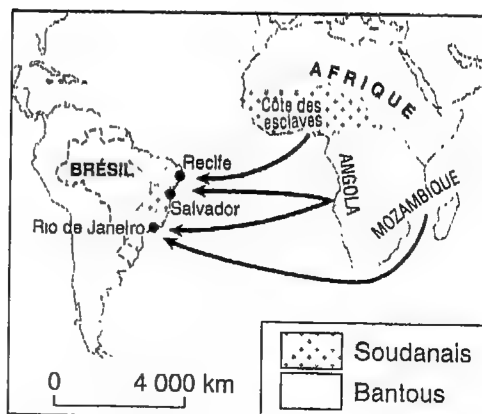
مناطق تتحدث الأسبانية

مناطق تتحدث البرتغالية



سودانيون بانتو

اصول السود الأمريكيين



وتدفعها الرياح أحيانا أما اليوم فتطير فوقها طائرات المحركات الأربع مقتحمة تلك الصعوبات ولم تعد سلسلة جبال الأنديز إلا على بعد ربع ساعة أو عشر دقائق من قمم الثلوج اللألاءة فى ضوء الشمس قبل الوصول إلى السهل الأرجنتينى القفر أو ساحل شيلى ويعم الانتقال بالطائرات كل بلاد أمريكا اللاتينية.

ويحظى المحظوظون من المسافرين برحلاتهم المميزة التى تنقلهم إلى المكسيك بالمتعة حيث تكسو (رياح الشمال) النباتات الخضراء والحدائق بطبقة من الثلوج، ثم إذا هى بعد دقائق معدودة تلقى بهم إلى أتون حرارة اليوكاتان فيراكروز أو تلقى بهم قرب المياه الفردوسية وأزهار المحيط الهادى إلى أكادولكو، وهكذا تشحن وتنقل البضائع الثمينة ذات العائد دون سواها بالطائرات ومن بينها فواكه بحار شيلى إذ تنقلها الطائرات إلى بوينس إيرس وتنقل الدواب مشيا على الأقدام كما تنقل اللحوم الممتازه بالطائرات حتى فيدوزا فى اتجاه سانتياجو أو إلى عمال مناجم صحارى شيلى الشمالية وتظل حسابات عمليات النقل عبر هذه المساحات الشاسعة إحدى الاستثناءات على الرغم من الظواهر إذ تنطلق أو تهبط مطارات ريودى جانيرو طائرة كل دقيقة ولايمثل ركاب الطائرات غير شطر صغير من السكان، هم الشطر البورجوازى إن أردنا ولاتمثل الطائرة فى أمريكا اللاتينية وسائل النقل الشعبية كالقطارات والحافلات والسيارات الخاصة التى تهيئ لأوروبا هذه الشبكة المتماسكة من وسائل النقل والانتقال.

وعاشت أمريكا اللاتينية ولازالت تعيش فى مساحة تقاس بخطى الإنسان وخطوات الدواب ولانقول بسرعة السكك الحديدية النادرامتدادها أو شبكه طرق تحت الإنشاء كما يعاد ترميم كثير منها بصورة مستديمة لقلة أعدادها ولذا فإن من سمات أمريكا اللاتينية البطء ومن ثم كان على خيالنا. عن هذه البلاد من بين القراءات الممتعة عن هذه المسافات الشاسعة الطويلة ماكتبه عن الراع الأرجنتينى مارتان فبيرو بطل ابتدعه جوزيه هرتانديز عام ١٨٧٢ اوسوجندو سومبرا آخر الرعاة الجائلين الأحرار إذ ينتقلون من البامبا الأرجنتينية الذى ابتدعته عبقرية ريكاردو جويرا لديس.

كما يجب مشاهدة أدغال شمال شرق البرازيل حيث الجفاف والجوع أو قراءة أروع القصص تصف الأراضى اللانهائية فى الأرجنتين حيث لازال يسكنها الهنود وقد نشرتها جريدة لاثريينادى بوينس آيرس عام ١٨٧٠ وكذا قصص عن رحلات قام بها لو تشيد مانسيلا أو قصص الكاتب الإنجليزى الذى تجنس بالجنسية الأرجنتينية أتريكو هودسون ١٨٤١ ـ ١٩٢٢

عن باتاجونيا وها هى كذلك تلك كتابات أليكساندردوها مبولدت (١٧٦٩ ـ ١٨٥٩) حيث يصف رحلاته ومؤلفات الكاتب الفرنسى أوجست دى سانت هيلير (١٧٩٩ ـ ١٨٣٥) وكان كل منهما أجنبيا عن هذه البلاد لولا سحرها خلب لبهما فوصفاها مضيفين روائعهما إلى روائع الأدب الذى ساد الجنوب الأمريكى ومن أكثر الصور حيوية فى وصف روائع الطبيعة فى هذه البلاد خلال هذه الرحلات التقليدية بما تضم من قوافل البغال والحمير عبر طرق محددة ينطلقون فيها فى ساعات محددة دون توقف إلا فى المساء ليستأنفوا المسير فى اليوم التالى وذكر هذه الرانشوس حيث يتوقف الناس والبضائع والدواب للراحة فى هذه المحطات وقد أطلق على هذه القوافل طليعة العربات وطليعة السكك الحديدية وطليعة القطارات وكلها تمثل المحاولات الأولى للسيطرة على الأراضى الشاسعة والتحكم فيها ولاتزال حتى اليوم بقاعا موحشة سريعة التكاثر.. ومن الواضح أن الإنسان لو لم يضع جذوره فى هذه الأراضى كما حدث فى الغرب غادر أرضه بهذه البساطة لتوفر الأراضى فى كل مكان أو فى مكان قريب أو بعيد لنقص الاستقرار ولظلت حتى اليوم قوافل الدواب تعبر قلب القارة كما كان فى القرنين السادس عشر والسابع عشر. وكان أمرا طبيعياً بالنسبة لقوم ضائعين غارقين فى زحف اللانهائى ولكان طبيعيا إذا ما نشأت المدن على بعد شهور وشهور من العواصم الأوروبية أو عواصم البلاد المحتلة، وكانت الأقاليم أوسع من إيطاليا أو فرنسا أن نرى الناس يحكمون على هواهم وخاصة بالأمس لعدم توافرها هو أفضل ولأن الحياة ضرورية قبل كل شئ ونجد فى الأمريكتين أن الديمقراطية الأمريكية فيما يطلق عليه الحكومة الذاتية..

١ ـ إنها من نبات المد التوسعى للمكان إذ يخفف هذا الاتساع وقع كل شئ ويلطفه وكذلك يصون ويحافظ على كل شئ ولو لم يتم على الأقل قهره والانتصار عليه وانتزاع الفلاحين من براثن الطبيعة البربرية أكبر أحلام الأمس ونجد الطبيعة الأمريكية الجنوبية منحت ولازالت رجالاً عظاماً فقراء قساه يتحملون الآلام عن راعى الأغنام فى وادى البامبا (وسط الأرجنتين) إلى الكابوكلو البرازيلى نحو الفلاح المكسيكى الكادح وهذا الأخير على أتم استعداد للثورة أينما ظهر قائد حق مثل إيميليانو زاباتا ومعاركه حول مكسيكو من عام ١٩١١ حتى ١٩١٩ . وتظل المشكلة وهى انتزاعهم من براثن الفقر علة همجيتهم وتخلفهم ولقد راودت الأحلام كل مثقفى القرنين التاسع عشر والعشرين ألا تكون قيادة هؤلاء الناس بالإمساك بهم كقيادة الحيوانات بل تعليمهم أن يعيشوا ويعتنوا بأجسادهم ويتعلموا القراءة وهى مهمة شاقة عاجلة وإن بعدت عن أن تتحقق ولازالت مسيرات محو الأمية حتى اليوم يتصدى لها مدرسون وأطباء وخبراء فى الصحة فى جماعات وكان لهؤلاء الفلاحين الهمج الأبطال مكان فى عديد من القصص والروايات التى ظهرت فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين ونقرأ لمارتن فييرو (١٨٧٢) فى كتاب البامبا الأرجنتينية عن فلاح فظ خشن ولكنه مسيحى وها هو يفضل عذوبة الشعر ينتزع من حياته القاسية إذ ينشد وينظم الأبيات ومع ذلك لايتردد فى الطعن بالسكين فى المرقص التابع فى أحضان الغابة ويبيع الكحول، ثم شخصية دوتابادبارا التى ألفها للمسرح رومولو كاليجوس أكثر المتقدمين فى فنزويلا وطارده انقلاب عام ١٩٤٨ واسم البطلة أختير حتى لايخطئ أحد فهى جميلة فاتنة متوحشة بل وسافلة وعديمة الذمة ولديها من الفضائل والنقائص ما يتيح لها ـ دونما حياء ـ كل ما ترغب فيه ولكنها لاتنجح مع هذا الساذج البسيط الجذاب حامل دكتوراه القانون حيث ألقت به مقادير الصدف.. صدف ميراث نحو ليلانوس فى قلب الحياة فأصبح دكتوراً مثل البافالوبيل

تلك المسرحية التى نال عنها فرانسسكو كونزالبس جائزة الأدب الوطنية فى المكسيك عام ١٩٤٤ وكذلك يقع رئيس العصابة المتوحش الذى لايرحم بين براثن هذه النمرة فجأة تبدأ فى تطويعه بفضل ظهور مدرس متواضع يعلمه القراءة

فتحدث المعجزة.. تزاوج أوجستياس الحضارة ومدرسة اوليس لكل هذه الروايات هذا اللون العاطفى فرواية الفوراجين (١٩٢٥) للكاتب الكولمبى جوزيه ريفير إنما هى الملحمة التعيسة للبطل الذى التهمه الأمازون... الطبيعة ... الطبيعه التى تحيل الإنسان وحشا وتكفى السيطرة عليها لتحرير الإنسان وتمدينه (أى تهذيب طباعه)، فى الوقت نفسه وإذا ما صدقنا الكاتب بنجامان سوبركاسو لم تكن مأساة شيلى إلا جغرافيتها المجنونة على (١٩٤٠) وقد بدأت موجة الأدب الاجتماعى القلاص المقاتل تنتعش اليوم فقد ظل الفلاح البائس المعزول عن العالم بفعل الطبيعة وامتداد الأرض الشاسعة وفقره هو البطل الحقيقى حتى يومنا هذا فى كل قصة أدبية... وذلك نوع من الأدب جديد... تقاتل عنيف مباشر يمثله اليوم أشبه بالضحية ضحية المجتمع قبل كل شئ بل ضحية الحضارة ذاتها وهى بحق لاتأبه كثيرا بأحوال حياته كالطبيعة المتوحشة نفسها وتمثل هذه الموجة من الأدب منعطفا تمثل ساعة جديدة تدق، ساعة ثورية بلاشك... نوع من يقظة ضمير حى حاد يدرك كنه مشكلاته فى أمريكا الجنوبية وليست لديه ثقة كبيرة فى توقع الخبر من الحضارة من هنا نشأت تلك الواقعية الداكنة وهذا اليأس. وليست رواية ماريانو آزويلا ١٨٧٣ ظهرت فى ١٩٥٢ بعنوان (لوس دى آباجو) ومعناها «الناس إللى تحت» سوى صرخة طويلة إنها قصة تقذف بنا إلى خضم تلك الثورة التى تشتعل فى المكسيك الحديثة منذ عام ١٩١٠ على الأقل وكلفتها من القتلى مالايقل عن مليون ولم تنته بعد... إنها قصة هذه الحفنة من الجنود الثوريين الذين كتب عليهم الموت (ورآ هم المؤلف يموتون) لأنه كان طبيبا لجماعة من الثوار... قصة خيبة أمل قوم تعساء لايملكون سلاحا يواجهون به مجتمعا قاسيا عنيدا «بأثريائه المفرطين فى الثراء من أهل الشراسة وفقرائه المدقعين وأعدادهم الكبيرة والسذج البسطاء جدا. وكذا روايات الكاتب الكبير جورج أمادو وكلها عن شمال شرق البرازيل حيث مناطق الجوع والهجرة والفقر المستديم، وهى روايات رائعة جميلة تضم مظاهر عنف غريبة تمثل نوعا من مرافعات الدفاع... إنها شهادة صادقة على فئة من الفلاحين البدائيين بشكل لايكاد يصدق وصورة حية لمآسى الشعب

فى محيط قروى شبه إقطاعى لايجد فيه المرء حتى حنان الأرض. ويمكننا العثور على كل هذه الكتب بما بينها جميعا من تشابه فى وصف تعاسة البشر ومنها قصص الكاتب جورج إيكانا من الإكوادور وما هى على الخريطة إلا بلد صغير ٤٥٠ ألف كيلومتر مربع وإن كانت بذلك تعد أكبر من إيطاليا وكانت منذ بضع سنين قادرة على استيعاب مليون مهاجر تمتعهم بسهولة حيث لم يجاوز تعداد سكانها المليونين وترجمت إلى الفرنسية عام ١٩٤٦ قصة الفونسوا بيريرا (بطل رواية هاسبونجو) ١٩٣٤ إذ يصل إلى ملكه قطعة أرض أعلى الجبل مع أسرته بعيدا عن كويتو سالكاً طريقا وعرة على ظهر البغال حيث لم يكن فى مقدروه البقاء فى إحدى المدن حتى تضع ابنته وليدها اللقيط وقد غدر بها لسذاجتها وغبائها فتى من الهنود وكان فوق الجبل أن جاء هذا الميلاد البائس دون ضجة ولاضجيج... كان صعودا غريبا وعند الوصول إلى حواف المستنقعات العالية إذ تغوص البغال فى الأوحال فيترجل الجميع وبعد أن مسح الهنود الثلاثة وجوههم بظهور أيديهم أو بأطراف أكمامهم بينما وجوههم لايزال يغطيها الضباب وهم يستعدون لحمل أثقال أسيادهم وهم يجرون البونشو يجرون أذيال سراويلهم ذات النسيج الرخيص يرفعونها حتى أفخاذهم ويرفعون قبعاتهم الصوفية ويلفون البونشو حول الرقبة كوشاح واق اتقاء البرد وهيهات هيهات عضة البرد القارس يتخذ من ثقوب ملابسهم القطنية عارضين أكتافهم تمر فوقها البغال التى تمتطيها الأسرة من أب وأم وابنته والفتاة ويزداد انحدار القافلة فى الأوحال المجمدة وذلك نوع من الأدب يثير المشاعر والأحزان ويمثل القوة الغاشمة والمشاق التى يكابدها الإنسان ليعيش، ويا لها من حياة وربما تأخر- بسبب قسوة الواقع الاجتماعى - حل قضية الأرض الزراعية فتتعاظم المشاكل بعد معاناة سكان القرى وجموعهم فنشاهد المشاق التى يكابدها العمال فى الضواحى الصناعية أو مناطق المناجم البعيدة وهى مشاق توصف شدتها فهى شهادة من أندر الأمثلة إثارة للتوتر على حالة عمال المدن الحضرية ومقرهم الشديد وهاهى بعيدا عن الدراسات الاجتماعية التى لاتهم سوى مجموعات صغيرة من المتخصصين قصة كتبتها

البرازيلية السوداء كارولينا ماريا وهى امرأة تكاد تكون جاهلة عاشت فى إحدى مدن الصفيح [1].

فى ضواحى مدينة سان باولو كانت تكتب يومياتها وإن لم تكن تحفة أدبية ولعلها أقل كما لم تكن دراسة اجتماعية وإن كانت وثيقة معبرة عن الواقع وقد ترجمت إلى الفرنسية عام ١٩٦٢ باسم «اليأس» المزيلة وإلى جانب هذه الاستثناءات نجد الفقر الفلاحى يجتاح كتب الأدب جميعا... فقر يبدو منقطعا عن كل أمل فى العلاج... ومهما يكن فليس أمامه سوى العنف ... والثورة ولعل لهذا السبب وغيره نجد أن لثورة كوبا فيدل كاسترو هذه الجذور العميقة بين الفلاحين ظل رنينها يسمع فى أنحاء أمريكا اللاتينية كافة ومهما أصابها من مصير ومهما كانت نتائجها فهى علامة شاهدة على ساعة مصيرية تاريخية وهى على أقل القليل الحاجة الملحة التامة التى يراها ويدرك معناها كل مثقفى أمريكا اللاتينية مهما اختلفت آراؤهم الشخصية.... حالة تدعو إلى دراسة جادة تستعرض القضايا السياسية والاجتماعية لإيجاد الحلول التى تتطلبها... وتقتضيها.. وتستلزمها.

---

(١) (أكواخ من الصفيح يقيمها المعدمون فى الضواحى) أى عشوائيات

فى مواجهة مشاكل الأجناس
.. الأخوة المزعومة

ومع كل ذلك عرفت أمريكا اللاتينية كيف تجد الحلول لمشكلة التخلف والقيود الضمنية، وهاهى تشرع فى حل أعتى المشكلات التى تواجهها... مشكلة الأجناس وهى أولى الفروق لا كل الفروق بين أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية وهى بالتأكيد التحررية التلقائية أحيانا التى تعبر عنها تجاه أحكام مسبقة بالنسبة للأجناس والجذور وليس هناك ـ بلاشك ـ ما يمكن أن نصفه بالكمال بشأن اللون ولون البشرة ولكن فى أى بقعة من العالم حدث ما هو أفضل؟ إن التقدم واضح هنا.. بل هائل.. وليس التاريخ هو الذى أعد هذه المشكلات، فالأجناس الثلاثة الرئيسية فى الكون: الأصفر وهم الهنود الذين وصفوا خطأ الأحمر ثم الأسود والأبيض والثلاثة لأجناس فى عنفوانها، ولاتبدى إحدها الاستعداد للذوبان أمام الأخريين وما كانت هذه المشكلات العرقية لتبرز إذا ماظلت أمريكا قبل كولومبوس وحدها قابعة فى موقعها بحضاراتها المتماسكة فالسلالة الأزتيك (سلالة قديمة نزلت فى الأراضى المكسيكية) ثم سلالة المايا (سلالة تقطن هندوراس البريطانية وهوايتما الشمالية) أى إجمالا السلالة المكسيكية وسلالة الأندين (سكان سلسلة جبال الأندين التى تسيطر على الساحل الغربى لأمريكا الجنوبية منها فنزويلا) أى تلك الحضارات الساطعة... حضارات أعالى الجبال التى جمعت تحت سلطانها الشبيه بالاشتراكيه:

إمبراطورية شعوب الأنكاس هذا باستثناء مناطق الزراعة البدائية الشاسعة التى ينتمى إليها بقية مناطق الدنيا الجديدة.

وما كان لمشكلة من هذه المشكلات أن يظهر إذ لم تكن أوروبا أواخر القرن الخامس عشر بلاداً مكتظة بالسكان قادرة على إخضاع كل شئ لقوانينها ولحضورها الفعلى ولا هذه الدنيا الصغيرة التى كانتها وقتئذ بسكان لم يجاوزوا ٥٠ مليونا عليهم الاستبسال فى ضراوة لإنتاج خبزهم اليومى...

عالم صغير لايتنازل بسهولة عن بعض رجاله لاستشراق المغامرة الأمريكية وإذا ما تنازل فقطرة قطرة وعلى مدى القرن السادس عشر غادر ما يقرب من مائة ألف رجل صقلية إلى العالم الجديد فإذا كانوا تمكنوا من السيطرة على كل شئ فما حقيقة تمكنهم؟ أما المشكلة الثالثة فما كانت لتظهر هى الأخرى ما لم توفر سواحل خليج، غينيا أولا ثم كل سواحل أفريقيا كلها فيما بعض الرجال المطلوبين ... هؤلاء العبيد السود الذين لم يكن بدونهم ليظهر السكر ولاالبن ولا التبر... وهكذا نجد هذه الأجناس الثلاثة نفسها متلاقية فى موعد وعلى موعد فما من واحدة منها كانت من القوة بحيث تبعد فضلا عن أن تحاول أبعاد الأخريات فوجدت نفسها ملزمة بالتعايش سويا وعلى الرغم من كثير من المصادمات فقد كانت مصادمات لاتعادى ثم اقتنعت أخيرا بضرورة التأقلم والارتضاء اقتناعا بحتمية التماذج والاختلاط والتواصل لبلوغ درجة معينة من التساهل والتسامح والتقدير المتبادل.

كان أول ما اعترض الغزاة البيض الأوائل هى الحضارات الهندية القديمة التى لاقت معاملة وحشية كاد أن يؤدى بها بسبب ما خلقه الغزاة البيض من اجتياح بالإضافة إلى المآسى الكبرى فى أعمال الاستغلال البشع وأعمال السخرة وبدأت أعداد الأهالى الأصليين تنقص نقصاً مشروعاً فحينما أقام الهندى فى حياة بدائية وسط القبيلة يقتات على الدقيق النشوى بدأت التيارات الوافدة تجرفه منذ اتصاله لأول مرة مع الأوروبيين الوافدين وقد نجت المناطق المنيعة كالأمازون التى استحال على الرجل الأبيض ولوجها إلا خطوة خطوة بصعوبة بالغة.

وتمكنت الحضارات الهندية الكثيفة كلها من البقاء ولم يكن السكان الأصليون يملكون عددا ولا آلات ولايعرفون العجلات ولا الحديد ولا البارود ولا المدافع ولا كيف يستخدمون الحيوانات الأليفة سوى اللاما.

ومست قلوب تلك الحضارات مالاقته من عنت وازدراء وكانت أراضى تينكوتتيلان (حالياً المكسيك) وأراضى كوزكو صيداً سهلاً للغزاة ومع ذلك أمكن إنقاذ رجالهم جنبا إلى جنب .... وهكذا تبدو اليوم المكسيك مزهوة بجذورها الهندية ولاتزال هضاب الأندين تزخر بحياة البداوة التى كان يحياها السكان الأصليون ... حقاً هى مقبرة ولكنها ذات حيوية دافقة وذات جذور موغلة فى القدم لاسبيل بحال إلى استبدالها . أما ذوو البشرة السوداء فقد ظلوا حيث وافقتهم أحوال الطقس والمزروعات وحيث عروق التبر وقد بهرتهم ظروف المعيشة فى المدن التى جذبتهم إليها منذ القرن ١٦ واستبقتهم فيها بعد انتهاء عصر الرق ثم بدأوا فيما بعد يزحفون نحو المراكز الصناعية النشيطة وكان طبيعيا أن نجدهم على الساحل الاطلنطى حيث الأيدى العاملة الهندية وبدأت سيطرة المستعمر تنقص وتقصر وهم اليوم يمثلون عدداً كبيراً من سكان المدن الكبرى البرازيلية الحديثة، أما جزر الأنتيل فالرجل الأسود يشعر فيها أنه وسط قومه أما الرجل الأبيض وتملكه للقارة الأمريكية فقد وقع على الأقل فى مرحلتين وكانت كل مرحلة مع جذور عرقية جديدة مختلفة فاستقر مع الغزوة الأولى حيث استطاع توفير لقمة العيش مفضلاً إطار الحضارات الهندية الكبرى السائدة حيث وجد وهذا طبيعى جدا «رعايا» كما وجد مائدة حافلة وذلك حال الأسبانى الوافد حيث كانت المدن الكبرى بالنسبة إلى مكسيكو وليما وهذه الأخيرة من صنع الغزاة وفى أعالى الأنديز (بوليفيا عاليا) وبلو توزى (أنشأها الغزاة كذلك من أجل مناجم الفضة حولها وعدد سكانها ١٥٠ ألف مستعمر أسبانى أغلبهم من الوافدين من محبى فنون الباروك (أسلوب فنى ساد بخاصة فى القرن عشر وتميز بالزخارف والحركية والحرية فى الشكل)

ولايزال واضحاً على المبانى حتى اليوم تعبير حى عن عظمة أثرياء هذه المدن المستعمرة وروائعها ومع ذلك علينا ألا ننسى أن الجوهر الإنسانى يبدو...

وبوضوح غالب... هندى الجذور، وعلى عكس ذلك تقابل البرتغاليون فى البرازيل مع جماعة مشتتة من سكان ضعفاء ومن ثم تدرك الأهمية الحازمة لتوفر الجنس الأسود إذ كانت مدن البرازيل فى تلك العهود المستعمرة من أصول أفريقية وتضم مدينة باهيا العاصمة وفيها ٣٦٥ كنيسة لكل يوم من أيام السنة) وريسيف مركز كبرى مصانع السكر التى أنشأها الهولنديون أثناء احتلالهم القصير من عام ١٦٣٠ ـ ١٦٥٣ ومدينة أوروبريتو (أى الذهب الأسود) والتى زرعت زرعا أثر حمى الذهب ، ومدينة ريودى جانيرو التى صارت العاصمة فى عام ١٧٦٣ ومدينة ساوبا ولو على العكس من مثيلاتها فهى مدينة صغيرة جدا يقطنها المغامرون وأغلب سكانها أقلية من البيض وأكثرية من الهنود مع بعض الملونين الهجين ممن كان يطلق عليهم وقتئذ الأخشاب المحترقه أو الماميلوكوس باللغة البرتغالية. وكل هذه التفاصيل عن العصر الاستعمارى تثير ذكريات قارة أمريكية استعمرها وتوالد فيها الرجل الأبيض ولازالت قسمات الكثيرين أشبه بقسمات جزر الأنتيل مثل سانت دومنيوح وجامايكا جزر السكر والبن ويتحدثون أكثر من غيرهم لهجات فرنسية أو إنجليزية ومع ذلك فالمشاهد واحدة فى كل مكان ... فى كل مكان تجد هذا التمازج الغريب بين حياة بدائية من حياة القرون الوسطى، حياة تتشيع للرق والرأسمالية معاً ونجد صاحب الأرض الزراعية أو مالك معاصر قصب السكر أو صاحب مناجم الفضة الخرافية أو التبرهم وحدهم المرتبطين باقتصاديات النقود والعملات.. ليسوا أسرى ولاخداما لها بل يشبهون كبار العائلات القديمة فى الأزمنة الغابرة ممن كانوا يملكون حق الحياة والموت على كل أفراد أسرهم وجماعات خدمهم مع قيام المنزل الكبير للسيد المسيطر على كل جماعات العبيد... وكانت المدن إنما تنشأ بفضل هؤلاء الأثرياء ومنها تلك المنازل ذات الأدوار فى البرازيل المستعمرة بمحلات البضائع وأكواخ بائسيها ومن يطلق عليهم لفظ الموكامبوس فى البرازيل ويطلق عليهم اليوم اسم الفافيلاس والبيدونغيل (أى مدينة الصفائح وهى عبارة عن أكواخ يقيمها المعدمون فى الضواحى) وهى مواقع تكتل كثيرين اليوم وكان بعد تحررها من نفوذ العواصم الأسبانية والبرتغالية ومن تجار لشبونه وقادس أن دخلت أمريكا اللاتينية بعد عامى ١٨٢٢ و١٨٢٣ فى

مرحلة الاستغلال المنظم (بلاحياء) من جانب رأسماليى كل اوروبا وكان أولهم رأسماليو لندن وكانت المدن والبلاد حديثة الاستقلال عملاء سفاحاً مع سطوة أصحاب المصانع والمصارف الأوروبيين وبذلك استطاعت إنجلترا بدهاء أن تبيع للمكسيك عام ١٨٢١ معدات حربية قديمة تمكنت بصعوبة كسب النصر فى موقعة واترلو (إحدى المدن الأمريكيه إيوا) وفى الوقت نفسه كانت مرحلة فتحت أمريكا اللاتينية بلادها لحركة تهجير أوسع من سابقتها كانت أوروبية هذه المرة ولم تقتصر على الأسبان أو البرتغاليين كما بدأت جحافل الفنانين والمثقفين والمهندسين ورجال الأعمال وتصاعدت أعدادهم منذ ١٨٨٠ وتركزت على جنوب المحيط الإطنلطى مرتكزة أساسا على النقل الملاحى بالبواخر وهى الوسائل التى أتاحت الأعداد الضخمة من الإيطاليين والبرتغاليين والأسبان بالإضافة إلى آلاف وآلاف من الأوروبيين آخرين لم تستقبلهم بلاد أمريكا الجنوبية فحققوا أرباحاً وثراءً جديداً فى البرازيل الجنوبية الجديدة شمال سان باولو وجنوبها حيث كانت البرازيل القديمة تتمركز نحو الشمال من الأرجنتين وشيلى، وتولت هذه الموجات الزاحفة كالغارات البشرية تدمير القواعد الاجتماعية القديمة، ولم يقع ذلك بين يوم وليلة وإن كان على كل حال سريعا وقد بدأت بسكنى القرى فتمكن المهاجر من تحقيق، لم يستطع دكتور القانون تحقيقه، وهكذا خُلقت البرازيل الحديثة والأرجنتين المعاصرة وشيلى الحديثة، ويذكر أحد المسافرين الأوروبيين أنه كان خلال أسفاره يستطيع أن يجد إيطاليا المثابرة الرائعة ... إنهم هؤلاء المهاجرون الذين حققوا مجد رواد الصناعة الأوائل فى مناطق هى اليوم مناطق سكانية مزدهرة كالمدن المواجهة للحدود الشيلية جنوب بيو قبالة باتاجوفيا التى كانت بالأمس صحراء مقفرة أو كالمنطقة فى آخر عمق سان باولو التى تزهو اليوم بزراعات البن التى أهلكت الأرض ويحتاجون اليوم إلى تلمس أراضٍ بديلة وعن غابات سرعان ما يعمدون إلى إحراقها توفيراً الأرض جديدة تصلح للزراعة ... كل هذه الإنجازات رائعة ونستطيع التحدث عنها فنطيل غير أننا نتساءل هل كان هذا هو الجوهر الأساسى من وجهة نظرنا؟ لا ... إن الأساس إنما كان أخوة الأجناس فكلها ساهمت فى صنع دعائم أمريكا اللاتينية حيث تصادمت أحياناً ولأسباب اجتماعية مع

خطوط اللون... وفى الواقع فإن هذا الخط منهاج اجتماعى ثرى، والحاكم مهما كان لون بشرته يستطيع اجتياز هذا الخط فضلا عن الحدود، وفى بيرو نجد الهنود خاصة يطلقون عمن يتولون الحكم البلانكوس (أى الأبيض) ذلك أن الثراء والسلطة لازالتا حتى اليوم فى أيدى ذوى البشرة البيضاء الأصلاء، وقد تمازجت الأجناس فى المناطق التى يقطنها البيض بشكل واسع كما تمازج كاتب من أمثال جيلبيرتو فرييبر عالم الاجتماع كان يتحدث بالطبع عن شمال شرق البرازيل حيث يقيم مكريت يقول أوه نوردبست (واحدة من الشمال) ويتناسى أن هذه الشماليات كانت قد تبعثرت وهاجرت وتفرقت من كل أراضى البرازيل وإليها ويقول: كل منا لديه مهمة من الدم الأسود وكانت أهم حركات النماذج فى المكسيك بين البيض والهنود وفى البرازيل شمال شرق البلاد بين السود والبيض وحيث دوافع التسامح والأخوة العرقية وعواملها أوضح منها فى مناطق أخرى ومع ذلك لم تكتمل النماذج حتى فى هذه المناطق المتميزة دون عقبات فقد ظلت أمريكا المهجنة زمنا طويلا تعانى فيه من عقد نقص أوروبا البعيدة التى شجعتها للأسف طويلا كما أعطتها أمريكا الشماليه أسوأ مثل يتخيل، وعلى أى حال فإن الرحلة إلى الولايات المتحدة الأمريكية كانت بالنسبة إلى كثير من مثقفى أمريكا الجنوبية من ذوى البشرة الواضحة رغم أنها بيضاء كان بمنزلة درس ذى مردود عكسى... درس فى ضرورة التسامح... نوع من الرضاء النفسى الثمين إذ يجد المرء نفسه متمتعا بحرية الاختيار ... وهو يختار ويفضل بلده... ولم تندثر هذه العقد وتلك الأحكام المسبقة هكذا بسهولة، إلا أن رياحا هبت بعد عام ١٩٨٩ وعام ١٩٣٠ وأكثر من ذلك بعد عام ١٩٤٥ وصار التساؤل (هل يمكن أن نحب؟) والرد نعم ولكن هل نستطيع التقدير؟ إذ كانت أوروبا وقد دمرتها حماقات الحرب العالمية الثانية وأهوالها... بلاد الحرية والترحيب، فبدأت تتبادل التقدير مع بلاد أمريكا الجنوبية كانت مثار اتجاهات بطيئة ومن المؤكد أنها لم تتحقق كلها بل كانت أشبه بتغيير مفاهيم يسير فى طريقه، وتجئ مؤلفات عالم الاجتماع جيلبيرتو فريير ولم تكن مؤلفاته من ذلك النوع التقليدى ذى الأسلوب العصبى بل كانت ذات لغة شاعرية فى الرواية والمجادلات الأدبية ولغة الشباب التصادمية (١٩٣٣) وكانت

هذه المؤلفات بمنزلة نقطة تحول حاسمة فى تاريخ هذه البلاد وخاصة فى البرازيل وبداية ظهور الاتجاه الإنسانى ولعلها أكثر الاتجاهات والنزعات الإنسانية فى أنحاء هذا العالم الجديد كافة، كما أن الثورة الهندية فى المكسيك منذ عام ١٩١٠ فتحت حلقة من الثورات حول الأراضى الزراعية... لقد فتحت أبواب الأمل .. وتتصادم مشاعر التآخى بين الأجناس أحيانا كثيرة وفق طبيعة الموقع الجغرافى مع عقبة إزالة الطبقات الاجتماعية فى الماضى طالما كان هناك فى أمريكا اللاتينية بلاد سكانها جميعا بيض البشرة كالأرجنتين حيث بقايا من الهنود بعيدا فى الشمال أو فى أقصى الجنوب على عكس هذه البلاد الأخرى حيث اختلطت الأجناس بعضها مع بعض وتولدت من هذا الاختلاط أنماط عرقية متماثلة شكلا راسخة كما فى كوستاريكا وفى مناطق أخرى من غير شك ولكنك تجد مشاعر التآخى هذه، ولم تكن أحيانا كثيرة قد انتشرت انتشارا كاملا فى المجموع ... إنها واحدة من أعمق السمات الأصيلة فى أمريكا الأخرى وجوهرها وهو الأكثر وجدانية يقينا وهو وحده الذى يميزها عن غيرها ويعرف بها ويصيح هذا المسافر من أمريكا الجنوبية حين يتوقف فى بنما عائدا إلى وطنه... ها قد عدت .. عدت إلى اختلاف الألوان والبشرة وها أنا أسمع هذه الأصوات الواضحة وهذا الصياح وهذه الصيحات وهذه الأغانى والأناشيد. ولاشك أنه شعر بعودته إلى بيته .. إلى بيئته.

الاقتصاد والحضارات
تحت التجربة

وعلى الرغم من عدم اكتراثها كثيرا بأمورها وتعلق سكانها بالحياة وميلهم إلى المشاعر الحادة إلى حد النزق وتمسكهم بالحبور وإقامة الحفلات الشعبية الوطنية فى صخب وجذل إلا أن أمريكا اللاتينية لم تتوقف عن المعاناة العميقة تجاه العالم الحالى بل عالم الأمسية وهو ما أطلق عليه بحق «قارة الحزن»كما قال كبرليبنج مثلها كمثل كل البلاد التى تبدأ تصنيعا حقيقيا وترى أن عليها إعادة بناء هياكلها الاقتصادية من جديد، كما أن عليها أن تعدل من سلوكيات مجتمعاتها حيث يمثل هذا الواجب الأخير أصعب الضرورات خاصة فهو يمس مجتمع عالم غير مستقر أصلا دائب الحركة متقلب غير مؤكد اقتصاده... غامض مزعزع اجتماعيا غير مدعم بنيانه كما ينبغى ولم يتوقف ماضيه منذ قرون عن تدمير هذا الاقتصاد وإعادة تأسيسه وبإيجاز عالم مصدوم متصادم متناقض تتحاذى فيه الحياة البدائية الأولية بلا تمهيد ولافترات انتقالية، ويدخل إليه عبيد وصلت حياتهم إلى مرحلة العصرية الفائقة وإجمالا عالم مفعم بالحيوية والنشاط بقدر ما هو صعب المراس... صعب الحكم... صعب التوجيه وكانت التذبذبات الاقتصادية المفاجئة تحيط به على فترات زمنية غير متوقعة أو محسوب حسابها غالبا، وكانت أمريكا هذه تسابق الريح حول مصيرها وقدرها وكانت فترات السباق هذه أرادت أو لم ترد

تسفر عن نتائج مرضية أحيانا أو تكون قبلها الصحية أحيانا أخرى كثيرة ولاشك أنها تبعث الأحوال والظروف الاقتصادية العالمية ولكن كان من الأفضل طالما طل عليها هذا الشوط الطويل من الجرى والسباق أن تكون من الأوائل فى المقدمة الذين يديرون وينظمون السباقات أو فى المؤخرة بحيث يستطيع القفز تلك القفزات المشهورة للحاق بالركب ... وكانت قارة أمريكا اللاتينية دائماً فى المؤخرة تجيد قفزة الشوط وكانت الوحيدة التى تعجز عن الضحك، فقد كان عليها أن تنطلق متدفقة إذا رغبت فى أن تتاح لها فرصة البيع وأن تنتج مهما كلفها من صعاب ... تنتج السكر والبن والكاوتشوك والتشارك أو النترات أو الكاكاو وإنما بأسعار رخيصة، وهكذا كانت كلما وقعت فى براثن الدورات المتتابعة توالت تراجعاتها المباغتة... كان ذلك مفتاح ماضيها وحاضرها الاقتصاديين فقد اضطرت أمريكا اللاتينية إلى الخضوع لمتطلبات الأسواق الخارجية فى إنتاج المواد الأولية فى إطار مستعمر بحت ظل بعد انحسار عهود الاستعمار بأسماء جديدة وأشكال، قيل عنها اقتصار الاستقلال إذ خطط الرأسماليون الأجانب أو بالأحرى المؤسسات الدولية المتحالفة مع الملاك ورجال السياسة المحليين لتوجيه الإنتاج إلى قطاع المواد الأولية للتصدير بعد إجبار المناطق المنتجة لعدد من السلع على تكريس جهودها ورجالها لنشاط واحد ضاربين بالمنتجات الأخرى عرض الحائط وكان ممكنا لهذه الانطلاقة أن تكون مفيدة ومريحة على المدى الطويل لكل أنحاء البلد مالم تطرأ فى الاستثمارات بشكل دورى تعديلات وإلغاء ثم رغبة تطفو على السطح ثم فجأة فى الاتجاه نحو قطاع انتاجى آخر بل فى الاتجاه أحيانا كثيرة نحو مناطق أخرى . ولقد كان تنوع المناخ ووفرة الأراضى مما أتاح لأمريكا اللاتينية تحمل مساوئ فجائية القفزات وتحولها من إتجاه إلى آخر بدون تخطيط فبلغ الأمر من السوء بحيث انتاب البشر وقدرة الأراضى تبديد ضار، فلم يكن مسموحاً فى كل مكان بتوطيد دعائم بنيان اقتصادى ثابت راسخ دائم مستقر صحى صالح لتأهيل طبقة من الفلاحين المهرة. وكانت أولى هذه الدروات دورة المعادن الثمينة التى بدأت مع عصر الغزو... الدخيل... دورة الذهب التى لم تتعد منتصف القرن السادس عشر ثم دورة الفضة وخاصة مناجم المكسيك وبوتوزى حتى عام ١٦٣٠

ـ ١٦٤٠، كان ثمنا للتضحيات القاسية واكتبها موجة تجديد قهرى للهنود الذين تقبلوا مرغمين أعباء مناجم المعادن وصهرها، وكان عملا شاقا غير إنسانى على ارتفاع ٤٠٠٠ متر على قمة جبال يشتد فيها البرد القارس حيث تنقص الأخشاب للتدفئة بل وتنقص بشكل رهيب المواد الغذائية للمعيشة وكذا مياه الشرب... وكانت سبائك الفضة تنقل إلى المحيط الهادى ثم إلى ميناء كلللو وميناء ليما ثم إلى بنما آخر الأمر، ومنها تبدأ قوافل البغال ثم يستكمل النقل بعد ذلك بالسفن فى مياه نهر شاجر لتصل إلى جزر الأنتيل ثم تقبل من بعد الأساطيل الأسبانية لترافق نقلها حتى أسبانيا، ترى من كان يستفيد من هذا النظام ؟ إنهم التجار وكبار الموظفين الأسبان ورجال أعمال دوليين كذلك تجار جنوا «النوجوسيوس» وهم طبقة المقرضين بالربا من أصحاب عند ملك أسبانيا... ولاشك لم تكن من بينهم أمريكا ذاتها المحرومة دائما من هذه السبائك ومن النقود الفضية المفرغة من قيمتها السعرية ولاتكاد تكفى شراء بعض الأقمشة أو حفنة من دقيق القمح أو بعض أوانى الزيت أو براميل النبيذ وطائفة من العبيد السود. وقد بدأ انتاج الفضة بوتوزى ١ ـ ريوليفيام ينخفض فى القرن السابع عشر وإذا أمريكا اللاتينية تشعر فجأة أنها أهملت وتركت لمصيرها وقدرها.

وفى عام ١٦٨٠ تعرف أمريكا ـ التى احتلها البرتغاليون ـ بدورها حمى اكتشاف الذهب الذى بدأ جمعه هذه المرة بأيدي العبيد السود، وبدأ الإنتاج يبطئ حوالى عام ١٧٣٠ فى الوقت الذى بدأت تستعيد فيه مناجم فضة اسبانيا الجديدة (المكسيك) ازدهارها من جديد، وعندئذ تحولت الولايات البرازيلية المقفرة ـ كمناطق مينا سى جيرايس (ومعناها المناجم العامة) ـ إلى إنتاج القطن بصورة ما، ومن المكن متابعة دورة تربية الدواجن (تهجين الماشية) بمختلف ماطرأ عليها من تغييرات حتى دورة التهجين في الأرجنتين اليوم، وكذلك متابعة دورة السكر الذى بدأ على نطاق واسع فى البرازيل وسان دومينيك وجذر المارثنيك ثم دورة إلبى وكان أكثرها ازدهار، فى البرازيل مع بداية القرن التاسع عشر، حيث استهلكت شطرا كبيرا من الأراضى امتدت رويدا رويدا حتى داخل البلاد والشاكو الأرجنتينى الشاكو (البلوط) في منطقة كوبيراشو وتحولت كلها بعد عام ١٩٤٥ إلى

إنتاج القطن فى انطلاقة جديدة ولايكفى كتاب واحد لاستعراض قصص هذه الأنواع من أحادية الإنتاج وأحادية الزراعة، وتعيش هذه السياسة ـ التى أدت إلى نتائج أشبه بالكوارث ـ أيامها الأخيرة على حين تتجزأ وتعد قطاعات صناعية واقتصاديات قومية وطنية إلا أن كل الكيانات الاقتصادية فى أمريكا اللاتينية اتسمت بهذا النمط من التنمية القديم المتقطع المخالف للمنطق بيقظاته (نوبات الصحوة) المفاجئة وكذلك بتوقفاته وانتقالاته من قطاع إلى آخر بصورة دائمة، وكم من مدينة وكم من منطقة ازدهرت ثم يزوى ازدهارها حتى انتهت هى كذلك وأقفرت من سكانها أو على أقل تقدير أو اخضعت لإعادة تحويل قاسٍ مكلف وكانت أزمات حادة تواكب تغيير مسار الدورات الإنتاجية وكان تغيير واحد كفيلا بتراجع كل اقتصاديات البلد ولو كان نشيطا مزدهرا. ولن نعطى إلا مثلا واحدا أسوأها ذالكم هو مثل الأرجنتين اليوم.

ففى حوالى عام ١٨٨٠ بدأت موجة ازدهار واضح تعم البلد كلها وتصيرمصدراً رئيسيا للحبوب والغلال واللحوم للسوق الأوروبية وذلك بفضل تعديل شامل لكياناتها القديمة ولم تكن مناطق البامبا الأرجنتينية سوى صحراء قفر يؤمها قطعان من حيوانات مفترسة كان هنود الجاوشو يقتنصونها لمجرد سلخها وبيع جلودها وتصديرها، ويشبه هذا السهل قليلا مروج الولايات المتحدة الأمريكية حيث يحيط بمدينة بوينس آيرس ويصبح بفضل بعض الجهود صالحا لإنتاج القمح وتربية ماشية منتقاة بعناية مغذاة مسمنة وبدأ كل شئ حتى أعوام ١٩٣٠ إذا ما وضعنا جانبا صعوبات عشر السنوات من ١٨٩٠ حتى ١٩٠٠ يتصاعد نموا فى الأرجنتين بسرعة لاتصدق من زيادة عدد السكان بفضل موجة تهجير قويه من إيطاليا إلى بدء التصدير المنتظم وما تلاه من عمليات التجهيزوتشييد صوامع الغلال والمطاحن وثلاجات التبريد، أرى هذا كله إلى ظهور طبيعى لحركة تصنيع طفيف حيث بدأت تتصاعد معدلات الشراء والأجور وأرباح رؤوس الأموال فضلا عن متوسط عدد السيارات لكل مواطن ارتفع كل شئ إلى القمة وبدأت الأزمة الاقتصادية من عام ١٩٣٠ تطل برأسها غير محسوسة فى البداية والمجتمع غارق فى بحبوحة من المرح والغبطة، ثم تندلع

الحرب التي جاءت لصالح بائعي المواد الأولية مع تأخير السداد لولا ماكان منذ عام ١٩٤٥ مع الانخفاض الحاد فى أسعار الحاصلات الزراعة أن بدأ الاقتصار الأرجنتيني يتدهور وكان هذه المرة تدهوراً سريعا حددت أرقام الإحصاءات الرسمية معدلاته بنسبة ٤ ٪ سنويا منذ عام ١٩٤٨ وبدأت تتحقق خسارة فى الميزان التجارى وانخفضت الأجور ومستوى المعيشة لدى الكتل الشعبية، ونتيجة لكل هذا انخفضت قدرة الدول عن مساندة صناعية وطنية أو دعمها كصناعة النسيج والمواد الغذائية والجلود... إلخ وزادت نسبة البطالة وأقفرت المزارع والقرى لصالح المدن الكبرى التى بدأت تنفخ بشكل عجيب فى وقت أعوزها ما تعرضه من أعمال وإذا ٥ ٪ من عدد السكان أى ما يوازى مليون نسمة يسكنون أكواخاً من الصفيح «عشوائيات » فى ضواحى المدن،والتى يطلق عليها باللغة الأرجنتينية (أى ما معناها فيلات الفقر) وتتوقف حركة التصنيع التى كانت بمنزلة الخلاص وصناع الأمل فى مخرج بل أوشكت ميزانيةالدولة ذاتها على الإفلاس.

وبإيجاز لم تعد الأرجنتين اليوم بعد أن كانت قبل الحرب العالمية الثانية أكثر بلاد أمريكا الجنوبية ثراءً بفضل مناخها وتميز أراضيها ورجالها ومع ذلك فلم تكن أكثر البلاد فقراً وإن كانت أسرعها انكماشا فحلت محل الثقة المرحة الاضطرابات، وذلك ما يفسر الأزمة السياسية التى تابعت على بوينس أيرس منذ سنين ويقدر خبراء الاقتصاد فى الأرجنتين أن الكيانات الزراعية التى جهزت من هنا وهناك بفضل الارتفاع المفاجئ وهو عادة ارتفاع مصطنع فى أسعار اللحوم والقمح إنما تبدو اليوم كيانات هزيلة فقيرة مع استثمارات ضعيفة لاتعنى ولاتفيد الاقتصاد إذ تمثل ٣٤ ٪ من إجمالى الأراضى الزراعية ويمتلك ٤٢ ٪ من هذه الأراضى و٦٤ ٪ من جملة المواشى حفنة من كبار المستغلين، وهذه هى العقبات الرئيسية التى تحرم البلاد من تحقيق نهضة قومية وطنية تحتم إعادة تنظيم زراعى قادر على إنتاجية معقولة وإعادة تشييد سوق محلى وطنى بدونها، لا أمل فى تحقيق صناعية سليمة.

ويمثل التفكك الاقتصادى عقبة أمام حركات التصنيع الحديث والتنمية فى أمريكا اللاتينية تؤدى عادة إلى اقتصاديات قليلة التماسك غير متوازنة حيث نجد

اللامعقولية في كل مكان مع قلة وسائل النقل التى لم تنشأ لصالح اقتصاد وطنى قومي ولكن لربط نقاط الإنتاج ومواقعه بموانئ الشحن تاركة بين الأراضى الشاسعة مناطق خالية من طريق ممهد واحد، ولاتستطيع حركات الطائرات المنتشره في كل مكان العلاج الناجح الفعال، وفى خلال رحلته على ظهر أحد الهنود يقول ألفونسو بيريرا: ما أفيد أن يكون المرء مفلساً ... ويتنهد ثم يستطرد آه لو كان أبي أكثر دهاءً لكان استطاع إجبار هؤلاء البيونز (الفلاحات الكادحات) علي تشييد الطرق... وعندئذ لم نكن لنتواجد هنا اليوم ونجد عوامل تنافر أخرى من مفارقات عنيفة بين مناطق غير نامية مهملة بعد نمو، وبذا نتعرف على بقايا مدن صغيرة رائعة فى الأراضى البرازيلية منها ويناس فيلهاس التى تمارس حياة بدائية تشبه حياة مدن العصور الوسطى بعيدة عن العمران محملة، تضم منازل نبلاء سابقين كعلامات على أيام خوالٍ جميلة ومناطق نامية بلغت أقصى النمو وهي المناطق الحضارية كما يطلقون عليها، وهي غالباً محدودة بشريط ساحلى يمتد حتي البحر ويترابط مع خطوط التصدير وأخيرا غياب طبقة الفلاحين القوية المتماسكة كتلك التى فى أوروبا من حيث هي أساس قوى متين اكتسبت الخبرة على مدي القرون.

وكان هذا هو حال أمريكا الجنوبية: أعمال سخرة وأصحاب أعمال جشعون بين مخاطر أحادية الإنتاج الزراعى فى مناطق شاسعة أعدت على عجل دون تخطيط ثم تركها فجاة وأهملها بعد أن أنشأها مستغلون برؤوس أموال من الخارج لإستغلالها أسوأ ما يكون الاستغلال. وثمة عدد كبير من السكان من عمال الزراعة متجولون هنا وهناك بحثا عن التحرر من أسر البطالة تقودهم الأقدام إلى أقرب المدن حيث الأمل في الالتحاق بأى عمل.. وهو غالبا أمل زائف مشكوك فى تحقيقه أو هجره إلى ولاية أخرى كما يفسره هذا التناقض فى بلد تتوفر فيه الأراضى شاسعة وتفيض عن الحاجة وسكان زراعيون يصل عددهم ما بين ٦٠ و٧٠٪ من جملة السكان، ومع ذلك فهناك نقص حاد فى المواد الغذائية فلا تكاد تكفى حاجة الناس لافتقاد خبرة الفلاحين ممن يعرفون أسلوب التعامل مع الأرض وإستزراعها، ومن جهة أخرى لفساد توزيع الأراضى وهو وحده كفيل بوأد

هذه الخبرة الزراعية بما لايحقق إنتاجية وفيرة كافية طبيعية، وكثيرا ما أمكن التشبيه بحال روسيا أيام النبلاء والنبيلات، وفى هذا البلاء، مع ذلك إلى جانب العالم الزراعى القديم ـ نجد الصناعة تنمو عادة فى مناطق ساحلية ذات ماضٍ قريب حيث تجتمع رؤوس الأموال أهلية أو أجنبية ورجال أعمال لديهم اتصالات مع أوروبا أو الولايات المتحدة الأمريكية وبعض شخوص من الفنيين والتنفيذيين برزوا بفضل الهجرة، كل ذلك أتاح إعادة تشكيل النشاط فى قطاع المنتجات الزراعية للتصدير وتحويله إلى قطاع الصناعة وكانت النتيجة أحيانا مذهلة وغير متوقعة، وارتفعت مبان سكنية فى مدن رائعة الحداثة، منها ناطحات سحاب عديدة كان نموها سريعا أشبه بنبات عش الغراب وتعد مدينة باولو فى البرازيل مثلا على الهذيان فى البناء، وبهذا أصبح اقتصاد أمريكا الجنوبية اقتصاداً مزدوجاً فمن نجد قطاعا عصريا صناعيا بل ناميا نموا فائق الحدود يحيا السكان فيه حياة عصرية بأجلى معانيها ويتعايش جنبا إلى جنب مع قطاعات من حياة زراعية شاسعة قديمة موغلة فى بداوتها تحبو فى خطواتها الأولى، ويتفاقم هذا الانشطار كلما اتجهت التنمية الجديدة إلى قطاعات سبقت تنميتها.

وليكن مثال البرازيل حيث كانت التنمية على عكس ما حدث فى الأرجنتين بدأت متأخرة حوالى عام ١٩٣٠ وظلت تزداد بإطراء بعد الحرب خلال الخمسة عشر عاما الأخيرة حتى تضاعف إنتاجها الفعلى ووصل النمو فيما بين عامى ١٩٤٨ و١٩٥٨ إلى معدل ٣٪ فى المتوسط إذ شيدت حينئذ مدن ساو باولو وريودى جانيرو بإيقاع يتعدى إيقاع تشييد أكثر مدن الولايات المتحدة الأمريكية شهرة فى ناطحات السحاب، فكانت البداية الأولى صناعات الأقمشة الخفيفة ثم تلتها منذ فترة وجيزة صناعات ثقيلة أسفرت كلها عن تصاعد اقتصادى ممتاز، وكان هذا التصاعد لاشك بفضل الصناعة إذ لم ترتفع الإنتاجية الزراعية أغلب الأحيان ولو بمعدل النمو السكانى حيث تمثل الأراضى المزروعة ٢٪ من أراضى الدولة ويعيش قرابة ٧٠٪ من السكان أو بالأحرى يستطعمون الطعام من هذا القطاع الزراعى المتواضع الضيق (٢٠ مليون هكتار مستغلة) فضلا عما تغله من منتجات منخفضة جدا وهكذا يتعرض سكان المناطق الشمالية ـ وليسوا إلا

مـزارعين ويمثلون ثلث عـدد الآهلين للمـجاعـة بالمعنى الدقـيق للكلمـة، كـمـا يتعرضـون لكل أمراض العوز ونقص الأغذية.. ولم يكن ثمـة بادرة من أمل فى احتمال تغير هذا الوضع بسرعة مادام كل شئ متجها إلى المناطق النامية من البلاد كالاستثمارات الخاصة ودعم الدولة والقروض وعوائد متحصلات التصدير السلعى كالكاكاو والسكر والقطن والزيوت.

والمراقبون لأحوال البرازيل والمكسيك يلاحظون من أن هناك قطاعين أحدهما نام والآخـر باق على الهـامش بعـيـدا عن التنمـيـة وإن تمـثـلا فى واقع الأمـر فى الموقف الذى كانت عليه الدولة بالنسبة لمستعمراتها حيث لايستطيع شطر عريض من البلد الاقتراب من عملية الإنتاج أو الدخل أو مدى الاستهلاك الأدبى الموازى لأدنى ضرورات الحياة... باختصار قطاع يضحى به لصالح قطاع آخر، ومما لاشك فيه أن الحكومة البرازيلية فى صراعها مع المشكلة الملحة مشكلة التصنيع تبدو أميل إلى المشروعات التى تدر عائدا مجزيا وإلى المشروعات التى تدر عائدا مجزيا وإلى المشروعات التى تدر ثمرات سريعة وأكثرها قدرة على البقاء. فقد تعرض منذ سنوات إيقاع الانتشار الصناعى البرازيلى لانخفاض كثافته وتدنى إلى الإنتاجية المقلقة لغياب سوق داخلى عريض بما يكفى وبدأت ظواهر البطالة والتضخيم وارتفاع الأسعار بشكل طائش غير متوقع وخاصة أسعار المعيشة التى هى بذاتها التى على انكماش أبعاد السوق الوطنية وكلها دلائل تثبت ما أصبح ضروريا من تغيير السياسات ومنها الاتجاه نحو قطاع الزراعة والعمل على تحسين ظروفه للتوصل إلى النمو الاستهلاكى وتوصيل مجموعة السكان إلى مستوى معيشة لائقة لايمكن بدونه توطيد حركة التصنيع، وكانت هذه المشكلة الاجتماعية قـضـيـة تكاد تواجـه كل بلاد أمـريكا اللاتينيـة وهى فى مـسـارها الصناعى.. تتضاعف وتزداد حدتها وتزداد الهوة اتساعا بين جزء المجتمع الذى يشترك فى عملية التنمية ويستفيد منها كما يستفيد منها سائر المجتمع التى تظل بعيدة عن الملعب... وهنا يكمن عامل الانفجار وذلك فضلا عن انفجار آخر هو إيقاع ازدياد عدد السكان وارتفاعه الذى يعد أعلى معدل فى العالم ٢,٥ ٪ سنويا على وجه التقريب (هو فى أفريقيا ١,٣ ٪ وفى آسيا ٢ ٪) وتبدأ طبقة بروليتارية (من

الكادحين) من سكان القرى تتحول حثيثا إلى طبقة بروليتارية من سكان الحضرية وأغلبهم عاطلون بائسون يعايشون ما يعيش فيه سكان المدن من رفاهية ونعيم ... مجتمع صناعي... مقفل أبوابه أمام هؤلاء القادمين من القرى... كلها تقريبا.

تتوافق كل هذه الشواهد التي يرويها علماء الاجتماع منذ سنين اتحكم على روعة ما بذل اليوم من جهد خارق في أمريكا اللاتينية لإنشاء قواعد ثابتة لمؤسسات صناعية استفادت من آخر ما توصلت إليه وحققته التكنولوجيا العصرية وتوافر أفواج المهندسين من معماريين وفنيين من سكان البلاد الأصليين (الأهالي) أو من أجانب يتساوون في المقدرةوالكفاءة ومع ذلك تظل تطل برأسها الظاهرة الإنسانية المخيفة التي أسفرت عنها التجربة وهي ظاهرة الفقر... في مواجهة الترف والثراء وها هو مثال على ما تقول : أفران هياشيبادو وفي أقصى جنوب مدينة سانتياجو (شيلي) ملحق بها ستة آلاف عامل فني ذو كفاءة ممتازة اكتسبوها من فترات تدريب تقني رفيع المستوى ويعيشون في مستوى رفيع ولنر هذا التناقض الواضح مع ظروف معيشة بائسة لجماعة من أسر العمال يقفون ساعات متعلقين بأذيال الأمل على أبواب الورش يتكدسون بالعشرات في أكواخ خشبية (مشيدة كنوع من الدعاية) للتعبير عن مشاعر أخوة زائفة نحو هؤلاء البائسين أمام أعين المحققين ورجال الصحافة، ومع ذلك كله فإن هذه الحالة أفضل كثيرا من مدينة المناجم لوتا إذ لم أر في حياتي أسوأ من مشاهد هؤلاء البائسين وهم يقضون ساعات فراغهم «الطويل» على أعتاب منازلهم يغمرهم غبار الفحم المتصاعد وأطفالهم هنا وهناك من حول الأقذار التي تعج بها الشوارع الجانبية في سوق لوتاپاجا يعرض من حول مناضد البائعون عليها للبيع لحوما تفوح منها روائح منتنة؟؟ معرضة لأسراب الذباب وسحب الغبار... ومـاأتعس هؤلاء الأولاد الذين يعيشون في الأكواخ القذرة أو يتسكعون على أرصفة تالشيانو (تاهاكيانو) أولاد مدينة لوتا ممن قيل لي أن ربع عددهم فقط هو الذي يستطيع الفرار من هذا المجتمع البائس جيث يعيشون أجمعين.. ويموتون.

وليست مثل هذه المشاهد من مناجم الفحم في سان جيرونيمو أوريوجراندیه (وسول (في البرازيل) أو مناجم القصدير في بوليڤيا بأفضل حالاً من الأحوال إذ تجد محيط أكثر المدن روعة وبذخا، تلك الحقيقة الأليمة التي تحدق بالعمال

وحياتهم البائسة البشعة بما تعرض من فقرها المدقع حتى من حول ساو باولو وفى قلب بوينس آيرس حيث يقيم ٦٠ ٪ من السكان القرويين السابقين أولئك الذين انتزعوا من القرى كما وقع فى القارة أوروبية بالأمس فقد ثبت أن هؤلاء عمال ليست لديهم ليست لديهم من ميزة، بل يعدون من أسوأ العناصر البشرية إذ يقضون يوما فى المصنع ثم لايظهرون فى اليوم التالى، وكثير من المؤسسات تجدد فرق عمالها كل عام بنسبة تصل إلى ٧٥ ٪ إذ أن جهلهم يزيد من تعاستهم وفقرهم.

ويلاحظ فى كل موقع ما ترتب من آثار على سوء التغذية . ونجد أن عددا قليلا ممن بقى من العمالة وتؤدى لهم أجور مجزية فى المدن قد ألفوا ـ فيما بينهم ـ طبقة بورجوازية بعيدة عن عالم العمال العاديين ونادراً ما يتكافلون أو يتضامنون مع العمال العاديين. وهكذا نجد كل شئ يتضامن ويشترك فى أبعاد هذا العالم البائس وإهماله وتركه لمصيره، وربما وجدنا أن التشريعات العمالية رسميا أكثر من التشريعات التى يمكن تصورها تحررا (ليبرالية) أما ما بين صيغة القانون وتطبيقاته فما أعمق الهوة... فإن الفرق والنقابات قائمة ولكن ليس لها من عنصر مشترك مع نقابات الدول الصناعية سوى الاسم فلم تتصد لمجمع تكتلات قومية وطنية ... باختصار طبقة عمالية بائسة غير متعلمة بل جاهلة كذلك أحيانا كثيرة ومع ذلك فهى على اتصال بحياة سياسية انفعالية رومانسية استمدت مثلها من أفكار بيرون الزعيم الأرجنتينى صديق كاسترو الكوبى وهو الذى كان رئيساً للأرجنتين من ١٩٤٦ حتى ١٩٥٥) ... ذلك عالم لايملك أى دعم مادى أوفكرى ويبدو كأن مصيره ومستقبله يكتنفهما الصعاب... وسيظل هكذا أمداً بعيداً

ضعف طبقة الحكام
وطبقة الصفوة، وفسادهما

بدأت تعود إلى رشدها إزاء هدة المشاكل والقضايا طبقه من الصفوة المثقفة وكانت عودة إلى الرشد ولكن بصورة مغالى فيها كانت تضم الكتاب المبدعين وأساتذة الجامعات وندرة من رجال السياسة وبعض الأطباء المثقفين والمحامين ولكن ضعف الطبقات الحاكمة وفسادها للأسف والمسئولين سياسيا واجتماعيا أضاف ضعفا جسيما وخطيراً إلى مجموع المشاكل والقضايا التى تعج بها دول أمريكا الجنوبية، وقد دمرت الثورة الصناعية وتناميها بشكل شرس ودائم دعائم مجتمع زراعى كان متماسكا ومثقفا، حقا كانت قدراته قليلة محدودة لا تتيح له فرصة الاندماج فى هذا العالم الجديد ومع ذلك كان مجتمعا مرحا ودودا.. والمؤلم أنه لم يتعرض لتبديله حقيقة. كانت هناك بالأمس أى قبل عام ١٩٣٩ وفى أمريكا شبه المحتلة قلة تحتل مسرح الحياة السياسية والثقافية وكانت فى الوقت نفسه تسيطر على الأمور الهادئة كانوا رجالا ظرفاء جذابين مثقفين يمتلكون مكتبات رائعة الثراء أشبه بأمراء عصر النهضة ببذخه كأنما جاءوا خصيصا لإغراء الصحفيين والزوار والمثقفين القادمين من أوروبا، وفى عشية الحرب العالمية الأخيرة كان المرء يعتقد أن هؤلاء الرجال محكوم عليهم اجتماعيا بالمسئوليات الضخمة الملقاة على كواهلهم وأن يمارسوا طوعا أو كرها سلطة الحكم، وكان من

بينهم هذا الذى كان يتحكم فى كل رؤوس الأموال الإنجليزية فى البرازيل ثم هذا الآخر سيد الأموال العامة أو هذا الحاكم لإحدى الولايات وهو يرنو ببصره إلى منصب رئيس الجمهورية أو هذا الجنرال ذو الجذور الشعبية الطامح فى السلطة.. كانوا كلهم يحكمون من فوق أعمال الكتب التى تزخر بها مكتباتهم بأفكارهم وآمالهم وسط عالم غير واقعى كانوا يؤمنون بقضية الثقافة وفضائل الحضارات والعقل.. رجال أقرب إلى النمط المتحرر والأرستقراطى فى القرن العشرين.. كل هذا فى جو من الاستبداد الطاغى أو نزعة الأبوة المستنيرة على الاقل وبجانبهم.. وبعيد عن محيطهم من هم منغلقون بدوافع الغيرة نحوهم.. كان هناك جمع من الرجال الجدد من أمثال المهاجرين ممن حققوا الثروات أو رجال الصناعية ممن أتاحوا لأبنائهم دون سواهم مستويات من التعليم والثقافة.. بدأت هذه الفئات الجديدة خطوات صعود اقتصادى جارف واليوم استكملت حلقات التطور الاجتماعى إذ بدأت العجلة تدور. وعلى الجملة فإن المسار اليوم يضم ملاك أراضٍ ورجال صناعةٍ ورجال بنوك، وتراكمت الأملاك والملكيات العائلية الشاسعة وشيدت أفخر المنازل وأروعها فى البرازيل على شواطئ ريد أو فى الداخل عند بتروبوليس وكذلك فى المكسيك فى الفيراكروز وفى أكابو لكو وفى ضواحى مدينة مكسيلو التربة أو عند سفوح العاصمة كويرنا فاكا، وكذلك بدأت المدن تتخذ شكلها، مدن كبيرة عامرة بالفنادق الفاخرة والمطاعم الجاثمة على أسطح مبان ذات ثلاثين طابقا على النمط الأمريكى لناطحات السحاب وذلك دون التعرض لمعجزة أخرى استطاعت أن تخسف وبحرق كل تحفة أخرى أمامها وتقصد بها المدينة الجديدة.. أى العاصمة الاصطناعية برازيليا التى أقيمت فى قلب شبه قارة البرازيل.. ها هو ذا العالم الجديد بمعالمه ليبدو كمن يأخذ ثأره من العالم القديم. أما ما لا يزال ينقص أمريكا الجنوبية فهى الأحزاب السياسية الصلبة المتماسكة وأكثر منها طبقات الصفوة والطبقات البورجوازية المستقرة الميدير ببلو (ومعناها نصف شعر البدن) كما يقال فى شيلى فى تعبير اجتماعى ويطلق كذلك على المواشى من الطبقة الثانية، ولا يكفى بعض المثقفين شئ دائما فلا زال هناك وقت ولازالت هناك حاجة لظروف هادئة واقتصاد متوازن توزيعا بين أثرياء جدا

وفقراء جدا لكي تطفو على السطح الاجتماعى تلك الطبقة الضرورية للتوازن الاجتماعى المنشود فى عالم لايزال رأسماليا حتى اليوم ولا شك أن ضعف وهشاشة أعواد الطبقة المتوسطة تعانى، وكان ممكنا أن تستند عليها أحزاب سياسية جادة يفسر عدم استقرار مصائر حكومات أمريكا اللاتينية إذ بدلا من الصراعات بين الأحزاب هناك بين الرجال والجيش يلعب دورا كبيرا وفق مالا يزال حياً من تقاليد اللبيردورية عند الجنرالات الرومانسيين الذين حققوا الاستقلال فى مستهل القرن الماضى.. ومع ذلك ومع عودة الوعى بسرعة هكذا بين كتل شعبية غير مصقولة نجد من الممكن لظاهر التمدين الحضارى أن تؤدى إلى إحياء البلاد الأمريكية (الجنوبية طبعا) على سلوك طريق وعرصعب يحتم بدونها إعادة تشكيل قاسية لكل الكيانات الحالية وكما قال أحد كتاب المكسيك مؤخرا ستظل بلادنا واقفة على عتبة الباب... على المدخل دون أن تتمكن من الولوج إلى الداخل... إلى عالم رأسمالى حقيقى عصرى ينمو فيه الثراء والرفاهية وإلا فسوف ترى نفسها دون أن تعى أو ترغب ملقاة بين براثن انتفاضات من عنف لايمكن تفاديها وهى على أى حال لن تستطيع أن تفتح لها قسراً أبواب إشتراكية حقيقية. وفى عام ١٩٦٢ كتب البرازيلى جوزويه دى كاسترو يقول ومن المؤكد أن البرازيل وكان له أن يقول أمريكا اللاتينية لابد أن تنجح فى تحقيق طفرة فى تاريخها الاجتماعى ... فالذى نحن فى حاجة إليه تجنب القفزات التى تسقطنا فى الهاوية وذلك بمراعاة هذه القفزات لبلوغ الجانب من الجرف. ولاشك أن لأحاسيس عدم الاطمئنان وعدم الاستقرار بل افتقاد الثقة التى يشعر بها الأمريكيون الجنوبيون ما يبررها وأقل منها مشاعر التشاؤم ... ذلك أن عدم الاستقرار هذا قبل كل شئ دليل على أن هناك حضارة تبحث عن ذاتها... تستكشف نفسها لتتضح معالمها تحت ضغط الحقائق الأليمة. ومع ذلك فهى حقائق ووقائع جبارة والحضارة الوحيدة التى عرفتها أمريكا الجنوبية طويلا إنما كانت حضارة خارجية واردة ليست سوى نسخة أمينة من جانب محدود من الرجال المحظوظين جدا من حضارة أوروبا بكل ما تشمله من انتقاء ورقة وتهذيب (كذا) وكان الأدب هنا اختباراً فكم من مؤلفات لكتاب من أمريكا الجنوبية من القرن التاسع عشر لم يشك أحد أنها كتبت

خارج القارة الأوروبية، فالأدب لكثير من الناس فى ذلك العصر جزيرة صغيرة يلزوون فيها بعيدا عن الحياة المحيطة بهم وعن أفرادها الذين لايسهمون فى ألعاب الفكر الرفيع تلك ، وقد تابعت هذه الطبقة المثقفة الفكر الأوروبى بكل اهتمام ووجدت فيه ضالتها ورضاها وشغفها. وبفضل هذا الفكر الأوروبى يمكننا فى أمريكا الجنوبية العثور على أحد أنصار الاتجاه الإنسانى الثائر، وهذا التسلسل فى اليقين الوضعى الإيجابى لأوجست كومت (فيلسوف فرنسى ١٧٩٨ ـ ١٨٥٧، لقب بمبتدع علم الاجتماع) ومن المفارقات الدالة أن الصبغة التى تكتب على العلم البرازيلى إنما هى تعبير عن ولاء واحترام لمبدأ الفيلسوف أوجست كومت (فلسفة الوضعية التى تقصر عنايتها على الظواهر والوقائع اليقينية مهملة كل تفكير تجريدى فى الأسباب المطلقة) وانتهت هذه الأزمنة حيث وجدت حضارة أمريكا الجنوبية نفسها بعد إدراك التكتلات السكانية السبيل إلى ممارسة حياة الحضر فى المدن مرغمة على ولوج مجتمعات موغلة فى القدم لاتستطيع استيعابها فضلا عن قبول ميراث أوروبى دون أن تعدل وتستبدل فيه على الأقل، وتحاول أمريكا اللاتينية اليوم خلق حضارة خاصة بها (تكون حضارتها هى) . ثم مولد ثقافة تضم جماهير الناس، تنشر وتذاع عن طريق الصحافة والإذاعة والتليفزيون والسينما، لابد أن تؤدى إلى تطور ما، أما أهم ما يشغل بال مثقفى أمريكا اللاتينية فقد تخطوا المقدور منه وأضفوا عليه اسما وشكلا ومع انحسار هيمنة أوروبا منذ الحرب العالمية الأولى وخاصة منذ الحرب العالمية الثانية، بدأت عوامل ريبة وشكوك تجاه الولايات المتحدة الأمريكية فى محاولات فرض سيطرتها وذلك فى الوقت الذى أدرك مثقفو أمريكا اللاتينية فيه ثرواتهم وأدركوا حقيقة ما على عاتقهم من مهام، وساهم الشعب بدوره من هنود وسود إذ طفقوا يحتلون أماكنهم على مائدة المجتمع الذى يعيشون فيه، وتوقفت هذه الاتجاهات التى كانت ترى فيهم الفئة المتوحشة إذ بدأت النظرة اليهم تتغير وينبعث الاهتمام بأحوالهم ومعيشتهم وأفكارهم وأمثالهم الشعبية وديانتهم وصاروا عناصر مهمة ومحوراً لدراسات عديدة فى تعاطف وود من لدن علماء الاجتماع وكذلك أصبحوا جزءا من النسيج الثقافى الوطنى الوليد وذلك ما يفسر لنا منذ ٥٠ عاما ظاهرة بيع

مصنف من قصص كانت من تأليف جورج آمادو وكتاب كارولينا ماريا تلك المرأة من غمار الشعب وكان الكتاب رسالة أخوة ومحبة وتفاهم بحثا عن العدالة الاجتماعية مما عاد على المؤلفين بثروات كبيرة. وما أروع وصف هذه الحارات الشعبية أزيل جزء كبير منها أو فى طريقه إلى الإزالة لتشييد مبان حديثة.

وفى هذا التوقيت بدأ الاهتمام ينصب على الفولكلور الشعبى لسكان أمريكا اللاتينية بما هو عليه فى كل مكان من انتشار كثيف مثير للإعجاب على أن يتقبل سماعه، وكان أحيانا قليلة يبدو مختلطا بعض الشئ لهذه الموسيقى الصاخبة الزاعقة التى يعزفها إطار باكيس المكسيكيون بآلات الكمان فى جوقات تعمل فى الملاهى والمراقص فى البلاد المكسيكية وأفسدتها أفواج السياح الأجانب واهتماماتهم ويقال إن الاسم الذى أطلق عليهم «مارياشس» ويقال إن من بقايا زمن الاحتلال الفرنسى وعموما فلازالت هناك ذكريات ودية فى أعماق القصص الشعبية من حقبة الاحتلال الفرنسى قابعة فى ذاكرة الشعب، ويحتاج الإنسان يقينا إلى الابتعاد عن الطرق السياحية ويتعمق داخل المجتمعات الشعبية ليتعرف على الفولكلور والاستماع إلى الأغانى البرازيلية العاطفية الكئيبة حيث يتمتع القمر الحزين بحقه فى إلهام هؤلاء العازفين على آلات بدائية موغلة فى القدم فيوصى إليهم بكل ما يرتجلون من كلمات وألحان يعزفونها وينشدونها ويرقصون على أنغامها وقد تعثر فى أعماق المجتمع على سوق فى منطقة تسمى باهيانيه تجد فيها إلى جوار سوق المواشى عروضا بائسة لبضائع بؤساء مثل قدر من أرز مدخن أو خنزير صغير وبعض دواجن ضامرة مقابل بعض التوستويز (العملة المحلية) كما تباع كل أنواع الفواكه الاستوائية وقد تجد هنا متسولا ضريراً يرتجل الشحاذة مقدما الشكر ارتجالا للمتعاطفين حيث يتمتع الأجنبى الزائر بالفوز بقدر الشكر مصحوبا بالدعوات التقليدية.

ذلك أن الأجنبى الزائر عادة أكثر كرما... أحيانا وعموما فكل أحداث الحياة تمثل مصدرا لاينفد لنصوص الأغانى الشعبية التى يرتجلها منشدو أو باتويا، وذلك ميناء صغير مهجور على ساحل الاطنلطى لم يتصل يوما بالدنيا من حوله بغير وسيلة انتقال عنيفة مرتين كل أسبوع تمثل فى سيارة مستهلكة فى طريق تقرر

إعادة إنشائه عام ١٩٤٧ ليكون جمالياً بعد أن كان طريقا للنقل والحمل على ظهور البغال كما كان التفكير فى إنشاء خط نقل كهربائى عبر الغابات ترتفع أوتاده وتداً وتداً مخترقة الأحراج إلى داخل المدينة مما ألهم أحد المنشدين تأليف أغنية اسمها تشيجا داد الوز معناها النور الساطع ينشدها وهو يعزف على الفيولا وهى آلة موسيقية بدائية خلال صخب غنائى تحية للحضارة البازغة..!

لكل بلد مأثوراته الشعبية وموسيقاه وقصصه وحكاياته من جذور وأصول هندية وأسبانية وسوداء، ويطبع هذا الفولكلور الحياة الدينية وخاصة العقيدة الكاثوليكية الأقوى على الرغم من تسرب المبشرين البروتستانت بصورة مسرحية فارضة وتظل الحياة الدينية على الرغم من ذلك بدائية تستند ولاتزال على أساطير المعجزات التى سادت القرون الوسطى حيث تتصل معجزات المسيح بالأساطير الخرافية لدى الهنود وطقوس العجائب التى يؤمن بها سود القارة الإفريقية القدامى، كل هذا يمتزج بأصول الطقوس الرومانية وتتفاقم حرية التفسيرات الدينية لقلة عدد القساوسة بمالا تسيئ فحسب إلى دواعى الورع وينبض على أمريكا اللاتينية ضرورة إعادة تنظيم بيتها الدينى إذ كما صرح بذلك مؤرخ أوروبى بروتستانتى أن الحالة الروحية السائدة فى أمريكا الجنوبية تذكرنا بعصر الإصلاح أو بعصر ما قبل الإصلاح فى أوروبا ضمن جهة تبدو الحاجة الملحة للمطالب الروحية الدينية ومن جهة أخرى نقصا واضحا لايبعث على الرضا ومع ذلك فقد بدأت خلافات التغيير تلوح فى الأفق... وفيرة صادقة. إذ الأدب المعاصر الحديث وكل ملابسات الحياة وأحداثها اليوم وكل الاتجاهات الثقافية فى أمريكا الجنوبية وكل البوتقة مشدودة إلى العودة إلى الجذور الوطنية والقومية وأفضل مثل هو المكسيك فهاهى من خلال حركة عريضة تقدمية تنزلق نحو هنديتها عائدة إلى منابعها الأصلية المفعمة بالحيوية وفى هذا الإطار تعيد تشكيك دعائمها... وكان الثمن باهظاً أحياناً فمن تجارب قاسية إلى ثورات عنيفة إلى مآسٍ وكوارث لحقت بالبلاد وإن كانت تدفقت من بين كل هذه النكبات بوادر تلك الاتجاهات الأدبية الشعبية وبصورة أفضل هذا الفن الثائر الذى كان الفنان جوزية أوروزكو بروسوله الملهم. ونرى آثار هذا الفنان فى قباب كاتدرائية جواد الجارا حيث ولدت مدرسة فنية كاملة... وكذلك هذه السينما الوطنية الأصلية التى أثبتتها «ماريا كانديلاريا الرائعة.

حاشية ١٩٦٦

ظلت الثورة الكردية الشعاع وخط التساوى بالنسبة إلى مصائر بلاد أمريكا اللاتينية، فقد ظلت الكتل السكانية تتفاعل بطائفة تنبثق من الثورات الكامنة قد تكون سيئة التنظيم وأحيانا تفاعلت فيها كتل الشعوب فى قارة أمريكا الجنوبية المترامية الأطراف ولحقت بأصدائها المأساة الكوبية. غير أن الثورة تصادمت مع سدود وحواجز خارجية وداخلية، خارجية من جانب الولايات المتحدة الأمريكية فى مياه الكاريبى حول كوبا كما حدث فى بنما وأدت أحداثها الصاخبة ٩ ـ ١١ يناير ١٩٦٤ إلى قطع العلاقات الدبلوماسية بين الدولة الصغيرة والولايات المتحدة الأمريكية ثم أعيدت العلاقات فى إبريل لولا أن الوضع القانونى للقناة ظل كما هو لم يتغير عمليا كما أن مشروع ازدواجية القناة بشق أخرى أو اثنين باستخدام التفجير النووى لايحل القضية السياسية وماتثيره من توتر. وفى البرازيل كانت السدود والعقبات من داخلها سدود وحواجز مضادة للثورة نشأت بعد ثورة ٣١ مارس ١٩٦٤ ويتحدث أعداء نظام الحكم الجديد فى سخرية عن ثورة أول أبريل إذ كان قد أطيح بحكومة الرئيس جولارت فى اللحظة التى كانت تشرع فيها للمضى قدما فى حركة إصلاح لعلها إصلاحات جادة واستولى الجيش على مقاليد الحكم مقلدا الجنرال (وفيما بعد الماريشال) كاستيللوبرانكو على كرسى الرئاسة وقد أبعدت

هذه السلطة التى وصفت بأنها سلطة تهدئة جماعات اليمين المتطرف فى ريو وساو باولو إلا أنها أدركت أنه يجب عليها أن تخضع للضغوط الرجعية مما جعل الطبقة المثقفة القليلة من أعضاء الحزب الشيوعى السرى تدفع الثمن كما كان على النظام الجديد تجاهل الحياد ففسخت العلاقات مع كوبا لولا أن مصادر القلق الرئيسى كانت نابعة من وضع اقتصادى مشئوم وتضخم نقدى يتصاعد بسرعة ويزيد من ارتفاع الأسعار بشكل مضطرد بقدر انخفاض قيمة عملة البلد الكريزير.

تظل أمريكا اللاتينية بين أزمة سياسية وأزمة اقتصادية واجتماعية ضحية ـ كذلك ـ لارتفاع نسبة معدلات المواليد ونقص الكادرات الكفء وعدم استيعابها لمستوياتها المادية، وأصبح السؤال هو: هل فى إمكان أوروبا .. هذه القارة القديمة أن تعاونها؟ لتنتشلها من وهدتها؟ وهذه الحالة تفسر معنى رحلة الجنرال ديجول المسرحية من ١٦ سبتمبر حتى ١٦ اكتوبر زار خلالها عشر دول منها فنزويلا وكولومبيا والإكوادور وبوليفيا وشيلى والأرجنتين وباراجواى وأروجواى والبرازيل.

ولكن فرنسا وحدها لاتستطيع منح مساعداتها الفعالة الحاسمة إلى قارة شاسعة كقارة أمريكا الجنوبية، ولكن على أوروبا كلها من أسبانيا وإيطاليا وألمانيا وإنجلترا أن تتحد معا لتحقيق هذا الهدف وإنجاز تلك المهمة الصعبة ، والأهم فى عيون الغرب، الغرب الذى يقدر ويعى أبعاد مسئولياته. وفى عام ١٩٦٥ وقع حادثان ذوا دلالة:

١ ـ فى شيلى عند انتخاب الرئيس ادوارد فريبى بمحاولته البدء فى تجربة إصلاح سياسى مرتبط بتنمية اقتصادية آخذا فى اعتباره الأصولية الشيلية الخاصة وتابعها باهتمام الرأى العام الديمقراطى فى كل بلاد أمريكا اللاتينية

٢ـ وفى سان دومينيك اندلعت ثورة دستورية تحت اسم الرئيس السابق جوان بوش حاصرتها القوات الأمريكية وفيما بعد استبدلت بهذه القوات الأمريكية قوات الأمم المتحدة وفى عام ١٩٦٦ أعيد انتخاب الوزير السابق حاكم مدينة تريجبللو (مدينة فى بيرو) فتولى بالنيابة بعد اغتيال الدكتاتور وأعيد انتخابه للرئاسة.. وفى يناير ١٩٦٦ عقد مؤتمر القارات الثلاثة فى هافانا وفيه سمح لكوبا أن توثق

عرى علاقاتها واتصالاتها السياسية مع بلاد العالم الثالث وأن يتولى الاتحاد السوفيتى نوعا من الإشراف على الحركات الثورية فى كل من آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية. وبينما كانت حروب العصابات تتصاعد فى كل من كولومبيا وجواتيملا وبيرو وفنزويلا إذا بالأنظمة العسكرية تتكاثر ثم يجئ الدور بعد البرازيل على الأرجنتين حيث يتولى الجيش منذ يونيه ١٩٦٦ السلطة ومقاليد الحكم مباشرة.

الفصل الثانى

أمريكا.. أفضلها الولايات المتحدة ..

أمريكا.. أفضلها
الولايات المتحدة

ربما كان الأقرب إلى الفهم أن نقول إن ذروة القارة الأمريكية أرادن لهذا البلد من أمريكا وفى عناد أن تظل فترة... نادرة خارج السلسلة، لقد كانت طويلا إحدى الحضارات كالمسافر بلامتاع واثقة من أن أمامها سوف تنفتح أبواب مستقبل أفضل لاينتمى إلا لإرادتها هى لا أحد سواها يستطيع بلوغه، ويؤكد جيفرسون توماس أحد مؤسسى الدستور عام ١٧٨٧ قائلا: إن أمريكا جديدة فى شكلها ومبادئها ولم تتوانى لحظة عن الاعتقاد بهذا المفهوم كل صباح وأن الأرض للأحياء... والحق أنها عبرت ـ وبخطوات ثابتة ـ كل ما واجهته من أزمات اقتصادية واجتماعية أو سياسية ولم يبن لحظة أن مخزونها من التفاؤل قد نضب أو هو على وشك النضوب... وإلى زمن قريب حيث اندلعت أزمة عام ١٩٢٩ من وول ستريت (ص المال) وأصابت تداعياتها امريكا باقتصادياتها السعيدة فى عنفوان ازدهارها لاشك، وهكذا أوجدت نفسها فجأة فى مواجهة أول كارثة مالية ولم يكن كافيا لتجد العلاج لهذه الأزمة أن تستعبد ازدهارها من جديد وبصورة اكبر من أى وقت، فاتجهت ولأول مرة إلى ماضيها لالتتعرف على جذورها، فالأمريكى العادى لايؤمن بالقيمة التفسيرية للتاريخ يستمد منه الدعم والتشجيع إذ

تواكبت معاً مشاعر الحنين إلى الماضى مع إنحسار العقيدة الإيمانية فبدأ ذبولهما معاً ففى زمن الانطلاق كان الأمريكيون فى زمن الرخاء والازهار ينظرون إلى المستقبل وتفكيرهم يتجه إلى الحاضر والآن هاهم فى عصر تكتل الاحتكارات الذى انخفضت فيه ساحات التنافس وفرص استغلالها يلتفتون وراء ظهورهم ناظرين إلى العصر الذهبى... بهذه الكلمات التى قالها واحد من أحسن المراقبين هو ريتشارد هوفشاور عام ١٩٥٥ وأمريكا الفتية تشيخ قليلا وقد أدركت قيمة التارى مقتربة من ساعة الحقيقة لتتعرف على ذاتها، ها هى تدرك أنها منقمسة فيه من عدم اكتراثها بماضيها وفى خضم أنانيتها الجامحة وميلها إلى العزلة ورفضها كل تنازل عن حرية الفرد أو الوطن ... ها هى اليوم تدرك ـ مع شعورها بالأسى لما ضاع منها من زمن ـ أن هناك وحدة ثقافية وسياسية تقليدية ودعائم ترتكز عليها الحضارة الأمريكية ... بالضبط .. أليست هذه التقاليد الضمنية محكوما عليها بأن تنزوى وتبتعد فى مواجهة ظروف الحياه العصرية فى الولايات المتحدة الأمريكية غير أن الماضى بدأ يؤثر على كاهلها ... بدأت أثقاله تميل!

ماض مشجع
كشف بالغرض

عاشت أمريكا طويلا فى ظروف مصير جديد دون أن تعكره خلال أيام سابقة كأنما كان الماضى يمسح نفسه مسحا ذاتيا وكانت القاعدة هى الهروب من كل الفرصة أو الفرص المواتية هو مفتاح كل شئ أو كلمة السر فكل إنسان عليه أن يلحق ويستمسك بالفرص التى تتاح له ليكون وليثبت جدارته بأنه إنسان وعليه كذلك أن يصل فيها إلى أقصى مدى يمكن أن تحققه له، وكان المعتقد أن التنافس يزيد من ترسيخ كيان الإنسان ومفاهيمه وتجاربه، وجماعيا مشتركة سارت الولايات المتحدة فماضيها هو سلسلة من الفرص المتاحة.... أمكن الإمساك بها فور انبثاقها لتحقيق النجاح عادة فيها.. ولنستعرض هنا هذه المجموعة من الفرص القديمة قريبة العهد.

الاستعمار والاستغلال

كانت الفرصة الأولى زمن الغزو ربما كانت متأخرة أعقبتها فترة احتلال أحد القطاعات الساحلية الأمريكية والاستقرار فيه، وبدأ السباق ينفتح لأمريكا إثر الرحلة التاريخية التى قام بها كريستوفر كولومبس ١٤٩٢ وكان الفوز لأسبانيا (الكاستيلا) (جزء من أسبانيا) وفى عام ١٥٠٠ أى بعد ثمانى سنوات تمكن البرتغاليون مع الفاريز كابرال بلوغ أراضى السانتاكروز (بوليفيا) ثم تلاهما الفرنسيون سواء فى سفنهم التجارية أو سفن القراصنة أو الاثنين معاً فوصلوا إلى سواحل العالم الجديد كافة حتى جزر الأنتبل وفلوريدا وسواحل البرازيل اقل من عمليا التى كانت نظريا فى ايدى البرتغاليين، وتعرف الفرنسيون على كندا ١٥٣٤ ـ ١٥٣٥ واستقروا أخيرا فيها عام ١٦٠٣ أما الإنجليز فقد وصلوا فى آخر المطاف حيث رسا والترالبى على الساحل الذى سرعان ما اتخذ اسم فيرجينيا أواخر القرن السادس عشر وقام بتأسيس منشأة مؤقتة لم تعش طويلا ووصلت رحلات السفينة. وبين فلاور عام ١٦٢٠ عند رأس كود على ساحل ما سوف يطلق عليه ولاية ماساشوستس. وبنظرة أولى كان الوضع أشبه «بحصة» جغرافية غير مستحبة: ساحل كئيب تتقاطعه مصاب الأنهار والخلجان ومتصل ببحار داخلية بمعنى الكلمة منها ضفة كسنيربيك التاسعة بالإضافة إلى ساحل مستنقعات مليئة بالغابات

حصور غربا بالجبال (جبال البجانيس) الرهيبة أى منطقة شاسعة يلتحم بعضها بعض أسوأ التحام ولايربط بينها سوى وسائل انتقال ساحلية بطيئة وفضلا عن لك فقد احتاج الأمر إلى قرابة العام لمطاردة المنافسين وهم الهولنديون لسويديون الذين جاءوا متأخرين وأخيرا كان البقاء فى مواجهة المعارك الهندية مفاجئة. ومع ذلك فقد كشف الفرنسيون القادمون من سانت لورانت واحتلوا بحيرات العظمى ووادى المسيسيبى العظيم حيث أنشأت لانوفيك أورليانز وتحقق فرنسيين النجاح الأول فى تطويق أول مضيق وانحصر رأس الجسر الإنجليزى بن فلوريدا حيث كتل الأسبان مواقعهم الأمامية والمناطق الشاسعة، أقام الفرنسيون مبراطوريتهم الواسعة بتعدلهم عدا الغابات بحثا عن الفراء وبعثات الجزويت مبشرين، وفى الغرب حيث امتدت سلطة الإنجليز التى اصطدمت هناك بحصون حاميات الفرنسية... ونرى فى غمار هذا الكم الهائل الجارف من الوافدين أين قع الفرصة الأمريكية إذ بدأت المستعمرات الإنجليزية تدعم كياناتها باحتلال سلب خصوصا فى الشمال .. خاصة فى ما ساسوتس حيث نمت واتسعت مدينة وسطن وحيث شيدت نيويورك فى الوسط أى يورك الجديدة (نيوامستردام لقديمة) وفيلا ديلفيا مدينة الكويكرز (البروتستانت).

نمت هذه المدن التى نشأت مرتبطة بأوطانها الأصلية وبحياتها التجارية بين حضان بلد «متوحش» كانت تتميز بقدرتها على تولى أمورها بنفسها وهى تعيش ى شبه حرية تماثل أنماط مدن الفروق الوسطى الأوربية وأفادتها الفتن الإنجليزية فعمدت إلى إبعاد الجماعات الصاخبة من البروتستانت وصار القادمون الجدد يعدون بمليون إنجليزى يقابلهم ٦٣ ألفا من الفرنسيين وفى عام ١٧٦٢ تجئ الفرصة الإنجليزية أو الأمريكية تتصاعد عند انتهاء معركة الكفاح الحقيقى عند الانفجار بين الأسبان والفرنسيين والنتيجة منذ اللحظة الأولى كانت معروفة فى قارة فيها مليون إنجليزى مقابل سبعين ألف فرنسى على الرغم مما حققته الجيوش الفرنسية فى كويبك (كندا) بقيادة مونكالم ١٧٥٩ ولم تكن مشاكل استثمار ولا إعمار المناطق المحتلة شغل السلطة الشاغل متخوفا من نقص عدد السكان فى فرنسا بالإضافة إلى الصعوبات وعوامل القلق الداخلى كل هذا أدى إلى أن يرتحل

من أوروبا حوالى ٣٠ إنجليزياً مقابل فرنسى واحد مع اعتبار قوة كل منهما... تفاوت غريب فى النسب والمعدلات بل المسوغات وآثارها فإذا كانت اللغة الإنجليزية اليوم وثقافتها التى تصاحبها هى التى لها السيطرة فى عالم اليوم فإن السبب يرجع إلى بعض الأعداد من السفن قامت كل عام بنقل حفنة من الفتيان المجندين أغلبهم من الأميين. ثم إن إعادة كتابة التاريخ تعنى الاستسلام لمرض له اسم لعله (يقصد سخرية القدر) ويقول أمريكى صديق يهيم حبا بفرنسا مازحا آسفا وهو يحلم بالأكلات الفرنسية الشهية: آه لو كانت فرنسا تفوقت فأى مصير كان مقدرا فى شمال القارة اليوم حيث كان خليقا أن تسود عظمة الحياة وروعة المطبخ الفرنسى، أما أول انطلاقه أمريكية اقتصادية فكانت فى قطاع الزراعة والنجاح كان فيها مسألة حظ إضافى إلى جانب انطلاقة كندا بفضل خط ملاحى مياه من الجنوب إلى الشمال فى كل مكان تؤمها كل وسائل النقل المائى من زوارق وسفن شراعية مخصصة للصيد والشحن ثم قوارب السباق الرفيعة، وفيما بعد إذا احتملت هى الأخرى دورها الرئيسى تمخر عباب البحار وتصل أوروبا والبحر الأبيض المتوسط وجزر الأنتيل وسواحل امريكا اللاتينية والمحيط الهادى وكلها تشرح المخاطر التى تعرضت لها حركة التجارة وكان الأسطول الإنجليزى من هذه المراكب الشراعية السريعة بما فيها من عصاة حتى بحر المانش فيما بين ١٧٧٦ و١٧٨٢ وضربات موجعة لهم أصابوا بها انجلترا من ١٨١٢ حتى ١٨١٥ فى حربهم الظافرة التى أثرت على تاريخ نابليون قليلا وكانت علة ثراء بعض المدن الأمريكية منذ القرن السابع عشر... ولاشك لوائح تنظيم التجارة التى فرضتها انجلترا كانت تقضى بأن تشترى المستعمرات الأمريكية من البلد الأصلى المتروبول كل ما يلزمها من سلع مصنعة تكون فى حاجة إليها ولو كانت أساسا من نتاج بلاد أوروبية أخرى، وكانت اللوائح من جهة أخرى تقضى بأن تبيع إلى انجلترا أو مستعمراتها تقريبا كل المنتجات الزراعية باستثناء بعض المنتجات الحرة الممنوع دخولها إلى انجلترا كالحبوب والأسماك، غير أن ذلك لم يمنع بنسلفانيا من أن تبيع لانجلترا بأربعين ألف جنيه على حين اشترت منها بما قيمته نصف المليون.. تلك إحدى الحقائق التى تردد ذكرها كثيرا فكيف إذن سدد الفرق؟ يرد

بنجامان فرانكلين أمام إحدى لجان مجلس العموم شارحا لأعضائها كيف الخروج من هذه الحالة الشاذة بقوله: الفرق تسدده المنتجات التى ينقلها إلى جزر الأنتيل ولم تبع فى الجزر التابعة لنا أو إلى الفرنسيين والأسبان والدانيماركيين والهولنديين أو بأثمان المنتجات التى ترسلها إلى المستعمرات الأخرى فى القارة الأمريكية الشمالية بنيو انجلان اسكتلندا الجديدة وكاروليتيا وجورجيا بما نرسله إلى سائر بلاد أوروبا ونحن نحصل فى كل مكان على نقود أو على صكوك أو على سلع تسمح لنا بأن نسدد لإنجلترا وذلك فضلا عن أرباح تجارنا وبحارتنا النشطين فى هذه الرحلات الدائرية وإلى عائدات النقل الذى تتولاه سفنهم فنجمع آخر الأمر فى بريطانيا العظمى ما تقتضيه الحسابات من موازنات ومثل هذه العمليات التجارية الثلاثية الزوايا. تضيف أرباح النوالين. ولا ننسى الصيد فلم يترك البحارة الأمريكيون من فرص الاستفادة المتاحة لهم فى البحار إلا انتهزوها. وفى أواخر القرن الثامن عشر فاقت حمولات أسطول الولايات المتحدة الأمريكية حمولات أى دولة أخرى بل وحمولاتها جميعا باستثناء انجلترا نسبيا. وهكذا انغمست فى مجالات الاقتصاد العالمى وخضعت لتبعاته واضطرت إلى أن نلعب دورها فيه كما أتاح لها أن تستفيد من انطلاقاته وانطلقت باحثة عن المعادن الثمينة التى تفتقدها . ولم يكن ممكنا تحقيق مكاسب بحرية بغير مغامرات بعيدة عديدة مليئة بالمفاجآت ولم يكن هناك من مشكلة سوى الاختيار فيما بينها، فوصول السفن المحملة بالقمح الأمريكى إلى البحر المتوسط أو موانئ فرنسا الثائرة ونجاح أسطول السفن الأمريكية فى التجارة «المشبوهة» (يقصد حركات التهريب) فى اتجاه أمريكا الأسبانية البرتغالية بنفس الوسيلة التى سوف يغامرون فيها على عباب المحيط الهادى وعن طريق رأس الرجاء الصالح.

ثم كان انطلاقا من سان فرنسسكو فيما بعد فور تحرر المستعمرات من الاستعمار الإنجليزى وسيطرته عام ١٧٨٢ أن حاولت المستعمرات القديمة الوصول إلى الصين لعلها تجد ملجأ ترسو فيه تلك السفن وتستريح وكذلك سفن صيد الحيتان فى المحيط الهادى بما يدفع أمريكا عام ١٨٥٣ إلى إرسال السفن «السوداء» بقيادة الأميرال بيرى إلى خليج طوكيو، فكان ذلك إيذانا ببدء التداعيات التى تزامنت مع

هذه المرحلة والتى وقعت بعدها. ولم يكن هناك ما هو أكثر بهجة من تقابل هذه السفن الأمريكية بعضها مع بعض عبر بحار الدنيا السبعة واسمها السفينة ذات الأشرع الثلاثة التى نقلت اللورد مكارتنى سفير ملك انجلترا (الأسد) ثم ترسو فى فبراير ١٧٦٣ عند جزيرة سان بول جنوب المحيط الأطلنطى وهناك عثرت على خمسة من صائدى عجل البحر ثلاثة فرنسيين وإنجليزيين يجهزون لرحلة يبيعون فيها ٢٥ ألفا من جلود عجل البحر فى كانتون (بالصين) على ظهر سفينة من بوسطن نصف فرنسية ونصف أمريكية وتنقل كذلك إلى الصين جملة من فراء القندس الكندى المشهور فيسارع السفير بالاستيلاء على السفينة غنيمة حرب حيث أنها بشكل ما ـ مريب فرنسية ـ الجنسية وكان السفير قد سمع مؤخرا عن الحرب التى أعلنت بين انجلترا وفرنسا فى يناير ١٧٩٣ . ومثل آخر صغير كان عند قيام نجل الشاهر الألمانى برحلة حول العالم فى خدمة القيصر كوتزيبوى فقد شاهد فى أحد موانئ ألاسكا الجنوبية فى ٢٦ ابريل ١٨٢٥ سفينة أمريكية ذات شراعين قادمة من بوسطن فى خط سيرها عن طريق رأس الرجاء الصالح محملة بالمواد الغذائية لاستبدالها فى إحدى محطات الرسو الروسية مقابل ٢١ ألف من جلود القطط البحرية (السنور) وهى أقل سعراً من فرو ثعالب الماء (القندس) الثمين حيث يكافح المشترى ويأمل فى خط سيره حتى جزر الساندوتش بيعها فى كانتون وكان فريق البحارة بما فيهم الربان نفسه عند الوصول إلى ميناء ألاسكا فى حالة سكر شديد ولكن السفن بفضل المصادفة تجنبت الاصطدام بالصخور والغرق فى اعماق البحر والأمريكيون يتمتعون بالمهارة رغم حبهم للخمور

فيستطيعون فى كل موقع التخلص من المآزق فى هذا العصر عصر الازدهار صيد الحيتان وذلك ما مهر فيه بحارة ميناء نيويورك وموانئ نيوأنجلند وقد وصف هذه الحقبة المزدهرة الكاتب هرمان ميلفيل (١٨١٩ ـ ١٨٩١) حيث عايشها بنفسه واصفا هذا العالم الخشن وقسوة الحياة وخطورة صيد الحيتان وكيف بزغت المدن وازدهرت من هذا المورد الوحيد من أمثال مدن نيوبيدفورد أو نانتوكيف. وفى عام ١٨٥٠ بدأ صيد الحيتان ينحسر حيث استطاعت التريوت المعدنية والفازا إنزال

«بـــال»[1] الحيتان عن عرشه وسيلة للإنارة. وفى نفس الوقت أصابت أسطول الولايات المتحدة ضربة قاسمة إذ ظهرت السفينة التجارية الإنجليزية المصنوعة من الحديد وبدأ الاتجاه نحو الداخل .. داخل القارة بغية الاستكشاف والقهر... أى انفتاح على أراضيها ذاتها وبدأ الأمريكيون ينغمسون فى تاريخهم القارى وغزو هذه المساحات الشاسعة وامتدادها أكثر فأكثر فى اتجاه الغرب وإنشاء خطوط السكك الحديدية ومدها وأساطيل الملاحة الساحلية والداخلية للحاجة الضرورية الملحة فى توفير وسائل النقل وكل هذه المهام الضخمة... انتزعته نحو المحيط... وبدا المحيط فرصة جديدة على هوى الحياة الأمريكية فعندما نوقف مشكلة عن أن تكون أساسية إذا بمشكلة أخرى تظهر فتجرى وراء هذه وتهمل تلك ويمكننا القول بأن أمريكا استبدلت بالمحيط قطعة أرض شاسعة... أمريكية سوف تتملكها بأسرها لنفسها ولصالحها. ولم يكن ثمة أفضل ولا أكثر مدعاة للفخر من النضال فى سبيل تحرير المستعمرات الإنجليزية داخل أمريكا ١٧٧٣ ـ ١٧٨٢ وهى تحتاج إلى تحديد وفى عام ١٧٦٢ تلاشت الإمبراطورية الفرنسية بين يوم وليلة من فوق الأراضى الأمريكية واتضح كيف أرادت إنجلترا نوعا من التواصل أو القطيعة غير أن التنازلات الإنجليزية كانت من البطء بحيث يقال إن إنجلترا أخطأت بهذا البطء كما أخطأت كذلك بغير ضرورة فى رفع الضرائب محتفظة فقط بالضرائب على الشاى حتى لقد أُلقيت صناديق الشاى فى البحر من سفينتين تابعتين لشركة الهند فى ميناء بوسطن فى ١٦ ديسمبر ١٧٧٣ وكانت التقاليد السياسية الإنجليزية تنص على ألا ضريبة بغير رضاء الممولين ولم يكن إنجليز القارة الأمريكية ممثلون فى برلمان لندن. وما كان أكثرها من أخطاء بالإضافة إلى ما وقع فيه هذا المؤرخ الإنجليزى من خطأ فيما زعم أن الإمبراطورية الإنجليزية منذ منتصف القرن الثامن عشر بدأت تتخبط إذ ها هى اليوم بعد تمركزها حينئذ فى الأراضى الأمريكية والاطلنطى تميل إلى تغيير المسار متجهة إلى المحيط الهندى والهند واحتلال البنجاب عام ١٧٥٧ فضلا عن امتداد التجارة إلى الصين ويتساءل هذا المؤرخ قائلا: إن وراء هذا التحول نحو الشرق الأقصى والانسلاخ من العالم الجديد

---

(١) بال الحيتان: هى مادة زيتية توجد فى رأس الحوت.

نزعة رأسمالية متعجلة بحثا عن معدلات ربحية عالية. وقد أدت كل هذه الأسباب وغيرها إلى نشوب نزاع مسرحى آخر الأمر نتج عنه ـ من جانب إنجلترا ـ خضوع واضح ساهم فيه تدخل كل من فرنسا وأسبانيا مما ساعد الثوار المتمردين كثيرا على تحقيق انتصاراتهم ولكنهم مع ذلك وقعوا عام ١٧٨٢ على معاهدة سلام مع انجلترا سرا متخلين عن حلفائهم فلم تفقد انجلترا ماكانت تخشى فقده فى معاهدة فرساى ١٧٨٣ لتدرك أن الازدهار الاقتصادى سيكون تعويضا على فشلها السياسى، ولاشك يتساءل المؤرخ دون العثور على رد عما عسى أن يحدث بغير هذه الثورة الصناعية التى وفرت لإنجلترا العناصر اللازمة لتحقيق هذا التفوق الدائم؟ وعموما فنحن إذا ما اهتممنا بمصير الولايات المتحدة الأمريكية فلا مجال للتوقف حيال هذه الظاهرة على المستوى الدولى ولاحتى على لافاييت (جنرال ورجل دولة فرنسى ساهم فى حرب استقلال الولايات المتحدة الأمريكيةليبرالى) وما قام به ولا على مهارة بنجامين فرانكلين وواقعيته ولكن نتوقف أمام الاستقلال ذاته وإعلان الاستقلال فى ٤ يوليو ١٧٧٦ ودستور عام ١٧٨٧ الذى جاء تنفيذه بطيئا حيال تلك السنوات الحاسمة... حيث أدركت أمريكا الفتية هويتها ومصيرها إذ ولدت أمريكا شابه تحدد شكلها. الجغرافى إلى حدود المنحدر الأطلسى وهى اقتصاديا بلد زراعى قبل أى شئ وهى على المستوى الاجتماعى محكومة بسيطرة من ملامح الأراضى هم الآباء المؤسسون الذى رفعوا قواعد الديمقراطية الأمريكية ومن بينهم جورج واشنطن وتوماس جيفرسون، هؤلاء الرجال من أولى الإرادة والتصميم على إقامة القواعد لأفضل الدساتير فى العالم وقيل عنهم منذ زمان: إن هؤلاء «الآباء» بنوا دستورا مرتكزا على فلسفة هوبز فيلسوف إنجليزى وعقيدة كانكان مصلح فرنسى أسس عقيدة لاهوتية فالإنسان عندهما تغلب روحه الشهوانية على النقيض من الرب ويكتب الجنرال نوكسى إلى واشنطون غداة عصيان الشيز أن الأمريكيين على أى حال... رجال.. رجال تتملكهم الانفعالات والشهوات الصاخبة التى تنتمى إلى هذا الحيوان (١٧٨٧) ويجئ إعلان الاستقلال متضمنا حق الأحزاب والمساواة بين الناس كافة أمام القانون غير أن أقلين بال هؤلاء الملاك ورجال الأعمال ورجال القانون وأصحاب المزارع والمضاربين فى

الأسواق التجارية ورجال المال بإيجاز هذه الطبقة من الأرستقراطيين كان قرار حماية الملكية والثروة والميزات الاجتماعية، فقد كانت أمريكا تولد وهى تمتلك ثرواتها وثرواتهم بما فيها القياسية منها يتعين عليها قيادة الأخرى وكان يكفى الاستماع إلى الآباء المؤسسين وهم مجتمعون فى مؤتمر فيلادلفيا لإعداد الدستور أو قراءة خطاباتهم أو خطابات نظرائهم حتى تتضح معالم طريق تلك التيارات الفكرية، ونرى هذا المزارع الشاب شارل بنكينى يقترح بأن لمن يملك مائه ألف دولار أن يكون رئيساً للجمهورية وهاملتون الذى يطالب بمحاربة الديمقراطية وقاضيها وصفاقتها فبالنسبة لهم جميعهم مثل هانتشستون ابنه واحد من الحكام أن الجمهور... الدهماء القذرة (الغوغاء) هى وحدها التى لها كل الحقوق، وبدأت الجماهير تفكر وتعقل... ما أتعس هذه الزواحف... فهى تتدفأ بأشعة الشمس وبعد لحظة تعض وبدأت طبقة (الأشراف) ينتابها الزعر وتتخوف منهم ويعترف ماسون بذلك حيث يقول لقد كنا أكثر ديمقراطية مما كان ينبغى ولنحذر الذهاب إلى أبعد من ذلك إلى أقصى المسار وليس هناك ما هو أكثر إقناعا من قول هذا الكاهن من ولاية نيوانجلند جيريمى بلكناب إذ يكتب إلى صديق له: علينا أن نتمسك بوجاهة المبدأ القائل بأن الحكومة تستمد جذورها من الشعب ولكن يجب العمل على أن يفكر الشعب تفكيرا سليما ليدرك أنه غير قادر على حكم نفسه. ذلكم تفسير لمنطق... النظام الذى يغوص تحت مسمى الحرية والمساواة إنه منطق الرأسمالية فى أكثر مراحل تواضعه، فللأغنياء السلطة والمسئوليات أما الآخرون فإليهم هذا التنازل الكبير فيما قد يفهم بالقانون ضد الأثرياء، كما أن الأثرياء ضدهم ولايهم شئ بعد ذلك حيث يصف الدستور الأمريكى نفسه بأنه «جديد» نصير المساواة منصف بقدر ما يهدف إلى التوازن للتحكم فى عواطف واندفاعات الحيوان الإنسانى الأنانى الشرس العنيف.. دائما.

ودستور عام ١٧٨٧ هو آلية حركية بأثقال متوازية متعقله بارعة، فالسلطات يجب أن تكون منفصلة متوازنة بين الأطراف بما لايتيح لطرف أن يتخطى الحدود القانونية وإلا أوقعه الآخرون فى الخطأ بصورة فعالة أما المجتمع فلم تلغ فيه الامتيازات يقينا وخاصة السكروسانت أى الملكية المقدسة ولكنهم قرروا أن يكون

طريق الثراء مفتوحا أمام الكافة... أليس ذلك يسيرا فى هذه البلاد الشاسعة... الجديدة التى هى أمريكا؟ ويشرح ريتشارد هو فيستادتر بإيجاز هذا الاتجاه المثالى ساخراً فيقول: كان الآباء المؤسسون يعتقدون أن بلداً ذا تصميم جيد سوف يفشل بالمصلحة للمصلحة أى بالطبقة للطبقة وبالتحزب وإلى فرع من فروع الحكومة بفرع آخر فى منظومة من الكتب المتبادلة، وفى الحقيقة يجب الاعتراف بأن التاريخ الأمريكى فى القرن التاسع عشر كان يبدو كساحة تنافس صحن وميدان صراع مصالح وحشى... مصالح خاصة إذ أن الصراع أكثر عدالة وأكثر جلبا للمنافع... هكذا صار المجتمع الأمريكى أكثر مما كان عليه حال البلاد الرأسمالية الأوروبية فليست الأرباح والفوائد حكرا مقصورا على أفراد طبقة ضيقة مقفلة بل مسموح لكل إنسان أن يجرب حظه فى مجتمع أكثر انفتاحا وأكثر تحقيقا للمنافع من غيره وأن يتمكن يوما من اجتياز الحاجز العائق، وكانت صورة الرجل العصامى صورة تقليدية تعبر عن الإنسان الأمريكى ولعلها فى طريق الزوال ... اليوم .

غـزو الغـرب

كانت الولايات المتحدة منذ البداءة تصف نفسها بأنها أمـة رائدة بما قد تكون عليه مشاعر كل الأمم ذات الأراضي الشاسعة حيث يستوجب الأمر السيطرة عليها وتهيئتها لإقامة الناس وسكناهم وإخضاعها لأبعاد وقياسات الإنسان مثل روسيا والبرازيل أو الأرجنتين على سبيل المثال فالامتداد الجغرافى يمثل الشكل الأول للكيان الذى يتحكم فى كل ماعداه وكل نمو وخاصة النمو الاقتصادى لأُمة أو الدولة وأقل منه لو كان يتعلق بحضارة والتاريخ أحسن الصنعة فقد يسر للولايات المتحدة أن تمتد من الأطلسى حتى الهادى ولنتخيل فى ذلك فرنسا تستقر من الأطلنطى حتى الأورال ، وقد اشترت الولايات المتحدة مقاطعة لويزيانا عام ١٨٠٣ ثم حصلت على فلوريدا من الأسبان فى عام ١٨٢١ ثم كان أن حصلت من إنجلترا على مقاطعة أوريجون عام ١٨٤٦ برغم احتمالات غضب كندا ثم تمكنوا بعد حرب قصيرة سهلة من انتزاع تكساس من المكسيك وكذلك نيومكسيكو وكاليفورنيا عام ١٨٤٦ ولاشك علينا أن ندرك عسى أن يحدث لو كانت روسيا أو بعض دول أوروبا قد رنت ببصرها للاستحواذ على هذه المناطق أو بعضها وما قد

ينشأ من الكوارث وواضح جدا أن هذا التاريخ الريادى إنما جاء نتيجة لسهولة مباركة مشكورة أن المهمة كانت ضخمة وصعبة عجزت عن مواجهتها وحدها أمريكا الفنية الناشئة. فمنذ البداية وبحكمة متعقلة جاءت مراسم عام ١٧٨٧ لتحتفظ بالمناطق التى كانت حينئذ خارج سيطرة الغرب وملكا عاما للاتحاد وكان فيما بعد كلما استأنف السكان الزحف إليها والاستقرار فيها بدأت ولايات جديدة تنشأ وتتكون حتى صار عددها ثمانيا وأربعين وآلاسكا التاسعة والأربعين وهاواى الخمسين ولقد تشكل الاستعمار فى أشكال وأنماط متعددة منذ عام ١٧٧٦ على الأقل لعله انتهى مع توزيع تقسيمات آخر أراضى أو كلاهوما عام ١٩٠٧ فقد زخرت أحداث التاريخ بتفاصيل الحكايات ابتداء من نقل طلائع المهاجرين فى المركبات المعظاة الشهيرة وصراعات ركابها ضد الهنود مطلقى السهام حتى أواخر المستعمرين ممن يستخدمون القطارات البطيئة فوق السكك الحديدية الممتدة من محيط إلى محيط... ثم هل هناك من فائدة ترجى من ذكر تلك الأحداث التى زخرت بها عامة الأفلام الأمريكية وكذا ما وقع خلالها من مغامرات؟ كانت كل تلك المشاهد والصور المعروفة عند العزب الأقصى البطولى إنما المهم أن نذكر مدى ما تقدمت إليه مغامرات البيض من مساحات وتخوم شاسعة فى غزواتهم لأراضى الولايات المتحدة الأمريكية وصراعهم لغزو تلك المناطق وكان يتسم بظواهر مادية ومعنوية... نحاول هنا إلقاء الأضواء على الدور المحرك منذ البداية لهذا المعين الروحى والآماد البروتستانتية الجديدة وما وراءها التى تجاوزتها الحضارة الأمريكية فى مرحلتها الحاسمة الثانية.

وقد قيل إن الرأسمالية هى التى تصدت بالدور المنظم الرئيسى لهذه المسيرة نحو الأمام... نحو التقدم، ولنتخيل هذا المهاجر المستعمر يتسلم قطعة أرضه المقدرة بمائة وستين فدانا ويقيم بمنزله الخشبى عليها محاولا حرث ثم زرع الأرض الخفيفة المجاورة للحبال وتشتد الأرض كلما اشتدت جهوده فى الأرض الواطئة إلى حدود الأودية فيضطر إلى قطع أشجارها لتهيئتها وتمهيدها للزراعة. وهذا الفلاح ليس فلاحا بالمعنى المفهوم ولعله كان يزاول بالأمس مهنة أخرى مختلفة تماما. وكان أول ما يجب عليه معرفته قيادة فصيل من الخيول لحرث

الأرض وزرعها لإنتاج القمح دون إعداد الأرض بتدخينها خاصة إذا كان طليعة القادمين فتراوده فكره بيع الأرض التى عاش عليها سنوات فور حصوله على بعض المال ذلك أن كل شئ إنما منحه مسبقا وهو قابع فى مكانه البعيد فيبدأ بالعيش على الطعام المحفوظ ويصطلى بالفحم إذا ما وصلت خطوط السكك الحديدية عنده فإذا ما كان توفر له محصولين أو ثلاثة تتيح له رأسمال لم يتردد عندئذ وسرعان ما يعيد بيع أرضه متى حصل مقابلها على مبلغ أعلى قيمة من مهاجر جديد يبحث عن قطعة أرض ثم يتولى إلى بعيد نحو الغرب طبعا مع تكرار ما وقع تارة أخرى ... وهكذا ... فهو كما وصفه لويس جيرارد ليس فلاحا مرتبطا بأرض له فيها جذور ممتدة بل هو أقرب إلى المضارب... حقق صفقة كما قال أحد المؤرخين... باشر اللعب ... لعب وغامر ولكنه وهذا طبيعى لن يكسب دائما.. إلا أنه يواصل اللعب. وهناك آخر مشابه، مثل مدينة تنشأ فى الغرب الأوسط حوالى عام ١٨٦٠ لنتخيلها وقد عادت إلى كيانها الأصلى محطة السكك الحديدية البدائية والفندق البدائى ومخازن البضائع والكنيسة والمدرسة والبنك فكلها منشآت ناقصة بدائية... هذه المدينة بدأت تبرز إلى الوجود يضارب على نموها وتكاثر سكانها فيبدأ فى اقتناء أفضل الأراضى وأجودها ويجند «قادمين» جددا وبديهيا أن الإنارة الكهربائية متوفرة وعما قريب سيبدأ سير الترام ثم الهاتف (اكتشف عام ١٨٧١) ويلاحظ المسافرون الإضاءة بالكهرباء وسير الترام فى طرق المدينة التى لم تقم فيها مبان ولامنازل بعد.. فيصرح أحدهم... هذا تماما، نريد حتى تقيم المنازل ونستطيع بيع الأراضى بأسرع ما نستطيع، وفى مدينة بسمارك عاصمة ولاية داكوتا التى انشئت عام ١٨٧٨ حيث يقيم المستعمرون الألمان بعد خمسة أعوام افتتح الكابتول مركز إقامة الحاكم ولذلك أعد أهل بسمارك حفلا كبيرا لافتتاح فاخر رائع ولم يكتف الأهالى بدعوة، الكاتب الشهير جيمس بروس الذى ألف فيما بعد كتابه عن الجمهورية الأمريكية فحسب، بل وجهوا الدعوة إلى الجنرال جرانت رئيس قديم للجمهورية الأمريكية ومحارب شهير كما كان هناك من مشاهير زعماء قبائل السود لكفاحه فى ثورة عصيان ضد البيض جاء ليلقى كلمة لإحياء الحفل بلطف ودماثة. ويذكر الكاتب بروس وهو من أصل أسكتلندى

أن الكابيتول شيد على بعد ١٥٠٠ متر من المدينة وحين فاجأت دهشته سكان المدينة قيل له يجب ـ والمدينة سوف تتوسع ـ أن يبتعد مقر الحاكم عن التجمعات السكانية الحالية وهذه المدينة كما نرى اليوم لها شأن كبير عن غيرها، تزخر بسكانها وتتقدم وينمو اقتصادها دون حساب لما فى أيدى سكانها من أموال وإنما ترنو إلى ما سوف تحققه من أموال قادمة قد تأتى وقد لاتأتى... والمثير للعجب أن المدينة لم تحسب حسابا للتطورات والأحداث ومنها ما وقع ١٨٧٣ على سبيل المثال من انهيار المشروعات رغم ما حدث فظلت الأموال تترى.. حققت المراهنات نجاحاً.

أما أمريكا التى غزت الشرق والغرب فهى أساسا بروتستانتية فلقد كانت العقيدة البروتستانتية هى التى واجهت هذه الجموع البشرية التى سرعان ما استوطنت الأرض مشتته هنا وهناك فجأة وها هى جموع البشر تجد نفسها بغير راع يهديها ولاشك أن هؤلاء المهاجرين كانوا يعيشون حياة أشبه بحياة الناس فى القرون الوسطى كما أن حياتهم الدينية كانت إلى حد ما عفوية شاقة أحيانا أو ذات حيوية واضحة أحيانا أخرى تخللها بعض الإضافات والتعديلات كطقوس المورمون مؤسسى عقيدة اليوتاه الهنود (عاصمتها سولت ليك) ومن أفضل ميزات العقيدة البروتستانتية أنها تمكنت من تماسك شعلة الإيمان وإزكائها ، وربما كان ذلك وحده أجمل صفحة من صفحات تاريخها فكان عليها لكى تنجح أن تتأقلم وتتنكب على مهامها وتبسيط المفاهيم والتخلص من نزعة «الإبرشانة» (نظام يتبع فى البروتستانتية) (يقضى بأن يكون لكل أبرشية استقلال ذاتى) وأنصار المذهب الإنكلكلانى) وتخفيض تعليم اللاهوت والطقوس وزيادة الارتكاز على المشاعر والأحاسيس وعلى ما تحدثه التجمعات من صدمات مؤثرة، وقد حقق رعاة الدين نجاحا رائعا فى تجوالهم بين الولايات من أنصار الباتست والميثوتست وأنصار المسيح وأتباعه وقدموا النموذج المبسط لكل العقائد مركزين فقط على سيادية الفرد ثم مركزين آخر الأمر على افعال لاعلى معتقدات فأصبحت قربانا جماعيا مشتركا مباشرا بسيطا وتمكن هؤلاء المبشرون بالإنجيل من صياغة نمط الحياة الأمريكية (النموذج) ... أسلوب حياة الأمريكى حامى حضارته وسيدها وهو نموذج ساد

الجميع ... من المهاجرين الجدد «الوافدين» منذ الأعوام ١٨٦٠ ـ ١٨٨٠ حتى غير البروتستانتيين اضطروا إلى التكيف والتآلف مع هذا الاسلوب المجدد للحياة. وهذه الاتجاهات الطارئة من جانب «المؤمنين» مثلهم مثل الدعاة المبشرين صارت شغل بعض العشائر الصغيرة التى اقتسمت مساحات الأراضى الحدودية الواسعة كالغزاة (وكانوا فعلا كذلك) وتولى الأتباع منهم بناء كنائسهم الصغيرة فى الغرب والغرب الأوسط متجهين إلى الشمال الغربى واتجه أنصار البابنست (المعمدانيين) نحو الجنوب الغربى وكانت اتجاهاتهم تماثل اتجاهات المبشرين الأسبان وأعمالهم أولئك الذين تمكنوا من القرن السادس عشر من إعادة الهداية إلى المسيحية من جموع المهاجرين الأسبان فور وصولهم إلى أراضى العالم الجديد. مع من كانوا يجذبون نحوهم من كتل الهنود البشرية وهكذا وطدوا الأركان والأسس والقواعد فى العقائد لدينية لما نطلق عليه اليوم أمريكا اللاتينية.

تصنيع المدن وتمدينها

ليس التصنيع وحده كافياً لوصف هذا التحول المادى الذى ساد الحياة فى الولايات المتحدة الأمريكية منذ عام ١٨٨٠ حتى أيامنا هذه فخلال هذا القرن أو شبه القرن (لأن الكتاب مؤلف ١٩٦٢) تحولت دولة من كيان زراعى إلى كيان صناعى ، لم تكن الانطلاقة الصناعية لتنجح بعامة ولو كان هذا التحول ليقدر له البقاء بدون ظهور المدن الحضرية ولبس هنا مجال متابعة هذا التحول الضخم فكتب التاريخ والجغرافيا توفر أبعاد هذا الموضوع ومعطياته. فتاريخنا كانت أول انطلاقة صناعة وبشكل غريب من مقاطعه ما سمى «بنوانجلند» وظهرت

وقتئذ صناعة النسيج مثلها كمثل عديد من الدول الأوروبية واستقرت هذه الصناعة مع الانطلاقة المفاجئة للسكك الحديدية عام ١٨٦٥ فى أزمة ١٨٧٣ والمهم هنا.

١ ـ الإشارة إلى أن ضخامة نجاح الولايات المتحدة الأمريكية قد أثر فى جغرافية البلاد ومساحتها ومنها عمق الجنوب على حافة خليج المكسيك.

٢ ـ حداثة النتائج التى كانت مؤشرا على تغير أساليب الحياة الأمريكية المستقبلية

٣ ـ تكيف رأسمالية دائمة تتقاطع مع نفسها (أى ليست مستقرة) أو (تنتابها المخاوف)

٤ ـ وصول الأيدى العاملة من أوروبا وبدء إنشاء المدن... كل تمده الانطلاقات البشرية والمادية ها هى تصب كيفما كان فى هذه الحضارة القديمة التى سميت خطأ اسلوب الحياة الامريكية، وسوف نتعرض فيما يلى للموضوعين الآخرين: فنجد أن الولايات المتحدة الامريكية حتى عام ١٨٨٠ استقبلت المهاجرين الإنجليز والاسكتلنديين فمثلوا أعماق البلاد من السكان الأوروبيين ثم جاء فيض المهاجرين من ألمانيا وأيرلندا وكان هؤلاء قد ابتعدوا قليلا عن إنجليزيتهم بل وأبعدوا السكان الأمريكيين عن العقيدة البروتستانتية مع أن البلاد كانت تسيطر عليها الثقافة والعقيدة الإنجليزية البروتستانتية عندما وصلت إليها طلائع ضخمة من المهاجرين قدروا بـ ٢٥ مليونا الصقلب ومن أعراق البحر الأبيض المتوسط وأغلبهم من الكاثوليك، ولم يكن الغـــرب الزراعى ولا الشـــرق الصناعى قـــادرين على امتصاصهم، إذ كان الشرق الصناعى الحضرى قد تغير ولم يكن قد انقلب كما حدث فى الأرجنتين التى صارت مشتبكة مع موجة من المهاجرين قادمين من إيطاليا فتدفقت وغمرت المدن والقرى متخطية هذه الحدود خلال أعوام الـ ١٨٨٠ وهذا الفرق يجب ألا يثير الدهشة فالولايات المتحدة الأمريكية وهى تستقبل الوافدين الجدد كانت تمتلك مدنا لديها صناعة فى أتم ازدهارها... قدرة مفحمة على التقييم والإقناع والامتصاص الاستيعابى السريع الفعال وذلك ما لم يكن متاحا لبلد آخر ولننظر فى جماعة من الأمريكيين عام ١٩٥٦ فإذا بنا نجد أن النموذج الشمالى يختلف عن النموذج القادم أصلا من نابولى أو من فيينا ومن لندن أو هامبورج ... نماذج بشرية مختلفة الجذور والعادات ومع ذلك كانوا كلهم نمطا أمريكيا موحدا فى تصرفاتهم وسلوكياتهم ومن هنا نقول: إن آليات الاستيعاب كانت قد لعبت دورها وأدت مهمتها وانتصرت اللغة الأمريكية بجذورها الإنجليزية وانتصر أسلوب الحياة الأمريكي الفريد إذ كانت روائع المحيط الأمريكى قد خلبت لب المهاجر فبدأ يجرب حظه بنفسه . ومنذ ١٩٢١ ـ ١٩٢٤ مع ظهور قوانين

الحصص وقانون ماك كاران عام ١٩٥٢ قامت الولايات المتحدة عمليا بإغلاق أبواب دخولها ولم يعد الأفراد القادمون منذ ذلك الوقت يمثلون شيئا فى خضم هذا المحيط البشرى وإن لم يتوقف إنشاء المدن وظهورها حتى أن واجهة المحيط الأطلنطى من بوسطن حتى واشنطون هذه المساحة الكبيرة قد صارت أشبه بمدينة واحدة ضخمة ميجالو بوليس مع مساحات متروكة هنا وهناك لزراعة الأشجار كما أن بعض الأراضى الزراعية وضواحى المدن متصلة كلها ببعضها البعض بل وتتشابك وأقيمت جامعة برنستون على بعض تلك المساحات التى احتفظ بها للأعشاب والأشجار بين التجمع السكانى النيويوركى وفيلادلفيا ومع ذلك وعلى الرغم من تدفق هذه الجموع البشرية من النازحين الجدد من جميع المناطق المحيطة فإن الحضارة الأمريكية استطاعت استيعاب كل ما واجهها من مبان وورش وآلات أى إجمالا هذا الثالوث الأرضى من تدفق السيارات والمهاجرين غير البروتستانيين . ولقد تشكلت الحضارة الأمريكية على مراحل ثلاثة : على الساحل الأطلنطى ومن الأطلنطى حتى الهادى وأخيرا بالقطاع العمودى وهو التصنيع ولعلها المرحلة الثانية التى حددت المعالم الرئيسية لنموذج الحياة على الطريقة الأمريكية وهى احترام الفرد وعقيدة دينية مبسطة إلى أقصى حد مندفعة بعنف نحو فضائل التعاون البينى وإلغناء المشترك والالتزام الاجتماعى والأسبقية للغة الإنجليزية والتى انقشعت من طريقها اللغات الأخرى... فهل يمكن وصف مجتمع كهذا مجتمعا دينيا؟

الرد بالإيجاب فتكاد نسبة ١٠٠ ٪ تردد أحلام بيجامان فرانكلين التى راودته عام ١٧٨٢ أى فى أوائل أزمنة أمريكا إذ قال: «الإلحاد لاتعرفه أمريكا والزندقة نادرة وسرية» واليوم لاتجد أى تصرف أو أى إجراء أمريكى دون أن يشفع بكلمة الله وكل مسعى يستهدف الداخل هو بمنزلة حرب صليبية مثل دودرو ويلسون أو الجنرال أيزنهاور كما لاتوجد فروق اجتماعية لا للتمتع بالإلهام الدينى، وتجد فى أدنى السلم الطبقى المجتمعات المؤمنة بالإنجيل والشعبية وفقراء الأمس يمارسون حياتهم فى إطار مميز أكثر أناقة مما كان من قبل، فالطقوس الدينية محترمة عند الوفاة وهى من جذور انجليكانية وجماعات الإنكليكية ممن لديهم أساقفة كلهم

يمارسون حياة متدينة فى الظاهر وقد وصفها المؤرخون فقال: «إنها كنية خاصة بالأثرياء الجدد... كمثل قطعة الصابون الصغيرة الرديئة..» والحق ليس مهما ما رآه هذا المؤرخ فالأهم هو كيف يدرك الإنسان الأمريكى... عقيدته وكيف ينظر إليها ذلك لأن المجتمع المتدين عادة متسامح فتعدد الاتجاهات مقسم إلى شيع وملل بتسميات متناثرة مع قيام كنيسة حقيقية واحدة بالمعنى المعتاد للكلمة: الكاثوليكية وليس ثمة ما يبعث على الدهشة أن نجد على سبيل المثال لا الحصر بعض الأسر موزعة فيكون أفرادها موالين لهذه الملة أو تلك لأن كل فروض فى اعتقاد ما يراه ما دام يعتقد وما دام يؤمن وهو الالتزام الأول والوحيد. ويمكن أن تشاهد فى مدينة كمدينة بوسطن كنيسة صغيرة مشيدة على أحدث الفنون المعمارية وعلى باب الدخول لافتة توضح أن أية ملة خاصة لا تمارس فى هذا المكان المقدس المخصص لصلاة كل المؤمنين فى الدنيا مهما كان إيمانهم. مشاعر رضا رائعة كما وصفها أوروبى ولم يكن يعرف إلا العلمانية والإلحاد كما عاش فى الغرب خاصة علمانية الحكومة وعلمانية الثقافة التربوية وفق النمط الفرنسى وكلها نماذج غير متصور قيامها فى الولايات المتحدة الأمريكية وقد نجد على العكس شكلا من أشكال اللادينية (لادينى) لتفكير عقلانى يجد رواجا ما تحقق من نجاح بعض الذين كانوا يتمتعون بقدرة «علمية» ظاهرة واليوم لم يعد هناك اختراق يستحق الذكر فى الجنوب إلا من جانب حدود المكسيك أو بورتوريكوم ومن الشمال من كندا الفرنسية فنجد أطفالهم يتسكعون فى شوارع ديترويت وبوسطن بل فى نيويورك كذلك غير أن هذه الهجرة ليست سوى نقطة فى مياه تتدفق فنجد مدينة كمدينة نيويورك من أكبر معاقل النازحين من بورتوريكو بلا أدنى شك وتماثل فى هذا الإطار مدينة باريس حيث تضم عددا كبيرا من النازحين من شمال أفريقيا ولأسباب مشابهة، ذلك أن كل مدينة كبرى تحتاج إلى أن عاملة غير ماهرة بل أقرب إلى البؤس تقطن أدوارها السفلى من عناصر لاتجد ها ولاتستطيع توفيرها من سكانها الأصليين يحتملون أعمالا معينة.. فتلجأ المدن الكبرى عندئذ إلى البحث عنهم وقد وفر الوافدون الجدد للصناعات الأيدى العاملة الزهيدة الأجور وهو ما أتاح للصناعات فرصة الإقلاع

ثم الانطلاق كما هيأوا لهذه المدن طبقة فقرائها وأفراد عمالتها وأفضل نموذج مدينة نيويورك التى لامثيل لها فى هذا الإطار معينا ومحدود كهذه المعتقدات التى سادت أوروبا منذ ظهور مؤلف داروين عن أصول الكائنات عام ١٨٥٩ ومؤلف رينان ١٨٦٥ عن حياة المسيح يتصاعد هذا النهج العقلانى العلمى فى إطار من الإقرار بوحدانية الله بصورة مبهجة غامضة وكان الأهم بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية بشأن التلاحم الثقافى، والمشكلة الرئيسية الأولى تكمن فيما تمثل عقيدة المهاجرين الكاثوليكيين وعلى رأسهم الإيرلنديون ثم الألمان فالإيطاليون فالمكسيكيون بحيث وطدت هذه العقيدة الكاثوليكية دعائمها لتتلاءم مع نمط الحياة الأمريكية التى تستوعب كل طبقاتها السكانية، كان ذلك بمنزلة النقطة الحاسمة فى دور أول الكتل السكانية من الكاثوليك.. الإيرلنديين. وعلى كل حال فقد صانت الكنيسة الكاثوليكية وحدتها على الصعيد العالمى كما حافظت بالتالى على طبقيتها، فقد تقبلت بدون تحفظ أن يكون هناك فاصل بينها وبين الدولة مع فرق بدا فى موقفها إزاء البلاد التى كانت تتمتع فيها بالأغلبية كما انغمست تماما فى خضم إطار القومية الوطنية الأمريكية ثم قبلت أخيرا بدون تحفظ الإشادة بالمنجزات الأمريكية متواكبة فى هذا مع انطلاقة الحياة فى أمريكا ويوضح لنا تصريح واحد ذكره مطران أمريكى هذه الحالة بقوله إن صوتا انتخابيا أمينا وتصحيحا للعلاقات الاجتماعية لقادران على أن يحققا مجدا لله (تسبيحا لله) وخلاصا للنفوس بأكثر مما تحققه تلك الليالى الطويلة التى يقضيها الإنسان يقسو فيها على نفسه تكفيرا عن ذنوبه أو يتحمل مشاق الحج إلى كومبوستيل (ولاية فى أسبانيا) (والقديس سان چاك دى كومبا ستيل ويعتبر الحج إليه من أعلى مراتب الحج المسيحى) وتمكنت الكنيسة الكاثوليكية مثلما نجحت الملل البروتستانتيه من تنظيم نفسها وهى اليوم تضم ثلاثين مليونا من المؤمنين بها واستطاعت كذلك امتلاك مؤسساتهاومدارسها وجامعاتها وعلى حين لم تحقق الكنائس البروتستانتية نجاحا كبيراً فى جذب طبقات بروليتاريا (عمال) المدن الحضرية فقد تمكنت الكنائس الكاثوليكيــة من الانتـصـار فى هذا المجـال ولربما عـاد فـشل الكنائس البروتستانتية فى المدن الحضرية إلى ما حققته من فوز فى مناطق الأرياف

والقرى فى القرن التاسع عشر أو إلى تراثها الذى جعلها ـ لا إراديا ـ تميل إلى الفكر البورجوازى كما أنها أقبرت حماسها أحيانا على الرغم من الاستحداث المحدد الحالى وذلك لأن أمريكا المتدينة وقد تقول البلاد الأمريكية كلها مهددة بانتقال الثراء إلى مواطنيها فيتحول بالتالى إلى طبقة البورجوازية وليس هذا المظهر الدينى إلا تفسيراً النجاح التلاحم الحضارى الأمريكى، كما أن هناك كذلك تفسيرات أخرى منها التصاعد الحيوى إلى ما يهيئوه مجتمع من عناصر جذب.. فإن مجتمع المال وحده هو الذى يضع حدود الطبقات الاجتماعية.. مجتمع كان حتى وقت قريب مفتوح الأبواب والطرق للثراء بشكل عريض، أما للمهاجر الأوروبى فكان مجرد تقبل هذه القواعد الاجتماعية يعنى ببساطة التخلص من الطبقية الأوروبية القديمة.. أى الانفتاح على الأمل! ذلك مظهر من مظاهر حضارة ليبرالية فضلا عن قسرية فارضة لا تسمح لأى فرد أن يتهرب من الالتزام بالقواعد الضمنية لنمط الحياة على الطريقة الأمريكية فإذا ما شعر المهاجر بأنه غير قادر على التأقلم والتعود على النمط الحياتى ولوراودته مشاعر الحنين لماضيه فسوف يشغل بال أولاده ولحسابهم الخاص كيفية الذوبان فى الكتل البشرية من السكان فى الولايات المتحدة الأمريكية وقد أشار كل المؤرخين إلى هذه الرغبة التى تلح على أفكار أولاد المهجرين فى ضرورة اختفاء آثار جذورهم. وأخيرا وفى مراحل هذه المسيرة الطويلة كانت أكثر الدوافع وفترة الغرض المتاحة أمام المواطن الأمريكى ومنها: حدود المساحات الأرضية وحركات التصنيع وظهور كبريات المدن وكلها تخلق فرصا للثراء الذى يسهل الاستيعاب والتحول. وكان الطريق عريضا أمام المهاجر الإيرلندى المشاكس بطبعه من مجموعة سلالات ١٨٣٠ إذ الأولى كان يسكن فى كوخ قذر أو منزل منهدم أو هذا الإيرلندى الآخر الى يسكن منزلا تنسدل فيه ستائر الدانتلا من مجموعة السلالة الثانية أو الثالثة وهكذا نجد أن أمواج الثراء وتصاعدها ضمنت لسليل الحضارة الأمريكية الأولى العيش مع هذه الكتل البشرية الجديدة التى وطأت أقدامها القارة. فإذا كانت هذه الحضارة الأولى تختلف بقوة عن جذورها الإنجليزية الأصلية فقد ظلت أنجلوساكسونية بأكثر مما هى أوروبية حيث امتزجت بالحضارة الأوروبية عروقا

بحر أوسطية وتقاليد شمالية وليس لتفسير هاتين الحضارتين كيان فى الولايات المتحدة الأمريكية إذا امتصت الأنماط الحياتية فى الولايات المتحدة كل شئ وجرفته أمامها بفضل المغريات وعوامل الجذب والانجذاب. ولا شك أن لعبة القدر التاريخى والمصادفة وحدها هما اللتان طبعتا قسمى القارة الأمريكية قسمين مختلفين تماما ما عدا كندا الإنجليزية وجعلت جنوب القارة عالما كاثوليكياً تماما وخاصة هسبانو برتغالى وأكثر من ذلك انطباعا بموجات الهجرة من إيطاليا.. ومما لا سبيل إلى إخفائه أن الأمريكتين ليستا على تفاهم الواحدة مع الأخرى فقد نشأتا بصورة أسوأ من أن تتفاهما.. إنها مأساة الساعة.. الساعة الحاضرة.

كنيدى: عندما سيطرت على أمور الحكم وعلى جيش فيتنام جماعات من المستشارين الأمريكيين ارتفع عددهم إلى ١٧ ألف رجل كان ذلك عند اغتيال الرئيس كنيدى فى ١٢ نوفمبر ١٩٦٣ ومع ذلك لم يتخذ الوضع أبعاد ما قد نطلق عليه نزاعا حادا وسقوطاً لنظام حكم الرئيس ديبهم الرجعى فى أول نوفمبر من العام نفسه مما أثار المخاوف من احتمال تغيير نظام الحكم فى فيتنام الجنوبية ومع ذلك فقد اتخذت حرب فيتنام منعطفا دراميا خطيرا من شمال فيتنام وبعض سفن الأسطول الأمريكى فأصدر الرئيس جونسون أمرا بشن أول غارة على فيتنام الشمالية. وفى نهاية ١٩٦٤ بلغ تعداد بعض الولايات المتحدة المتمركزة فى فيتنام الجنوبية عشرات الآلاف ثم كان بعد عام واحد أى عام ١٩٦٥ وقد صارت الغارات على فيتنام الشمالية يومية أن بلغ عدد المحاربين من الأمريكيين على أراضى فيتنام الجنوبية ٢٢٥ ألفا ثم تجاوز هذا الحجم الضخم فى ربيع ١٩٦٦ وتوقع المراقبون أن يصل العدد إلى أربعمائة ألف رجل مع نهاية العام ولهذا السبب وحده ارتفع معدل التكاليف الحربية ارتفاعاً هائلاً.

حاشية١٩٦٦

كانت السنوات الأخيرة بالنسبة إلى الولايات المتحدة الأمريكية درامية صعبة فقد اغتيل الرئيس كينيدى فى ٢٢ نوفمبر١٩٦٣ وهو النبأ الذى أزعج الدنيا كلها وكان وصول الرئيس جونسون إلى السلطة تسبقه حملة انتخابات شملت للمرة الأولى منافسا هو السناتور جولد ووتر بمبالغاته المفرطه التى أثارت استياء الرأى العام الدولى بل صدمته الدهشة بما أخرج الحزب الجمهورى منهكا ضعيفا منقسما كما لم تكف عن التفاقم حيث تفرض الأقلية المسلمة السوداء على أذنى البروليتاريا الانصباع لاتجاهاتها للعنف وهى تدعى أنها إسلامية وتؤمن بالقرآن بل وتنادى بدولة منفصلة للسود فى الجنوب وتزداد المشاكل الخارجية حدة وها هى أحداث العالم تصل إلى شواطئ القارة الأمريكية فقد فرض ما كان فى سبتمبر عام ١٩٦٢ بعد ظهور مشكلة صواريخ كوبا وأزمة خليج تونكين فى أغسطس ١٩٦٤إلى سلسلة من اتفاقات ودية وأخرى أثارت الإزعاج وثالثة أثارت النزاعات.

وقد سيطرت حرب فيتنام وتداعياتها على الحياة الأمريكية وتاريخها خلال على ١٩٦٤ و ١٩٦٦ وتعود جذور هذه المشكلة إلى أيام إيزنهاور خاصة تصعيد إدارة الرئيس هذه التكاليف لتصل إلى ما يقرب من نصف مبلغ ال ٩٩,٧ مليار

وهو إجمالى ميزانية الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٦٥ ـ ١٩٦٦ بل تجاوزت فعلا التكاليف العسكرية والحربية مبلغ الـ ٥٢ مليارا بحيث عمدت الإدارة الأمريكية بالمطالبة إلى تخصيص مبلغ يتراوح ما بين ٦٠ مليون دولار لمواجهة الأعباء الحربية للعام المالى ٦٦ / ١٩٦٧ ومع هذا فقد تمكنت ديناميكية الاقتصاد الأمريكى وقوته من امتصاص هذه الأعباء الهائلة الطارئة دون أن ينتج عنها ارتفاع فى الأسعار، وأمكن توفير عمل لمليون ونصف شخص (أعمال جديدة) عام ١٩٦٤ وانخفضت نسبة البطالة إلى أقل من ٥٪ أى إلى أدنى مستوى وصلت البطالة إليه فى تاريخ اقتصاد الولايات المتحدة الأمريكية، وكان مصدر القلق الوحيد لحكومة الرئيس جونسون استمرار عجز ميزان المدفوعات (الميزان الحسابى) بما تسببت فيه من ضخامة النفقات الخارجية وبنمو الاستثمارات الأمريكية خارج الولايات المتحدة وتطورها كان المستقبل على المستوى الاقتصادى والسياسى رضا بتطورات الحرب الفيتنامية المستقبلية التى تعد أهم وأخطر ما شنته الولايات المتحدة من حروب منذ الحرب العالمية الثانية.

الفصل الثالث

الظلال وصعوبات الأمس.. واليوم

الظلال وصعوبات الأمس واليوم

تحدثنا حتى الآن عن الفرص والنجاح ولكن المشاكل وسوء الحظ فى الحقيقة كانا كذلك ما ثلين ويبدو أنهما يعودان إلى الظهور كذلك اليوم (حاليا) بل ويتضاعفان بتوالى أعوام ١٨٨٠ و ١٩٢٩ وربما ١٩٥١ أيضا غير أن المفارقة هنا تتضاعف إذا ألقينا عليها نظرة عن قرب فيما بين قضايا أو مشاكل مرتبطة بحياة الولايات المتحدة الأمريكية ارتباطا فعليا أو كليا، كما لا سبيل إلى التفرقة بين الفرص طيبة الحظ وسيئة الحظ بالنسبة إلى واحدة من أضخم الحضارات وقياس أبعادها بصورة حاسمة واضحة فكل مشكلة تستدعى بذل الجهد كما تثير الاعتراض والهجوم المضاد، ومن ثم يتبدل الاتجاه ويستدعى سوء الحظ الاحتياط فهو أشبه بالاختبار أو الامتحان ونادراً ما ينتهى كمصير جماعى. وبيت الشعر المشهور الذى قاله هنرى هاينى: ربيع جديد سوف يعيد إلى البلد ما أطاح به الشتاء صحيح بالنسبة إلى الأفراد وأكثر منه للأمم فالولايات المتحدةوإن كانت لديها مشاكل وقضايا فحياتها تظل فى حيوية مفرطة.. لعلها أفضل مما كانت تتخيله هى نفسها.

لا يقف أمامه سد سواء القوة أو الانحياز فضلا عن التنازل فهولا يرتضى بشئ ولم يلغ دستور عام ١٧٨٧ الرق فحسب رغم أنه فى قالب تحررى بل نص على إلغاء النخاسة بعد فترة تقدر بعشرين عاما فتلقى تماما عام ١٨٠٧ وتوقف استجلاب الأسود قانونا على الأقل وإن ظلت عمليات التهريب طويلا بعد ذلك وكانت أشبه باستجلاب الحيوانات. وقد أزدهرت زراعة القطن على كواهل السود وتفاقم ظروف معيشتهم فى القرن التاسع عشر وكان السود فى الماضى يعيشون فى بيوت « السيد» وهاهم الآن يتجمعون كقطيع كبير من الأغنام كما كان فى ممتلكات روما القديمة وفوق هذه الطبقة البائسة من السود وتعيش طبقات المجتمع الأبيض فى يسر وثقافة وتهذيب مؤلفة شكلا قويا من الأرستقراطية الاستعمارية وفى قصة عنوانها «كوخ العم توم» كتبتها هارتيب بتشر ستون، تحكى مآسى السود وفقرهم فأهاجب الشمال عام ١٨٥٢ . ثورة فى القلوب كما تصدر قصة أخرى أحدث هى «ذهب مع الريح» للكاتبة مرجريت ميشيل عام ١٩٣٦ حياة البذخ والثراء فى الجنوب وخاصة حريات الرجل الأبيض وما يتمتع به من ميزات أما المؤلف فولكنر فتروى قصته أحداثا مختلطة وذكريات حنين إلى الأيام الخوالى ومباريات الصيد والاجتماعات التى تثار فيها المحاولات مع تبادل كؤوس الكحول المستخرجة من عصير الذرة بإيجاز حقائق مزدوجة.. بيضاء وسوداء.. ولا شك أنها أكاذيب مزدوجة وعلى الجملة اختفى أو كاد يختفى الهندى أول من استعمره الرجل الأبيض.. فى صراعه مع الأوروبى الأبيض الدخيل فلا تجده اليوم إلا فى هذه المناطق القليلة المحتجزة عنوانا على سلالة زالت وهكذا فإن لدى الولايات المتحدة الأمريكية مستعمرة لم تتحرر بعد بصورة حقيقية على الرغم من كل الإجراءات الرسمية.. هى أقلية عرقية أصلية لها ثقل وحضور صامدين حيال كل شئ

وفى منتصف القرن التاسع عشر أثارت مشكلة الإبقاء على الرق أو إلغائه زوبعة حرب الانفصال (١٨٦١ - ١٨٦٥) ولكنها لم تكن سوى إحدى مظاهر الصراع المتجدد الأخوى (بين الأشقاء) الذى يكاد يمزق أراضى الولايات المتحدة الأمريكية فتتصدى فيه ولايات الجنوب لولايات الشمال وتكاد تؤدى إلى الحرب بينهما:

كابوس الأمس مشكلة السود
مستعمرة مهاجرين لا يمكن استئصالهم

وسط محاسن الحظوظ والفرص الفريدة تسربت واحدة من أضخم المشاكل ولم يكن مستطاعا منذ البداية تفاديها أوالسيطرة على تداعياتها تلك مقام السود الأفارقة ممن استجلبوا إلى أراضيها منذ القرن السابع عشر مع انطلاق زراعة التبغ فى فرجينيا بعد عام ١٦١٥ والأرز في كارولينا منذ ١٦٩٥ ثم القطن فى چورچيا منذ القرن التاسع عشر كل أنحاء الجنوب الغربى فى فرجينيا وعلى التاريخ والجغرافيا المسئولية . إن الواجهة الأطلنطية حيث نشأت الولايات المتحدة الأمريكية مناطق مناخية متقاربة بعضها إلى بعض فإن مناخ مدينة نيويورك على الرغم من خط عرضها وبسبب تيار لبرادور البارد للبلاد الذى يخترقها يماثل جو موسكو حيث تقع نيويورك على مالا يجاوز ليلة واحدة بالسكك الحديدية إلى البلاد الاستوائية، منتجاتها المجلوبة إليها من الخارج. وكان طبيعيا أن يستقر العبيد فى هذا الجنوب كنوع من امتداد اقتصاد جزر الأنتيل الذى ازدهر فى القرن الثامن عشر بحيث استقر المقام بالأسبان فى فلوريدا والفرنسيين فى لانوفيل أورليانز منذ عام ١٧٩٥ وذلك لزراعة قصب السكر الذى يمارسه كذلك چورچ واشنطن فى أراضيه وتوماس جيفرسون فى ممتلكاته فى مقاطعة فرجينيا وبهذا ولج إلى أراضى أمريكا ذات الجذور الأنجلوساكسونية جزء من أفريقيا .. جزء ملىء بالحيوية شاذ غريب

١ ـ الشمال صناعى ينادى بالأسعار الجمركية المرتفعة أما الجنوب فبائع قطن يفضل شراء السلع المقدمة من أوروبا إذ هى من أنواع ممتازة ويطالب بنظام الباب المفتوح

٢ ـ المظهر السياسى للنزاع: يتنازع السلطة الحزبان الجمهورى والديمقراطى فالديمقراطيون بالذات جنوبيون وأما الجمهوريون فشماليون

٣ ـ وهذا التنافس بالأحرى تنافس مرير تمخض عن نوع من الرهان على ميل الولايات التى تنشأ فى القرب إلى الانضمام إلى أى من الجهتين.. الكتلتين.

٤ ـ ولا تمثل الأزمة عمليا مشكلة متفاقمة، فهل تستطيع الولايات التى اندمجت فى الاتحاد الاعتراض أم لا تستطيع، على أى حال من الإجراءات التى تقرر الحكومة المركزية اتخاذها؟ وهل لها حق الخروج.. حق الانفصال؟ ونجد أن كل مسوغات هذا التنافس وهذا النزاع وأسبابه إنما تتجلى فى الاختلاف الحاد بين الخصمين بشأن إلغاء الرق فالجنوب يعلن الحرب (معركة قاعة سامتر فى ١٢ ابريل ١٨٦١)التى انتهت بالاستسلام فى ٩ ابريل ١٨٦٥ بعد حرب أهلية مروعة ثم يحدث فى ١٨ ديسمبر ١٨٦٥ التعديل الثالث عشر للدستور ويلغى الرق وكان هذا الإجراء يشمل ما يقرب من خمسة ملايين أسود (كان عددهم ٤٨٠٠٠٠٠ عام ١٨٧ فى مواجهة ٣٣ مليونا من البيض أى ١٢,٧ ٪ من إجمالى عدد السكان وقد ارتفعت هذه النسبة بعد ذلك فصارت ٣١,١ ٪ عام ١٨٨٠ ثم بدأت فى الهبوط بشكل دورى مع زيادة معدلات الهجرة الأوروبية حتى وصلت إلى ١٠ ٪ عام ١٩٢٠ ويبدو كأن النسبة استقرت عند هذا الحد وتوضح آلاف من تفاصيل الحياة اليومية بسهولة كيف ثبت أن الميزات السياسية التى منحت للسود بدون فائدة فقد أسئ تأويل الحقوق السياسية حيث ظل الأسود قابعا فى مكانه «الأسفل» طالما لم يغادر الجنوب حيث هذه الدونية قائمة تلقائيا لصالح الإبقاء على التقاليد والعادات ولم يكن الرجل الأسود قبل عام ١٩١٤ قد وجد لنفسه مكاناً متواضعا فى عملية التصنيع التى كانت قد بدأت عام ١٨٨٠ أما المكان الذى وجده فحيث العمل المضنى الشاق أما المراكز العليا والأكثر تحقيقا للامتيازات فكانت مقصورة على

الرجل الأبيض ومع نشوب الحرب العالمية الأولى أصبحت هجرة السود وانتقالهم إلى الشمال مهمة فاستقر السود فى حى هارلم حى السود فى نيويورك وفى شيكاغو فى نطاق ما أطلق عليه «الحزام الأسود» وفي مدينة ديترويت كذلك وواكبت الأقلية السوداء الانطلاقة الاقتصادية الأمريكية واندمجت فيها بحيث نجد اليوم من السود بل الأثرياء الجدد ولديهم جامعاتهم وموسيقيوهم وشعراؤهم وكتابهم وكنائسهم أما المساواة الحقيقية فتتهرب أمامهم ويحدث كما يقول أندريه زيجفرن عام ١٩٥٦ أن مجرد رغبة منهجية من التفاعل قد تعطى الانطباع باستخلاص حل للمشكلة ويقع فى الخطأ عديد من الأوروبيين الزائرين، فالحقيقة أن التنافر الاجتماعى التقليدى مستمر سواء فى الشمال مع شئ من المظاهر تخفيف حدة التفرقة، أما فى الجنوب فنجد التنافر عمليا ولو بدون محاولات لتخفيف حدته وعلى هذا فسنجد فى الشرق ووسط الشرق عناصر من السود يمتزجون فعلا بحياة البيض وقد يحدث أن يتقبل رجل ملون متميز فيشارك فى مأدبة عشاء أو يدعى إلى اجتماع اجتماعى، ثم بدأت عناصر السلالة التى كانت حتى الأمس القريب مضطهدة فإذا هى تحتل مناصب إدارية مرمرقة دون تميز ومن ثم يسود الاعتقاد بقرب زوال أو - على الأقل - انخفاض مدة التمايز أو سقوط الحاجز الفاصل بصورة جادة .. ولكن ما أبعد هذا المثال! فالرجل الأسود فى الولايات المتحدة الأمريكية يشعر فعلا بأنه أمريكى وتأتى إلى جانب الشعور الرغبة فى أن يكون أو يصير أمريكيا لولا أنه بالنسبة إلى الرجل الأبيض يظل أمريكيا أسود وفى ذلك دليل على هذه التفرقة الحادة يبدو وكأنما تعد مشكلة اللون فى الأجناس عقبة كئود تتخطى فى الواقع أن مشكلة السود واقعة فى البطء اليائس الذى يحيط بها ويتعامل معها فإذا ما ألقيت نظرة عليها بدأت الأحكام المسبقة وانتشرت عوامل النفور وتزداد وحدة المعارضات واتخاذ المواقف بأكثر مما كان يحدث فى الماضى ويحدث اليوم على مدى أوسع: تمييز عنصرى ونزعات لنشية (منسوبة لقاضٍ أمريكى يدعى لنشن وكان يصدر أحكاما تعسفية ويعاقب بلا قانون) وبداية لظهور عداوات مستترة، وأحياناً سافرة من جانب الذين يبدونها نوعا من التعاويذ والشعوذة فتبدأ كل هذه التحركات والمشاعر فى الانطلاق وها

هى أحداث لتيل روك المدرسية التى وقفت خلالها الحكومة المركزية الفيدرالية مكتوفة الأيدى بل غلبت على أمرها حيث رفضت مدارس البيض بمساندة حاكم ولاية أركانساس قبول السود، رغم أن القانون الفيدرالى الحديث يرغمها على القبول وتكفى هذه الواقعة لكى نتساءل.. المستقبل إلى أين؟ وعلى أى حال فمهما اشتدت حدة هذا التميز العنصرى وما يثيره أحيانا من مشاعر متناقضة فإن المستقبل يقترب بخطى بطيئة حيث يظل الولاء السياسى للسلالة السوداء وصبرها المدهش يبشران بأن الحل سوف يكون حلا عادلاً سلميا. ولكى نختتم هذا الجزء من حديثنا فنتساءل: هل يمكننا اعتبار مشكلة السود نوعاً من سوء الحظ.. على مستوى أمريكا أو على مستوى أمريكا السوداء عامة.. هذه الأمريكا السوداء.. الودود.. الصابرة؟ والرد بالنفى .. لا بكل تأكيد مادامت النزعة الإنسانية فى الولايات المتحدة الأمريكية تواجه مشكلة واجبة الحل أو عقبة مطلوب تخطيها وتذليلها وعلى النتيجة يتوقف ارتفاع هذه النزعة الإنسانية أو الحكم عليها.. والأمل معقود على حسن تقدير وتقييم ما قدمته أفريقيا للولايات المتحدة وخاصة معطياتها الثقافية الأصيلة الخاصة التى امتزجت واندمجت فى كيان الحضارة الأمريكية وعلى الأخص موسيقاها، ويجب من جهة أخرى ألا يفوتنا أن نعرف أن هذه القارة الإفريقية وعناصرها السوداء فى الولايات المتحدة هى وعلى الصعيدين المادى والثقافى تعد اليوم ـ وبمقاييس هذا الزمان ـ متطورة بل وأكثر المجتمعات السوداء تطورا على مستوى العالم كله، فهى نشيطة جادة مجتهدة، اندمجت وتشابكت فى الحضارة الأمريكية، وعامل الوقت فى صالحها، فإذا لم تستطع الولايات المتحدة إيجاد حل لهذه المشكلة ولم تقم عملا وفعلا بإلغاء هذه التفرقة العنصرية البغيضة ـ وهى واحدة من أعتى المشاكل الداخلية التى تواجه الولايات المتحدة الأمريكية وتؤثر على حياة سكانها ـ فسوف تظل منابع القلاقل والضيق والإزعاج باقية ولا أحد يتمنى بقاءها ـ من صميم القلب ـ ويجب على الولايات المتحدة أن تتبنى لها الحل السعيد

رأسمالية من الاحتكارات
واحتكار الأقلية حتى تدخل الدولة

حظ أم سوء حظ.. سوف نتردد فى إصدار حكمنا على موضوع تاريخ الرأسمالية فى الولايات المتحدة الأمريكية، فبقدر ما خدم الحضارة أضرّ بها، كذلك هذه الحضارة التى تدين له ويدين لها وكان هو عنوانها الذى لا يمحى إذ كان المال وسيبقى فى مثل هذه البلاد الحرة الديمقراطية كما تود أن تبقى فإمبراطورية الأعمال واضحة المعالم ولا تعرض نفسها علانية فقط فى هذه المبانى الشاهقة العملاقة فى حى ما نهاتن بل كذلك فى هذه الرأسمالية التى تتمثل أحيانا مباراة حرة اكثر مما ينبغى فى إطار العرض والطلب بما أتاح انطلاقة لا مثيل لها فى العالم حيث تحاول كل دولة مهما كان نظامها السياسى تقليدها وبلوغ ما بغلته الولايات المتحدة الأمريكية وأخيراً المثالية الأمريكية التى لا تنكر حيويتها هى جزئيا الرد على هذه الماديات الكاسحة فى أرقامها وفى مستويات مبيعاتها.. تهرب ورد فعل سريع وهنا لم تكن الرأسمالية لتتحلى بنية سليمة ولم يكن هناك أكثر من ذلك تصاعد لمستويات ا لنزعات الإنسانية لدى الرأسمالية تحت إلحاح مجتمع براجماتيكى ووطأته (أى ذرائعى يرى صدق الآراء والأفكار فى قيمة عواقبها العملية فالحقيقة تعرف بنجاحها وهى فلسفة جيمس وشيلرويوى) مجتمع ليس ثوريا وذوثراء مفرط يصعب أن يميل إلى التدمير مثل أوروبا قبل عام

١٩١٤ أو قبل عام ١٨٤٨ ؟ ولقد قلنا إن الولايات المتحدة بلد زراعى فى المقام الأول حتى عام ١٨٨٠ثم تملكتها وقتئذ وبصورة فجائية من تلك الرغبات العنيفة لأحداث أغرب وأنجح حركات التغيير، وما أكثر ما اعتراهامن دهشة من نجاح حركة التصنيع نجاحا خارقا وفر لها الأموال الطائلة والقوى والنفوذ وأوروبا السنة التى كونت فيما بينها السوق المشتركة تماما ماذا يعنى تصاعد معدلات النمو المالى وبالتمام فى أوروبا هذه الأيام لنشاهد هذه الاندفاعة نحو الاشتراكية البراجماتية والشئ نفسه فى الولايات المتحدة الأمريكية حيث لم تكن الرأسمالية قادرة على متابعة مهامها وتحقيق أهدافها إلا بتأقلمهامع المجتمع ومضاعفة التنازلات، وإذا أمكننا القول بأنها أشركت الآخرين معها فى اقتسام التقدم والنجاح فقد تطورت إذن وتطورت كثيرا من الإحتكارات فى القرن التاسع عشر عند نهاية إلى هذه المؤسسات العملاقة المسيطرة وعددها اثنتان أو ثلاثة فرضت سيطرتها على السوق الداخلى، أى احتكار الأقلية.

ومن الواضح أن هذه الرأسمالية المتنامية (فى طريقها للنمو) سواء أمكن أحيانا وقف اندفاعها أو تحويل اتجاهاتها تبقى المحرك الأول والرئيسى للحياة المادية، وفوق ذلك حضارة الولايات المتحدة الأمريكية فبقدر ما تشكلت وتطورت بقدر ما أمكنها تطوير حضارة الولايات المتحدة الأمريكية بل وسياستها، وهنا تكمن جزئيا أصول الأزمة الراهنة المستمرة التى تعانى منهاالحضارة الأمريكية ويجب لكى ندرك معزى هذا التطور الرجوع إلى عصر الاحتكارات (الائتمان)

أى الوكيل المفوض أو المؤتمن وفى الإطار القانونى الشرعى فإن الترست (اصطلح على تسميته بالاحتكارات الكبرى) تجمع أصحاب أسهم وسندات من مختلف الشركات ينيبون وكلاءاً يفوضونهم لتمثيلهم وعلى ضوء ذلك تجتمع مجموعة المفوضين وهم يمثلون مختلف الشركات وليس لهم حق دمجهما أو ضمها حسب قوانينها. وهنا تبرز مسألة الالتفاف حول القانون إذ يعمد هؤلاء الوكلاء المفوضون أو بعضهم إلى تجميع الأنشطة المتقاربة والمتكاملة مستهدفين بالطبع إقامة احتكار على الرغم من أن مساحة أراضى الولايات المتحدة قد جعلت الأمر فى هذا الاتجاه صعباً وإن كان النجاح يصحب إحدى هذه العمليات فحقق جون روكفلر

١٨٣٩ ـ ١٩٣٧ إذا استطاع عام ١٨٧٠ تكوين شركة ستاندرد أويل في ولاية أوهايو فتمكنت حين رسخت أقدام هذه الشركة عام ١٨٧٩ من تجاوز الحدود الصارمة إذ استطاعت أن تضم إليها مجموعات من الشركات منها ما تهتم باستخراج البترول، ومنها ما يهتم بنقله، وأخرى بتكريره ثم تسويقه للبيع، وخاصة مع الخارج وسرعان ما اندمجت فيها صناعة السيارات البازغة فصارت هذه المؤسسة العملاقة يقينا نوعا من الإحتكار. وفي عام ١٨٩٧ ينسحب روكفلر من شركة ستاندرد أويل وينشئ مؤسسة للصلب مستفيداً من غياب رقابة ضريبية فيجمع أموالاً طائلة تمكن بها من إنشاء مشروعات خيرية وشراء مناجم حديد عند منطقة البحيرات العظمى ولم يكن شراءاً بالمعنى المفهوم بحق بل سداداً لديون زبائن معدمين على وشك الإفلاس، ثم يعمد بعد ذلك بزمن يسير وسلوك سرعة إلى بناء أسطول شحن لنقل الحديد الخام مستخدما خطوط الملاحة في البحيرات العظمى، ثم يتفق فيما بعد بالقوة ـ لا الإقناع ـ مع ملك الصلب اندرو كارنيجي (١٨٣٥-١٩١٩) سيد مصانع الفولاذ الكبرى وصاحبها في مدينة بتسبرج، ثم ظهرت على أثر تدخل المصرفي الكبير بيربونت مورجان وهذه المنشأة العملاقه محتكرة ٦٠٪ من إجمالي الإنتاج الأمريكي وقد وقع آخر فصول هذه القصة حين طرحت الأسهم في البورصة أن ضاعف بيربونت مورجان رأس المال، فكان ذلك نوعا من المضاربة يحث على الإرتفاع السريع لرقم الأعمال. كان هذا النوع من العمليات وغيرها مما يمكن عرضه هنا مثل صراعات شركات مد خطوط السكك الحديدية مظهرا من مظاهر توحش رأس المال دون تبكيت من خبير السياسة في عصر مكيا فيللي. وعموما فإن أحدا من أمثال روكفلر أو كارينجي أو كورجان لا يختلف كثيرا عن أمراء عصر النهضة ممن اتسموا بالحزم والتصميم والإرادة. وهذه الموجة من قفزات الأعمال الناجحة من أمثال الجرى وراء استخراج الذهب من كاليفورنيا عام ١٨٤٩ وخاصة عام ١٨٦٥ عشية استسلام الجنوب في أبوما توكس في حرب الامتيازات حتى بداية القرن العشرين فهؤلاء «الأمراء» ذوو القلوب القاسية أو السمحة أحيانا حسب الظروف كانوا وبعنف يرغبون في تحقيق أمريكيتهم فحطموا في سبيل تحقيق ذلك العقبات أو التفوا حولها أحيانا أو تخطوها

تسلقا أحيانا أخرى ودفعوا هنا وهناك ـ دون محاولة للاختفاء أو الاختفاء ـ رشاوى ضرورية، كتب أحدهم يقول: «إذا كان عليك أن تدفع لتحصل على حل مرض يصبح شرعا وإنصافا فلا تتردد إزاء من لديه السلطة فى وضع العراقيل والإساءة إساءة بالغة إلى المشروع ولا يمكنه السير مستقيماً إلا إذا تمكنت من شرائه ولو لتفادى ضياع الوقت سدى ليس غير، عندئذ يصبح واجبا عليك أن تتقدم إلى الأمام وشراء ذمة هذا القاضى فالغاية تبرر الوسيلة».. أليست كذلك؟ المهم كان هذا العصر زمن تحقيق الإنجازات الاقتصادية الكبرى.. من السكك الحديدية.. التدفق نحو كاليفورنيا بحثا عن ا لذهب وإعمار الغرب وورود بشر جدد وظهور طبقة العصاميين.. أعداء رأس المال البدء لا شعوريا ربما يضم ويجمع من هذه الفئة من رجال الأعمال فى صراعاتهم وسلوكياتهم وتعرضهم للتلوث وإثارة التلوث وإلحاقه بالآخرين وهم بالطبع لا يرون أنفسهم برؤية عيوننا نحن فهم فى مفاهيمهم مناضلون لا يطيلون المكوث طويلا إزاء ما يستخدمون من أساليب لا يهمهم سوى تحقيق الهدف الذى رسموه وخططوا لبلوغه.. تحقيق العظمة وإيجاد المسوغات للمال العام ولأشخاصهم وذواتهم فى الوقت نفسه.. ولما كانوا أفضل المناضلين عامة.. أفليس لهم.. انصافا.. الحق؟ ومن الخطأ القول أن كل المناضلين كانوا عصاميين وتفسير هذا العصر بعصرهم.. فنجاح أحدهم ونقصد به بير بونت مورجان كان، نجاحا مذهلا ولذا يجب وصف ما حققه بنجاح كاذب فلم يكن بعصامية مفهومة إذ لم يجد أمامه سوى السذاجة. وقد واجه هذا العصر موجة من الخوف والتخوف فى أوساط الرأى العام بل بين رجال الأعمال ذاتهم تجاه هذا المد الاحتكارى أو تلك الإجراءات التى تؤدى إلى توطيده، على أن الظاهرة التى سادت بعد عام ١٩٣٠ قد أدت إلى مضاعفة الاحتكارات. فبدأت تبزغ هنا وهناك كل الفطريات من عيش الغراب وكان عددها (٨٦) فى عام ١٨٨٧ إلى عام ١٨٩٧، ثم صار عددها من عام ١٨٩٨ حتى عام ١٩٠٠، (١٤٩)، ومنذ عام ١٩٠١ حتى ١٩٠٣ نشأ ١٢٧ احتكاراً حيث بدأ الصراع يشتد بين هذه الاحتكارات وكانت معركة الرئاسة عام ١٨٩٦ لصالح ماك كينلى ضد برايان بفضل تدخل الاحتكارات.

وإن مثل عدد معين من هذه الاحتكارات الطموحه فشلا ذاتيا كمشروع احتكار النقل البحرى التجارى الذى كان يحلم بتحقيقه بيربونت مورجان، ومع الأزمات المفاجئة القصيرة من ١٩٠٣ حتى ١٩٠٧ صار الرأى العام حساسا لدرجة أن حل الرئيس روزفلت عام ١٩٠٤ احتكار السكك الحديدية بين تصفيق الجماهير وأدت هذه الإجراءات إلى سن القانون الذى أطلق عليه قانون كلايتون عام ١٩١٤ ضد الاحتكار، وكان كلايتون هذا أحد أقطاب الحزب الديمقراطى وصديقا للرئيس ويلسون. وقد فسر بعض المراقبين هذا القانون بأنه ليس إلا ضربة سيف فى الماء وأنه بحثاً عن فضيلة غائبة فاشلة، لم يكن معقولا أن ينجح قانون فى وقت زحف حركة اقتصادية شاسعة وتقدمها، ويقول دانييل دى ليون الزعيم الاشتراكى: إن السلم الطويل الذى صعدت الإنسانية درجاته نحو الحضاره كان التقدم الذى لحق بظروف العمل ووسائله أحد أقوى عناصر الإنتاج. ويحتل تحسين هذه الظروف والاحتكار تباعا قمة السلم ومن حوله تتجمع عاصفة المجتمع المعاصر إذ تحاول الطبقة الوسطى كسره وهى بذلك توقف مسيرة الحضارة. وتحاول طبقة البروليتاريا الاحتفاظ به وصيانته وتحسينه وانفتاحه على الجميع فيصبح الأمر واضحاً: عدم المساس بما هو تقدم تقنى ويمثل فخر الولايات المتحدة الأمريكية، ولكن محاولة تعديل المسار نحو إنسانية البشر ليتخذوا دورهم فى المسيرة، مسيرة التقدم والأمر يحتاج إلى حكم من وزن الدولة وقوتها الفيديرالية لكبح جماح أى تجاوز من جانب الاحتكارات وينبع نشاط هذه الحكومة الفيدرالية وقوتها أساسا من اليونيون (أى اتحاد يضم جميع الولايات) وكان من الضرورى تقوية هذا الاتحاد ليفرض وجوده كجار مركزى (وجدت الاحتكارات فترة فى وجوده) حيث لم يعد أمامها سوى اللجوء إليه وحده كسلطة عليا بدلا من أن تشتت اتجاهاتها بين الولايات وتناقضاتها، واطمأنت رؤوس الأموال الضخمه والاحتكارات لهذا الأمر. كانت اليونيون سلطة عليا احترمتها حتى الأصوات المعارضة واحترمت قراراتها بكل ترحاب أو بدون ترحاب ولننظر كيف استقبل قرار الرئيس كيندى حين عارض رفع أسعار الصلب عام ١٩٦٢ فقد تقبل الجميع القرار.

واليوم نجد احتكار الأقلية - أى النقابات - ينشئ فى الولايات المتحدة الأمريكية ما قد نطلق عليه رأسمالية جديدة أو مجددة أمكن تطويعها لتساير مقتضيات القرن

العشرين وهى مختلفة تماما عن الرأسمالية التقليدية وليس من السهل فهم أو إدراك معنى هذه الرأسمالية الجديدة فهى تظهرأشكال وأنماط شتى والحضارة الأمريكية كلها إنما تعبر عن نفسها عبر نظامها وعبر شبكاتها الاجتماعية فكيف نعددكل هذه العناصر ومنها الاتجاه إلى نهج الأوتومشين (أى استخدام الآلات)، والمعجزات التى حققها والإنتاج المماثل للإغراق فى الأسواق المتجانسة والتوحيد النمطى للسلع تصاحبه حملات الدعاية الكاسحة المقتدرة ويكون زرع العلاقات العامه والعلاقات الإنسانية بعناصرها المدربة فى كل مواقع الإنتاج أشبه بالوزارات الداخلية والخارجية تستخدمها هذه المؤسسات والمنشآت لتبرير تصرفاتها واتجاهاتها الإنتاجية فى مواجهة الرأى العام وجماهير المستهلكين وفى مواجهة عمالها آخر الأمر، وهكذا تبرز آلاف من تفاصيل لها قيمتها. والمهم فى إطار هذا التنافس الاقتصادى الذى يتحكم فى الجميع إبراز القواعد والحدود ونجاح هذا النمط من أنماط التنافس الاقتصادى وهذه الحركة الإنتاجية، ولنلق نظرة على دور السوق بالأمس فى نطاق الاقتصاد الحر فى القرن التاسع عشر واحتكارات الأقلية والنقابات والحكومة الفيدرالية.

فالسوق الحر كان عند الاقتصاديين الليبراليين هو المنظم والموجه العادل لكل أركان الحياة الاقتصادية حيث يلزم كل واحد عن طريق المنافسة الشريفة مكانه وكل شئ موقعه والاقتصاد المثالى من وجهة نظر التقاليد والأعراف الرأسمالية والذى يلعب فيه التنافس أقصى أدواره دون احتكار وحيث لا تتدخل الدولة ويحفظ التوازن مبدأ العرض والطلب حيث تبدو البطالة والتضخم والأزمات ظواهر غير عادية يجب محاربتها، والبطالة ليست وليدة القرن العشرين فحسب.. ويذهب البعض إلى أبعد من ذلك باتهام ضغوط النقابات ـ ونكرر لتكتمل الصورة القديمة أن الإنتاج كان دائما عملا طيبا وكل عمل طيب يعجل بالتبادل حيث قانون المنافذ الذى عبر عنه جان باتيست منذ عام ١٨٠٣ إذ يتناول المنتجات مقابل منتجات أخرى أما السلع المصنعة فتعنى إضافة مبلغ نقدى إضافى إليها لمبادلتها. هكذا اتجه رأى الاقتصاديين الأحرار من آدم سميث إلى بنتهام إلى ريكاردو وإلى جان باتيست سيى إلى آرثر مارشال الأب.. وعلى الجملة يسوى كل شئ فى هذا

الإطار التنافسى للنشاط الاقتصادى ذاتيا بما فى ذلك الميل نحو التوفير أو الاستثمار. وفى الحقيقة كان يكفى لتنظيم هذا الاقتصاد فى حالة اختلاله التلاعب بمعدل الفائدة سواء برفعه أو تخفيضه بحكمة وروية، ثم كان أن ساد عند مرحلة معينة من مراحل التطور الرأسمالى تكذيب كل هذه القواعد القديمة المكررة.. كذبتها الوقائع.. وكذبتهاالاحتكارات أو الاحتكارات الخفية وأصبحت احتكارات الأقلية فى القرن العشرين القاعدة المهيمنة والمسيطرة على قطاعات شاسعة.. هى أكثرها تقدما على أى حال فهذه القواعد تزيد عناصر المنافسة الشريفة، وتتدخل الدولة ولنتذكر فى هذا الصدد ما حدث خارج الولايات المتحدة الأمريكية وكم من خطط خمسية.. وأخيرا بدأت الأزمات الطويلة تطل برأسها وتسفر عن وجهها منذ عام ١٩٢٩ كما ظهرت كذلك البطالة والتضخم كمظاهر مؤسفة بكل تأكيد إلا أنها كانت ظواهر طبيعية نتيجة النشاط الاقتصادى والحياة الاجتماعية ومن هنا برزت أهمية الثورة التى أحدثها عالم الاقتصاد الإنجليزى جون كينز (١٨٨٣ - ١٩٤٦) عام ١٩٣٦ ونظريته العامة وهى النظرية التى أدت إلى تصدع الاقتصاد الحر ونموذجه التنافسى التقليدى.. وتقبلت الولايات المتحدة الأمريكية هذه المبادئ الجديدة واعتبرتها بمنزلة القانون والقاعده من لدن رسل (أنبياء) الاقتصاد الجديد.. اقتصاد القرن العشرين واستنبطت منه فى أحيان كثيرة تحركاتها واتجاهاتها السياسية.

وثمة احتكار أقلية أو تنافس غير سليم أو احتكار ناقص حين يجاهد كبار البائعين لإرضاء حاجات مشترين عديدين وفى الحقيقةفإن الصراع المضاد للاحتكار لم ينته بالدمج العضوى والبيولوجى للمؤسسات ففى عدد كبير من الفروع لا فى الولايات المتحدة الأمريكية وحدها تحقق التجميع المركزى لصالح المؤسسات العملاقة وهكذا رأينا فى عام ١٩٣٩ فى إنتاج الألمنيوم شركة احتكارية واحدة استمر بقاؤها وهى شركة ألمنيوم الولايات المتحدة الأمريكية، وكانت هناك عادة بعض المؤسسات العملاقة تتفاهم هذا النوع أو ذاك فضلا عن ثلاث أو أربع لصناعة التبغ والسجائر، ومع ذلك وإلى جوار هذه المؤسسات العملاقة كانت هناك

مؤسسات صغيرة تعيش فى ظلالها.. مقدرلها يوما ما أن تختفى فلم تكن سوى بقايا مخلفات من إرث الأمس لا يستطيع الإرتباط بحركة تصنيع فى بدايتها والأخيرة وحدها هى التى تجذب إليها رؤوس الأموال والمجازفين مثل البترول فى زمن شباب روكفلر أو فورد فى مستهل صناعة السيارات فكم يحيط بها من صعاب، حيث تصعب التجربة وابعاد المؤسسة والتقدم التقنى والتمويل الذاتى.. كل ذلك بمنزلة مشاكل حيوية تستطيع المؤسسات المحظوظة فقط مواجهتها وحلها. وتوضح الاحصائيات أن زهاء مائتى مؤسسة كبرى تشرف على ما يقرب من نصف ثروات الولايات المتحدة الخرافى وهى مؤسسات لا ذاتية شركات مساهمة لحاملها أو تمتلكها طبقة العاملين فيها وفى هذه الإمبراطوريات نجد المكافآت الممنوحة للمسؤلين مثلها كمثل مرتبات الموظفين وأجورهم والعاملين، ضخمة إذا ما قورنت بمثيلاتها فى أوروبا إلا أنها مكافآت ومرتبات ثابتة أما الربح الحقيقى كما أوضح فورد يوما يعود إلى المشروع نفسه الذى وهو الحامى ويسمح بالزيادة وهكذا استقرت أوضاع هذا النوع من رأس المال الفريد ، أما تحكم هذه المؤسسات العملاقة فلم تستطع القوانين المضادة للاحتكار أن تفعل شيئا إزاءها كما رأينا فى عام ١٩٤٨ وتصرف الحكومة ضد شركات إنتاج سجاير شيستر فيلد.. كان الأمر فى حاجة إلى إعادة تشكيل إلى ثورة، ولم يكن أحد يفكر فى مثل هذه الحلول فالاحتكارات الإقليمة (أى السوق حيث يقوم بعض البائعين فى مواجهة عديد من المشترين) لم تتجزأ إلى منشآت ذات أبعاد صغيرة وصارت المراتب الشرفية العليا ملكا لدوقيات رؤساء مجالس إدارات، فاحتكارات الجنرال موتورز أوستاندرت أويل فى نيوجرسى أوديبون دى نيمور كتيميكال سوساتين أو شركة صلب الولايات المتحدة يونايتدستيل وتتبع هؤلاء الرؤساء ويجئ بعدهم أتباعهم من البارونات والفرسان.. إلخ كل حسب مستواه وما يمتلكه من أصول (مالية) فى مختلف منشآته.. وهى مستويات احتفظ بها لها ويستطيع أفراد الجيل الحاضر فى الولايات المتحدة اقتناء أو شراء ما يحتاج إليه من صلب أو نحاس أو أسلاك النحاس أو سيارات وإطاراتها أو شراء صابونته ومشروبه من الويسكى بل وتابوته (نعشه) من واحد وأكثر من هذه المحلات التى توفر كل هذه السلع.

ومن المؤكد أن لمثل هذه المؤسسات العملاقة مزاياها فهى تنظم وتوفر وتتابع على نحو باهر ورائع كل تقدم تقنى وتوفر وبأقل الأسعار المنتجات الممتازة وأكثرها عصرية حتى لمواجهة المستقبل ومتطلباته، ذلك لأن الولايات المتحدة الأمريكية ترتكز على دعائم رأس مال قديم ورأسمالية جديدة أى على بنيان مزدوج، على الزراعة إجمالا وعلى التصنيع وعلى المناجم، وكانت مؤسسات رأس المال القديم ذات أبعاد متوسطة زهيدة على المستوى الزراعى فنجد أحد أهم المنتجين يقدم للسوق تسعة آلاف بالة قطن ولقد كانت هذه الكمية كبيرة فى ذاتها فهى غير ذات تأثير بالنسبة إلى إجمالى الإنتاج أى لا تأثير لها على الأسعار. وهكذا كان حال سائر منتجى القطن ويحدث الشئ نفسه بالنسبة إلى الفرق الكبير بين مؤسسة بتروبول التى تضم شركات البترول الأمريكية وما حققته من نجاح مثير والمنتجات المتواضعة لستة آلاف من ورش الفحم لا زالت متمسكة بأساليب عملها القديم وعمال مناجمها البائسين ولولا تدخل الدولة لما دخلت فيها التقنيات الحديثة ولم تعد السوق تشغل بال المؤسسات العملاقة فهى تتحكم مسبقا وهى فى مجال إخلاصها لمبدأ المنافسة الشريفة لا تتدخل إلا بعد دراسة آثار القرار، قرار رفع السعر أو تخفيضه وأثره على سائر المؤسسات التى قد تتخذ موقفا مضرا بها. وهكذا عاشت مؤسسات صغيرة إلى جانب المؤسسات العملاقة بفضل هذا الارتفاع النسبى للأسعار وبفضل المبيعات. ومن هنا استبعدت حرب الأسعار ولم يعد هناك سوى الدعاية سلاحا لاقتصاد زاخر وفير. ويبدو أن المؤسسات العملاقه التى لم تعد تسيطر عليها المصارف قد زلزلت مقدراتها إثر أزمة ١٩٢٩ وتعرضت القدرة الاقتصادية للمنتجين للقدرة التعويضية للمشترين وعلى هذا فقد تتجه أرباح الاحتكارات إلى جانب أو إلى جانب آخر.. وفى كل جهة محتكر عملاق يتمثل فيه بائع كبير فى مواجهة عديد من المشترين أو مشترٍ مهم فى مواجهة عديد من البائعين أو فى حالة ثالثة.. عملاق فى كل جهة فإذا افترضنا مثلا أن تجار الصلب راودتهم نزوة دفعتهم إلى تحديد سعر تحكمى فمن الصعب فرض هذه الأسعار على جماعة كبرى هامة كأصحاب مصانع إنتاج السيارات فى ديترويت وبالطبع فإن واحدا من الأقلية المحتكرة قد يؤدى الدورين كليهما بائعا ومشتريا مستخدما فى كل منها أو فيهما معا قدرته الاقتصادية وقدرته التعويضية.

لكن النزاع غالبا يقع بين النشاطين فيكونان عادة منفلصين أحدهما عن الآخر.

أما النقابات فهى سوق العمل حيث تصاعدت التعويضات سافرة، فقد وجد عمالقة المحتكرين الصناعيين أرباب الصناعات أمامهم وفى قطاعات عملهم انبثاق النقابات الكبرى إذ تحاول هى كذلك الاستفادة من الاحتكار من حق تدخل المؤسسات الكبرى فى سوق الأسعار بحكم قدرة الأخيرة على رفع الأسعار والضغط عليها من ثم رفع مستويات الأجور وبهذا يتمكن العمال من تقاسم المنفعة والمزايا وليست كلمة مزايا مبالغة إذ أن بعض النقابات الأمريكية ما هى إلا مؤسسات ثرية تمتلك من المبانى العديد ومن رؤوس الأموال الضخمة الوفيرة ويدير شئونها وشئون أعضائها رئيس يعاونه رهط من الموظفين تدفع لهم مرتبات مرتفعة ولعل ذلك هو السبب فى بعد شبكة النقابات عن رؤوس الأموال حيث لا تستطيع امتصاص المزايا واقتسام الأرباح مثل نشاط القطاع الزراعى، وعموماً فإن العداء التقليدى بين المنتجين والنقابات يتخذ شكلاً خاصاً فى الولايات المتحدة اليوم شكلاً فريداً وأحياناً كثيرة يشبه جمعية يتحمل العبث فيها المستهلك ذلك أن عمالقة الصناعة سهلوا ومهدوا الطريق لبزوغ هؤلاء العمالقة الاجتماعيين وتلعب سلطتهم المعارضه دورها المنظم لضبط حركة الأجور والأسعار. ومع ذلك فإن هذا الدورالمنظم معرض لأخطاء كثيرة قد يستطيع حصرها فى ركن أو جعلها تنكمش. إن كل عامل من عوامل الضعف هذه.. يؤدى يقيناً فى دولة كل ما فيها عملاق إلى تداعيات وآثار عملاقة هى الأخرى. ويزداد دور الدولة من حيث هى أكبر منظم، ومكلفة بصفتها هذه مراعاة حسن سيرالآلة ومتابعتها ولا ينازع أحد منذ عام ١٩٢٩ فى حقها وضرورة تدخلها فى الوقت المناسب ذلك التدخل الضرورى اللازم فى مسار ليبرالية اقتصادية تقليدية. وعموما فإن التطور الاقتصادى فى الولايات المتحدة الأمريكية قد أجبر الدولة الفيديرالية على التدخل الحذر بشأن دور السلطة التعويضية ولم يعد تدخلها بلا روية مثلما أدت إليه الإجراءات المضادة للاحتكار بقانون كلايتون عام ١٩١٤ ولكن دور الدولة أصبح تحليل عناصر الحالة الاقتصادية وتوقع وسائل التنمية بفضل ما يتاح لهذا النشاط من إمكانيات تقنية عصرية وأن تكون مستعدة فى كل وقت للتدخل فى هذا القطاع أو

ذلك بهدف امتصاص البطالة أو إنعاش الإنتاج أو حجب أو التضخم أو منعه.. إلخ. وربما أدركنا كيف ولم كانت أهمية تعاظم دور الدولة الفيديرالية فبينما كان لدى هو فر ٣٧ مساعدا كان لدى الرئيس ترومان مجموعة من المعاونين يصل عددهم إلى ٣٢٥ معاونا مباشرا و ١٥٠٠ موظفا، وكان البيت الأبيض فيما مضى يكتفى بأعمال الرئاسة ومباشرة مهامها أما اليوم فهناك مبنى الجهاز التنفيذى حيث يضيق المبنى بالعديد من مكاتب السلطة بل السلطات وبدأت تتركز رويداً رويداً فى البيت الأبيض ويؤثر ثقلها على البلاد كلها «بيروقراطية مكتبية» هامة تضم جيشا من الفنيين المتخصصين الأكفاء تخلصوا من عدم الاستقرار القديم للنظم الفاسدة حيث كان الموظفون يتغيرون تبعا لنتائج كل انتخاب للرئاسة، ويمثل ثبات المستخدمين فى مواقعهم ووظائفهم وحده ثورة، فلقد أصبح الرئيس منذ اليوم يصدر تعليماته إلى مجموعة من الموظفين التنفيذيين الأكفاء المتخصصين وإلى هذه المنظومة الضخمة التى تقوم عليها اليوم الدولة الفيديرالية المكلفة بمباشرة المشاكل التى تحتاج إلى إجراءات حاسمة وتتجه على ضوئها مسيرات الاقتصاد يواجه هذا النظام اليوم مشاكل اجتماعية حادة.. فهل يتصور نظام اقتصادى ولو كان محدودا دون أن يواكبه نظام اجتماعى موجه هو الآخر؟ فإن الدولة منذ اللحظة التى تتحمل فيها مسئولية معينة فى تحديد النشاط الاقتصادى تصبح مسئولة عن الظلم الاجتماعى إذ لا تستطيع تجاهل هؤلاء الأمريكيين الذين لا يضمهم تنظيم ويتعلقون بأذيال النقابات وهم عملياً خارجها شأن هذه الجموع من الأذلاء ممن لا يتمتعون بأى حق من الحقوق وهم جماعة يقدر عددها بمليونى بائس.. هل هم فى حاجة إلى أدنى حد من الأجور؟ هل هم فى حاجة إلى نظام تأمين اجتماعى على النمط الأوروبى؟ وهكذا تحتاج إلى تدخل الدولة. مشكلة اجتماعية ورسم سياسة علاج فى أوج اقتصاد زاخر حقق رخاءاً ملحوظا وواجه وحده مشاكل عديدة ووُجد الحلول لها.. صحيح كانت مشاكل قديمة إلا أنها أثارت مشاكل أخرى جديدة بعضها ملح عاجل يحتاج إلى علاج سريع، والمشكلة على كل حال تمثل عبئا لعله يحتاج إلى مسيرة الحضارة الأمريكية بعنف انفرادى وها هى المشكلة اليوم ترنو بأبصار بائسيها إلى قدرة رجل فذ.. قادم يهيب بتدخل الدولة لتنتظيم مجتمع.. يتفر كل أفراده من مجرد فكرة تدخل الدولة.. نفوراً

تلقائيا.. ولكن هل تستطيع الدولة اليوم التهرب من هذا الواجب الملح، لنذكر لكى نوضح هذه الصعوبات وهذه الضرورة انطباعات الرعايا الروس ممن لجأ إلى الاحتماء بالولايات المتحدة الأمريكية عقب الحرب العالمية الثانية إذ يحاورهم أحد علماء الاجتماع عن انطباعاتهم وعما إذا كانوا يحسون فعلا بارتفاع مستوى معيشتهم المادى فنجدهم يجمعون على التحسر على المعاونات الطبية المجانية التى كانوا يتمتعون بها فى النظام السوفيتى الحاكم ويتحرون كذلك على المساواة.. مساواة الجميع فى مواجهة المرض حتى أن فرنسيا يكتشف هو الآخر قيمة ما كان يتمتع به من نظام الأمن الاجتماعى الذى لم تمنحه بعد الولايات المتحدة لمواطنيها حتى على الرغم من ثرائها، ولا يبدو أنها قادرة على تقديم البديل أو المعادل. ويحدث أن يصيب المرض أحد أساتذة إحدى كبريات الجامعات الأمريكية.. مرض لاشفاء منه فوجئ به، ولم يعد قادرا على ممارسة وظيفتة فما مصيره..نسمع من يقول إنه هو الذى أهمل التأمين على حياته.. وها هو اليوم.. ملقى فى الشارع مع زوجته وأولاده.

وقد بدأ الرأى العام يدرك ضرورة التصدى بجدية لعلاج المشكلة على الرغم مما تكتبه الصحافة الداخلية ولم تعد الدولة تنظر إلى الأموال التى تقتطعها كأنها عقاب غير عادل ينزل بالأقوياء.. المهرة منتجو الثراء.. لصالح غير القادرين أو الكسالى.. حيث تبدو الحكومة كمحسناً.. أساسياً.. فى حالات الضرورة.

وتعدل هذه التغيرات أكثر فأكثر وتقلل من دور وسلطات المقاطعات تلك الجمهوريات المستقلة بالأمس بل وهى تبدو كذلك قادرة على تغيير عميق من كيانات المجتمع والحضارة الأمريكية وبدأت الولايات المتحدة تعيد إمعان النظر فى واجباتها ودورها ومسئولياتها تجاه العالم.. كأمة من أممه..

الولايات المتحدة فى مواجهة العالم

خرجت الولايات المتحدة بعد فترة انعزالية طويلة لتلتقى بالعالم ذلك العالم الجديد إنما هو من وجهة نظر الولايات المتحدة عالم تكثر فيه المنازعات وكان يرغب حقا فى الابتعاد عنه وعن مشاكله وحروبه غير أن الولايات المتحدة كانت على الرغم منها كمن يزداد ارتباطا بالدنيا يوما بعد يوم.. عالم أصبح كونا صغيرا يثير أى حدث فى بقعة منه ردود أفعال فى سائر الدنيا. ولا يمكن القول إلى أى مدى كان انعزال أمريكا عن الدنيا وتقوقعها فى قارتها بين المحيطين الأطلنطى والهادى. ومن المؤكد أن نزعة الانعزال هذه قد بدأت منذ الساعات الأولى للاستقلال حيث أرادت أن يكون لها عالمها «الجديد» عالم مختلف تماما من عالم أوروبا وأفضل منه بعد ثورة على الأهل القدماء وربما تولدت نزعة الانعزال كما يقول علماء التحليل النفسى من تداعيات ماض ذاتى مستقل ... حر... بنى فى مجال فسيح القارة الأمريكية وما أتاحه هذا الماضى من أمان وتأمين وكانت الولايات المتحدة حرة فى ألاتهتم بغير ما كان يجرى فوق أراضيها والاحتفاظ برخائها ورفع ما نسبه حائط الصين، ولذلك فرضت القيود الجمركية كحواجز عازلة يقيها عداءات الجيران وتكبير بيتها باستغلال مساحاته الشاسعة البدائية وتنميتها دون ما شعور بالندم أو الخجل إذ كان كل توسع فى أراضيها توسعاً أشبه

بالغزوات الإقليمية.. امتداداً عمرانياً لكياناتها وغير شبيهة بهذه الغزوات البحرية الفظيعة التى اقترفها المستعمرون الأوروبيون فى القرن التاسع عشر وغيره ولم تشعر الولايات المتحدة بأى ارتباط غير رباط الجيرة مع سائر بلاد القارة الأمريكية وقد عبرت عن هذا التضامن مع الجيران مفاهيم «مذهب مونرو» عام ١٨٢٣ بما نادى به من أن أمريكا للأمريكيين. وتؤكد الرسالة التى وجهها رئيس الولايات المتحدة فضلا عن النداء بعدم اهتمام الولايات المتحدة بمشاكل أوروبا وصراعاتها وكان كثير من هذه المفاهيم التى نادى بها مونرو تعود إلى السطح ويعود التأكيد والإصرار على نهجها.. ومع ذلك فمن الصعب إن لم يكن مستحيلا أن تتمكن أمريكا من تجاهل الدنيا أو نسيانها هكذا ببساطه فقد كانت هناك التجارة والواردات والصادرات والعلاقات الدبلوماسية، ويجئ عام ١٨٩٨ بتلك الاندفاعة الشرسة نحو أراضى بورتوريكو واحتلالها حتى اليوم، ثم الاندقاعة نحو كوبا التى لا وجود لهم فيها اليوم، ثم الانطلاقه البعيدة نحو الفيلبين والتى لم يخرجوا منها عمليا رغم الاستقلال الممنوح لشبه الجزيرة الأرجنتينية. ومن جهة أخرى كانت الدنيا تجئ إلى الولايات المتحدة فى شكل هؤلاء المهاجرين أو المهجرين من أوروبا ومن اليابان ومن الصين وكان هذا الزحف اليها أمرا طبيعيا وخطيرا فى الوقت نفسه حتى أقفلت الولايات المتحدة حدودها وأبوابها من عام ١٩٢١ حتى ١٩٢٤ فى مواجهة الموجات الخارجية الوافدة. وليس هنا من حدث أشد فظاعة وبؤسا من الأعوام التى تلت الحرب العالمية الأولى بالنسبة إلى أوروبا واقتضى الأمر وفرضت الظروف إلغاء صمام الأمن.

وفى عام ١٩١٨ بعد أ ن ساهمت الولايات المتحدة الامريكية فى الحرب العالمية الأولى وكان لها الدور الحاسم فى هذه الحرب قررت الانسحاب من حلبة السياسة الدولية العملية فور الانتهاء من معاهدة فرساى وعصبة الأمم، وبدأت الولايات المتحدة تتخلى وتهمل العالم الذى كان يرزخ تحت أقدام إنجلترا وكانت وقتئذ أقداما واهية متعبه بعد عصر استعمار ذهبى زال أو كان فى طريقه إلى الزوال وذلك بعد أن كانت انجلترا قد شيدت إمبرا طوريتها الشاسعة بفضل غزوات بحرية تاريخية، وجاءت الحرب وتركت المستعمرات فى أماكنها. وكان السبب فى

التدخل الأمريكي في الحرب جوهريا هو حماية التفوق الدولي الذي كانت تتمتع به إنجلترا مع صيانة مستقبل الحضارة الأنجلو ساكسونية.. أي حضارة الولايات المتحدة نفسها، وفي مواجهة الرئيس وودرو ويلسون الذي لم يكن راغباً في نزعة الانطواء والتراجع حيال فشله. فهل يمكننا الحديث هنا أنه في المقابل كان هناك نجاح واضح حققه فرانكن ديلانو روزفلت في مؤتمر يلتا (بين تسالين وتشرشل وروزفلت) وفي طهران وفي الرباط، في اجتماعات القمة تلك التي سبقت وفاة روزفلت وكذا قبل الحرب العالمية الثانية.. كل هذه الأحداث كانت بسبب ما نجم عنها من تعهدات وارتباطات ربطت بين دول العالم وانفكاك بعض ما كان قائما منها.. عالم يؤرقه مجرد تخيل المستقبل. والسؤال الذي نطرحه هنا ألم يتنازل روزفلت طواعية بأكثر مما ينبغي خضوعا للضرورات الملحة وابتعادا عن مبادئ نادى بها وودرو ويلسون مؤيدا مبدأ تحرير الإمبراطوريات الاستعمارية السابقة وذلك تمشيا مع مبادئ الولايات المتحدة الأمريكية وتقاليدها، غير أنه في الوقت نفسه قد عرض للخطر قوة الغرب وبالتالي عرض بلاده نفسها لاحتمال مواجهة أمريكا اللاتينية وبلادها التي تعتمد على الولايات المتحدة اعتمادا كاملا شبه ما يكون باستعمار الولايات المتحدة الأمريكية لهذه البلاد المجاورة لها ثم إهداء مصائر نصف دول أوروبا للسوفييت وذلك ما كان عنوانا على هذا الحق «المقدس» حق الشعوب في تقرير مصيرها، ولكن روزفلت كان يؤمن بأن سلام الكون إنما يتطلب وقف موجة غليان الشعوب المقهورة.. جميع الشعوب ما عدا الأربعة الكبار وقتئذ: الصين، والاتحاد السوفيتي، وإنجلترا، والولايات المتحدة الأمريكية.. كانت هذه هي آمال روزفلت ولعله لم يكن خاليا من الانعزالية إذا ما كان الاهتمام بمشاكل العالم ضرورياً هكذا بحيث يسوده الهدوء!!

ولعل هذه الآراء وتلك النظرة للأمور عند روزفلت عادة أمريكية أو لنعترف أنها وجهة نظر كما يراها غير الأمريكيين خصوصا الغرب والغربيين وهذه الظواهر خارج العالم الجديد ترى أن الولايات المتحدة تتقدم لا شعوريا بل وبدون أن ترغب قيادة بلاد الدنيا، ونعتقد أن المشكلة بسيطة ومسألة رشاد عقل، ومسألة استعداء، وأن المشاكل تقع بسبب أنانية العالم القديم وتعصبه وأطماعه ومع ذلك

فقد أغضب كثير من مبادرات الولايات المتحدة الكثيرين وهناك ما أفلت من أيديهم ففقدوا السيطرة على الأحداث فأثبتت هذه النتائج بلا غموض أن المعونات والمبادئ لا تكفيان للأخذ بيد العالم، ذلك أن الهيمنة بالتجارة والمال الشرعيان من وجهة النظر الأمريكية التقليدية توقظ اليوم كثيرا من الشكوك تلك التى أثارتها موجة استعمار الشعوب وتكاد تشبهها، أما الأمريكيون فيعتقدرن أن فشلهم إنما يعود إلى العقوق ونكران الجميل وحسد الشعوب التى ساعدوها أو أرادوا مساعدتها، ثم بدأت الولايات المتحدة الأمريكية تتدرب وتستعد وتتخذ المواقف كسائر بلاد الدنيا.. التى تجاهلتها كثيرا.. بلاد الدنيا التى يقع على أكتافها اليوم الإشراف عليها وقيادتها حتى بالقدر الذى يحقق لها أمنها الذاتى. وهم يأخذون بناصية هذه المهام بكل جدية وهاهم يعترفون بأخطاء معينة ارتكبوها تمشيا مع تقليد أمريكى خصب لطيف.. الإيمان بما تعمل والاعتراف طواعية بالأخطاء دون غرور، وتشغل بالهم النتائج ذات الفاعلية فتراهم ينشغلون عندئذ ويقلق راحتهم تلمس أسرع الوسائل لتصحيح المسار وتعديل التصويب للوصول إلى الهدف

وهكذا استطاع الرئيس كيندى أن يجمع حوله خيرة المثقفين والمتخصصين فى الاقتصاد والسياسة للقيام بدراسات متعمقة للقضايا والمشاكل كافة وقد عبر أحد الصحفيين فى ٢١ مايو ١٩٦٢ عن ذلك بقوله: إن الرئيس كيندى بعد أن جمع هذه العقول وهذه الكفاءات وهذه الأدمغة حوله وأشرف على أعمالها تحققت له نتيجة لهذا الاتجاه الرائع حصيلة زاخرة وتوليفة فائقه الأهمية من الآراء والمسارات التى تحدد خطواته (ولذلك أسرعوا باغتياله) [مسكين كيندى إذ اغتالوه لأن صرح بأن الوقت قد حان لكبح جماح الاحتكارات فقتله اليهود الصهاينة والمضحك المبكى لم يعثر على القاتل الحقيقى ولم يسأل أحد لم كان الاغتيال؟ وها نحن نذكره للتاريخ فأغلب هذه الاحتكارات فى أيدى وأموال اليهود الصهاينه أياله العالم بالأمس واليوم وإلى أن تقوم الساعة.

إلا أن هناك مناطق لا زال يكتنفها الظلال هنا وهناك والخيارات متوفرة. والمهم أن الخط الذى رسمه لتحركاته طريق واضح فتتضح للمرة الأولى نيات رئيس أمريكى بهذا الوضوح.. منذ زمن بعيد ولنرى نتائج الإسراع فى دعوة

أساتذة جامعة هارفار للمساهمة فى تحديد رؤى السياسة الأمريكية وخطوطها خلال السنوات العصيبة المأساوية منذ مشروع مارشال حتى الحرب الكورية وأزمة برلين الحالية والنزاع مع كوبا ولاوس ،وهنا أدركت الولايات المتحدة الأمريكية أبعاد دورها ومسئولياتها.. وهكذا ولت سياسة الانعزال وانقضت أيامها.. وكما أن القوة تفرض التزاماتها فإن عليها فى الوقت نفسه أن تتحسب خطواتها وتبعاتها، ذلك أن إنبثاق دور الولايات المتحدة على الصعيد الدولى ومركزها على القمة مما قد يساهم كثيراً فى تأخرها الذاتى أو وقف نموها على الأقل وفى فقدان ما حققته حتى الآن من تقدم ونمو مذهلين ونراها اليوم تجدد كل قواها الاقتصادية والسياسية والعلمية والعسكرية للقيام بدورها على قمة العالم وقد اتضحت فى الواقع معالم هذه القوة بعد انتصار عام ١٩٤٥ بعد إلقاء قنبلة هيروشيما وبرزت فور ذلك مشكلة قيادة العالم الأوروبى ثم العالم كله.. وكان العالم قبل ذلك موزعا بين معسكرين عدائيين وفق ما تأتى به المخاطر سواء من جانب هذه الأمة أو تلك من أمم التفوق واليوم يعيش العالم وفق القاعدة القديمة أو وفق التعبير الذى أطلقه ريمون آرون ثنائى القطب فليست أيديولوجيات وحدها هى التى تفصل بين العالم الحر والعالم الاشتراكى اللذين تتصاعد أعداد كل منهما مع مرور السنين، ونجد أن العالم الاشتراكى، قد بدأ ينظم نفسه وينشئ هو الآخر تلك الوحدات الصناعية العملاقة وإذا بلدان العالم الحر تجد نفسها فريسة الرغبة فى تحقيق نوع من الاشتراكية تراها ضرورية. إن الزعامة اليوم تفرض نوعا من الاختيار بين واشنطون أو موسكو، وما دول الحياد فى العالم الثالث إلا كواكب فى فلك العمالقة.. مجرد مشاهدين على مسرح الأحداث الجارية وأن هذا النقل البسيط الذى يتيحه انضمامهم إلى هذا المعسكر أو ذاك، ولذا استوجبت الظروف أحيانا استمالتهم أو اجتذابهم والاحتفاظ بهم بقدر ما، وربما بسطت السيطرة عليهم. وفى عام ١٩٤٥ على أثر ما ساد الدنيا من عوامل الخوف إثر إلقاء القنابل الذرية الأولى على هيروشيما ونجازاكى ١٢ يوليو ١٩٥٣ وكان مع نجاح السوفييت فى صنع قنبلتهم الهيدروجينية أن ساد التوازن بين المعسكرين، ثم كان عام ١٩٥٧ مع انطلاق أول قمر صناعى (سبوتنيك) أن حقق السوفيت نقطة فى المباراة.. نقطة حاسمة كما حفل السباق

الرهيب في صنع الصواريخ عابرة القارات إلى مدى عشرة آلاف كيلو متر، وكلما تقدمت علوم الأسلحة اشتد بين المعسكرين أوار الحرب الباردة التى يتأجج لهيبها من تخوف كل من المعسكر الآخر على ملأ من سائر دول العالم وشعوبها وهي تتابع فصول هذه المسرحية فينتابها الذعر والهلع مما ترى عيونها مفتوحة عن آخرها وأيديها فارغة، وحيث يختلف صراع العملاقين عن صراع الدول الأوروبية بالأمس في الدنيا القديمة ويتخذ أبعادا مخيفة توشك أن تغرق في أتونها دول الكون كله. ومن الواضح أن هذا الصراع يستند بفكر الولايات المتحدة فلا يؤثر في سياساتها فحسب بل تمتد آثاره وتداعياته إلى كل مظاهر حياة سكان الولايات المتحدة الأمريكية بل وعلى أفكارها، ولذلك كان عام القنبلة الهيدروجينية الروسية نقطة تحول جوهرى في التاريخ الأمريكى كما كان عام ١٩٢٩ لأسباب وظروف مغايرة وإن لم تكن أقل حسما فقد بدأ هذا القلق يشعل القلوب والأخيلة والنفوس ويغذيها بروح التحدى والرغبة في اللحاق بل والتفوق وساد جو الحرب أو الخوف منها والاحتياط لها وها هي ظاهرة المكارثية تطفو على السطح فتلاشت الآمال في عالم يسوده التعاون والتضامن الدولى بسبب هذه الحمى المعادية للنفوس وسعادة البشر فكل معسكر يفكر في عناد في سياق هذه الحرب التى سميت بالحرب الباردة وهي أبعد ما تكون عن البرودة ويجب كي تكتمل الصورة أن نقتحم المجال الأدبى وخاصة الشعر ثم المسرح والسينما فضلا عن الفن مع الاحتفاظ بمكان مرموق للعمارة والعلوم.. علوم الإنسان وعلوم الطبيعة وقد أقحم تفتح الذهن الأمريكى خبراء الاقتصاد من جامعة هارفارد أو جامعة شيكاغو واتهمهم كما اتهم فنانى البلاد إذ وضع كل هؤلاء في قفص الإتهام مع أشكال التقنيات ومستحدثات الصناعة الأمريكية واتخذ فقط الرواية التى لاقت رواجا كبيرا منذ قرابة العشرين عاما وكان لها تأثيرا كبيرا على الأدب الأوروبى والأدب العالمى كما أثار لنا تطورها من جهة أخرى منذ بداية القرن من الأزمة التى نحن بصدد الحديث عنها فقد اكتشفت أوروبا الأدب الأمريكى في عام ١٩٢٠ ـ ١٩٢٥ ولكن شهرته إنما راجت منذ نهاية الحرب العالمية الثانية فبدأ حملة نقد لترجمات هذا الأدب قادها كتاب من أمثال، مالرو وبافيز، واستقبل الأدب الأمريكى بترحاب شديد في

فرنسا كما استقبل فى كل من إنجلترا وإيطاليا وألمانيا بما أطلق عليه عصر الرواية الأمريكية .. ويمكننا أن نتحدث كذلك عن نزعة «أمركة» سادت الموسيقى ممكن متابعة آثارها فى موجة رقص الجاز وموسيقاها وتقليد النمط الأمريكى حتى فى الأزياء وفن الكارتون وخاصة تلك الرسوم الهزلية المضحكة التى تمثلها أفضل تمثيل جريدة النيويوركر الأسبوعية. أما ما تضمنته القصة الروائية الأدبية الأمريكية هذه القدرة الفذة على الحكاية المروية مختلفة اختلافا شاملا عن النموذج الأوروبى فى قصص التحليل النفسى وقد قيل عن (التحقيق الصحفى) الموضوعى أن الأسلوب العارى المجرد إذ يتوق إلى أن يعرض لا .. ولا ينتقد ولكى يدخل القارئ فى عالم الشخصية العقلى تعرض عليه الأحاسيس والمشاعر التى تتملك هذه الشخصية فجأة وبعنف دون محاولة لترجمة معانيها. ذلك هو أسلوب السينما التى لا يحتاج نفوذها إلى برهان فالرواية الأدبية الأمريكية تتميز بهذا النوع من التقنية وهذا الكلم من العنف والوحشية أى أنها نمط أدبى مصنوع بشكل معين، وكانت القصص فى السينما من نوع الأخبار الساخنة والأحداث البوليسية العنيفة .. أدب فظ مضطرم .. محموم هائج دون أى قدر من الرقة أو اللطف، أدب تبادل كلمات قد تثير إعجاب النظارة على الرغم من العنف وقد يكون بسبب هذا العنف وفق الأذواق والأمزجة وربما استطعنا أن نتذوق فيه شيئا صحياً شيئاً حيوياً قوياً لا شبيه له فى أدب آخر حالياً ولعله كما يقول الأدباء الأمريكيون أنفسهم أدب طبيعى نشأ فيما بين الحربين. ومن أكثر أدباء القصص الأمريكية همنجواى وفولكنر وشتا ينبك ودوس باسوس، وعموما فإن هؤلاء الأدباء سواء منهم الحى أو من توفى قد ولدوا فيما بين ١٨٩٠ و١٩٠٥ أى أنهم ذرية مختلفة عن تلك التى تسود الولايات المتحدة اليوم وهم يبتعدون أكثر فأكثر عما سمى بالأدب الطبيعى وها هم اليوم منذ الحرب العالمية الثانية يعودون إلى نبع التقاليد القديمة الأصيلة التى يجهلها المجتمع الأوروبى كثيرا من أمثال كتاب القرن التاسع عشر وأدبائه ميلفيل ٨١٩ـ ١٨٩١ ، وهوثورن ١٨٠٤ ـ ١٨٦٤ ، وهنرى جيمس ١٨٤٣ ـ١٩١٦ . أما ما يهمنا نحن فهو الحركة العامة وما قد تكشف عنه من الحضارة الأمريكية فليس للكاتب فى الولايات المتحدة الأمريكية مكانه الطبيعى المحترم فى المجتمع

حيث لا يقوم الأديب بالمعنى الأوروبى، فالكاتب الأمريكى دائما فرد منعزل يعيش على هامش الحياة وقد يتوه غالبا فى ثنايا مصير مأساوى بعد تحقيق نجاح موجز بسيط وليس هناك فصل ثان كما قال الأديب فيتزجرالد ١٨٩٦ - ١٩٤٠ وهو يعنى التعبير ويعنى أمثاله والذين يقدرون أن يحققوا النجاح وبتعبير أفضل فإن الكاتب الأمريكى كائن اجتماعى لا يكتفى بالتعبير عن تمرده وضيقه من العالم الذى يحيط به ولكنه يمارس تجربة هذا التمرد ويدفع ثمنها كل يوم من الكرب والحسر النفسى والعزلة التامة (الوحدة) ويجلو تطور القصة الأدبية الأمريكية والتوترات الاجتماعية الداخلية بقوة:

وفى القرن التاسع عشر آثارت مؤلفات ميلفيل وهوثورن هذه النزعة نحو الفضيلة التى تحدث عنها كالفين ولكن على النمط الأمريكى وتمثلت آراء كالفين بالنسبة إلى الكتاب الأمريكيين نوعا من الصراع القلق المأساوى بين الخير والشر فمنهم من يعرى المجتمع الذى يعيش فيه فيرد لهم المجتمع بدوره الصفعة مضاعفة. ثم تقوم فى مستهل القرن العشرين موجه عارمة من تصلب مذهب البيوريتان مبدأ الطهر (وهو مذهب جماعة بروتستانتيية فى إنجلترا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر طالب بالتمسك بأهداب الفضيلة) منذ نهاية القرن التاسع عشر ولم تعد البيوريتانية رمزا على مساوئ المجتمع، وهكذا بدأت موجة القصص والروايات على نمط زولا ذات الميول والنزعات الاشتراكية (أى مقاربة للاشتراكية) وواكبت امتداد القوة الأمريكية وتصاعدها بعد عام ١٨٨٠ وصار المجتمع منذ ذلك الوقت حتى الحرب العالمية الثانية مجتمعاً صناعياً رأسمالياً وأصبحت الحياة الأمريكية المستقبلية هدف أنصار معاداة الامتثالية المفضل وقد ألف الكاتب سنكلير لويس روايته الشهيرة بابيت عام ١٩٢٢ صورة كاريكاتيريه ساخرة ذات نزعة انتقامية تشفيا من رجال الأعمال الأمريكيين نفوا أنفسهم طواعية ليعيشوا فى باريس فيما بين الحربين من أمثال: همنجواى ومترچيرالد ودوس باسوس وفاريل ومبللر وكاترين آن مورتر وهم السلالة المفقودة الضائعة، كما أطلقت عليها جيرترودستاين رئيسة هذه المجموعة وكان صالونها الأدبى فى باريس مكانا لمن يعيشون من الأمريكيين فى الخارج ولكل أفراد هذه الذرية من

المثقفين اليساريين الذين فضحوا وعروا محاكمة ساكو وفانزيتى وأعدامه (عام ١٩٢٧) وحكم بهذه المناسبة على الكاتب دوس باسوس بالسجن.. كانت تثيرهم أحداث ووقائع الحرب الأسبانية (وهنا نتذكر رواية همنجواى الشهيرة لمن تدق الأجراس) وعدوانيات موسوليني وتناقضات مبدأ وما أثاره من جدل.. فى أمر هؤلاء الذين رأوا فى الاشتراكية أملا يرجى لخلاص المجتمع المعاصر.. غير أن حرب ١٩٤٠ وتوابعها وبدايات الحرب الباردة ضربت بهذا الأمل عرض الحائط وبدأ الروائيون الأمريكيون يكتشفون معنى التضامن ومغزاه بالنسبة لبلادهم أولاً ثم يدركون ألا فائدة ترجى من الحلم المركسى وابتعد الشباب الأمريكى عن الواقع الاجتماعى ومالوا إلى الرواية أو الرمز والشعر والفن للفن وعبر عن هذا الاتجاه هنرى جيمس وميلفيل وهذا الأخير من الجيل الضائع خاصة وقد توفى فى شرخ شبابه... فهل يغير ذلك زوال التمرد من قلوب الكتاب الأمريكيين وربما صدقنا ذلك ولو فترة هذه العودة الجامحة نحو القومية التى تلت الحرب وظهور جيل من الأدباء والكتاب الجامعيين أى هؤلاء الذين استقريهم المقام فى إطار من الأمن والذين اتسقوا طواعية مع حضارتهم الخاصة الحقيقية. غير أن فى زمن ما بعد الحرب نشأ كذلك جيل وهم جماعة من شباب المثقفين يقاطعون صيغ المجتمع المحيط بهم مقاطعة تامة وأساليبه، شأن كبار السن مع أقرانهم من الجيل الضائع ولكن برنين ذو صدى مختلف.. إلى رجال أعوام الـ ٢٥ أو الـ ٣٠ ممن كانوا يؤمنون بمستقبل الاشتراكية وخلفوا الذين لم يعودوا يؤمنون فى مواجهة القلق بغير الإحتماء بالفن وشرب الكحوليات والعقاقير المخدرة فقد كان الإيقاع الأساسى بالنسبة إليهم الانعزالية التواصلية (عدم القدرة على التواصل) فى عالم مجرد من كل معنى، ومع ذلك تظل الولايات المتحدة على تقدمها على مسار العصرية فهى بلاد المستقبل وهى بذلك على الأقل ضمان للأمل عنوانا على حيويتها وعلى مصادر ثرواتها المتعددة وسوف يدفعها ذلك كله ولاشك لتسترد أو لتعثر من جديد على تفاؤلها السابق وثقتها فى ذاتها ويقول كلودرول فى مؤلفه «مفاتيح لأمريكا» إن أمريكا إحدى أراضى الكون حيث تظل على الرغم من كل شئ معقلاً لتأكيد قدرات الإنسان ويظل المرء على يقين فى ظهور رجل جديد قد يولد أكثر إيمانا

بقـدراته وأكثـر حكمـة وسعـادة.. من الجـائر والممكن السخـرية من الثـلاجـات والفيتامينات شوائب الآلات.. إلا أنه ليس ميسوراً أبداً السخرية من إنسان أمريكى فيتنامى فى داخله فن الحياة وسرعة الخضوع لقدرات البشر التى آمنت يوما بحتمية مسئوليتها عما حاق به من نكبات.

الفصل الرابع

عبر العالم الإنجليزى ..

عبر العالم الإنجليزى

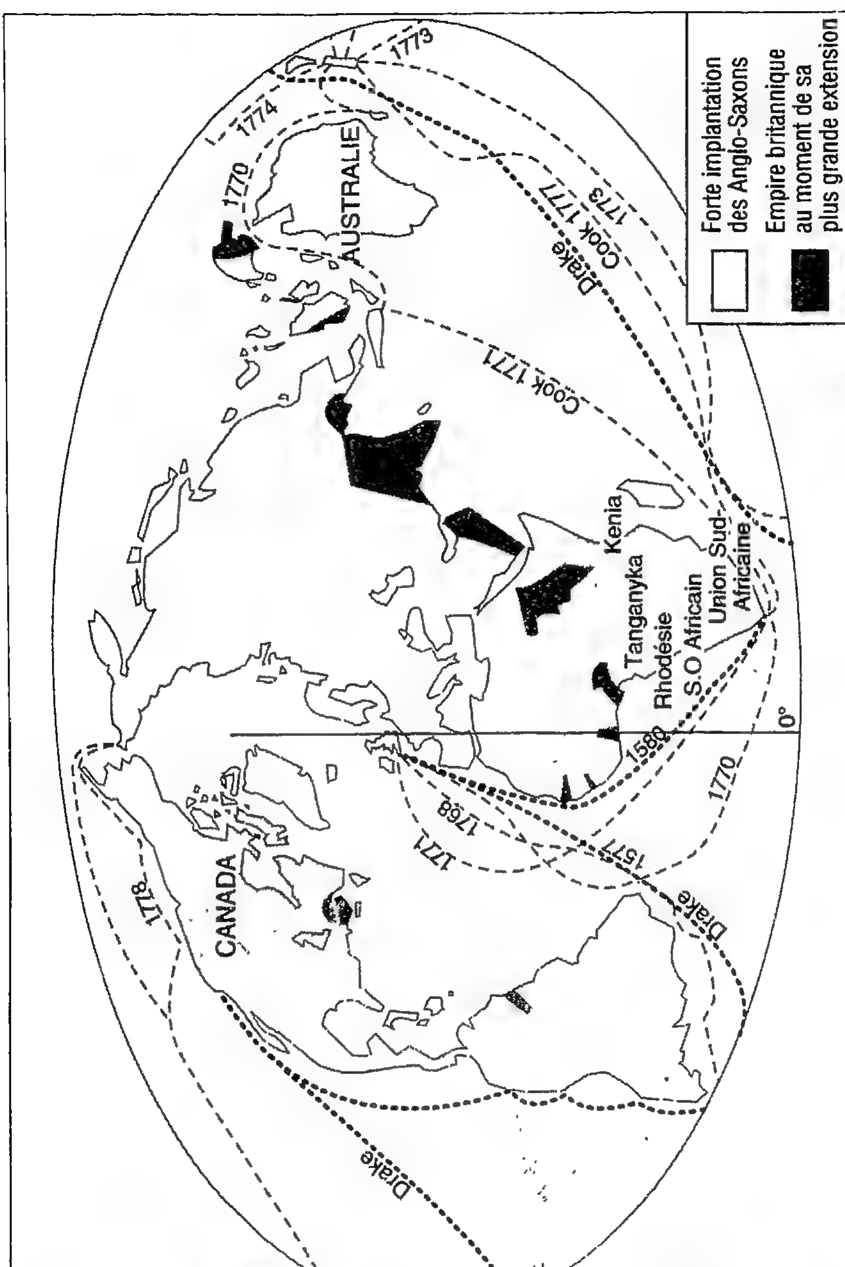
كانت لندن منذ القرن الثامن عشر حتى ١٩١٤ على الأقل مركز الدنيا بحيث تثير اليوم زيارة قصيرة للمدينة معالم هذه العظمة كقصر بكنجهام وقصر جيمس وداوينج ستريت وبورصة المال وأحواض السفن فى منعرجات نهر التايمز.. كل هذه الشواهد تظل عنوانا على ما كانت عليه الأحوال فيما مضى من زمان بعيد بعيد جدا فى البحار، وقد وزع الشاعر الشهير ديارو كبيلنج حياته بين الهند ومنزل فى أفريقيا الجنوبية ومزرعة كندية ومصر فكان على حق فى قوله: إن المرء لا يستطيع فهم إنجلترا إلا من بعيد.. على هذه الحواف الإمبراطورية والحربية وخاصة من أراضى الهند لعلنا لهذا السبب نجد صديقا له من الفرنسيين أبرق إليه حين وصل من الجزائر بقوله: قررت أخيراً فهم فرنسا. ومن إنجلترا الإمبراطورية إلى فرنسا الإمبراطورية لم تعد هناك بقايا تذكر سوى القليل مما كان، إلا أن فكرة الإمبراطورية تمنح الإنجليز قوة خاصة فهى هذه الأفكار والمفاهيم والميول الإمبراطورية بأكثر مما لدينا نحن الفرنسيين، تظل لها انعكاساتها السياسية حتى اليوم، ومن ثم نفهم السمة المأساوية التى واجهتها إنجلترا إذ فرض عليها الاختيار بين السوق الأوروبية المشتركة أو الكومنويلث، فاختيار السوق يعنى الانضمام إلى أوروبا التى عاشت دائما منعزلة عنها فى جلال وأبهة ويعنى كذلك التخلى عن أبعادها القديمة العالمية التى صنعت عزها ومجدها وواحداً من أقوى تقاليدها.

فرنسا وإنجلترا فى كندا

فقدت إنجلترا أمريكا ولكنها احتفظت بكندا بل وأنجزت اكتمالها من الإطلنطى حتى الهادى ويرجع ذلك إلى عام ١٧٥٩ وهزيمة مونتكالم[١] وموته على أسوار كويبك عام ١٧٨٢ إذ وصلت الطلائع الإنجليزية إلى مناطق الإنتاريو والمقاطعات البحرية التى يقطنها إنجليز وأمريكيين من الموالين والمخلصين لملك إنجلترا بعد استقلال المستعمرات الثائرة فيما بين عامى ١٨٥٥ و ١٨٨٥ وتنامت مظاهرالإزدهار فى الولايات البحرية التى يسكنها الإنجليز حين بدأت سفنهم الشراعية وبحارتها ينافسون بحارة الولايات المتحدة فى مياه الأطلسى عام ١٨٦٧ ثم أنشئ بعد تبدلات وتحولات الدومنيون (أى الدول المرتبطة بالتاج البريطانى) الكندى من أونتاريو وكويبك واسكتلندا الجديدة وكذلك انضمت بزنسويك الجديدة إلى الدومنسون عام ١٨٧٠ ثم مقاطعة مانيتوبا عام ١٨٧١ وكولومبيا البريطانية، وفى عام ١٨٧٣ انضمت جزيرة البرنس أدوارد (سابع مقاطعة) وقد أتاح إنشاء سكك حديد كناديان باسيفيك الفرصة لاستعمار المروج مع استبعاد الملونين من الكنديين من جذور فرنسية وهندية وكانت من حركة تعمير هذه المستعمرات بسكان غرباء شواذ الجذور كما حدث فى الغرب الأمريكى أن أنشأت مقاطعتا البرتا

---

(١) جنرال فرنسى قاتل بفخر دفاعاً عن كندا ضد الانجليز وقتل أثناء دفاعه عن مدينة كويبك.



العالم الإنجليزى

أستطيان

١ - انجلو ساكسون
احتلو مناطق

٢ - بريطانيون
اثناء امتداد
امبراطورية بريطانيا

وشاكاتشيوان (١٩٠٧) وحتى الأرض الجديدة، ثم صارتا معا بعد استفتاء عام ١٩٤٨ الشريك العاشر. وتمثل اليوكندا الفرنسية ثلث سكان الدولة وأغلبهم متمركزون فى مقاطعة كوبيك ويسيطرون على ضواحى كندا الشرقية ومصب النهر الأسفل والمتوسط من وادى سانت لورانس

ولئن كان الموقع محاصرا فهو يتمتع بجذور عميقة، فالسكان الفرنسيون من نسل ٦٠ ألف فلاح من الغرب منتشرون بين سانت لورانس والمسيسبى حيث أخضعوا لبنود معاهدة باريس عام ١٨٧٣ وتمكنها من التمسك بمقاطعة كوبيك وتمركزت فيها جذورهم بشكل قوى، على أن الكندى الفرنسى فلاح لامزارع أجير مثل قرينه الإنجليزى الذى لم يترك نفسه فريسة إغراء الغرب وندائه وقد كانت هجرته إلى المدن بطيئة فلم تستطع المصانع التى نشأت فى نيويورك جذبه إليها ولا كذلك مصانع ديترويت فهم من سلالة ذات حيوية... بسيطة سعيدة... أما كندا البريطانية فقد نشأت فى اتجاه الغرب مقتحمة مواقع الفرنسيين بمغامرات عنيفة إلى نحو قلب القارة (منتصفها) ويمكن القول بأن الإنجليز أحرزوا قدراً من نجاح فى حصارهم مقاطعة كوبيك التى بدت كشبه جزيرة معزوله غير أن كندا الفرنسية اضطرت للرضوخ وتشبثت بأراضيها وظلت فى الواقع قابعة فى رسوخ قوتها مخلصة لعقائدها الدينية الإكليرومسية حتى بعد ١٧٦٣ حيث أنقذتها هذه العقائد الدينية كما أن إخلاصها ووفاءها امتد إلى اللغة الفرنسية لغة سكانها وكان ذلك من الأسس الرئيسية التى عملت على حفظ كيانها خلال القرن الثامن عشر وتبدو اليوم مجتمعا وحضارة منطوية على نفسها فى المقام الأول مجتمع من الفلاحين ثم من المحافظين بعد ذلك يباشرهم رجال دين أقوياء ساعدوا الأهالى على الحفاظ على تقاليدهم ونشر ثقافاتهم التقليدية. وكانت القطيعة مع فرنسا عام ١٧٦٣ بمنزلة جرح ظل ينزف لما بعد ـ ذلك إهمالا غير مسوغ ولا مستساغ ـ ثم طفقت كندا بعد ذلك تفقد الاتصال بالبلد العجوز القديم أى فرنسا.. فرنسا الأمس وفرنسا اليوم. ذلك أن فرنسا الأم تطورت منذ القرن الثامن عشر إذ عرفت وعاصرت وعايشت الثورة والتحول من الملكية إلى الجمهورية العلمانية أى (فصل الدين من الدولة) ومع ذلك لازالت تمسك وتتمسك بشعلة الكاثوليكية التى لا تخبو.. وهى مقدمة خط الدفاع الثورى على طريقتها، وقد قيل أحياناً كثيرة أن

كندا الفرنسية لم تدرك مغزى هذه الأحداث الجديدة فهى تثير دهشتها وتدير ظهرها لها ومع ذلك فهى كذلك تتطور قائمة أصولها وجذورها الكاثوليكية وسكانها الفلاحين كما تتضح بالضرورة على حتمية التقدم العصرى والتقنى وعلوم الإنسان المتطورة ولا شك أن هذا الانفتاح انفتاح واثق الخطى تدفعه روح مقاومه شديدة صلبة عنيدة فى مواجهة كندا الأخرى.. الإنجليزية التى تأمركت ذلك أن الكنديين من جذور إنجليزية يمثلون ٤٨ ٪ من عدد السكان وكلهم يعيشون ويمارسون حياتهم على النمط الأمريكى وهو نمط يمس قطاعات من سكان كندا الفرنسية وهم فعلا.. هناك أمريكا أخرى مختلفة حيث يظهر هذا النموذج الأمريكى واضحاً فى مدينة تورنتو أهم مدنهم حيث تتجه شطر الجنوب نحو الولايات المتحدة الأمريكية وهذا النموذج الأمريكى كاسح نراه فى أشكال المبانى والمنازل والشقق ومحتوياتها من الأثاث وتتشابه المطابخ كما تتشابه وسائل التعليم بين الأطفال خصوصا الذين يتركون مبكرا يتصرفون على هواهم فتنتشر (البوى فريند) و(الجيرل فريند) انتشارا سريعا وذلك كله لقربهم من أراضى الولايات المتحدة الأمريكية جارتهم فإذا العادات تكاد تتقارب وتتماذج كذلك موجة الحريات وذلك فضلا عما نجد من نمط الأنشطة التجارية على الأسلوب الأمريكى.. أسلوب قوى ونشط ختصار فتلك هى الكندا بعد انفصالها عن الأم الإنجليزية البعيدة حيث قدم السكان من جذور وبلاد مختلفة خارجية عن البلاد الأنجلو ساكسونية وحيث نجد أن الجيل الأخير من الوافدين المهاجرين ومن قد نجدهم حول أونتاريو يخضعون كذلك للإغراءات.. وأخيراً فإن ما يصون استقلال كندا إنما هو حصيلة هذه المشاعر الداخلية وهى قبل كل شئ عوامل التوتر المستتر بين الأنجلو ساكسون والكنديين من جذور الذى حققته هذه الانطلاقة الاقتصادية فى تخفيف حدة التوترات تلك، والحق أن كندا التى تعد قوة كبرى على المستوى الدولى وعدد سكانها الـ ١٨ مليون فإن نسبة تكاثرها يقترب من ٢٨ ٪ أى ٩ مليون كيلو متر مربع أى ١٦ مرة مساحة فرنسا وفيها اقتصاد نام يستند على دعائم من موارد طبيعية هائلة ومتعددة مع احتياطى ضخم من كهرباء من مساقط المياه وتنشأ فى كل موقع صناعة هامة على الأسلوب الأمريكى مع الرقابة الشديدة على الأشكال

الاقتصادية القديمة التى أثبتت التجارب كفاءتها كاستغلال الغابات ونقل أخشابها نهرياً.. ونجد هذه الأنهار والقنوات خاصة بجذوع الأشجار. ونضيف هنا فنقول إن كندا أمة مستقلة وليست التبعية للتاج البريطانى سوى ارتباط نظرى مجرد حيث يمثل الحاكم هذا التاج بسلطات وهمية خادعة فضلاً عن أن هذا الحاكم يجب أن يكون كندياً. ولا تلغى هذه الحقائق السياسية والاقتصادية أسباب التوتر الذى يفصل بين الكنديين ويعزل كندا الفرنسية هذه المشاعر المفعمة بالتوتر أردنا أم لم نرد قائمة ماثلة منتشرة على الرغم من أن استغلال المصارف وشيكات الفنادق والمحلات الإنجليزية للأنشطة التجارية وهو ما نلاحظه بوضوح فى مدينة مونتريال أكبر المدن الفرنسية بعد باريس وإن كانت اللغةالإنجليزية فيها هى لغة الأعمال والتجارة، وعلى أى حال فليست مشاعر الألم لدى كندا الفقيرة أى كندا الفرنسية فى مواجهة كندا الثرية الإنجليزية من الأهمية الأسياسية فى ظل معارضة هى قبل أى شئ بمنزله رفض حضارة لأخرى ومن حقنا أن ندهش إذ نلاحظ أن كندا بجوار الولايات المتحدة الأمريكية أوضح مثل على التماثل السريع الكامل الذى لم يتوقف مند قرنين من الزمان فتضاعفوا من ٦٠ ألف فرنسى عند البداية إلى ١٠٠ ضعف حتى على الرغم من أبعادهم عن غزو الغرب من جانب الإنجليز الذين ساهموا دون أن يدروا فى توثيق عرى الروابط التقليدية بين مجموع الفلاحين الأصليين الرافضين لأى تداخل من الخارج فيما بينهم على أن اليوم بعامه كالأمس إذ تزداد التصعدات بين الجماعتين اتساعا وعمقا. والسؤال هل تتقارب فى عصر يشجع المطالب الوطنية الجماعتان فى وحدة سياسية أو شكل سياسى واحد.. ربما.. غير أن ذلك سوف يكون حتما موضوعا آخر فالبعض يتحدث عن الاستقلال بل ويحددون تواريخ منها ١٩٦٤ و١٩٦٧ كما أن هناك تحالف لورنتى (مرتفعات على الحدود الشرقية لكندا) وهو تحالف وطنى فى الظاهر وإن كان المظهر الأساسى هو حركة التربية الوطنية، ويقول أحد أنصار هذا التحالف: لسنا حركة جماهير فإن فرنسا فى الواقع كندية قائمة عنيدة مصممة على البقاء والصمود ولكن فى هذا العالم العملاق.. عالم أمريكا هل لدى ستة ملايين القدرة على تنظيم شئونهم بشكل معقول فى إطار من وحدة سياسية واقتصادية حقيقية مستقلة؟ هنا أساساً تكمن المشكلة.

أفريقيا الجنوبية
الهولندية الإنجليزية السوداء

كانت أهمية أفريقيا الجنوبية بالأمس محطة الرسو البحرى القديم فى طريق الهند للسفن الشراعية الإنجليزية، ففى عام ١٨١٥ فرض الإنجليز أنفسهم فرضاً على الهولنديين الذين على مدى قرن من الزمان يحتلون هذه البلاد منذ عام ١٦٥٢ ، كما فرض الإنجليز أنفسهم على الكنديين من أصل فرنسى، فوقعت أحداث هياج ضد الإنجليز، قامت الحرب التى أطلق عليها حرب البوير (١٨٩٩ ـ ١٩٠٢) وتعرضت إثر ذلك أفريقيا التى استعمرها البيض لنزاعات عنيفة ومشاحنات داخلية تدخل فيها الزعيم الهندى المشهور غاندى وكان يؤمئذ محامياً، كما تعرضت فى الوقت نفسه لحركة ضخمة من نزوح غير شرعى للسود فكان أن بدأت المأساة، أما العاصفة فقد كانت للأيام القادمة. وكانت الحدود فى جنوب أفريقيا قائمة منذ بداية الاستعمار الحذر الذى أتى إليها منذ أول اتصال بين بيض يصحبهم عبيد من الملونين وبعض القبائل أمثال البوشمين شطر صحراء كالهارى أو من الجنوب من قبائل البانتوى وكان أغلبهم من رعاة الأغنام مستعدين لمبادلة أغنامهم مقابل الحديد والنحاس والتبغ وغيرها من سلع زهيدة الثمن وامتدت هذه الحدود وابتعدت عن اللسان ولم يتوقف امتدادها وابتعادها عن اللسان عبر أراضى جافة شبه خالية ولم تكن قبائل الكافر (سلالة السود من جنوب أفريقيا) تهدد أهل مستعمرة البيض

الصغيرة رغم سرقة المواشى وغارات قبائل الهمج الخطيرة ولم تتوغل هذه المستعمرة من البيض فى اتجاه الناتال وإقليم الترانسفال والأورانج إلا بعد (حركة هجرة المستوطنين الهولنديين عند وصول المستعمرين الإنجليز) عام ١٨٣٦ ولم تكن لموجة الهجرة هذه من الأهمية ماتذكر، وسنجد من تحليل الدافع المحرك أكثر مما تتيحه مدينة الرأس ذاتها (الكاب) (رأس الرجاء الصالح) وهو السماح لكل سفن الشحن بتفريغ ما عليها وخاصة المؤن والمواد الغذائية ونزول بحارتها للراحة وإدخال المرضى منهم إلى المستشفيات وخاصة المصابين بمرض الحفر (مرض يفسد الدم).

ونظراً لتواضع عائد إنتاج القمح (كان الأفضل منه فى الهند وسورات أو فى البنغال)، أما الرأسة فكان ردئياً ذا شهرة سيئة جداً فبدأوا يبيعون المواشى التى تحقق زرباحا من لحومها فقرروا بيعها مذبوحة على الرغم مما كانت هذه المواشى تبديه من مقاومة عنيفة عند الذبح سواء من البقر أو الجاموس أو الخراف وكانت تربية المواشى لا تتكلف كثيراً وعائدها مربحاً جداً، وذلك فضلاً عن أن المسافات لم تكن بذات تأثير (كالقمح أو النبيذ) إذ كانت المواشى تأتى وحدها حتى الميناء. وامتد نشاط مربى الأغنام نحو الداخل حيث توغلوا فيه منذ القرن الثامن عشر حتى القرن التاسع عشر وكانت الحركة تخمد أو تنشط وفق وصول السفن للرسو، وجاءت الحرب بين فرنسا وإنجلترا فسنحت الفرصة الرائعة لازدهار التجارة والأعمال ورواجها وكانت لمظاهر هذا الازدهار كذلك أسبابه السياسية ففى عام ١٨١٥ وضعت إنجلترا يدها على جنوب أفريقيا ثم أصدرت حكومة الكاب الإنجليزية عام ١٨٢٨ المرسوم رقم ١٥ المشهور الذى ساوى أمام القانون بين البيض والملونين هذا بالإضافة إلى ما وقع عام ١٨٤٣ من إلغاء نظام العبيد من الإمبراطورية الإنجليزية (فى عام ١٨٢٨ كان العدد ٥٥ ألفاً من البيض يقابلهم ٣٢ ألفاً من العبيد و ٣٢ ألفا من السود الأحرار) وكانت هذه الإجراءات بالإضافة إلى غارة الكافر (السود فى جنوب أفريقيا) علة ما قام بعد عامين من حركة كبرى قادت البوير (الفلاحين) إلى الهضاب الخاصة بالأعشاب فى الأورانج والترانسفال حيث استقروا فى ولايات مستقله اعترفت بها إنجلترا عام ١٨٥٢ و

١٨٥٤ وكانت إنجلترا قبل ذلك بعشر سنوات قد ضمت بكل بساطة إقليم الناتال مع الامتداد الواسع الذى بدأ بحركة هجرة المستوطنين الهولنديين عند وصول الانجليز. وكان هذا الامتداد والتوسع أضخم أحداث أفريقيا الأفارقة (الافريكانرز) وهوأشبة بغزو الغرب فى تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية ومصيرها، وقد أدى هذا التوسع والامتداد الجغرافى إلى تشتيت السكان البيض وأثارت فرص نشوب النزاع مع السكان السود خاصة القبائل المتآلقة.. قبائل الزولو الذين كانوا يتقدمون منتشرين نحو الجنوب ولم يكن متاحاً وقف زحفهم قبل عام ١٨٧٩ ولم تكن إنجلترا قد قبلت صراحة استقلال جمهورية البوير على الرغم من اعترافها عام ١٨٨٤ بما تسبب فى نشوب حرب البوير. وقد نشب نزاع آخر بسبب اكتشاف مناجم الذهب والماس فى مقاطعة ويتووترستاند حيث قام سيسيل رودس حاكم الكاب وممثل الإمبريالية البريطانية وكان فى الوقت نفسه ممثلا لمصالح شركات المناجم ومؤسس البوير إذ أسرع بتطويق الجمهوريتين وإقامة شركات لها حق الامتياز فى بتسوانا لاند وروديسيا فأثار بذلك حفيظة من كانوا يتهافتون من الأجانب على أعمال المناجم ونشبت غارة الدكتور جيمسون وكانت أشبه بالقرصنة عام ١٨٩٥ لولا أن الحرب المفتوحة لم تقع إلا عام ١٨٩٩ وكانت كارثة للقوات الإنجليزية ولم تتحول لصالحهم إلا بفضل إقامة معسكرت الإعتقال بعد نضال طويل ضد شراسة رجال حرب العصابات العنيدين وبعد ثمانى سنوات من الاستلام وضم المقاطعتين فى ٣١ مايو. وفى ١٩٠٢ نشأ دومنيون وحدة جنوب أفريقيا.. التى تواجه اليوم أقسى محنتها.. محنة التمييز العنصرى.

إذ بدأت منذ الحرب العالمية الثانية فى أفريقيا الجنوبية حركة تنمية وانطلاقة تصنيع ضخمة كما واكبتها انطلاقة للمدن الحضرية الحديثة غير أن هذه الانطلاقة فى التنمية لم تؤد إلا إلى زيادة نزاعات البشر التى تهدد البلاد فاليوم نجد المستعمرين من أصول هولندية.

ومن حيل الكلفتيين من سلالات اللاجئين الفرنسيين ممن وصلوا إلى الكاب فى القرن السابع عشر هم فى الأغلب فلاحون يملكون مزارع شاسعة ٧٥٦ (هكتار) فى المتوسط حيث النحله ضعيفة بسبب الأحوال المناخية وضعف الأراضى الزراعية

حيث الصالح لزراعة عامة من مساحة الدولة لا يجاوز ٤ ٪، واليوم تظهر ضرورة التحول من زراعة خفيفة إلى زراعة كثيفة (أى استغلال مزرعة صغيرة برأس مال كبير للحصول على غلال كبيرة) ولتقليل عدد الأيدى العاملة الموسمية ممن يتكدسون فى المخيمات كأقرانهم عمال مناجم الذهب وعمال الصناعة، فالأمر يحتاج إلى ميكنة عصرية قصوى بالإضافة إلى استخدام الأسمدة والكف عن أساليب الزراعة الواحدة (أى الاكتفاء بزراعة واحدة) فلم تعد تصلح أوتدر عائداً مجزياً كما يحتاج إلى استحداث أسلوب الدورة الزراعية (أسلوب تعاقب الزروع أو الزراعات) والمزج بين الزراعة وتربية المواشى مع وضع حد للتربية البدائية، وقد احتاج ذلك كله إلى وقت وقروض واستثمارات ثم إلى مصادر استغلال قوية على مواجهة الأعباء الضخمة. ولازال هؤلاء الملاك القساة ذوو الكروش المنتفخة وتطغى عليهم أحياناً عوامل العنف الشديد يحلمون حنيناً إلى الأيام الخوالى مثل وصول الإنجليز حيث كان كل شئ يسير فى هدوء وحولهم العبيد الأرقاء الطيعون ليئوا العريكة الصامتون فقد ولدوا ليخدموا وليستخدموا وكلهم من سلالات البوير يتحدثون اللغة الأفريكانية النابعة من أصول هولندية، ويعارضون الإنجليز ولعلهم يضاهونهم فى العدد إلا أنهم يسكنون المدن وهم الذين أنعشوا حركة التصنيع التى يجنى الجميع ثمارها.

وقد حاول الإنجليز والأمريكان حتى عام ١٩٣٩ التعايش فى وئام فى مواجهة المشاكل التى تثيرها سلالات الملونين وهى مشاكل مخيفة وإن كان التفاهم السياسى قد انقطع إثر نجاح دكتور مالان منذ قريب لنزعاته القومية المتعصبة كاشفا عن اتجاهاته فى أفرقة الإنجليز وإرساء قواعد سياسية عنصرية تهدف إلى الفصل التام بين السلالات خاصة تجاه السود الأرتايد.

وفى عام ١٩٦١ خرجت جنوب أفريقيا من الكومنويلث الإنجليزى رافضة الاشتراك فى سياستها العنصرية الخطرة التى أثارت فى كل أنحاء العالم رفضا وإنكارا عاماً وعنيفاً ولا شك أن هذه السياسة العنصرية يائسة فقد جاء انطلاق السكان والازدهار الاقتصادى ليزيدا من مأساوية الاتجاه العنصرى بما تدل عليه أرقام الإحصائيات فقد كان عدد السكان عام ١٩٦٢ ١٥ مليون نسمة منهم عشرة

ملايين من السود وثلاثة ملايين أوروبى ومليون ونصف من الملونين (غير الشرعيين) ٥٪ من الآسيوين، فالبيض إذن يمثلون ٢٠٪ من مجموع السكان ولا تكاد الكتل البشرية تزايدها تحترم هذه النسبة فيما يمثل ميزة واهية يتمتع بها البيض، وكانت سياسة البعض تجاه السود وذوى البشرة الصفراء المتمركزين فى الناتال تتسم بالأنانية كما أقامت الإجراءات القانونية التى اتخذت بشأن هذه القضية ما يشبه جسر دائم الرأب كثيراً ما يتصدع، وإن استهدفت هذه القوانين نوعاً من التوازن... وكان الهدف إبعاد السود بل والصفر عن بعض المناطق ومنعهم من التملك والإبقاء عليهم فى المناطق الأهليه واحتواءهم بزعم حمايتهم. ومن جهة أخرى فإن زراعة أراضى البيض فى حاجة إلى أيدى عاملة كما تحتاج إليها حركة التصنيع المزدهرة فى أوجها بما صممت عليه هياكلها للإنتاج المكثف. فما بالنا والأيدى العاملة فيها غير مؤهلة وغير مدربة يما يؤول بنا إلى التساؤل ضد من هذه السياسة الرعناء سياسة التميز العنصرى؟ إنها ليست إلا غزوة من غزوات الرجل الأبيض حيث السود أكثر عدداً من البيض فى مدن مثل أوريان أوجوهانزيرج ومع ذلك فأجورهم أقل من أجور البيض ١٧ إلى ٤٠٪. وفى سبيل وقف المد الزاخر القادم من مواطن الأهالى تحاول جذب أفريقيا أولاً: تحسين إنتاجية الزراعة الأهلية بنشر نوع محدد من التعليم المتخصص، وثانيا: تصنيع هذه المواقع أوحدودها المباشرة لامتصاص بطالتها، إلا أن المشكلة أثمرت عن تداعيات اقتصادية جديدة أوقفت مسيرة هذه السياسة، وها هى صناعات البيض تحرم من الأيدى العاملة الرخيصة أجرها مما يثير فى وجه هذه الصناعة منافسة رهيبة، وترتبط كذلك مشكلة المواقع المقصورة على إقامة السود بمصير المحميات الإنجليزية فى سوازيلاند وبتشواناالاند وباسوتولاند أما انضمامها إلى وحدة الكومنويلث المتوقع عام ١٩١٠ فلم تتم بعد فصولا ذلك أن مواقف كل من جنوب أفريقيا وإنجلترا لم تؤد إلا إلى تفاقم النزاع، وبإيجاز وبأكثر من وجهة نظر فإن الاتحاد إنما هو تقاطع طرق وسط ثورة إصلاح زراعى وثورة صناعية عليها مواجهة ثورة أخرى.. ثورة اجتماعية هذه المرة ليس ذلك فحسب بل ثورة عنصرية فهى عموما لم تستطع رسم هذه الحضارات المختلفة بعضها ببعض سواء الأوروبية منها أو المحلية. ولا يبدو الحل علمى فيرى النظر بعد.

أستراليا ونيوزيلاندا
وأخيراً.. إنجلترا وحدها

نجحت إنجلترا لتصبح وحدها ثلاث مرات... فى الولايات المتحدة الأمريكية فى بدايتها على الأقل، وكان نجاحها فى أستراليا وفى نيوزيلندا من موقع لآخر، وكان الإنفراد الإنجليزى مثمرا إلى أقصاه، ففى هذين البلدين كانت إنجلترا متجانسة ممتلئة بالآمال والحيوية فلم يكن هناك ما كان عليه الأمر فى كندا بشعبيها ولا فى أفريقيا بمآسيه وصراعاته... وإنما كانت هناك إنجلترا وحدها فى أقصى البحار عن الوطن فى موقعين جغرافيين هما أكثر المواقع إنجليزية من بين كافة المواقع الأخرى ويجب أخيرا ألا ننسى أن نيوزيلاندا مثلها كمثل استراليا موقعان حديثان وعضوان جديدان فى الكومنويلث الدومينيون، فلقد كانتا على أعتاب حياتيهما على النمط الأوروبى الدولى (أستراليا منذ ١٧٨٨ ونيوزيلندا من ١٨٤٠)، وكانت بداية كل منهما متواضعة إذ كان فى أستراليا عدد الأوروبيين فى ١٨١٩ إثنى عشر ألفا، وفى ١٨٢١ وصل العدد ٣٧ ألفا، أما فى نيوزيلندا، إذا ما تغاضينا عن فترة زحف المبشرين البروتستانت عام ١٨١٤ أو المبشرين الكاثوليك عام ١٨٣٧ فقد استقر الإنجليز فيها بعد زهاء قرن أى، حوالى عام ١٨٤٠، فى شمال الجزيرة مبكرين قليلا عن صيادى الحيتان الذين استقر بهم المقام فيها عام ١٨٤٣.

ولم يكن فيها فى هذه الأزمنة سوى بضعة آلاف من المستعمرين، وينبع تشابه ظروفيهما من اندثار السكان الأصليين أمام القادمين البيض، اختفاء فى استراليا أما فى نيوزيلندا فقد كان نوع من الارتداد الخفيف حيث تختلف الجغرافيتان، فمن جهة تجد البرارى تجد الشاسعة التى هى وحدها أشبه بالقارة، أما نيوزيلندا من جهة أخرى فتحوطها المرتفعات التى تطل حوافيها على البحار العاصفة بطول ساحل متقطع، ويختلف فيها ماضى السكان الأصليين تماماً، وفى أستراليا وقعت موجات هجرة قديمة من الأستراليز الذى هبطوا القارة منذ القرن السادس قبل الميلاد بما يوحى بأنهم طوائف من المغامرين حيث وجدوا أنفسهم سجناء أرض قفر فقيرة تكاد لا تبلغ الكفاف وتسد الرمق وقد تعب كثير من علماء الآثار والسلالات والآثار وغيرهم من الباحثين فى سبيل جمع معلومات عن هؤلاء السكان الأوائل وحياتهم البائسة وربما كان ذلك من الأسباب التى جعلت بقايا هؤلاء السكان الأصليين ينفرون بشدة من الرجل الأبيض إذ كانوا أشبه بأقوام العصر الحجرى فلم يستطيعوا لذلك تحمل الرجل الأبيض فكان إن وقع نوع من انهيار[1] لجماعتهم الهشة «يقصد تلاشى» واختفت أواخر سلالاتهم فى جزيرة تسمانيا عام ١٨٧٦ وفى أستراليا أبعد السكان الأصليون قسراً نحو إقليم كوينزلاند وأراضى الشمال وكان مجموعهم تقريبا ٢٠ ألفا، أما فى نيوزيلندا فقد كان الاتصال بالرجل الأبيض أكثر مأساوية وإن كان أقل تعاسة لقبائل الماورى (سكان نيوزيلنده الأصليين) والبولينيزين (قبائل تسكن شرق أستراليا الواقع على المحيط الباسيفيكى) الذين استقروا أساساً فى الجزر الشمالية وهم أحفاد حضارة وسلالات البحارة البولونيزيين وقد وصلوا إلى نيوزيلندا فيما بين القرنين التاسع والعاشر عند الحدود الجنوبية لمغامراتهم قادمين من البلاد الاستوائية حيث جذورهم الأصلية ـ أى من بلاد أشجار موز التارو والأنيام ـ أما نيوزيلنده وهى بعيدة عن هذا العالم الاستوائى أثارت إعجاب المستعمرين القادمين من أوروبا فبلد معتدل المناخ على نقيض مناخ أسبانيا واستطاعت قبائل الماورى التأقلم مع شمال الجزيرة ومارسوا صيد مختلف الطيور وتربيتها وهى لهم

---

(١) عجبى من هذا المؤرخ الكاذب فهو يستخدم لفظ إنهيار سلالة ولايريد الاعتراف بأن الأمر لم يكن سوى نوع من الإدارة بين المستعمرين كما حدث للهنود الحمر فى أمريكا.

أهم الحيوانات بحكم الفقر وبساطة المنتج من تربية الماشية جلبوا هذه الطيور فى صحبة الكلب، كما مارسوا صيد الأسماك لا فى البحاريل فى القنوات والأنهار فقد كانت البحار فى أكثر الأحيان تثور بالعواصف والأمواج، كما مارسوا جنى الثمار حيث اعتادوا الطقس البارد فشيدوا من الأخشاب منازلهم يغزلون فيها ثيابهم من الكتان وقد قاوموا بفضل ممارسة قبائلها الحروب فيما بينها والأوربيين مقاومة شديدة صمدوا فيها وحروب دامية للمقتحمين وإن انتهت باندحارهم عام ١٨٦٨، كما أن أبادهم ما جلب البيض معهم من أمراض ومع ذلك استطاعت قبائل الماورى فى مستهل القرن التاسع عشر تجاور ما تعرضوا له من هذه المحنة شبه القاتلة بما نزل بهم من خسائر فادحة بلغت ٤٢٠ ألفاً عام ١٨٩٦ و١٢٠ ألفاً عام ١٩٥٢ و٤٢ ألفاً عام ١٩٦٢ ثم بدأت طلائع جيل جديد، وأمكن بفضل إعانات الأسر إلحاقهم بالأعمال فى مدن كمدينة أوكلاند وهم اليوم من بين ٢٣٠ ألف نيوزيلندى إنما يمثلون ما لا يكاد يجاوز ٦ ٪ من مجمل عدد السكان، ومن ثم فهم لا يمثلون خطورة يخشى منها على الحضارة النيوزلاندية.

ويرتبط التاريخ البسيط لكل من أستراليا ونيوزيلندا دائما بالظروف الاقتصادية المرتبطة بدورها بمحن التاريخ العالمى وأحواله، فقد وقعت خلاله الفرص السانحة الفجائية وكأنها القطار المندفع فتمكن أولا من الصعود إليه وهو ما جحد فى مساره وقد سنحت لأستراليا الفرصة حين وجدت إنجلترا نفسها بعد حرب الاستقلال فى الولايات المتحدة الأمريكية مضطرة إلى إبعاد مجموعات المذنبين المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة فكانت أول مستعمرة تقام فى أستراليا عقابية إصلاحية ولم تلغ إلا عام ١٨٤٠، وكان أول فوج من المحكوم عليهم قد وصل يوم ١٨ يناير ١٧٨٨ ورست السفن فى بورت جاكسون وقدر لها النمو حتى تصير مدينة سيدنى ويكاد يزامن ذلك ما بدأت به جماعات من المستوطنين من تجربة حظها فى تربية الماشية وخاصة خراف المرينو بما تتميز به من أصوافها، غير أن تربية الماشية كان من الأعمال الشاقة لا تتواءم مع ما كان من طباع هؤلاء المحكوم عليهم من الكسل وذلك فضلا عما أدت إليه أموال كبار الملاك وطلب إنجلترا وسائر العالم على الصوف الأسترالى من وصفه اليوم بملك الدنيا أو قريبا من ذلك.

وقامت حول عام ١٨٥١ ـ ١٨٦١ حملة قاسية جريا وراء الذهب بعد الاندفاع المشهور فى كاليفورنيا ١٨٤٩، وانطلاق جنون البحث عن الذهب إلى مستعمرات لانوفيل لمدن عمال الحفر القساه الذين لا يذعنون لنظام. غير أن هذا الاندفاع ساعد على تسكين هذه الجموع فى مواقع، كما أسهم بالتالى فى ظهور الحاجة إلى إطعام هذه الجموع من القادمين الجدد. كما عرفت نيوزيلندا كذلك بعض الانطلاقات المتتالية للبحث والتنقيب عن الذهب وضرورة تربية الماشية للصوف وزراعة القمح، أما الذهب فقد أكتشف أول ما أكتشف عام ١٨٦١ فى المناطق الجنوبية من الجزيرة فى وقت أهمل فيه مناطق الشمال الشرقى كما استبعدت عاصمة نيوزيلندا من أوكلاند إلى مدينة ويلينختون عام ١٨٦٥، وجنت نيوزيلاندا أرباحا كثيرة من هذه الانطلاقة إذ رأت شأن أستراليا ضرورة إطعام الوافدين والباحثين عن الذهب. وفيما بين أعوام ١٨٦٩ و١٨٧٩ حققت البلاد ازدهاراً ملحوظاً وإن صاحب هذه الانطلاقات إلى الأمام كثير من فترات ركود بل تقهقر وانحسار، فإذا الحال فيما بين أعوام ١٩٢٩ حتى ١٩٣٩ أليم للبلدين فلم تعد تربية الماشية تحقق عائداً كافياً بل لزم أن تتجه الجهود إلى التصنيع فى قارة استراليا الوافرة بمساقط المياه بحيث تمدها بما تحتاج إليه الصناعة من طاقة وقوى محركة، على أن النجاح فى أستراليا لم يوفق فى دفع نيوزيلندا إلى التصنيع بعد حيث التشابه الكبير إلى حد ما، فرخاء هذه البلاد الأوروبية البعيدة مرتبط بغيرها من بلاد العالم بما قد يفوق ما كانت تؤمن به هى نفسها.. مخطئة ربما بفضل يسر الحياة فيها ورفاهيتها... هنا معيشة اختصت به يبعد عنها بضع ساعات فى رحلات جوية وحالات بؤس، والبلاد النامية شقاؤها فى الشرق الأدنى حيث الفقر وتكاثر السكان. فلذا أوروبا لا أستراليا أو نيوزيلندا اللتان على الرغم من ارتباطهما وتبعيتهما لانجلترا وامبراطوريتها، والأخيرة كانت المورد الوحيد لكافة احتياجاتهما وعميلهما، وقد صارتا دولتين مستقلتين (أستراليا منذ عام ١٩٠١، ونيوزيلندا منذ عام ١٩٠٧) وظلت السياسة الصريحة لهذه الأمم الجنوبية سياسة التحفظ والتقوقع على نفسيهما رغم ما تتيح لهما هذه الأراضى الشاسعة من فرص ذهبية وقفل الباب فى مواجهة الهجرة والاحتفاظ لسكانها بمستوى معيشة مرتفع وصيانة

دعائم اشتراكية برجمانية فعالة إذ ترتكز على الوفرة وأصبحت نيوزيلندا منذ بداية القرن العشرين إحدى الديمقراطيات الحقيقية (يوم العمل ٨ ساعات عام ١٨٥٦) وفصل الكنيسة عن الدولة عام ١٨٧٧، وحق المرأة فى الإدلاء بصوتها فى الانتخابات عام ١٨٩٣، ونزع ملكية الإقطاعات فى العام نفسه والتصالح الإجبارى بين النقابات ونزاعها مع أصحابها عام ١٨٩٤/ ١٨٩٥، وتوفير المعاشات لكبار السن عام ١٨٩٨، وحدث نفس التطور فى أستراليا حيث أقفل باب الهجرة عام ١٨٩١ ولم يفتح بعد ذلك إلا خلال السباق الثانى للبحث عن الذهب (انتهى عام ١٨٩٣) لإنشاء الـ Coolgrdie فى أستراليا الغربية وسط الصحراء. وبدأ نشاط المجتمع فى سهولة كبيرة وبغير صعوبات بفضل حكومة حزب العمال الأسترالى وصارت القارة فعلا جنة العمال، كان النمط شبيها بالأسلوب النيوزيلندى.

لم تحدث كل هذه الميزات وكل هذا الرخاء والتكاليف الباهظة فى التأمين الاجتماعى وآثاره السعيدة وانعكاساته على الأجور وعلى مستويات المعيشة وانخفاض معدلات ومخلفات الأطفال إلا بتكاليف مادية باهظة انفقت اقتطاعا من موارد الدولة وميزانيتها ومن الدخل القومى. وهكذا وجدنا فى أستراليا ومع انطلاقه إنشاء المدن الضخمة أمثال سيدنى وملبورن وانطلاقة التصنيع.. وفى وسط هذه الانطلاقات اندلعت موجات الإضرابات التى كلفت الخزانة العامة نفقات باهظة فخسرت أستراليا وفق ما ورد فى صحيفة الغرفة التجارية ١٩٤٩، ٢٠ مليوناً و٨٠٠ ألف طن من الفحم من يناير ١٩٤٢ وحتى ١٩٤٩، وكانت هذه المصاعب وهذه الأزمات السبب فى سقوط الأحزاب العمالية فى أستراليا وفى نيوزيلندا، ولم يصاحب هذا السقوط نزاعات حادة ولا تعديلات جوهرية فى الميدان السياسى وإنما تغيرت شخصيات اللعبة على حين ظلت اللعبة هى هى. والسؤال هو هل هذه السياسة معقولة؟ فهى تهدف إلى صيانة موارد البلاد (عدد سكان أستراليا عشرة ملايين بنسبة ٤ر١ ٪ كثافة سكانية فى الكيلو المربع)، أما نيوزيلندا التى تعد أضخم من إنجلترا فيسكنها مليونان و٣٠٠ ألف بكثافة ٧ر٨ ٪، ولكنه عدداً يتنامى من طبقات بروليتارية خارجية يهدد فى عالم اليوم هاتين

القارتين، والحرب العالمية الثانية قد جلبت اليابانيين على حدود أستراليا ولم ينقذها سوى الانتصار البحرى الأمريكى فى بحر ادكوارى (بين قارة أستراليا وغينيا الجديدة) (ماليزيا) فى مايو ١٩٤٢ بحيث راودت أستراليا أفكار تستهدف استجلاب أعداد من المهاجرين لزيادة عدد سكانها وبالتالى قدراتها الصناعية والبشرية لصيانة استقلالها، غير أن محاولاتها لم يكتب لهاكثير من النجاح وبأ ن لم تمس نيوزيلندا.. البعيدة عنها... هذه البلاد اللاهية اللامبالية حيث يحقق الرخاء بتداعياته الطبيعية المعتادة من بطء فى معدلات المواليد (٢٩ لكل ألف) زيادة فى تقدم السن (نسبة الوفيات ٩,٣ لكل ألف)... وتقدم فى ارتفاع شيخوخة بحيث لم تعد نيوزلندا ذات الديمقراطية الوليدة المبكرة تشابه بلادا شابة منذ عهد قريب.

حاشية ١٩٦٦

فى قلب عالم إنجلترا لم يعد مصير إنجلترا سهلاً، بل معقدا، إذ نجح حزب العمال بفضل عدة أصوات وتألفت حكومة برئاسة هارولد ويلسون فى ١٨ أكتوبر ١٩٦٤ حيث تجىء عودة العمال للحكم بعد غياب طويل منذ هزيمتهم عام ١٩٥١ وهكذا استهلت حكومة هارولد ويلسون بداية حذرة سيئة وأحوال اقتصادية وسياسية كئيبة، وتعرض الجنيه الإسترلينى لأزمة كامنة لم يشف منها بعد شفاءاً تاماً، وارتفعت الرسوم الجمركية ١٥ ٪ خلافا لتعهدات إنجلترا تجاه السوق الأوروبية المشتركة باتباع سياسة التبادل الحر ولم يتحقق التوازن المرجو فى الميزان التجارى وإنما نتج عن ذلك إثارة شركاء إنجلترا فى السوق المشتركة ولم يؤد فشل إنجلترا فى حلف شمال الإطلنطى بشأن القوات المتعددة الجنسيات إلى صيانة وسمعة حزب العمال، بل نجد إنجلترا فى الواقع تعانى من التردد بين أن تظل وسطاً بين أوروبا والعالم، وبين الشرق والغرب أو الانضمام إلى أوروبا الجارة القريبة أو أن تصبح الولاية المائة فى الولايات المتحدة الأمريكية. ولم يغير فوز حزب العمال فى انتخابات ١٥ أكتوبر ١٩٦٥ من حدة هذا المأزق فضلا عن أن حكومة هارولد ويلسون تنتوى على الأقل المحافظة على المصالح البريطانية شرق السويس إلى أقصى ما تستطيع، وتعنى هذه السياسة الاحتفاظ بقواعد فى عدن

حتى عام ١٩٦٨ على الأقل، وكذلك فى سنغافورة كما تعهدت للسعودية ولماليزيا بمساعدات عسكرية وقواعد جديدة تقيمها فى المحيط الهندى، واتفاقيات برمتها مع أستراليا ونيوزيلندا وجنوب أفريقيا، ومع الهند ومع باكستان إذا أمكن ذلك. غير أن السياسة لم يكتب لها النجاح إلا تمكنت بريطانيا مع مواجهتها مناشدة اشتراك الولايات المتحدة الأمريكية، وفى هذا العالم الإنجليزى تظل كندا الفرنسية مركزاً لعصب حساس وإثارة المتاعب إذ لا تكف عن المطالبة بالمساواة مع المجتمع الإنجليزى هناك، بل تحاول كذلك النجاح فى آية خاصة فى الإطار الفيدرالى... عمل شاق ومهمة صعبة عليها أن تنجزه وحدها أو كأنها وحدها ومن هنا تتبع مصادر عنف الأمس وكذا أحداث عنف الغد من غير شك.

الجـزء السادس

أوروبـا الأخـرى

إتحاد الجمهوريات الروسية الاشتراكية

مقدمة

أوروبا الأخرى التى جاء نموها مثل أمريكا متأخراً لولا أنها ملتحمة بالقارة الأوروبية أى بالغرب ... إنها روسيا ... موسكوفيا القديمة التى هى اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية اليوم وعلينا أن نتذكر:

١ـ جذورها وماضيها اللامتناهى .

٢ـ تطبيقها للمبدأ الماركسى أثر ثورة ١٩١٧ (البلشفية) .

٣ـ إنجازاتها الحاضرة أو كما يقول الفلاسفة ما تحقق من إنجازات بالفعل.

وقد تقول إنها البلد الذى خاض ثورة كبرى ... أكبر تجارب الشعوب ثورية، ومع ذلك حققت ثورة صناعية فى زمن قياسى بكل الأبعاد، ماذا لو استرجعنا بداية حركة التصنيع فيها عام ١٩١٧ فإنها فى عالم اليوم ١٩٦٢ تكاد توازى فى الثقل الولايات المتحدة الأمريكية ويمثل هذا النجاح المذهل أملا ترنو إلى تحقيقه البلاد النامية فى عالم اليوم ... فهل تستطيع هذه الأخيرة فى قفزة واحدة تخطى هذه المرحلة وهل كانت الاشتراكية النجاح السريع أم لا ؟ من شروط هذا النجاح السريع.

الفصل الأول

جـــذور ثورة أكتـوبر ١٩١٧ ..

جـــذور ثـــورة
أكتوبر ١٩١٧ . .

ليس من السهل أن نوجز بشكل معقول ـ هنا فى صفحات ـ أحداث ما فى هذه البلاد الطويل بما تقاطعه من مآس عنيفة لم تشهدها أوروبا الغربية رغم ما لحق بها من أحداث مماثلة. أول المصاعب؛ جسامة المساحة الجغرافية التى انطلقت منها أحداث هذا التاريخ الطويل المتعدد المعقد ... مساحات فلكية من الأراضى وقعت فيها عديد من الأحداث. وثانى المصاعب؛ استقطان الشعوب السلافية هذه الأراضى فى عصور متأخرة بعض الشئ، ولم تكن هذه الشعوب على كل حال وحدها إذ خرجت من مهد السلالة السلافية أجداد الروس الأقدمين سلالات الكاريات وبولندا الصغيرة الحالية وبولونيا هى الوحيدة ذات الجذور النقية بين الشعوب السلافية، وهكذا تأخر المحتل فى الصعود على المسرح واحتلاله بكامله فيما بعد روسيا الكييفية (يشير إلى مدينة كييف).

تاه الإنسان أو كاد فى هذه الأراضى الشاسعة فمن أودية فسيحة إلى أنهار ضخمة ومسافات فوق قدرة البشر، والبشر فوقها قلة ومن أنهار إلى قنوات ثم أنهار أخرى ... مناطق هائلة تكاد تجاوز حدود قارة آسيا، فمن الشمال خط من مدينة كييف حتى بيرم، ثم غابات شاسعة تتكامل مع غابات أوروبا الشمالية كما تتلاحم التيجا فى سيبريا على الجانب الآخر من الأورال ... تلك الجبال القديمة الممتدة

من الشمال إلى الجنوب يقف عائقا ضعيفا كمرتفعات الفوج (سلسلة مرتفعات شرق فرنسا) وإن كانت هى الحدود المتفق عليها مع أوروبا ... حدود روسيا الأوروبية وسائر روسيا إلى الجنوب مساحة صغيرة من سهوب وفياض سوداء خصيبة ورمادية يكسوها العشب المرتفع حتى تكاد تخفى الفارس إذ يخترقها على حصانه، ثم السهوب البيضاء بأزهارها المالحة على سواحل بحر قزوين. والأراضى الروسية فى مجملها هى تلك المناطق الشاسعة بين بحر قزوين والقطب الشمالى، ومن بحر البلطيق إلى البحر الأسود، وهذه أكثر الأراضى جذبا للناس مليئة بالحيوية وتستلهم روسيا إمكانية توصيلها معا، وتستطيع فتح نوافذ تطل منها على الغرب والمياه الدافئة (مياه البحر الأبيض المتوسط أى باختصار إطلالة على الحضارة الأوروبية) ولكن مع ما نستلهمه كذلك من الانفتاح على القارة الآسيوية تقلبتها السهوب والفيافى ... آسيا البدو الرحل وقد سبق أن أوضحنا مخاطر الصراعات التى ظلت حتى القرن السادس عشر وما يثيره غزوها من مشاحنات متوقعة لو قدر لهؤلاء الرحل القادمين من الشرق النجاح فى القفز على أسوار إيران والتدفق نحو بغداد. ولكن تحول مجرى العاصفة لصالح الأراضى الروسية حيث لا مكان تحت الشمس فى بقاع الشرق الأدنى للناس كافة ... ولكن الطارئين القادمين من آسيا (بقصد الغزاة) تقدموا حتى السهوب والفيافى الروسية من نهر الفولجا حتى نهر الدون، ثم إلى نهر الدنيبر والدنيستر بل وإلى ما وراء هذه المناطق ... وأصابت هذه الغزوات موسكو عدة مرات، كما تعرضت مساحة الأراضى الروسية لمصيرها بحكم ضخامة حدودها داخل أوروبا تدافع عنها وتحميها وداخل قارة آسيا حيث نجحت موسكو فى تخفيف حدة ما لحق بها من ضربات نتيجة هذه الغزوات المتقطعة وحيث لا يقوم ما يحجز البرزخ من بحر البلطيق حتى البحار الجنوبية والسيطرة عليه، لذا فليس هناك ما قد نسميه روسيا فعلا إلا من إمارة كييف (القرن السادس عشر) وسلالة الصقالبة الشرقيين الآرية شأن سائر الصقالبة ممن خضعوا لتحولات عرقية عديدة وقد تقدمت فلول من قبائلهم وعشائرهم نحو المدن والقرى والأودية (أودية نهر الأنيير) وتحركات تزامنت مع العصر المسيحى وانتهت حول القرن السابع واختلطت فى مسيرها نحو الشرق بما كان هناك من

قبل من شعوب أخرى من أصول فنلندية من مناطق الأورال البعيدة ومن أصول أخرى من شعوب آسيا الوسطى. والآن هم من أصول السكيتية والسارمات والبلغار والكاما والقوت(جزر جرمانية) كانوا يقطنون ضفاف أنهار الفستولا والبنمين وثم الـــــ Alains والخزر اللذين اعتنقا فيما بعد الديانة اليهودية وأغلبهم من قبائل سواحل بحر قزوين ونهر الدون وهذه الروسيا الأولى خليط من شعوب قادمة من أوروبا وآسيا يسمون الروس الصغار وهذا الخليط وما تحقق من ازدهار فى جميع المدن ... كل ينابيع الحياة والحيوية فيما بين نوفوجورود الكبرى فى الشمال ومدينة كييف فى الجنوب لم يكن مستطاعا أن تتحقق لولا الدور الحاسم الذى تولته حركة تجارة مزدهرة من بحر البلطيق حتى البحر الأسود وامتدت إلى ما هو أبعد من ذلك حتى مدينة بيزنطة حيث خلت الثراء والأضواء بباب أهل كييف، وأوحت لهم بغزوات مجنونة حتى بغداد بحيث نقول إن ساعة الازدهار بدأت هنا فى هذا الوقت وبدأت تحركات الشعوب هذه عبر هذه الطرق من الشمال إلى الجنوب تعرف سلعا كالعنبر والفراء والشمع ومعها تجارة العبيد، ومن الجنوب إلى الشمال تجارة الأقمشة والحراير الثمينة وتجارة الذهب (نقود ذهبية) التى اكتشفها علماء الآثار ممن ارتادوا هذه الطرق من نوفوجورود حتى كييف فى هذه المسيرات الطويلة ذهابا وايابا تبادل الناس البضائع والتجارة كما تبادلوا أحيانا كثيرا من صرا عاتهم ، وكان على روسيا كييف أن تدافع دائما عن نفسها وخاصة من الجنوب وعلى العكس كانت الحدود من الشمال تهيئ العمال الأجراء المفيدين ... يوما أجراء وآخر أسيادا ... ودائما محاربين مناضلين. وهؤلاء الشماليون أو «الفاريج» من جذور سويدية فلاحون ظلوا بدائيين وكانوا أحيانا يأتون من الدانيمرك مخترقين طريق نهر الدنيبير الذى يربط بين المدن الروسية يقودهم فى اتجاه اليونانين وقد اضفوا على هذه الطرق اسم جارد اريكى (بمعنى مملكة المدن) ، وأقامت عائلة أحد هؤلاء الجنود المغامرين سلالة الروريك (ولد عام ٨٧٩ وأسس إمارة نوفوجورود) غير معروفة إلا أنهم استقروا فى القرن العاشر فى كييف وفى كل البقاع الحضرية المحيطة، ولسوف تحاط الإمارات التى أسسوها بكثرة ما تركته من أهمية من أمثال إمارة كييف وسلالة الروريكيد بين الـ ريوكوفيتشى.

وتكمن عظمة أول روسيا هذه فيما تضمنته نصوص التاريخ.. العام إذ صار البحر الأبيض المتوسط مغلقا أمدا بعيدا بحكم الغزو الإسلامى منذ القرنين السابع والثامن ولذلك أصبح الطريق القارى هو الدليل من نوفوجورود حتى كييف بين بلاد الشمال والأقطار الجنوبية الزاخرة بالثراء وقد فقد هذا الطريق أهميته عند فتح غرب البحر الأبيض المتوسط من جديد إثر انحسار النفوذ الإسلامى فى البحار فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر ... فقد هذا الطريق النهرى والبرى أهميته ثم انقطع تماما وبصورة نهائية إثر احتلال القسطنطينية عام ١٢٠٤ على يد اللاتين إذ قتل الطريق البحرى الطريق القارى، وقبل ذلك بوقت طويل عانى أمراء كييف كثيرا فى الدفاع عن حدود بلادهم كما عانوا فى ربط جزر البلقان والبحر الأسود وهناك قول مأثور يقول: «إذا أردت الأكل والشرب اذهب إلى كييف أما إذا استدعى الأمر الدفاع عنها فلا أحد هناك»، وهو قول صحيح إلى حد كبير. وتتصادم جحافل فرسان البدو الرحل التى لا تنتهى مع أراضى الإمارة ومدنها وتتوالى غارات قبائل البرشينج والنورك وزحفهم ثم الكيبتشاك أو الكومان والذين يطلق عليهم اسم البولوفيتزى فيما بعد. وكان منذ القرن الحادى عشر أن انتقل شطر من أهل كييف، وقد نقول لم يكن انتقالا بل هربا نحو الشمال التركى لاستعمار مناطق الغابات التى كان الفلاحون يمهدون أرضها بقطع الأشجار فى اتجاه مدينة روستوف وضبط اسمها روستوف لاروسلافسكى وهى مدينة صغيرة فى الشمال ولا ينبغى الخلط بينها وبين مدينة روستوف على نهر الدون اليوم، ومن هناك بدأت معالم روسيا الجديدة ومعالم خليط جديد من الصقالبة والعمران حق الفنلنديين الأول، وقد أطلق على هذه المجموعة اسم الروسيين الكبار، وكانت هذه الروسيا الجديدة (همجية) وإن تميز سكانها بصلابة العضلات وقوتها وكانوا يقطنون هذه المواقع قبل انطفاء انوار كييف وفى الواقع أسقط أندفاع المغول ممن اجتاحوا كييف.فى ٦ ديسمبر ١٩٤١ دولة كانت منذ أمد بعيد قد فقدت توازنها ولم يكن الزائر المتجول بعد خمس سنوات ليستطيع العثور على غير مائتى منزل بائس فى مدينة كانت رائعة، ويلاحظ كثير من المؤرخين ممن يميلون إلى المقارنات أن هذه المدن الضخمة (مدن كييف الأولى) لا تشبه بحال مدن الغرب الناشئة إذ لا

تتمتع مثلها بنفوذها كمدن صغيرة متشاركة نصفها مدن ونصفها قرى يتشاركان معاً ويتقاسمان أعباء الحياة.وبالذات فإن هذه المدن الروسية الأولى ليست كمثيلاتها من مدن الغرب الأوروبى منفصلة تماما عن بقية الأراضى المنبسطه حيث يساهم السادة فى القرى المجاورة لمدينة نوفوجورود الكبرى فى مجلسها الإدارى الفيتشيه، وقراراته سيادية محترمة فى داخل المدن وعلى الأراضى الواقعة وراء النهر (هى الأراضى ما وراء الساحل أو النهر) التى تشرف عليها أو تحيط بها. فهم الأسياد بجانب المجلس (مجلس السوفييت) ... مجلس الأرستقراطية التجارية ألم نر فى كييف كيف كانت المراكز الأولى من نصيب السادة الذين يؤلفون جماعة الأمراء .. البويار ودروجيناهم.

كانت إذن مدنا «مفتوحة» شبيهة بمدن العصور القديمة كما كانت أثينا مفتوحة للحلفاء بوياثريداى [(١)] فى أثينا القديمة ولم تكن وحدات منغلقة على نفسها وتحمى امتيازات مواطنيها كما كان الأمر فى الغرب فى العصور الوسطى .

---

(١) طبقة النبلاء وكانت لهم حقوق الإنفراد بالحكم.

العقيدة الكاثوليكية

ارتبط مصير روسيا كييف على مدى قرون بالعقيدة المسيحية الكاثوليكية منذ اعتناقها بها، وذلك أن الطرق عبر كييف لم تتنقل فيها التجارة فحسب بل تناقلت كذلك الكلام الطيب الذى كان يتفوه به المبشرون بالإنجيل فى سبيل نشر العقيدة المسيحية فى الإمارة (إمارة كييف) بفضل سياسية الأمير فلاديمير القديس أوكما لا يزال يطلق عليه فلاديمير الشمس الجميلة وكان قد جال بفكره برهة أن يتحول هو وأتباعه إلى الديانة اليهودية لولا انبهاره بالطقوس البيزنطية ومن ثم أشرف عام ٩٨٨ بنفسه على تحول كل أتباعه رسميا إلى النصرانية وتعميد كل شعب كييف جماعيا فى مياه نهر الدنيبز، غير أن الديانة المسيحية كان قد انتشرت فى الجنوب بل وفى كييف ذاتها إثر الحركه العامة التى تلت بعثة القديس بازيل الخالدة فى منطقة خازارى عام ٨٦١، وتعميد المورافيين عام ٨٦٢ ، والبلغار عام ٨٦٤، والصرب عام ٨٧٦ . ولم يكن تعميد روسيا سوى حدث من أحداث كثيرة ... دليل إضافى على الإشعاع الفريد الذى تتوهج به الكنيسة البيزنطية. غداة أزمة الأيقونات (كان أعداء الأيقونات يحطمونها) ولم تخف حدتها إلا عند انعقاد المجتمع الدينى بمدينة نيس عام ٧٨٧ وكان ذلك بمنزلة استعادة الكنيسة القديمة عافيتها وتداعياتها التى امتدت آثارها حتى قلب آسيا الوسطى واقتضى نفاذ التعاليم

المسيحية فى كل من روسيا الصغيرة ثم الكبيرة زمنا، وتأخر النجاح بعض الوقت وشيدت كنيسة القديسة صوفيا فى كييف عام ١٠٢٥ـ ١٠٣٧ وكنيسة القديسة صوفيا فى مدينة نوفوجورود من ١٠٤٥ إلى ١٠٢٥ وكان من أقدم الأديرة هو دير طائفة الكريبت وقد شيد فى ١٠٥١ بمدينة كييف. ومن الجدير بالذكر أن مدن روسيا وقراها كانت مرتبطة أحيانا بمعتقداتها الوثنية التى أمكن اقتلاعها من نفوسهم ولم يكن ذلك أحيانا ممكنا إلا بصعوبة إذ كانت العقائد والأفكار فيما قبل المسيحية راسخة وعاشت حتى اليوم وخاصة فى أمور الزواج والوفاة وعند العرافين ممن يعالجون الأمراض مما طبع الديانة المسيحية ببعض هذه المعتقدات وظلت تنفرد بها المسيحية فى روسيا فيما هو ظاهر فى الطقوس الأرثوذكسية وشعائر الأيقونات ومالأعياد الفصح من منزلة خاصة. ولئن كانت حضارة شعوب روسيا قد انطوت فى فلك بيزنطة فقد أدى ذلك بلاشك إلى التباين والاختلاف بين الكاثوليك والبروتستانت، بما تثير أحيانا من مشكلة كبرى يصعب وصفها أكثر مما يصعب حلها ، وتستطيع القول بأنها خلافات تولدت عبر التاريخ وقد خضعت المسيحية الغربية لتجارب ومحن خاصة فهى من ميراث الإمبراطورية الرومانية التى غزتها المسيحية، فإن تزامن انتصارها مع موجة من تسلط المسيحية حيث جنت العقيدة الثمار غداة زوال الإمبراطورية فى القرن الخامس وبدأت المسيحية تأخذ المهام على عاتقها ولحسابها وفاقت الكنيسة المسكونية سلطة المجتمعات وسلطة الدولة واستغلت اللغة اللاتينية المشتركة عنصرا من عناصر التوحيد والوحدة وأخيرا توارثت عن الإمبراطورية الرومانية تدرجاتها الطبقية ومركزيتها وكذلك احتفظت بعاصمتها القديمة الساحرة روما وذلك فضلا عن أن كنيسة الغرب سوف تتورط فى كل المشاكل السياسية والاجتماعية وهى كثيرة فى بداية مسار الحضارة الغربية وصارت أضخم مجتمع قادر على تلبية الاحتياجات كافة احتياجات الجسد والروح، وكذلك القيام بمهام التبشير بالإنجيل والتعليم له بل تجاوزت إلى إصلاح الأراضى الجديدة وإعمارها، وفى القرن العاشر كانت كنيسة بيزنطية تتمركز فى إطار إمبراطورية صلبة لم تترك لها متطلبات بل مخاطر الامتداد الوقتى فهى تسيطر عليها وتخضعها وتحدد لها إطاراً قاصرا على مهامه

الروحانية ليس غير، أما الكنيسة الأرثوذوكسية التى أتت لتبذر بذورها فوق الأراضى الروسية فأقل شهرة لدى الشعب والمؤمنين ولا تتميز بما تتميز به فى الغرب ولا تعير أهتماماً كبيراً بالمجال السياسى وهى مستعدة لقبول الأسطر الوطنية التى تعرض نفسها عليها وقليلة الإهتمام بالتدرج الكهنوتى إذ ينحصر اهتمامها بنشر التقاليد الروحية كما ورثتها عن الفكر اليونانى فى القرن العاشر. أما من حيث اللغة والمشاعر فقد احتفظت الكنيسة اليونانية بلغتها وتعتبرها لغة الصفوة غير جدير بالبرابرة الهمج استخدامها. وتعد هذه اللغة فى البلاد الصقلية لغة الخلاص أى اللغة التى اتخذها كل من القديس كيرس والقديس ميتود فيما بين أعوام ٨٥٨ و ٨٦٢ لترجمة الكتب المقدسة لتستخدمها مختلف الشعوب الصقلية، وكانا قد بدءا تنصيرهم بالإنجيل وعليهم إعداد لغة التخاطب إلى لغة كتابة ولهذه المهمة كان عليهم استنباط حروف هجائية جديدة تتسق وكلام الصقلب حول سالونيكا، ومن ثم تبرز أهمية لغة السلافون (الخلاص) وتعد أول لغة كتابة فى تاريخ الشعوب الصقلية الثقافى ويظهر الفرق بين الكنيستين فيما يختص بالتقاليد الروحانية فى عدة أشكال فنجد لفظ حقيقة فى اليونانية وبشكل أدق بلغة الخلاص تعنى ما هو خالد ... دائم قائم فعلا خارج الدنيا المخلوقة وتعنى كلمة براڤدا مع ذلك الحقيقة والعدل على عكس كلمة استينا التى تعنى الحقيقة الأرضية والشكل الهندوروكى (الهند الأوروبى) فى لغة السلاف (الصقلب) كلمة فيرا أى الإيمان لا الحقيقة، ونجد على العكس من ذلك فى اللاتينية كلمة حقيقة فى مدلولها القانونى والفلسفى أو العلمى إنما تعنى دائما نوعا من اليقين، وكذلك لفظ مقدس فى الغرب إذ الطبقية الدينية وحدها هى القادرة عل إضفاء صفة القداسة عليها وهى فى الشرق تعنى كل شئ «السر الخفى» بما يتعدى مفاهيمنا ويتنزل مباشرة من أعلى (من الله)، كما كثيرا تفاصيل أخرى وفروقا عميقة ماثلة كالأسبوع المقدس الذى يسبق عيد الفصح فى الغرب إذ يبدو هناك فى سمة الحداد على حين تبدو المشاعر فى الشرق من آلام المسيح وظروف موته كإنسان فى سمة الحبور الجذل بالأغانى التى تمجد بعث المسيح الرب ولكن الشعوب الروسية تظهر صلب المسيح مسيحا وديعا عند الوفاة لا منقذا يتألم كما فى الغرب، بعدما لاقته المسيحية فى الغرب

من مشاكل البشر الجماعية بل والمجتمعية الشرعية هى المواجهة من الجذور على حين ظل الفكر الدينى فى الشرق محدوداً أكثر فردية وأيسر تصوفا وروحانية فحسب ويرجع البعض من أمثال اليكس خوميا كوف فى مقارنته بين الأورثوذكس الصوفيين. والبعض من أمثال اليكس موفيا كوف فى مقارنته بين الأورثوذكس الصوفيين والغربيين من أنصار المذهب العقلانى هذه الاختلافات إلى الحضارات فهل تحملت المسيحية الغربية جزءاً من المسئولية عن هذا الاتجاه العقلانى الأوروبى البحث الذى سرعان ما أثار ضده الفكر الحر، وكم من مرة دافع اتجاهه وإن بدا فى النهاية متوافق معه لم يواجه الأورثوذكس الروسى على العكس من ذلك صراعات مجنونة بالمخاطر إلى عهد قريب ومع ذلك فقد أتيحت أمامه فرصة الاختيار فى القرن السابع عشر بين دين رسمى متطهر (أى متخلص من تلك العادة المتناقضة مع الكنيسة اليونانية برسم الصليب مستخدما أصبعين من اليد اليمنى) وبين ديانة شعبية تتمسك بالشكليات وتبعث على التهذيب وتكون قريبا ثورية متعصبة ولقد فصل هؤلاء المصلحون الشعبيون من العقيدة الدينية وبدأ الانشقاق الراسكول واشتد منذئذ الصراع ودام ضد الراسكولينكرون، ثم امتد ما بدأ من صراعات داخلية وخارجية ضد الفكر الحر أواخر عصر القياصرة وغداة الثورة البلشفية عام ١٩١٧ فقد صارعت الكنيسة الأورثوذكسية فى سبيل صيانه بقائها ذاته أى تظل فى صراع تحت الأرض وتقبل التسويات فلن تجبن فيما يبدو من هذا الصراع المرير فرصة لتجديد أو تحديد ولا حتى إدارة طرق لمسارات أخرى جديدة شبيهة باشتراكية اختارتها منذ خمسين عاما كاثوليكية القرن العشرين طواعية

روسيا الكبرى

أما روسيا الثانية... روسيا الغابات فلم تكتمل إلا حين سوت الخليج الروسى وتمكن إيڤان الرهيب أو جروزنى (١٣٥٠ ـ ١٥٨٤) من الاستيلاء على خازان عام ١٥٥١ ثم أمستراكان عام ١٥٥٦ فامتد إشرافه منذئذ على الفولجا الكبير وموارد بحرقزوين الضخمة، وقد تحقق النصر بفضل المدافع والبنادق للغازى القادم من آسيا فى اجتياحه الأراضى بخيوله وفرسانه فاستطاع اختراق الجانب الغربى بعد الاستيلاء جنوبا على شواطئ بحر قزوين باستثناء البحر الأسود وكان منذ القرن الخامس عشر مقراً للأتراك، المهم كان إيفان فى طريقه إلى اختراق أراضى الفرس والهند وتوقف زحفه عند البحر الأسود الحصين.. وهكذا بدأت تباشير روسيا جديدة فى الأفق تتشكل ببطء وذلك فى ظروف قاسية مغايرة لتلك التى نشأت فيها روسيا كييف وكانت الحصيلة الأولى... أهالى هذه البقاع وإخضاعهم قسراً على العبودية وتجزئة الأراضى وتقطيعها إلى مقاطعات إقطاعية، وكانت السهوب والفيافى الروسية قد احتلت قبل سقوط كييف عام ١٢٤١ على أيدى قبائل المغول (أو التتار كما يطلق الروس عليهم) وتشكلت على الفور دولة كبرى مستقلة ضمت إلى أراضيها مناطق الغابات الروسية الشاسعة والمدن الشمالية وكانت تشكل مجموعة من الإقطاعيات السيادية واتخذت هذه الأمة المسماه أمة الخانات الذهبية

من سراى الواقعة فى وادى نهر الفولجا الأدنى عاصمة لها، وظل ازدهارها قائما مادام الطريق الطويل المنغولى مفتوحاً يمهد الطريق إلى الهند والصين، وهو الطريق الذى سلكه التجار الإيطاليون لتبادل البضائع بالذات من أبناء جنوا وفينيسيا حتى عام ١٣٤٠، وبعد ذلك سد هذا الطريق على مملكة الخان الذهبى فظلت مكتفية بمناطق الجنوب حيث كانت فقدت تقريبا أراضى غابات الشمال. وفى هذا الوقت نشأت إمارة موسكو وأتسع حجم أراضيها وسط تقسيمات إقطاعية ومعارك غامضة كان ذلك فى القرن الثالث عشر وبدئ فى تجميع الأراضى الروسية على غرار ما فعله ملوك الفرس فى تجميع أراضى فرنسا، وحين تحررت هذه الإمارة من الوصاية التتارية عام ١٤٨٠ استقر قيصر روسيا فى الخان الذهبى أما سائر الأراضى التى كانت تقيم فيها قبائل من جزيرة القرم بين نهر الفولجا والبحر الأسود حيث امتدت إقامتهم إلى القرن الثالث عشر بفضل دعم الأتراك العثمانيين وكانوا بالنسبة لهم أتباعا قانعين وهادئين (تعنى توابع الكبار الإقطاعيين يعطونهم أراضى مقابل خدماتهم لهؤلاء الأسياد) وقد احتاج الأمر إلى ثلاثة قرون حتى تنقلب الأوضاع، وكم من صراعات ومشاحنات وقعت خلال هذه الحقبة وكم كان من مظاهر المعارضة والتحديات بين الروس والتتار ومع ذلك فقد استمرت المبادلات التجارية والمصالح والخدمات بل والاتصالات السلمية وخاصة تأييد ملك الخان الذهبى انطلاقة موسكو إذ تحول هذا الخان إلى الإسلام فى وقت متأخر وكان أتباعه يتحلون بالسماحة مما حدا بهم إلى أن يتركوا للشعوب الخاضعين قوانينهم وحرية اختيار تشريعاتهم ومعتقداتهم كما كان بالعاصمة سراى كنيسة أورثوذكسية وقدحدث تزاوج بين السادة وأتباعهم من دافعى الجزية بحيث قيل أحيانا بأن موسكو تعج بطبقة أرستقراطية نصف شرقية الأعراق وكان فى القرن الخامس عشر، على أى حال، حين بدأ انحسار التتار أن وصل إلى الأراضى الروسية عدد كبير من المسلمين تحولوا إلى المسيحية ودخلوا فى خدمة الأمراء مما آثار حفيظة الأتباع الأصليين من الأهلين وهكذا كانت العائلات كعائلة جودونوف وعائلة سابوروف وهى من كبرى العائلات ترجع سلالاتها إلى عروق تتارية وقد فرض المغول زمناً طويلاً إرادتهم على أمراء موسكو حيث يمثلون حضارة أعمق

من حضارتهم وكانت دولتهم على قدر كبير من التنظيم أتاحت لهم تحقيق نشاط مالي لا مثيل له في الشمال، واللغة الروسية اليوم تحتفظ بعدد من ألفاظ وكلمات ذات أصول مغولية منها كازنا وتعني الضرائب (لا ياسيدى أصلها عربى أى الخزينة) والتاموجنيا أي الجمرك أمام أى محطة للبريد، ودنجوى أي النقود وكازناتشي أي الصراف (يقصد المخزنجي) وقد انطبعت آثار هذه الحضارة الرفيعة علي عادات الموسكوفيين وتقاليدهم وقد سلكت هذه الحضارة نهاية طريق عالم متخلف .

وإن كان شعبا مستنيرا طوعته حضارة راقية وتشبه هذه المعاشرة إلى حد ما كان قائماً من علاقة بين أسبانيا المسيحية وعظمة (ها هو يعترف بعظمة الإسلام للمرة الأولى) أسبانيا الإسلامية ويبدأ قيصر موسكو يزحف على الخانات الإسلامية حوالي عام ١٤٨٠ في تزامن مع الانطلاقة الأسبانية التي أتمت فصولها بالاستيلاء على غرناطة عام ١٤٩٢، وتحقق انتصار موسكو بعد عديد من المعارك الدامية ضد الإمارات المجاورة، ولم تبد ملامح هذا النصر إلا مع بداية حكم إيفان الثالث ٤٦٢ ـ ١٥٠٥ فيما يفضله كثير من المؤرخين الروس على نصر بطرس الأكبر وكان قد تزوج عام ١٤٦٩ بعد زمن يسير من توليه السلطة من صوفيا وريثة الباليولوجيين آخر أباطرة القسطنطينية اليونانيين، وهكذا صارت موسكو غداة سقوط القسطنطينية تساريجراد (مدينة القياصرة) في أيدى الأتراك عام ١٤٥٣ ... وأصبحت موسكو أقرب إلي أن تكون روما الثالثة فهل تتمكن من إخضاع الدنيا وإنقاذها؟ غير أن هذا النجاح على المدى الطويل لم يتحقق للأمير وريث موسكو إلا عام ١٤٩٢ (يلاحظ أن كلمة قيصر الرومانية تقترب منها كلمة قيصر الروسية) وبعد نجاحاً أقل مما تحقق في الحروب مع اللتوانيين وضد خان الذهب وقطيعة القاسيلاج عام ١٨٤٠ والانتصار على المدينة التجارية الكبرى نوفوجورود وكان هذا الصراع الأخير صعباً طويلا مأساويا، فكانت عام ١٤٧٥ حرب باردة ودخول سلمى للمدينة، ثم يرفع إيفان عام ١٤٧٧ ـ ١٤٧٨ جرس مدينة فتشيه ويعمد عام ١٤٨٠ إلي نفي أفراد مائتي عائلة من النبلاء ويجبر عام ١٤٨٧ سبعة آلاف من أهالى نوفوجورود علي مغادرة المدينة فكان ذلك نهاية

المدينة التى أطلق عليها اسم السيد الكبير نوفوجورود. وفى ذلك الوقت وصلت جموع الفنانين الإيطاليين وغيرهم من أمثال البولونى رود ولفوفيور افانتى (من إيطاليا مدينة بولونيا) ويدعى أرشيدت وماركورفيوويتر وسولاريو من الفنانين بناة القصور والكنائس، وكان أن بدأت انطلاقة موسكو حيث يتخذ الكريملن موقعه الفريد الحالى كما كان باولو ديبوسيس الإيطالى صاهر الحديد لصناعة مدافع جيش إيفان الثالث وتوفير الأسلحة لسلاح فرسانه القوى، وهكذا بدأت قبل قرابة قرن من الزمان من اعتلاء إيفان الرابع عرش البلاد فضلا عن الانتصارات الحاسمة على الخازان واستراخان تترسخ أقدام موسكو الأولى... وهى بلاشك خطوات أدت إلى إعادة الاتصال بالغرب، وكان كل هذا النجاح وكل هذه المستحدثات تستلزم جهوداً مضنية من الدولة، وبذلك اتصف عهده بإيفان الرهيب حيث انتشر الرعب بين صفوف المعارضة وعرف الناس ما سمى بـ الأوبرتشينا وهو نظام شرطة صارم أعده إيفان الرهيب لإسكات أى صوت معارض مما أتاح سحق الأمراء المعارضين والبويار وبدأت مركزية شرق البلاد الروسية تتوطد دعائمها.

وبدأت روسيا تتجه اكثر فأكثر نحو أوروبا حيث ظلت روسيا قرونا تتحضر وتتمدن حتى ١٩١٧، ولعلنا نقول إن اللحظة الحاسمة فى تاريخ روسيا قد بدأت أبعد من هذا التاريخ وفى هذا التنافس تابعت روسيا بإصرار وعناد مرحلة واحدة إثر أخرى فى سبيل اكتشاف أحدث التقنيات لزيادة فعالية التقدم والتحسين كما تمكنت من تحقيق انتقامها من آسيا التى سبق أن هددتها خلال قرون عديدة، وامتدت تلك التهديدات إلى أوروبا فيما بعد. والحقيقة أن شعوب آسيا كانوا على امتداد قرون قد تعلموا كثيرا من فنون التوازنات التى كانت أحياناً تأرجحهم للتقدم نحو أوروبا والبحر الأبيض المتوسط وقد تدفع بهم أحيانا إلى التقدم نحو الشرق الأقصى وخاصة نحو الصين وفى مثل هذه الظروف كان مصير روسيا يترنح أحيانا أو قد يتمدد جزئيا بإحدى هذه التحركات التى كانت تلقى بالقنابل الرحل نحو آسيا والصين ابتداءً من القرن الخامس عشر وكانت جحافلهم تنتهى فى الأراضى الروسية الجنوبية وبذلك الامتداد الطبيعى الناتج عن الضغوط الآسيوية،

والتتار المسلمين تقلصت قواهم أو تقلص جزء منها لصالح المغامرات نحو بلاد الشرق الأقصى، وحين تنقلب الأوضاع من جديد فى مستهل القرن الثامن عشر تتجه الغزوات فى تقدمها نحو أوروبا، ولكن الوقت فى هذه المرة كان متأخرا حيث اصطدم تقدم قبائل القرغيز والباكتيرز المندفعين أمام (وقفه القرن السابع عشر والثامن عشر الصينية) بسد منيع كان قد شيد ولم تتمكن من نسفه جحافل التمرد الذى قاده بوجاتشيف (إمبراطور روسى مغامر ١٧٧٣ ـ ١٧٧٤) وهذا التفسير المبسط لإحداث نوع من تصحيح حدة الوقائع وتخفيفها.

إذ كان واضحا أن ضغط القارة الآسيوية كان قد طفق يخبو وكانت التقنيات الحديثة التى أخذتها روسيا عن الغرب قد بدأت من جهة أخرى انعكاساتها تبدو على سطح الحياة فى روسيا فنشأت انطلاقة اقتصادية روسية بفضل اتصال بين روسيا وبين تجار أوروبيين بدأ نشاطهم يتنامى حتى أبواب بحر البلطيق وليس أدل على ذلك من احتلال نارفا على بحر البلطيق على يد قوات روسيا فى القرن السادس عشر وسرعان ما أغلق الباب، غير أن روسيا قد كانت حققت ثأرها. وقد سبق أن قلنا أن الحوار بين موسكو والغرب كان قد بدأ قبل صعود إيفان الثالث واستمر الحوار متصلا وازداد الاتصال تقدما. وقد وصف رجاله ألمانى هو البارون هيرشتاين رحلة عام ١٥١٧ قائلا: إنه اكتشف موسكو وكان كولومبس يكتشف أمريكا. وعلى أى حال فد بدأ تدفق التجار والمغامرين من جميع الأجناس من بائعى البضائع وعارضى المشروعات وخبراء عمارة المبانى والرسامين فتتصاعد عائداتهم... عالم جديد قبل أن يصل بطرس الأكبر وكان يومئذ طفلاً صغيراً لم يرتبط بعد بصداقات مع القادمين من أوروبا ويتخذ منهم مستشاريه وقد جند دوق آلب وقتئذ عام ١٥٧١ حاكم الأراضى الواطئة (هولندا) التى كانت وقتئذ فى أيدى الأسبان من خطر يحيق بالعقيدة المسيحية بأسرها من تدفق تهريب الأسلحة على موسكو عدوه اللدود التقليدى.

وكان هذا التحذير فى جلسة من جلسات الريشتاغ الألمانى (مجلس الأمة) وكان شانسلور الإنجليزى قبل هذا التاريخ عام ١٥٥٣ قد تمكن من الوصول إلى سان نقولاس أركانجيل وهناك أسس شركة موسكو لنقل السلع التجارية وتبادلها

بين تجار لندن وبلاد موسكو وامتد نشاط هذه الشركةوسفنها حتى أراضى موسكو وحتى بلاد الفرس. وتتوالى وتتابع الأحداث كفيلم سينمائى من جرأة بطرس الأكبر وتهوره (١٦٨٩ ـ ١٧٢٥). ومن عظم الأحداث الخارجية إبان حكم كاترين الثانية الملقبة بكاترين العظمى (١٧٦٢ ـ ١٧٩٦) طرأت بعض التعديلات على الحدود وتغير الشكل الداخلى للأراضى الروسية تجاه أوروبا، ولم تتوقف روسيا فى الواقع عن السيطرة على نطاق أراضيها الشاسعة بل كما لم تتوقف عن التعدى على أراضى، الغير حيث يبدأ الامتداد الكبير، من سان بطرسبورج وأنشئت العاصمة الجديدة على نهر النيفا منذ عام ١٧٠٣ وازدهرت تجارتها بفضل أساطيل الإنجليز والهولنديين وصارت روسيا أكثر فأكثر ذات سمات أوروبية وساهم الكل فى ذلك وخاصة سكان سواحل بحر البلطيق والألمان، وكان لأقرب الجيران الميزات الأولى. أما غزو الجنوب والاستقرار فى شبه جزيرة القرم عام ١٧٩٢ وكان قد بدأ ثم أهمله بطرس الأكبر فقد تم فى فراغ نسبى و تأخر الاتصال مع البحر الأسود فلم يقع قبل بداية القرن التاسع عشر، وقذفت أوديسا بمدافع دوق دى ريشيليو (مارشال قائد فرنسى) وفى هذا الوقت ولأول مرة (١٨٠٣) أمكن نقل قمح أوكرانيا إلى الموانى الغربية بالبحر الأبيض المتوسط مما أثار مخاوف ملاك العقارات فى إيطاليا وفى فرنسا فيما بعد. فما تاريخ روسيا فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر جملة وتفصيلا إلا عديد من حركات التأقلم الاجتماعى الثقافى الضخم بكل ما تحمله أحداثه وتطوراته من أوهام وأخطاء ونجاح وسخافات وتفاخر وتقدم وتراجع وفوق كل ذلك بالنتائج الإيجابية التى تحققت.. «امسح على روسى تجد واحدا من موسكو تحته»... هذا المثل الذى جاء من روسيا سمع رنينه فى الغرب، والسؤال لماذا لم يحتفظ المسكوفى بذوقه وتحفظه وبتردده وبكتمانه؟ وبالقرب من موسكو اليوم يمكن للزائر أن يشاهد ما يشبه المتحف حيث احتفظ به مقر إقامة الأمير تشير بميتييف المينى منذ القرن الثامن عشر فى منطقة أوستادكنيو بأيدى العبيد المهرة وبأسلوب كلاسيكى تام رائع مما يثير إعجاب المشاهد وتعجبه من هذه الدهانات الحية والأسقف المموهة بالذهب والزخارف الرائعة وتبدو والحيطان من فخامة سمكها كأنها من مواد البناء وسرعان ما يكتشف

أنها خشبية، ويقال إن الأمير كان يردد أن لاشىء يفوق المتعة والرفاهية ولاشك أن هذا الأمير عرفها فعايشها وكل البيوت الخشبية الروسية على هذا المنوال..

أخشاب روسية ثم ملابس ترتدى على الطراز الفرنسى المشهود ذلك بالتقريب تاريخ عظمة مراحل القرن الثامن عشر فى روسيا إنها العظمة التى خلبت ألباب الأوروبيين فتدفقوا يشيدون كل شىء من بيوت ومتاحف وقصور وصناعات وبدا أثر ذلك فى تدفقات المهندسين والمعماريين والرسامين والحرفيين والموسيقيين وأساطين الغناء والمربيات والحاضنات... كل هؤلاء طفقوا يتساقطون على بلاد متلهفة على المعرفة والتقدم وعلى أتم استعداد للتحمل والصبر حتى تصل وتتعلم ويشهد بذلك مكتبة باسم فولتير شيدت فى قلب مدينة بطرسبورج عاصمة القياصرة، نجت من أقدام الكتل الشعبية، ويفخر اليوم بها جماعة المثقفين الروس (الأمتيلجانسيا) إذ عكفت على قراءة كل ما حوتها من أوراق ووثائق. وتحتل فرنسا مركزا مرموقا متميزا فى حركة الثقافة الروسية اليوم كما يصف الفرنسيون كاترين الإمبراطورة الروسية الأرستقراطية بأنها المرأة ذات الروح التحررية لأنها دعت إلى تقديم مسرحية زواج فيجارو فى روسيا، وكذلك لم يكن لويس السادس عشر قد سمح بتقديمها على المسرح الفرنسى ومع ذلك نجد تناقضا واضحاً حيث كانت حكومة الإمبراطورة كاترين الثانية ذات ميول واتجاهات رجعية على الصعيد الاجتماعى منذ دعمت سلطة النبلاء وقدرتهم فى الوقت الذى ساعدت فيه على تفاقم أحوال العبيد وظروفهم.

وكان المثقفون الأرستقراطيون دون سواهم هم الذين ولوا وجوههم شطر فرساى وباريس فكيف عجزت هذه الجماعة من المثقفين عن أن تدعوا الطلبة وجموع الشعب إلى قلب نظم الحكم أو على الأقل إلى هزها لتصحو.. هذه القارة الأوروبية القديمة... ولكن ومرة أخرى إن العملاق الروسى الضخم الذى فشلت أمامه الثورة الفرنسية أو على الأقل امتداد هذه الثورة فى صورة إمبراطورية نابليون... تلك حقيقة يجب ألا تغيب عن أنظارنا.

ولكن خلفية مسرح الأحداث وأعماقه أن بذور الثورة كانت تتجمع لتبدو واضحة على السطح بدءا من مسيرة تزامنت مع حقبة تحديث روسيا فى القرن

السادس عشر حتى انفجار أكتوبر ١٩١٧ فبعد سطوع نجم روسيا كييف طفقت التوترات الاجتماعية والقلاقل تتجمع وعاشت البلاد عصرا وسيطا موقوتا.. الإقطاع الذى بدأت تتأقلم جذوره والتى كادت تتفتت وتتلاشى فى الغرب بدأت الأورية أو التفرنج (يعنى الأخذ بالأسلوب الأوروبى) يتنامى منذ القرن الخامس عشر حتى القرن العشرين... تتنامى يقينا ولكنها لم تكن لتمس غير شطر يسير من السكان من بعض كبار السادة وملاك الأراضى والمثقفين والسياسيين بل أكثر من ذلك فقد أدى تنامى التجارة مع الغرب فى روسيا مثلها كمثل وسط أوروبا إلى تحويل السادة إلى منتجين للقمح وتجار وما مرحلة العبيد الثانية إلا محصلة الظاهرة من الألب حتى الفولجا إذ تفرغ حريات طبقة الفلاحين من محتواها فهاهم العبيد الذين حصلوا وقتئذ على حق استبدال أسيادهم كل سنة، باستثناء حالات الذين يفقدون هذا الحق، إذ أصدر إيفان الرابع عام ١٥٨١ فرماناقوقازيا يحرم عليهم أى انتقال جديد كما أثقلت كواهلهم أعمال السخرة وزيادة الأتاوات وضرائب الدولة ولاشك تركت لهم حرية الانطلاق هرباً إلى مجاهل سيبيريا أو نحو أنهار المناطق الجنوبية ليلتحقوا على الحدود وينضموا إلى الخارجين على القانون القوزاق، وهكذا أفرغت موسكو من نصف فلاحيها الذين راودتهم أحلام الهرب ومغامراته فى سبيل الحرية. ومع ذلك فما أن يستقر مقام الحكومة فى تلك المناطق البعيدة أو تتمركز فيها سلطتها المباشرة حتى تحرم الحرية الممنوحة... إنها القصة الخالدة للحريات الروسية الخاسرة فى كل حين، أليس للسيد دائما حق فى الإمساك بالهارب، وألغى قانون ١٦٤٩ التقادم من أى نوع كان ولاشك قامت معارضات ونزاعات رهيبة وبوادر عصيان من أبرزها عام ١٦٦٩حيث تجمع مائتا ألف من المتمردين من القوزاق والفلاحين وأقوام من بلدان آسيوية فاستولوا على استراخان وساراتوف وسمارا وأصبحوا سادة ڤولتا السفلى وعمدوا إلى قتل ملاك الأراضى والبورجوازيين وكان يقود مسيرتهم ستيتكارازين ولم يتيسر اعتقاله إلا عام ١٦٧١ ثم نكل بجثته وعلقت فى الميدان الأحمر بموسكو. وبعد قرن من الزمان وفى المكان نفسه قاد بورجاتشيف ثورة العصيان التى تحقق لها نصر مبدئى جارف إذ ضمت بين صفوفها القوزاق من نهر الدون والأدرال

وعمال مسابك الحديد وصهر النحاس من سكان مرتفعات الأورال وقبائل البكثير والخرجز وعبيد مقاطعات السادة كبار الملاك وعمال عبيد المناجم، انضمت كل هذه الجموع إلى ثورة العصيان البوجاتشيفينا التى امتدت حتى تنحس نوفوجورود من مسيرتها لتشنق ملاك الأراضى وتعد بتوزيعها على الجميع ومنحهم الحرية، وأمكن الاستيلاء على خازان ولكن الثائر لم ينجح فى اقتحام أبواب موسكو واعتقل وقطعت رأسه عام ١٧٧٥ وبدا كأن النظام يعود... أو هكذا بدا الوضع. كل هذه الأحداث معروفة تماما فالتاريخ الروسى زاخر بتفاصيل هذه الأحداث ذلك أن إلقاء الضوء عليها إنما يعنى أن هناك أسبابا تدعو إلى ذلك فكلما تقدم الزمن تضاعفت أحوال الفلاحين سوءاً. فمع بداية عصر الرق الثانى قامت أرستقراطية ثانية أيام حكم إيفان الرهيب ولم تكن طبقة الأرستقراطيين هذه إلا من قبائل البوار من سلالة روسيا كييف، وتشبه السادة فى الغرب وبصفته سيدا مالكا لأرضه استطاع إيفان الرهيب كسر شوكة النبلاء المستقلين فأعدمهم بالآلاف وصادر ممتلكاتهم ومنحها لرجال من أتباعه وأنصاره وهم ماأطلق عليهم لقب الأوبر تشينيكى أى جماعة من النبلاء الخدميين لا يملكون الأراضى ولا أرباحها إلا مدة عمرية أى زمن بقائهم على قيد الحياة وفى هذه الظروف لم تكن حركة الإصلاح الكبرى التى قام بها بطرس الأكبر سوى حركة رجعية إذ صدر ١٧١٤ قانون الماچورا (إقطاعية البكر من الأبناء لا يمكن التصرف فيه) قد اعترف فى هذا القانون لهؤلاء النبلاء ولورثتهم بحق الخدمة الملكية وبالأرباح التى يضعون عليها أيديهم وهكذا نشأت وتأصلت طبقة ثانية أرستقراطية بهذه الامتيازات وهكذا حصل مينتشيكوف أثير بطرس الأكبر على مائة ألف عبد من عبيده وظهر هذا التناقض السافر وطبع وجه روسيا المتحضرة بهذه الصورة فى مواجهة أوروبا... عصر متأخر فى مواجهتها لنفسها، ومنذ ذلك التاريخ بدأ حلف فعلى يربط بين القيصرية وطبقة النبلاء التى تحيط بها والرقيق الدائم الخوف الخاضع أمام نزوات سيده وبدأت أحوال طبقة الفلاحين تزداد سوءاً بانغماسها فى صعوبات لا حل لها بحيث لم تُجْدِ حركة تحرير العبيد أعوام ١٨٥٨ و ١٨٦١ و ١٨٦٤ لها حلولا بل لم تستطع حتى إلغاءها أو إزاحتها من الطريق البائس الذى تعيش فيه القرى،

والأراضى التى يستولى السادة عليها، مع نقص عدد الفلاحين، كما احتفظ السادة عليها بجزء من أملاكهم فلم تطرح المشكلة للبحث إلا عام ١٩١٧ إثر الانفجار الذى لم يعرف له تاريخ روسيا مثيلا.. انفجار أزمة الأراضى الزراعية التى تسببت بعمق فى اندلاع الثورة أمدا يسيرا حيث يظهر على السطح نظام شيوع الأراضى. وهكذا لم يعرف الفلاح الروسى معنى امتلاك الأرض أبداً وحده، وبهذه الحالة فى القرى الريفية تأثرت جميع مظاهر الحياة فى روسيا وأشاعت فيها بذور الثورة بما يفسر ذلك النجاح المدوى لثورة ١٧٨٩ التى بدأ الحديث عنها فى الصحف كافة وذلك فى كل من سان بطرسبورج وموسكو بل فى توبوسك فى سيبيريا (١٨٢٨ - ١٩١٠) كان ذلك إشارة إلى صحوة الأراضى الروسية .. نوع من يقظة ضمير تابعتها بشغف طبقة النبلاء المتحررين، وطبقة البورجوازيين التجار، وطبقة المثقفين والإعلاميين، وهم غالبا من طبقات شعبية حيث تمكن الإشارة إلى كتاب صغير بعنوان ا(لثورة الفرنسية والمجتمع الروسى) ألفه ميشيل شرانج فى ترجمة فرنسية فى موسكو عام ١٩٦٠ وإلى تصريح حقوق الإنسان، وكذلك اندلاع الهياج الشعبى من جديد فى فرنسا والفزع الأكبر الذى يمس مباشرة أكثر الموضوعات سخونةأمثال نظام الأوتوقراطية (حكم استبدادى أى سيادة فردية مطلقة) وقضية العبيد.

كل ذلك بفضل هذه المشاعر التى كان من السهل الإحساس بها فى روسيا ونراها واضحة على جبين كل فلاح، وذلك على حسب التعبير الذى استخدمه أحد المعاصرين. وثمة أسباب أخرى يمكن إلحاقها بهذا المسوغ الرئيسى لوضع الفلاح الروسى، تلك هى حركة التصنيع التى انبثقت منذ منتصف القرن التاسع عشر... كان ذلك فى عهد حكم نيقولا الأول ١٨٢٥ - ١٨٥٥ وهو يقينا لا يتحمل التبعات. وكان ظهور الكاتب يوشكين ١٧٩٩ - ١٨٣٧، وليرمونتوف ١٨١٤ - ١٨٤١ وجوجول ١٨٠٩ - ١٨٥٢ وتورجتييف ١٨١٨ - ١٨٨٣ و ديستويفسكى ١٨٢١ - ١٨٨١ وتولستوى ١٨٢٨ - ١٩١٠ أشبه بعودة الوعى إلى روسيا فبدأت أنماط وأشكال تترى من الثورات والهياج بدءا من حركات محدودة ضيقة من جانب الديكا بريست ويقال لهم الديسمبريون (تعنى الذين ثاروا فى شهر ديسمبر) فضلاً

عن الإعدام بالرصاص أمام قصر الشتاء عام ١٩٠٥ وتجمعات الثائرين من المعدمين إلى أنصار الحزب الاجتماعى الديمقراطى الروسى فى مدينة منسك ومن أنصار أول حزب ماركسى إلى قبائل من جذور صقليبية ومن الثوريين المتطرفين أحيانا إلى الغربيين الساخطين والمثقفين والشباب والطلبة خاصة... والمبعدين المنفيين... كلهم يحملون شعلة الثورة القادمة... وعلى لهيب هذه الشعلة ووهجها كانت آمال.. تاريخ روسيا.

الفصل الثانى

الاتحاد السوفيتى من عام ١٩١٧ حتى يومنا

الاتحاد السوفيتي من عام ١٩١٧
حتى يومنا هذا

تناولنا فى الفصل الأول من هذا الجزء دراسة الثورة الروسية عام ١٩١٧ فى بدايتها المبكرة ثم تداعياتها فيما بعد، والآن نبين المشاكل الضخمة التى مست الحضارة السوفيتية مساً مباشراً.

(١) كيف تقابلت الماركسية مع الثورة، وكيف قادتها بعد ذلك؟

(٢) ماهى تداعيات هذه الثورة وكيف استمرت فى الوضع الراهن للحياة؟

(٣) فيما بين هذه الصدمات وهذه الضغوط .. هل يخشى منها على الحضارة السوفيتية؟

من كارل ماركس حتى لينين

استطاعت أفكار ماركس أن تغزو بسرعة أوساط المثقفين والثوريين الروس المتطلعين إلى الغرب، وبالتالى كانوا من المعارضين للتقاليد الصقلبية القديمة. وهكذا سرعان ما وجدت الأفكار الماركسية أعواناً ومريدين بين أوساط طلبة جامعة سان بطرسبورج وأساتذتها وخاصة أوساط خبراء الاقتصاد والمؤرخين بالقدر المتحفظ نفسه الذى وقفته أوساط جامعة موسكو.

والماركسية ثمرة تعاون مشترك بين كارل ماركس ١٨١٨ ـ١٨٨٣ ومعاونه فريديريك أنجلز ١٨٢٠ ـ ١٨٩٥ إذ عمل معه أربعين عاماً وعاش بعده ١٢ عاماً

أخرى، وتعتبر هذه المبادىء منعطفا أساسيا للفكر والعمل الثورى فى كل من القرن التاسع عشر والقرن العشرين من حيث أنها ثورة ترتبط بحياة المجتمع الرأسمالى العصرى الصناعى وتتداعى من صفوفه حتما كثمرة طبيعية لا يمكن تجنب سقوطها وبقدر ما تقدمه من مفهوم جماعى مشترك بصورة قوية بين التفسير الاجتماعى والتفسير الاقتصادى وحوارات ماركس (الديالكتيك) (الجدلية) أو البحث عن الحقيقة بين المتناقضات إنما هى مستوحاة من آراء الفيلسوف هيجل أى أن الروح تهيمن على ماديات الكون والإنسان قبل أى شىء، ضمير... وإرادة. وبالنسبة لماركس فهو يرى على العكس أن هناك سيطرة مادية تهيمن على الروح والعقل. وكانت مفاهيم الفيلسوف هيجل ترقد فوق الرأس وهم يضعونها على قدميه. غير أن ذلك لم يمنع ماركس من العودة ثانية فى جدلياته إلى الأزمنة (كتاب هيجل الفلسفى) والتجارب المتتاليه المتعاقبة لجدليات هيجل وأولها الإيجاب وثانيها السلب (أو التأكيد والنفى) وثالثا نفى النفى أى ما يعنى الإثبات إثبات حقيقة فى صيرورتها تأخذ فى حسبانها الزمنين معاً ثم التوفيق بينهما. كان هذا النمط من التفكير دائما قابعا فى سريرة جدليات كارل ماركس كما يشير إلى ذلك الثورى الروسى هرزن فيقول: إن الجدلية هى علم الجبر بالنسبة للثورة (علم رياضى بإحلال الرموز محل الأرقام) وعموما فإن لغة ماركس ينطلق منها فى التحديد الدقيق للتناقضات بعد التعرف عليها والاعتراف بها علميا كما هى ثم قهرها بعد ذلك وإخضاعها برغم أن ماركس لم يستخدم هذا الوصف ذاته كما يقول لينين: أصرّ كثيراً على الجدلية أكثر مما أثار المادية. وهذا التفسير نفسه ينطبق على قضية المادية التاريخية فى تعبيرأنجلز.. تعبير مأساوى (بائس). وقد أصر ماركس أكثر على التاريخ لا على المادية. ومن الحقائق المعترف بها أن ماركس استمد براهين الجدلية من عقيدته الثورية فى تحليل تاريخى للمجتمع وهو ما يعد واحداً من أكبر إنجازاته إذ بدت له المجتمعات الغربية فى منتصف القرن التاسع عشر كمن يعانى من تناقص رئيسى.

ولنوجز هنا هذا التحليل: العمل بالنسبة للإنسان وسيلة للتخلص من قيود الطبيعة والخضوع لها، فبالعمل وممارسته يبدأ اكتشاف ذاتيته وجوهره وبأنه يعمل

بين من يعملون ويستطيع أن يكون جزءاً من المجتمع الذى هو عمل وتحرر إذ أنه هناك نزعة طبيعية فى الإنسان كما أن هناك إنسانية فى الطبيعة التى هى وحدة جوهر الإنسان مع الطبيعة وهو هذا الإثبات على ما لقيمة ومعنى العمل البشرى للإنسان.

ويتبع ذلك النفى فى مجتمع يراه ماركس متناقضاً تنا قضاً غريبا، بل إلى أقصى درجات الشذوذ؛ فالمجتمع الرأسمالى هو الذى ابتدع كثيرا من التناقضات فالعمل هنا لم يحرر الإنسان وإنما أخضعه واستعبده وأبعده عن المجتمع وعن حق التملك.. تملك وسائل الإنتاج (الأرض أو المصنع) بل وأبعده كذلك عن عوائد العمل من أرباح وفوائد فأصبح مضطراً إلى أن يعرض عمله وعرقه للبيع أى التنازل عن حق من حقوقه ورهنها لدى الغير ولصالح هذا الغير. والمجتمع العصرى الحديث جعل من العمل أداة من أدوات الرق ووسيلة من وسائل العبودية. إذن ماهو نفى النفى... باب الخروج من هذا التناقض؟ يقول إن المجتمع الرأسمالى هو الذى ابتدع هبة الأرض الزراعية فحين توصل إلى مرحلة التصنيع والعمل والإنتاج الضخم المكثف أى تشكيل طبقة تتنامى بمرور الوقت من الأرقاء مدركين لأوضاعهم عبيداً أرقاء فى خدمة ملاك الأراضى فإن طبقة البروليتاريا تصعد من مستوى الصراع بين الطبقات بشكل تلقائى آلى ثم يتحول الصراع إلى حرب طبقات وتدخل بذلك بذور الثورة ذات الأمد القصير.

وحيث إن الرأسمالية الصناعية هى آخر مرحلة من المراحل التاريخية للمسيرة العريقة فهى تنقل المجتمع المكون من العبيد إلى مجتمع إقطاعى ثم إلى مجتمع رأسمالى للبيع والشراء أى من التجار والبائعين ثم إلى مجتمع رأسمالى صناعى. وفى القرن التاسع عشر كانت الدنيا قد وصلت فى تزامن مع حركة التصنيع إلى مرحلة الثورية .. مرحلة إلغاء الملكية الخاصة وغدا إلى مرحلة الشيوعية التى سوف تحل محل المجتمع الرأسمالى (من المعروف أن ماركس الذى كان يعرف لفظ رأسمالى منذ ١٨٤٦ لم يكن قد استخدم بعد كلمة رأسمالية ولابد - كما شرح هو بنفسه - من توافر مرحلة أقل من مرحلة الشيوعية حين تتخلص المجتمعات بصورة أو بأخرى من مجتمعاتها القديمة. ولاشك أن اللفظية التى نشير إليها حتى

الآن هو اسم اشتراكية (مشتق من كلمة مجتمع أى مجتمعية بأفضل من تسميتها كما نكتب نحن اشتراكية) وتعنى كل حسب عمله. والمرحلة الأعلى لهذا التطور وحدها هى التى يمكن أن يطلق عليها الشيوعية وهى تقريباً الأرض الموعودة ويستطيع المجتمع حينئذ أن يكتب على راياته كل حسب قدراته (فى مرحلة الإنتاج) وكل حسب حاجاته (فى مرحلة الاستهلاك).

وهكذا نجد أن حوارات ماركس متفائلة أو هى كما يصفها چورج مورفيتس تصاعدية. ومع ذلك لم تكن رسالة ماركس تبدو للثوار الروس مخيبة لآمالهم حتى برغم رأى ماركس بأن الثورة فى روسيا أمر غير ممكن نظريا فى الوقت الراهن، كان ذلك عام ١٨٨٠ حين بلغته أنباء الغضب الشعبى إذ كانت البروليتاريا بحق فى روسيا طبقة متواضعة إلى حد ما، ولابد من انقضاء سنوات حتى تتعدل الظروف التى أنشأتها، وإنما يتأتى ذلك كلما تقدمت ونمت القوى الإنتاجية الرأسمالية وعندئذ يبزغ عصر الثورة الاجتماعية... وكان ماركس يرى أن الشروط لم تكن قد تجمعت بعد. ومعروف أن ماركس وأنجلز فكرا وتناقشا ودرسا خاصة التجربة الإنجليزية عند ظهور المرحلة الأولى لرأس المال (١٨٦٧) ووصوله إلى قلب ثورته الصناعية أو تحديدا إلى تلك الصعوبات التى تولدت عنها دون أن تكون لها قدرة تجاوزها، فبدأوا يفكرون بعقلية كل من فرنسا وألمانيا وتجربتهما. وباختصار بأفكار بعيدة جدا عن تلك الظروف السائدة فى روسيا القياصرة، فكيف إذن يمكن تصور ثورة اجتماعية باسم هذه المبادئ ذاتها فى بلد كروسيا أواخر القرن التاسع عشر، ولم تكن تبدأ عصر التصنيع حيث يمثل الفلاحون وحدهم ٨٠٪ من السكان فى مقابل ٥٪ من العمال؟ وكان لينين قد لاحظ هذا التناقض منذ ١٨٩٩ فى عصر نمو الرأسمالية فى روسيا (أى تجمع رؤوس الأموال فى أيدى القلة) بل وأكثر من ذلك غداة وعشية ثورة ١٩٠٥ وعشيتها.

ومن المؤكد أن لينين وهو من أتباع ماركس المخلصين كان أسير فكر كان موضع إعجابه يتحرك برشاقة داخله. وعلى الرغم مما كان يتمتع به من قدرة على التحرك فى إطار العمل الثورى وأفكاره الأصيلة على مستوى النظرية وهى من الميزات التى قلما اعترف بها له، فهو سليل النبلاء الروس وتنم اللكنة التى

يتحدث بها عن ذلك بوضوح ظاهر على العكس، ولا يوصف بأنه ممثل للشعب الروسى المشهود له بالبساطة والذكاء العملى، ولم يكن كذلك فى المقابل ممن تستهويهم شهوة العمل الحركى.

وقد ضاعف بالفعل من التحاليل الواقعية والأصلية والانتقادات التى تصادمت مع أفكاره وأسبغت عليه شرفا بلقب منظف الحظائر ومرابط الخيول، وكان حين باشر حركته يتذكرها بصفاء نفس. وتجد فيما تلا ذلك أن معارضاته مع ماركس كانت تقع فى المكان والزمان المناسبين ومسبقا بالنسبة لإجراء ثورى أدرك وجوب وقوعه فى الإطار الروسى... أى فى إطار العلاقات بين البروريتاريا والحزب الثورى. وبإيجاز نقول إن لينين يوافق على منح أولوية نهجية لسياسة الحزب على الصعيدالسياسى أو الاقتصادى وكذلك للتكتلات الشعبية البلوليتارية ويعنى ذلك أنه يقف مساندا للسياسة المبدئية بهدف الدنو المقرب. أما عند ماركس فإن الثورة نتيجة للانفجارات الاجتماعية شبه الطبيعية التى تحدث فى ساعة معينة تحت وطأه حركة التصنيع وصراع الطبقات، وكانت جموع طبقة البروريتارليا الذين يتكدسون بسبب التصنيع فى المدن جموعا ثورية بطبيعتها وكان إلى جانبها بورجوازية معينة نمت بين صنوفها الأيديولوجيات الجديدة ومن أوساطها وتكون على وشك أن تستلهم ثوريتها هى الأخرى. ولايكون الوقت فى بعض الظروف قد بعد للاستفادة من الظروف ومن هذه البورجوازية ذات السمات الديمقراطية الليبرالية. وتردد ماركس وانجلز طويلا بشأن هذه الخطوة الاستراتيجية وارتابا حذراً وبعد عام ١٨٤٨ لأسباب أدركاها وخاصة من إمكانيات رجعية تدفع طبقة الفلاحين الفرنسيين وتدفع هذه الطبقة البروليتارية الزائفة التى ترتبط بقطعة الأرض الصغيرة التى تمتلكها.

ولايزال الجدل والنقاش مستمرين حول شكل العمل الثورى مفتوحا حتى بعد موت كارل ماركس عام ١٨٨٣. وتستمر روزا لوكسمبرج ١٨٧٠ ـ ١٩١٩ فى دراسة مفاهيم كارل ماركس فكانت عندها البروليتاريا العمالية وحدها هى الجديرة بالثقة فهى التى يجب أن تكون المحرك الأوحد للثورة وعليه فإن سائر الطبقات ماهى إلا أعداء والحزب موضوعها، ويجب فرض الرقابة عليه عن قرب ومن

الداخل وملاحظته على مستوى القاعدة. ويمثل هذا كله الوسيلة الوحيدة المثلى لتدارك البيروقراطية وتفادى تسللها إلى أوصاله، وكانت إدارة لينين مختلفة فهى متفقة مع آراء بعض الإصلاحيين إذ ترتاب فى أن يكون لدى طبقةالبروليتاريا طبيعة تلقائية ثورية (كان ذلك أيام الإمبريالية) (أى نزعة التوسع الاستعمارى) كما كان يفزع جدا من التلقائية ويرى أن الوقت قد حان للتركيز على الحزب وما عسى أن تضيفه من دعم لهذه الفئات الشعبية الأخرى المضطهدة مهما كانت. وقد رأى عام ١٩٠٢ فى كتابه (ما العمل) أن البروليتاريا بدون حركة حزبية مركزية ثورية متمرسة (محترفة) سوف لا تتجه إلى الدور بل تتجه نحو الإصلاح (أى مبدأ الإصلاحيين) ونحو نوع معين من اتحادات نقابية ولعلها كذلك تستسلم لأحلام يوتوبيه (أى مذهب المدينة المثالية الفاضلة) فى ظل ارستقراطية عمالية. ونشير إلى ما حدث فى إنجلترا حين تصدى حزب العمال الوليد بالاعتراض على اتجاه اتحاد النقابات إلى نوع من التحفظ (أى نزعة الإبقاء على ماهو قائم) وكما وقع فى فرنسا حيث صارت النقابية، (مذهب يسمح لنقابات العمال أن يقوموا بدور فعال فى حياة البلاد الاجتماعية) عقبة فى مسيرة الإشتراكية، وكان لينين الذى يعارض أفكار روزا لوكسيمبورج وآخرين يؤكد كذلك أن عصر الحروب الوطنية لم ينته بعد وأن هناك حتمية ضرورية لتحالفات مع البورجوازية المتحررة (الليبرالية) فضلا عن معارضته على خط مستقيم لروزا لوكسيمبورج واتجاهاتها اللوكسيمبورجية ويتحالف مع برنامج إصلاح زراعى للأرض ويمتنع بشدة على اعتبار طبقة الفلاحين عنصرا رجعيا. وفى هذه النقطة الحاسمة كان بدون شك تحت تأثير الاشتراكيين الثوريين الروس، فكان مثلهم يرى أن طبقة الفلاحين تكبح مسيرة الحركية الأساسية (أو المحرك الرئيسى) للثورة ويرى على أى حال ألا تترك هذه القوة بغير دور تؤديه لأنها قوة تفجير هائلة، وقد عاصرنا ما قامت به من إنجاح ثورة ١٩١٧ فى روسيا. وعموما فإن لينين كان على حق فيما ذهب إليه، ولن ندخل هنا فى تفاصيل هذه المناقشات التى دارت والمواقف الأيديولوجية التى لعب البعض خلالها أدوارا هامة فى التطور الذى تلا ثورة ١٩١٧ فى روسيا وذلك على الرغم من أن هذه التفاصيل تكفى لتفسر لنا أسباب هذا التحول من

المذهب الماركسى المبدئى إلى اتجاهات، لينين وهو ماركسى يمعن فى التفكير ويعيد التفسير فى كل الاتجاهات كما يشير إلى ذلك خبراء علوم الأجناس البشرية لأنه تكيف مع أوضاع هذه البلاد (روسيا) وهى ما تزال فى مسيرة التصنيع وما يزال التفوق فى الأرض الزراعية معقودا لها... إنها روسيا القياصرة فى مستهل القرن العشرين وفى نهايته، وأهمية الطبقة البروليتارية فيها أهمية عددية .. ضعيفة جدا، ويضاف إلى ذلك أهمية اقتصادية واجتماعية لا تكفى وحدها لإثارة الثورة أو التحريض عليها مما كان خليقا أن يجلب عليها الاعتراضات الفورية من سائر المجتمع (لما كتب لوسيان جولدمان).

ولقد تأسس عام ١٨٩٨ الحزب الاجتماعى الديمقراطى فى روسيا والذى أصبح فيما بعد الحزب الشيوعى وأسسه أفراد جيل الماركسيين الروس منهم **لينين ومارتوف ودان** بالاتفاق مع الجيل الأول ومنهم چورچ بنجانوف وبول اكسلرود **وفيرازاسوليفتس وليف روس** وكان قد أسس فى الخارج جماعة تحريرالعمل. وعند عقد المؤتمر الثانى للحزب الاجتماعى الديمقراطى فى لندن عام ١٩٠٣ أحدث انشقاق من جهة مجموعة البولشفيك أى ما معناه بالروسية «الأغلبية» وتتمتع على كل حال بأغلبية صوت فقط. ومن جهة أخرى مجموعة المونشفيك أى الأقلية ومنهم يلخاتوف نفسه وستعود الأقلية فى الواقع لتصبح الأكثرية فى الحزب الاجتماعى الديمقراطى الروسى، ترى ما السبب فى هذا الانشقاق؟

المادة الأولى من اللائحة حيث أدخل عليها لينين نصوصا عرفت باسم المركزية الديمقراطية وكانت هذه النصوص تتوقع الدور المتنامى للثوار المحترفين أى من التقنيين، تتوقع نظاما صارماللحزب سلطات ممتدة وديكتاتورية تتمتع بها اللجنة المركزية على مجموع قطاعات الحزب، خاصة تنظيماته على مستوى القاعدة، فى حالة الضرورة نقل كل سلطات اللجنة المركزية إلى مكتب تنفيذى محصور ضيق ... أكان ذلك واضحا؟ إذ أصبح الحزب أشبه بآلة حرب مستقلة ذاتية، ويصبح أفراد الأقلية معترضين على هذا الاتجاه الدكتاتورى لصالح شخص واحد والتنازل له عن المبادئ الديمقراطية كافة. وكان تروتسكى يتوقع أن تؤدى أفكار لينين ومفهومه إلى حتمية ديكتاتورية شخص واحد.... رئيس اللجنة

المركزية، ومع ذلك ربما كانت الظروف الخاصة بروسيا وهى فى مسيرة التنمية الاجتماعية والصناعية هى التى أدت إلى فرض هذا الاتجاه فهناك شواهد على ذلك، إذ فى عام ١٩٠٥ كان لينين بطبعه الحازم يصارع أطروحة بعض الاشتراكيين القلة، هم على أى حال المنادون بإمكانية اندلاع الثورة الاشتراكية على يد البروليتاريا كما لو كانت قوى الإنتاج فى هذه البلاد كافيا لنموها لمثل ثورة كهذه؟بل وأكثر وضوحا ذلك الجدل الذى دار عام ١٩١٧ وكان جدالا طويلا إلى آخر مدى عشية استيلاء الثوار على السلطة، إذ دار بين لينين ومؤسس المدرسة الماركسية الروسية جورج بنجانوف فبدأ لينين مصارعاً مدافعاً عن اتهامه بالرغبة فى الإمساك بالسلطة قائلا إنه لو حصل عليها فلن يكون ذلك إلا بمعاونة ثورية اشتراكية كما فى البلاد ذات الرأسمالية المتقدمة (وهو حلم تخلت عنه بسرعة الثورة الروسية التى حكم عليها بدخول التجربة... وعاد بنجانوف إلى تفسيرات ماركسى الأساسية... ضعف البروليتارية بين طبقات العمال وضعف الرأسمالية وأغلبية ساحقه من الفلاحين بين الأهلين مما كان خليقا أن يدفع بـ لينين دفعا - رضى أم أبى - إلى اللجوء إلى الدكتاتورية لو أنه استولى على مقاليد السلطة بل وإلى اللجوء إلى الأساليب الإرهابية الحكومية. وكان لينين فى هجومه المضاد يتهم من يقول بمثل هذا الكلام بأنه إنما يهينه بشتمه .. ومع ذلك فسوف يستولى على السلطة ويطلق العنان لثورة إصلاح الأراضى كما فعل ما وتسى تونج بعد ذلك بثلاثين عاما وكان ممكنا أن تشغل باله هذه المشاكل والقضايا إلا أنه عام ١٩٢١ يتراجع ويطوى تصريحاته بصورة مسرحية مثيرة ويهيل تراب النسيان على مجادلاته ومناقشاته القديمة ويصرح بقوله: الخلاصة إجمالا لقد أخطأنا... لقد تصرفنا كما لوكنا قادرين على إقامة الاشتراكية فى بلاد لم تكن الرأسمالية قد ظهرت فيها بعد، فقبل الرغبة فى تحقيق المجتمع الاشتراكى يجب أولا إنشاء الرأسمالية. ولم يقدر له البقاء بعد موت لينين فينضم ابتداء من ١٩٢٨ - ١٩٢٩ إلى حركة التصنيع التى بدأت منذ ذلك الوقت مسيرتها بالإمكانيات المتاحة وفى إطار المشاكل السائدة... وأخيرا... هاهى تحقق الإنجازات الرائعة الضخمة التى نعرفها.

ولكن لنعد إلى الوراء... إلى عام ١٨٨٣ العام ذاته الذى توفى فيه ماركس لإحياء ذكرى هذه الشروح وتلك التفسيرات حيث كان جورج بلينجانوف يتخيل أحوال ثوار الصدف أو ثوار المآمرات إذ يستولون على مقاليد الحكم، فيكتب فى مذكراته قائلا: لم يكن فى مقدورهم عندئذ سوى إنشاء اشتراكية...إمبراطورية... سلالة الـ «إنكاس» (قبائل بدائية من بيرو) .. وليكن مفهوما.. اشتراكية استبدادية... كان بلينخانوف يستعير كلمات ماركس نفسه عند إشارته إلى احتمال من النوع نفسه، حيث وصفها بنفسه بأنها اشتراكية أشبه باشتراكية الأديرة أو اشتراكية الثكنات العسكرية.

وباللجوء إلى هذا الكلام وهذه الحوارات والآراء لم يكن عودة إلى أحداث أكتوبر١٩١٧ وتداعياتها للحكم باتهام الماركسية وحدها فيما عسى أن تجاوزها التاريخ أو سخر منه ولكن الواقع الواجب توضيحه هنا أن الثورة الاجتماعية اندلعت مصادفة فى بلاد شاسعة ضخمة تعتبر من أقل بلاد أوروبا فى حركةالتصنيع التى كانت قائمة فى ذلك الوقت.

وثبت للوهلة الأولى استحالة أن تجرى أحداث الثورة على ضوء مبادئ وآراء وأفكار ماركسية صرفة أو طبقا للمخطط الماركسى الذى ينادى بأن تقوم البروليتارية بالاستيلاء على مقاليد السلطة، ولقد استولى الحزب الشيوعى على الحكم وهو الاسم الذى اتخذه الحزب الاجتماعى الديمقراطى السابق أى أن الفئة التى استولت على السلطة كانت فئة أقلية.. طفيفة زهيدة لا قيمة لها على مستوى روسيا الشاسعة وربما لم يتجاوز عدد هذه الأقلية المائة ألف شخص... كانت هذه الأقلية رغم ذلك مجموعة منظمة تنظيماً رائعاً استفادت من التشتت المروع المخيف الذى يسود عشرة ملايين أو اثنى عشر مليوناً من الفلاحين البائسين يتهربون من التجنيد فى صفوف الجيش، ويتقاتلون فيما بينهم إن دعت الضرورة فتراهم يتجهون إلى قراهم ويشرعون فى الاستيلاء على الأراضى الزراعية المملوكة للأرستقراطيين والبورجوازيين الأثرياء وممتلكات الكنيسة والأديرة وممتلكات تاج الدولة (يقصد الدولة). ويعزى إلى لينين قوله مازحاً: إذا كانت القيصرية قد تمكنت بفضل مائة وثلاثين ألفاً من طبقة الأرستقراطيية (الملاك

الإقطاعيين) يمارسون سلطات الشرطة كل فى منطقة نفوذه فلم لا أستطيع أنا الصمودبضع عشرات من السنين بحزب به ١٣٠ ألفاً من المناضلين المكافحين والمجاهدين المخلصين؟ حتى ننقض ثم نرى بعد ذلك الصمود بعد عشرات من سنين حتى وصلت روسيا إلى تحقيق درجة من التقدم والنمو الصناعى. كان يجب عندها أن تقوم ثورة معقولة حسبما تنادى به النظريات ولكن... هنا تكمن المشكلة التصدى فى روسيا ،وهى كذلك السبب الذى أدى إلى ظهور تلك الدكتاتورية العنيفة التى لم تكن «دكتاتورية البروليتاريا» وإنما دكتاتورية باسم بروليتارية فى طور النمو...بروليتارية الرؤساء الشيوعيين... وفى عهد ستالين تحولت دكتاتورية الزعماء الشيوعيين فأصبحت دكتاتورية رجل واحد مما يثير ذكريات السنوات المأساوية والأيام الكئيبة التى رانت على الحياة فى روسيا فيما سبق من أزمان ١٧٩٣ ـ ١٧٩٤ ونشأت ما أطلق عليه بـ لجنة الخلاص العام. وسبب هذا الاختلاف هو بلاشك التنظيم الحديدى العام الصارم للحزب الوحيد الذى يحرم ظهور فصيل مضاد أو معارض... على عكس ما وقع فى باريس عام ١٧٩٤ (أى فى أيام الثورة الفرنسية).

الماركسية والحضارة السوفيتية اليوم

ها قد مر زمن يقترب من نصف قرن (٤٥ عاما) عاشت روسيا خلاله فى نظام سياسى ديكتاتورى بلا حرية صحافة أو حرية الكلمة وحرية الرأى والأحاسيس وحرية القيام بالمظاهرات فى بوتقة حزب أوحد ذى بناء مقدس من حجر واحد (مونوليتيك) (تعنى أحادى الحجر وهو نظام فى البناء بحجر واحد) حيث لا تظهر على السطح أية معارضة وإلا كانت نهايتها مأساوية وقد بدأت منذ بضع سنوات فقط غداة وفاة ستالين عام ١٩٥٣ حركة تحررية أو فلنقل اتجاه بشرى؛ لأن لفظ تحررية يعد لفظاً تحقيرياً عند الشيوعيين.

المهم اتجاهه يراعى البشر... فى مسيرة بطيئة لا انعكاسات لها، وهو الاتجاه الذى أطلق عليه اللاستالينية ولم يطل به العمر إلا لساعات الضرورة والحاجة إذ لم تكن روسيا قد استطاعت بعد الخروج من براثن كل مشاكلها الداخلية وإن كانت قد دخلت عالم البلاد الصناعية الكبرى ودنياه (دنيا الشعوب المحظوظة المتمتعة بالمميزات) ولقد اكتسبت هذه المكانة بعرق جبينها وهى تحتل تلك المكانة وتمكنت، أرادت أم لم ترد، من تشييد دعائم حضارة للكتل البشرية من سكانها، وتشعر روسيا ربما للمرة الأولى بحريتها فى اختيار طريق تطورها أو تحديد معالم مسيرتها على الصعيد الداخلى على الأقل، ذلك أن أهميتها وثقلها الفريد فى مجال

السياسة العالمية ودورها من حيث هى زعيمة للأمم الاشتراكية يفرض عليها التزامات وضغوط ذات أبعاد أخرى.. داخلية. وقد منيت الماركسية بالفشل رغم أنها تطورت بعد مضى خمسين عاما من الجهود والحروب على جميع الجبهات إنها حقبة طويلة نسبياً... وهل يمكن أن تتخيل هذه المبادئ الماركسية اللينينية مذهبا لدولة تحتفظ بها وتحافظ عليها وتتطور فى الزمن نفسه إلى حد كبير، إن العكس هو ما كان يثير الدهشة، وإذا كانت الخطب الرسمية لازالت تحمل الألفاظ المقدسة من أمثال صراع الطبقات (أى التطبيق العملى فى الفلسفة الماركسية لتغيير وسائل الإنتاج) والعبودية والإقطاع والرأسمالية وإفقار الطبقات النسبى أو الجدل الديالكتيك المادى أو الأساسى والعمق المادى أو نشوء مجتمع خالٍ من الطبقية يعيش فى سعادة رائعة... كان لكل هذه التعبيرات وهذه الألفاظ مدلولها حيث حققت تطوراً مس الحياة ذاتها.

ألم يرد على ألسنة الإنتليجا نسيا (طبقة المثقفين) الروسية فى بداية هذا القرن واتخذها الثوار شعارا لهم يقول بأن لا قيمة لأى فكرة إلا إذا تجسمت فى الحياة العملية... فى البراكس (التطبيق العملى)... نظام ماركسى قائم على سلسلة من الأفكار المتصلة بعضها ببعض لم يكن لها أية قيمة إلا بعد أن ألقيت فى مضمار التجربة التى عايشها ملايين البشر وهى تتفاعل فى ميدان الإنجازات التى حققتها على الرغم من الضربات المضادة التى واجهتها. وعلى العموم فإن الماركسية بالنسبة لأنصارها هى المفهوم المدرك للدنيا الذى يتجاوز ذاتيته فيما ما يقوله كذلك المراقبون المؤيدون بعطف. وقد طرأت على شيوعية القرن العشرين تحولات شبيهة بتلك التى وقعت للعقيدة المسيحية منذ القرن الأول حتى القرن الرابع، ولاشك يحتاج الأمر إلى خبراء فى قضايا الضمير لإحصاء هذه التغييرات والتحولات والخيانات والتحريفات والمهرطقات التى اتهمت بها الماركسية حتى فى عقر دارها ذاته، ولاشك أن عدد هذه الإحصائيات مفيد بشرط عدم عزل أى تفصيل كان ومهما كان ذا دلالة بل وبلا دلالة تذكر، وليس لسجل هذه الإحصائيات مغزى إلابمدى ارتباطها بالتجربة الجماعية التى تفسر ونفسرها، وهنا يمكن أن نقول إن اختيار التجربة السوفيتية ليس هو أهم الاختيارات أو أوضحها

فيما مرت به التجربة السوفيتية، فالحق إن ٥٠ عاما تعد زمناً طويلاً نسبياً للبشر الذين عايشوا التجربة على توالى ثوراتها والمحن التى مرت بها، إلا أنه يظل زمناً غير كاف حتى يتخلص التطور الأيديولوجى والاجتماعى والثقافى فى ارتباطاته بالماضى ويجب أن يكون لدينا مقدرة التمييز بين ماهو شاذ مضلل، خاصة خلال الفترة الانتقالية على الأقل حتى عام ١٩٣٠ أو بل ربما لأبعد من ذلك، وبين ما كان وسيظل فاعلا إيجابيا للحكم على العلاقات النهائية الحاسمة بين أيديولوجية مفروضة بعنف ومجتمع يخوض تجربة لم يخطرها ولا اختار معايشتها ولم يدرك معناها إدراكا كاملا وذلك على الرغم مما كان يتمتع به ستالين من إرادة حديدية فى مواجهة ضرورات اجتماعية فارضة ومسيرة اقتصادية ضمنية خلقت طبقة اجتماعية استحوذت وبالطبع على امتيازات لأفرادها. وكان أحد الجامعيين يقول ساخرا: «نحن نمثل البورجوازية السوفيتية إلا أن هذه النزعة الطبقية لا يمكنها إقامة مجتمع طبقات إلا إذا احتفظ بهذه الامتيازات التى لم يحصلوا عليها إلابحكم وظائفهم، والاحتفاظ بها لسلالتهم من الأبناء والأحفاد وأغلبها امتيازات تمثلت فى فوائد تعليمية وفوائد مالية وفوائد وظيفية يرثونها عن آبائهم». وعموما فأمثال هذه الاتجاهات والميول حتمية طبيعية فى كل مجتمع تسود فيه حياة أسرية. ولم تتمكن الشيوعية من تدمير هذه النزعة فى أنحاء الاتحاد السوفيتى، بل يمكن القول بأن ستالين ساهم فى تدعيمها كما أن هناك مشكلة أساسية هى المحاولات والمبادرات السوفيتية لإقامة نظام إنتاج زراعى سليم بشكل جماعى فاشل إذ يبدو كأنما اصطدم بمقاومة طبقة من الفلاحين فى القرى قسا عليها ستالين وأساء معاملتها النظام الستالينى فى الحكم بالأمس. أليس هذا الوضع المزعج من الفلاحين الذين تصفهم الروايات والقصص برد فعل طبيعى ونتاج ثقافة تقليدية انتزعت فجأة وعنوة من بيئة عاشوها قرونا لتدخل فى سعير بوتقة اقتصادية تستهدف التحديث العصرى السريع، ويبدو أن الوضع يواجه كل بلد تسرع فى عمليات التصنيع مهما كانت الحلول المتبناه... وعلى أىٍ هل قيلت الكلمة الأخيرة فى هذا الشأن؟ وهل هناك كلمة أخيرة تقال؟ وفى الحوار الدائر بين الأيديولوجية السوفيتية وبين الكنيسة الأورثوذوكسية بشأن الفصل الدينى فصل نظام الحكم

مذهب المادية المكافحة أو الصدمة العقلانية أو عقلانية الصدمات لا الأفكار... إنكار وجود الله وإنما إيجابية الإنسان أو الحتمية العنيفة لدى الإنسان فلم إذن نقم بإضفاء قيمة جديدة على المعتقدات الأورثوذوكسية بل أدت إلى نوع من التفاهم بين الكنيسة وبين ستالين الذى لم يُعد بطريركية موسكو التى ألغاها بطرس الأكبر، وكان يوم ٧ نوفمبر ١٩٥١ يثير ذكرى الأمير اليكساندرنيفيسكى من قديسى الكنيسة. ومما لاشك فيه أن غالبية المؤمنين المخلصين للعقيدة ممن يروحون ويجيئون ويؤدون صلواتهم - كما يحلولهم - كانت من كبار السن، ومع هذا كانت الدولة فى طقوس التعميد وحفلات القران ومراسم الوفاة تحيط هذه المراسم وهذه المناسبات وتشرف على تنظيمها، وكل ذلك يثبت بأن هناك صراعا يستوجب ملء فراغه. وأخيرا ألم تنس الأجيال الجديدة تناسيا متناميا مآسى الماضى الأليم فى ظل نظام تعليمى وتثقيفى ماركسى - لينينى يكاد يشبه الديكارتز يانيزم (فلسفة ديكارت) الغربية المقبولة ومع ذلك فهى تتلاشى من الضمائر فى بلاد الغرب بمالا يؤدى إلى العدول عن المذهب الشيوعى... حقائق لم تعد تجدى مناقشتها كل لحظة فبين ٢٢٠ مليون سوفيتى تسعة ملايين فقط أعضاء فى الحزب، والمبادئ الماركسية اللينينية هى موروثاتهم والكلمة الآمرة بينهم ولغة كل يوم... ولكن... ما موقف الآخرين؟

على أى حال فإن الذى يشكل بعمق نمط الحياة السوفيتية إنما هى حركة التصنيع الضخمة التى تخضع لظروفها آفاق المستقبل القريب فبتكاتف الكل مستهدفين النجاح فى تنميتها وتخطى عقباتها ومعالجة أخطائها ولاشك أن حركة التصنيع هذه تكلفت الكثير من المعاناة أى سدد ثمنها غالبا على الصعيد البشرى والإنسانى، حيث أن روسيا عام ١٩١٧ لم تكن تملك قواعد جاهزة وفرتها الرأسمالية سلفاً فكان عليها واجب تشييدها. وهكذا أخذت الدكتاتورية الستالينية هذا المنحنى الرهيب الفريد وتولت المهام الرئيسية التاريخية التى كانت الرأسمالية قد أرست قواعدها فى بلاد أخرى... رأسمالية عصر الحديد ولا يمكن تفسير نظام حكم ستالين تفسيراً كاملا سليما بالإشاره إلى نزوات وأطماع رجل نشوان بسلطاته ولا بالإشارة إلى حتميات اشتراكية وليدةٍ يرغب فى التطور ولا بضرورات نظام

شيوعى، فهى كلها عنوان تخلف كان قائما يراد إزاحته عن طريق التقدم. فكان أن أستعيرت صيغة مجتمع الدولة، أى تدخل الدولة القاسى، الذى يلجأ إليه بحجة تخطى العقبات بسرعة وبالاستثمار الآدمى. وتوالى مراحل مسيرة التصنيع فى بلد زراعى متخلف على الصعيد الزراعى نفسه وهاهى هذه المأساة نفسها تبدأ من جديد تحت أنظارنا فى الصين... فى الوقت الذى كادت روسيا أن تتخلص منها، ولازال النقاش دائرا حول ما إذا كان الهدف الاقتصادى قد تحقق إذ يدور هذا النقاش بين أوساط المتخصصين اليوم وسوف يستمر طويلا طالما أدت أرقام الإحصائيات إلى إثارة الشكوك فهذه بدورها تؤدى إلى الاختلاف والخلاف والمناقشات، أما لغة هؤلاء المتخصصين فلغة عالمية حيث يقيسون الشعوب فيما بينهم كما يفعل الأطفال وهم يقيسون قاماتهم على أن تكون أداة القياس واحدة، فقد نما الإنتاج الصناعى فى المتوسط كل عام بـ ٧,٧٪ فى فرنسا بين عام ١٩٥٣/ وعام ١٩٥٩ وكان رقم القياس عام ١٩٥٩، ١٥٦ بالمقارنة بعام ١٩٥٣. وعموما فليست المقارنات مقارنات مباشرة، ذلك أن الغربيين يحددون المقياس بالقيمة الصافية ويحددها السوفييت بالقيمة الإجمالية. ويوضح لنا عالم الاقتصاد الروسى سترولينين أن الزيادة الرسمية فى الإنتاج الصناعى المحسوبة بالقيمة الإجمالية تعطى المؤشر ٢٢,٩ لعام ١٩٥٦ أى ٢٢,٩ ضعف إنتاج ١٩٢٨، غير أن هذه النسبة تنخفض إلى ١٤,٧ ضعفاً إذا احتسبنا الإنتاج بالقيمة الصافية، وفى مثل هذه الظروف كم من أعداء اتحاد جمهوريات روسيا الاشتراكية وخصومه دأبوا على مجادلة هذه الأرقام. على أيٍ إذا افترضنا أن الهدف الاقتصادى لم يتحقق كاملا فقد أصبح بلاشك على الأبواب ويمكن للمرء أن يلمح نجاحاً خارقاً فى الطريق بفضل ما تحقق من نجاح فى سيبريا، وفى أماكن أخرى وقع كثير من التحولات وأنجز فى المجتمعات الروسية بفضل تنامى الإنتاج الصناعى، وفى الوقت نفسه انقلبت أوضاع كثيرة فى حياة العالم السوفييتى كله وبدأت قواعد بنيان جديد ليترسخ:

(١) أولا نزوح الفلاحين إلى المدن حيث تشير الأرقام إلى أهمية التغيير فقد كان الفلاحون الروس عام ١٩١٧ يمثلون نسبة ٨٠٪ من السكان وعمال الصناعات

٥٪ ثم وصلت عام ١٩٦٢ نسبة الفلاحين ٥٢٪ فى مقابل ٣٥٪ للعمال وأفراد السلك الإدارى، وفى هذه المدة القصيرة نفسها تضاعف عدد البيروقراطيين (موظفى المكاتب) عشرات المرات والمثقفين مائة ضعف على الأقل وبذلك بدأ الزحف الهائل فى اتجاه المدن التى امتلأت بالناس على حساب القرى باستثناء ليننجراد (عاصمة القياصرة) التى احتفظت بطابعها المميز وأصبحت المدن القديمة الجديدة بما فيها موسكو تشبه مدينة شيكاغو فى كثافة سكانها، وكلها أخذت طابع القرى الريفية حيث جلبت غالبية السكان وأولاهم من طبقة المثقفين والطلبة عاداتهم وتقاليدهم التى لا تخطئها العين وبدأت تنمو سلالة جديدة من السكان اجتاحت كل شيء وكل ركن ابتداء من أقل الوظائف تواضعا إلى أعلا وظائف الأبحاث التقنية والعلمية وهى قمة السلم الإجتماعى فى الاتحاد السوفييتى (فى روسيا)، وفى الوقت الذى كان ستالين يقوم فيه بتصنيع روسيا بمعدلات لم تكن معروفة قبل ذلك كان يفرض على الفلاحين نظام التكامل الجماعى محررا بذلك عددا كبيرا من السواعد، دافعا الفلاحين على الرغم منهم على غزو المدن، وكل ذلك وقع فى بضعة أعوام فقط. وفى عام ١٩٤٧ كان من السهل التعرف على جذور الفلاحين دون عناء، من أسلوب أرتداء الملابس بشكل بدائى وفى طريقة تحركهم البطئ وكيفية ارتمائهم فى صياح وضوضاء على الأوتوبيسات. وفى ١٩٥٦ حدث بعض التغيير إثر تأقلم الفلاحين بحياة المدن الحضرية وبالتالى ظهر عندئذ تحسن فى مستويات المعيشة، وبدأ الفلاح يتخذ مظهرا أفضل مما سبق ولم يعد الزائر عام ١٩٥٨ يعثر على أطفال أو نساء يمشون حفاة، وتغيرت فى السينما والمسارح المظاهر والسلوكيات إلى الأفضل بل يمكن القول أنها صارت نموذجية واختفى الأرتباك القروى، ومع ذلك ظلت الأصول القروية تبدو ظاهرة فى آلاف من أنماط السلوكيات، وهكذا نجد النساء فى ليننجراد ـ دليلا على التناقض ـ أكثر أناقة، ولغة الكلام أكثر رقة وعذوبة، (فعلا نشاهد ليننجراد أجمل مدن روسيا على الإطلاق) دليلا على التناقض ويكاد الانطباع العام السائد فى هذه المدينة يوهمك أنك فى مدينة أوروبية قديمة راقية فضلا عن مينائها ذى النشاط الدائم منفتحا على الدنيا كلها ولم يغرقها النمط الريفى وعلى الرغم من

ضواحيها المليئة بالمصانع فهى تظل وحدها بعيدة عن هذا الامتزاج الغريب الذى يوشك أن يكون الطابع المميز لروسيا الغد. هذه الحركة لاشك هى التى تضفى على موسكو مظهر العاصمة.

(٢) زحف طبقة الفلاحين إلى المصانع والمدارس، وجاء تدفق الأيدى العاملة وتكاثرها المندفع ليغمر العمالة الممتازة الماهرة فاحتل الفلاح المصانع بجهله وقلة مهارته أمام الآلة ككل فلاحى الدنيا حيث يتحول بين يوم وليلة إلى عامل بلا إعداد مبدئى أو تدريب فكان انتاجه فى بداية الأمر انتاجا زهيدا تافها فعالجوا انخفاض الإنتاجية بمضاعفة الأيدى العاملة كما وقع التدفق نفسه والاندفاع نفسه من الفلاحين وأولادهم نحو المدارس ثم الجامعات فيما بعد. كانت نسبة الجهل فى روسيا عام ١٩١٧؛ ٧٥٪ من الأميين، ولعلها أكثر من ذلك واليوم تختفى الأمية تماما بما يفسر ذلك تضاعف المكتبات وقاعات القراءة والمؤلفات والمطبوعات الشعبية من المؤلفات الروسية الكلاسيكية بأعداد هائلة قدرت بمائة مليون نسخة من كل مؤلف وبثمن زهيد جدا، حقا كان ورق الطباعة رديئا غير أن الثمن الزهيد قد أتاح للكافة أقتناء ما يريد، وإلى جانب ما حققته المؤلفات الكلاسيكية من نجاح فكان هناك سبب آخر يفسر الظاهرة؟ ذلك إنما يعود إلى ضعف المعاصرين من الأدباء وغياب صحافة مسلية سهلة. وعلى العموم كان ما بذل من جهد فى التعليم جبارة كما كان الأمر فى مجال الإذاعة والتليفزيون والأسطوانات وكان هذا التطور الثقافى الثورى وحده أشبه بثورة ثانية إذ أدت هذه الانتفاضة الثقافية كما يقول روز نفيلد إلى ثورة اجتماعية تتمثل فى رغبة ملحة فى التحرر والتثقيف والتعليم وارتقاء السلم الاجتماعى فى أسرع وأقصر وقت... أو كما وصفها بعض النقاد (معرضين) «مفرضة ضارية» (لاشك يتحدث الكاتب هنا عن سرعة توصل أى توصيلية بأكثر وأدق مما تعنيه كلمة وصولية) أى رغبة فى الوصول نهم إلى الثقافة، يعنى زيادة فى الدخل وارتقاء فى المستوى، وعموما كثرة (اكثار) عدد طلاب الجامعات والمدارس الفنية ودور التعليم بالمراسلة أو فى الدورات والفصول المسائية، وازدادت الأعداد بمرور الوقت واحتل ابناء الفلاحين المراكز الأولى. وهكذا تمكنت روسيا من إعداد ما كانت تصبو إلى تحقيقه من الكادرات المثقفة

القادرة كالمهندسين والباحثين والمتخصصين والضباط وأساتذة الجامعات من بين ينابيع البشر وخزائنهم اللذين لا ينضبان. وذلك ما حدث فى فرنسا مع عصر الإصلاحات فى المدارس على يد جول فيرى.

وتلا ذلك فى روسيا صدور قوانين مجانية التعليم الثانوى والجامعى على مستويات أعلى من المستويات الفرنسية المشار إليها. صحيح حدث هذا التطور ببطء فى فرنسا ولكنه كان فى روسيا بسرعة مذهلة بما يشبه قفزة واحدة مع بعض الصعوبات بلاشك، مما أتاح لنا التعرف على أن التعليم الثانوى لم يكن مجانيا فى روسيا فيما بين ١٩٤٧ و ١٩٥٦ بما يثير الدهشة والحيرة.

(٣) انخفاض مستوى التعليم عن المستوى العام، ولاشك أن الإنسان الروسى الذى نتحدث إليه اليوم ليس هو روسى الأمس الراقى المهذب، فالتعليم السائد إنما يحقق منفعة محددة إذ يصنع سلسلة المثقفين اللازمين لمسير دفة الحياة العصرية... جموع من المتخصصين ابتداء من المعلم حتى المهندس وأستاذ الجامعة كذلك وأنصاف مثقفين كما يقول أحد المراقبين. وعادة ما يكون متسامحا، هل هذا الرأى صحيح؟ نصف التعليم للغالبية من السكان، هل هذه ظاهرة جديدة تنفرد بها روسيا؟أو هى ظاهرة خاصة بحضارة تكتلات بشرية فى دور التكوين فى كل البلاد المتقدمة فى المجال الصناعى فى كل من أوروبا وفى أمريكا. فالتعليم عند تعميمه يميل إلى التخصص وينخفض مستواه على المستوى الثقافى العام، ولعل عدد الصفوة الحقيقية المثقفة لم ينقص بل ظل على أسوأ، ولايزال ثابتا فبدلا من طبقة عريضة مثقفة وسط جماهير أمية جاهلة فى كنف حضارة تقليدية فإن الحضارات العصرية تقدم وتقر مع الصفوة بطائفة من الأميين كتائب وأفراد لا يمثل التعليم فى مفهومهم إلا ما ينطوى عليه من أداة عمل لا أداة تشكيل ثقافى رفيع. وعلى أى حال فإن المثقفين والعلماء والأساتذة السوفييت يرون عند بلوغ مستوى عالٍ أنهم مع أقرانهم فى البلاد الأوروبية أو الولايات المتحدة الأمريكية متساوون خلفاء كذلك وورثة للجذور الثقافية نفسها، فإن مثقفا من أهل باريس لا يشعر بتغيير ما عند التحويل من جامعة فرنسية إلى أكاديمية العلوم فى موسكو يكاد يشعر بأنه فى بلده وفى إطاره التعليمى سواء فى جدله الثقافى مع أقرانه فى

موسكو أو مزاحه معهم فهو يفهم ويدرك وهم يفهمونه ويدركون ما يريد تماما... بما يعنى أن فترة طويلة على مدى أربعين عاما من انعزال مادى انفصلت فيها وتقطعت كل ما كان بين السوفييت وأوروبا من علاقات لم تفرض تأثيرها... وهو انطباع مثير للدهشة منذ الوهلة الأولى، ولكنا نجد فى الوهلة التالية أن أوروبا وروسيا فى مطلع القرن العشرين كانتا منغمستين فى بوتقة حضارة متشابهة.. حضارة واحدة، فما قيمة أربعين عاما إذن أمام حقائق الحضارة؟ فلم يحدث على الرغم من الهزات الشاذة والتصدعات فى البنيان الاجتماعى أن انفصلت بلاد الاتحاد السوفييتى عن جاراتها فى أوروبا وكانت لا تزال عام ١٩٦٢ تابعة تبعية تامة لحضارة ١٩١٧ أى لحضارتنا.

(٤) ويبدو أن الفنون والآداب تناقض هذا التأكيد إذ كان واجبا البحث عن أفضل الشواهد على المجتمع السوفييتى الذى يبدو باهتا، غير أن نظرة على المؤلفات الأدبية كفيل بإعطائنا مثلا واضحا على الحياة فى هذه البلاد... الحياة اليومية للناس بل وعلى أوضاع الكتاب والفنانين السوفييت، ولغة الفنون والآداب لغة مشتركة وإن خضعت لظروف قهرية عند بداية عصر ستالين، حوالى عام ١٩٣٠ ، إذ هوجم من المثقفين من لم يخضعوا لسياسة النظام الحديدى الذى فرضه ستالين، كما رفضوا الإنضمام إلى اتحاد الكتاب البروليتاريين فى خطة السنوات الخمس ،وكان اتحاد الكتاب نفسه هو الصفعة الأولى إذ حل فى تزامن مع انشاء اتحاد مماثل للفنون التشكيلية والموسيقى عام ١٩٣٢ وحل محل منظمة وحيدة تحت الإشراف المباشر للحزب. وقد كان الفنانون والأدباء يومئذ مدعوين ليصيروا مهندسى النفوس الإنسانية. وقد أوضح جيدا نوف عام ١٩٣٤ سكرتير الحزب مبادئ عقيدتهم بأنها «منهاج الواقع الاجتماعى» وكان المطلوب وصف الطبيعة المادية التاريخية للواقعية الاشتراكية وصفا أمينا صادقا خاصة تمجيد الإنتاج وظروفه بصفة استثنائية وبذلك يساهمون فى التطور الأيديولوجى وتعليم العمال والصناع فى الإطار الاشتراكى كان الواجب أن يكونوا ملهمين (بكسر الهاء) بألفاظ جيدا نوف وكلماته ويؤلفوا كتبا تبعث على الحياة المثالية حيث يبدو الأبطال موزعين بين أبطال إيجابيين وهم الشيوعيون الحقيقيون وأبطال سلبيون

وهم سائر الآخرين والطلائع الذين ازدهروا فى كافة الميادين فى بداية الثورة وظلوا حتى اليوم يشار إليهم بأنهم أتباع الفن اليسارى حيث صدرت الأوامر بمطاردتهم ومحاكمتهم مثل الـ (الشكلاويين أى الذين يتمسكون بالشكليات)، وبذلك أمكن القبض على عدد من الكتاب ومديرى المسارح واختفوا بصورة غامضة، ولاذ أغلب الكتاب المرموقين وأصحاب المنزلة بالصمت أو نصف الصمت وكان منهم تشولكوف مؤلف «الدون الهادئ» ظهرت الأجزاء الثلاثة الأولى بين عام ١٩٢٥ و ١٩٣٣ والجزء الرابع عام ١٩٤٠ وتوقف عن الكتابة حتى وفاة ستالين، وتصاعدت بعد الحرب فى سبيل مواجهة نفوذ دول الغرب الفاسد المتعفن مدة ضغوط جوردانوڤ، وفرضت رقابة مشددة على الأدب والمسرح والسينما وكان أقل انحراف ينزل بمرتكبه العقاب الصارم. وفى عام ١٩٤٨ هوجم الفن هجوما شرسا وشنت الحملات الضارية على كل من الموسيقار بروكوڤييڤ وشوشتاكوڤيتش وفاتشوا توريان شمل ذلك كل هؤلاء المؤلفين الموسيقيين العباقرة بسبب هرمستهم (أى الإبهام المبهم) وبسبب تفاوتهم بين المبادئ والتصرف كان مثلهم عامة كمثل سائر طبقات الشعب حيث أنزل الفنانين إلى الحضيض واتسم هذا العصر بالشكليات والتفاهة وقلة الإنتاج. فهل غير موت ستالين كل هذا، الرد، نعم ولا، وقد كان رد الفعل سريعا فوريا... الانفراج العنيف... غير أن هذا الانفجار التحررى بدا خطيرا ذا عواقب مدمرة ولذا أمكن أخيرا كبح جماحه. فى نهاية عام ١٩٥٣ و ١٩٥٤ ظهرت المسرحيات الساخرة من القياصرة فى المجتمع الروسى وظهر مقال لنا قد صغير فى صحيفة عن أن الصدق فى الأدب تنقلب سطوره إلى سخرية لاذعة من الانفصام التقليدى بين الشخصيات الإيجابية والشخصيات السلبية، وعلى الرغم مما وقع من عقوبات فقد أثار نقد الشخصية أو اللاستالينية حريات أخرى منها حرية التعبير... وعودة مئات الآلاف من «المبعدين» والإعلان عن الغاء العقوبات المغلظة مما آثار زوبعة كبرى بين أوساط المثقفين، وبدأ الصامتون يتكلمون بصوت مرتفع خاصة الأدباء والكتاب ممن آثروا الانزواء والصمت فى عصر ستالين مما آثار دهشة الحكام فى عام ١٩٥٧ شنت حملات التوبيخ على رجال الأدب والفنانين وطلب منهم الكف

عن الدعوة إلى أى «مراجعة» ومحاولة تجميل الواقع السوفييتى وصقله مع عدم رميه بأوصاف خارجة كالطلاء بالأسود... كانت تلك هى خطوط سياسة خروتشوف وواضح أن هذه السياسة تدين أساليب الحكم الستالينى ولم تعد العقوبات توقع على المعارضين الساسيين ولا إعدامهم، وتريد نشر مفاهيم تحررية فى المجالات الثقافية والعلاقات مع الخارج إلا غير فتح الباب لدخول حملة انتقادية لعهد ستالين آثار من كان ينظر بإعجاب من الشباب إلى ستالين... إذ معنى ذلك تعريض نظام الحكم للخطر.. نظام الحكم فى الداخل ومكانة الاتحاد السوفيتى زعيم البلاد الاشتراكية فى العالم واحتمال المجازفة بمكانة الاتحاد السوفيتى على الصعيد الدولى ... وأسرعت الحكومة عازمة على التصرف بدون تخاذل. وساهم الجمهور السوفيتى فى هذه المرحلة من الصراع بميله إلى الاستماع للخطب الشعبية ومشاهدة المسرحيات الكلاسيكية الروسية أو الخارجية، والإقبال على التراث الشعبى (الفولكلور) سواء كان مأثورا روسيا بحتا أو مقتبسا وعلى مشاهدة الأوبرات الكلاسيكية التى كانت طبقة الفلاحين قد بدأت تكتشف روائعها، ومن هنا يأتى ما حققته أوبرات فاوست ولا ترافياتا وكارمن من نجاح، وقد نافست رقصات الجيش الروس أو بالية تشايكوفسكى «لبحيرة البجع»، ومع ذلك يجب هنا التحفظ لأن حرية التعبير التى ينادى بها ويتمناها الكتاب والفنانون لم تتحقق بعد .. إنها أعتى مشاكل الاتحاد السوفيتى وقضايا حاضره ومستقبله.

(٥) لم يعد مجد علماء الرياضة والعلوم ينظر إليها كعلوم بحته بل ينظر إليها فى إطار يقترب من الإشراق والزهو ولآلاف الأسباب كانت ميادين العلوم قطاعا ثقافيا عادة لا رقابة عليه تقريبا، وكثيرا ما كان العلمى لادخل له فى هذه المجادلات السياسية والأيديولوجية الناشبة كان بمقدوره التهرب منها والابتعاد عنها، فضلا عن أن الروس كانوا دائما خبراء لا نظير لهم فى الرياضيات بالإضافة إلى أن الحكومة لا وفرت الاعتمادات ولا أوزعت بها. أما على الصعيد العلمى فى الأبحاث فقد كان للتحكمية ميزتها إذ تميل الأبحاث فى البلاد الرأسمالية إلى التشتت حسب مختلف أنشطة الصناعة على حين رأيناها فى الإتحاد السوفيتى تنجذب نحو الاختيارات الحكومية، ذلك أن الصناعة على عكس

الأبحاث التى استفادت مع التنظيمات العلمية إلى جانبها، فلم يعد البحث العلمى اليوم هو الأفضل إذ هو ثمرة عالم هو دائما الأفضل هو ما يمنح لفريق... فهل الفضل لأكاديمية العلوم فى الاتحاد السوفييتى؟

وماهى النتيجة... أن يخرج الاتحاد السوفيتى من الصعوبات القريبة التى تطفو على سطح النجاح المذهل الذى تحقق على الصعيد المادى. هذه الإنجازات الرائعة موجودة، إلا أن إرساء الكيان الصلب بناء لم يتم بعد... تفوق الذكريات الأليمة وكذا رنين التجربة الذى لا يزال يدوى فى جميع أنحاء العالم، ففى الوقت الذى كادت روسيا تتحرر فيه من اختيار قدرها على الصعيد الداخلى إذا بها مضطرة لتقدير حساباتها فيما يخص جدوى أفعالها على الصعيد الدولى وهى تدفع الثمن بالحد من حريتها إلى مدى معين.. حد يفوق حركة اللاستاليقية وتدفعه كذلك من أعلا طبقات بنيانها.. فى الفنون والآداب وهو مجال الهروب من الحيرة وتملص من المعوقات وبدون ذلك لا تستطيع حضارة أن تتقدم فى مسيرتها وحدها حتى نهاية الطريق بل ولا تستطيع كذلك التعبير عن ذاتيتها والأمل معقود على الطبقات العليا لبنائها أن تزدهر فجأة... بضربة واحدة.. بقفزة واحدة كالقفز فوق شجيرات التفاح بميدان البولشوى عند شروق أول أشعة شمس دافئة فى فصل الربيع.

مؤتمر أكتوبر ١٩٦١

ألقى المؤتمر الثانى والعشرون للحزب الشيوعى السوفيتى بظلاله على الأوضاع المأساوية للاتحاد السوفيتى اليوم، وليس الموضوع ماهو مندلع من تنافس بين الأشخاص أو إعداد قائمة بالاتهامات والإبعاد عن الحزب أو الأموات الأحياء أو الأحياء الأموات أو سرد الأحداث التى تشبه إلى حد كبير أحداث قصص دستويفسكى .. شخصيات تتعذب وتعذب، مثل قصة الأخوة كارامازوف. إنما المهم هو الحضارة السوفيتية نفسها وهى تواجه اختبارات ومهام صعبةعلى الصعيدين الداخلى والخارجى ويكون مستقبل الاتحاد السوفيتى تحقيق النجاح فيها أو تخطيها وأولى هذه القضايا مشاكل الجنسيات الدخيلة الطارئة؛ فالأجناس والحضارة غير الروسية عديدة فى مجموعها وثانى المشاكل مستقبل الحضارة السوفيتية المادى، ولكن هل هو مستقبل مادى فحسب؟ وثالث المشاكل مستقبل الشيوعية الدولية التى تفقد هى الأخرى تكتلها الوحيد بالأمس حتى تصبح متعددة المراكز وترك الأمر بين أيدى النظم الشيوعية الوطنية.

فأما المشكلة الأولى فنجد أن اتحاد جمهوريات روسيا الاشتراكية السوفيتية يريد ويرغب كما يدل اسمه فيما يمكن أن نطلق عليه فيديرالية جمهوريات... جمهوريات هى فى حقيقة الأمر جمهوريات مستقلة أصلا إلا أنها مرتبطة معاً

فهل يتحسن مثل هذا التعايش أو التواجد مع آخرين ويؤدى إلى بزوغ نجم حضارة متوحدة .. وقوية ؟ هذا التوحيد حققه القياصرة قبل عام ١٩١٧ ، فبعد عصور من التفتت ولم الشمل ثم التدعيم ثم الاتهام .. إلخ . ولازال التوحد مشكلة صعبة بدون حل حاسم وعلى الرغم من استقلالياتها فلا واحدة من هذه الجمهوريات يمكن اعتبارها «فعلا» مستقلة ... ودفاعها وقوات الشرطة فيها ومواصلاتها تعود إلى أوامر السلطة المركزية ممثلة فى مندوبين قابعين فى قلب اللجنة المركزية لكل جمهورية ، وقد اندلعت ثورات وطنية وأخرى شوفوثية (أى متزمته) ولكن سرعان ما كانت الوشاية بها وإجهاضها ووقعت مصادمات محلية وأمكن إعادة جورجيا إلى حظيرة الاتحاد عام ١٩٢١ أما دول البلطيق المحررة عام ١٩١٨ فقد ضمت إلى الاتحاد عام ١٩٤٠ ثم أعيد احتلالها عام ١٩٤٥ وكانت قد حصلت فى عصور القياصرة على نظام حكم مميز لم يمنح لها مرة أخرى .

وفى عام ١٩٤٩ ـ ١٩٥١ وقعت أزمة فى قرغيزيا بشأن الأناشيد القومية التى اصدرت السلطات قراراً بتحريمها ، كما يصدر مجلس السوفييت الأعلى فى أذربيجان عام ١٩٥٨ قرارا لا يعترف بغير لغة آزيبه . ذلكم ركام من المشاكل بين المصالح الوطنية والثقافية واللجان الأصلية والذكريات التاريخية والولاء للشيوعية وعدم الولاء لها والتدخلات اللاشرعية وفترات الهجرة والتهجير فى كل هذه الجمهوريات ، من الروس أو من الأوكرانيين ، ... وبالتالى ركام من النزاعات والصراعات تشبه النمط الاستعمارى بعد استصلاح الأراضى الجديدة البكر وحرثها حيث تكاثر الروس ففاقوا القوزاق فى كازاخستان ، وقد نبأ روسيا مقدما بسياسة سوفيتية واحدة ممكنة التحقيق لصيانة وحدة أراضيها وحماية التعايش المشترك بين سكانها والاتساق الضرورى للكافة ، ولو على حساب بعض التنازلات المعقولة ، وذلك بحكم ما تمثله هذه الجمهوريات من جزء صغير فى شموخ البناء السوفييتى الشاسع وذلك فى تلك السياسة التى تجلت فى مناقشات المؤتمر الشيوعى عام ١٩٥٦ إذ وقعت تطورات هامة أشبه بما كان فى عصور الاستعمار وانحساره فى البلاد الغربية وذلك مع الفارق المأساوى بالقياس إلى الاتحاد السوفيتى حيث الجمهوريات متجاورات متلاحمات جغرافيا وجسديا ، كما برزت فى المؤتمر مشكلة

التجانس فهل يقدر للاتحاد السوفيتى تحقيق النجاح فى حل جوانب هذه المشكلة التى أخفق فيها الغرب تماما؟ ويصرح سكرتير الحزب الشيوعى فى كازاخستان عام ١٩٥٩ أن أطروحة لينين قد ثبتت صحتها بانصهار الأمم والشعوب بانطلاقهم معا فى شراكة واحدة وممارساتهم التجريبية وأكدتها تجربتنا.

ذلك قول صحيح إذ تؤكد هذه النظرية تجارب الماضى بشأن مشكلة الاستعيابية وما يساعدها من السياسات المشتركة الموحدة وتبادل التنازلات وضرورة التعايش سويا... فكلها براهين لها وزنها بالإضافة إلى التشكيل بالممارسة العملية للمبدأ الشيوعى الذى ارتضته الكيانات الجديدة على مدى أربعين عاما وتنصهر فى بوتقة واحدة تضمها حضارات صلبة إلا فيما نشأ فى مشكلة اللغات الوطنية من اعتراض وعناد ومكابرة، وفى ذلك ما يدل على أن جمهوريات الإتحاد السوفيتى لم تتخل عن حضاراتها المحلية الوطنية ولا يزال التعايش دائرا والجدل ساريا والباب مفتوحا، ولعلنا نتساءل ألم يطور كل هذا الإنجاز من الصراع ضد الأمية والجهل والارتقاء بالتعليم العام فى الاتحاد السوفيتى من الضمير الوطنى لدى شعوب آسيا الوسطى؟

ثم إن الازدهار والبورجوازية والإعلان عن خطة عشرينية تقود الاتحاد السوفيتى فى مسيرته إلى تحقيقه لرفاهية المجتمع الشيوعى لا يبدومشروعا عبثيا لا يجدى. ويختلف الخبراء كالعادة حيث يدرك البعض أن لدى الاتحاد السوفيتى من الوسائل ما تحقق هذه القفزة إلى الأمام نحو الرفاهية وحيث تتدفق عناصر الأجيال الصاعدة لتأخذ مكانها فى مسيرة الشعب نحو التقدم، يملؤهم الحماس ويملأهم شعار الإنتاج الدافع مهما يكن شكله ومهما تكن أو تكون عليه علاقة الإعلان عنه إذ يسيطر على الحياة فى الإتحاد السوفيتى عام ١٩٦٢ مسيرات التقدم السريع نحو المراحل الأخيرة للثورة الصناعيةحيث فتحت سياسة خروشوف الأبواب لاستقبال هذا المستقبل الواعد القريب حيث ركزت خطة السبعين عام ١٩٥٨ على الصناعات الجديدة التى تتحكم فى بعض أنماط الاستهلاك المعقد من اليكترونيات والبكتروميكانيكيا وقوى للطاقة النووية ومواد البلاستيك والتخليق الكيمائى أى كل الصناعات التى تساعد على نمو طبقة من المستهلكين المتعطشين

فضلا عن طبقة عمالية جديدة ترتدى القمصان البيضاء دليلا على مهارتها وأنها من فنيي الصناعة (خبراء متخصصون في توفير ماهو ضروري لمعيشة الناس) الباحثين عن مكاتب الدراسات والأبحاث، وعلماء المعامل. لاشك تؤدى هذه القوى الإجتماعية الجديدة إلى انتقال الاتحاد السوفيتى إلى الديمقراطية الحتمية فى حقبة لعلها تطول شيئا ويجب على هذه الانطلاقة وهذا الضغط أن يفتح لنفسه طريقا بين القوى الناشطة والقوى الخاملة في المجتمع فى الحزب الشيوعى. ومن البديهى أن يحاول الحزب صيانة منجزاته لتحقيق قدر من الرفاهية بعد عديد من التجارب والصعاب، وأن يحاول نسبتها إلى نفسه ولكنه لن ينجح فى ذلك إلا إذا ثبت أنه استطاع أن يغير وجه الاتحاد السوفيتى بعد اشتراكية دامت أربعين عاما، وإذا كانت روسيا عام ١٩١٧ قد عاشت فى إطار الحضارة الغربيةفلن يتصور الاتحاد السوفيتى عام ١٩٦٢ إمكانية تحقيق الرفاهية حسب المعايير الغربية... فى هذا الغرب البورجوازى، ولا يمكن باختصار عند هذه النقطة التنبؤ بأى احتمال وربما تمكن الإتحاد السوفييتى من شق طريق خاص له ويبتكر حلا لن يكون على النمط الأمريكى ولا الأوروبى.. حلا يحقق له النجاح المنشود، ولقد رأى المعلقون الغربيون على وقائع مؤتمر اكتوبر ١٩٦١ نهاية لنظرية الشيوعية الدولية كأنما يتخلى الاتحاد السوفيتى طواعية عن انفراده بالقيادة فى هذا الشأن ويتنازل عن التضحيات التى تورط فيها كى تكرس كل جهودها لتحقيق قفزتها إلى الأمام. وإجمالا فإن الاتحاد السوفيتى يتقبل منذ اليوم وحدة الهدف مع ثنائية القطب (الصين والاتحاد السوفييتى) أو تعدد القطبية أو شيوعية الأوطان حيث يترك لكل وطن تقرير مصيره بنفسه ومجابهة مشاكله الخاصة. ومع ذلك فليس من الفطنة فى المجال السياسى تلك الجسارة الحازمة فى أموركهذه حتى داخل العائلة الشيوعية العريضة وامتثالها لقواعدها الأصولية عادة... وقد تتنافى... وقد تتصارع أو تتشاجر وتغضب ولكن تتصالح فى نهاية المطاف بعضها مع بعض وتستسلم خاضعة للتفاهم والتسوية، فليس العالم الأنجلوساكسونى إذن هو وحده مخترع التصالح والتفاهم والتسوية إلا أن الشكوك بين الاتحاد السوفيتى فى مواجهة الصين ليست وليدة اليوم بل تمتد جذورها عبر قرون من التاريخ وعبر

النزاع الذى شب فى القرن التاسع عشر وصارت روسيا بفضل نتائجه فى مصاف القوى الكبرى التى تقاسمت ثروات الصين ومخلفاتها ومع ذلك تظل شكوك الاتحاد السوفيتى ومخاوفه من الولايات المتحدة الأمريكية أكبر ما يقلق باله.

ويشير واقع الحال إلى ذلك متمثلا فى واقع الحرب الباردةحيث لا يستطيع الاتحاد السوفيتى سواء أرادت الولايات المتحدة أم أبت وللأسباب التى أدت بها وأجبرتها على إنهاء عزلتها عن العالم الاعتصام فى إطار ازدهاره الجديد إذ هو مضطر إلى تكييف سياسته الداخلية لتتواءم وحقائق العالم الخارجى وتوظيفها فى هذا الاتجاه.

وهناك مع ذلك - اليوم - تصنيف جديد يجرى فى عالم الأحزاب الشيوعية المحيطة بالاتحاد السوفيتى كأنها النظام الفلكى حيث تنجذب نحو الشمس كواكب متناثرة مختلفة من كوكب إلى آخر، فهناك على البعد أحزاب شيوعية (وطنية) متورط بعضها فى عداء مع دول الغرب المزدهرة كإيطاليا وفرنسا والبلاد الأنجلوساكسونية كألمانيا الغربية التى لم تحرم قيامها، ثم أحزاب البلاد الأخرى التى تعمل تحت الأرض فى الخفاء، أى فى البلاد الغربية المعادية سياسيا الضعيفه اقتصاديا، كأسبانيا والبرتغال ودول أمريكا اللاتينية، وأخرى لازالت تتحرك فى الحلبة حيث الآمال كلها مباحة.. والبلاد النامية التى يثير إعجابها النظام والتجربة السوفيتية أو الصينية.. وبلاد بعيده أو قريبة مجاورة مع حالة أفضلية مؤقته على جبين البلاد المجاورة لروسيا فى مواجهة الغرب وكانت بمنزلة خط دفاع عن الاتحاد السوفيتى الشاسع مثل: ألمانيا الشرقية وبولندا وهنغاريا وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا وبلغاريا، وهى دول تطورت تطورا كبيرا على الصعيد الاقتصادى والاجتماعى أو فى الطريق إلى تحقيقه وكلها ماعدا بلغاريا تسير بخطى سريعة نحو التصنيع خاصة وأن كلا من تشيكوسلوفاكيا وألمانيا الشرقية بموروث قاعدة صناعية قوية قبل انضوائهما تحت لواء المذهب الشيوعى، وعلى هامش هذه المجموعة من دول (النمور الروسية) تركز على حالة الشيوعية «الشاذة» فى البانيا وتقدم الإشتراكية تقدما باهرا فى يوغوسلافيا. والأوضاع فى كل هذه البلاد أوضاعا معقدة فهى من جهة لا تستطيع الابتعاد عن روسيا، كما لم يكن ميسورا من جهة أخرى تحقيق ما تحقق من انجازات بعض منها ضمان لمستقبلها كالإصلاح الزراعى واختفاء ملكية الأراضى الشاسعة فى بولندا أو هنغاريا

وحركات التصنيع لولا دخولها الشيوعية.. هذا الدخول الحاسم العنيف أحيانا حيث تشير التطورات فى طريقها فى الواقع فى كل بلد منها وفق امكانياتها الإقتصادية وعلاقاتها مع الاتحاد السوفيتى بل مع الشيوعية ذاتها وأخيرا نجد على البعد الصينى الشيوعية المثقلة حجم مشاكلها الزهو بمستقبل بلادها وبماضيها تعتبر اليوم أضخم البلاد النامية فى عالم اليوم لكنها تظل الأقل انصياعا وطاعة للاتحاد السوفيتى بل وأخطر منافس له، بل أكثر منافسيه خطورة ولكن هذه الخريطة التى رسمناها لا تتفق على الأوضاع السياسية فحسب بل تتفق كذلك والأوضاع الاقتصادية وهى أوضاع تتحكم فى المعركة بل تقوم مسبقا بتعديل مساراتها ويجازف اليوم اتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية الشيوعية الذى احتل بفضل جهوده قمة المبدأ الشيوعى منذ وقت طويل بالوصول إلى اعتبار العزلة التى يعرفها المنتصرون.

امبراطورية قدسية
غابات
ميلاد
الإمبراطورية
الروسية

Saint Empire
Forêts
Naissance de l'Empire russe :
1300
1462
1500
1689
0 800 km

OCÉAN ATLANTIQUE
Londres
Bruges
Paris
Brême
Cologne
Mayence
Ratisbonne
Pavie
Prague
CHEVALIERS TEUTONIQUES
Mer Méditerranée
Venise
Cracovie
Rome
Novgorod la Grande
RUSSES
Moscou
Kiev
Boulghar
Constantinople
Mer Noire
Itil
MONGOLS
ARMÉNIE
Mer Caspienne
Mer d'Aral
KHARZEM
Tachkent
Ourgandj
KHORASSAN
Damas
Le Caire
Jérusalem
Bagdad
Merv
Samarkand

حاشية (١٩٦٦)

لازال الاتحاد السوفيتى يتصارع مع مصيره العجيب، كما كان من سقوط خروشوف بسبب تفاقم الصراع مع الشريك الصينى (١٧ أكتوبر ١٩٦٤ ممتد ١٩٦٢ ـ ١٩٦٣ ـ ١٩٦٤) وقد اتخذت بداية الهجوم على الصين شكل الخلافات حول مواقف العقائد يون والألبان وبالتبادل، فإن الهجوم الصينى ضد الاتحاد السوفيتى كان يجرى على حساب يوغوسلافيا والدول المراجعة (بمعنى البلاد التى تعيد النظر فى المبدأ الشيوعى). وفى عام ١٩٦٢ عمقت المشكلة الكوبية من هوة الخلاف فقد بدأ عشية هذه الأزمة التحرك السوفيتى الحاسم تكتيكيا استراتيجيا واتضح النزاع واضحا وعلنيا عام ١٩٦٣ خلال مؤتمرات الأحزاب الشيوعية فى بلغاريا وهنغاريا وإيطاليا وتشيكوسلوفاكيا، ووصف مشروع عقد مؤتمر دولى للشيوعية اقترحته روسيا بأنه مناورة لبذر الشقاق فى الحركة الشيوعية وانكشف عمق الخلاف الناشب غداة وفاة ستالين وجرت محاولة خلال ستة الأشهر الأولى لرأب الصدع وكانت محاولة رديئة إذ يعمد ما وتسى تونج فى ٩ مارس إلى دعوة خروتشوف لزيارة بكين ويرد السوفييت بدعوة وفد صينى لزيارة موسكو ووافقت بكين فى ٩ مايو. غير أن بكين تعلن فى ١٤ يونيه النقاط الخمس والعشرين الممثلة لموقف الصينيين إزاء ما يعتقده السوفيت من تخوفهم من أن الحروب الوطنية التحررية والثورات إنما تؤدى إلى إشعال صراع نووى دولى، حيث اعتبر

الصينيون هذا التخوف لا معنى له وأن الاتحاد السوفيتى لم يعد قادرا على لعب دور قائد الحركة الثورية العالمية ما دام لديه هذا المفهوم الخاطئ عن علاقات القوى فى عالم اليوم، ويدحض هذا المفهوم الإستراتيجى التخوف الوهمى من احتمال استخدام الولايات المتحدة سلاحها النووى... وباختصار كان ذلك يعنى اتهام سياسة التعايش السلمى فيعمد الاتحاد السوفيتى إلى إبعاد مجموعة من الصينيين وهم يوزعون نصوص هذه النقاط الخمس والعشرين فى قلب موسكو حيث تتهم الصين بمحاولة إثارة المواطنين السوفيت ضد حكومتهم، على حين رأت الصين فى عدم النشر ما يثبت رفض الاتحاد السوفيتى اعتبار الخلاف أيديولوجيا ويحوله إلى نزاع بين الدول. ولم تثر أية دهشة عندما فشل الاجتماع الصينى/ السوفيتى الذى عقد فى موسكو من ٥ إلى ٢٠ يوليو فاتهم الصين الاتحاد السوفيتى بالتحالف مع الإمبريالية الرأسمالية إثر الاتفاق بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأمريكية حول وقف التجارب النووية فى موسكو، ويرد السوفييت متهمين الصينيين بالاعتراض على التعايش السلمى، كما وصفه وحدده لينين، ويكشف الصينيون الستار عن قيام الاتحاد السوفيتى عام ١٩٥٩ بدوره بكشف الستار عن اتفاق سرى مبرم عام ١٩٥٧ على معونة لتطوير الأسلحة النووية بما فيها من تسليم أسلحة نووية إلى الصين، على حين يحيط الاتحاد السوفيتى اللثام عن المطامع الصينية الحمقاء ويناشدها بتكريس جهودها فى تنمية بلادها على الصعيد الاقتصادى بدلا من هذه المحاولات العميقة ويصف الاتحاد السوفيتى الرغبة الصينية فى قيادة الحركات الثورية فى أفريقيا وآسيا بأنها ليست سوى ميول ملطخة بمفاهيم عرقية عنصرية. ويستمر الجدل فى عام ١٩٦٤ حول موضوعين رئيسين:

أولهما.. الطموحات الصينية فى الأراضى الإقليمية التابعة لها سواء من جانب الإتحاد السوفيتى أو الهند، كما أشار السوفيت إلى أنهم قدموا الدليل على رغبتهم فى إعادة النظر فى الحدود الصينية/ السوفيتية وكان ذلك فى حديث جرى بين ما وتسى تونج إلى مجموعة من البرلمانيين اليابانيين، ويبدو كأن هذه الرغبة كانت هزيلة فلازالت المشكلة قائمة وخاصة مشكلة الجنسيات (التركستان).

وثانيهما: مشكلة العرقية الصينية حيث ورد ذكرها فى اجتماع اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى فى تقرير سوسلوف (١٤ فبراير ١٩٦٤) ثم فى تصريح جوثوروف فى اليوم التالى لمؤتمر الجزائر وكانت آخر محاولات السوفيت لمواجهة الانفجار المتوقع حين صرح زورين بأن لدى الصينيين أهدافا خاصة لا تتسق مع التحالف الشيوعى ولا سبيل إلى دعمها تلقائيا بالتسليح النووى السوفيتى فى حالة النزاع، ويبدو كأن هذا التصريح قد مهد الطريق للتحركات الأمريكية فى فيتنام الشمالية بعد أحداث خليج توشكين. وكان للنزاع بين الاتحاد السوفيتى والصين أصداؤه فى أوروبا بعد ارتخاء قبضة السوفييت على الدول الدائرة فى فلكه وتخفيف ضغوط نفوذه عليها أمثال: بولندا وهنغاريا ورومانيا وبلغاريا وتشيكوسلوفاكيا، وتحرير إرادة الأحزاب الشيوعية الغربية. ولنتذكر موقف تولياتى (زعيم الحزب الإيطالى القوى) فى ذكرى دى جالنا. وما ينبغى أن تنسينا فرقعات هذه الخلافات الداخلية مظاهر التطور السياسى والاجتماعى والاقتصادى فى الحياة السوفيتية ذاتها، إذ بدأ الحكام يدركون تدريجا نقل القوانين الاقتصادية الطبيعية فوضعوها فى مكانها بما يدل عليه معنى تعديل هياكل إدارة المؤسسات؛ إذ كان على الأخيرة أن تتلاءم مع احتياجات الاستهلاك وخاصة فى التطابق مع أذواق العملاء والبعد عن الاقتصار على معايير الإنتاج المحددة فى الخطط، أما العلاقات السوفيتية/ الأمريكية فهى إن خلت فى إطار التعايش السلمى فقد تجمدت مؤقتا سواء بفضل سياسة الولايات المتحدة فى فيتنام والغارات على فيتنام الشمالية خاصة، أو بسياسة بكين ضد موسكو. وهكذا يبدى الإتحاد السوفيتى اهتماما أكثر تجاه دول أوروبا الغربية والتى معها يمكن أن تتحسن علاقاته ،ومن بين هذه الدول فرنسا لأسباب تاريخية وسياسية حيث تحتل مركزا مرموقا فى سياسة الاتحاد السوفيتى.. وهذا النجاح الذى حققته زيارة الجنرال ديجول إلى الاتحاد السوفيتى فى يونيه ١٩٦٦ لدليل واضح على الاتجاه الجديد فى السياسة الدولية.

الفهرس

الجزء الرابع

الجزء الخامس

الجزء السادس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٨٩٨/١٩٩٩

I.S.B.N 977 - 01 - 6085 - 4